

الجزء الثاني

المدينة على مر العصور

أصلها وتطورها ومستقبلها

تأليف: لويس ممفورد

إشراف ومراجعة وتقديم: إبراهيم نصحى

تصدير: حسين نصّار

ميراث الترجمة

2683



يهدف هذا الكتاب إلى دراسة التحضر الإنساني، بما يعنيه من انتقال الإنسان من الوجود الفردي إلى الوجود الجماعي، فصارت هذه الجماعة فكانت أسرة، أو كبرت قليلاً فصارت قرية، أو وصلت إلى منتهى الاتساع فصارت شعباً في مدينة. وهكذا، يدرس الكتاب عملية استقرار الإنسان بمراحلها وأنواعها وما احتوى عليه ذلك الاستقرار من وسائل حماية ورعاية وترف. بالإضافة إلى العوامل التي دفعته إلى الانتقال من مقر إلى مقر، أو من مرحلة استقرار إلى مرحلة أخرى، وهل استطاع الاستجابة إلى كل تلك العوامل أو تلبية كل ما طمح فيه، إلخ؟

جملة القول إن الكتاب عبارة عن قصة الحضارة الإنسانية بكل ما لها وما عليها، ويتبع منهجاً دقيقاً في العرض يثير الاهتمام ويضع القارئ على الطريق الصحيح.

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن

المدينة على مر العصور

أصلها وتطورها ومستقبلها

(الجزء الثانى)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2683
- المدينة على مر العصور: أصلها وتطورها ومستقبلها (الجزء الثانى)
- لويس ممفورد
- إبراهيم نصحى
- حسين نصار
- 2016

هذه ترجمة كتاب:

The City in History:
Its Origins, Its Transformations, and its Prospects.
By: Lewis Mumford

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

المدينة على مر العصور

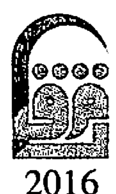
أصلها وتطورها ومستقبلها

(الجزء الثانى)

تأليف : لويس ممفورد

إشراف ومراجعة وتقديم: إبراهيم نصحى

تصدير : حسين نصار



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ممفورد ، لويس ؛ ١٨٩٥
المدينة على مر العصور : أصلها وتطورها ومستقبلها / تأليف
لويس ممفورد ؛ اشراف ومراجعة وتقديم : إبراهيم نصحي ؛
تصدير حسين نصار . (جزء ثانى)
القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٦ .
٦٨٤ صفحة ؛ ٢٤ سم
١ - حضارة ٢ - الاجتماع الحضرى ، علم
(أ) نصحى ، إبراهيم (مشرف ومراجع ومقدم)
(ب) نصار ، حسين (مصدر)
(ج) العنوان : ٣٠١,٢

رقم الإيداع ٤٧٣٨ / ٢٠١٦
الترقيم الدولى 978-977-92-0584-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : لويس ممفورد

مؤلف أمريكى ، ولد سنة ١٨٩٥ وتخرج فى جامعة نيويورك وكولومبيا ؛ أستاذ الدراسات الإنسانية فى جامعة ستانفورد منذ سنة ١٩٤٢ — ٤٤ ، وأستاذ فى جامعة بنسلفانيا ١٩٥٢ — ٥٦ . كان عضوا فى مؤسسات وجمعيات متعددة وله نشاط ملحوظ فى الفن المعمارى وتخطيط المدن ؛ من بين مؤلفاته العديدة Story of Utopias ١٩٢٢ ، Technics & Civilisation ١٩٣٤ ، The Culture of Cities ١٩٣٨ ، City Development ١٩٤٥ ، Art & Technics ١٩٥٢ ، The Transformations of Man ١٩٥٦ .

المشرف على الترجمة : الدكتور إبراهيم نصحى

أستاذ التاريخ القديم بجامعة عين شمس . ولد سنة ١٩٠٧ وتخرج فى جامعة القاهرة وليڤربول ولندن وتخصص فى الآثار اليونانية الرومانية والتاريخ اليونانى الرومانى . أستاذ التاريخ القديم بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٦ وعميد كلية الآداب بجامعة عين شمس ١٩٥٠— ١٩٥٤ ؛ عضو مراسل بالجمعية الأثرية بأثينا منذ سنة ١٩٣٨ ، عضو مراسل جمعية الوثائق الهندية منذ سنة ١٩٥١ ، وعضو لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . له عدة مؤلفات ، منها « الفنون فى عصر البطلمية » (بالإنجليزية) ، و« تاريخ مصر فى عصر البطالمة» (جزءان) ، و«مجمل تاريخ مصر فى عصر البطالمة والرومان » ، و« النظم الدستورية الإغريقية» ،

و « دراسات فى تاريخ مصر فى عصر البطالمة » ، كما أن له عدة بحوث نشرت فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وحوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس :

محتويات الكتاب

الجزء الأول

الجزء الثانى

صفحة

اللــوحات

القسم الأول (بين ص ١٥٢ و ص ١٥٣)

القسم الثانى (بين ص ٣٤٤ و ص ٣٤٥)

القسم الثالث (بين ص ٥٨٤ و ص ٥٨٥)

القسم الرابع (بين ص ٧٩٢ و ص ٧٩٣)

الفصل التاسع

الدين والمجتمع

١ — المدينة السماوية

لم يكد يقبل القرن الخامس حتى كانت دماء الحياة قد أخذت تغيض من أوردة روما المتقطعة وحتى كانت الأيدى التى قبضت يوما على زمام إمبراطورية قد أصبحت عاجزة عن أن تكفل الاحتفاظ بأى جزء منها فى قبضتها . وعندما تراخت الأصابع تساقطت الأجزاء .

بيد أن الموت كان يسير بخطى وئيدة ، ووسط ما أصاب روما من التعفن والانحلال ، أخذت تنبت حياة جديدة على نحو ما تنبت حبوب ملقاة فى القمامة على كوم من خليط الفضلات والسماد . والتصورات الدينية الجديدة التى يسرت قيام هذه الحياة أعطت قيمة إيجابية لألوان الحرمان والفشل التى كانت قد عانتها الشعوب الخاضعة لسلطان روما ، وذلك أنها حولت مرض البدن إلى صحة روحية ، والجوع قسراً إلى الصيام طواعية ، وفقد متاع الحياة الدنيا إلى اتساع فى آفاق الأمل فى النجاة فى الآخرة . وحتى الخطيئة هيأت طريقا إلى النجاة .

والمسيحى بإعراضه عن كل ما كان العالم الوثنى يشتهيه ويجدّ فى سبيله ، خطا الخطوات الأولى نحو تشييد مبنى جديد من الأنقاض . ولقد أنشأت روما المسيحية عاصمة جديدة هى المدينة السماوية ، ورابطة حضرية جديدة هى زمرة القديسين ، فهنا كان يوجد النموذج الأصلى الخفىّ للمدينة الجديدة .

وقد عُزى انتصار المسيحية إلى أسباب عديدة ، ولكن أشدها وضوحا هو أن وجهة النظر المسيحية من حيث توقعها حدوث ضروب الشر الجوهرية

من ذنوب ، وألم ، ومرض وضعف وموت — كانت أقرب إلى حقائق هذه المدنية المتداعية من أي عقيدة قامت على أساس الصور القديمة ، صور « الحياة والرخاء والصحة » . فكل أحداث الحياة فى نظر المسيحى تستمد نشأتها من طريقة مواجهته لألوان الحرمان . إنه فى كل المدنيات السابقة كان البشر يقدمون قربانا لآلهتهم بغير حساب ، فإنه فى المسيحية تمثل إلهها بشرا سويا ورضى بالتضحية لكى يفتدى المذنب ويخلصه مما نجم عن حالته من إحساس بالقلق والإثم .

وكان المسيحى يتقبل ما فى عصره من الحقائق الكريهة بدلا من أن يتهرب منها ، وبإقدامه مختارا على عمل ما كان الوثنى يدأب على تفاديه ، فإنه فى آن واحد جرد القوى التى كانت تهدده من قوة تأثيرها ، وإلى حد ما تغلب عليها ، فكان يعود المريض ، ويواسى الأرملة واليتيم ، ويعوض عن معرات التضور جوعا والمرض والبؤس باتخاذها وسيلة للمودة وإظهار الحب . وبدلا من التشبث بالوجود فى جموع كبيرة طلبا للأمان والطمأنينة ، فإنه كان يرضى بتفرق الناس ويلتمس السلوى فى رابطة أكثر ألفة عندما كان لا يجتمع معا إلا شخصان أو ثلاثة للتسبيح باسم المسيح ، والواقع أن أكثرهم ورعا وتقوى كان يعتزل الناس كلية وينشد العزلة والصمت .

وكل هذه التغييرات النفسانية تركت أثرها خلال الألف السنة التالية فى مدن أوروبا الغربية ، بيد أنه حتى قبل سقوط روما ، وفى الواقع فى خلال القرن الثالث ، كانت الطائفة المسيحية قد بدأت تتوقع أسوأ مصير ، ولذلك فإن أبناءها المهددين بالاضطهاد والمجازر ، شرعوا فى إقامة حياة جديدة لأنفسهم فى المغاور التى تملأ فجواتها تلال روما ، حيث كانوا يحتفلون بدفن إخوانهم فى العقيدة ، وفقاً للطقوس المسيحية ، ونحتوا تحت الأرض معابد ومذابح وكذلك شواهد للقبور . والإحساس الجديد بالأخوة ،

الذى عبرت عنه لأول مرة ديانات الأسرار لدى الإغريق ، وجد الآن تعبيرا أتم وأوفى .

وطوال عهد الإمبراطورية ، كانت المسيحية حركة سرية ، فقد كانت تعتبر إلى سنة ٣١٣ ميلادية ، من ألوان النشاط الهدام ، وعلى ذلك فإنه لم يكن من قبيل المصادفة فى ترير (Trier) ومتز (Metz) أن المسيحيين أقاموا هياكلهم لأول مرة فى الأسوار الرومانية القديمة والحجرات الواقعة تحت الأرض فى « السيرك » . وفى متز كانت أول كنيسة مسيحية تقوم فى داخل المدرج القديم ، وههنا اكلسيا (ecclesia) أو جمعية شعبية من نوع جديد لم يكن المعبد الكلاسيكى ولا الفوروم ذاته خليقاً بأن يهيئ لها شكلا حضرياً ملائماً .

ولم تكن المبانى الرومانية ممقوتة فحسب من الوجهة الروحية، لصورها ورموزها الوثنية ، بل إن الكثير منها أصبح بلا قيمة من حيث أداء وظيفته ، كالمسرح والمجتلد والحمام ، لأنها كانت تتناقض مع أسلوب الحياة المسيحية بأكمله . أما المعابد والقاعات الكبيرة (basilicas) القديمة وقد بنيت لتتسع لعدد كبير من الناس ، فإنها هى وحدها التى حولت بسهولة لإيواء اجتماعات المسيحيين الدينية ، وهكذا فإن معبد أنتونينوس وفاوستينا (Antoninus – Faustina) فى روما أصبح كنيسة القديس لورنزو ، ومجلس الشيوخ أصبح كنيسة القديس أدريانو . وفى القرن الرابع عشر كان ما يقرب من نصف ما فى روما من الألف كنيسة أو تزيد ، لا يزال يدل بأسمائه أو بمبانيه الظاهرة للعيـــان ، على أنه وثنى الأصل ، بيد أن الحمامات لم تعد تستعمل حمامات ولا المجتلدات مجتلدات ، وكان خلوها نذيراً بما أصابها فى النهاية من التهدم والتخريب .

ومن المحقق أن روما لم يصادفها الموت بغتة ، وأن مدن الإمبراطورية لم يحل بها الانهيار وتصبح غير صالحة للسكنى إلا على مهل ، وذلك أن

الغارات البربرية بدأت فى الواقع فى القرن الثالث وظلت مستمرة بشكل ما من حين إلى آخر لمدة تزيد على ألف سنة . وحتى فى القرن العشرين عمد أحد الآثاريين الإيطاليين إلى تعليل المصاعب التى صادفها الجيش الإيطالى فى صد النمساويين والألمان على نهر البياف (Piave) بأن هذه هى الثغرة التى سبق أن تدفق منها القوط والهون قبل ذلك بأمد طويل . والمدن فى واقع الأمر كالأشجار ، فهى متى استقرت ورسخت لا تزول كلية إلا إذا اجتثت من الجذور ، وإلا فإنه ، حتى إذا قطع الجذع ، سوف تنبت فروع حول القاعدة ، كما حدث فى بيت المقدس بعد التدمير الشامل الذى حل به فى سنة ٧٠ ميلادية . وإن ما يسميه لافدان « قانون تشبث المسقط الأفقى بالبقاء » يمكن توسيع مداه إلى « تشبث كل نموذج حضرى بالبقاء » .

وكذلك كان شأن روما والمدن التى استعمرتها أو حكمتها ، فقد انكمش عدد السكان النازلين بها ، وأصبحت وجوه نشاطها محصورة محدودة ، وأصبحت حياتها تتعرض فى اطراد متزايد لغارات لم يعد فى وسعها حماية أنفسها منها ، والطرق الرئيسية ذاتها التى كانت تهيئ لها فى الماضى أسباب الأمان والثروة لم يكن من شأنها الآن إلا تيسير فتوحات الغزاة المتبربرين . وحيال جيش فاتح ، وقنطرة عالية محطمة ، وسلسلة من المحصولات المحلية السيئة ، كان من بقى من السكان يعمدون إلى الاعتصام بالتلال . وكان كل هذا يحمل فى طياته نهاية العمران الحضرى الرومانى ، وتكرار القصة المحزنة التى رواها باوسانياس عندما زار المناطق الصخرية المهجورة فى بلاد الإغريق ، حيث كانت مدنها قد أمست أوعية محطمة . وعندما تدهورت الحياة الحضرية بسبب الافتقار إلى الأيدى العاملة اللازمة للإبقاء على سير الأمور فى مجراها المعتاد ، أخذ التنقيب يدور فى المبانى القديمة بحثا عما تبقى فيها من قطع الأثاث أو المعدات ، على نحو ما تدفع الحاجة

أسرة كانت يوماً موفورة الثروة إلى رهن ممتلكاتها القديمة الواحدة بعد الأخرى . بيد أن مخبأ فى الريف كان يساوى قصراً فى المدينة .

وفى داخل روما ذاتها كان فى وسع المرء أن يتتبع علائم تغير تدور رحاه فى كل مكان ، وكان من أول دلائل مدينة العصور الوسطى ، نقل السوق ، فيما بين القرنين الثامن والثانى عشر ، من الفـــوروم إلى تل كابيتولينوس الذى كان أيسر سبيلا فى الدفاع عنه ، ولقد انتقل مع السوق مركز حكومة المدينة ذاته ، ولذلك فإن هذا المركز الأخير كان قد استقر على ذلك التل الشديد الانحدار زمناً طويلا قبل سنة ١١٤٥ عندما أعيد بناؤه بأكمله تقريباً ، بيد أن العادات القديمة أيضاً ظلت راسخة القدم ؛ إذ أنه ، تبعاً لازدياد عدم اطمئنان الناس على حياتهم ، كانوا يعمدون كذلك إلى سد واجهات الحوانيت بالطوب طلباً للوقاية . ولكن كلا من النوع القديم من الحوانيت ، الذى كان مفتوحاً على مصراعيه على الشارع ، والنوع الجديد منها ، الذى كانت واجهته مسدودة ، ظل موجوداً فى إيطاليا فى العصور الوسطى ، مثلما احتفظت عمائر فلورنسا فى القرن الرابع عشر بشكل الجزر الرومانية . فلا الأسلوب الرومانى فى الحياة ، ولا الأوضاع الرومانية تلاشت كلية ، وهو ما أثبته أكسيل بويثيوس (Axel Boëthius) ، فإلى القرن الخامس كان الجزارون يقبعون فى فوروم نيرفا وتحت البوائك السفلى فى مسرح ماركيلوس (Marcellus) .

وطيلة الخمسمائة السنة الأولى كانت التغيرات فى العرف والعادات والقانون أكثر وضوحاً منها فى المنشآت القائمة ؛ فقد كانت هذه الأخيرة أقل اتساعاً بوجود مبان جديدة منها بزحف الحشائش والأدغال عليها وبتساقط الأحجار ، وتكديس الفضلات وتلويث الطوارات . ولا شك فى أن هذه النتائج بعينها كانت أسرع ظهوراً فى الريف منها فى المدن ؛ وذلك لأنه إذا كانت قطعة مستصلحة من الأرض فى محطة التجارب الزراعية فى

روثامستد (Rothamsted) بانجلترا قد أصبحت غابة كثيفة فى خلال قرن ، فلابد من أن عودة المراعى والغابات كانت تجرى على هذا النحو فى جميع أرجاء أوروبا الغربية ، ولا سيما بعد القرن السابع . وعندما حل القرن الحادى عشر كان تطهير الأراضى يشكل مشكلة خطيرة ، وذلك لأن تصريف مياه المستنقعات ، وقطع أشجار الغابات ، وبناء القناطر كان يستدعى وجود طائفة جديدة من الرواد . وفى هذا الشأن — كما حدث فى غير ذلك من الشئون — تولت القيادة الطوائف المنظمة لرهبان الأديرة .

وإذا أغفل الإنسان الدور الذى قامت به الرهبنة ، فإنه يفقد بذلك ما يهديه إلى سر الوضع الحضرى الجديد ؛ فقد كان لهذا الدور تأثير فعال فى تشكيل هذا الوضع ، ذلك لأن أعمق انسحاب من روما لم يكن ذلك الذى كان ينشده اللاجئون الراغبون فى النجاة بأبدانهم ، بل كان فوق كل شىء انسحاب الأتقياء الراغبين فى إنقاذ أرواحهم . ولم يكن أصحاب النفوس الكبيرة ، الذين كانوا يتزعمون هذا الانسحاب ، يغافلين عن كل ما كانوا يتركونه وراءهم من المزايا والمباهج ، بل كان لدى كل من أوجستين وجيروم من الأمانة والصدق ما جعلهما يعترفان بأنهما — فى أثناء النوم على الأقل — كانا يتعرضان لإغراء وإعنات صور الشهوات الحسية فى روما . بيد أنه فى القرن الثالث كان الانسحاب قد دخل مرحلة جماعية ، فإن جماعات من النساك الذين كانوا يشاركون بعضهم بعضاً فى عزلتهم ويهيئون لأنفسهم نظاماً جديدا للحياة ، تجمعوا زمرا . وقد حدث ذلك فى أول الأمر فى أطراف مدينة كبيرة كالإسكندرية[1] ، فى مواجهة الصحراء ، وبعد ذلك فى جهات نائية على قمم تلال صخرية مثل جبل كاسينو أو جبل أتوس ، أو فيما بعد على جبل

---

(١) إن النساك الذين كونوا لأنفسهم بيئة بالقرب من بحيرة مريوط كانوا من اليهود وليسوا من المسيحيين ، فالرهبنة المسيحية متأخرة عن ذلك فى التاريخ ونشأت فى الوجه القبلى . ومن مصر انتقلت إلى أوروبا عادة التنسك فى الأديرة التى تعتبر أهم خدمة أسدتها المسيحية المصرية للمسيحية الأوروبية .

سيناريو الشامخ بالقرب من فلورنسا (فى سنة ١٢٣٣ ميلادية) حيث أريج أشجار الصنوبر أزكى من أى بخور .

ولقد كان الدير فى الواقع مدينة من نوع جديد ، فقد كان رابطة ، أو بالأحرى أخوة وثيقة بين جماعة من الناس متماثلين فى العقلية ، لم يلتقوا معاً لمجرد إقامة الطقوس الدينية فى بعض المناسبات ، بل للمشاركة الدائمة فى المعيشة لمحاولة إقامة حياة مسيحية على الأرض ينحصر اتجاهها وتفكيرها فى خدمة الله : ولقد أنشأ أوجستين — أسقف هيبو — طائفة من هذا القبيل فى القرن الرابع ، وفى القرن السادس تولى بنديكت من نورسيا (Benedict of Nursia) تشكيلها على النحو الذى قدر له أن يتأثر به كل ما أعقب ذلك من طوائف الرهبان ، إما بالاتصال المباشر ، وإما بالحث والتحدى عن طريق غير مباشر .

وهنا كانت نقطة الارتكاز لنوع جديد من الحضارة الدينية . وقد كانت هذه الحضارة تسعى إلى السمو على ما كان فى الحضارات السابقة من وجوه القصور بنبذ أنظمتها المميزة لها ؛ فقد كانت من حيث المبدأ ، تنكر الملكية والجاه والسلطة . فأولئك الذين ارتضوا الفقر نوعاً للحياة حطوا من قدر الجهاز المادى بأكمله الذى يزود الجسم بما يقوم بأوده ، ورفعوا من شأن العمل بجعله التزاماً أدبيا .

ولقد أصبحت مستعمرة الدير فى الواقع القلعة الجديدة ، أى بمثابة نقطة ارتكاز حالت دون انقلاب الانسحاب إلى هزيمة ، إلا أنها كانت قلعة للروح ، وكان مقرها كنيسة الدير . وليست هذه الموازنة بعيدة عن الصواب ، لأنه إذا كانت الوسائل الدنيوية للمدنية الحضرية قد تشكلت لأول مرة القصر الملكى ، فإن الدير كان المكان الذى انتقيت فيه الأهداف المثالية للمدينة واستبقيت حية وجددت فى النهاية . وهنا أيضاً كان المكان الذى أثبتت فيه القيمة العملية لضبط النفس والنظام والانتظام والأمانة

والتنظيم الداخلى، قبل نقل هذه الصفات فى صورة مخترعات وأساليب للعمل كالساعة ودفتر الحسابات واليوم المنظم ، إلى مدينة العصور الوسطى ، وإلى النظام الرأسمالى الذى قام بعد هذه العصور :

ومهما يكن مبلغ تفاقم الاضطراب فى العالم الخارجى ، فإن الدير أوجد فى داخل أسواره واحة من النظام والهدوء . ولم يخالج أحداً الشك فى أن القيم الأساسية فى حياة تقوم على التعاليم المسيحية كانت تتجسم هناك ، ولو أنه لم يكن يتوافر لدى جميع الناس ما يؤهلهم لأن يعيشوا على مثل هذا المستوى الرفيع من الانصراف والتفرغ ، بل كما تبين فيما بعد ، أن ذلك لم يكن يتوافر حتى لدى النساك أنفسهم الذين أوتوا حظاً من التوفيق أكثر من سواهم . ولقد كانت مظاهر الحياة المسيحية جذابة إلى حد حمل يواكيم الفلوريسى (Joachim of Floris) فى القرن الثانى عشر على أن يتطلع إلى مرحلة ختامية للتطور الإنسانى ، مرحلة الروح القدس ؛ وهى مرحلة يتحد فيها بنو الإنسان فى الدير العالمى كإخوة وأخوات فى الرهبنة . وفى القرن نفسه ، كان الدير فى نظر برنارد من كليرفو (Bernard of Clairvaux) حصناً من حصون الجنة ، بل إنه صاغ التعبير « جنة الدير » .

وعلى ذلك فإن أوثق صلة بين مدينة العصور القديمة ومدينة العصور الوسطى لم تكن تلك التى كونها ما بقى من المبانى والتقاليد ، بل تلك التى كونها الدير ، ففى الدير تم نقل كتب الآداب القديمة من أوراق البردى المتفتتة إلى صفحات الرق المتين . وهنا كانت تستخدم اللغة اللاتينية فى الحديث اليومى فأفلتت بذلك من شىء مما عانته اللغات الإيطالية والإسبانية والفرنسية والرومانية من كثرة تنوع لهجاتها الإقليمية والقروية وشدة اختلاف هذه اللهجات إلى حد استغلاق فهم لهجة فريق على فريق آخر . وهنا فى أديرة البندكتين ، على الأقل ، احتفظ بالأساليب الراقية للزراعة الرومانية والطب

الإغريقى وبما يتناسب مع ذلك من ارتفـــاع فى مستوى الإنتاج والصحة العامة .

ولقد وقعت الكنيسة فى حبائل مسئوليات دنيوية عندما تولى مقاليدها رجال شغلوا بشئون الدنيا ، واستهوتهم الرغبة فى التوفيق بين المسيحية والمعتقدات والأنظمة الوثنية ، كما حدث فى عبادة القديسين . وذلك أنه إزاء الفوضى التى كانت تهدد الأساقفة ، اضطروا إلى مزاولة السلطة السياسية ، بل إلى تولى القيادة العسكرية ، حينما فشلت القوى الأخرى ، فكان الأساقفة ، عندما تولوا حكم المدن ، يجمعون بين وظيفتى الكاهن والحاكم على النمط الرومانى القديم .

بيد أن الأديرة أبقت صورة « المدينة السماوية » حية منتعشة ، وعندما تكونت المجتمعات الحضرية الجديدة بعد القرن العاشر كان الدير فى بادئ الأمر أعمق أثراً من السوق فى حياتها ، فهنا كان يوجد ما يحبه المسيحيون من السلام والنظام ، والهدوء والتأمل النفسانى . ولذا فإن دير وستمنستر وأديرة كلبرفو والقديس دنيس وجبل كاســينو وفولدا ، كانت تسيطر على الحياة الحضرية ، بل حتى على أشكال مبانيها إلى مدى لا يتناسب بحال مع عددها . وهرابانوس (Hrabanus) ، الرئيس الذائع الصيت لديرفولدا ، عندما أشار إلى « الحياة المشتركة » بوصفها من مميزات المدن ، كان يعزو إلى المدينة المهمة الخاصة للدير . والواقع أن الدير ، فى شكله المثالى ، كان مجتمع أرسطو المكون من أفراد متساوين ينشدون أفضل حياة يمكن بلوغها . وقد كانت هذه الحياة المشتركة ميسورة بل جذابة فى الفقر ، فهل ستكون ميسورة كذلك فى الرخاء ؟ .

٣ — الحاجة إلى الحماية

كان لابد للحياة القديمة من أن تمضى فى انحلالها إلى مدى أبعد من ذلك قبل أن يتيسر لحياة جديدة أن تهيئ شكلها فى العصور الوسطى ، ولكن يجب ألا نتصور أن هذا التغيير قد حدث على وجه مفاجئ أو على نسق واحد فى كل مكان .

وما من شك أن الحياة بوجه عام ، أصبحت فى جميع أنحاء أوروبا ، أكثر فجاجة واتساماً بالفوضى . ولقد كان حقاً كذلك أن القوة التكوينية لم تعد « رومانية » حتى من قبل أن تتفكك الإمبراطورية ، فتارة كانت السفن المحملة بالبردى من مصر يستولى عليها القراصنة ، وتارة أخرى كان ينعدم وجود الخدمة البريدية ، أو تارة ثالثة كان يختفى أحد البطارقة الأقدمين ، وهو على وشك أن يصبح أكبر الموظفين المدنيين فى روما ، ثم يظهر فى دير إسبانى بعد أربع سنوات من الصمت . وقد تناقص عدد السكان فى مجموعه بفعل القحط والمرض . ومن المحتمل أن تكون نسبة المواليد قد نقصت ، وإذا كان من المتعذر تحديد مدى ذلك ، فإنه من المحقق أن السكان الباقين فى المدن كانوا أقل عدداً ، وأن المدن القديمة لم تعد كما كانت مراكز للإنتاج والتجارة .

ولدينا صورة عما كان يجرى فى بلاد الغال أكثر وضوحاً منها عما كان يدور فى سواها — وذلك بفضل وفرة الأدلة الأدبية — ولا شك أن المدن التى أفلحت فى تحصين نفسها فى وجه المتبربرين كانت تشغل مساحة تقل كثيراً عما كانت قد امتدت إليه فيما سبق . فمدينة بوردو خفضتها أسوارها إلى ثلث حجمها السابق ، ومدينة أوتن (Autun) — التى أنشأها أغسطس — انكمشت من مدينة تبلغ مساحتها خمسمائة فدان إلى قرية مساحتها خمسة وعشرون فداناً .

بل إن لدينا صورة أوفى من ذلك عما حدث لمدينة نيم (Nîmes) ومدينة آرل (Arles) فى مقاطعة بروفانس ، ففى نيم حوّل القوط الغربيون (Visigoths) المدرج القديم إلى مدينة صغيرة تضم ألفين من السكان وكنيستين ، وبعد إغلاق مداخل المدرج أصبحت جدرانه الفخمة بمثابة متاريس . وعلى الرغم من أن أسوار آرل كان قد أعيد بناؤها على يد تيودوريك (Theodoric) ، فإنها دمرت من جديد فى خلال الصراع بين شارل مارتل والعرب . وعقب ذلك استخدم المدرج كحصن فى آرل أيضاً ، ونشأت فى داخله مدينة صغيرة من مدن العصور الوسطى ، كانت أكثر ازدحاماً من أغلب تلك المدن . ولا تزال تشهد بذلك صورة مطبوعة من القرن السابع عشر ؛ لأن مبانى هذه المنشأة الصغيرة لم تهدم إلا فى أوائل القرن التاسع عشر .

والحضارة المسيحية التى ظهرت وسط هذه الظروف ، لم تتخذ شكلا حضرياً قبل القرن الحادى عشر . بيد أن بذورها كان قد سبق غرسها فى الكنيسة وفى الدير ، فإن المبانى الدينية الباقية تعبر عن حاجات ذلك العصر المضطرب بما فيها من توجيه عناية خاصة إلى الإحاطة ، والوقاية ، والأمان ، وطول البقاء ، والاستمرار . وتشهد بذلك كنائس سان استفانو روتوندو ، والبى ؛ ودرهام .

إلا أنه فيما بين القرنين السادس والحادى عشر — عندما دبت الحياة أخيراً إلى مدن الغرب وأخذت تنمو وتتكاثر — تقع فترة « رومانسكية » ذات مظاهر متناقضة يجب تفهمها . فقد كانت السحب الزاحفة فوق الأفق داكنة مضطربة ، ولكن ومضات من النور كانت تنفذ خلالها من حين إلى حين ، ومثل ذلك القدرة الخلاقة العظيمة للرهبنة فى إيرلندا وبخاصة فى أيونا (Iona) . بيد أن الظلام اشتد وأرخى سدوله من القرن الثامن إلى القرن الحادى عشر ، وحالة العنف والشلل والفزع ، التى اتسمت بها

بداية هذه الفترة ، ازدادت سوءاً من جراء غزوات العرب وقراصنة بحر الشمال (Vikings) ، فكان كل فرد ينشد الأمان . وعندما أصبح من المحتمل أن تكون كل فرصة غصة ، وأن تكون كل لحظة هي آخر لحظات الحياة ، احتلت الحاجة إلى الحماية مكان الصدارة بين مشاغل الناس كافة ، ولم تعد العزلة تكفل الأمان . وإذا كان الدير قد تولى القيادة في الانسحاب ، فإن المدينة تولت القيادة في الهجوم المضاد .

ولم تكن الأساليب القديمة قد اختفت كلية في أي وقت في إيطاليا وفرنسا وإن كانت قد ضعفت وتراخت . وهذا يفسر ما كان في تلك الحياة من التيارات الوثنية الخفية ، وهي تيارات بلغ من عمقها أن اللونين الأسود والأبيض اللذين كانا يستخدمان في تماثيل ڤينوس ، على نحو ما عرفها العالم الروماني ، أعيد استخدامهما فيما بعد في صنع الصور السوداء والبيضاء التي تمثل السيدة مريم العذراء . وإن ما سمي نهضة القرن الثاني عشر ، كان على الأصح استعادة شيء وعيه الكامل — شيء لم يكن قد استبعد أو نُسي كلية على الإطلاق . ألم يستشهد چون السالسبوري John of Salisbury بأفلاطون قبل أن يعود دعاة الأفلاطونية إلى إيطاليا بمئات السنين ؟

وما الكامپو سانتو[1] (Campo Santo) الذي أقيم في بيزا في القرن الثاني عشر إلا مجموعة مبان عامة منفصلة بعضها عن بعض ، وتقوم في الحرم الفسيح الخاص بها ، على مثال أقرب شبهاً إلى الأكروبول أو الفوروم منها إلى سوق العصور الوسطى . وفي الحقيقة أن المهندسين المعماريين ، على حد قول ڤساري (Vasari) ، استمدوا بعض الإلهام من التحف الأثرية والتوابيت الحجرية التي كانت سفن پيزا تأتي بها من الشرق .

---

(١) أحد الأجزاء التي كانت تتكون منها كاتدرائية بيزا .

بيد أن هـــذا الإعجاب بالأعمال الرومانية القديمة لم يكن من نتائج حركة إحياء المعارف القديمة التي جاءت فيما بعد ، بل كان على الأصح بمثابة تجميع تراث حتى سلبته أحداث منكودة أفضل الأمثلة المحلية الدالة عليه . وهل مبنى التعميد (Baptistry) ذاته ليس مستمداً إلى حد ما من الحمام الرومانى ، فهذا المبنى وإن كان حماماً مطهراً سامياً للاغتسال طبقاً للطقوس الدينية إلا أنه كان يعادل الحمام الرومانى فى فخامة الحجم ؟ ولعله ليس من قبل المصادفة أن مبنى التعميد يبلغ درجة فذة من الضخامة ، كمبنى منفصل ، بوجه خاص فى البلاد التى أنتجت أصلا نموذجه الرومانى الدنيوى .

بيد أنه حتى حيث ظلت الحياة القديمة باقية ، شأنها شأن نبات معمر يبدو كأنه قد ذوى بما علاه من السواد بتأثير صقيع الشتاء ، فإنه ليس فى وسع المرء أن ينكر النقص العام فى مدى النشاط والقدرة الخلاقة . فقد كانت الحياة تنحدر نحو مستوى الكفاف ، وكان الفرد ، فى سبيل سلامة بدنه لا أكثر ، يضع نفسه راضيا مسروراً تحت حماية زعيم من المتبربرين . والواقع أنه عندما حاق الانحلال بالمدينة أخذت أجزاؤها الأصلية المختلفة تعود إلى الظهور كل على حدة . وهكذا فإن الزعيم القديم ، ومن حوله عصبته الحربية ، عاد إلى الظهور فى معقله المحصن ، باسطا سلطانه على عدد من القرى . ومن ثم فإن التطورات الحضرية التى لا يستطيع المرء المخاطرة بإبداء الرأى عنها إلا مع التحفظ الشديد ، فيما يتعلق بفلسطين وبلاد ما بين النهرين ، أصبح من الممكن الآن تأييدها بأدلة موجودة فى جميع أنحاء أوروبا .

وإذا كان تطويق العرب للبحر المتوسط قد عجل بالانتقال من النظام الإمبراطورى المتجانس إلى نظام اقتصادى محلى يقوم على الإنتاج والمقايضة ، ويحشوه خليط سقيم من العادات المحلية والتشريعات المتضاربة ،

فإن الضربة الحاسمة قد كالتها غزوات أهل الشمال (Norsemen) من الطرف الآخر لأوروبا فى القرن التاسع ، أجل الضربة الحاسمه والخطوة الأولى نحو النهوض . وكان الغزاة يقومون بهذه الإغارات الهوجاء فى سفن صغيرة كانت تتغلغل إلى قلب البلاد فيما بين بريتانى (Brittany) ونهر الألب (Elbe) ولم يكن لأى إقليم ما يعصمه مما كانوا يقومون به من النهب والحرق والذبح . ولعل خشية التعرض لمثل هذه الغارات قد أوجدت رابطة جديدة قوامها المنفعة فيما بين الزعيم الإقطاعى ورعاياه من الفلاحين . بيد أنها كشفت أيضا عن انحطاط المستوى الفنى لعصابات الحرب المحلية المتفرقة التى كانت تتجمع سيراً على الأقدام لصد هجمات يقوم بها قادة سريعو الحركة ، متمرسون بفنون الملاحة ، ومتخصصون فى الحروب .

ولقد كانت الحاجة وحدها هى التى هدت إلى الكشف من جديد عن ذلك الواقى القديم ، وهي السور ، فحيال الغارات المفاجئة ، كان السور بقيامه بالحراسة المستديمة ، أكثر نفعا من أى قدر من الشجاعة العسكرية : وكان من المستطاع محاكاة قوة ومناعة حصن جاثم على صخرة وعرة المنحدر ، حتى فى الأراضى المنخفضة ، وذلك إذا ما قام أهل قرية بتشييد سور من البناء أو حتى سياج متين من الأخشاب ، ولدينا أدلة باقية عن مثل هذه الأسيجة فى بولندا ، من المحتمل أن إنشاءها يرجع إلى عهد مبكر يبلغ القرن الخامس قبل الميلاد ، ولو أن هناك شكا كبيراً فيما إذا كان الغرض الأساسى منها حجز المواشي والأطفال فى الداخل ، أو صد المغيرين من الخارج . بيد أن سورا ضخما من الأحجار ، ولا سيما إذا كان محوطا بخندق ، كان كفيلا برد المهاجمين .

وفزعاً من المغيرين ، عمد سكان ماينز (Mainz) مثلا إلى إعادة بناء أسوارهم الرومانية المهدمة : وتنفيذاً لأوامر صادرة من الإمبراطور الألمانى هنرى الأول ، أقيمت أسوار حتى حول أديرة الرهبان والراهبات لحمايتهم

من هجوم الوثنيين ، فقد سبق أن دمر أهل الشمال دير سنت أومر (St. Omer) مرتين فى القرن التاسع — فى سنتى ٨٦٠ ، ٨٧٨ — ولكن عند ما عاد هؤلاء القراصنة فى سنة ٨٩١ وجدوا أن الدير قد انتهى إلى إقامة أسوار واستطاع أن يتحداهم . ولقد بلغ حقيقة من نجاح هذه الوسيلة المجددة لكفالة الأمان أنه عند ما أقبل القرن العاشر كان دير سنت أومر قد تحول إلى مدينة .

وفى وقت مبكر يرجع إلى سنة ٩١٣ ، تروى « حوليات الانجلوسكسون » (Anglo-Saxon Chronicle) بالإضافة إلى ذلك ، أن بناء الحصون والأسوار حول مراكز الاستقرار كان أحد وجوه النشاط الرئيسية لجيش الملك . وفى هذا أيضاً دليل آخر ، إن كان ثمة حاجة إلى ذلك ، على الدور الذى قام به الملوك فى بناء المدن بفضل مقدرتهم على حشد المزيد من الأيدى العاملة . بل إن « الحوليات » تحدثنا بأنه فى وقت أقدم عهداً يرجع إلى سنة ٨٨٥ ، كانت مدينة روتشستر (Rochester) محوطة بالأسوار ، وبأن مواطنيها نجحوا فى الدفاع عنها ، على حين أنه بعد ذلك بسنة تولى الملك الفريد بنفسه تحصين مدينة لندن . وقد أصبح أداء الخدمة العسكرية واجباً على كل مواطن ، بل لعله ، كما أبدى فردريك وليم ميتلاند ، كانت المقدرة على التزود بجيش دائم والقيام بترميم الأسوار حول مدينة ما ، من بين المؤهلات اللازمة لحصول المدينة على حقوق البلديات ؟

ولم يكن سياج الأسوار يهىء حماية فحسب من الغزو الخارجى ، بل كانت له مهمة سياسية جديدة ، فقد أثبت أنه أداة ذات حدين . وذلك أنه بتبديل سُنّة المدينة القديمة كان فى الاستطاعة استخدام السور لصيانة الحرية فى الداخل . وبفضل السور كان يتسنى لمدينة صغيرة أن تغدو معقلا ، بعد أن كانت يوماً عديمة الحيلة حتى أمام قوة مسلحة صغيرة . وقد كان الناس يتوافدون زرافات إلى مثل هذه المراكز المباركة التى كان الأمان

يتوافر فيها ، بعد أن كانوا فى الأصل يخضعون بدافع من اليأس إلى إقطاعيين تحت إمرتهم عصابات مسلحة ، ويصبحون فى عداد أتباعهم وأقنانهم ، لقاء الحصول على الأمان وعلى قطعة من الأرض ، أوكانوا يتخلون عن كل أمل فى السعادة المنزلية وينشدون مأوى عقيما فى دير للرجال أو النساء .

وعندما أقيم السور وجد الأمان فى ظل كثرة العدد ، فالحياة فى عزلة الريف ، ولو فى كنف قلعة مجاورة ، لم يعد لها من الجاذبية ما كان للحياة فى مدينة آهلة بالسكان . وكان العمل فى بناء السور ذاته ثمناً رخيصاً يؤديه الفرد للحصول على مثل هذا الاطمئنان والانتظام فى التجارة والعمل . وعلى الرغم من أن الحق فى إقامة الأسوار ظل امتيازاً ملكياً — وهو أمر له دلالته — فإن صلح كونستانس فى سنة ١١٨٤ أعطى هذا الحق للمدن الحرة فى إيطاليا .

ولنتأمل تتابع الحوادث ، ففى أول الأمر كانت الحياة فى الريف ، وقد استبد بها الخوف ، تقوم على الإنتاج المحلى والمقايضات المحلية على الأغلب ، وكانت الأديرة والمزارع الملكية هى وحدها التى تتبادل ما لديها من نبيذ وحبوب وزيت عبر مسافات بعيدة . وكان ما يرد من التجارة إلى مدينة ما غير منتظم ولا يمكن التعويل عليه . ولكن ما إن كان يبنى سور حول مدينة ما حتى كانت تظهر سمات عادية أخرى للحياة الحضرية ، وذلك أنه بعودة الوعاء إلى الوجود كان يغدو كذلك قطباً مغناطيسيا . وكثيراً ما كان امتداد السور من القلعة أو الدير إلى القرية المجاورة أمارة على بدء التكوين المادى للمدينة ، ولو أنه لم يكن يتسنى لها الحصول على الحقوق القانونية الكاملة لتصبح لها أهلية البلدية العاملة إلا بعد مساومة شاقة مع الأسقف أو المالك الإقطاعى الذى كانت الأرض فى حوزته .

وإن أعظم امتياز اقتصادى — وهو الحق فى إقامة سوق منتظم مرة فى كل أسبوع يجمع المتجاورين من الفلاحين والصيادين وأرباب الحرف لتبادل ما لديهم — كان يعتمد فى آن واحد على توفير الأمان بالوسائل

المادية والحماية القانونية ، ولذا فإنه على نحو ما كان يحدث فى بلاد الإغريق قديماً كان من يذهبون إلى السوق يتمتعون فى خلال ساعات البيع والشراء « بحماية سلام السوق » ، وكان يرمز له عندئذ بالصليب الخاص بساحة السوق : وهنا حصلت طبقة جديدة على الحماية من السرقة ومن دفع إتاوة تعسفية ، فأخذت تستقر بصفة مستديمة خارج الأسوار مباشرة فى مبدأ الأمر ، ونعنى بها طبقة التجار . وعندما أصبحوا أعضاء مستديمين فى هيئة مواطنى المدينة ، بدأ عهد جديد ساعد على إعادة فتح الطرق العامة البرية والمائية القديمة .

وأما أن التجار كانوا يمثلون طبقة جديدة ، فإنه يمكن استنتاج ذلك من موقع مكانهم فى الضاحية التى استحدث تخطيطها خارج الأسوار مباشرة . وإذا كانت القلعة أو الدير مركز المدينة فى البداية ، فإنه بعد القرن الحادى عشر أخذت وجوه النشاط الجديدة للمجتمع تنتقل تجاه ساحة السوق ، وقد كانت أمارة إدماج التجار وأرباب الحرف فى عداد المواطنين الأحرار ، كانت أمارة ذلك فى أكثر من مكان واحد مد نطاق السور حول ضاحيتهم . ومما له دلالته أن نلاحظ ، كما لاحظ هيجل (Hegel) أن الحى الجديد فى مدينة ريجنزبرج (Regensburg) فى القرن الحادى عشر على نقيض الحىّ الملكى وحىّ الكنيسة ـ كان حى التجار :

وفى مدينة القرون الوسطى حققت هذه القوى الروحية والزمنية عن طريق طوائفها المهنية ــ وكانت تشمل المحارب والتاجر والقسيس والراهب والشاعر والعالم والصانع والتاجر ـ حققت نوعاً من التوازن . ولقد ظل هذا التوازن واهناً غير ثابت ، بيد أن الجهود التى بذلت للمحافظة عليه كانت مستديمة ، كما كانت النتيجة ملموسة ؛ إذ أن كل عنصر تكون منه المجتمع كان يقام له وزن ويمثل كما يجب . وإلى نهاية العصور الوسطى ــ وهذا حقاً من أمارات النهاية ــ لم يكن أى عنصر قد بلغ من القوة

ما يهيئ له أن يقيم على وجه دائم سيطرته على كل العناصر الأخرى . وقد كانت نتيجة ذلك من الناحيتين المادية والسياسية أن مدينة العصور الوسطى — ولو أنها أعادت كثيراً من مظاهر أقدم الأنظمة الحضرية — كانت من بعض الوجوه منشأة أصيلة . وإذا كانت الحرية ، والمساواة فى الحقوق العامة ، والمشاركة الديمقراطية ، والحكم الذاتى ، لم تتحقق على الإطلاق تحقيقاً كاملا فى أى مدينة من مدن العصور الوسطى ، فلعله كان يوجد فيها من هـذه الصفات قسط أكبر مما عرف فى أى وقت من قبل ، حتى فى بلاد الإغريق ، ولفترة وجيزة انتصر الإخاء على السيطرة .

وإن ما جرت به العادة من منح الحرية للمدن فيما بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر كان فى الواقع تخليا من جانب سادة القلعة عن ذات ضروب الجزية والاغتصاب التى كانت أصلا سببا فى ظهور المدينة إلى الوجود . وعلى الرغم من أن الحصن كثيراً ما كان يطل على المدينة بشكله المخيف مهدداً إياها باستئناف مباشرة امتيازاته الأصلية ، فإن السيادة الإقطاعية اتخذت مكانها فى المدن الحرة بوصفها مجرد وحدة أخرى شبه بلدية — لها الصدارة بين وحدات متساوية فى المرتبة — ولو أنه بعد ذلك ببضعة قرون ، نتيجة لقيام سلطات مركزية مستبدة ، استعاد الأمراء الامتيازات التى كانوا قد فقدوها ، بل إنهم زادوها زيادة عظيمة . ويمكن تبين المدى التام لما كان عساه أن يبلغه التخلى الأصلى ، من قرار منح مدينة برشلونة الحرية ، فإن الملك رسم فيه بأنه لا يجوز لأى جامع مكوس ولا محصل ضرائب ، ولا أى موظف آخر أن يعرقل أو يعوق تنقلات أى فرد من المواطنين ، أو من موظفيهم أو رسلهم ، ولا بضائعهم أو سلعهم التجارية .

وهذه الحركة الحضرية — التى نجمت عما كان فى أوروبا الرومانسكية من عدم الأمان والاضطراب — لم تسر على نسق واحد ، فقد تولتها قيادات متعددة ، ونشأت عن ظروف مختلفة ، وأدت إلى نتائج متباينة .

وفى بعض الأحيان كانت حركة العمران الحضرى يشجعها عن قصد أمراء الإقطاع ؛ طلبا لزيادة دخلهم من وراء الانتفاع بإيجار الأرض التى تشغلها المدينة ، وبأخذ نصيب من المكوس التى تدفع فى السوق المحلى ، وبالاستفادة من وجود عدد كبير من المستهلكين لزيادة قيمة منتجات مزارعهم الخاصة التى لم يوجد سبيل إلى استهلاكها فى مكان إنتاجها . وكثيراً ما كانت مطالبة المدن بالاستقلال تلقى معارضة من أرباب الأملاك الإقطاعيين ، وبخاصة من الأساقفة ، وقد كانوا أشد بأساً من الزعماء الحربيين ؛ إذ كانوا يمثلون نظاما مترامى الأطراف يسيطر على موارد مادية وروحية من نوع غير مألوف . وفى بعض البلاد ، مثل إنجلترا وفرنسا ، كان حصول المدن على الحقوق البلدية يستمد العون من تحالف وقتى بين المدن والسلطة المركزية ، بوصف ذلك وسيلة لإضعاف النبلاء الإقطاعيين الذين كانوا يتحدون سلطان الملك . ولكن سواء فى حالتى التأييد أم المعارضة ، فإن السكان كانوا يتدفقون على هذه المراكز المحمية ويقومون ببنائها وإعادة بنائها وينهضون بالنواحى المهملة فى حياتهم إلى مستوى جديد من النشاط والإنتاج . وفى مدى بضعة قرون استعادت مدن أوروبا كثيراً مما كانت قد فقدته فى أثناء انحلال الإمبراطورية الرومانية .

٣ — زيادة السكان والثروة

كثيراً ما يعتبر انتعاش التجارة — حتى فى نظر علماء ممتازين مثل بيرين (Pirenne) — السبب المباشر لما تم فى القرن الحادى عشر من بناء المدن وضروب النشاط التى أدت إلى انتشار المدنية ، بيد أنه قبل أن يتسنى انتعاش التجارة ، كان لا بد من وجود فائض فى المنتجات الريفية وفائض فى السكان ، حتى تتوافر فى آن واحد السلع للتجارة والعملاء لشرائها . فلو أن التجار كانوا أغلب النازلين بالمدن الجديدة ، لكان من شأن ذلك أن تقتصر حركة التعامل عليهم وحدهم .

وتبعاً لازدياد استجابة الشعوب المتبربرة فى شمال ووسط أوروبا إلى المسيحية — ولعله قد أغراهم بذلك ما فيها من باهر الأساطير والمعتقدات الخرافية أكثر منه ما فيها من إدراك عميق لحالة البشر — اتسع نطاق الدور الذى كانت الكنيسة تقوم به . وكانت الحماية التى يمنحها الأساقفة تنافس تلك التى كان يمنحها النبلاء الإقطاعيون ، كما أن ازدياد ما كان للكنيسة من قوة اقتصادية — بوصفها مالكة للأرض التى فى حوزتها ، عن طريق الشراء أو الهبات الدينية — أكسب الكنيسة مكانة اضطر الملوك أنفسهم إلى احترامها . ولقد قامت طوائف الرهبان بدور الرواد فى الإفادة إلى أقصى مدى مما كانت هذه الظروف تنطوى عليه من ألوان الشقاء ومن الفرص ، والواقع أنهم تولوا قيادة حركة التقدم الحضرى بأكملها ؛ إذ كانوا يوفرون ملاذا للاجئين ، ومأوى مضيافا للمسافر المنهوك القوى ، ويشيدون القناطر ويقيمون الأسواق . وفى تاريخ مبكر سُمى دير النساء فى جرنرود (Gernrode) بألمانيا ديرا وقلعة (Kloster und Burg) ، وما أكثر عدد الأديرة الأخرى التى قامت كذلك بدور مزدوج بوصفها أماكن يلوذ الناس بحمايتها .

ولحسن الحظ أن إقامة سوق منتظم فى مكان مأمون عادت بالفائدة على الأمير الإقطاعى أو الدير مالك الأرض . وقبل انتعاش التجارة انتعاشاً عظيما فى القرن الحادى عشر بزمن طويل ، نجد أنه فى عهد أوتو الثانى (٩٧٣ — ٩٨٣) رخص للأرملة إيما (Imma) ، وكانت تقوم بإنشاء دير فى كيرنتن (Kärnten) ، بإقامة سوق ودار لسك النقود ، وبأن تجبى ضرائب عنهما ، وهى شروط مطابقة لما كان يرد بعد ذلك بأمد طويل فى المراسيم الخاصة بالمدن الجديدة . ويلاحظ هيجل ، علاوة على ذلك ، أنه فى عهد أوتو كانت أغلب امتيازات الأسواق تمنح لأصحاب الأملاك من رجال الدين ، فقد كانوا يُفضلون على النبلاء الدنيويين .

وفى لومبارديا ، حيثما كانت توجد مدن قائمة من قبل ، كانت كل أملاك البلديات القديمة ومتعلقاتها ، وكذلك حقوق الحكم والقضاء ، تنقل بصفة آلية إلى الأسقفية ، وكان أسقفها يباشر فعلا السلطات القديمة لمدير البلدية ، وقد تمت مثل هذه المنحة فى مودينا فى سنة ٨٩٢ وفى برجامو فى سنة ٩٠٤ . وإن الكنيسة التى كانت لها الأولوية فى توفير الأمان والنظام ، لم تقبل إلا على مضض أن تنزل بدورها عن مهامها البلدية إلى نقابات التجار وأرباب الحرف .

ولم يكن فى وسع أحد الإخلال بسلام السوق دون التعرض للعقاب الشديد ، فلقد اعترف بأن السلام جوهرى للتجارة ، وذلك منذ أمد بعيد يرجع إلى عصر هومر ، بل ربما كان يرجع فى الواقع إلى ما قبل ذلك بزمن طويل . وفى البلاد الواقعة تحت حكم ملكى ، ظهر إلى الوجود قانون خاص بالسوق كان يطبق على المعارض والأسواق ، وظهرت مع القانون محكمة خاصة كان اختصاصها يتناول التجار . وفى إنجلترا كان يطلق على هذه المحكمة اسم محكمة « مسحوق الفطائر » (Court of Pie Powder) — وهو التعبير الإنجليزى للاصطلاح النورمندى « أقدام يعلوها الغبار » . وهكذا فإن مختلف أنواع الأمان التى كان يوفرها الدين ، والتشريع والمعاملات الاقتصادية العادية — إذ أن كل ذلك لم يكن أقل شأناً من الهندسة المعمارية فى توفير الأمان — تكاتفت جميعاً فى إنشاء مدن العصور الوسطى .

ولكن فلنلاحظ أن السوق المنتظم ، الذى كان يقام مرة ، وفى بعض الأحيان مرتين أسبوعياً تحت حماية الأسقف أو رئيس الدير ، كان أداة فى الحياة المحلية وليس فى التجارة الدولية . وعلى ذلك فليس ثمة ما يدعو إلى العجب من أنه فى سنة ٨٣٣ ، عندما كان أغلب التجارة بين بلاد بعيدة عن بعضها بعضاً ما زال معطلا ، منح لويس الورع (Lewis the Pious)

فى ألمانيا ترخيصاً إلى أحد الأديرة لإقامة دار لسك النقود من أجل سوق كان موجوداً من قبل . ومن ثم فإن انتعاش التجارة فى القرن الحادى عشر لم يكن الحادث الحاسم الذى وضع الأسس لقيام مدينة من طراز جديد فى العصور الوسطى ، وقد أوضحت آنفاً أن كثيراً من المدن الجديدة أنشئت قبل حدوث هذا الانتعاش ، ومن الميسور إضافة المزيد من الأدلة على ذلك . وقد كان النشاط التجارى على الأصح مظهراً لانتعاش أكثر اشتمالا كان يسرى فى الحضارة الغربية ، وكان ذلك دليلا جزئيا على الإحساس الجديد بالأمان الذى كانت ذات المدينة المطوقة بالأسوار قد ساعدت على إيجاده .

وإذا كانت التجارة أحد مظاهر ذلك الانتعاش ؛ فقد كان التوحيد السياسى لنورماندیا والفلاندر واكويتانيا وبراندنبرج مظهراً آخر ، كما أن ما قامت به طوائف الرهبان من استصلاح الأراضى وإزالة الغابات كان مظهراً ثالثا . ويجب أن يعد مظهراً رابعا ذلك البرنامج الضخم للبناء الذى خلع على أوروبا « رداء أبيض من الكنائس » . فالمبانى ليست من السلع التجارية . والمبالغة فى التنويه بالدور الذى قام به السوق فى إنشاء المدن إنما ترجع من ناحية إلى أن المؤرخين فروا أحداث الماضى بعوامل ودوافع العصر الحاضر ، كما ترجع من ناحية أخرى إلى عجزهم عن التفرقة بين مختلف الأدوار التى تقوم بها الأسواق المحلية والإقليمية والدولية . ولقد أساء « بيرين » فهم هذا التطور بأكمله ، لأنه أبى أن يطلق لقب مدينة على أى مجتمع حضرى كان لا يعنى بالاتجار مع جهات نائية ويضم عدداً كبيراً من أبناء الطبقة المتوسطة المشتغلين بالتجارة — وهو تعريف جد تعسفى .

إن الأسواق الدولية قليلة الأثر فى إنشاء المدن ، وكثيراً ما أقيمت الأسواق الكبرى الدولية فى العصور الوسطى فى مناسبة عيد دينى ، عندما كان الحجاج يتوافدون من جهات عديدة فى أنحاء البلاد على مزار مقدس ؛

فقد كان من شأن تجمع الحجاج أن يجتذب مؤقتا التجار المتجولين إلى مثل هذا المكان ، ولكن أمثال هذه الأسواق كانت لا تقام إلا أربع مرات على الأكثر طوال العام . وعندما كان الحجاج يرحلون كان التجار كذلك يرحلون . ومثل هذه التجارة الدولية كانت أضيق نطاقا من أن تعين على استمرار الحياة فى مدينة ما على مدار السنة بأكملها ، والواقع أننا نعلم من المثال المتأخر الذى نستمده من مدينة « نيجنى نوفجورود » (Nizhni Novgorod) أن المدينة التى كانت تنبت فجأة حول السوق كان مصيرها أن تصبح مهجورة تقريباً فى باقى السنة . ومن ثم فإن التجارة الدولية لم تكن سبباً فى نشأة مدن العصور الوسطى ، إلا أنها ساعدت على نموها ، كما حدث فى البندقية وجنوة وميلان وآراس وبروج (Bruges) ، بعد أن كانت قد أنشئت لأغراض أخرى .

وعلى العموم فإن السبب فى أن الدور الذى قام به التاجر فى نشأة المدن كان دوراً ثانويا يجب أن يكون واضحا ، وهو أن انتعاش التجارة على أسس رأسمالية كان مقصوراً على سلع الترف المجلوبة من جميع أنحاء أوروبا ، بل حتى من الشرق ، بعد الحروب الصليبية . بيد أن المدينة ذاتها كانت مكان التعامل فى المنتجات المحلية للزراعة والصناعات اليدوية ، ولذلك فإنه حتى فى عهد متأخر عن القرن الحادى عشر كان التجار وأتباعهم لا يؤلفون إلا جزءاً يسيرا من سكان المدينة ، طبقا لما يقوله چورج فون بيلوف Georg von Below . ومهما يبلغ من الأهمية التى أصبحت للتجارة ، فإن المنتجين فى مدينة العصور الوسطى هم الذين كانت تتألف منهم أربعة أخماس السكان بالقياس إلى ما لعله يبلغ الخمس أو أقل فى مدينة الوقت الحاضر .

وما من شك فى أن مدناً مثل شارتر (Chartres) ، بسكانها البالغين عشرة آلاف نسمة وكاتدرائيتها الشهيرة كانت توفر من أسباب تيسير أمور الحياة ما كان يجذب إليها الحجاج والتجار فى آن واحد ، وبذلك اكتسبت

مكانة تقارب مكانة سوق دولية . وكانت الأرباح الإضافية التي تنشأ عن مثل هذه الغارة المؤقتة – كما يحدث في حالة انعقاد اجتماع لهيئة كبيرة أو مؤتمر في مدينة حديثة – يفيد منها الجزارون والخبازون وتجار المشروبات الروحية مثلما كان يفيد صناع القمصان المقدسة ، مما مكن نقابات هذه الحرف – كما يذكرنا فون سمسون (Von Simson) – من تقديم النوافذ الخمس العظيمة في المقصورة التي أقيمت في الكاتدرائية إجلالا للسيدة العذراء .

فالحقيقة إذن تناقض تماماً تفسير بيرين ، وذلك أن نهضة المدينة المحمية كانت هي التي ساعدت على إعادة فتح طرق التجارة الإقليمية والدولية ، وأدت إلى تداول الفائض من السلع عبر أوروبا ، وخاصة تلك الأنواع من سلع الترف التي كان يتسنى بيعها بأرباح عالية إلى الأمراء والعظماء ، أو تلك الأصناف التي كان يشح وجودها محلياً إلى حد يرفع من قيمة ثمنها ، كالصوف الممتاز من إنجلترا ، والنبيذ من حوض الرين ، والتوابل وأنواع الحرير من الشرق ، والدروع من لمبارديا ، والزعفران والزئبق من إسبانيا ، والجلود من بومرانيا ، والأقمشة الأنيقة من الفلاندر ، ولم تكن أقل من هذا شأناً الأيقونات الدينية ومتعلقات العبادة من مختلف مراكز الفنون .

وكانت تتألف من المدن نقط ارتكاز في طريق سير هذه السلع ، من بيزنطة إلى البندقية ، ومن البندقية إلى أوجسبرج ، ومن ثم عبر الدين ، وكذلك الشأن أيضاً من مرسيليا وبوردو إلى ليون وباريس ، أو من مدن البحر البلطي مثل دانتزيج وسترالسند (Stralsund) صوب الجنوب حتى البحر المتوسط . وإن الكعك (marzipan) الذي اشتهرت به مدينة لوبيك ليدل في آن واحد بالاسم الذي عرف به « خبز القديس مرقص » ، وبتركيبه من « اللوز وماء الورد » على صلة هذه المدينة بالبندقية وبلاد الشرق . وبمرور السلع على هذا النحو ، فإن المدن التي أنشئت في بادئ الأمر على أساس من الإنتاج المحلي ازدادت في عدد السكان وفي الثروة ، وبطبيعة الحال صاحب ذلك ازدياد عدد السكان من التجار .

وعندما أصبح ما فى متناول اليد من الطعام أكثر وفرة ، وعندما أصبحت مراكز الاستقرار الحضرى أكثر أماناً ، فإن التجارة حفزت إلى نمو المدن عن طريق آخر كذلك ، وبيان ذلك أنه كان لا بد من دفع ثمن سلع الترف الأجنبية نقداً ، وتبعاً لازدياد الطلب على أدوات الأناقة والزينة ، وتبعاً كذلك لازدياد الحاجة إلى المال لتجهيز معدات جند الإقطاع وبخاصة للفرسان أنفسهم بدروعهم الباهظة الثمن ، فإن أمراء الإقطاع كان لديهم حافز خاص يدفعهم إلى تحويل ممتلكاتهم من الأراضى الريفية إلى مناطق حضرية كانت تدر عليهم من الإيجار دخلا نقدياً أوفر قدراً بكثير. ومن الجائز أن إمداد نشاط الرأسمالية بالمال لم يكن مقصوراً على الإيجارات الحضرية ، إلا أنه من المحقق أن نشاط الرأسمالية هو الذى أيقظ الرغبة فى الحصول على الإيجارات الحضرية ، وعندما نبت مثل هذا النشاط بعد الحروب الصليبية — إذ أنه بدأ يظهر فى أواخر القرن الحادى عشر — حرك الشهية نحو سلع الترف الشرقية ، وهى التى كانت إلى ذلك الحين تكاد تكون غير معروفة فى اقتصـــاد يقوم إلى حد كبير على نظام الضيعة (manorial economy) .

ولقد حملت هذه الحاجة مالك الأرض الإقطاعى على اتخاذ موقف مزدوج إزاء المدينة . وذلك أنه عندما لم تعد القوة تتمثل فى ذهنه على نحو عسكرى بحت ؛ أغرته نفسه بالتخلص من قسط يسير من سيطرته على أتباعه ومستأجرى أرضه ، بوصفهم أفراداً لكى يحصل منهم بوصفهم جماعة مسئولة على مبالغ نقدية وأجور حضرية ، وهى مطالب لم يكن القن الفقير المرتبط بالأرض ليقوى على الوفاء بها . ولقد كان هذا حافزاً ثانوياً هاماً إلى إنشاء مدن جديدة ومنح امتيازات جديدة للمراكز التى كانت آخذة فى الانبثاق من قرى بسيطة لمجرد ازدياد عدد السكان . وأما عزوف الأساقفة نسبياً عن منح حريات حضرية ، فإنه يمكن تفسيره بأنه كان نتيجة لما كان لديهم من دخل وفير دون الحاجة إلى التخلى عن أرض أو سيطرة سياسية .

ومع ذلك فإن الرأسمالية ذاتها قد أثبتت فى أول عهدها أنها عامل هدام أكثر منها قوة بناءة فى حياة مدينة العصور الوسطى ، لأن الرأسمالية عجلت بالانتقال من النظام الاقتصادى المغلق القديم – وكان يقوم على أساس الوظيفة والمكانة ويستهدف الطمأنينة ، ويتسم بطابع خلقى مستمد إلى حد ما من قواعد الدين والمراعاة الدقيقة للروابط والواجبات العائلية – إلى نظام اقتصادى تجارى جديد يقوم على الإقدام الفردى الذى تحفزه الرغبة فى كسب المال ، والتاريخ الاقتصادى لمدينة العصور الوسطى إنما هو إلى حد كبير عبارة عن قصة انتقال القوة من جماعة من المنتجين المشمولين بالحماية الذين كانوا يتكسبون ما يقوم بأود معيشة متواضعة ويحققون حالة من المساواة النسبية ، إلى جماعة صغيرة من تجار الجملة الذين كانوا يتمتعون بوضع ممتاز ، ويتألقون من أصدقاء الأمراء ومنافسيهم ، ويتعاملون على نطاق واسع – وكثيراً ما كان ذلك عبر مسافات طويلة – سعيا وراء الأرباح الطائلة . ولقد اقترن بهذا الانتقال إنشاء تنظيم جديد للطبقات كانت المرتبة والمكانة فيه تتوقفان أساسا على المال ، وعلى القوة التى يستطيع المال الهيمنة عليها .

وموقف الحماية والخضوع الذى كان يمثل أصدق تمثيل حالة الرفيع والوضيع فى ظل النظام الإقطاعى قد تحول بدوره إلى نزع الملكية من جانب وإلى ثورة عارمة وضروب من التحدى من الجانب الآخر ، أى بالاختصار تحول إلى حرب الطبقات التى لم يكن أحد يتوقع ولا يلقى رحمة فيها – بالضبط على النحو المثالى الذى كان خليقا بأن يرضى كارل ماركس .

ولمدة فترة ، لعلها بلغت قرنين أو ثلاثة قرون ، امتزج النظامان فى المدن ذاتها ، مما أدى فى بعض الأحيان إلى نتائج وخيمة على حياتها الاقتصادية ، كما حدث فى الفلاندر فى سنة ١٣٣٦ عندما أمر لويس دو نيفير (Louis de Nevers) – من باب الولاء لمولاه ملك فرنسا – بإلقاء القبض على ممثلى إنجلترا ، فقابل الإنجليز ذلك باتخاذ إجراء مماثل من

جانبهم ، مما قضى على تجارة الأقمشة التى كانت تزوده بدخله . وعلاوة على ذلك فإن هذا العمل أثار ثائرة نقابات « غنت » بزعامة جاك أرتفيلد (Jacques Artevelde) . بيد أنه فى النهاية كانت السيادة للمال فى كل مكان حيال أنظمة الحماية الإقطاعية والنقابية فى آن واحد ، وذلك لأن المال كان قادراً على التحرك والتركز والتضاعف ، أما القوة فى الأوضاع الأخرى فكانت ثابتة مقيدة ويتعذر جمعها ، فحتى أشد الملوك بأسا وقوة كانوا فى قبضة قادة المال الذين كانوا لا ينفكون يشددونها .

وهذا التغيير من نظام اقتصادى يقوم على الحماية المتبادلة إلى نظام يقوم على الاستغلال الرأسمالى من جانب واحد ، لم يتريث حتى ظهور حركة البروتستانتية فى القرن السادس عشر ، على نحو ما جعل ماكس فيبر (Max Weber) ، لسوء الحظ ، الكثيرين من الناس يعتقدونه ، لأن حركة البروتستانتية ذاتها كانت ، على النقيض من ذلك ؛ قد بدأها الوالدنسس (Waldensians)[1] — انظر كتاب « حالة الإنسان »[2] — بمثابة احتجاج مسيحى ضد الأساليب الجديدة للرأسمالية . ولقد كان نظام الاقتصاد الرأسمالى باديا بجلاء فوق الأفق عندما نظم تشوسر (Chaucer) قصيدته التى تفيض حنينا وإشادة « بالعصر السابق » ، عندما لم يكن هناك ربح ولا ثراء . والمدينة ذات الأسوار ، بتهيئتها العش الذى تيسر لطائر الرأسمالية الوقواق أن يضع بيضه فيه ، مهدت السبيل لكى يجد أبناؤها أنفسهم وقد زاحمهم حتى أجلاهم عن مكانهم فيها ذلك الوافد الجديد الصاخب الذى أفسحت له صدرها .

وفيما وراء انتعاش الصناعة والتجارة الذى حدث بين القرنين الحادى

---

(١) يطلق الفرنسيون عليهم ڤودوا (Vaupois) وكانوا من فقراء ليون الذين نظمهم فى جماعة رجل يدعى بطرس والدو (Peter Waldo).

(٢) The Condition of Man

عشر والثالث عشر ، كانت توجد حقيقة ذات أهمية أساسية أخطر شأناً ، وهى الاتساع العظيم فى مساحة الأراضى القابلة للزراعة فى جميع أنحاء أوروبا ، واتباع طرق فى الفلاحة أكثر وفاء بالغرض ، بما فى ذلك المواظبة بانتظام على استخدام السماد العضوى الناتج من المدن فى تسميد الأراضى الزراعية المجاورة لها . وفى هذا الصدد قد يتمخض عن تجمع السكان فى الحضر نموذج مفيد للعلاقة بين الإنسان والبيئة الطبيعية يكون من شأنه تزويد الأرض بما يجدد قواها ويزيد فى جودة محصولها — لو أقيمت العلاقة على أساس إعداد السماد وليس على مجرد الاستهلاك . فنرى أن مساحات من الأراضى فى ألمانيا كانت فى القرن التاسع غابات موحشة ، ثم حلت مكانها أراض مزروعة ، وأن الأقاليم الواطئة التى كانت تكثر فيها المستنقعات ولا تعول إلا حفنة من الصيادين الأشداء تحولت إلى بقعة من أوفر أراضى أوروبا غلة ؛ ففى وقت مبكر يرجع إلى سنة ١١٥٠ أنشئت فى الفلاندر « الأحواض » الأولى ، ونعنى بها الأرض التى استصلحت عن طريق إنشاء الجسور لرد مياه البحر أو المستنقعات عنها ، فقد كان رجال أحرار ، مثل صيادى فريزيا (Friesia)[1] ، يتجمعون معاً عن طواعية واختيار للقيام بعمل كان لا يتم إلى ذلك الحين إلا تحت الإكراه العسكرى القاسى والتنظيم الجماعى العنيف ؛ فبدون قيادة قسيس ولا ملك ، وبدون الاستعانة بأية آلات أخرى سوى المجراف ، قاموا ببناء جسور عالية ومصاطب عظيمة من التراب كان من الممكن أن تقوم عليها مدينة بأكملها . ولقد كانت هذه الأعمال الباهرة التى تمت بفضل العمل الحر بمثابة تمهيد لانطلاق النشاط الصناعى الذى بلغ فى القرن السابع عشر ذروة كادت تكون انفجارا .

ولقد كان استخدام الرى فى الزراعة معروفاً فى ميلان منذ عهد مبكر

---

(١) إحدى المقاطعات الشمالية فى هولندا .

يرجع إلى سنة ١١٧٩ ، وبالقرب من روشفور دى جارد Rochefort du Gard فى مقاطعة بروفانس جفف الرهبان بحيرة بأكملها وحولوها إلى مزارع عظيمة للكروم : وقد اقترن بذلك ارتفاع مستوى تربية الخيول ، وابتكار سرج أفضل ، واستعمال الحدوة الحديدية ، وانتشار الطواحين المائية والهوائية ، ولقد وفرت هذه التحسينات للمجتمعات الحضرية الجديدة موارد من القوة واسعة نسبياً ، وهيأت لها ميزة اقتصادية على أهل الريف الذين كانوا أقل منها حظا . ولم يترتب على المزيد من المخترعات الميكانيكية أنها غيرت طرق استغلال المناجم وصناعة التعدين وجعلت صناعة الزجاج من الصناعات الرئيسية فحسب ، بل إنها كذلك قضت ، على الحاجة إلى عمل الأرقاء ، وأوجدت فائضاً من القوة والسلع أعظم بكثير مما كان يستطيع أن يوفره نظام اقتصادى يقوم على أكتاف عبيد يتضورون جوعاً ، والتجارة التى كانت سفينتها قد جنحت خلال الفترة الرومانسكية دفعها مد الجهود المتزايدة فعادت مرة أخرى تمخر العباب ناشرة أشرعتها .

وهنا أيضاً ، كما أوضح برتراند جيل (Bertrand Gille) ، كانت الخدمة التى أسهم بها الدير خدمة حيوية ، فإنه بالذات نظراً إلى أن الرهبان كانوا ينشدون الاستغناء عما لا ضرورة له من العمل لكى يتوافر لديهم المزيد من الوقت للدراسة والتأمل والعبادة ، فقد تقدموا الصفوف فى استحداث مصادر ميكانيكية للقوة ، وفى ابتكار وسائل لتوفير العمل . وقد كانت قواعد بناء الصهاريج تشجع على بناء الأديرة بالقرب من الأنهار التى كان يمكن التزود منها بالقوة المائية ، ويمكن معرفة مدى ما كان لذلك من قيمة كبيرة من وصف دير كليرفو فى مينى (Migne) فى عهد سانت برنارد .

« يدخل النهر الدير بقدر ما تسمح البئر التى تعوق سبيله ، فيتدفق أولا فى طاحون الغلال حيث يستخدم بنشاط بالغ فى طحن الحبوب تحت ثقل وزن العجلات ، وفى هز المنخل الرفيع الذى يفصل النخالة عن الدقيق ، وبعد

ذلك ينساب إلى المبنى التالى فيملأ المرجل حيث يسخن ماؤه لإعداد الجعة التى يشربها الرهبان ، إن كان محصول الكرم لا يفى بما يكافئ جهود تاجر النبيذ . بيد أن النهر لم ينته بعد من عمله ، فإنه يوجه الآن نحو آلات عدك الأقمشة التالية لطاحون الغلال ، ففى الطاحون أعد طعام الإخوة ، وواجبه الآن أن يساعد على صنع ملابسهم .. وهكذا فإنه يرفع ويخفض بالتناوب المطارق والمدقات الضخمة .. لآلات عدك الأقمشة .. والآن يدخل النهر المدبغة حيث يبذل كثيراً من العناية والجهد فى إعداد المواد اللازمة لصنع أحذية الرهبان ، وبعد ذلك ينقسم إلى عدة فروع صغيرة . وفى خلال سيره الحافل بالمهام ، يخترق أقساماً عديدة ، باحثاً فى كل مكان عمن يكون فى حاجة إلى خدماته لأى غرض كائناً ما كان ، سواء أكان للطهى أم لإدارة آلة أم للصحن أم للرى أم للغسل أم للطحن . . وفى النهاية ، لكى يستحق أتم الشكر ، ولكيلا يكون قد خلف وراءه عملا لم ينجز ، يحمل معه الفضلات ويترك كل شىء نظيفاً » .

ولم تكن هذه المعدات الميكانيكية غير مألوفة فى الأديرة ، بيد أنها احتاجت إلى وقت ومال لإدخالها ، ولو على صورة أكثر تفككاً فى مدينة العصور الوسطى ، فإن ما كان فى وسع الدير أن يزهو بتوافره لديه فى القرن الحادى عشر لم يتيسر للمدينة أن توفره إلا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وأوروبا التى نعرفها اليوم فتحت أبوابها ، أو أعيد فتحها ، للاستقرار على مدى ثلاثة قرون . وإن هذا العمل ليضارع تماماً فتح أمريكا الشمالية فيما بين القرنين السابع عشر والعشرين ، بل إن الإنسان ليستطيع فى الواقع أن يعتبر فتح أمريكا استمرارا لعملية الاستقرار الأصلية على أرض جديدة ؛ إذ أن استعمار نيو إنجلند قد تم على كل حال وفقاً للأساليب الحضرية فى العصور الوسطى ، كما أن العناصر البريطانية الأرستقراطية التى استعمرت

فرجينيا ، والعناصر الهولندية التى استعمرت نيويورك ، فعلت ذلك طبقاً لنموذج إقطاعى أقدم عهداً يقوم على نظام اقتصاد الضيعة وما يتضمنه من الأرقاء ، وكذلك الخدم المرتبطون بعقود والتزامات (أى أقنان مؤقتون) .

وهذا التوسع فى القاعدة الزراعية ، وهذه الزيادة فى القوة المادية ، كانا بدورهما هما اللذين يسرا زيادة عددالسكان . وطبقاً لتقدير پروسبر بواسوناد (Prosper Boissonade) ، فإنه فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر زاد عدد سكان المنطقة الواقعة بين الرين والموزل إلى عشرة أضعاف ما كان عليه . والمقاطعات الإنجليزية التى كانت تضم ١٫٢٠٠٫٠٠٠ نفس فى سنة ١٠٨٦ — وهو رقم دقيق مستمد من سجل لوليم الفاتح يعرف « بكتاب دومسداى » (Domesday Book) — بلغت فى مجموعها ٢٫٣٥٥٫٠٠٠ نفس حوالى سنة ١٣٤٠ . وفى كل مكان ، إذا كانت نسبة المواليد لم ترتفع ، فمن المحقق أنه قد زاد عدد من كانوا يبقون على قيد الحياة ويعيشون من العمر زمناً طويلا يكفى لإنجاب الذرية .

ولم تكن مثل هذه الزيادة مقصورة على المناطق التى فتحت حديثاً فى الشمال ، فإن إيطاليا حققت مثل هذا التقدم فى نظامها الاقتصادى الزراعى بحيث بلغ تعدادها عشرة ملايين نفس على الأقل فى القرن الرابع عشر . ولما كانت إيطاليا أفضل استقرارا لقيامها على قاعدتها القديمة ، ولكونها أكثر قرباً إلى حضارات الشرق الأرفع مستوى ، فإنها كانت الزعيم الطبيعى فى النهضة الحضرية . وفى القرن الثالث عشر كانت فى البندقية إدارة بلدية منظمة تنظيما دقيقاً ، ويحتمل أنه فى ذلك الحين ، كانت كل من البندقية وميلان تضم أكثر من مائة ألف من السكان . وعلى الرغم من أن أغلب هذه الأرقام تقريبية ولا معول عليها ، فإنه لا شك فى أن عدد السكان كان يتجه نحو الازدياد المتواصل حتى مجىء الطاعون الأسود فى القرن الرابع عشر .

وكانت المدن الجرمانية أكثر انخفاضا فى متوسط عدد سكانها ، مع احتمال استثناء مدينة ڤينا التى كانت تقع على الحدود الرومانية القديمة . بيد أنه لم يكن هناك افتقار إلى النشاط فى حركة الاستعمار الجرمانى ولا فى عملية العمران الحضرى ، فقد أنشئت فى خلال أربعة قرون ٢٥٠٠ مدينة ، والنظام البلدى الذى أقيم هيكله إذ ذاك ظل باقيا فى جوهره إلى القرن التاسع عشر ، والمعالم الأصلية للمنطقة كثيراً ما بقيت بلا تعديل ، ولو أنه فى خلال هذه الفترة كانت المدينة قد شغلت النطاق الزراعى المعتاد الذى يطوقها .

وفى أثناء السنين التى بلغت فيها الحركة ذروتها ، لم يقتصر الأمر على تضاعف عدد المدن ، بل إن نسبة زيادة عدد السكان — بقدر ما يمكن تقديرها — كانت تضارع على وجه التقريب نسبة الزيادة فى أوروبا فى القرن التاسع عشر ، ففى نهاية القرن الثانى عشر مثلا ، كان عدد سكان باريس حوالى ١٠٠٫٠٠٠ نسمة ، وفى نهاية القرن الثالث عشر كان عددهم يقرب من ٢٤٠٫٠٠٠ . وفى سنة ١٢٨٠ كان عدد سكان فلورنسا ٤٥٫٠٠٠ ، وفى سنة ١٣٣٩ بلغوا حوالى ٩٠٫٠٠٠ ، على حين أنه فى الأقاليم الواطئة كانت مدينتا بروج وغنت قد بلغتا أرقاما مماثلة . والإحصاءات الخاصة بزيادة مساحة العمران الحضرى لا تقل عن ذلك وقعا فى النفس . وأما فيما يتعلق بفترة الطاعون الأسود ، التى امتدت عشرين عاما ، فإنها لم تحدث إلا نكسة موقتة — ولو أن الطاعون كان يودى أحيانا بحياة نصف سكان المدينة .

وإن التجارة ، والإنتاج الصناعى ، والتجهيز بالمعدات الميكانيكية ، والتنظيم ، وتكديس رءوس الأموال ؛ إن كل هذه الضروب من النشاط قد ساعدت على إنشاء المدن واتساعها ، ولكن كل ذلك لا يفسر إطعام الأفواه الجائعة ، ولا يعلل كذلك المستوى العالى للحيوية البدنية التى صاحبت كل هذا المجهود ، فالناس لا يعيشون بالهواء فحسب ، حتى

ولو كان « هواء المدينة يجعل الناس أحراراً » ، على حد ما جرى به المثل الألمانى . والواقع أن الحياة الناجحة فى هذه المدن تتصل اتصالا وثيقاً بتقدم الزراعة فى الريف ، أى إن الفصل بين رخاء المدينة ورخاء الأرض ليس إلا وهماً من أوهام أبناء المدن .

وعلى الرغم من أن الصلة بين أسر التجار من أبناء المدن وبين الفلاحين الذين كانوا يستأجرون أراضيهم فى خارجها ربما تكون ظلت قائمة على سوء الظن والتعصب ، إن لم نقل على العداء المتبادل — وفى « حوليات أسرة فلورنسية » ما يشهد بذلك — على الرغم من هذا ، فإن العلاقة كانت وثيقة وثابتة . وقد كان من شأن مزارع الكروم المدرجة والحقول المنسقة ذات الحواجز الواقية من عصف الرياح ، وحركة نقل الفواكه والخضراوات إلى المدينة ، ونقل الروث والقمامة — بما فيها من فضلات صنوف فلورنسا — وخلطهما للحصول على السماد ، كان من شأن كل هذا أن يجعل المدينة — حتى إن كانت قد جاوزت الحد فى نموها كفلورنسا — شديدة الاهتمام بمصالح الريف . ولقد كان يبلغ من قرب الريف إلى بعض المدن الإيطالية أن كل وحدة جوار فيها كانت « تتبنى » قرية معينة واقعة خارج المدينة على أنها المنطقة الريفية الخاصة بها .

وأما فى المدن الأصغر حجماً — كما نعلم من المصورات الحضرية البديعة للقرنين السادس عشر والسابع عشر — مصورات بلايو (Blaeu) وميريان (Merian) وسبيد (Speed) — فقد نقل إلى قلب المدينة ما كان فى الريف من ألوان التحسينات الزراعية والجمال الريفى ، وتشهد بذلك الحدائق الداخلية والأراضى الفضاء المزروعة ، بل كذلك الحقول العادية الموجودة داخل الأسوار أو خارجها مباشرة . ومدينة العصور الوسطى النمطية — فيما عدا العواصم الإيطالية القليلة المفرطة فى النمو والتى كانت بذلك أبعد من أن تكون نمطية — لم تكن واقعة فى الريف فحسب ؛ بل كانت جزءاً من الريف ،

وكما كانت الحال فى بلاد ما بين النهرين ، كان يزرع بعض الطعام فى داخل الأسوار ، إن لم يكن لشىء إلا لدرء خطر الموت جوعاً فى وقت الحصار .

والواقع أن بعض الحرف الزراعية والريفية ، مثل القنص وصيد السمك ، كانت تؤلف جزءاً من الحياة اليومية العادية فى المدينة . وإلى زمن متأخر يصل إلى القرن الرابع عشر ، كان القانون فى إنجلترا يلزم أبناء المدن ، دون أى تفرقة بين الطبقات ، بأن يقدموا يد المساعدة لجمع المحصولات فى وقت الحصاد . ولعل رحلة الصيف التى يقوم بها أبناء شرق لندن إلى مزارع حشيشة الدينار (hopyards) فى مقاطعة كنت (Kent) ، لعلها الأثر الأخير الباقى مما جرت به العادة فى العصور الوسطى . وإن كثيراً من المراكز الصغرى فى فرنسا وسويسرا ، التى أوقف نموها منذ زمن بعيد ، ما زالت توجد فيها هذه الأماكن الفضاء التى لم يُقم عليها إطلاقاً أى بناء ، وما زالت تستعمل حدائق ، كما هو الشأن فى تلك المدينة الصغيرة نيون (Nyon) الواقعة على بحيرة ليمان . وحتى فى مدن مزدحمة مثل باريس ، حيث كانت الإيجارات المرتفعة سبباً فى الاستمرار فى شغل الأماكن التى كانت أصلاً من الأراضى الفضاء ، احتفظت أديرة الرهبان والراهبات ودور الطبقة الأرستقراطية بمساحات واسعة من الحدائق وبساتين الفاكهة .

٤ — المدن الممنوحة براءات — مصونة استعمارية

وإذا كانت وسائل الحماية العسكرية الجديدة أو المجددة — ونعنى بها السور وجيش المواطنين — قد كفلت للمدن أسبابا جديدة للإقبال عليها كأماكن للإقامة وللعمل المأمون من الناحية الاجتماعية ، فقد كانت توجد ، مع ذلك ، مجموعة خاصة من الدوافع الاقتصادية هى التى تفسر التقدم الذى أحرزته هذه الحركة ، فإن تحرير المدن كان خطوة فى سبيل إجادة تنظيم الحياة الاقتصادية ، أى حلول تبادل النقود مكان المقايضة ، وكذلك

حلول الأسلوب الحضرى فى العمل بالقطعة ، أو لإنجاز عمل بعينه ، أو لمدة موسم معين مكان الخدمة طول الحياة . وبالإيجاز ، الانتقال من حالة اجتماعية ثابتة إلى العمل بالتعاقد — إذا استعرنا التعبير القديم الذى استخدمه سير هنري ماين (Sir Henry Maine) للتفرقة بين الحالتين .

وأسطورة العقد الاجتماعى التى ظهرت فى القرن الثامن عشر كانت تبريراً للقاعدة السياسية التى قامت عليها مدينة العصور الوسطى ، وكان المواطن چان چاك روسو يعلم أنها ما زالت قائمة فى جنيف التى كان يعرف قدر استقلالها واحترامها لذاتها ، وذلك لأن المدينة المتمتعة بالحقوق البلدية كانت فى الواقع كثيراً ما تقوم على أساس عقد اجتماعى بين المالك صاحب الأرض وبين المستوطنين أو السكان ؛ فالمدينة جاءت نتيجة لمشارطة بين جانبين تبادلا بمقتضاها أشياء لها قيمتها ، ولم تكن فى الأصل نتيجة لفتح عسكرى ، كما كان الشأن فى أقدم الأمثلة السابقة . وإذا لم أكن مخطئاً فإن هذه حقيقة أخرى جديدة فى تاريخ المدن ؛ إذ أن تمتع المدن بالحقوق البلدية « جاء مع الحياة الحضرية » ، كما لاحظ ف. و. ميتلاند . (F. W. Maitland)

وحركة المدن منذ القرن العاشر وما تلاه عبارة عن قصة مراكز حضرية قديمة تتحول تدريجيا إلى مدن على قدر كبير أو صغير من الحكم الذاتى ، ومراكز استقرار جديدة فى سبيل التكوين تحت رعاية الأمير الإقطاعى ، وقد منحت من الحقوق والامتيازات ما كان سببا فى اجتذاب جماعات من أرباب الصناعة والتجارة للاستقرار الدائم فيها . وبراءة (charter) المدينة — وكانت تمنح لكلا النوعين من المدن — كانت عقداً اجتماعياً : وكانت المدينة الحرة تتمتع بالأمان من الناحيتين : القانونية والعسكرية على السواء ، وكانت إقامة القن فيها لمدة سنة ويوم واحد تحرره من التزاماته ، ومن ثم فإن مدينة العصور الوسطى غدت بيئة منتقية تجمع لنفسها من أهل الريف أكثرهم حذقاً — ومن المحتمل إذن أكثرهم ذكاء . ولقد حلت صفة المواطنة ذاتها

والترابط الطليق من كل قيد مكان الروابط القديمة القائمة على صلة الدم والأرض وعلى الأسرة الولاء للأمير الإقطاعى ، كما أن طائفة المشتغلين بذات الحرفة احتلت الآن مكانها فى مجموعة جديدة من الصلات والواجبات إلى جانب الأسرة الأصلية وجماعات الجيرة ، فقد كان لهذه الجماعات طرا مكانها فى المدينة الجديدة .

وعند تناول الشئون السياسية فى العصور الوسطى يتركز الاهتمام عادة حول الصراع على السلطة بين الطبقة المتوسطة فى المدن ومن يهيمنون عليها من الأمراء والأساقفة والملوك . ومن شأن هذا الاتجاه إغفال الدور الذى قام به النظام الإقطاعى ذاته فى تشجيع زيادة عدد المدن . وكثير من المنازعات التى كانت تحدث فى المراكز القديمة كانت بسبب محاولات لإرغام المواطنين الجدد على قبول صفقة خاسرة أكثر منها بسبب الرفض البات لمنح أى امتيازات ، فقد كان كبار أصحاب الأملاك يقومون بإنشاء مدن جديدة على نطاق واسع فى جميع أنحاء أوروبا ، وبخاصة فى مناطق الحدود ، وعلى الرغم من أن كثيراً من القرى التى حصلت قبل الأوان على الأهلية القانونية للمدينة ، لم تبلغ إطلاقاً فى نموها ما يسوغ تلك الصفة ، فإن ما يدعو إلى المزيد من الدهشة هو عدد المدن التى نشأت من العدم . ويلاحظ ج . م . هوستون (J. M. Houston) فى بحث له عن المدينة الأسكتلندية (Scottish Burgh) أن البينات لا تتكشف عن تطور تدريجى من مجتمعات زراعية إلى مدن ؛ إذ أن براءات المدن : أير (Ayr) ودومبارتون (Dumbarton) وكانوننجيت (Cannongate) وسانت اندرو (St. Andrew) توحى بأن التمتع بامتيازات المواطنين كان مشروطاً بالاستقرار على أرض فى داخل المدينة ، فكان هذا نوعا من نظام استنبات حضرى . وهنا أيضاً كانت المدينة « عملا من صنع الأمير » . وكثير من المدن الجديدة كانت مراكز على الحدود ، كما كان الشأن فى غسقوينا وويلز وبومرانيا ، ولقد كانت

تماثل فى طريقة شغلها منشآت قامت بعدها بزمن طويل فى أمريكا ، من حيث إنها أتاحت لقوم غير راضين عن أحوال معيشتهم فى الأنحاء الأكثر استقرارا فى أوروبا ، أن يقطعوا صلاتهم بها قطعا باتا ويبدأوا حياتهم من جديد .

وأما من الناحية السياسية فإنى سوف أستشهد بأقوال توماس فردريك تاوت (Thomas Frederick Tout) الذى كانت دراسته لتخطيط المدن فى العصور الوسطى أثراً بارزاً باللغة الإنجليزية فى هذا الميدان ، وهو يقول : « إن الضرورة السياسية لإنشاء المدينة سبقت ظهور الحاجة الاقتصادية ؛ ففى البدايات المتواضعة للمدن الجديدة ، فى العصور الوسطى ، كانت الغلبة دائما للاعتبارات العسكرية على ما عداها ، وذلك أن حاكما قويا كان يفتح إقليما مجاورا ، لأملاكه القديمة ، أو كان يرمى إلى الدفاع عن حدوده أمام عدو مجاور ، فكان يبنى حصونا فجة ، ويشجع رعاياه على الإقامة فيها حتى يتسنى لهم أن يتولوا مسئولية الدفاع على الدوام » .

فعلى وجه ما ، كانت هذه المدن – مثل ما كان الشأن فى المستعمرات الرومانية العسكرية – بديلا رخيصاً عن جيش قائم . وبمنح النازل الجديد فى المدينة الحق فى حمل السلاح ، كان الحاكم يتفادى دفع أجر استخدام ذلك السلاح ، وهو ما كان لا بد منه بغير ذلك . ولما كان للقن حق ثابت على الأرض التى كان وثاقه مشدوداً إليها ، فقد كان لابد من مزيد من الإغراء لحمله على الانتقال إلى مسافة تبعد مائتين أو ثلثمائة ميل عن مكانه : وهكذا توافرت له ، لأول مرة ؛ القدرة على المساومة ، وكان المالك مرغماً على استرضاء المستوطن المنتظر . وبوجه عام كان الانضمام إلى مجتمع حضرى يتمتع بالحقوق البلدية – ولو كان ذلك فى مدينة صغيرة ضئيلة الشأن مثل لوريس (Lorris) فى فرنسا ، التى لم تحصل على الحق العام فى الحكم الذاتى – كان ذلك يعنى التحرر من الإكراه على دفع الأموال ومن

الخدمة العسكرية الإقطاعية ، وكذلك حصول المرء على حرية بيع ممتلكاته والانتقال إلى مكان آخر ، فصفة المواطن كانت تخول صاحبها حرية الانتقال الشخصى . وهل أنا بحاجة إلى التنويه بمدى ما كان لذلك من ضرورة لا غنى عنها لظهور طبقة تشتغل بالتجارة ، وكذلك لإتقان أرباب الحرف فنهم بالعمل أجراء تحت أيدى مختلف الأساتذة فى مدن أخرى ؟

وعن طريق النضال ، أو طريق المساومة ، أو طريق الشراء الصريح ، أو عن طريق بعض هذه الوسائل معاً ، فازت المدن بالحق فى إقامة سوق بانتظام ، وبالحق فى أن تكون خاضعة لقانون خاص بالأسواق ، وبالحق فى أن تسك عملتها ، وتقرر الموازين والمقاييس التى تستخدم فيها ، وبالحق فى أن يحاكم مواطنوها أمام محاكم محلية ، وفقا لقوانينها وأنظمتها المحلية ، وبالحق فى أن يحملوا السلاح ، وكان لا يقل عن كل ذلك شأناً كما سبق أن ذكرنا . فهذه السلطات التى كان التمتع بها فى الماضى مقصوراً على القلعة ، أصبحت المدينة تتمتع بها الآن ، وكان كل مواطن يتحمل شيئا من المسئولية عن ممارستها .

ولعل حق المواطن فى حمل السلاح كان أبعد أثراً من ابتكار البارود فى الحد من قوة النبلاء الإقطاعيين — ألم يهزم أبناء مدن الفلاندر زهرة فرسان فرنسا فى ميدان القتال دون أن تتوافر لديهم ميزة البارود ؟ وإن المرء ليجد الصدى الأخير لتلك النغمة الخاصة بالحرية الحضرية فيما نص عليه الدستور فى الولايات المتحدة من أنه لا يجوز حرمان المواطن حقه فى حمل السلاح ، ولو أنه فى سويسرا الديمقراطية ، بتقاليد نظمها البلدية الأصلب عوداً ، نجد أن هذا الحق قد زيد دعما بما جرت به العادة من إعطاء كل فرد من أفراد الجيش الاحتياطى بندقيته ومعداته عند عودته إلى بيته :

وأما عن براءة المدينة ، فإنها أدت إلى وهم قانونى ما زال ينظر إليه بعين الاحترام ، ومؤداه أن الدولة هى خالقة المدينة والمتفضلة عليها بالبقاء . والحقيقة الناصعة هى أن جميع المدن التاريخية فى أوروبا اليوم أقدم عهداً من

الدولة التى تدعى هذه الحقوق قانوناً ، وكان لها كيان مستقل قبل الاعتراف بحقها فى الوجود !

وجميع هذه الحقوق قد تؤدى أو لا تؤدى إلى الحكم الذاتى المحلى التام ، المتحرر من أى نوع من التدخل ، كما كان الشأن فى المدن العظيمة فى عصبة هانسا (Hansa)[1] ، وهى همبورج وبريمن ولوبيك التى ظلت شامخة بإدارة شئونها ، بوصفها مدناً حرة ، إلى عهد بسمارك ، وعلى كل حال فإن هذه الحقوق أضفت على المجتمعات المحلية أغلب المميزات لما يطلق عليه الآن اسم « دولة ذات سيادة » . وفضلا عن ذلك فإنها نقلت فى النهاية إلى الوحدات القومية الكبرى التى ابتلعت المدن ، ضروب ضيق الأفق والغيرة والمشاغبة التى اتسمت بها المدينة ذات الأسوار .

وعند ما كان أمير إقطاعى يحتاج إلى المال لتزويد جيشه بالمعدات ، أو للاشتراك فى حرب صليبية ، أو للانغماس فى ألوان الترف التى تسربت إلى أوروبا ، كان لديه مصدر اقتصادى رئيسى واحد للمال وهو الأرض . وتبعاً لما جرت به العادة فى العهد الإقطاعى لم يكن يتسنى له النزول عن الأرض أو بيعها ، بيد أنه بتقسيمها ، وبتشجيع المدن القديمة على النمو والاتساع بمنحها الحكم الذاتى ، وبإنشاء مراكز جديدة ، كان فى وسعه أن يزيد ما يحصل عليه من الإيجار السنوى ، وحتى إذا كانت الإيجارات لا ترتفع إلا ببطء لصالح المالك الأصلى ، كما هو الشأن فى حالة الإيجارات التى تعقد لمدد طويلة ، فإنه مع ذلك كان مآل ورثته أن يستفيدوا مما لم يكن لهم يد فيه من زيادة النمو والرخاء فى المدينة . ويجب ألا يغيب عن البال أنه حتى فى لندن ، وإلى الوقت الحاضر ، يحتفظ نفر قليل من الملاك الإقطاعيين — مثل دوق بدفورد ودوق وستمنستر والتاج — بحق ملكية

---

(١) كوّن عصبة هانسا عدد من المدن التجارية للدفاع عن مصالحها ضد القراصنة .

أعظم المناطق استغلالا . وقد وضع القانون الجرمانى الأرض فى فئة خاصة بمعزل عن المبانى والممتلكات الشخصية ؛ وعند ما أصبحت الأرض ذاتها سلعة تشترى وتباع كأى سلعة أخرى ، فإن مصير مدينة العصور الوسطى ، بوصفها منظمة بلدية ، أصبح محتوماً .

وكانت توجد موارد خاصة للدخل الحضرى كان لمالك الأرض حصة فيها ، وكانت هذه الموارد تكاد تعادل فى الأهمية إيجار الأرض ذاتها فى المراكز الحضرية ؛ ونعنى بهذه الموارد الخاصة ما كان يؤخذ من الرسوم عند القناطر وفى الأسواق ؛ والضرائب الجمركية ، والغرامات التى كانت المحاكم تقضى بها ، وقد تضاعفت جميعها تبعاً لازدياد عدد السكان ، ولقد ظلت بعض هذه الرسوم باقية فى أوروبا — مثل الضريبة على ما كان يدخل المدينة من عربات النقل وعربات الركوب — إلى صميم القرن العشرين ، حتى فى باريس العاصمة الكبرى . وقد كانت الضرورة تقضى أحياناً ، عند البدء فى إنشاء مدينة فى منطقة موحشة ، بإعفاء القادم الجديد من الضرائب ، على شريطة أن يقوم ببناء منزل ، أى إن الإعفاء من الضرائب لتشجيع بناء المنازل حيلة قديمة جداً .

وكما هو الشأن فى كل مشروعات المضاربة ، كان فى ضمير الدهر أن تنجح بعض المدن إلى حد يجاوز آمال مالكيها ، أن يبقى بعضها الآخر خاملا اقتصادياً واجتماعياً مثل كثير من المدن المحصنة (bastides) فى جنوب فرنسا . وأيج مورت (Aigues Mortes) ، التى كانت يوما ما الثغر الذى يموج بحركة المسافرين للاشتراك فى الحروب الصليبية ، ظلت تتعثر حتى أصبحت لا تزيد على قطعة أثرية فى متحف من المتاحف ، بيد أن بناء المدن فى ذاته كان أحد المشروعات الصناعية الكبرى فى أوائل العصور الوسطى .

ولعلنا نستطيع الآن أن ندرك حقيقة الموقف المزدوج الذى اتخذه

الإقطاع حيال هذه الحركة ، فقد كانت المدينة الحرة مصدراً جديداً للثروة ، بيد أن التحدى الكامن وراء الثقة بالنفس والاستقلال اللذين كانا يسودان من انضموا إلى القومون (Commune)[1] كان خطراً على النظام الإقطاعى بأسره ، فقد قامت المدينة بتجميع القوة البشرية والقوة الاقتصادية وأسلحة الدفاع : وكان لدى جيوش مواطنيها من الدوافع التى تحارب من أجلها ما يفوق إلى حد بعيد ، ماكان لدى أقنان لا يقومون إلا بخدمة مولاهم — وننى الحرية التى أحرزوها ، والمنازل التى شادوها ، والمدينة التى أعانوا على إقامتها . وعلى حين أن القتال وألعاب الفروسية والصيد والقنص كانت المحور الأساسى لحياة الإقطاعى ، فإن المدينة كانت توفر من الموارد الاقتصادية والثقافية ماكانت تعجز عنه أعظم القصور الحصينة . ولقد كانت فرص الحياة المدنية فى إيطاليا تجتذب النبلاء وصغار أصحاب الأملاك إلى المدينة ، وإذا لم يقبلوا على الإقامة فى المدينة بمحض اختيارهم فإن البلدية كانت ترغمهم أحياناً على ذلك حتى يتسنى لأبناء المدينة أن يراقبوا حركاتهم ، إلا أنه فى شمال أوروبا ظلت هذه الطبقة أمداً طويلا محتفظة بعزلتها ، متشبثة بصيد الدببة « ومطاردة الغزلان » ، وحياة الهواء الطلق ، وقصر الضيعة المقبض ، فظلوا فى أنفسهم أقرب إلى الفلاحين الذين كانوا يضطهدونهم منهم إلى أهل المدينة الذين أطلقوا عقال حريتهم .

وحتى فى إيطاليا اتسعت الهوة التى كانت تفصل بين هذين الجانبين من جوانب البيئة ، فإن العداء بين المدينة والريف ازداد حدة تبعا لما كان نجاح الحرف الحضرية يحدثه من زيادة استبعاد الحرف الريفية التى ظلت باقية فى المدينة ، وذلك لأن المدينة كانت عبارة عن مجتمع ينبذ

---

(١) كانت القومونات (communes) فريقا من المدن لم تكتف بالحريات العادية التى حصلت عليها بقية المدن ، بل حصلت على سلطة سياسية كبيرة بفضل تضافر العناصر المختلفة التى كانت تعيش فى المدينة .

كل ما لا يلائمه ويقوم على المشاركة الاختيارية من أجل هدف مشترك. وكانت نظرة كل فرد من أبناء المدينة إلى أبناء الريف الذين ولدوا وشبوا فيه ، نظرة المدعى المغرور الذى بلغ به الغرور حدا لا يوجد إلا لدى محدثى النعمة والثراء . وقد كان هذا من الأسباب التى أودت فى النهاية بما فى المدينة من حرية وحكم ذاتى . وذلك أن المدينة بحرمانها الريف امتيازاتها ، ألفت نفسها منذ القرن السادس عشر أمام منافس اقتصادى كان افتقاره إلى الحماية والتنظيم حافزا فى ذاته إلى الإقدام على مشروعات اقتصادية جديدة وتطور حضرى من نوع غير منتظم .

٥ — سيادة الكنيسة

إن الآراء والأنظمة التى جاءت بها حضارة العصور الوسطى لا تعنينا هنا إلا من حيث تأثيرها فى طراز المدن وفى تطور أجهزة حياتها الحضارية ، وما لم يتفهم المرء هذه الآراء ، فإنه لا مفر من أن يظل بغير تعليل رجحان كفة المبانى المدنية العظيمة التى خصصت لأداء خدمات دينية .

فبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية ، كانت الكنيسة هى الجماعة القومية العامة الوحيدة التى بقيت فى غرب أوروبا . وكان الانتظام فى سلك هذه الجماعة اختياريا من الوجهة النظرية وإجباريا من الوجهة العملية ، فإن الحرمان من غفرانها كان عقابا بلغ من صرامته أنه إلى القرن السادس عشر ، كان الملوك أنفسهم يرتعدون أمام التهديد بالحرمان من غفران الكنيسة . ولقد كان وجود الكنيسة باديأ للعيان فى كل مجتمع ، من أصغر القرى بكنيستها المحلية إلى أعظم المدن بكاتدرائيتها وكنائسها العديدة وأديرتها ومزاراتها ، وكانت أبراجها أول ما يراه المسافر عند الأفق وكان صليبها آخر رمز تقع عليه عين من يفارق الحياة .

وفى حضارة تتميز بما يدعو إلى الحيرة من متعدد ألوان اللهجات

والقوانين وفنون الطهي والموازين والمقاييس والعملات ، كانت الكنيسة تهيئ دارا جامعة أو على الأصح ملجأ عاما . وذلك أن عين المعتقدات وعين الأنظمة وعين الصلوات الجامعة كانت تؤدى بعين الحركات وعين النظام لعين الغرض من أحد طرفى أوروبا إلى أقصى الطرف الآخر : ولم يحدث إطلاقا أن كان التماثل الرومانى الدقيق أجدى على البشرية منه فى خلال هذه الفترة . ففى أجلّ مهام الحياة كانت أحقر قرية تقف مع العاصمة على قدم المساواة ، وذلك أن الكنيسة زودت كل المجتمعات ، كبيرها والصغير ، بهدف مشترك . بيد أن الوحدة التى تحققت على هذا النحو شجعت أكثر مما قضت على ما بينها من تباين وما لها من ذاتية .

وكان تقسيم المجتمع إلى أبرشية (parish) وأسقفية[1] (diocese) هو التقسيم السياسى الذى تقوم عليه كل الروابط والتزامات الولاء . ولم تكن الأبرشيات والأسقفيات مساحات محددة على خريطة ، بل كانت مناطق لكل منها مركز كان دارا مشتركة للعبادة ، ورئيس روحى معين يمثل البابا . وطبقا لما يقوله ج . ج . كولتون (G. G. Coulton) ، كانت توجد فى إنجلترا كنيسة أبرشية لكل مائة أسرة ، ولكن فى كثير من القرى والمدن كانت توجد كنيسة لعدد من الأسر يقل كثيراً عن ذلك . وكانت الضريبة التى تجبى فى كل مكان هى ضريبة العشور ، أى عشر الإيراد السنوى ، وكانت تحصل عليها الكنيسة — تلك المنظمة الكبرى التى أوجدتها روما — فتستخدم جزءاً منها فى سد نفقاتها وصيانتها ، وتستثمر الجزء الآخر على نطاق واسع .

وبطبيعة الحال كان رجال الكنيسة المقيمون فى مناطقهم ، فضلا عن النازلين فى الأديرة ، يؤلفون جزءاً غير قليل من المجتمع . ففى سنة ١٣١٤ كان يوجد فى مدينة صغيرة مثل سيرنستر (Cirencester) فى

(١) انقسم العالم المسيحى الغربى إلى أسقفيات واسعة يرأس كلا منها أسقف ، وانقسمت كل أسقفية إلى أبرشيات صغيرة بكل منها كنيسة يشرف عليها قس .

إنجلترا ١٠٥ من سدنة الكنيسة (acolytes) و ١٤٠ من مساعدى الشمامسة (sub-deacons) و١٣٣ شماسا (deacons) و ٨٥ قسيسا ، فكان مجموعهم الكلى حوالى ٤٦٣ . وكان جزء غير قليل من وجوه النشاط الاقتصادى فى المجتمع يوجه لإعالة رجال الدين وأولئك الذين يقومون على خدمتهم ، على حين أنه كان كذلك جزء كبير من رأس مال المجتمع تحوله الكنيسة من مشروعات أخرى كان من المحتمل القيام بها ، لينفق فى إقامة وصيانة المبانى الدينية ، من كاتدرائيات وكنائس وأديرة ومستشفيات وملاجئ ومدارس مع تزويدها بكل معداتها الثمينة من تماثيل وأيقونات ولوحات مصورة .

ولم تكن التجارة أعظم ما يشغل هذا المجتمع ، مهما يبلغ من اهتمام التجار كأفراد بجمع الثروة ، بل إن أعظم ما يشغله كان عبادة الله وتمجيده ، وسواء أكان الإنسان تاجراً أم أميراً ، فإنه كان يذكر هذا الواجب وهو يتصرف فى ممتلكاته عند ما يدنو أجله ، إن لم يذكره فى وسط حياته الحافلة بضروب الكبرياء والجشع والخداع وحب السيطرة ..

ولقد كانت الكنيسة فى ذاتها نظاما متعدد الجوانب ، وكان مبنى الكنيسة يؤدى عدة مهام فصلت عنه فيما بعد ووزعت على مؤسسات دنيوية متخصصة . بيد أن الكنيسة حتى فى أدنى مستوياتها شأنا فى المدينة ، أى كنيسة الأبرشية ، كانت ملتقى أهل وحدة الجوار ومركز الحياة اليومية فى المجتمع ، وما من وحدة جوار كان يبلغ بها الفقر إلى حد أنه كانت لا توجد فيها مثل هذه الكنيسة ، حتى وإن كانت توجد فى وسط المدينة كاتدرائية يكفى اتساعها لاستقبال كل مواطنيها فى المناسبات الخطيرة أو مناسبات الأعياد .

وكثيراً ما كانت الكنيسة المحلية بمفردها « متحفاً للعقيدة المسيحية » وداراً للعبادة فى آن واحد ، فإن وجود ناسك متبتل فى صومعته

المحكمة الإغلاق بالقرب من أبوابها ، أو حتى وجود عظام ومخلفات مثل هذا القديس ، كان من شأنه أن يجتذب الأتقياء إليها ، ولا سيما إذا اشتهرت بأن لها قدرة على الإتيان بالمعجزات ، وكانت الكنائس والأديرة التى تملك مثل هذه المخلفات تغدو كعبة للحجيج ، مثل عظام توماس بيكيت (Thomas à Becket) فى كنتربورى (Canterbury) ، ودماء سانت يانيواريوس (St. Januarius) فى نابلى ، فإن هذه الأشياء — من حيث القدرة على اجتذاب الناس إلى المدن — لم تكن أقل شأنا من احتمال الحصول على الحرية السياسية أو ممارسة تجارة رابحة .

ومدينة العصور الوسطى فى أوروبا — على الرغم من تعدد أصولها وتباين نتائجها — يمكن وصفها على نحو بالغ فى الدقة بأنها منشأة جماعية كان هدفها الأساسى المعيشة طبقا للنهج المسيحى فى الحياة ، ولقد أثر هذا الهدف حتى فى أنظمة ، كالحرب مثلا ، كانت تتناقض تناقضاً صارخا مع الروح المسيحية ، وكبح جماح عادات أخرى ، كالتعامل بالربا ، كانت لا تمارس إلا بالتحايل وفساد الذمة ، بيد أنه فوق هذا كله ، فإن المفهوم المسيحى للحياة ، بما فيه من اعتراف بالألم واستعداد لبذل المعونة ، أوجد وسائل لا يقوم أى دليل على وجودها فى المدنيات الحضرية السابقة .

فقد أخذت المستشفيات تقام الآن على نطاق واسع للعناية على وجه عام بالمرضى والمعتلين ، ولم تعد المصحة منتجعا للصحة يقام بمعزل عن المدينة ويقتصر على خدمة من يملكون وسائل السفر ، بل مكانا فى قلب المدينة وفى متناول اليد ، مفتوح الأبواب لكل من كان فى حاجة إليه ، تحت إشراف رجال ونساء على استعداد للقيام بكل الخدمات الكريهة مما تتطلبه حالات المرض والجروح والعمليات الجراحية . وكان المستشفى وجناح العزل كلاهما مستمدين رأسا من الدير ، وقد وفد معهما نوع

من كرم الضيافة كان أعم من ذلك ويلقاه الأصحاء المحتاجون إلى الطعام، وقضاء ليلة مريحة ، فعلى مرّ القرون كلها حيثما انعدمت الفنادق والخانات، وكانت المساكن الخاصة فقيرة بائسة الحال ، كانت دار الضيافة في الدير تقدم مأوى مناسبا بلا مقابل .

وكانت تهيئة الملاجئ كذلك من أعمال البلدية في العصور الوسطى ؛ لأن العناية بالفقراء والمعدمين ، كانت من واجبات الإحسان في المسيحية . والواقع أن الملاجئ لم تكن أقل المباني جمالا في مدينة أواخر العصور الوسطى ، ولو أن وجودها يدل على أن الفقر كان يسير جنباً إلى جنب مع الثراء المتزايد . وأخيرا فإنه لأول مرة أيضاً انتشرت منشآت للعناية بالطاعنين في السن في مدينة أواخر العصور الوسطى ، وكانت أحياناً ، كشأنها في بروج وأمستردام وأوجسبرج ، تؤلف وحدات صغيرة متجاورة لها حدائقها المشتركة وكنيستها ، وهي ما زالت إلى اليوم الحاضر من مراكز المدينة التي تلفت النظر بجمالها .

ولم تنفصل هذه المؤسسات الحضرية عن الكنيسة في أية مرحلة ، كما أن الكنيسة ذاتها لم تنفصل ولا يمكن فصلها في أية مرحلة عن المجتمع ، وذلك لأن المنشآت اللازمة بنيت بفضل الإعانات الاختيارية والإجبارية التي أخذت من المجتمع بأسره ، وكل ما تحاول الدولة ذات السيادة الإقليمية أن تقوم به الآن على نطاق واسع ، قد عمل لأول مرة في مدينة العصور الوسطى بطريقة أكثر اتساماً بالألفة والمودة ، ويحتمل أنها كثيراً ما كانت تنطوي على مزيد من العاطفة نحو الظروف الإنسانية التي استدعتها .

وفي القرن السادس عشر انضمت مؤسسة أخرى إلى هذه المؤسسات السابقة ، وكانت مما تعنى به بوجه خاص طائفة متأخرة من الرهبان وهي

طائفة الجزويت ، ونعنى بهذه المؤسسة ملجأ اللقطاء . ولم تقم إطلاقاً مدينة من أى طراز سابق بتقديم مثل هذه المساعدات للتاعسين ، ولا قامت بتحويل أعمال المعونة الفردية إلى مثل هذه المبانى العامة الجميلة . وإننا لنستطيع مشاركة هرابانوس (Hrabanus) من القرن التاسع فى وصف مدينة العصور الوسطى بأنها اتحاد بين الكنيسة والمجتمع من أجل تحقيق الحياة المقدسة . وحتى عندما فشل هذا الاتحاد فشلا ذريعاً فى تحقيق المثل الأعلى للمسيحية فإنه مع ذلك أوجد كلا من المؤسسات والمبانى التى كان الغرض منها مؤازرة ذلك المثل .

وعلى الرغم من أن الكنيسة كانت تؤدى خدماتها فى كل مكان ، فإن أهم نتيجة حضرية لما كانت تعنى به من الشئون غير الدنيوية هو أنها — بحكم العادة إن لم يكن عن قصد متعمد — عممت الديرية ، فإن الاتجاه نحو التقشف ، والانقطاع للعبادة ، وروح الإحاطة والحماية ، تركت أثرها فى طراز مدينة العصور الوسطى بأكمله . وما دامت عقدة العصور الوسطى باقية على حالها ، فإن سيلا لا ينقطع من الرجال والنساء المعنيين بأمور الدنيا ممن رفعت غشاوة الوهم عن أعينهم ، كانوا يتحولون عن ساحة السوق وساحة القتال لينشدوا حياة التأمل والهدوء فى كنف البيع والأديرة . وحتى عندما نشرت طوائف الوعاظ روح الدير فى قلب المدينة ، ساعين وراء هداية الحضرى الآثم وإعانة المحتاج بتقديم المثل يومياً بما كانوا عليه من فقر وتواضع ، فإن هذه « العودة » أيضاً سرعان ما اتخذت الوضع القديم واستقرت فى مبان جميلة ، وهكذا فإن الحرية الجديدة أحضرت اتساعاً ريفياً إلى قلب المدينة ، فى الوقت الذى كان فيه ضغط السكان فى المراكز التجارية الأكثر نشاطا يلتهم الأرض الفضاء الواقعة خلف المنازل الخاصة . وقد كانت الحدائق المحاطة بأسوار فى بيع هذه الطوائف الجديدة من الإخوان الديريين تعطر هواء أشد المدن ازدحاما .

وكان لتركيز التفكير يومياً فى الحياة الباطنية ثماره التى تعوض عنه ؛ إذ أن أخيلة الحلم بحرارتها العاطفية كانت تضفى إشراقا على مدركات الحياة اليومية المبتذلة ، فقد كانت الصور التى تقع على العين الباطنية حقيقية على حد سواء كتلك التى تقع فى الخارج على حدقة العين . وعلى الرغم من أن بروتستنتية القرن السادس عشر استقدمت عدم الثقة فى العين اللاهية ، فإنها حافظت على مزاولة عادات الدير على انفراد ، أى تكرار الصلاة والتأمل الداخلى فى « خلوة » خاصة .

وفى خلال نصف القرن الأخير تحولت العمارة من التطويق إلى التعريض ، أى من إعادة السور ، إلى إحلال النافذة مكانه . وحتى فى المساكن الخاصة ، كما لاحظ هنرى چيمس على الفور عند ما زار الولايات المتحدة فى سنة ١٩٠٥ ، كان الناس يفرطون فى كل معانى الإحساس بالألفة والخلوة ، بإزالة الحواجز بين حجرة وأخرى لإيجاد نوع من قبيل المكان العام المكشوف أمام الأعين لاستخدامه فى كل لحظة وفى كل غرض . ولعل هذه الحركة قد وصلت الآن إلى النهاية الطبيعية لكل ما يشابه ذلك من ضروب التفسير التعسفى لحاجات الإنسان . فإننا حين فتحنا مبانينا أمام ما لا سبيل إلى تخفيف وطأته من وهج ضوء النهار وحملقة المارة فى الخارج ، أغفلنا ما يقابل ذلك فى الأهمية من الحاجة إلى التباين ؛ وإلى الهدوء ، وإلى الظلام ، وإلى الاختلاء ، وإلى وكر داخلى ، مما عرض حياتنا للخطر وعاد علينا بالوبال .

وإن الحاجة إلى تطبيق هذا الدرس فيما يتعلق بتخطيط المدن لا تقل عنها فيما يتعلق بالمبانى . والدير فى كلا وضعيه ؛ العام والخاص ؛ له وظيفة دائمة فى حياة الناس فى المدن ، وإن ما قامت به مدينة العصور الوسطى من الكشف عن هذه الحقيقة لم يكن أقل ما أدته من خدمات . فإنه بدون فرص محددة للعزلة والتأمل ، فرص توفرها أماكن مغلقة ،

بمنأى عن عيون الفضلاء ، وعما يدعو إلى تشتيت الذهن من الأسباب الخارجية ، بدون هذه الفرص لابد من أن يؤثر ذلك فى النهاية تأثيراً سيئا حتى فى أكثر أنواع الحياة انبساطاً أمام الأعين . فما المنزل الذى يخلو من مثل هذه الصوامع إلا ثكنة ، وما المدينة التى لا تشتمل عليها إلا معسكراً . وفى مدينة العصور الوسطى ، كانت للروح فى المزارات أو فى الأديرة ملاجئ منظمة ، وأوضاع معترف بها ، للهروب من الحاح الشواغل الدنيوية ، فكان فى وسع المرء أن يعتكف لمدة ساعة ، أو يعتكف لمدة شهر . وأما اليوم فإن انحطاط الحياة الداخلية ينهض دليلا عليه أن المكان الوحيد المأمون من التدخل هو المرحاض الخاص .

٦ — خدمات النقابات

فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة فى كل مكان تعنى بروح الفرد ، كان مجتمع العصور الوسطى يقوم على أساس الطبقات والمراتب فى نطاق نظام محلى محدود ، نظام إقطاعى أو نظام البلديات . وقد كان الفرد الطليق من أى ارتباط فى خلال العصور الوسطى محكوماً عليه إما بالحرمان من غفران الكنيسة ، وإما بالنفى ، وكان كلاهما يقرب من الموت . فلكى يكون للفرد وجود ، كان عليه أن ينتسب إلى جماعة — إلى بلاط أو ضيعة أو دير أو نقابة . ولم يكن هناك سبيل إلى الأمان إلا عن طريق حماية الجماعة ، ولا وجود للحرية التى لم تكن تعترف بالالتزامات المستديمة لحياة جماعية . فكان الفرد يعيش ويموت طبقاً للنهج الخاص الذى تعرف به طبقته والجماعة التى ينتمى إليها .

وباستثناء الكنيسة ، كانت النقابة هى أوسع ممثلى الحياة الجماعية انتشاراً ، وهكذا جمعت مدينة العصور الوسطى بين القاعدتين الأساسيتين للزمالة ، وهما : العمل المشترك ، والعقيدة المشتركة . وعند ما نلتقى بالنقابة لأول مرة فى انجلترا فى عهد الانجلوسكسون (قبل سنة ٨٩٢) ، نجدها أصلا

عبارة عن أخوة دينية تحت رعاية أحد القديسين يجتمع أفرادها بصفة أخوية للترفيه والترويح عن النفس ، وتؤمن أعضاءها ضد أحداث الحياة التاسية ، وتتولى تهيئة دفنهم على نحو لائق . فهى بذلك اشتملت على صفات تشابه إلى حد يلفت النظر ما كانت تشتمل عليه هيئة سابقة عليها ، وإن لم تكن من سلالتها ، ونعنى بها الرابطة الرومانية الجنازية . وقد نقلت هذه الصفات على عدة مراحل ، إلى هيئات حديثـــة مماثلة كجمعية الصداقة الإنجليزية (English Friendly Society) وطائفة الماسون الأحرار أو الجمعيتين الأمريكيتين ، جمعية العلكان (Elks) وجمعية غريبى الأطوار (Odd Fellows) ، بما فيها من الجمع بين الصحة والائتمان .

ولم تفقد النقابة هذا الطابع الدينى على الإطلاق ، وظلت رابطة أخوة مرحة ، ولكنها تكيفت بحيث تتلاءم مع نوع معين من الواجبات الاقتصادية والمسئوليات المهنية ، وإنما دون الانصراف إلى ذلك كل الانصراف . وفى كثير من المدن كان القسم (conjuratio) بأن يقف كل فرد إلى جانب الآخر لتبادل المعونة ، عنصرا أساسياً للاندماج فيها . (ولا عجب أن كروبوتكين (Kropotkin) اعتمد إلى هذا المدى البعيد على مدينة العصور الوسطى لضرب الأمثال على المعونة المتبادلة) . وكان الإخوان يأكلون ويشربون معاً فى مناسبات منتظمة ، ويستنون أنظمة لتكون منهاجاً للعمل فى حرفتهم ، ويضعون الخطط ويدفعون النفقات اللازمة لإخراج مسرحيات الأسرار أو المعجزات[١] التى كانوا يقومون بتمثيلها لرفع معنويات رفاقهم من أبناء المدينة ، وفى أوقات الرخاء كانوا يشيدون المزارات ، ويمنحون الهبات لإقامة الصلوات على أرواح موتاهم ، وينشئون المدارس العامة — وهى أولى المدارس العلمانية منذ انتهاء العصور القديمة . وإبان أوج قوتهم كانوا

(١) تسمى هذه المسرحيات بالإنجليزية (mystery plays) وكانت مسرحيات دينية تدور حول حياة المسيح أو القديسين .

يشيدون لنقاباتهم دوراً كثيراً ما كانت فى مثل فخامة دار الأقمشة (Cloth Hall) فى ايبر (Ypres) . وباتخاذ أعضاء كل نقابة من حرفتهم محوراً ، اصطنعوا لأنفسهم حياة كاملة فى تنافس ودى مع النقابات الأخرى ، وبوصفهم إخواناً كانوا يملأون جنبات الأسوار المجاورة لحيهم لملاقاة العدو .

وقد رأينا أن مثل هذه الاتحادات والرابطات الأخوية كانت موجودة من قبل بين أرباب الحرف من أبناء المدن فى الإمبراطورية الرومانية ، بل حتى قبل ذلك فى القرن الثالث فى بلاد الإغريق ، وقد ظلت موجودة فى بيزنطة ، وعلى الرغم من أن الصلة بين هذه المنظمات ما زالت غامضة بسبب الافتقار إلى الوثائق المكتوبة ، فإننا نعلم أن ذكرى حادث بعيد الأمد كفتوحات الإسكندر الرائعة بقيت حية بين الأميين فى الأساطير الشائعة فى أثناء الفترة الرومانسكية الطويلة التى تفصـــل بين العصرين الكلاسيكى والقوطى ، ولعل فكرة ، وحتى مثال ، هذا النوع من رابطات الإخاء فى الحرفة لم تتلاش كلية . وكون أقدم مثال ألمانى للتنظيم النقابى — وهو براءات ورمس (charters of Worms) الملكية (٨٩٧ — ٩٠٤) — يذكر عمال النقل بوصفهم أعضاء ، فإن هذا من شأنه أن يشير إلى وجود صلة بالنقابات الرومانية الأقدم عهدا . وفيما عدا ذلك فإن أولى النقابات التى لدينا أدلة على وجودها فى ألمانيا ، إلى جانب جمعيات دفن الموتى ، هى نقابات النساجين فى ماينز فى سنة ١٠٩٩ ، على حين أنه قبل ذلك الحين كانت توجد نقابة فى بافيا (Pavia) منذ سنة ١٠١٠ وأخرى فى سانت أومر بفرنسا منذ سنة ١٠٥٠ .

وإذا كان نمو نقابات التجار بوجه عام قد سبق بمدة نصف قرن أو نحو ذلك نمو نقابات الحرف ، فإنه يجب ألا يغيب عن البال ، أنه باستثناء التجارة الدولية ، لم يكن الفارق بين الصانع والتاجر واضح المعالم

لأن الصانع الذى كان يقوم بعمل السلع استجابة للطلب كان فى وسعه كذلك أن يبيع الفائض منها لديه . ووفقاً لما يقوله تشارلس جروس (Charles Gross) ، فإنه فى المرحلة الأولى كان الصناع يقبلون فى نقابات التجار ، ومن المحتمل أنهم كانوا يؤلفون الأغلبية بين الأعضاء ، وكان يماثل ذلك تماما ماحدث فيما بعد من أن أبناء الطبقة الإقطاعية أو العلماء ، الذين كانوا يريدون الانخراط فى سلك حكومة المدينة ، كان عليهم أن يصبحوا أعضاء فى نقابة مثل نقابة الصيادلة أو نقابة النقاشين لكى يكون لهم الحق فى تولى المناصب .

وكانت نقابة التجار عبارة عن هيئة عامة تنظم وتشرف على الحياة الاقتصادية فى المدينة بأجمعها ، فقد كانت تنظم قواعد البيع ، وتحمى المستهلك من الابتزاز ، والصانع الأمين من المنافسة غير العادلة ، كما تقوم بحماية تجار المدينة من اضطراب أحوال سوقهم بتأثير عوامل خارجية . ومن الناحية الأخرى كانت نقابة الحرفة عبارة عن هيئة تضم أساتذة الحرفة الذين يقومون بصنع منتجاتهم وتجمع بينهم لتنظيم الإنتــاج ووضع مقاييس أمامية للصناعة الجيدة . ومع توالى الزمن أصبح لكل من هاتين المنظمتين مظهر ينم عنها فى المدينة ، الأولى دار المدينة (Town Hall) أو دار السوق (Market Hall) ، والثانية دار النقابة (Guild Hall) . وفى بعض الأحيان كانت تبنى الدار نقابة واحدة بمفردها ، كما هو شأن الدور الصغيرة العديدة فى البندقية ، وفى أحيان أخرى كانت الدار مبنى عظيما أقيم بفضل جهود مشتركة . ومن المحتمل أن المبانى الأولى للنقابات كانت عبارة عن منازل متواضعة أو حجرات مستأجرة عفا عليها الزمن منذ عهد طويل ، كما كان الشأن فى حالة الرابطات القديمة التى وقفنا على بعض ما يثبت وجودها . بيد أن المبانى التى بقيت قائمة ، كثيرا ما تنافس برونها وفخامتها دار المدينة أو الكاتدرائية . ويلاحظ و . ج . أشلى

(W.J. Ashley) أن تكاليف هذه المبانى «كانت من بين العوامل التى دعت إلى فرض رسوم عالية للانضمام وكانت فيما يبدو تبرر ذلك» . وقد أفضى هذا بدوره إلى قصر العضوية على أوسع أعضاء المجتمع ثراء . وليست هذه هى المرة الأولى ولا الأخيرة التى قضت فيها فخامة الغلاف المعمارى على المخلوق الذى حمل نفسه عناء إقامته .

والدور الكبير الذى قامت به النقابة فى مدينة العصور الوسطى إلى القرن الخامس عشر يدل على ارتقاء عام فى مستوى مرتبة العمل ، وبخاصة العمل اليدوى . وكان هذا أيضاً إلى حد كبير ، من الأعمال العظيمة التى حققتها الكنيسة ، وذلك من ناحية بإعطائها أهمية لمهن الفقراء والطبقات الوضيعة ، ولكن من ناحية أكبر ، باعتراف طائفة البندكتين بالعمل اليدوى عنصراً أساسياً من عناصر الحياة القويمة ، وفقا لقولهم « العمل عبادة » . وتدريجا تلاشى الخجل من العمل ، ذلك التراث المحزن الذى خلفته مدنيات كانت تقوم على الرق ، كما أن ما أبداه أعضاء هذه النقابات الحضرية مرات عديدة من ضروب البسالة فى الحرب ، حطم ادعاءات الطبقات الإقطاعية التى كانت تحتقر كل أشكال العمل فيما عدا ما يختص بالصيد وميدان القتال . وأعود فأقول إن استطاعة مدينة ما أن تفاخر بأن أغلبية أبنائها كانوا مواطنين أحرارا يعملون جنبا إلى جنب على قدم المساواة دون أن توجد دونهم طبقة من الأرقاء – أعيد القول بأن هذا كان من الحقائق الجديدة فى التاريخ الحضرى . ولقد اقترن بذلك استخدام الذكاء فى العمليات التقنية على نطاق لم يعمل إطلاقا أى نظام من أنظمة الرقيق على تشجيعه ، وعلى هذا النحو فإن تعاليم العصور الوسطى وتجاريبها هيأت الشرط الأساسى الذى كان انعدامه سببا فى انهيار نظام الحكم « الديمقراطى » فى بلاد الإغريق ، ذلك النظام الضيق القائم على الرق .

وعلاوة على ذلك ، فلنتأمل الفارق بين مجتمع العصور الوسطى والمدينة الحديثة ، ففى الصناعة نجد أنه منذ القرن الثامن عشر كان تنظيم العملية الاقتصادية هو الذى اتخذ شكلا محددا متشابكا فى المصنع ، وفى الشركة الكبرى ، وفى البيت التجارى المتعدد الفروع وفى المؤسسة التعاونية . وأما الهيئات السياسية مثل الغرف التجارية ، وجمعيات أصحاب المصانع واتحادات العمال ، فإنها لمدة طويلة لم يكن لها نصيب واف فى التنظيم الاقتصادى ، فهى قد ظهرت إلى الوجود متأخرة وفى الأطراف ، ولم تكن تضم إلا جزءاً من السكان الذين كان يعنيهم الأمر ، وما من حالة واحدة ، حتى ولا حالة اتحادات العمال ، كان يمكن الادعاء فيها بأنها كانت ترعى أى شطر كبير من حياة أعضائها الثقافية .

أما فى مدينة العصور الوسطى فإن التنظيم الفعلى للصناعة كان بسيطا ويقوم على اتصال مباشر بين صاحب المصنع والعامل الأجير عنده ، وبين البائع والمشترى فى ساحة السوق . بيد أن الحقيقة الأساسية كانت روح الإخاء ، إذ أن النقابة – بالعمل على تحقيق أغراضها الاجتماعية – غدت عن طريق الاعتماد على نفسها ، جمعية للتأمين الصحى والتأمين ضد العوز فى الشيخوخة ، وجماعة للتمثيل ، ومؤسسة للتعليم . ولم يحدث إلا فى خلال نصف القرن الأخير ، بمحاولة اتحادات عديدة للعمال كفالة الاطمئنان الاقتصادى لأعضائها ، أن شرعت فى استعادة جانب مما كانت تمارسه نقابات العصور الوسطى من ألوان الاهتمام والمساعدات الاجتماعية . ولسوء الحظ أن عين مبدأ الرعاية الذى تطبقه إدارات الصناعات الكبرى ، بتزويدها مصانعها بالمسارح وساحات الألعاب الرياضية وملاعب الكرة والصوالج (bowling alleys) والعيادات الطبية ، – لسوء الحظ أن هذا المبدأ عينه يهدد بإيجاد نوع جديد من الإقطاع التجارى ، ففى ظل هذا النظام ، يصبح الارتباط بالمصنع ، أو على الأقل بالهيئة المالية الكبيرة التى

تديره ، مضارعا تقريبا فى قيوده لارتباط الفن بأرضه — ولو لمجرد أن يتسنى للعامل المكبل بقيود خفية أن يجنى ثمار هذا الارتباط بالحصول على مزايا سن الشيخوخة . ومهما تكن الصعوبة التى لقيها فى القرن التاسع عشر رجال الاقتصاد — من دعاة حرية العمل (laissez faire) — فى تفهم مبادئ المجتمع النقابى ، فإنه يجب ألا تكون هناك أى عقبة نفسانية تحول دون فهمنا إياها اليوم .

وعندما انفصل الحافز الاقتصادى عن الحوافز الأخرى للنقابة وأصبح الشغل الشاغل الذى يستنفد كل جهودها ، تطرق الفساد إلى النظام بأسره ، فقد تكونت فى داخل النقابة طبقة عليا من أثرياء أقطاب الصناعة لكى تترك امتيازاتها لأبنائها ، وتعمل على إقصاء الصانع الفقير والطبقة المتزايدة من العمال الكادحين والإضرار بمصالح هؤلاء جميعا ، وذلك باشتراط دفع رسوم كبيرة للانضمام إلى النقـــابة . وعندما قضت الخلافات الدينية فى القرن السادس عشر على روح الإخاء ذاتها فى أوروبا الشمالية ، كان قد قضى على طبيعتها التعاونية الاقتصادية ، فإن موفورى الشحم واللحم كانوا من جديد يزدادون اكتنازا للشحم واللحم على حساب الضعفاء المهزولين .

وإذا كانت النقابة قد ظهرت فى الواقع مع ظهور مدينة العصور الوسطى ، فإنها قد سقطت بسقوطها بحكم ما بينهما من صلة وثيقة ؛ وذلك لأن النقابات لم تكن إلا عبارة عن المدينة فى مظهرها الاقتصادى ، كما أن المدينة كانت عبارة عن النقابات فى مظهرها الاجتماعى والسياسى . ولقد ظل باقياً — بدون تحوير تقريباً — كل من الغلاف المادى ذاته وما كانت النقابات تمارسه من شئون وعادات حتى القرن الثامن عشر الذى وجهت « استنارته » إلى حد كبير للقضاء عليها . وحتى فى العالم الجديد ، فإن نقابة النجارين (Carpenters' Company) فى مدينة فيلادلفيا

ومخلفات أخرى عديدة من هذا القبيل ، ظلت تعمل على نسق نقابات العصور الوسطى حتى نهاية ذلك القرن ، كما أن أنظمة سوق العصور الوسطى ظلت قائمة إلى حدما فى كل مكان حتى ذلك الوقت . واستعمال عبارة العصور الوسطى فى مقام الذم ، تعبيرا عما يتصف بالهمجية والجهل ، كان من ابتكار القرن الثامن عشر . وأن الذين يشوب النقص والقصور معلوماتهم التاريخية كثيرا ما يواصلون تفسير العصور الوسطى طبقا لذلك النهج المعاد من القذف المأخوذ عن القرن الثامن عشر .

وكان مركز نشاط الإدارة البلدية هو دار المدينة (Town Hall) ، وكانت تؤدى كذلك فى بعض الأحيان مهمة دار السوق . وكانت دار المدينة فى مبدأ الأمر مبنى قائماً بذاته فى ساحة السوق ويتألف من طابقين بهما ردهتان ، وأصلا كانت ردهة الطابق الأسفل تستخدم لعرض أكثر السلع رقة مما كانت تحتاج إلى الوقاية من تقلبات الجو على نحو كان لا يمكن أن توفره لها الخباء المقامة فى ساحة السوق نفسها . وكما هو الشأن فى دار السوق التى ما زالت قائمة فى ميلان ، كثيرا ما كان المبنى يرتكز على أعمدة فيترك الطابق الأرضى مفتوحاً بأكمله ، وهو مثال للبناء « على ركائز » (en pilotis) من أجل سبب معقول ، وذلك منذ مئات السنين قبل أن يجعله لوكوربزييه (Le Corbusier) بمثابة شعار مبتذل للطراز الحديث ، سواء أكان الغرض الذى شيد المبنى من أجله فى حاجة إليه أم لم يكن .

لقد كان بناءو العصور الوسطى يضعون عادة فى أذهانهم اعتبارات عملية أكثر من ذلك ، فأحد الأسواق الكبرى فى بروج ، وكان المركز التجارى للشمال قبل القرن الخامس عشر ، قد سمى « سوق الوباء » (Wasserhalle) لأنه أقيم فوق قناة ، وكانت السلع التجارية ترد فى مواعين إلى السوق مباشرة من أسفله . وكانت الحجرة العليا فى دار المدينة

تستعمل لعقد اجتماعات المحافظ والمجلس ، وتصريف العدالة ، واستقبال السفراء ، وإقامة الولائم ومجالس الشراب من حين إلى آخر . ونذكر عرضاً بهذه المناسبة أن مخلفات هذا الغرض الأخير ما زالت باقية فى لندن الحديثة ، جنباً إلى جانب أشباح الجماعات القديمة ذات الزى الرسمى (Livery Companies) ، فهى تشاهد فى المأدبة التى تقام فى دار النقابات (Guild hall) عقب الانتخاب السنوى لمحافظ المدينة الجديد والاحتفال بموكبه :

وقبيل نهاية العصور الوسطى ، كانت الأسر البارزة — وكان أوسع تجار الجملة ثراء يؤلفون أغلبها — تستطيع أن تقيم مراقصها وحفلاتها الصاخبة فى دار البلدية ، مما كان يثير حسد باقى السكان . والواقع أن هذه الدار أصبحت بمثابة قصر جماعى للطبقة العليا ، ومن ثم فإنها كانت تسمى أحياناً مسرحاً (theatrum) أو داراً للتمثيل . وهنا كانت تقام حفلات الزواج بكل مظاهر الفخامة الملائمة . ودار المدينة — مع احترامها للديمقراطية — ما زالت تؤدى هذه الوظيفة الأخيرة حتى اليوم . ولنلاحظ اعتراف النظام القديم بهذه الوظيفة ، فهو يتمثل فى وجود حجرتين خاصتين للزواج ، إحداهما من الدرجة الأولى ، والأخرى من الدرجة الثانية ، فى دار المدينة فى هيلفرسوم (Hilversum) بهولندا . ولقد أعطانا توماس مان فى روايته « آل بودنبروك » لمحة أخيرة مضطربة عن تلك الحياة التى كان يحياها أهل الطبقة العليا من سكان المدن .

وكان الفرد باندماجه فى هيئة مواطنى المدينة يتخلص من الالتزامات الإقطاعية المباشرة ، لأنه كان يضطلع بأعباء مواطن المدينة . ولم تكن الخدمة العسكرية وحدها هى التى تفرض على الذكور من غير رجال الكنيسة ، بل إن رجال الشرطة فى المدينة كانوا يختارون أصلا بالدور من مواطنيها — للقيام بواجب الضبط والربط . وفى سنة ١٢٥٣ قرر هنرى

الثالث الحراسات الليلية فى المدن ، ويذكر « ستو » (Stow) نوعين من الحراسة فى عهد الملكة اليزابيث وهما ، « الحراسة الثابتة » للواجبات الخطيرة ، و « الحراسة المتحركة » للاحتفالات . ولقد فرضت المجتمعات الحديثة مثل هذه الخدمة من أجل الحرب وحدها ، أو من أجل كارثة طارئة ، إلا أن مدينة العصور الوسطى جعلتها فى عداد واجبات الحياة اليومية : وإنه لمن المسائل الخطيرة البت فيما إذا لم يكن ترك أمثال هذه المهام المتعلقة بالأمن تركا كاملا فى أيدى الشرطة المحترفين قد أضعف الشعور بالمسئولية وقضى على وسيلة فعالة للتربية الوطنية .

وفى عهد متأخر يصل إلى سنة ١٦٩٣ ، أصدر المجلس العام لمدينة لندن قانوناً قضى بأنه يجب أن يقوم أكثر من ألف شخص بواجب الحراسة المستمرة فى مدينة لندن من الغروب إلى الشروق ، وأنه يجب على كل فرد من السكان أن يقوم بدوره فى الحراسة . وللاحتفاظ بمثل هذه الهيئة كان من الواجب أن تبث فيها درجة عالية من الإحساس بالواجب نحو المدينة ، وأن تزود على الدوام بأمثلة خاصة من التفانى فى سبيل الواجب ، وكذلك بمكافآت ومنح خاصة . وعندما انعدمت هذه الوسائل بطل تنفيذ القانون فى القرن الثامن عشر . بيد أن مكافحى الحرائق والقائمين بأعمال الإسعاف ، الذين كانوا يضطلعون بأعباء هذه الخدمات المجيدة فى لندن — وفى مدن أخرى عديدة — فى خلال الحرب العالمية الثانية ، إنما كانوا يستأنفون القيام بخدمة اختيارية قديمة العهد ترجع إلى العصور الوسطى . وكثيرون منهم قد شهدوا بأنفسهم بأن روح الزمالة التى ولدها أداء ذلك الواجب عوضتهم بما يفوق المشاق المضنية التى كابدوها حتى إنهم يعدون تلك الليالى من بين أجل ذكرياتهم .

وهنا ، كما هو الشأن فى أغلب النواحى الأخرى ، كان يوجد فارق كبير بين الحالة فى القرن العاشر أو الحادى عشر عندما كان لا يزال

يكتنفها البؤس والضيق والتقلقل ، وبينها فى القرن السادس عشر عند ما كانت الثروة قد تدفقت على المدن الأوروبية الأكثر رخاء . وفى مبدأ الأمر كانت المدينة — بوصفها وحدة اجتماعية جديدة — تجاهد فى سبيل دعم وجودها ذاته ، فإن انعدام الطمأنينة على وجه مستمر ولد جهدا مشرباً بروح الود ، بل تضامنا عاماً بين مختلف الطبقات والمهن ؛ إذ كان كل منهم فى حاجة إلى الآخر ، وتحت ضغط تلك الحاجة تألفت تلقائياً جماعات من الجيران المتطوعين ، على نحو ما تتألف اليوم فى قرية بنيو انجلند ، حيث لا يزال المتطوعون يؤدون خدمات مكافحة الحريق ونقل المصابين سريعاً إلى المستشفى .

وعندما أحرز بعض الناس مركزاً ممتازاً ، ظهرت فوارق عظيمة فى الثروة بين « الناجحين » و « الفاشلين » ؛ وحينئذ كان المركز يورث كالثروة على حد سواء ، وتبعاً لذلك خلق هذا طبقة جديدة لم يقابل من قوتها اتصافها بالتهذيب المستمد من آداب السلوك والتربية ولهجة النطق . وعندئذ فإن الشكوك الخفية بين الطبقات ، نتيجة لهبوط فجائى فى المستوى ، غدت أكبر شأناً من الصوالح المشتركة والحاجز الواقى التى كانت قد جعلت من مدينة العصور الوسطى فى وقت من الأوقات وحدة اجتماعية أساسية .

وفى نهاية العصور الوسطى أخذ أفراد من الأثرياء يمنحون المدارس هبات من المال ، ويشيدون ملاجئ للشيوخ واليتامى ، مباشرين المهام التى كانت النقابة تؤديها فى يوم ما ، ومثل ذلك تماماً مثل ما كان يقوم به الحكام المستبدون الجدد من مباشرتهم ، باسم البلاد بأكملها ، الامتيازات السياسية للمدن الحرة وأنظمة الحكم فيها ، فحولوا بذلك العصبية للمدينة إلى عصبية قومية ونزعة تجارية . بيد أنه عند ما يحاول الإنسان أن يجد وصفا عاماً للعهد بأكمله ، فإنه ما زال فى وسعه أن يردد ما قاله جروس

(Gross) – على الرغم من أنه كان مشبعا بالروح التى كانت تسود عهد الملكة فيكتوريا من إساءة الظن بالوحدات المحددة النطاق والأساليب الوقائية للنقابات ، فقد كانت تضع الأمان فوق المجازفة وحتى الأرباح : « وفيما عدا سكان مراكز الأسواق الممتازة ، فإن سكان مدن العصور الوسطى كانوا أكثر تجانساً من سكان المدن الموجودة فى الوقت الحاضر ، فقد كانت السابقة أقل من الأخيرة اشتمالا على الفوارق بين الطبقات ، وأكثر منها انطواء على التعادل فى الثروة وعلى المزيد من التناسق فى الصوالح » :

ولما كانت هذه الكلمات قد صدرت عن رجل لم يكن معجبا بالنظام الاقتصادى فى العصور الوسطى ، فإن قيمة هذا الحكم تكون مضاعفة : وفى وسعنا أن نقول كل هذا دون إغفال الكثير من الحالات الاستثنائية الكئيبة ، مثل حال الذل التى كان عليها صناع النسيج الفلمنكيون فى القرن الثالث عشر ، أو الثورات العنيفة التى نجمت عن ذلك وما قوبلت به من ضروب الكبح العنيف والإبادة الوحشية التى أنزلتها بهم الطبقات الحاكمة . أجل ، فإن القسوة والتعذيب وجدا لهما مستقرا فى داخل هذه المدن سواء بسواء كالأمن والطمأنينة . ومن الممكن أن بعضا من المخلوقات المشوهة فى لوحات برويجل (Breughel) الأكبر كانت ضحايا القانون ، ولم تكن مجرد ضحايا الحرب أو الطبيعة ، وهو ما كان ممكنا أن يكون ، شأنها فى بابل القديمة . بيد أن التآلف ، وبذل الجهد ، وتقديم العون ، والمساعدة طواعية واختيارا ، قد تمخضت عنها عادة سياسية ذهبت إلى حد بعيد المدى فى تحدى هذه الوحشية فيما بعد – ولو أننا نعلم من عودة التعذيب والإبادة على نطاق واسع فى جيلنا الحاضر ، أن هذا الانتصار لم يكن إطلاقاً ، أو على الأقل لم يعد بعد ، انتصارا أبديا .

ولم تنكمش نواحى النشاط الاجتماعى فى مدينة العصور الوسطى تبعا؛

لازدياد نمو نظام الاقتصاد الرأسمالى ، بل إنها على الأصح تحولت من المساعدة الذاتية إلى إعطاء الإحسان ومؤسسات البر ، وأخيراً بحكم الحاجة إلى الإعانات الحكومية ، وبالإضافة إلى الكنيسة ، بقيت من النقابات القديمة مؤسسة واحدة ، بل ازدادت قوة ونفوذا ، ولعلها كانت المؤسسة الجديدة المفردة التى فاقت أهميتها كل ما أنتجته حضارة القرون الوسطى من مؤسسات. وبحكم الإدراك الغريزى لأهمية هذه المؤسسة ، كان الاسم الذى أطلق عليها هو التعبير العام الذى عرفت به أصلا كل النقابات فى القرن الثانى عشر وهو « الجامعة » (universitas) .

ولقد أصبحت الجامعة هى النقابة : فإنها على غرار الأنواع الأخرى لجمعيات أرباب الحرفة الواحدة كان هدف الجامعة الإعداد لمزاولة مهنة ، وتنظيم القواعد التى بموجبها يؤدى أعضاؤها عملهم . ولقد كانت الدراسات العلمية الجديدة — دراسة الطب الإغريقى والعربى من سالبرنو ، ودراسة مجموعة القوانين اللاتينية التى كونت حديثا ، وحتى دراسة ضروب المعارضة للعقائد الدينية التى أتى بها ابن رشد وابن سينا — وقبل الجميع ، أرسطو — كانت هذه الدراسات فى حاجة إلى جهاز مدنى جديد . وكانت كل مدرسة من المدارس العظيمة التى تألفت منها الجامعة فى الأصل — القانون والطب واللاهوت — كانت ذات صفة مهنية ، وعلى الرغم من أن نظامها كان يشتمل على دراسات عامة ، فإن السر فى صبغتها الإنسانية كان يمكن فى أسلوب حياتها أكثر مما كان يرجع إلى دراساتها فى الآداب القديمة . والواقع أن الدراسات « الإنسانية » العامة التى بدأت فى الظهور مع كليات عهد النهضة ، وبخاصة فى إنجلترا ، كانت بمثابة تطعيم الشجرة الأصلية على يد الطبقات الراقية . وإلى اليوم الحاضر ما زالت المعاهد المهنية هى التى تعين على التفرقة بين الجامعة والمدرسة .

وابتداء من بولونيا (Bologna) فى سنة ١١٠٠ ، وباريس فى سنة

١١٥٠ ، وكمبردج فى سنة ١٢٢٩ وسلامنكا فى سنة ١٢٤٣ — ولو أنه كانت هناك بدايات غير رسمية فى أماكن أخرى فى مدارس الكاتدرائيات فى القرن الثانى عشر — وضعت الجامعات نظاما للتعاون فى ميدان العلم على أساس التبادل بين الأقاليم المختلفة . فكان طلاب العلم يتوافدون[1] زرافات إلى هذه المراكز من جميع أنحاء أوروبا ، وكان الأساتذة بدورهم يدرسون ويلقنون العلم فى مراكز نائية ، كما كانوا يفعلون من قبل فى مدارس الأديرة والكاتدرائيات . وما كانت الجامعة تهيئه فى كلياتها من الجمع بين المعرفة الدينية والمعرفة العلمية والمعرفة السياسية لم يسبق له نظير يضارعه تماما فى أى حضارة أخرى .

ولا جدال فى أن بذور الجامعة كانت كامنة فى المعابد المصرية والبابلية ، إلا أن وجودها كان أكثر وضوحا فى أكاديميـــة أفلاطون وفى معهد الإسكندرية ومكتبتها ، أو فى نظام المحاضرات فى البلديات الرومانية . بيد أن متابعة العلم فى الجامعة قد ارتقت فأصبحت منشأة دائمة لا يعتمد استمرار بقائها على أى مجموعة بمفردها من القسس أو العلماء أو الكتب . ولقد كان نظام المعرفة أكثر أهمية من الأشياء المعروفة ، وكانت الجامعة تؤدى ثلاث وظائف على نحو واف ، وهى استيعاب الثقافة ، ونشرها بتبادل المعرفة ، وتزويدها بالإضافات الخلاقة — ولعل هذه الوظائف الثلاث كانت أهم الوظائف الأساسية للمدينة . ولما كان من الممكن أن نسمى الدير ومكتبته جامعة غير عاملة ، فإنه من الممكن كذلك أن نسمى الجامعة ديرا عاملا ، فإنها أوضحت — بمقتضى ما كان لها من حق مطلق بوصفها جهازا يؤدى وظيفة دنيوية — أحد وجوه النشاط الضرورية فى المدينة ، وهو الانصراف عن المسئوليات العملية العاجلة وإعادة تقييم التراث الثقافى وتجديده بعين

---

(١) مما يجدر بالملاحظة أن الطلبة كانوا يؤلفون أروقة يضم كل منها الوافدين من إقليم أو بلد معين .

فاحصة عن طريق الاتصال المباشر بين الأستاذ والطالب . وفى التخطيط الأصلى للكليات فى أوكسفورد وكمبردج ، قدم تخطيط العصور الوسطى أجل خدماته المبتكرة لتخطيط المدن : ويتمثل ذلك فى الوحدة السكنية الكبرى (superblock) والخطة الحضرية[1] (urban precinet) المنعزلين عن الشبكة القديمة للأزقة والشوارع .

فهاهنا ابتكار اجتماعى من الطراز الأول ، ومن أجل هذا وحده كان خليقاً أن تتبوأ بلديات العصور الوسطى مكانا بارزا ، ولذلك أن استقلال الجامعة فى ذاته عن معايير السوق والمدينة ، شجع على إيجاد ذلك النوع من السلطة التى أخذت تمارسها ، ونعنى بها تأييد الحقائق القابلة للتمحيص التى تدعمها مناهج المنطق والجدل ، والتبحر العلمى الواسع ، والمنهاج العلمى ، وذلك تبعا لتطور وتراكم هذه النواحى من عصر إلى عصر . وقد ينطوى مثل هذا النظام على عيوب كثيرة ، كما أن الخدمات التى أداها فى أثناء القرون التى ولت منذ قيامه لم تكن على مستوى واحد فى قيمتها ، لأن الجامعة تشارك النقابات إلى اليوم فى جانب من تمسكها المهنى بالقديم وإغلاق دائرتها دون غير أهلها . ولقد حدث كثيراً أن جاءت الخدمات الكبرى للعلم ، من نيوتون إلى أينشتاين ، ومن جيلبرت إلى فاراداى ، من خارج الجامعة ، ومع ذلك فإن التوسع فى التراث الفكرى وتناقله من جيل إلى آخر كان من المتعذر عقلا أن يتحققا بالقدر الذى تحققا به فعلا منذ القرن الثالث عشر بدون وساطة الجامعة . وعندما لم تعد الكنيسة موئل القيم الجديدة ، أخذت الجامعة تتولى تدريجا القيام بشىء من هذه المهمة ، ولقد كان هذا سببا فى إسباغ مكانة خاصة على الانصراف إلى مواصلة البحث عن الحقيقة ، بوصفها أسمى ما فى الحياة ، كما كان سببا فى أن علمى الجمال والأخلاق أغفلا

---

(١) مجموعة مبان تتوسطها ساحة مكشوفة .

إلى درجة كبيرة . وهكذا فإن الجامعة أصبحت نموذجا مثاليا لذلك الإفراط فى التخصص وتحديد الوظيفة ، وهو ما يعرقل الآن من التطور الإنسانى بل يهدد بقاء النوع الإنسانى.

٧ — رحلات ومواكب ومهرجانات

فى أثناء حرية التنقل الجديدة — وهى التى برزت مع الحريات المشتركة التى كانت مدينة العصور الوسطى تطالب بها — كانت الحياة تعتبر رحلة ، فقد كانت لدى دانتى رحلة على انفراد خلال « الجحيم » و « المطهر » و « الجنة » ، ولدى تشوسر رحلة مع رفاق فى الطريق إلى المزار فى كانتربورى ، وحتى فى الرواسب التى خلفها عهد العصور الوسطى كانت الحياة لا تزال تبدو فى صورة « رحلة مسافر » .

ومهما تكن الاحتياجات العملية لمدينة العصور الوسطى ، فإنها برغم حياتها الحافلة بألوان المشاغل والاضطراب كانت مسرحاً لمراسم الكنيسة ، فقد كانت الكنيسة مدار حياتها والصورة المثلى لكمالها : وكما أنه فى العصر الصناعى المتأخر كان الخيال يبدو فى أرقى مراتبه فى محطة للطرق الحديدية أو فى قنطرة ، فكذلك فى حضارة العصور الوسطى بلغ العمل الفعلى ذروته — عن طريق حركة مضادة — فى خدمة رمز عظيم للخلاص ، فقد كان الناس الذين لا يملكون إلا القليل لقوتهم يعطون قدراً من ذلك القليل لإقامة صلوات وحفلات دينية وإيقاد شموع ، وإنشاء مبنى ضخم ، حيث كانت تتبلور الأساطير والمجازات والعقائد والمعرفة فى صحن الكنيسة ومذبحها ، وفى الصور التى زخرت بها الحواجز والجدران ، وفى الردهات والنوافذ المستديرة . وفى بعض مناسبات التأثر الدينى العميق ، كتلك التى وصفها هنرى آدامز فى مؤلفه « مونت — سانت — ميشيل وشارتر » ، كان الفقراء والأغنياء على السواء يذهبون حتى إلى حمل ذات الأحجار اللازمة للمبنى .

وما من طالب قابع فى مكانه يستعرض صور هذه العمارة ، وما من شاهد سطحى يتخذ لنفسه موقعا يحاول أن يرسم منه محاورها ونسبها المختلفة — ما من أحد منهما يتسنى له أن يدرك سر هذا الوضع الحضرى ، حتى من الوجهة الجمالية البحت . وذلك لأن مفتاح السر فى الشكل الظاهرى للمدينة يكمن وراء المهرجان المتحرك أو الموكب ، وفوق كل شىء الموكب الدينى العظيم الذى يطوف الشوارع والميادين قبل أن ينتهى إلى الكنيسة أو الكاتدرائية لإقامة الحفل العظيم ذاته . ولا مجال هنا للعمارة الثابتة ، فإن الجموع تنتشر وتتلاشى فجأة تبعا لاقتراب المرء أو ابتعاده عنهم ، وإن اثنتى عشرة خطوة قد تغير من النسبة بين المنظور فى الجزء الأمامى وفى الجزء الخلفى ، أو بين المدى الأسفل والمدى الأعلى لخط الرؤية . وإن المنظر الجانبى للمبانى بسقوفها الهرمية الشديدة الانحدار وأسطحها الحادة الخطوط ، وقبابها وأبراجها وزخارفها المتشابكة — إن هذا المنظر ليتماوج وينساب ، وينقطع ويتجسم ، ويعلو ويهبط بما لا يقل حيوية عن المبانى ذاتها ، وكثيراً ما تكون المعالم ذات تباين لا ينتهى ، كما هو الشأن فى حالة قطعة جميلة من قطع النحت .

وفى داخل نطاق الطراز العام للعصور الوسطى ، حدثت تغييرات عميقة فى الوجدان ، على مدى خمسة قرون ، فإن تجارب الحياة المتباينة تباينا جوهريا يبدو أثرها فى الاختلاف بين الرزانة المطمئنة — التى تتسم بها المبانى الرومانسكية العظيمة بصلابتها التى تحاكى صلابة الحصون ، ووقارها الذى يضارع وقار التراتيل — وبين الروح الإنسانية التى تتجلى فى الكنائس الرائعة التى أقيمت للسيدة العذراء ، بما فيها من تجارب جريئة طليقة ، وحيث استحال القبر المطوق بالجدران ، الذى كان يرمز إلى التسليم بالموت ، إلى مصباح سماوى يزجى الأمل فى البعث ، على حين أن ما حدث من الإفراط فى الولع بالجمال الفنى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وما اقترن به من الإسراف فى الزخارف المتشابكة ، يروى لنا قصة أخرى ، قصة

تضاؤل الإيمان وازدياد الانهماك فى بهرج الحياة اليومية أو الإفراط فى التكفير عن ذلك بالحرمان والتقشف ، على نحو ما يروى لنا يوهان هويزنجا (Johann Huizinga).

بيد أنه فى خلال كل هذه التغييرات احتفظ الوضع نفسه بتركيبه الجماعى ، فقد كان يستوعب لحظات روحية متتابعة دون أن يفقد شيئاً من شكله ؛ وكانت قباب الكنائس وأبراج أجراسها تجذب الأنظار نحو السماء ، كما كانت مبانيها ترتفع درجات تبعا لمرتبتها فوق ما هو أدنى منها من رموز الثروة والسلطة الدنيوية ، وتتبوأ مكان الصدارة دون منازع ؛ ومن خلال نوافذها المستديرة كان النور ينبعث فى هالات من الألوان الصافية مكونة أشكالا تجريدية فى طرازها. ومن أى مكان تقريبا فى المدينة كانت تُرى أصابع الزجر فوق أبراج الكنائس فى شكل صلبان مطلية بالذهب وكأنها سيوف الملائكة المقربين . وإذا ما غابت لحظة عن العيون ، فإنها كانت لا تلبث أن تبدو فجأة كلما انفرجت السقوف عن بعضها البعض ؛ فيكون لها ما لصوت الأبواق من قوة التأثير ، فإن ما كان محصورا فى وقت من الأوقات داخل جدران الدير ، أصبح الآن باديا للعيان فى جميع أرجاء مدينة العصور الوسطى .

ومن شأن قصر المسالك المؤدية إلى المبانى الضخمة ، أو بعبارة أخرى من شأن قصر امتداد المنظر أمامها أن يضاعف من تأثير المسقط الرأسى ، فإن المرء لا ينظر يمينا أو يسارا ليشاهد منظرا واسع المدى بل يتجه بنظره إلى أعلى . وتضييق نطاق الحركة على هذا الوجه المحدود كان جزءا أساسيا فى سير المواكب وفى التناسب بين المبانى بعضها بعضا إلى درجة أنها لم تكن فى حاجة إلى ما حباها به الطراز القوطى فى إنجلترا من زيادة توكيد مسقطها الرأسى . ولقد كانت النوافذ المرتبة فى صفوف أفقية شائعة فى المنازل ، وكان يخفف من حدة الشكل العمودى للأبراج – فى سالزبورى

أو نوتردام دو بارى بما لا يقل شأنا عن ذلك فى كنيسة الدومو بفلورنسا — أحزمة أفقية فى الواجهة أُبرزت بجرأة . بيد أنه على الرغم من كل ذلك ، فإن الحركة العادية للعين هى إلى أعلى وأسفل ، والتغيير الدائم فى اتجاه حركة السائر على قدميه من شأنه أن يعين باستمرار على استحداث أشكال تبدو عن كثب دينامية ذات أبعاد ثلاثة فى كل ثنية من الطريق كلما ازداد المضى فى السير ، مع الإحساس بالانقباض فى الشوارع الضيقة ، وبالانشراح عند ما يصل فجأة إلى ساحة السوق أو الفناء الفسيح أمام الكنيسة : وعلى الرغم من أن التفاصيل المعمارية تختلف فى لوبيك ، بسقوفها الهرمية وأبراجها المدببة ، عنها فى فلورنسا ، بسقوفها القليلة الميل أو المسطحة ، وعناصرها المعمارية البارزة بروزاً كبيراً ، فإنها فى مرتبة واحدة من حيث الأثر الجمالى فى مجموعه الذى يحدثه تخطيط المدينة ذاتها .

وكان أولئك الذين يتجولون فى المدينة ، لمتابعة أعمالهم اليومية ، أو يسيرون فى مهرجان لنقابتهم ، أو ينتظمون فى عرض عسكرى ، أو يشتركون فى موكب دينى ، يستمتعون بهذه المظاهر الجمالية ، وعند التواء الموكب ذاته ودورانه كان يتسنى لهم الإحساس كأنهم يرون أنفسهم أمامهم كما لو كانوا ينظرون فى المرآة ، وذلك بمشاهدة الأجزاء الأخرى من الموكب . ومن ثم كان المشترك والمتفرج شخصا واحداً ، وهو ما لم يكن يتسنى حدوثه مطلقا فى عرض رسمى فى شارع مستقيم .

ولنلق نظرة على موكب من مواكب العصور الوسطى من خلال عينى أحد المعاصرين المتأخرين الذى خلف وراءه وصفاً مستفيضاً لهذه المناسبة . وفيما عدا الصفحات التى دبجها ستو (Stow) ، لا أعرف وصفاً آخر يعطى المرء صورة أكثر حيوية عن مدينة العصور الوسطى : أما الزمن ففى أوائل القرن السادس عشر ، والمكان فهو انتورب ، والمشاهد فهو البرخت ديرر (Albrecht Dürer) :

« وفى يوم الأحد الذى أعقب يوم صعود سيدتنا الغالية العذراء ، رأيت الموكب العظيم من كنيسة سيدتنا العذراء فى أنتورب عند ما اجتمعت المدينة بأسرها من كل حرفة ورتبة . وكان الكل يرتدون أفخر ثيابهم تبعا لمكانتهم ، وكانت لجميع الطبقات والنقابات أمارات يمكن الاستدلال عليهم بها : وفى الفواصل التى تتخلل الموكب كانت تحمل أعمدة عظيمة للشموع ثمينة القيمة وثلاثة أبواق فرنجية (Frankish) قديمة طويلة من الفضة . وكان يوجد كذلك كثير من الزمارين والطبالين على النسق الألمانى ، وكانوا ينفخون فى مزاميرهم ويدقون طبولهم فيحدثون جلبة وضوضاء صاخبة .

« ولقد رأيت الموكب يمرّ على طول الطريق ، والناس ينتظمون فيه صفوفاً ، وكل رجل يقف على مسافة من جاره ، ولكن الصفوف تتلاحق بعضها وراء بعض . وكان هناك الصاغة والنقاشون ، والبناءون ، ومزركشو الأقمشة ، والنحاتون ، ونجارو الأثاث ، والنجارون العاديون ، والبحارة ، والصيادون ، والجزارون ، وصناع الجلود ، وصناع الأقمشة ، والخبازون ، والخياطون ، وصناع الأحذية — فى الواقع كل أنواع الصناع ، وكثيرون من أرباب الحرف والصنع الذين يعملون لكسب قوتهم اليومى . وكذلك كان يوجد هناك كل أنواع أصحاب الحوانيت والتجار ومساعديهم . وبعد هؤلاء جاء الرماة بالبنادق ، والسهام ، والأقواس ، والفرسان ، والمشاة من الجنود أيضاً ، ثم تلاهم حرس السادة الحكام . وأعقبتهم فصيلة بديعة من الجنود ، يرتدون جميعاً أزياء حمراء تضفى عليهم رونقاً وبهاء ، ومع ذلك فقد كانت تتقدمهم جميع الطوائف الدينية وأعضاء بعض المؤسسات ، فى خشوع عظيم ، وكلهم يرتدون أزياءهم المختلفة .

« ولقد اشتركت أيضاً فى الموكب طائفة كبيرة جدا من الأرامل ،

وهن يَعُلْن أنفسهن بأيديهن متبعات قاعدة خاصة . وقد كن جميعا يرتدين من قمة الرأس إلى أخمص القدم ملابس من الكتان الأبيض صنعت خصيصاً لهذه المناسبة ، وكان منظرهن يبعث على شدة الحزن والأسى . . ولقد رأيت بينهن شخصيات على أعظم درجة من الوقار : وخلف الجميع جاءت طائفة كنيسة سيدتنا العذراء بكل من فيها من رجال الدين والطلبة وأمناء المال . وكان عشرون شخصاً يحملون تمثال مريم العذراء مع السيد المسيح وقد زين كأبهى ما تكون الزينة تكريماً لله العظيم .

« ولقد عرضت فى هذا الموكب أشياء كثيرة جداً تبعث على البهجة ، وكلها أعدت على أبدع نسق . وجرت عربات أسدلت عليها أقنعة لتبدو على هيئة سفن ومنشآت أخرى ، وجاءت خلفها جماعة الأنبياء ، طبقا لترتيبهم ، ومناظر ومواقف واردة فى إنجيل العهد الجديد ، مثل بشارة السيدة مريم ، والملوك الثلاثة المقدسين ، على متن إبل عظيمة ، وعلى حيوانات أخرى نادرة معدة أحسن إعداد ، ولقد استمر الموكب من أوله إلى آخره أكثر من ساعتين قبل أن ينتهى مروره بمنزلنا » .

ولنلاحظ العدد الضخم من الناس الذين انتظموا فى هذا الموكب ، وكما هو الشأن فى الكنيسة ذاتها ، فإن النظارة كانوا أيضا متعبدين ومشاركين ، فقد أسهموا فى الموكب بمشاهدته من أعماق نفوسهم ، وليس بمجرد التطلع من الخارج ، أو على الأصح بالإحساس به داخليا مشاركين بعضهم بعضا فى الأداء فى توافق وائتلاف ، وليس كمخلوقات متفرقة يلتزم كل منها القيام بدور وحيد من نوع خاص . وقد كانت المدينة ذاتها مسرحا لهذه المناظر المتفرقة من دراما الحياة — العبادة أو القداس أو المهرجان أو موكب الحياة أو التعميد أو الزواج أو الجنازة . وقد كان المواطن نفسه — حتى وهو يقوم بأدواره المتباينة — لا يزال يُنظر إليه على أنه كل واحد

كما قررت النظرة فى الكون ، ويعيش فى حالة من التوتر نتيجة للدراما الإنسانية التى أنشأتها الكنيسة ، محاكية بذلك الدراما المقدسة التى عاناها مؤسسها ، وعندما تصدعت وحدة هذا النظام الاجتماعى تطرق الخلل والاضطراب إلى كل ما حوله ، بل إن الكنيسة العظيمة ذاتها غدت فئة تثير النزاع وتنشد النفوذ والسلطان ، وأمست المدينة ساحة للنضال بين الثقافات المتضاربة وأساليب الحياة المتباينة .

الفصل العاشر

تدبير شئون المدينة فى العصور الوسطى

١ — المعيشة المنزلية

كان نظام الجماعة المقصورة على أعضائها يسود أغلب نواحى الحياة فى العصور الوسطى ، بيد أن الأسرة الحضرية فى العصور الوسطى كانت جماعة مفتوحة الجوانب إلى حد كبير جداً ، بالقياس إلى الحياة الحديثة ، وذلك لأنها كانت لا تشتمل على الأقرباء الذين تربطهم بها صلة الأرحام فحسب ، بل تشتمل على طائفة من الصناع وكذلك من الخدم بوصفهم جزءا من أهل البيت العاديين ، فقد كانوا يعتبرون بمثابة أعضاء ثانويين فى الأسرة . وكان هذا يسرى فى جميع الطبقات ، فإن الشبان من أبناء الطبقات العليا كانوا يكتسبون معرفتهم بشئون الدنيا عن طريق الاندماج فى خدمة أسرة نبيلة ، فكان ما يشاهدونه وما يصل إلى مسامعهم فى وقت تناول الطعام جزءا من تعليمهم . وكان تلاميذ الحرفة ، وكذلك العمال الأجراء فى بعض الأحيان ، يعيشون كأعضاء فى أسرة أستاذ الحرفة . وإذا كان زواج الرجال يتأخر فيما يبدو عما هو الحال اليوم ، فإن مزايا الحياة المنزلية لم تكن معدومة بأكملها حتى للأعزب .

لقد كان أفراد دار التشغيل (الورشة) أو بيت التجارة يؤلفون أسرة واحدة ، إذ كانوا يأكلون معا على المائدة نفسها ويعملون معا فى الحجرة نفسها ، وينامون فى الردهة ذاتها ، أو فى ردهة عامة كانت تحول ليلا إلى أماكن للنوم ، وكانوا يشاركون الأسرة فى صلواتها ويشتركون جميعا فى ألوان الترفيه العامة . وكانت العفة والبكارة ما زالتا تعتبران مثاليتين على نحو ما نادى

به القديس بولس ، ولكن من يطالع ماكتبه بوكاتشيو أو تشوسرسوف لا يغالى فى تقدير ذيوعها . وكانت النقابة ذاتها بمثابة أسرة يتمتع فيها الأب بالسلطة العليا ، فقدكانت تتولى المحافظة على النظام فى داخل بيتها ، بتوقيع الغرامة والعقاب على مرتكبي الجرائم الصغرى فى حق رابطة الأخوة ، وذلك بصرف النظر عما كانت تفعله البلدية . وحتى العاهرات قمن بتأليف نقابات ، والواقع أن المواخير كانت تحت حماية الإدارة البلدية فى همبورج وفينا وأوجسبرج . وعند ما يذكر الإنسان أن « مرض الزهرى » لم يظهر بصورة حاسمة — على الأقل بشكل خبيث — إلى القرن الخامس عشر ، فإنه يرى أن الدعارة ذاتها كانت تشكل عندئذ خطرا على الصحة أقل مما بلغته فى القرون التالية .

والصلة الوثيقة بين العمل والمعيشة المنزلية — وهى لم تبق اليوم فى المدينة إلا فى الحوانيت الصغيرة أو أحياناً فى بيت مصور أو معمارى أو طبيب — كانت هى التى تملى الترتيبات الرئيسية داخل دار السكنى ذاتها فى العصور الوسطى . ومن الطبيعى أنه كان هناك فارق كبير بين ماكان معروفا فى القرن العاشر من الأكواخ التى أقيمت حيثما اتفق والحظائر الجرداء المبنية من الحَجَر ، وبين دور التجار الأنيقة التى شيدت فيما بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر ، وهو فارق لا يقل عما يوجد بين مسكن من القرن السابع عشر وإحدى العمائر فى عاصمة كبرى اليوم . ومع ذلك فلنحاول أن نبرز عوامل مشتركة معينة فى هذا التطور ، فقد خلف بعضها أثرا دائما بقى إلى القرن العشرين .

فالمنازل — ولم تكن تعلو عن طابقين أو ثلاثة طوابق فى بادئ الأمر — كانت تبنى عادة فى صفوف متواصلة حول حافة حدائقها الخلفية ، وأحياناً فى حالة الوحدات السكنية الكبيرة كانت تتوسطها أفنية داخلية — فيها رقعة خاصة تكسوها الخضرة — كان الوصول إليها عن طريق بوابة واحدة تطل

على الشارع . وكان يندر نسبياً وجود المنازل المنفصلة ، فهى تتعرض بلا داع إلى تأثير عوامل الطبيعة ، وتترك الأرض هباء على كلا الجانبين ، كما أن تدفئتها أشد صعوبة ، ولذلك فإن المنازل حتى فى المزارع كانت تؤلف جزءاً من مجموعة متماسكة تشتمل على حظائر الحيوان ومخازن الغلال والحبوب ، وكانت مواد بناء المنازل تؤخذ من تربة الأرض المحلية ، ولذا فإنها كانت تختلف باختلاف المناطق ، فكانت تارة من الجدائل المكسوة بالطين ، وتارة من الحجر أو الطوب ، وكانت سقوفها حيناً من القش مما يجعلها عرضة للحرائق ، وحيناً آخر من القرميد أو « لاردواز » ، وانتظام المنازل فى صف متواصل بحيث تؤلف إطاراً مغلقاً لوحدة سكنية ، مع وجود مدخل مخفور فى الطابق الأرضى ، كان بمثابة أسوار للمنازل ، كان من شأنها حماية المنازل حماية فعالة من دخول الأشرار فى أوقات الاضطراب.

وكانت فى أقدم المنازل منافذ صغيرة ، كانت نوافذها عبارة عن ألواح تسدها للوقاية من الجو ، وفيما بعد كانت لمنافذ المنازل نوافذ دائمة كانت تصنع من القماش المعالج بالزيت ، ثم من الورق ، وفى النهاية من الزجاج . وفى القرن الخامس عشر ، أصبح استعمال الزجاج أكثر انتشاراً ، وكان إلى ذلك الحين لا يستخدم إلا فى المبانى العامة بسبب ارتفاع ثمنه — وكان استعماله فى البداية مقصوراً على الجزء الأعلى من النوافذ : وفى اللوحة التى رسمها چوس ڤان كليڤ (Joos Van Clave) (وهى الآن فى متحف المتروبوليتان) فى القرن السادس عشر ، وهى تصور بشارة السيدة العذراء ، يرى المرء نافذة مزدوجة مقسمة ثلاثة أقسام ، والقسم الأعلى منها ثابت ومؤلف من لوحات زجاجية ماسية الشكل ومعشقة بالرصاص ، والقسمان الآخران لهما مصاريع تفتح إلى الداخل . وعلى هذا النحو كان يتسنى التحكم فى مقدار ما يسمح بإدخاله من الهواء وضوء

الشمس ، بيد أنه فى الأيام التى يقسو فيها الجو كان يمكن إغلاق المصاريع المركبة فى كلا القسمين السفليين دون حجب الضوء بالكلية . ومن حيث اعتبارات الصحة والتهوية أياً كانت ، فإن هذا الطراز من النوافذ الذى كان شائعاً فى الأقاليم الواطئة كان يفوق ما أعقبه من طراز النوافذ المصنوعة بأكملها من الزجاج ، نظراً إلى أن الزجاج يحول دون مرور الأشعة فوق البنفسجية التى تقتل الجراثيم ، بل إنه كان يفوق على وجه أوقع وأوضح الحائط الزجاجى المحكم الجوانب الذى تولت أخيراً النزعة المعمارية السائدة إقامته فى عصر مفروض فيه أنه مستنير ، دون مبالاة بكل قواعد على الصحة أو الفسيولوجيا .

وبحلول القرن السادس عشر كان الزجاج قد أصبح زهيد الثمن ، ويستخدم على نطاق واسع ، حتى إن القول الشائع فى إنجلترا عن قصر هاردويك (Hardwick Hall) بأنه « كان يتألف من زجاج أكثر مما كان يتألف من جدران » — إن هذا القول كان ينطبق كذلك على سائر منازل المواطنين . ولكن من الغريب حقاً أن نظام التهوية فى إنجلترا كثيراً ما كان غير واف بالغرض . ألم يقترح إرازموس الروتردامى (Erasmus of Rotterdam) فى رسالة منه إلى طبيب ولزى (Wolsey) أن الحالة الصحية فى إنجلترا قد تتحسن إذا ما زودت حجرات النوم بنوافذ فى جانبين أو ثلاثة جوانب منها ؟

وفى منطقة بحر الشمال كان يمتد إطار عريض من النوافذ فى كل طابق على طول امتداد واجهتى المنزل الأمامية والخلفية ، وكان ذلك فى الواقع يوازى الميل إلى زيادة عرض المنازل ، بيد أنه فى الأجزاء الجنوبية من أوروبا أوقفت حرارة الصيف الخانقة هذا التطور إلا فى جدران حجر الجلوس . وعلى الرغم من أنه تبعاً لذلك كثيراً ما كانت الأجزاء الداخلية فى دور العصور الوسطى قليلة الضوء ، إن لم تكن مظلمة بالقياس إلى

مستوياتنا ، فإن بُناتها كانوا يقدمون على توفير الضوء عند الحاجة إليه ، فدور النساجين القديمة فى صدبرى (Sudbury) بانجلترا لها نوافذ كبيرة إلى حد غير عادى فى الطابق العلوى لتوفير الضوء للنول ، وإذا لم يتيسر الحصول على الضوء الكافى بهذه الوسيلة ، فإن العمال كانوا ينتقلون إلى خارج الدار ، كما لا يزال يفعل القدامى من صناع المخرمات مدينة بروج (Bruges) بالجلوس إلى جوار عتب أبوابهم .

ولقد اطرد التحسن فى وسائل التدفئة ، وهو ما يعلل إلى حد ما انطلاق النشاط البشرى فى الشمال ، إذ أنه بالتدريج لم يعد الشتاء فترة نوم وخمول ، فإن الموقد المفتوح فى وسط أرض البيت الحجرية — وهو لا يكاد يبلغ فى تأثيره ما يبلغه نظام التدفئة فى خيمة الهنود الحمر — إن هذا الموقد حلت مكانه المدفأة والمدخنة . ولقد اقترنت بهذا التطور العناية بوسائل مقاومة الحريق ، ففى البداية ، لما كانت المواد الملائمة تعوز الفقراء من سكان المدن ، فإن ذلك أغراهم بأن يجربوا صنع المداخن من الخشب ، وكانت تجربة تنطوى على قدر لا مسوغ له من التفاؤل ، وقد تكرر حدوثها فى مراكز الاستقرار الأولى فى نيو إنجلند وفرجينيا . وفى سنة ١٢٧٦ أصدرت مدينة لوبيك أمراً يحتم أن تكون سقوف المنازل وكذلك كل جدار مشترك بين جارين مقاومة للنار . وفى لندن ، عقب الحريق الكبير الذى وقع فى سنة ١١٨٩ ، منحت امتيازات خاصة لمن يقيمون مبانيهم بالحجر والقرميد ، على حين أنه فى سنة ١٢١٢ صدرت الأوامر بوجوب طلاء السقوف المعروشة بالقش أو « البوص » لتكون أكثر مقاومة للنار .

أما من حيث المسقط الأفقى للمنزل ، فقد كان يختلف باختلاف المنطقة والعصر ، بيد أن معالم معينة بقيت شائعة . ولقد أرانا فيولى —

لو – دوك (Viollet-le-Duc)[1] المسقط الأفقى لمنزل فرنسى به حانوت فى الدور الأرضى يتصل بمطبخ فى الخلف عن طريق دهليز مكشوف ، وكان يتألف منهما معاً فناء يشغل البئر زاوية منه . وكانت توجد مدخنة فى المطبخ وفى « حجرة الجلوس » أو الردهة الكبرى الواقعة فوق الحانوت ، وكان يمكن الوصول منها إلى حجرات النوم فى أعلاها . والمسقط الأفقى الذى رسمه موريتز هين (Moritz Heyene) لمنزل قديم فى نورنبرج لا يختلف عن هذا المنزل اختلافاً جوهرياً ؛ بيد أنه – كما هو الشأن فى المنازل التى بقيت من القرن السابع عشر – كان يوجد فيه عدد أكبر من الحجرات الداخلية ومطبخ وحجرة أصغر حجما فى الطابق الأرضى ، وحجرة فوق المطبخ يمكن تدفئتها ، وعدد من الحجرات مع دورة مياه فى الطابق الثانى ، وكانت هذه الدورة تقع مباشرة فوق تلك الكائنة فى الدور الأول .

وأما فى إيطاليا ، فإن الرغبة فى الاستمتاع بالراحة فى الصيف – ولعلها اقترنت بالولع الغريزى بالعظمة أو بحب الرومان للاتساع – كانت سبباً فى رفع السقف إلى علو جاوز كل حد معقول فى جنوة وفلورنسا منذ القرن السادس عشر ، بيد أن المبانى التى بقيت من القرن الثالث عشر ، مثل مسكن دانتى ، تتكشف عن أبعاد أكثر تواضعاً وأفضل ملاءمة للمعيشة على مدار السنة . وفى تطور بناء المنازل تسير زيادة الحرارة التى تولدها يد الإنسان مع زيادة اتساع المساحة الداخلية وارتفاع السقوف ، ولكن قلما بلغت التدفئة مستوى يتناسب مع برد الشتاء فى إيطاليا . والاتساع « البشع » الذى اتسم به مثل هذا العدد الكبير من قصور القرنين

---

(١) كان فيولى – لو – دوك (١٨١٤ – ١٨٧٩) معماريا فرنسيا مشهورا وكان زعيم حركة إحياء الطراز القوطى فى فرنسا وتولى إصلاح كنيستى نوتردام وسانت شابل فى باريس وكاتدرائيتى اڤيان ولاوْن .

السادس عشر والسابع عشر كان مؤذياً للبدن بقدر ما كان قذى للعين . ولابد من أن طوابق الخدم ذات السقوف المنخفضة كانت ــ فى الشتاء على الأقل ــ أكثر مواتاة للراحة من الأجنحة المخصصة للسادة بما كان يغشاها من تيارات الهواء .

وكان النمط الوحيد للبهو الحديث هو الرواق المكشوف أو السلم الضيق ، وكان عادة حلزونياً . وكان الرواق من المعالم الشائعة فى المنازل، وهو ما زال باقياً فى تصميم الفنادق القديمة حيث كان وجود وسيلة للمرور أمرا ضرورياً جداً ، وبسبب انعدام الإضاءة الصناعية لم تكن الردهة الداخلية حلا مرغوباً فيه إلى أن تيسر غمر الفناء الداخلى بنور السماء ، كما هو الشأن فى بعض قصور وفنادق القرن التاسع عشر . ولقد ظلت المعالم الرئيسية لهذا الطراز من المنازل باقية إلى فترة طويلة من القرن السابع عشر ، بل إلى ما بعدها .

وكلما انخفض المستوى الاقتصادى كان نظام المنازل أقل تفاوتاً والمساحة أكثر ضيقاً . ولعل المسكن المؤلف من حجرة واحدة لأسرة بأكملها فى مبنى متعدد الطوابق ــ وهو ما لا يزال شائعاً بين الفقراء فى بلاد كثيرة ــ لعله نشأ فى المدن التى ازداد اشتغالها بالصناعة فى أواخر العصور الوسطى . وحتى فى الريف حيث لم يتعذر وجود الأرض ، يروى كولتون أن أسرة تتكون من ثلاثة أفراد كانت تعيش فى منزل يبلغ طوله أربعا وعشرون قدماً ولا يزيد عرضه على إحدى عشرة قدماً . ومن ثم فإنه ، سواء فى المدينة أم فى الريف ، لم يكن سبب ضيق المساحة ذاتها إلا ضيق ذات اليد .

ولما كان منزل ساكن المدينة يستخدم مصنعاً ودكاناً ومكتباً ، فإن هذه الحقيقة كانت تحول دون قيام البلدية بتخصيص مناطق منفصلة لكل نوع من هذه الأعمال . ولا سبيل إلى الشك فى أن الإحتياج إلى شغل الحيز الواقع بين أجزاء البيت المخصصة للسكن وتلك المخصصة للعمل ،

كان سبباً فى أن الحدائق الخلفية لم تبق على حالتها الأصلية ، بل طغت عليها الحظائر والسقائف ودور التشغيل (الورش) الخاصة . بيد أنه ما زال يوجد فى مدينة بروج مصنع للجعة يشغل الآن جانباً بأسره تقريباً من الميدان المعروف بميدان وال (Walplatz) ، وقد بنى فى حجم ذات المسكن المجاور له ، ويتم الشحن فى الفناء الواقع خلف المبنى ، وهنا يتوافر اتساع كاف للمخزن والسقيفات وحظيرة السيارات — ولكنها ما زالت وفقاً لمقاييس العصور الوسطى : وفيما عدا الحالات التى كانت فيها الصناعة قليلة الشأن شديدة الضوضاء — وعندئذ كانت توضع غالباً فى أطراف المدينة أو خارج أسوارها — فإن هذه الصلة الوثيقة بين الحياة الصناعية والحياة المنزلية ظلت زمنا طويلا أمراً عادياً مألوفاً ، وهو ما يتناقض تماماً مع الوضع المنعزل ، المعقم بحكم القانون ، لأحياء السكنى فى الوقت الحاضر .

والواقع أن الإنتاج على نطاق واسع وتجميع الأنوال فى حظائر كبيرة كانا معروفين فى الفلاندر فى القرن الرابع عشر ، وكانت صناعات مثل صناعات الغزل والزجاج والحديد تحتاج إلى طراز من دور التشغيل أكثر انعزالا ، وكانت تحيط بها فى بعض الأحيان دور للتشغيل ذات صلة بها ، كما هو الشأن فى حالة عدك المنسوجات والصباغة والنسيج والتكمش[١] . فى هذه الصناعة حدث أول انفصال بين العمل والحياة المنزلية ، سواء فى المكان أم فى الوظيفة ، إلا أنه فى مبدأ الأمر كان طراز نظام حياة الأسرة يسود نظام الحياة الصناعية ، كما كان يسود نظام أديرة طائفة البندكتين . ولقد بقيت مخلفات هذا النظام قائمة فى كل مدينة أوروبية تاريخية ، فعادة الإقامة فى مكان العمل التى احتفظ بها تجار الأقمشة فى لندن زمناً طويلا ، مع

---

(١) إحدى عمليات تجهيز بعض الأقمشة ويراد بها تفادى تكمشها بعد إستخدامها .

تخصيص أماكن منفصلة لمبيت الرجال والنساء ، كانت من المخلفات النمطية الباقية من العصور الوسطى .

ولم تتسرب إلا ببطء أساليب الأرستقراطية إلى باقى السكان ، من حيث توزيع الحجرات وتخصيص كل منها لغرض معين . فأسباب الراحة التى كان ينعم بها النبلاء وخدمهم ، رجالا وسيدات ، فى القرن الثالث عشر ، لم تصبح شائعة يستمتع بها عامة الناس إلا فى القرن السابع عشر . وقد يتبين المرء فى ذلك دليلا آخر على « قانون التسرب الحضارى » ، أى استحداث المبتكرات على يد أقلية ممتازة ، وتسرب هذه المبتكرات ببطء على مر القرون إلى الطبقات الأدنى منها اقتصادياً . وقد كان أول تغيير أساسى من شأنه أن يؤدى إلى تعديل شكل بيت العصور الوسطى هو نمو حب الاختلاء . فقد كان ذلك يعنى فى الواقع اعتكاف المرء حين يشاء عن مشاركة رفاقه فى حياتهم وشواغلهم ، أى الخلوة فى النوم ، والخلوة فى الأكل ، والخلوة فى المراسم الدينية والاجتماعية ، وأخيراً الخلوة فى التفكير . ولقد أفضى ذلك إلى توضيح شامل للوظائف وفصل بعضها عن بعض ، بل لقد امتد ذلك حتى شمل طهى الطعام فى فرنسا فى القرن السابع عشر .

وفى قصور القرن الثالث عشر يلاحظ المرء وجود حجرة نوم خاصة لأصحاب القصر النبلاء ، كما يجد المرء كذلك على مسافة غير بعيدة عنها ، مرحاضاً خاصاً جاثماً فوق الخندق . وهذه أول بادرة من بوادر الترف الذى جاء به القرن التاسع عشر ، وكان من شأنه أن يكون لكل أسرة مرحاض خاص ، أو إسراف الأمريكان فى طلبهم بأنه يكون لكل حجرة نوم مرحاض خاص . وفى سنة ١٣٦٢ نجد أن لانجلاند (Langland) — فى مؤلفه بيرز الحراث (Piers Plowman) — ينحى باللائمة على السيد النبيل والسيدة النبيلة لانسحابهما من الردهة العامة لتناول طعامهما على انفراد وللتسلية فى عزلة : ولابد من أنه كان قد توقع نهاية هذه الصلة الاجتماعية

المتبادلة بين الطبقة العالية والطبقات الدنيا فى النظام الإقطاعى ، وهى صلة كانت تخفف مما كان ينطوى عليه هذا النظام من ألوان العسف والإرهاق ؛ إذ كانوا جميعاً يتقاسمون المعيشة فى الأماكن ذاتها . ولقد كانت الرغبة فى الخلوة أمارة على قيام تلك الحركة الجديدة ، حركة تنظيم صفوف الطبقات ، وهى التى أفضت إلى ما أعقبها فيما بعد من التنافس الطبقى الحاد والتهافت على الصدارة والسيطرة ، فإنه عندما تغفو الضمائر يسهل اقتراف الأعمال المنافية للإنسانية ضد أولئك الذين لا تراهم العين .

ومن المحتمل أن فصل المطبخ عن حجرة الأكل ليس من خواص أغلب المنازل فى أى بلد فى الوقت الحاضر ، والواقع أنه فى أمريكا ، نتيجة لعدم وجود خدم المنازل ، نجد أن الاتجاه يسير بسرعة نحو استعادة الجمع بين هذين الجزأين شكلا وعملا . ولقد حدث مثل هذا الانفصال فى الدير ، بسبب ضخامة الكميات التى كانت تعد للطعام ، ثم انتقلت المحاكاة إلى القصر الريفى ، والكلية ، ومنزل المدينة الأنيق . بيد أنه كان يتوافر فى الأجزاء العامة بهذه المنشآت ما يهيئ أسباب اختلاط الناس بعضهم ببعض ، فقد كانت عادة هى وحدها التى تتوافر فيها التدفئة . ولما كان منزل العصور الوسطى بارداً فى الشتاء — ولم يكن على وجه التقريب أقل برودة فى الجنوب منه فى الشمال — فلعل ذلك كان السبب فى إنشاء قبو يوضع فيه الفراش (السرير) ، أو إسدال الستائر حول الفراش لتمكين الحرارة التى يحتويها الجسم من تدفئة الهواء الراكد .

لكن لا بد من أن البرد كان لا يبلغ حداً لا يطاق ، وإلا لكان الناس قد عمدوا إلى ارتداء ملابس للنوم أو التدثر بقميص بدلا من « الذهاب إلى فراشهم عارين » على نحو ما تمثلهم صور لا عدد لها . ولقد ظهرت الخلوة فى الفراش أول ما ظهرت فى إيطاليا بين الطبقات الراقية ، وتشهد بذلك صورة « رؤيا القديسة أورسولا » — لكارباتشو Carpaccio ، وهى

مصورة فى حجرة نوم لا يزال من الممكن اعتبارها اليوم حجرة لائقة وبديعة ، إلا أنه يبدو أن الرغبة فيها تطورت ببطء يكاد يماثل البطء الذى تطورت به وسائل الحصول عليها . فى بعض المناسبات كان ميكيل انجلو ينام مع عماله ، بمعدل أربعة فى فراش واحد ، وإلى عهد متأخر بلغ القرن السابع عشر ، كانت الخادمات كثيراً ما ينمن فى فراش ذى عجلات كان يوضع ليلا عند الطرف الأدنى لفراش سيدهن وسيدتهن ، ويدفع نهاراً تحت هذا الفراش الكبير ، على حين أنه قبل ذلك بثلاثة قرون ، يشير توماس هوكليف (Thomas Hoccleve) فى قصيدة له إلى أن نبيلا إنجليزياً earl وزوجته وابنتهما والمربية كانوا جميعاً ينامون فى حجرة واحدة .

وإلى وقت ابتكار السرير ذى الستائر ، لابد من أن الاتصال الجنسى كان يتم فى أغلب الأحيان تحت الغطاء وفى الظلام ، سواء أكان الفراش محجوباً أم غير محجوب بالستائر ، ولقد سبق الخلوة فى الفراش وجود حجرة خاصة للنوم ، إذ أنه حتى فى نقوش القرن السابع عشر التى تصور حياة علية أفراد الطبقة الوسطى — وذلك فى فرنسا وهى البلاد المعروفة بالذوق المرهف — كثيراً ما نجد أن الفراش لا يزال يحتل مكاناً فى حجرة الجلوس . وفى مثل هذه الظروف لابد من أن العملية الجنسية كانت قصيرة المدى ، وتكاد تكون خفية ومقرونة بقدر ضئيل من الإثارة التمهيدية عن طريق العين أو الصوت أو الحركة الطليقة ، بيد أن الغريزة الجنسية كانت لها مواسمها دون شك ولا سيما فى فصل الربيع ، فإن تقاويم الطوالع التى ترجع إلى أواخر العصور الوسطى ، فى تصويرها تلك اليقظة ، ترينا العشاق وهم يمارسون المخالطة الجنسية فى العراء وعليهم كامل ثيابهم ، وبالجملة فإن العاطفة الجنسية كانت أشد إغراء فى الحديقة والغابة أو فى كنف سياج ما — على الرغم من الحشرات أو بقايا جذور المزروعات —

مما كانت تبلغه فى البيت على حشية لم يكن ما يحشوها من الزغب أو القش القديم ليخلو أبداً من الرطوبة الكريهة الرائحة أو الهوام. ولابد من أن العشاق فى بيوت العصور الوسطى كانوا يعتبرون الشتاء ملحفة كبيرة مبتلة ، إلا أنه فى مقابل هذا التفسير الذى ينطوى على قدر من الاستنكار فإن واجب الأمانة يقتضينا أن نورد الرأى المضاد له الذى أعرب عنه أحد شعراء العصور الوسطى — وهو فرانسوى فيللون (Francois Villon) — فهو يقول : « إنهم يفاخرون بالنوم فى ظل أشجار الغابة ، ولكن عفوا ، أو ليس أفضل من ذلك النوم على فراش تحوطه المقاعد ؟ فماذا تقول أنت فى هذا ؟ أيحتاج الأمر إلى مزيد من الشرح ؟ فما من كنز يعادل فى قيمته المعيشة فى راحة وهدوء » .

ولإجمال وصف منزل العصور الوسطى ، يمكن القول بأنه كان يتميز على وجه عام بانعدام الأماكن المخصصة لأغراض متباينة ، ومع ذلك فإن هذا النقص فى التخصيص الداخلى كان يعوضه فى المدن تقدم المؤسسات العامة التى تؤدى الوظائف المنزلية تقدماً أتم وأوفى بالغرض . فإذا كان المنزل ينقصه فرن خاص للخبز ، فقد كان يوجد فرن عام فى حانوت الخباز أو الطباخ القريب ، وإذا كان يعوزه حمام خاص ، فقد كانت توجد فى الحى دار للاستحمام تابعة للبلدية ، وإذا كان يفتقر إلى الوسائل التى من شأنها أن تيسر عزل وتمريض أحد أفراد الأسرة ، فقد كانت توجد مستشفيات عامة عديدة ، مما حمل « توماس مور » على أن يتصور فى مؤلفه يوتوبيا (Utopia) أن الناس فى جمهوريته المثالية سوف يفضلون أن يعهد فى العناية بشئونهم إلى مثل هذه المنشآت . وإذا أعوزت العشاق حجرة خاصة للنوم فقد كان بوسعهم « الاضطجاع وسط حقول الحبوب الشاسعة » ، الواقعة خارج أسوار المدينة مباشرة — فيالبئس ما تصور !

ومن الواضح جلياً أن منزل العصور الوسطى لم يتوافر فيه إلا النزر اليسير من أمرين هامين تستلزمهما المعيشة المنزلية فى الوقت الحاضر ، وهما : الخلوة ، والراحة ، وقد كان من شأن الاتجاه فى أواخر العصور الوسطى نحو زيادة امتداد المنازل الضيقة نحو الداخل ، تحت ضغط الازدحام ، حرمان أولئك الذين كانوا يقضون أكثر وقتهم بانتظام داخل البيت — وهم الأم والخدم وصغار الأولاد — حرمانهم باطرادٍ الهواءَ والنورَ الضروريين ، وهو ما كان ميسوراً لدى أهل الريف المقيمين فى أكواخ أكثر بساطة .

ولنتأمل هذا التناقض الذى جاء به الرخاء ، فطالما ظلت ظروف الحياة خشنة — حين كان الناس لا يحجبون أحوال معيشتهم ، يبولون دون حرج فى الحديقة أو فى الشارع ، ويشترون ويبيعون فى الهواء الطلق ، ويفتحون نوافذهم على مصاريعها ليدخل ضوء الشمس بكامل قوته — كانت عيوب مساكن العصور الوسطى ، من الوجهة البيولوجية ، أقل خطورة بكثير مما كانت عليه بعد ذلك فى كنف نظام أوفر حظاً من الرقى والتهذيب : أما من حيث مزايا هذا النظام ، فإن البيت لم يكن فى أثناء النهار مكاناً معزولا لإشباع الشهوه الجنسية ؛ إذ كان للنساء دور وثيق الصلة بكل ما يتعلق بشئون الأسرة والعمل ، ولعل دوام وجود المرأة — وإن كان فيه أحياناً ما يلهى كان له تأثير على حياة العمل بحيث جعلها أكثر رقة وإنسانية ، وقد بلغ هذا التأثير مرتبة مثالية من جراء عبادة العذراء التى كلف الناس بها فى القرن الثالث عشر .

وقد ترتب على تقدير الأمومة فى ذاتها وارتفاع مكانتها ازدياد العناية بالأطفال . ولم يكن إهمال شأنهم هو الذى أدى إلى ارتفاع نسبة الوفيات بينهم فى حقبة العصور الوسطى إلى ذلك الحد المفزع على قدر ما نستطيع تقديره ، فقد وردت بين مطبوعات القرن السادس عشر مطبوعات صور

تبين المهد ، وحصان اللعب ، بل حتى آلة المشى للطفل الذى لم يتعلم بعد المشى وحده ؛ إذ أن هؤلاء الملائكة الصغار كانوا يعاملون بحب وحنو . ولم تكن أعمال النحت الخزفية التى صنعها أندريا ديلاروبيا (Andrea della Robbia) – وهى من أبدع أعماله – إلا من أجل دار للأطفال فى بياتزا انونزياتا (Piaza ss. Annunziata) فى فلورنسا .

ولكن عيوب البيئة المنزلية أخذت تزداد باطراد تحت ضغط تزايد الازدحام وارتفاع أجور المساكن فى أواخر العصور الوسطى ، ولابد من أن الأمراض التى تنتشر عن طريق اللمس أو التنفس كانت تجد الفرصة مهيأة أمامها إلى أبعد مدى لتتفشى بين كل أفراد الأسرة فى منزل الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى ، فقد كان المسكن الحضرى فى الواقع أضعف حلقة فى سلسلة الأنظمة الصحية فى العصور الوسطى منذ بعدت الأماكن الطبيعية الطلقة الهواء عن المدينة تبعاً لازدياد نموها وشغلت الأفنية والحدائق الداخلية بالمبانى . وأما من حيث الاعتبارات الأخرى ، فإن مستواها كان أوفى بكثير بالغرض مما ظن أغلب المعقبين من عهد الملكة فيكتوريا ، ومما يظن أولئك الذين ما زالوا يرجعون أصداء آرائهم المشوبة بالتحامل : ويكررون أخطاءهم فى رقة ووداعة .

٣ — الهواء والفضاء والعناية بالشئون الصحية

وحسبنا هذا القدر عن المعيشة المنزلية ، ولكن ماذا عسانا أن نقول عن نظام المدينة فى نطاقه الأوسع مدى ؟ إنى سأبدأ بالمجال الذى شاع فيه الخطأ والتحامل لمدة تزيد على قرنين ، وأعنى به مجال العناية بالشئون الصحية فى العصور الوسطى .

وكما هو الحال فى شأن كل خاصية أخرى من خواص مدينة العصور الوسطى ، فإن موضوع العناية بالشئون الصحية موضوع تصعب معالجته نظراً إلى التباين الكبير فى هذا الصدد ، ليس فيما بين مختلف البلاد فحسب ،

بل فيما بين البلديات التى لا تبعد الواحدة منها عن الأخرى أكثر من مسيرة يوم على الأقدام . ولا يقتصر الأمر على وجود اختلاف بارز فيما بين المدن بالذات فى أثناء فترة بعينها ، بل يوجد هذا الخلاف كذلك فى المدينة نفسها فى فترات مختلفة . وفضلا عن ذلك يجب ألا يغيب عن بالنا أن العادات التى تكون مأمونة العاقبة تماماً وسط عدد قليل من السكان تحوطهم مساحات وافرة من الأرض الخلاء ، تصبح عادات قذرة حينما يحتشد معاً العدد نفسه من الناس فى شارع واحد . ولننظر إلى كمبردج مثلا ،حيث كان يسمح — طبقاً لما يقوله كولتون — بأن تتراكم أكوام الروث والفضلات فى الطرق العامة دون أن تنقل من مكانها إلا مرة كل أسبوع ، ولعله لم يكن من قبيل المصادفة أن برلماناً اجتمع فى كمبردج فى سنة ١٣٨٨ وأصدر أول قانون فى انجلترا للعناية بالشئون الصحية فى المدن .

ويحتمل كل الاحتمال أنه فى أوائل العصور الوسطى كانت القرية أو المدينة تحظى بأحوال صحية أفضل — على الرغم من بدائية الوسائل الصحية فى داخل المنزل وخارجه — مما كانت تحظى به ما أعقبها فى القرن السادس عشر من القرى والمدن الأوفر رخاء . وذلك لأن الأمر لم يكن مقصوراً على أن المدينة الواقعة خلف الأسوار كانت صغيرة إلى حد يسمح بسرعة بلوغ الأرض الخلاء ، بل إن قسما لا يستهان به من السكان كانت لديهم حدائق خاصة خلف منازلهم ، وكانوا يزاولون حرفاً ريفية فى داخل المدينة ، وهذا يماثل تماماً ما كان يحدث حتى سنة ١٨٩٠ فى المدينة الصغيرة من ذلك النمط الشائع فى أمريكا ، وما لا يزال يحدث فى أماكن كثيرة .

وفضلا عن ذلك فإن سكان المدن كان من عادتهم أن تكون لهم فى الضواحى بساتين فاكهة وحقول كروم ، كما كان من عادتهم الاحتفاظ بأبقار أو أغنام فى الحقول العامة يتولى أمرها رعاة من قبل البلدية ، بل

كانوا يحصلون على بعض مايحتاجون إليه من الخشب من غابة المدينة . وكان المشتغل بصيد الطيور أو اقتناص الأرانب يستطيع ممارسة عمله على مقربة من المدينة ، ولقد لاحظ وليم فيتز ستيفن Wiiliam Fitz Stephen أن مواطنى مدينة لندن كان لهم حق الصيد فيما يجاورها من مقاطعتى ميدلسكس وهيرتفوردشير ، وفى تشيلترن هندريدز (Chiltern Hondreds)[1] وجزء من مقاطعة كنت ، فقد ظلت غابة ابينج (Epping Forest) زمناً طويلا مرتاداً محبوباً لديهم . وكذلك كان صيد السماك يجرى بنشاط فى جداول الماء القريبة من المدينة ، فأوجسبرج مثلا ذاعت شهرة سمكها المعروف بسملك أربوان trout[2] ، وإلى سنة ١٨٦٣ كان كثير من موظفى المدينة يأخذون مرتباتهم سمكاً من هذا النوع .

ويمكن ملاحظة ما كان للريف من تأثير قوىّ فى تخطيط المدن الباكرة ، فإن المدينة النمطية فى العصور الوسطى كانت أقرب إلى ما نسميه اليوم قرية أو مدينة ريفية منها إلى مركز تجارى حديث مزدحم بالسكان . وكثير من مدن العصور الوسطى التى أوقف نموها قبل القرن التاسع عشر لا تزال الحدائق وبساتين الفاكهة ترى فى وسطها ، على نحو يماثل ما نراه فى نقوش القرن السادس عشر . والمستوى الذى حققته مناطق الإسكان النموذجية فى أواخر القرن التاسع عشر ، مثل بورنفيل (Bournville) وبورت صنلايت (Port Sunlight) من حيث وفرة الأماكن الطلقة الهواء ، لم يكن فيما يحتمل أكثر سخاء مما كانت تستمتع به الطبقات المتوسطة فى بلاد كثيرة ، فجوته فى ترجمته الذاتية التى أصدرها بعنوان : « الشعر والحقيقة » (and Warheit Dichtung) يصف حديقة خلفية بالغة الأناقة فى فرانكفورت القديمة ، وهو ما كان يلائم الحياة العائلية كل الملاءمة .

---

(١) أقسام إدارية فى مقاطعة بكنجهامشير .

(٢) يعيش هذا السمك فى المناطق الباردة وهو يشبه « السلمون » ومنه نوع مهاجر يسمى فى مصر المبروك .

وكان أهل العصور الوسطى يألفون الحياة خارج المنزل ، فقد كانت لديهم حقول للصيد وساحات للعبة البولنج bowling[1] فكانوا يقذفون الكرة ، ويركلون كرة القدم ، ويتسابقون فى العدو ، ويزاولون التدريب على رمى السهام . ومن أجل تهيئة الفرص لممارسة كل هذه الألعاب كانت توفر لها مساحات من الأرض الفضاء القريبة . ويلاحظ جوڤانى بوتيرو Giovanni Botero أنه عندما شغلت مساحات الأرض الفضاء وفر فرنسيس الأول لطلبة جامعة باريس روضة على مقربة من النهر — وهو ما يدل على أنه فيما بين الجامعة على الضفة اليسرى لنهر السين و « ايل دولا سيتى » Ile de la Cité كانت الأرض إذ ذاك أبعد من أن تكون مشغولة بالمبانى . ونذكر عرضاً أن هذه الروح ، روح اللهو الصميم الخالى من الكلفة ، ما زالت حتى اليوم تشيع فى حديقة لوكسمبرج التى تبز كل الحدائق الحضرية الرسمية بأنها أكثرها مرحاً ، ولعلها أيضاً أوفرها جمالا :

وبالجملة فإنه من حيث مساحات الأرض الفضاء التى يمكن الانتفاع بها ، كانت المدينة النمطية فى العصور الوسطى عند إنشائها ، وخلال معظم أدوار حياتها ، توفر لجموع سكانها مستوى أرفع بكثير مما تهيأ لأى نوع تال من المدن ، إلى حين ظهور الضواحى الرومنطيقية فى القرن التاسع عشر . وأما فى المدن التى احتفظ فيها بالأراضى العامة الفضاء ، كما هو الحال فى ليستر Leicester بوجه خاص ، فقد اتخذت أساساً لإنشاء حدائق عامة كانت تنافس ما يقام منها فى القصور الملكية .

ولتكوين فكرة عن مدى المستوى الذى بلغته العصور الوسطى من حيث مساحة الأرض التى كانت تترك فضاء فى المبانى ، يجب أن يتجه

---

(١) تستخدم فى هذه اللعبة كرة خشبية أصغر من كرة القدم ومثبت بأحد جوانبها قطعة من المعدن من شأنها أن تجعل الكرة تميل إلى الانحراف فى مسارها . ويقذف المتبارون بالتناوب عدداً متساويا من هذه الكرات لتدنو من نقطة محددة وصاحب أقرب كرة إلى هذه النقطة يكون الفائز .

المرء نحو ما ظل باقياً من المبانى الشبيهة بالرسمية ، مثل مبانى هيئات المحاماة (Inns of Court)[1] فى لندن والكليات فى أوكسفورد وكمبردج ، أو ما لا يزال موجوداً فى هولندا أو بلچيكا وانجلترا من الدور المخصصة للعجزة من كبار السن . ويجب ألا ينظر الإنسان إلى الشوارع الضيقة الكائنة بين المنازل دون أن يتذكر ما كان يمتد عادة خلف هذه المنازل من الأرض الفضاء المكسوة بالخضرة أو الحدائق المنسقة فى دقة وعناية .

وإنى لأبرز الصفة الريفية التى لازمت باستمرار مدينة العصور الوسطى ، لأن الصورة الكاذبة المضادة قد استقرت فى الأذهان زمناً طويلا بوصفها فكرة ثابتة ، وتكاد تكون قد استقرت على نحو لا يقره العقل إلى حد أن الإدلاء بالبينات الواقعية لا يقوى على إزالتها . فما زال الناس يخطئون فى توهمهم أن الأنقاض المتراكمة ، التى ملأت الأرض الفضاء المكسوة بالخضرة ، كانت المبنى الأصلى ، الذى كان طلقاً وقائماً على أسس سليمة . وطالما بقيت هذه المساحات من الأرض الفضاء فإن الوسائل الصحية البدائية فى المدينة الصغيرة فى العصور الوسطى لم تكن حتماً مؤذية على نحو ما صورت عليه . فلو أن الروائح الكريهة كانت عامة وموجودة باستمرار لما قدمت شكاوى كتلك التى قدمتها طائفة الإخوة الوعاظ فى بيزييه (Beziers) فى ١٣٤٥ بسبب الروائح الكريهة التى كانت تنبعث من إحدى المدابغ .

وبمرور الزمن عمد السكان المتزايدون — وكثيراً ما كانوا عاجزين عن الانتشار فيما وراء أسوار المدينة — إلى شغل المساحات الفضاء الداخلية ، وإذ ذاك ارتكبت مخالفات صحية خطيرة . وأما كيف وقع ذلك ، فإنه يمكن معرفته من حالة نمطية أوردها « ستو » ، فقد كانت كنيسة إحدى الأبرشيات ، وهى كنيسة القديسة مارى — لو—بو (St. Mary-le-Bow) ،

---

(١) فى لندن أربع هيئات لها وحدها حق الترخيص بممارسة مهنة المحاماة وهى ترجع إلى القرن الرابع عشر .

فى حاجة إلى فناء لدفن الموتى ؛ بيد أنه عند منتصف القرن الخامس عشر كانت المنازل قد اكتنفتها من كل جانب ، فوهب جون روزام (John Rotham) بموجب وصيته حديقة معينة فى حارة هوزير (Hosier's Lane) ، لتكون فناء للكنيسة . وبعد مائةسنة لم تكن حالة العاصمة المكتظة بالسكان تسمح حتى بترك مساحات من الأرض الفضاء لدفن الموتى ، ومن ثم فقد أقيمت المبانى على تلك القطعة من الأرض ، أى إنها كانت على التعاقب حديقة ، فمقبرة ، فأرضاً للمبانى . وأخيراً كان من الممكن فى القرن السابع عشر إقامة المبانى فوق الفناء الخلفى أيضاً ، فيكون من شأن ما ينجم عن ذلك من خليط مناف للصحة ، تراكمت فيه الأقذار على مر السنين ، أن يعتبره عندئذ أحد رسل التقدم فى القرن التاسع عشر مثالا نمطياً لفرط الازدحام فى العصور الوسطى .

ومع ذلك ، فإنه ما من شك فى أن الجثث المتحللة ، التى دفنت طبقاً للطقوس المسيحية الصحيحة ، كانت تصبح مصدراً يهدد الصحة العامة فى مدينة العصور الوسطى ، حالما يتسنى لها تلويث موارد المياه عن طريق التسرب . ومع تزايد عدد السكان كان تراكم الموتى فى قلب المدينة يزيد من خطر هذا التهديد . ومن حيث الدفن وكذلك من حيث القيام بالمزيد مما يقتضيه الوفاء نحو ذكرى الميت ، كان من المريح طبعاً وجود الموتى على مقربة من الأحياء ، قيد مسافة يمكن قطعها سيراً على الأقدام . بيد أن مزاولة تلك العادة فى مدينة تعتمد على الآبار والعيون للحصول على مياه الشرب كانت إحدى المخالفات الصحية البالغة الخطورة فى مدينة العصور الوسطى .

وأما تصريف المواد البرازية ، فقد كان على الدوام — وما زال إلى الآن — مصدر قلق وإزعاج فى مراكز الاستقرار الحضرية المزدحمة .. فأغلب المدن الكبرى فى جميع أنحاء العالم لم تبد إلى الآن مقدرة كافية فى التدبيرات الفنية التى اتخذتها لمعالجة هذه المشكلة ، فإنها — باعتمادها على

المرحاض الذى يطرد ما تجمع فيه بشدة اندفاع المياه — إنما تلوث مجارى مياهها وتبدد المواد النيتروجية الثمينة التى كان من الممكن أن تزيد من خصوبة التربة . وفى العهود السابقة ، حيثما كان أهالى المناطق المجاورة للمدن من الفلاحين وزراع الخضر والفاكهة لتموين السوق المحلية يستغلون قُربَ المدينة ، وذلك بجمع المواد البرازية بانتظام لاستخدامها فى أرضهم ، كانت المدينة والأرض تستفيدان فى آن واحد . والواقع أنه كلما كانت المدينة أكبر حجما ، كانت الأرض الواقعة خارجها أكثر خصوبة ، وكانت ثمرة جهود زراع الخضر والفاكهة أوفر ربحاً .

وعندما نصل إلى الحكم على مدينة العصور الوسطى ، فإن النقطة الجديرة بالذكر والملاحظة هى أن الوسائل الصحية البدائية ليست حتما وسائل صحية معيبة ، فإن بيتا ريفياً فى العصور الوسطى لم تكن توجد فيه وسيلة لإزالة ضرورة إلاكوم السماد العـــام ، لم يكن خطراً يتهدد صحة ساكنيه بمثل جسامة الخطر الذى كان يتهدد صحة سكان مدينة راقية — فى العهد السابق على ظهور باستور فى القرن التاسع عشر — كانت تنعم بمراحيض أنيقة فى كل مسكن من مساكن الطبقة المتوسطة ، ولكنها كانت تنكب بمياه للشرب مستمدة من النهر عينه الذى كانت تفرغ فيه مجارى المدينة الواقعة أعلاها على مجرى النهر .

ومنذ سنة ١٣٨٨ أصدر البرلمان الإنجليزى قانونا يحظر إلقاء القاذورات والقمامة فى الأخاديد والأنهار والمياه ، بل لقد ذهب الشاعر ليدجيت (Lydgate) إلى أبعد من ذلك فى قصيدته « كتاب طروادة » إذ أنه تحدث عن نهر « ممتلئ بالسمك الوفير » أعدت التدابير فيه لنقل القاذورات والمواد البرازية عن طريق أنابيب للمجارى ، « وبتلك الوسيلة تؤمن المدينة تماما من خطر أى تلوث ومن الهواء الفاسد ومن العدوى التى كثيراً مايكون اشتدادها سببا فى الوفيات وفى الأوبئة الخطيرة » .

وعلى مثال التشريع ، فإن هذه الفقرة تعترف بوجود شر خطير وتصف

العلاج . وبحلول القرن السادس عشر كانت قد انتشرت على نطاق واسع مثل هذه التدابير الخاصة بالإشراف الصحى وآداب السلوك ، ولذلك فإن « ستو » يشير إلى أنه كان يوجد فى لندن أمر يقضى « بأنه لا يسوغ لأى فرد أن يوارى الأرض أى روث أو فضلات داخل نطاق المدينة » ولا « أن ينقل شيئا من المواد البرازية قبل الساعة التاسعة مساء ، » أى إلى ما بعد وقت النوم . ويذكر وليم ستبز W. Stubbs أن أول مؤسستين عامتين لأعمال المجارى وإمداد المياه كانت تملكهما مدينة بونزلاو Bunzlau فى سيليزيا فى سنة ١٥٤٣ . وإذا كان يذكر كذلك أن المواد البرازية كانت تنقلها الأنابيب إلى منطقة مخصصة للصرف ، مما يوحى بوجود مزرعة للمواد البرازية على النمط الحديث ، فإنه لا يوضح كيف أن هذا الابتكار الذى يبعث على الحيرة سبق الابتكار الإنجليزى لدورة المياه فى سنة ١٥٩٦ . بيد أن ألبرتى Alberti فى الفصل الذى كتبه قبل ذلك بقرن كامل عن أنابيب الصرف والمجارى قد فرق بين أنابيب الصرف « التى تنقل الأقذار إلى نهر أو بحيرة أو بحر ما » وتلك التى تنتهى إلى « حفرة عميقة حفرت فى الأرض » . وقد زاد على ذلك أن « الأحواض المعدة لاستقبال البول يجب أن تكون بعيدة عن المنزل بقدر الاستطاعة » .

ولو أنه كان لدينا مزيد من العلم عن حدوث الأمراض المعدية فى العصور السابقة ، لتسنى أن تكون لدينا صورة أوفى عن العناية بالشئون الصحية فى العصور الوسطى ، إلا أنه ليس ثمة ما يدل على أن نكبات الطاعون كانت أشد عنفاً أو أكثر حدوثاً مما بلغته الهجات المتكررة للتيفود والكوليرا على المدن الأمريكية الأوروبية فى أوائل القرن التاسع عشر ، كما أنه ليس ثمة ما يكفى من الأدلة على أن التدابير الصحية السيئة كانت هى المسئولة وحدها عن نشأة أو شدة ضراوة الأوبئة فى العصور الوسطى . بيد أنه فى ذلك الحين ، كما هى الحال اليوم ، ربما كان فى الافتقار إلى وسائل تيسر عملية الغسيل ما يعلل الإصابة بالدوسنتاريا عن طريق تلوث

الطعام ، بل حتى ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال ، وهو ما لا سبيل إلى الشك فيه . غير أن أكثر الجرائم ذيوعاً ضد الصحة كان مجرد الإهمال في العناية بشئون المنزل ، كالعادة الشائعة بتغطية أرض الحجرات بالسمار دون تغييره في فترات متقاربة ، وهي عادة كانت ذائعة في انجلترا وانتقدها « ايراسموس » مر الانتقاد مع الإشارة بعنف إلى تراكم القش والقاذورات والعظام التي علاها العفن ، دون حاجة إلى ذكر القيء والبول وروث الحيوانات الأليفة .

بيد أنه حتى مع العناية بالشئون الصحية في المدن وفي البيت على مستوى أرفع من ذلك بكثير ، فإن المدن الحديثة تجتاحها من حين إلى آخر موجات الانفلونزا وشلل الأطفال ، والوقع أن نسبة الوفيات من جراء الانفلونزا في خلال الوباء الهائل الذي حل في سنة ١٩١٨ كانت تعادل نسبتها في جميع أوبئة العصور الوسطى فيما عدا أسوأ ما عرفته تلك العصور وهو وباء الموت الأسود ذاته . وإذا كانت لدى الطفل في العصور الوسطى فرصة ضئيلة في أن تمتد به الحياة بعد مولده ، فلعل سوء نظام التغذية ، ولا سيما في الشتاء ، يجب ألا يقل نصيبه من التبعة عن نصيب سوء تصريف المواد البرازية ، ومن المحتمل أنه كان للافتقار العام إلى الصابون نصيب أكبر من المسئولية عن وفيات الأطفال .

وكما أوضح الأستاذ لين ثورندايك (Prof. Lynn Thorndike) ، فإنه فيما يتعلق بهذه الشئون ، تقف أدلة قاطعة في صف الكثير من مدن العصور الوسطى . وهو يستشهد بما كتبه بروني (Bruni) في مديح فلورنسا ، حيث يلاحظ بروني أن « بعض المدن يبلغ من قذارتها أنه مهما تكن القذارة التي تحدث في أثناء الليل ، فإنها توضع عند الصباح أمام أعين الناس لكي تطأها الأقدام ، وهو ما يستحيل على المرء أن يتخيل شيئاً أشد منه نكراً ، لأنه حتى إذا كان يوجد هناك ألوف (من

القصور) ، أو ثروة لا تنفد ، وجموع من الناس لا حصر لها ، فإنى على الرغم من ذلك سوف أندد بمدينة بلغت هذا الحد من الدنس ولن تكون لها قيمة كبيرة فى نظرى » . وكذلك فإن ليلاند (Leland) ، وهو شاهد عيان من عصر لاحق ؛ كان فى رحلاته فى أرجاء انجلترا يعنى على وجه خاص بالإشارة إلى القذارة كلما مرّ بها فى طريقه ، ومن الواضح أنها كانت نادرة إلى حد يستحق الذكر والتعليق . وقد لاحظ ألبرتى أن مدينة سيينا (Siena) القائمة على جانب التل والمعروفة بانعدام المجارى فيها ، كانت تنبعث منها الروائح الكريهة فى جميع أوقات النهار . وجملة القول أن الأدلة لا تكفل إدانة شاملة ولا براءة جامعة .

بيد أنه من المحقق أنه حوالى أواخر العصور الوسطى أصبحت الحالة أسوأ مما كانت عليه ، بالرغم من النظم التى وضعت للعناية بالشئون الصحية ، وكان ذلك راجعاً إلى ظهور العمائر المتعددة الطوابق ، التى كثيراً ما كانت تصل فى ارتفاعها إلى أربعة أو خمسة طوابق ، وأحياناً إلى عدة طوابق أعلى من ذلك فى مدن مثل أدنبرة . فكانت أمثال هذه المساكن العالية لا تشجع على استخدام وسائل التيسير الخارجية ؛ إذ أن المسافة فى ذاتها بين الطوابق العليا والأرض كانت تغرى الناس بالإهمال والقذارة عند تفريغ أوانى إزالة الضرورة . وهنا غدا الافتقار إلى وسيلة تقنية وافية بالغرض أمراً مفزعاً إلى الحد الذى بلغه قديماً فى حالة « الجزر » الرومانية ، ولكن هذا كان تطوراً متأخراً نشأ عن الأجور المرتفعة للمساكن وازدحام الناس فى المدن . وإلى أن بدأ الازدحام المفرط ، يرجح أن الروائح العادية فى إحدى مدن العصور الوسطى لم تكن تبعث على التقزز أكثر من تلك التى كانت توجد فى ساحة مزرعة من المزارع . ولم يكن للقرن التاسع عشر ، بما ارتكب فيه من تصرفات شائنة منافية للقواعد الصحية السليمة ، أن ينحى باللائمة على العهد السابق ، فإن المجارى المفتوحة فى « مركز راق من مراكز الحضارة » مثل برلين — على النحو الذى وجدها عليه الدكتور وليم أوسلر (Oser) فى سنة

١٨٧٣ – كانت على ما يرجح لا تقل عن ذلك إزكاما للأنف ، وكما لاحظ ، لم تكن أقل خطراً على الصحة .

وما ينطبق على البراز ينطبق كذلك على القمامة ، وقد كانت الفضلات تأكلها الكلاب والدجاج والخنازير ، فكانت تقوم بعمل الكناسين ، وفى تصوير مصغر (miniature) – رُسم فى سنة ١٣١٧ ونشره بويت (Poëte) – نرى خروفا وخنزيرا يعبران قنطرة فى باريس التى كانت عندئذ أكبر عاصمة فى أوروبا . وعندما أقبل القرن السادس عشر ، نجد أن المدن – التى كانت تدار بحكمة وهيأت التدابير لتنظيف الشوارع – كانت تحظر كذلك تربية الخنازير فى أى جزء من أنحاء المدينة ، حتى فى الحدائق الواقعة خلف المنازل . بيد أنه فى العهود الأولى ، كان الخنزير عضوا عاملا فى الهيئة المحلية للصحة ، وعلى مثال الكثير من الأنظمة الأخرى فى العصو الوسطى ، ظل باقيا فى مراكز أكثر تأخرا إلى منتصف القرن التاسع عشر .

ولا ريب فى أن الفضلات غير الصالحة للأكل كانت أشد صعوبة فى التخلص منها ، مثل الرماد وفضلات المدابغ والعظام الكبيرة ، ولكن من المحقق أن ما كان يوجد منها أقل بكثير مما يوجد فى المدينة الحديثة ، فقد كان يندر ، بل ينعدم ، وجود علب الصفيح والحديد والرخام المكسور والقاذورات والورق ، ففى العصور الوسطى ، كانت الفضلات بصفة رئيسية من المواد العضوية التى كانت تتحلل وتمتزج بالأرض . ويجب ألا نغفل من حسابنا الختامى أعظم وسيلة لدى البلدية لإبادة الجراثيم ، وهى الحرائق ، فقد كان من شأن هذه الأوكار المكونة من مبان خشبية أن تشب فيها الحرائق المعروفة فى تاريخ كل مدينة ولاسيما فى القرون الأولى ، وبذلك كانت تتعرض شوارع وأحياء بأكملها لتأثير أقوى المطهرات مفعولا . ولم تكن هذه المهمة غير معروفة للناس ، فإن « ستو » يلاحظ أن عادة إشعال النيران فى أيام الأعياد الصيفية لم تكن مجرد مناسبة للمصالحة بين

الخصوم ، بل كان لها من المزايا ما لحريق كبير فى تطهير الهواء من جراثيم العدوى . وعلى ذلك فإن إضفاء كساء فاخر من الآجر والحجر على مدن العصور الوسطى هو الذى قضى غدرا على تلك الوسيلة الساذجة ، وسيلة استخدام النيران بمثابة مبيد للجراثيم .

٣ — التطهر والحواس الخمس

ما زال باقياً للمناقشة أمران آخران يرتبطان أشد الارتباط بالصحة ، وهما الحمام وتدبير مياه الشرب .

ظهر الحمام الخاص منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر ، فإن سيدة من أبطال قصص بوكاتشو أعدت العدة ليستحم عشيقها فى الحوض ، وعندما لم يحضر استحمت هى نفسها من باب الاقتصاد . وأحياناً كان الحمام يأتى فى ركاب حجرة لارتداء الملابس ، ويستفاد ذلك من سجل خاص بإدارة منزل تاجر فى نورنبرج فى القرن السادس عشر ، على حين أنه فى المسكن المؤلف من ثلاث حجرات ، الذى جاء وصفه مدينة « يوهان أندرياى » المثالية كريستيانوبوليس (Christianopolis) ، كان الحمام معتبراً إحدى الحجرات ، شأنه شأن المطبخ وحجرة النوم . والواقع أنه فى سنة ١٤١٧ كانت مدينة لندن ترخص بوجه خاص بإنشاء حمامات ساخنة فى المنازل الخاصة . بيد أنه إذا كانت ثمة حاجة إلى ما يثبت موقف العصور الوسطى من النظافة ، فإن انتشار دور الحمامات العامة خليق بأن يكون فيه ما يكفى .

وقد كانت دور الاستحمام من الخواص التى اتسمت بها كل مدينة فى شمال أوروبا ، وكان من الممكن أن توجد فى كل حى ، بل إن جوارينونيوس (Guarinonius) شكا من أن الأطفال والفتيات الحديثات السن ، ممن يتراوح عمرهن بين العاشرة والثامنة عشرة ، كانوا يجرون عارين فى الشوارع

للذهاب إلى إحدى دور الاستحمام . وكان الاستحمام متعة أسرية ، وأحياناً كان بعض الأفراد يتولون إدارة هذه الحمامات لحسابهم الخاص ، لكن يحتمل أن ما جرت به العادة أكثر من ذلك هو أن تتولى البلدية إدارتها . وطبقاً لما يقوله فون بيلو (von Below) ، ورد ذكر دور الاستحمام فى ريجا منذ القرن الثالث عشر ، وفى القرن الرابع عشر كانت توجد سبع من أمثال هذه المنشآت فى ويرتزبرج (Würzberg) ، وعند نهاية العصور الوسطى كانت توجد إحدى عشرة فى أولم (Ulm) ، واثنتا عشرة فى نورنبرج ، وخمس عشرة فى فرنكفورت على نهر الماين ، وسبع عشرة فى أوجسبرج ، وتسع وعشرون فى ڤيينا . والواقع أن فرنكفورت كان يوجد بها تسعة وعشرون من مديرى دور الاستحمام فى وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٣٨٧ . ولقد بلغ من ذيوع الاستحمام فى العصور الوسطى أن تلك العادة انتشرت حتى فى المناطق الريفية التى كان سكانها موضع تقريع كتاب القصص الفرنسية المنظومة الذين كانوا يشبهونهم بالخنازير القذرة . وحمام العصور الوسطى ، بأخص سماته ، قد ظل باقياً إلى اليوم فى القرية الروسية والقرية الفنلندية .

وكان الغرض من الحمامات العامة تصبب العرق والتعرض للبخار ، أى النظافة التى تكاد تبلغ حد التعقيم . وقد جرت العادة بأن يتم تطهير البشرة على هذا النحو مرة على الأقل كل أسبوعين ، وأحياناً فى كل أسبوع . وكان التلاقى فى دار الاستحمام ، كان هذا الحدث فى ذاته ، يساعد على تنمية روح الألفة بين الناس ، على غرار ما كان له من أثر فى العصر الرومانى دون أى تحرج من جراء الكشف عن الأبدان ، وهو ما أظهره دورر (Dürer) بوضوح فى إحدى صوره المطبوعة . فلقد كان الحمام مكاناً يتجاذب الناس فيه أطراف الحديث والأقاويل ويتناولون الطعام ، بل كان بعضهم أحياناً يأتنس فى حوض الاستحمام بصحبة من الجنس

الآخر ، وفضلا عن ذلك فإن الحمام كان يستخدم بمثابة مركز شبه طبي ، حيث كان المرء يوجه عنايته إلى ما هو أخطر من ذلك شأناً ، وهو الاحتجام للبرء من بعض الآلام أو حالات الالتهاب .

وعندما تكاثر عدد العزاب فى المدينة الآخذة فى النمو — وفيما يحتمل تدهورت الحياة العائلية ذاتها — أصبحت دور الاستحمام منتدى للنساء الخليعات الساعيات وراء الصيد ، وكذلك للفاسقين ممن كانوا ينشدون إرضاء شهواتهم . وفى وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٤٣٨ ، عندما زار النبيل الإسبانى تافور (Tafur) مدينة بروج ، أزعجه أن يرى الرجال والنساء يستحمون معا فى دور الاستحمام « وهو ما يعتبرونه بريئاً من كل عيب على نحو ما نعتبر نحن ارتياد الكنيسة » ، فقد كان هذا المشهد أحد المناظر المثيرة الممتعة التى كانوا يأخذون الأجانب لرؤيتها . ونتيجة لذلك فإن اللفظ الذى كان يستعمل فى القرون الوسطى للدلالة على دار الاستحمام (stew) انحدر إلينا فى اللغة الإنجليزية ، بصفته مرادفاً لكلمة « ماخور » ، وقد استعمل فى هذا المعنى منذ كتاب « بيرز الحراث » .

ولعله لم يكن إلا من قبيل العدالة المثالية أن كثيراً من مدن القرن التاسع عشر ، فى زهوها بكل وسائل التقدم التى جعلتها تتخطى ما كان مزعوما وجوده فى العصور الوسطى من القذارة وسوء النظام ، كانت أول خطوة خطتها للتعويض عن افتقارها التام إلى وسائل تيسير الاستحمام فى الأحياء الفقيرة هى إنشاء دور عامة للاستحمام . وما من شك فى أن القائمين على إدارة تلك المدن كانوا خليقين بأن يصدموا لو علموا أنهم إنما كانوا يقتفون أثر سابقة شائعة فى العصور الوسطى ، ويفعلون ذلك على نطاق ضيق إلى حد يدعو إلى الرثاء .

وكان تدبير مياه الشرب من المهام الجماعية أيضاً فى المدينة ، وذلك أولا بإحاطة بئر أو ينبوع بسياج ملائم لصيانته ، ثم بإقامة نافورة

فى الميدان العام الرئيسى ، وينابيع ونافورات فى أماكن مجاورة للمساكن ، فكانت توجد أحياناً وسط وحدة من المساكن وأحياناً فى الطريق العام ، ولقد كان من أول الأعمال التى قام بها البابا مارتن الرابع ، عندما استأنف الإقامة فى الفاتكان بعد الانشقاق الأكبر ، أنه أمر بترميم إحدى القناطر المحطمة ، التى كانت تحمل المياه إلى روما لإمداد سكانها المتزايدين بالماء . وكلما ازداد عدد السكان ، كثيراً ما كان يتعين إيجاد موارد جديدة ، فضلا عن توزيع الموارد القديمة على مناطق أكثر اتساعا . وفى سنة ١٢٣٦ منح امتياز بمد أنابيب من الرصاص لنقل الماء من مجرى تيبورن (Tyborne Brook) إلى مدينة لندن ، وفى سنة ١٣٧٤ مدت أنابيب المياه فى زيتاو (Zittau) ، وفى سنة ١٤٧٩ كانت مدينة برسلاو تستخدم المضخات لجلب الماء من النهر ثم توزعه فى أرجائها عن طريق الأنابيب . ومن المحتمل أن تلك الأنابيب كانت من نوع الأنابيب الخشبية المتخذة من كتل خشبية بعد تجويفها ، وهى التى نشرت رسومها فى مؤلف الدكتور چورج باور « عن التعدين » (De Re Metallica) وظلت مستعملة فى جزيرة مانهاتان مثلا حتى القرن التاسع عشر . وحتى القرن الخامس عشر كان تدبير أنابيب المياه فى لندن أمراً من الأمور الإنسانية المتروكة لمحبى فعل الخير أسوة بإقامة المستشفيات والملاجئ .

وكما كانت الحال فى شأن الحمامات ، فإن نظام توصيل المياه عن طريق الأنابيب إلى نافورات عامة ثم توزيعها منها على المنازل عن طريق النقل باليد لم يكن فيه من أسباب الراحة ما يوفره اتساع نطاق نظام عام بحيث تصل المياه عن طريقه إلى كل أصحاب المنازل ، بيد أن قيام الشركات الخاصة بجلب المياه من مسافات بعيدة عن طريق الأنابيب لم يبدأ فى الظهور إلا فى القرن السابع عشر ، وقلما كانت تجلب كميات كافية من المياه . وكانت النافورة تعوض عما تسببه من متاعب ، بأنها كانت

تؤدى وظيفتين هامتين كان مآلهما إلى الزوال مع ازدياد الكفاية فى الأساليب التقنية ؛ وذلك أن النافورة العامة كثيراً ما كانت قطعة غنية تسر العين كما تطفئ الظمأ ، ولا سيما فى مدن إيطاليا وسويسرا . وفضلا عن ذلك فإنها كانت مركزاً للألفة بين الناس بتوفيرها مناسبة للاجتماع وتبادل الأحاديث والأخبار ، نظراً إلى أن النافورة أو المضخة كانت لا تقل شأناً عن حجرة الشراب فى الحانة من حيث القيام – لقاء قروش معدودة – بدور مركز لنشر الأخبار المحلية . والمهندسون والمتخصصون فى العناية بالشئون الصحية ، حين يسعون اليوم إلى أن ينشروا فى البلاد المتخلفة ما لديهم من المزايا الآلية المألوفة المتخلفة لإرسال المياه إلى كل بيت فى قرى بدائية فيما عدا ذلك ، كثيراً ما يصيبون حياة الأهالى الاجتماعية بتصدع خطير دون أن يقدموا لهم ما فيه العوض الكافى عن ذلك .

ومن إحدى النواحى ، كان القصور الذى اتسم به تدبير الماء لمدينة العصور الوسطى – كان هذا القصور فى ذاته مصدراً لقوة المدينة فى الدفاع ، لأنها فى كنف هذا النظام كانت على الأقل تستطيع سد حاجتها بما فيها من موارد الماء . وبعد القرن السابع عشر عند ما اضطرت المدن الآخذة فى النمو إلى البحث عن الماء فيما وراء تحصيناتها ، وضعت نفسها تحت رحمة جيش يتمكن من السيطرة على الريف المكشوف ومن قطع موارد المياه عنها ، وبذلك فإن جيوشها أيضا كانت ترغم على الخروج إلى الأرض المكشوفة . بيد أن المدن الكبرى ظلت تواصل نموها على نحو أسرع مما كانت تنمو به مواردها التقنية والمالية على السواء ، وقد أدى ذلك إما إلى القناعة بمورد ضئيل للماء ، وإما إلى الإسراف فى الاعتماد على موارد ملوثة بمواد المجارى ، أو مسممة بالمواد الكيميائية . وهذا يعلل إلى حد كبير اختفاء العادات النظيفة للعصور الوسطى فى العواصم المتواصلة النمو ، كما يعلل ما وقع فعلا من حوادث شح الماء التى زادت وطأة ضروب

التعاسة الأخرى التى حلت بالمدن الصناعية الجديدة فى القرن التاسع عشر .

وعلى نقيض الوهم الذى ما زال شائعا ، فإن كثيراً من مدن العصور الوسطى كانت من حيث إجراءاتها الصحية ، العلاجية والوقائية ، تسبق بشوط كبير المدن التى خلفتها فى عصر الملكة فيكتوريا . وعلى وجه قاطع ، كانت المستشفيات العامة إحدى الهبات المسيحية للمدينة . ويروى جيروم أنه فى سنة ٣٦٠ ميلادية تخلى فابيولا (Fabiola) عن داره الأنيقة لعلاج المرضى المعوزين الذين كانوا لولا ذلك ، يتركون حتى يموتوا فى حالة تعسة فى شوارع روما . ومنذ ذلك الحين ، وبسرعة فائقة بعد القرن الحادى عشر ، قامت الطوائف الدينية بإنشاء المستشفيات فى كل مدينة تقريبا . وطبقاً لما يقوله هايل (Heil) ، كان يوجد عادة مستشفيان على الأقل فى أغلب المدن الألمانية ، أحدهما لمرضى الجذام ، والثانى لأنواع الأمراض الأخرى ، على حين أنه فى المدن « الكبرى » مثل برسلاو — وكان سكانها يبلغون ٣٠٫٠٠٠ فى القرن الخامس عشر — كان عدد المستشفيات يبلغ خمسة عشر ، أى مستشفى لكل ألفين من السكان . فأى مدينة حديثة تستطيع أن تهيئ مثل هذه الإعدادات الوافية ؟

ولنلاحظ أن هذه كانت أقرب إلى أن تكون القاعدة منها إلى حالات استثنائية ، فمدينة تولوز فى سنة ١٢٦٢ كانت توجد بها سبعة مراكز للمجذومين وثلاثة عشر مستشفى ، وكان أحد هذه المستشفيات يحتوى على ثلاثة وخمسين سريرا ، على حين أن فلورنسا فى القرن الثالث عشر — طبقاً لما أورده جوفانى فيلانى ، وكان سكانها يبلغون نحو ٩٠٫٠٠٠ نسمة — كان بها ثلاثون مستشفى تحتوى على أكثر من ألف سرير . وهنا أيضا من حيث العدد وكذلك من حيث الاتساع المتواضع ، لا يزال لدى مدينة العصور الوسطى ما تلقنه لخليفتها المتضخمة المتجردة من الصفات الإنسانية .

ولقد ظهر إلى الوجود أطباء البلدية الرسميون فى القرن الرابع عشر ،حتى قبل وباء الموت الأسود ، وذلك فى مدينة كونستانس فى سنة ١٣١٢ . ولقد أنشئت فى مدينة البندقية هيئة صحية دائمة ذات سلطات قضائية فى سنة ١٤٨٥ ، وأضيف إليها فى سنة ١٥٥٦ جهاز إدارى للتفتيش والتنفيذ ، ظل زمناً طويلا نموذجاً لباقى بلاد أوروبا . ونذكر عرضاً أن المصابين بالأمراض المعدية كانوا يعزلون عادة خارج أسوار المدينة ، وكانت الأديرة الأفضل إعداداً قد أثبتت منذ عهد طويل مزايا أقسام العزل ذات المراحيض المنفصلة . وأخيراً فإن فرض الحجر الصحى على القادمين من جهات أجنبية ، عند دخول المدن والخروج منها ،كان أحد المبتكرات العظمى لطب العصور الوسطى . ومهما يبلغ من بغض المسافرين لهذا النظام فإنه كان قائما على أسس سديدة من المشاهدات والتجارب الواقعية ، ولا عيب فيه إلا من حيث فرط الاحتياط بجعل مدة الحجر تبلغ ثلاثة أضعاف المدة اللازمة لحضانة الميكروب .

ولم يكن كبح جماح الأمراض المعدية واستئصال شأفة الجذام من أوروبا تدريجيا بفضل عين سياسة التشدد فى العزل إلا انتصاراً للطب الوقائى . وأطباء أوائل القرن التاسع عشر من أنصار المذهب العقلى — وكانوا يعتبرون فى ثقة واطمئنان أن انتقال العدوى والإصابة بالمرض دون ملامسة ليس إلا تصوراً خرافيا وليد خيال العصور الوسطى — لم يبلغوا فى الواقع مستوى أسلافهم فى العصور الوسطى من حيث دقة الملاحظة للأسباب والنتائج .

فمدينة العصور الوسطى لم تكن فى جوهرها إذن مجرد مجتمع معقد يبعث على النشاط والحركة ، بل كانت كذلك بيئة بيولوچية أكثر ازدهاراً مما يتسنى للمرء أن يتصوره عندما يرى بقاياها الخربة ، فقد كانت هناك غرف مفعمة بالدخان يجب تحملها ، ولكن كانت هناك رائحة عطرة فى

الحدائق الكائنة خلف بيوت سكان المدينة ؛ إذ أن الأزهار والأعشاب الزكية العبير كانت تزرع على نطاق واسع ، وكانت رائحة فناء المزرعة تنتشر فى الشارع حتى القرن السادس عشر عندما أخذت تتضاءل فيما عدا ما ترتب على ازدياد وجود الخيل وحظائرها . بيد أنه كانت توجد أيضا رائحة بساتين الفاكهة عند إزهارها فى الربيع ، أو رائحة الحبوب التى حصدت حديثا ، وكان الهواء يحملها عبر الحقول فى أوائل الصيف .

وقد يشيح أبناء المدن بأنوفهم إزاء هذا الجمع بين النتن والعبق ، بيد أنه ما من محب للحياة الريفية يمكن أن تثنيه عنها رائحة روث بقرة أو حصان . وهل رائحة الغازات المنبعثة من استهلاك وقود السيارات ، والرائحة الكريهة للحشود التى تزدحم بها المركبات الكهربية التى تسير فى أنفاق تحت سطح الأرض ، والرائحة النفاذة لأكوام القمامة ، والأدخنة الكبريتية الصادرة من مصنع للمواد الكيميائية ، والنتن الممتزج برائحة حامض الفنيك الذى يهب من المراحيض العامة ، بل يمكن أن نتساءل هل رائحة الكلور التى تنبعث من قدح من ماء الشرب العادى أدعى إلى الرضا والارتياح ؟ فحتى فى أمر الروائح لا تنفرد المدينة الحديثة بالجمال كله ، إلا أنه ما دامت الروائح هى روائحنا نحن ، فإن الكثيرين منا يستنشقونها فى دعة وهدوء غافلين عن التنبه إليها .

وأما فيما يتعلق بالعين والأذن ، فإنه لا مجال للشك فى الجانب الذى ترجح كفة مزاياه ، ففى هاتين الناحيتين كانت الأغلبية بين مدن العصور الوسطى تفوق بدرجة بالغة المدن التى أنشئت فى خلال القرنين الأخيرين ، أو لا يزال الناس يحجون إليها فى الواقع بسبب جمالها على الأخص ؟ فقد كان الإنسان يستيقظ فى مدينة من مدن العصور الوسطى على صياح ديك أو زقزقة العصافير التى بنت عشها تحت أطراف السقف المائل ، أو على دقات الساعة فى الدير القائم فى مشارف المدينة ، أو ربما على رنين الأجراس

فى برجها الجديد بميدان السوق إيذاناً ببدء ساعات العمل أو بفتح السوق . وكانت الأغانى تخف إلى الشفاه فى يسر ، من أناشيد الرهبان البسيطة إلى مقطوعات الأغانى التى يشدو بها المغنى فى ساحة السوق ، أو تلك التى يترنم بها صبيان الحرف أو خادمة المنزل فى أثناء قيامها بعملها ؛ إذ أن الغناء والتمثيل والرقص كانت لا تزال من ألوان النشاط التى يمارسها الناس بأنفسهم .

وإلى عهد متأخر بلغ القرن السابع عشر ، كانت القدرة على المشاركة فى أغنية جماعية يؤديها أفراد الأسرة تعتبر فى نظر پيپس (Pepys) صفة لا غنى عنها فى خادمة جديدة . وكانت موسيقى العصور الوسطى حتى زمنه توضع للأصوات على الأخص ، وتوجه إلى القائمين بالغناء أكثر من توجيهها إلى المستمعين . وكانت الأصوات تتوحد فى النغم مع التعدد فى الطبقات ، فيحتفظ كل منها بطبقته مردداً النغم نفسه فى حدود طاقته ، وذلك بالضبط مثلما كانت كل نقابة وكل حرفة تحتفظ بكيانها فى داخل المدينة ؛ فقد كان كل صوت ينضم إلى الآخر ويمضى فى متابعة النغم ، مثلما كانت نقابة بعـــد أخرى تشترك فى الموكب بأعلامها وعرباتها الاستعراضية . وكان يتخلل نظام العمل اليومى أغانى العمل ، وكانت لكل حرفة أغانيها الخاصة ، وكثيراً ما كان يوضع اللحن بحيث يتلاءم مع ما يؤديه العامل نفسه من دق ، أو طرق ، أو تمايل .

وكانت أصوات الطبيعة تختلط فى كل مكان بأصوات الناس ، ولقد ذكر فيتز ستيفن فى القرن الثانى عشر أن صوت طاحونة الماء كان جميلا وسط حقول لندن الخضراء ، وكان السكون شاملا فى الليل ، فيما خلا حركة الحيوانات ، وهتاف حراس المدينة كل ساعة لإعلان الوقت ، فكان النوم العميق ميسوراً فى مدينة العصور الوسطى فى مأمن من إنهاك الأعصاب المؤلم الناجم عن ضوضاء الإنسان أو الآلات :

وإذا كانت مدينة العصور الوسطى تشجى الأذن ، فإنها كانت متعة أكبر للعين ؛ إذ أن كل جزء فى المدينة ، ابتداء من الأسوار ذاتها ، كان يُصمم ويُنفذ بوصفه قطعة فنية . وحتى الأجزاء التى يتكون منها مبنى مقدس وقد لا تراها العيون كانت مع ذلك يعنى بإتمام صنعها فى دقة بالغة كما لو كانت ستتعرض بأكملها للأنظار ، وهو ما لاحظه رسكن (Ruskin) منذ عهد طويل ، فعلى الأقل سوف يشهد الله بأمانة الصانع فى أداء عمله واغتباطه بإتقانه ، وكان العامل يجوس فى الحقول أو الغابات المجاورة فى يوم عطلته ويعود إلى عمله فى نحت الأحجار أو نقر الخشب أو مزاولة النسيج أو صياغة الذهب بمحصول وفير من الانطباعات فيتولى نقلها إلى ما يصنعه . ولم تكن المبانى عفنة الرائحة و « غريبة » فى نوعها ، بل كانت من حيث النظافة والبهاء تضارع أنوار المهرجانات فى العصور الوسطى ، ولو لم يكن ذلك إلا لأنهـا كانت تطلى عادة بالجير حتى يتسنى لكل ألوان الصور المرسومة على الزجاج أو الخشب المموه بعديد الألوان ، أن تتراقص فى انعكاسها على الجـدران ، حتى وإن اهتزت الظلال كأغصان الزنبق على الواجهات وزخارف الزينة المتشابكة فى المبانى المزدانة بوفرة من أعمال النحت . .

والنزعة الجمالية قد تفتقر إلى اسم ينم عنها ، لأنها لم تنفصل إطلاقا عن الرموز الدينية أو الاحتياجات العملية ، إلا أن ثمارها كانت بادية فى كل مكان ، وكذلك فإن الرغبة فى الجمال لم تكن لا شعورية ؛ إذ أن الشوارع كانوا يعمدون إلى إطالة امتدادها ، كما يلاحـظ براونفلز (Braunfels) ، « من أجل جمال المدينة » . ألم يدل المواطنون فى فلورنسا بأصواتهم عن طراز الأعمدة التى تستخدم فى كاتدرائيتهم ؟ فالتماثيل المنحوتة ، والرسوم الحائطية ، والمداميك البارزة (corbels) والصور أو النقوش على ثلاث لوحات متجاورة (triptyches) ، والستائر ، كانت تزين الكنيسة

ودار النقابة ومنزل ساكن المدينة سواء بسواء . وكان تنسيق السلع فى السوق المكشوف يزيد فى بهجة المنظر العام الذى تقع عليه العين : من أنواع المخمل والديباج والنحاس والصلب المصقول والجلد المزخرف بالضغط والزجاج اللامع ، فضلا عن ألوان الطعام المرتبة فى سلالها المفتوحة .

ولنقم بجولة فى أرجاء ما بقى قائماً إلى اليوم من هذه الأسواق التى ترجع إلى العصور الوسطى ! وسواء أكانت مغبرة كسوق يوم الأحد فى هوايت تشابل (Whitechapel) أم فسيحة الأرجاء كتلك الكائنة على بلان باليه (blain balais) فى جنيف ، أم كانت تتربع فوق عرش من الجمال مثل سوق القش فى فلورنسا ، فإنها جميعاً ما زال فيها بعض ما كان فى مثيلاتها السابقة فى العصور الوسطى من أسباب إشاعة البهجة فى النفس : ومجمع السوق الأمريكى بأجهزته الآلية التى يكسوها طلاء من البلاستيك ، وما فيه من إضاءة فلورسنية بشعة ، ومن تغليف براق خلاب المظهر ، ومن شباك سخيفة نُصبت فيها عوامل الإغراء بخبث لإثارة الدافع النفسانى للشراء ، وما فيه من أنواع التطهير السامة لحفظ المأكولات ، ومن الأغذية المجمدة العديمة الطعم التى أوقف فسادها بوسائل التحايل الصناعية — وهذا المجمع يعطينا صورة تتناقض مع الصورة السابقة وتتكشف عن خسارة جمالية وفسيولوجية فى آن واحد ، كما تتكشف كذلك عن خسارة اجتماعية .

وتربية الحواس باستمرار على هذا النحو هو الأساس الأولى لكل أنواع التربية العليا . وعندما توجد هذه التربية فى الحياة اليومية ، فإن المجتمع يستطيع أن يعفى نفسه من عبء تنظيم دراسات لتقدير قيمة الفن ، وأما عندما لا يكون لهذه التربية وجود فى الحياة اليومية ، فإن أمثال هذه المحاولات تكون إلى حد كبير مبتذلة وتقضى على نفسها بنفسها ، وذلك لأنها تتناول بوجه خاص الآراء السوقية التى تستهوى الناس فى ذلك الوقت ، دون أن تعنى بما وراءها من حقائق : وحيثما ينعدم وجود مثل هذه البيئة ،

فحتى عمليات تحكيم العقل تكاد تكون محرومة مما يغذيها ، وذلك لأن براعة القول والدقة العلمية لا تغنيان عن مثل تلك التغذية للحواس . وإذا كان هذا هو مفتاح المراحل الأولى فى تربية الطفل – وهو ما كشفت عنه مدام مونتسورى (Mme. Montessori) منذ عهد طويل – فإن ذلك يظل صحيحا حتى فى مرحلة تالية ؛ إذ أن للمدينة تأثيراً أطول مدى من تأثير المدرسة الرسمية .

وإن الحياة لتنتعش بفضل هذا التوسع فى طاقة الحواس ، فبدونه يكون النبض أشد بطوءا ، وتكون العضلات أقل صلابة ، وتفتقر أوضاع الجسم إلى الثقة ، كما ينعدم التمييز المرهف بالعين واللمس ، وقد تنهار الرغبة فى الحياة نفسها ، وذلك أن حرمان العين والأذن والجلد والأنف غذاءها الروحى من شأنه أن يفضى إلى الموت ، كقطع الطعام عن المعدة . ومع أن الغذاء كثيرا ما كان ضئيلا فى العصور الوسطى ، ومع أن كثيراً من أسباب ترفيه البدن كانت معدومة ، حتى لدى أولئك الذين كانوا لا يفرضون على أنفسهم الحرمان تكفيراً عن ذنوبهم ، فإن أشد الناس عوزا ، أو أكثرهم زهدا ، لم يكن ليستطيع أن يغمض عينيه عن الجمال كلية . ولقد كانت المدينة بذاتها عملا من أعمال الفن ماثلا أمام الناس على الدوام ، وكانت ملابس المواطنين فى أيام الأعياد بمثابة حديقة يانعة الأزهار . وما زال فى وسع المرء اليوم أن يحس بعض هذا الإحساس بمتابعة موكب المساء فى يوم عيد القديس يوحنا بفلورنسا من كنيسة سنتاماريا نوفيلا (S. Maria Novella) إلى بياتزا ديللا سنيوريا (Piazza della Signoria) .

٤ — قواعد تخطيط المدن فى العصور الوسطى

عندما أقبل القرن الثالث عشر ، كانت الأوضاع الأساسية فى مدينة العصور الوسطى قد أصبحت ثابتة ، وأما ما أعقب ذلك فإنه كان إتماماً

للتفاصيل . بيد أن الأنظمة الجديدة التى بدأت تسيطر على المدينة حرمت الدير والحصن نفوذهما القديم ، ولم يكن الاتجاه فى القرون الثلاثة التالية نحو الحرية والتورط والتحدى والمغامرة ، فإن الحروب الصليبية وبعثات التبشير والاستكشاف فتحت آفاق عالم أوسع نطاقا .

ولقد دخلت المدينة عوامل دينامية جديدة فأحدثت من ضروب الضغط والتوتر ما يتمثل على خير وجه فى الكاتدرائيات الجديدة التى شيدت على الطراز القوطى ، وضحت بمتانة الجدران فى سبيل أن يكون داخلها مفتوحا أمام الضوء الغامر . وكان فى وسع المرء أن يشاهد آثار هذه الدينامية على حدود المدن ، فى مجموعات الطواحين الهوائية التى كانت تحيط بها ، وكذلك فى قلبها ذاته ، عندما اتجه نحو حياة الحضر طوائف الوعظ الجديدة وأتباع المذهب البروتستنتى العلمانيون ، وأخذوا ينشئون دوراً لطوائفهم ومذاهبهم فيما تبقى من الأرض الفضاء .

ولنلق نظرة على المحتويات الجديدة للمدينة ، فإن مثالا هنا ومثالا هناك من شأنه أن يكشف عن التكوين الاجتماعى الجديد والتوزيع الجديد للجماعات الحضرية ، ففى كركاسون فى سنة ١٣٠٤ كان عدد السكان يبلغ نحو ٩٫٥٠٠ نسمة كانوا ينقسمون إلى أهل ٤٣ دارا للنبلاء ، و٤٢ تاجراً منهم ١٢ من اللومبارديين و ٣٠ من اليهود ، و ٦٣ من كتبة العقود ، و ١٥ من المحامين ، و ٤٠ من الجنود ورجال الشرطة وحملة الرسائل ، و ٩ من الأطباء خريجى الجامعة ، و ٩ من القسس ، و ٢٥٠ من رجال الدين . وفى فلورنسا فى القرن الرابع عشر ، كان يوجد بين سكانها البالغ عددهم ٩٠٫٠٠٠ نسمة ٢٥٫٠٠٠ رجل تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والسبعين و« يصلحون لحمل السلاح » ، و ١٥٠٠ من ذوى الجاه ، و٧٥ من الفرسان النبلاء ، و ١٥٠٠ من الأجانب والتجار والنازلين مؤقتا بالمدينة ، وبين ٨ و١٠ آلاف من الأولاد والبنات يتعلمون القراءة ، و ١١٠ كنائس ،

و ٢٠٠ حانوت لأشغال الصوف ، و ٣٠٠٠٠ من العمال المشتغلين بالنسيج ، و ٨٠ من صيارفة النقود ، و ٦٠٠ من كتبة العقـود ، و ٦٠ من الأطباء والجراحين .

وقد كتب الراهب بونفيزين ديلا ريفا (Bonvesin della Riva) فى سنة ١٢٨٨ مديحا فى « روائع مدينة ميلان » وقدر عدد الذين كانوا يقيمون إذ ذاك فى المدينة والمنطقة التابعة لها بمائتى ألف نسمة . وكل الأرقام الأخرى التى أوردها تؤيد وصفه لمجتمع حضرى ضخم كان قد تجاوز فى كثافته مستوى العصور الوسطى . وكانت المدينة مقسمة إلى نحو مائة وخمس عشرة أبرشية ، كان البعض منها يحتوى على عدد من الأسرات يتراوح بين خمسمائة وألف أسرة . « وفى خارج سور الخندق يوجد عدد من منازل الضواحى يبلغ من من الكثرة ما يكفى وحده لتكوين مدينة » . ولعل ضغط ازدحام السكان مع الفقر يعلل ضخامة الخدمات الاجتماعية التى يصفها على النحو التالى :

« يوجد فى المدينة بما فيها الضواحى . . . عشرة مستشفيات للمرضى ، وكلها مزودة على الوجه الملائم بموارد دنيوية كافية ، والمستشفى الرئيسى بينها هو مستشفى برولو (Brolo) الذى أنشأه جوفريدو دو بوسيرو (Goffredo de Bosero) فى سنة ١١٤٥ . ويوجد أكثر من خمسمائة ممن يلازمون الفراش من المرضى الفقراء وعدد آخر يزيد على ذلك ممن لا يلازمونه ، وهم جميعاً يتناولون الطعام على نفقة المستشفى ذاته ، وإلى جانب هؤلاء ، فإن ما لا يقل عن ٣٥٠ طفلا أو أكثر موضوعين لدى مرضعات خاصة منذ ولادتهم . . . وكذلك فإن الفقراء المحتاجين إلى جراحات يدأب على العناية بهم ثلاثة من الجراحين المخصصين لهذا الواجب بالذات ، وهؤلاء يتناولون مرتباً من القومون .

« وتوجد كذلك ، فى المدينة وفى الريف ، دور لأفراد الطبقة الثانية من كلا الجنسين من أتباع مذهب إذلال النفس ، ويبلغ عدد هذه الدور

٢٢٠ داراً يعيش فى داخلها عدد كبير من الأشخاص عيشة دينية ويعملون بأيديهم » . وهذه الطوائف العلمانية — التى كانت تستهدف القيام فى قلب المدينة بمزاولة حياة تطابق التعاليم المسيحية دون الاعتزال مادياً وروحياً على نحو ما ، كانت تحتمه الأديرة القديمة — وهذه الطوائف كانت جزءاً من حركة منظمة لبث المبادئ المسيحية فى كل ناحية من نواحى الحياة ، إلا أن زعماء الكنيسة ، بدلا من الترحيب بهذه الحركة لتحقيق وجود المدينة المسيحية (كريستيانوبوليس) ، رأوا فيها تحدياً خطراً يمس سلطتهم الدينية ، وبذلك قضى على هذه الحركة وردت إلى حظيرة المنهج القديم الذى كانت تعززه السيطرة والكبرياء .

وكانت أغلب المدن فى العصور الوسطى أقرب إلى كركاسون منها إلى ميلان، من حيث الحجم والمستوى والمحتويات ، ولكن سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، فقد كانت تشتمل عندئذ على أنظمة عديدة التنوع وتهيئ مجالا واسعا لأنواع كثيرة من المواهب والاستعدادات الخاصة ، ولقد تمثلت هذه الصفات فى تخطيطها وفى مبانيها سواء بسواء .

وعلى وجه عام كانت مدينة العصور الوسطى تخطط وفقاً لواحد من ثلاثة نماذج أساسية تطابق نشأتها التاريخية ، وخواصها الجغرافية وأسلوب تطورها . ووراء هذه النماذج الحضرية كانت توجد كذلك نماذج ريفية أقدم عهداً ، كتلك التى نجدها فى قرية الشارع ، وقرية الطرق المتقاطعة ، وقرية الأرض العامة[1] ، والقرية المستديرة ، ويمكن التمثيل لها فى الرسم بهذه الأشكال : = ، + ، # ، ○ .

والمدن التى بقيت من أيام الرومان احتفظت عادة بنظامها من حيث تقسيم الأرض وحدات مستطيلة فى وسط المدينة الأصلى ، مع ما طرأ على ذلك من التعديل بإقامة قلعة أو دير ، وهو ما كان جائزاً أن يغير

---

(١) أى التى نشأت على أرض لا تدخل فى حيازة أمير الإقطاع أو غيره .

من نظام التقسيم إلى رقع متساوية : والمدن التى نمت على مراحل بطيئة من قرية أو مجموعة قرى فى كنف دير أو قلعة كانت أشد مطابقة لطبيعة تكوين الأرض ولا تتغير إلا ببطء جيلا بعد جيل ، وكثيراً ما كانت تحتفظ فى تخطيطها بمعالم كانت نتيجة لأحداث تاريخية أكثر مما كانت وليدة اختيار مقصود :

وهذا النوع الثانى من المدن كثيراً ما يعتبر النموذج الحقيقى الوحيد لمدن العصور الوسطى ، ويذهب بعض المؤرخين إلى حد القول بأن تكوينها الفعلى غير جدير بأن يسمى تخطيطاً . وأولئك الذين يشيرون إلى الشوارع المتعرجة فى مثل هذه المدن كأنها مجرد آثار لطرق سير البقر لا يدركون أن عادة البقرة فى متابعة الخطوط الكنتورية تؤدى عادة إلى تخطيط المواقع الجبلية على نحو أقرب إلى العقل وقواعد الاقتصاد من النظام الجامد للشوارع المستقيمة الاتجاه . وأخيراً فإن كثيراً من مدن العصور الوسطى أنشئ طبقاً لخطة موضوعة من قبل بقصد الاستعمار ، وفى كثير من الأحيان وإن لم يكن ذلك دائماً ، كانت هذه المدن تخطط بدقة على نمط رقعة الشطرنج مع ترك مكان فضاء فى الوسط لأجل السوق والاجتماعات العامة . وكل هذه النماذج الثلاثة وليدة العصور الوسطى ، وكانت تنشأ عنها فى حالتى الانفصال أو الامتزاج أشكال متعددة لا تحصى .

والواقع أنه فى أول بداية العصور الوسطى يكشف المرء وجود شيء من الإيثار للتخطيط الهندسى المنتظم ، مع اتخاذ المستطيل أساسا للتقسيم الثانوى ، وآية ذلك التخطيط المثالى للدور الأرضى بدير سانت جال (St. Gall) فى القرن التاسع . ولقد أوضح كنيث كونانت (Kenneth Conant) أيضاً أن المبانى الأصلية فى كلونى (Cluny) أقيمت على هيئة مستطيل فى داخل مربع يبلغ طول ضلعه ثلثمائة قدم . ومن الواضح أن ما أدلى به أوزلد سبنجلر (Oswald Spengler) من تفسير التخطيط على

نظام رقعة الشطرنج بأنه لم يكن سوى نتيجة للتحجر النهائى للحضارة على هيئة مدنية ، من الواضح أن هذا التفسير ضرب من التعميم لا يمكن الدفاع عنه . وعلى الرغم من أن التخطيط الهندسى كان مما تتصف به المدن المنشأة حديثاً أكثر من سواها ، فإن ذلك لم يكن يستتبع على الدوام أن يكون مقترناً بشكل مستطيل للمدينة بأجمعها ، كما كان الشأن فى حالة المدينة المثالية الحصينة مونبازييه (Montpazier) ، ففى بعض الأحيان كانت المستطيلات توضع فى داخل سور مستطيل يحدها ، وفى البعض الآخر كما هى الحال فى مونسيجور (Montségur) أو كورد (Cordes) بفرنسا ، كان يلاءم بذكاء بين تخطيط مستطيل فى أساسه وبين الخطوط الكنتورية والحدود الطبيعية للموقع .

وإنى أبرز أهمية هذه النقط لأن التخطيط على نمط رقعة الشطرنج أو التخطيط الشبكى كان موضوعاً لسلسلة متواصلة من الآراء والتفسيرات المضللة . فأحياناً تعتبر مثل هذه التخطيطات أنها من النمط الخاص بأمريكا أو الدنيا الجديدة ، وأحياناً تعتبر مرادفة للكآبة برغم ما كانت عليه مدينة بيبنج (Peiping) من طلاوة فى العهد السابق للشيوعية . وحتى علماء من أصحاب النظريات فى تخطيط المدن ارتكبوا مثل هذه الأخطاء ؛ وذلك إلى حد كبير بسبب عجزهم عن إدراك الفارق المألوف لدى طلبة علم الأحياء بين ما هو مضاه (homologous) وما هو موازن(analogous)[1]. فإن شكلا مشابهاً لا يستلزم حتماً أن تكون له دلالة مشابهة فى حضارة مختلفة كل الاختلاف ، فكما رأينا كان الشكل المستطيل يعنى شيئاً لدى رجل من رجال الدين فى أتروريا ، ويعنى شيئاً آخر لدى هيبودامومس ، وشيئا ثالثاً لدى أحد جنود الفرق الرومانية وهو يضرب بمعوله لإقامة معسكره ، وشيئاً رابعاً لدى أعضاء لجنة تخطيط مدينة نيويورك فى سنة

(١) الموازنة عند علماء الأحياء تعنى التشابه فى الوظيفة وليس حتماً فى الأصل أو التركيب ، وأما المضاداة فتعنى التشابه فى الأصل أو التركيب .

١٨١١ ، حين كانوا يجدون مقدما فى توفير أقصى عدد من رقعات أراضى البناء . فقد كان الشكل المستطيل فى نظر الأول رمزاً لقانون الكون بأسره ، ولم يكن يعنى فى نظر الأخيرين سوى أقصى ما يمكن من الاحتمالات الملائمة للمضاربة فى أسعار أراضى البناء .

وثمة فى الواقع سبب صحيح للاعتقاد بأن تخطيط المدن فى العصور الوسطى كان عادة أقرب إلى عدم الانتظام منه إلى اتباع نظام معين ؛ وذلك لأن المواقع الصخرية الوعرة كانت تستخدم أكثر من سواها بسبب ما كان لها من مزايا حاسمة فى أغراض الدفاع إلى أن أصبحت لنيران المدافع قوة فعالة فى القرن السادس عشر . ولما كانت الشوارع تُهيأ لوسائل النقل ذات العجلات ، ولم تكن هناك حاجة إلى مراعاة مقتضيات أنابيب المياه أو المجارى ، فقد كان أدعى إلى الاقتصاد مجاراة خطوط الطبيعة الكنتورية بدلا من محاولة تهذيبها ، ولاحظ مثلا الانحدار الموجود فى ساحة السوق العريضة بمدينة سيينا . وعلاوة على ذلك ، فإن المواطنين المقتصدين بإقامتهم المبانى على المواقع الجبلية القاحلة كانوا لا يغيرون على ما هو أوفر خصبا من الأرض الزراعية الواقعة عند السفح .

وفى التخطيط العضوى نجد أن شيئا يسوق إلى شيء ، وأن ما كان فى البداية بمثابة اغتنام مزية عارضة قد يوحى بعنصر قوى فى التصميم ، ربما يتعذر على تخطيط مستنبط أن يأتى به سلفا ، وأغلب الظن أن هذا التخطيط خليق بأن يغفل أمر ذلك العنصر أو أن يستبعده . وكثير مما لا يزال باقيا من مظاهر عدم الانتظام فى مدن العصور الوسطى إنما يرجع إلى جداول ماء ردمت ، وإلى أشجار قطعت فيما بعد ، وإلى شقق ضيقة من الأرض كانت تترك قديما دون زرع بين الحقول لتعيين حدودها . وإنه لمن العسير إزالة ما تقضى به العادة أو حقوق الملكية إذا ما استقر ذلك على هيئة أراض مجزأة أو حدود أو حقوق ارتفاق دائمة لاستخدام الطريق .

والتخطيط العضوى لا يبدأ باستهداف غرض عقدت عليه النية من قبل ، بل إنه ينتقل من حاجة إلى حاجة ومن فرصة إلى فرصة فى سلسلة متواصلة من ضروب الملاءمة التى تغدو هى ذاتها فى اطراد متزايد أشد تماسكا وأحفل أغراضا ، فيتمخض عنها تخطيط نهائى معقد « يكاد يكون أقل ترابطا من تخطيط أعد من الأصل ليكون هندسى الشكل ، وأن مدنا مثل سيينا لتوضح هذه العملية أكمل توضيح . وعلى الرغم من أن أهل المرحلة الأخيرة فى مثل هذه العملية لا تظهر معالمها بوضوح فى البداية مثلما تظهر فى نظام أقرب إلى العقل وغير من بالروابط التاريخية ، فإن هذا لا يعنى أن اعتبارات لها وزنها أمام العقل والتبصر القائم على الروية ، لم تسيطر على وضع كل جزء من أجزاء التخطيط ، أو أنه كان لا يتسنى أن ينشأ عن ذلك عمدا تخطيط مترابط متكامل .

والذين يعتبرون مشروعات التخطيط العضوى غير جديرة بأن تسمى تخطيطا إنما يخلطون بين مجرد الانتظام والتمسك بقواعد تقليدية وبين استهداف غرض معين ، كما يخلطون بين عدم الانتظام وبين الارتباك الذهنى أو عدم الكفاية التقنية ، وإن مدن العصور الوسطى لتدحض هذا الوهم ، وهم التمسك بالقواعد التقليدية ، فإنها مع كل ما فيها من ألوان التباين يتمثل فيها طراز عام واحد ، وإن ذات ما فيها من ضروب عدم الانتظام والخروج على المألوف ليست فى العادة سليمة فحسب ، بل إنها كثيراً ما تنطوى على سعة الحيلة بمزجها بين دوافع الحاجة العملية ومقتضيات الذوق الفنى .

وكل مدينة من مدن العصور الوسطى نشأت عن ظروف فريدة ، واشتملت مجموعة فريدة من القوى المترابطة ، وأوجدت فى تخطيطها حلا فريداً . ولقد كان الاتفاق فى الرأى فيما يتعلق بأهداف حياة المدينة ، اتفاقاً تاماً إلى حد أنه ليس من شأن الاختلاف فى التفاصيل إلا تأييد القاعدة . وعندما يستعرض المرء على التعاقب مائة تخطيط لمدن العصور

الوسطى ، فإن هذا الاتفاق فى الرأى يجعل المسألة تبدو كما لو كان الناس يعتنقون نظرية هى التى كانت توجه هذا التخطيط للمدن : ولقد كان الاتفاق أعمق غوراً من ذلك ، بيد أنه قبيل نهاية العصور الوسطى تولى ليونى باتيستا ألبرتى (Leone Battista Alberti) بذكائه الثاقب مهمة الإعراب عن الأساس المنطقى لهذا التخطيط ، وذلك فى مؤلفه « عن العمارة » (De Re Edificatori) .

ولقد كان ألبرتى من نواح عديدة ، مثالا نمطياً لرجال العصور الوسطى المعنيين بالدراسات الحضرية ، وهو عند ما عنى بالبحث فى تحديد المواقع لمزاولة الأعمال وفى الشوارع المتعرجة ، « لم يفعل » ، كما يلاحظ لاﭭدان (Lavedan) ، « أكثر من تسجيل استحسانه لكل ما وقعت عليه عيناه » . وحتى عند ما يسوغ البرتى وجود الشارع الذى يتعرج باستمرار بما فيه من مناظر تتغير على الدوام لأن المبانى تحول فى هوادة دون امتدادها ، فإنه إنما يعرب عن شعوره تجاه شيء كان أسلافه قد أدركوا كنهه وقدروا قيمته كذلك . فالانحناء الوئيد هو خط السير الطبيعى لمن يمشى على قدميه ، ويتسنى لأى فرد أن يلاحظ ذلك إذا تطلع خلفه إلى آثار قدميه على الثلج عند اختراق ساحة خلاء ، إلا إذا حاول عامداً أن يقاوم هذا الميل . والسرور الذى يبعثه هذا الانحناء — الذى حدده السائر على قدميه — هو ما يضفى صفة خاصة على مبانى العصور الوسطى الواقعة فى « هاى ستريت » (High Street) بأوكسفورد ، وهو مثال مكتمل لما أنشئ فى الحقبة الأخيرة للعصور الوسطى وفى عصر النهضة . وفى هذا الشارع شجرة وحيدة تمتد فروعها إلى ما يجاوز خط المبانى ، وهى تكسب الصورة من الجمال ما تعجز عنه مجموعة بأكملها من الشوارع .

ولقد كانت الرغبة فى إبراز أهمية قلب المدينة هى المصدر الآخر لوجود المنحنيات الأساسية فى مدينة العصور الوسطى . ويذهب لاﭭدان

إلى حد القول بأن « الحقيقة الجوهرية فى فن إنشاء المدن فى العصور الوسطى هى تكوين المدينة ، بحيث إن جميع الخطوط تتجه نحو مركز تتلاقى فيه ، وأن محيطها الخارجى يكون عادة مستديرا ، وهو ما يسميه المعاصرون من أصحاب النظريات نظام أنصاف الأقطار المتلاقية في مركز واحد » . ولسوء الحظ أن تعبير « أنصاف الأقطار المتلاقية فى مركز واحد » يوحى إلى الذهن بصورة نسيج العنكبوت . وعلى الأصح أن ما يجده المرء فى أغلب المدن هو حى مركزى أو القلب ، محوطاً بسلسلة من الحلقات غير المنتظمة ، التى ينشأ عنها اكتناف القلب وحمايته ، على حين أنها تجعــل الوصول إليه أقرب منالا عن طريق ممرات ملتوية . وحيثما يوجد ما يشبه عن قرب شارعاً متواصل الدوران ، فإن ذلك يكاد يكون دليلا محققاً على أن سوراً قد تم هدمه وإزالته . وحتى فى مدينة صغيرة مثل بيرج Bergues — على نحو ما نراها فى مصور بلايو (Blaeu) العظيم فإنها برغم ما فى قلبها المركزى من دقة تكاد تكون هندسية ، لا توجد بها إلا ثلاثة شوارع تتلاقى عند المركز . والتخطيط الناجم عن ذلك قد تولد عن القوتين المتعارضتين للجاذبية والوقاية ، فالمبانى العامة والأماكن الطلقة تجد الأمان وراء تيه من الشوارع التى يستطيع مع ذلك أن يجوس خلالها من يعرفها . ولم يتم امتداد الطريق رأساً إلى قلب المدينة — كما هو الشأن فى التخطيط على هيئة النجمة — إلا على يد واضعى التخطيط على الطراز الباروكى ، فقد عملوا على القضاء على نموذج العصور الوسطى — ولو أن ألبرتى نفسه ، كما حدث مصادفة — توقع هذا النظام الجديد الذى كان يرمز إلى جمع السلطات العامة فى يد هيئة مركزية أو حاكم مستبد .

والعوامل الحاسمة فى تخطيط المدن فى العصور الوسطى تصلح فى آن واحد لمدينة قديمة قائمة على أسس رومانية ، مثل كولونيا ، أو لمدينة حديثة مثل سالزبورى ، فالسور والبوابات والنواة الحضرية هى التى كانت تحدد

الخطوط الرئيسية لحركة المرور فى المدينة . وأما من ناحية السور ، فإنه بما كان يوجد خارجه من خندق أو قناة أو نهر كان يجعل من المدينة جزيرة . وكان للسور من القيمة كرمز ما كان لأبراج الكنائس المدببة الأطراف ، أى إن أهميته لم تكن تقتصر على فائدته العسكرية . وكان العقل فى العصور الوسطى يجد راحة فى عالم حافل بالتعاريف القاطعة والأسوار المتينة والآراء المحدودة ، فحتى الجنة والجحيم كانت لها حدودهما المستديرة . وكانت أسوار العادات تقيم حدوداً حول الطبقات الاقتصادية وتبقى كلا منها فى مكانها . ولقد كان التعريف والتصنيف هما جوهر التفكير فى العصور الوسطى ، حتى إن النزعة الاسمية الفلسفية التى تحدت القول بالوجود الموضوعى للأصناف ، وقدمت صورة عالم يتألف من ذرات لا ترابط بينها وأحداث لا آصرة تجمعها ، كان لها من الأثر فى هدم أساليب الحياة فى العصور الوسطى مثلما كان لقنابل المدافع من الأثر فى هدم أسوار المدينة .

ويجب ألا تغيب عن البال الأهمية النفسانية للسور ، فعند ما كان يتم إنزال الحاجز الحديدى وإغلاق أبواب المدينة فى وقت الغروب ، كانت المدينة تمسى فى عزلة محكمة عن العالم الخارجى ، وكان مثل هذا الانعزال يساعد على خلق إحساس بالوحدة والأمان على السواء وأن مما له دلالته — ويثير شيئاً من القلق — أنه فى إحدى المدن الحديثة النادرة المثال ، حيث كان يعيش الناس تحت ظروف مماثلة ، ونعنى بذلك مدينة أوك ريدج (Oak Ridge) التى كان يوجد فيها مركز للبحوث الذرية ، ازداد الإحساس تدريجاً بين سكان المدينة المحروسين بقيمة الحياة « الآمنة » فى الداخل ، التى كانت فى مأمن من أى غزو خارجى أو حتى من اقتراب أى شخص غير مرخص له بذلك — ولو أن ذلك كان يعنى أن مجيئهم وذهابهم هم أنفسهم كانا باستمرار تحت رقابة وإشراف عسكريين .

بيد أنه من ناحية أخرى ، كان السور يبث فى مجتمع العصور الوسطى

إحساساً قاتلا بالعزلة ، كان يضاعف من شأنه أن سوء حالة طرق النقل كان يزيد من مصاعب المواصلات بين المدن . وكما حدث مراراً فى تاريخ المدن من قبل ، فإن الاتحاد والأمان لأغراض دفاعية كانا يعكسان اتجاههما ويتحولان إلى قلق وخوف وعداء وعدوان ، ولا سيما حينما كان يبدو أن مدينة مجاورة قد تزدهر على حساب منافستها . ولنستعد إلى الخاطر ذكرى اعتداءات فلورنسا على بيزا وسينا دون حياء ولا خجل ! وقد كان ذلك الانعزال ينطوى فى الواقع على عوامل ذاتية هدامة إلى حد أنه أجاز وجود قوى للاستغلال والعدوان فى الكنيسة وفى الدولة فى آن واحد . وقد سعت هذه القوى على الأقل وراء إقامة وحدة أوسع اشتمالا بتحويل السور الذى كان يتجاوز الحد فى صلابته إلى خطوط حدود أثيرية تمتد حول منطقة أوسع نطاقا بكثير .

ولا نستطيع أن نترك السور دون أن نشير إلى ما كان لبوابة المدينة من مهمة خاصة ؛ فقد كانت أبعد عن أن تكون مجرد ثغرة ، إذ كانت « مكان اللقاء بين عالمين » الحضرى والريفى ، الداخلى والخارجى . وكانت البوابة الرئيسية أول ما يقدم التحية للتاجر ، أو الحاج ، أو عابر السبيل العادى ، وكانت فى آن واحد مقراً للجمرك ، ومكتباً للجوازات ومركزاً لمراقبة الهجرة ، وقوس نصر كثيراً ما كان ينافس بأبراجه — كما هو الحال فى لوبيك — أبراج الكاتدرائية أو دار البلدية . وحيثما يبطئ سير حركة النقل يشتد الميل إلى إلقاء الأحمال ، ومن ثم فإنه على مقربة من البوابات كانت تبنى عادة دور التخزين ، كما كانت تكثر الفنادق والخانات ، وكذلك كان الصناع والتجار يقيمون حوانيتهم فى الشوارع المجاورة .

وهكذا فإن البوابة أوجدت الأحياء الاقتصادية للمدينة ، دون وجود أنظمة خاصة لتحديد المناطق ، ولما كانت توجد أكثر من بوابة واحدة ، فإن طبيعة حركة النقل ذاتها من مختلف الأقاليم كان من شأنها أن تؤدى

إلى توزيع وتنويع مناطق العمل والتجارة . ونتيجة لهذا التوزيع المنسق للوظائف ، فإن المنطقة الداخلية فى المدينة لم تكن مثقلة بعبء أى حركة مرور فيما عدا ما كان يتولد عن حاجاتها الذاتية . والمعنى الأصلى للفظ ثغر (باللغة الإنجليزية ، port) مشتق من هذه « الثغرة » (portal) ، كما أن التجار الذين استقروا عند هذا الثغر كان يطلق عليهم بالإنجليزية فى وقت ما اسم (porters) ظلوا يعرفون به إلى أن خلعوه على مساعديهم من الأجراء[١] .

وأخيرا يجب ألا ننسى مهمة قديمة للسور عادت للظهور فى العصور الوسطى ، فقد كان يستخدم بمثابة متنزه طلق للترويض ولا سيما فى الصيف . والأسوار — حتى عند ما كان ارتفاعها لا يعلو عن عشرين قدماً — كانت تهيئ موقعاً ممتازا يطل على الريف الواقع حولها ويسمح بالاستمتاع بنسائم الصيف التى قد لا تتغلغل فى أرجاء المدينة .

٥ — النواة الحضرية ووحدة الجوار

لا يمكن وصف تخطيط أى مدينة وصفاً وافياً إذا اكتفى بالكلام عن بعدى مسقطها المسطح ؛ لأن الحياة لا تدب فيما ينطوى عليه تكوينها من العلاقات الوظيفية والجمالية إلا فى البعد الثالث عن طريق ارتفاع المبانى فى الفضاء ؛ وفى البعد الرابع عن طريق التطور الزمنى . وهذا ينطبق بوجه خاص على مدينة العصور الوسطى ، فإن الحركة التى ولدتها لم تؤد إلى اختراق الفضاء أفقياً فحسب بل عمودياً ، ولفهم تخطيطها يجب أن يعى المرء منشآتها الرئيسية من حيث تكوينها وشكلها الخارجى ، وبوجه خاص توزيع مواقع عناصرها الأساسية كالقلعة والدير أو صوامع الرهبان

---

(١) أى إن الكلمة الإنجليزية (Porters) التى معناها اليوم (حمالون) كان معناها الأصلى (رجال الثغر) . (المشرف)

الفقراء ، والكاتدرائية ، ودار البلدية ، ودار النقابة . بيد أنه إذا كان يمكن اعتبار مبنى واحد بمثابة المنشأة الأساسية فى تخطيط المدينة فى العصور الوسطى فإنه مبنى الكاتدرائية ، وإنه ليبلغ من مكانتها أن « براونفلز » يذهب إلى حد القول بأن كبار البنائين الذين أوكل إليهم أمر بناء الكاتدرائيات قد تغلغل فى الواقع أثرهم فى المبانى العامة الأخرى أيضاً .

وباستثناء حالات بارزة معينة ، لم تكن المبانى الرئيسية فى العصور الوسطى مقامة فى أماكن خالية ، وكان أقل من ذلك حدوثاً أن يكون الوصول إليها بطريق مستقيم غير متعرج . فهذا النوع من الأماكن لم يظهر إلا مع القرن السادس عشر ، كما هو الشأن فى حالة الساحة المؤدية إلى كاتدرائية سانت كروتشى (Santa Croce) فى فلورنسا . ولم يحدث إلا عندما حل القرن التاسع عشر أن دعاة التحسين من رجال تخطيط المدن — الذين عجزوا عن تقدير نظام تخطيط المدن فى العصور الوسطى — قاموا بإزالة المبانى الصغيرة التى كانت محتشدة حول الكاتدرائيات العظمى لإنشاء ساحة فسيحة أشبه ما تكون بساحة انتظار السيارات ، كتلك الكائنة أمام كاتدرائية نوتردام فى باريس ، وهى عبارة عن فراغ كئيب يحملق فى الوجوه . وفى هذا ما يقضى على ذات الروح الكامنة فى طريق الوصول فى العصور الوسطى ، أى الكتمان والمباغتة ، أو بعبارة أخرى الانفراج المفاجئ والتطلع إلى أعلى ، ووفرة التفاصيل المنحوتة التى قصد ألا تُرى عن قرب .

وأما من حيث الجمال الفنى ، فإن مدينة من مدن العصور الوسطى تشبه قطعة قماش مزركشة من ذلك العصر ، والعين إذ يبهرها ما يزخر به النقش من تشابك وتعقيد ، تحوم إلى الخلف وإلى الأمام فوق القطعة بأكملها ، مأخوذة بجمال زهرة أو حيوان أو رأس ، وتتوقف حيثما يروق لها ذلك ، ثم تعود أدراجها فتستوعب النقش بأسره بتمثل أجزائه ، وليس

باستجماعه فى نظرة واحدة . وفى نظر أهل الطراز الباروكى يبدو ذلك الطراز الذى نشأ فى العصور الوسطى ملتوياً ، كما أن المجهود الذى ينفق للإحاطة به يبدو طويلا مملا ، ومن الناحية الأخرى فإن الطراز الباروكى كان خليقا بأن يبدو فى نظر أبناء العصور الوسطى صارخا فى صراحته مفرطاً فى ترابطه . وليست ثمة طريق واحدة تفضل سواها للشخوص نحو أحد مبانى العصور الوسطى ، وإن كان أجمل واجهات كاتدرائية شارتر هى الواجهة الجنوبية ، ويحتمل أن أبدع منظر لكاتدرائية نوتردام هو من ناحية الخلف عبر السين ، ومع ذلك فإن ذلك المنظر بما يطوقه من خضرة لم يتم إفساح السبيل إليه إلا فى القرن التاسع عشر .

بيد أن هناك حالات شاذة ؛ إذ يوجد عدد من الكاتدرائيات — فضلا عن عدد لا يحصى من كنائس القرى — تقف وحدها حرة طليقة ، وقابعة وسط خضرة مترامية الأطراف ، بمعزل تام عن مشاغل حياة المدينة : وكاتدرائية سالزبورى وكانتربرى تكادان تكونان قائمتين فى الضواحى من حيث انتفاعهما المطلق بالفضاء والخضرة ؛ وكذلك يتوافر لكاتدرائية كامبو سانتو فى بيزا ما يضارع ذلك من العزلة والاتساع . وكثيراً ما يكون مرد مثل هذا الاتساع إلى وجود ساحة كانت فى الأصل جبانة .

وفى أغلب الحالات كانت الكنيسة الكبرى مركز المدينة من كل وجهة إلا من وجهة الموقع ، ولما كانت الكنيسة تجتذب إليها جماهير حاشدة ، فقد كانت تحتاج إلى فناء خارجى لتسهيل دخول المصلين وخروجهم . وإذ كانت أصول الدين تقتضى إقامة الكنيسة بحيث يكون اتجاه المذبح نحو الشرق ، فإنه كثيراً ما كانت الكنيسة تتخذ وضعاً لا يتلاءم مع اتجاه الشوارع المقامة على نمط أكثر انتظاماً عن المألوف . وعندما نجد أن ساحة السوق تنبسط أمام الكاتدرائية ، أو أنها تفسح لنفسها مكاناً أو ميداناً بالقرب منها فانه يجب ألا نعزو إلى السوق القيم ذاتها التى يتمتع بها اليوم ، فإن السوق

هو الذى كان يقام بدون انتظام كلما سنحت الفرصة لذلك ، على حين أن الكنيسة هى التى كانت تؤدى خدماتها بانتظام وعلى الدوام . وكما كان الشأن عند نشأة المدينة أصلا ، اتخذ السوق مقامه على مقربة من الكنيسة ، لأنها هى المكان الذى كان السكان يتجمعون فيه أكثر من سواه .

وفى الحقيقة يجب أن نتصور الكنيسة كما عسانا أن نتصور الآن « مركزا اجتماعياً » ، أى بوصفها مكاناً لم تبلغ قداسته حدا يحول دون استخدامه قاعة للطعام فى مناسبة عيد كبير ، أو مسرحا لتمثيل رواية دينية . أو منتدى حيث كان يتسنى لطلبة المعاهد الدينية أن يقيموا مباريات خطابية ومساجلات علمية فى يوم عطلة ، أو حتى فى الأيام الأولى قبواً لخزائن الإيداع ؛ إذ كان من الميسور إيداع العقود والأشياء النفيسة خلف المذبح العالى للكنيسة حيث كانت تظل فى أمان ، إلا من الأشرار الذين لا سبيل لتقويمهم .

وعلى وجه أو آخر ، فإن موكباً متواصلا من الناس ومؤلفا من آحاد أو عشرات أو ألوف كان يخترق الشوارع قاصداً أبواب الكنيسة ، فهنا كان المكان الذى يخرج منه الإنسان إلى رحلته ، وهنا كان المكان الذى يعود إليه ، ولذا كان الأمر غير ذلك ، فكيف نعلل الأموال الطائلة التى أغدقت على بناء كاتدرائيات مثل تلك الموجودة فى بامبرج (Bumberg) أو درهام (Durham) أو أميان (Amiens) أو بوڤيه (Beauvais) أو أسيسى (Assisi) ، حيث كانت توجد مجتمعات تتألف من عشرة آلاف من السكان أو أقل من هذا العدد . ومثل هذه المجتمعات اليوم — مع كل ما أوتينا من الوسائل الآلية والأموال المكدسة — خليقة أن تجد من المتعذر عليها جمع المال اللازم لإقامة دار للعجزة فى الأبرشية ، ولو كانت من نوع المبانى السابقة التجهيز مع شرائها بثمن مخفض .

وأما من حيث الأماكن الفضاء فى مدينة العصور الوسطى — بما فى ذلك الساحات الكبيرة للأسواق والساحات أمام الكاتدرائيات — فإنه

يمكن أن يقال فى وصفها أى شىء إلا أنها ميادين بالمعنى المتعارف عليه . وفى المدن التى نمت بحكم نمو عناصرها الذاتية ، كثيراً ما كانت فيها السوق ذات شكل غير منتظم ، فهى أحياناً مثلثة الشكل ، وأحياناً ذات شكل متعدد الجوانب أو بيضاوى ، وتارة على هيئة أسنان المنشار ، وتارة ذات شكل مقوس ، ولذلك يبدو أن السوق كانت تتخذ شكلها قسراً لا اختيارا ، لأن حاجات المبانى المجاورة هى التى كان لها الاعتبار الأول ، وهى التى كانت تحدد توزيع الأرض الفضاء . وعلى الرغم من أن السوق لم تكن أحياناً سوى شارع زيد فى اتساعه ، فإن هناك أمثلة أخرى فى بروكسل أو بريمن ، وفى بيروجيا أوسينا ، حيث يبلغ المكان من الاتساع ما لا يكفى لإقامة منصات عديدة للسلع فحسب ، بل لإقامة اجتماعات ومهرجانات عامة ، فساحة السوق فى الواقع تولت من جديد أداء المهمة التى كان الفوروم أوالاجورا يؤديها فى أقدم عهوده .

وفى ساحة السوق كانت النقابات تقيم مسارحها لتمثيل مسرحيات « الأسرار أو المعجزات » (mystery plays) ، وهناك كان ينزل العقاب الوحشى بالمجرمين أو الخارجين على الدين ، فيلقون حتفهم شنقاً أو حرقاً ، وهناك كانت تقام المباريات الكبرى فى المبارزة ، عندما تحول فى أواخر العصور الوسطى ما كان يعتبر من شواغل الإقطاعيين الجدية إلى ضرب من الألعاب الرياضية الحضرية . وكثيراً ما كانت ساحة السوق تؤدى إلى ساحة أصغر منها عن طريق ممر ضيق ، وكانت سوق بارما مثلا واحداً من أمثلة عديدة ، وكانت سوق الأقمشة والسلع المصنوعة من المعادن منفصلة عن سوق المواد الغذائية لأسباب بالغة الوضوح بطبيعتها . وكثير من الميادين التى نعجب بها الآن لمجرد رونق إطارها المعمارى ، مثل بياتزيتا سان ماركو فى مدينة البندقية ، كانت قد أنشئت أصلا لتحقيق أغراض عملية وقد كان الغرض منها فى البندقية أن تكون سوقاً للحوم .

وفيما عدا الكاتدرائية ، ودار البلدية أحياناً ، حيث كان الحجم والارتفاع يعتبران من الصفات الرمزية الهامة ، فإن القائمين على أمر البناء فى العصور الوسطى كانوا ينزعون إلى التزام أبعاد معقولة متواضعة ، فبيوت الصدقة كانت تنشأ لإيواء أفراد يتراوح عددهم بين السبعة والعشرة . وكان من الممكن ألا تضم الأديرة فى بداية أمرها عدداً يزيد على عدد الحواريين الاثنى عشر ، وبدلا من تشييد مستشفى واحد للمدينة بأسرها ، فإنه طبقاً للعادة الأكثر شيوعاً كان يهيأ مستشفى صغير لكل ألفين أو ثلاثة آلاف من السكان . وكذلك أيضاً فإنه تضاعف عدد كنائس الأبرشيات فى أنحاء المدينة الآخذة فى النمو ، بدلا من إقامة بضعة مبان كبيرة فى وسط المدينة . وطبقاً لما يقوله فيتز ستيفن ، كان يوجد فى مدينة لندن فى القرن الثانى عشر ١٣ من كنائس الأديرة و ١٢٦ كنيسة أصغر منها ، لعدد من السكان ربما كانوا يبلغون ٢٥٫٠٠٠ نسمة ، وبعد ذلك بنحو ثلاثة قرون يلاحظ ستو وجود عدد يتراوح بين كنيستين وسبع كنائس فى كل حى من أحياء المدينة البالغ عددها سبعة وعشرين حياً .

وقد حال توزيع الوظائف الاجتماعية الأساسية فى المدينة على هذا النحو دون مجاوزة الحد فى ازدحام المنشآت وكذلك دون ما لا حاجة إليه من حركة المرور ، وأبقى على التوازن بين أرجاء المدينة كلها ، وقد كان عدم وجود هذا التوازن فيما جاوز حجمه الحد من بيوت سكان المدن فى الشمال ، أو فى التنافس الجنوبى بين أبراج الحصون فى بولونيا أو سان جيمينيانو (San Gimignano) ، قد كان ذلك أعراض مرض اجتماعى . والصفات التى اتسمت بها القرون الوسطى ، أى المنشآت الصغيرة ، والأعداد القليلة ، والصلات الوثيقة — على نقيض الأعداد الكبيرة والتنظيمات الضخمة — أكسبت المدينة صفات ذات مزايا خاصة قد تعين على تعليل قدرتها على الابتداع .

وكان للشارع فى مدينة العصور الوسطى مكانة تختلف كل الاختلاف عنها فى عصر النقل بالوسائل ذات العجلات . وإننا نتصور عادة منازل المدن على أنها مصطفة على جانبي شوارع تقرر تخطيطها من قبل ، ولكن الأمر كان على نقيض ذلك فى مدن العصور الوسطى بمواقعها التى كانت أقل انتظاما من مواقع مدننا ، وذلك أن مجموعات من المبانى الخاصة بالحرف أو المنظمات كانت تؤلف أحياء قائمة بذاتها أو « جزراً » لم يراع فى توزيع مبانيها صلتها بالطرق العامة خارجها . وكانت دروب السير على الأقدام فى داخل هذه الجزر ، وفى أحيان كثيرة فى خارجها ، هى التى يسلكها السكان فى غدوهم وفى رواحهم يومياً . وكانت فكرة « شبكة طرق لحركة المرور » معدومة انعدام حركة مرور دائبة بالوسائل ذات العجلات . وقد كان من شأن « الجزر » التى كانت تتألف من القلاع أو الأديرة أو الكليات وما كان يوجد فى المدن البالغة التقدم من أحياء تقوم فيها صناعة متخصصة مثل دار الصناعة البحرية (الترسانة) فى البندقية — كان من شأن هذا أن يعوق اطراد النســق الأكثر تواضعاً ؛ نسق الوحدات السكنية الصغيرة الحجم .

وبراءات المدن الجديدة فى العصور الوسطى كثيرا ما كانت تفرق بين الشوارع التى بها حركة مرور — وكانت عربات النقل العنصر الرئيسى فى حركة المرور — والشوارع الأقل منها شأناً . وفى مدينة مونبازييه الموحدة النظام — كما كان الشأن فى فيلادلفيا بعد ذلك بقرون — كانت للمنازل واجهتان تطلان على شارعين : إحداهما تطل على شارع عريض يبلغ اتساعه أربعاً وعشرين قدماً ، والأخرى تطل على زقاق يبلغ عرضه سبع أقدام . بيد أنه بوجه عام كان الشارع طريقاً لتنقلات السائرين على أقدامهم . وأما استخدامهم العربات فكان أمرا ثانوياً . ولم تكن الشوارع ضيقة ، وفى حالات كثيرة غير منتظمة ، فحسب ، بل كانت تكثر بها المنحنيات .

الحادة والسدات . وعندما كان الشارع ضيقاً ومتعرجاً ، أو كان مسدودا ، فإنه كان من شأن هذا التخطيط أن يحد من قوة الريح ويقلل من مساحة الأوحال .

ولم يكن من قبيل المصادفة أن ساكن المدينة فى العصور الوسطى ، وكان ينشد الوقاية من ريح الشتاء ، قد تجنب إنشاء أنفاق للرياح العاصفة مثل الشارع العريض المستقيم . وقد كان من شأن ضيق الشوارع ذاته فى العصور الوسطى توفير المزيد من أسباب الراحة للناس أثناء مزاولة ضروب نشاطهم خارج بيوتهم فى الشتاء . وكذلك فإنه فى الجنوب كان الشارع الضيق ، بمبانيه ذات الأجزاء العريضة البارزة ، يقى السائر على قدميه من المطر ومن وهج الشمس على السواء . وكان كل شارع يستمد الملامح الخاصة التى تميزه من وجوه التباين الصغيرة بين مبانيه من حيث الارتفاع ومواد البناء ، والمظهر الجانبى للسطح العلوى ، والاختلاف فى فتحات النوافذ والأبواب الخارجية .

وعلى الرغم من أن ألبيرتى كان يفضل للمدن العظيمة القوية أن تكون الشوارع فيها مستقيمة وعريضة لتزيد من عظمتها وجلالها ، فقد كتب فى تبرير الطراز القديم من الشوارع المتعرجة فى العصور الوسطى ما يدل على أقصى درجات الفهم والإدراك . وذلك أنه أبدى « أنه يكون من الأجمل فى قلب المدينة ألا تكون الشوارع مستقيمة ، بل أن تتعرج وتنثنى فى اتجاهات عديدة إلى الخلف وإلى الأمام مثل مجرى النهر . فإنها بذلك ، فضلا عن أنها تبدو أكثر طولا ، تزيد من الإيحاء بعظمة المدينة ، كما أنها تكون وسيلة كبرى للأمان حيال الحوادث والطوارئ المفاجئة . وزد على ذلك أن تعرج الشوارع على هذا النحو من شأنه أن يجعل الزائر يكتشف عند كل خطوة مبنى جديداً ، وأن يكون الباب الخارجى لكل بيت مواجها لوسط الشارع مباشرة . وعلى حين أن الإفراط فى الاتساع ــ كما يحدث فى المدن

الكبرى – يكون خالياً من الجمال ومنافياً للصحة ، فإنه فى المدن الصغرى يكون مما يفيد الصحة ويسر العين فى آن واحد ، أن يتوافر لكل منزل وجود مثل هذا المنظر المكشوف بفضل منعرج الشارع » . ولم يأت أحد بأفضل من هذا ، حتى ولا كاميللو سيتى (Camillo Sitte) ، فى إنصاف تخطيط مدينة العصور الوسطى من الناحية الجمالية .

وعلى هذا فإن الأحياء السكنية فى مدينة العصور الوسطى كانت تضفى عليها طابعاً خاصا كان يعوز مثلا على وجه التحقيق الجدران الصماء فى مدينة إغريقية كلاسيكية . بيد أن المدينة كانت تتمتع فضلا عن ذلك بظاهرة موفقة أخرى ، ولعلها كانت مما تخلف عن المدينة القديمة ؛ وذلك أنه كثيرا ما كان يحف بالشارع على الجانبين « بوائك » كانت تؤلف الجانب المفتوح لبعض الحوانيت . وكانت هذه الظاهرة وقاية أفضل مما كان يوفرها شارع ضيق مكشوف ، ولا يقتصر وجودها على فرنسا وإيطاليا – حيث يحتمل أن تكون فى الواقع استمراراً ، عن وعى وإدراك ، أو استئنافاً لرواق الأعمدة الكلاسيكية – بل توجد كذلك فى مدن مثل أنسبروك فى النمسا ، فى الشارع المؤدى إلى المنزل ذى السقف الذهبى (Das Goldene Dachl) . ويجب ألا ننسى مدى الأهمية لوقاية البدن من الطقس ، لأن حوانيت الصناع والتجار لم تقم لها بصفة عامة واجهات من الزجاج إلا فى القرن السابع عشر ، والواقع أن الشطر الأعظم من شئون الحياة ، حتى طهى الطعام ، كان يمارس إلى حد كبير أو صغير خارج المنازل ، فالشارع الضيق المغلق ، والواجهة ذات « البوائك » ، والحانوت المكشوف ، كانت جميعاً من الأمور المكملة للمدينة ، وإلى أن أقيمت للحوانيت واجهات من الزجاج الرخيص ، لم يتسن للأفكار الجديدة الخاصة بتخطيط المدن أن تجعل الشوارع أكثر رحابة .

ويجب أن نشير إلى ناحية أخرى من ملامح للشارع ، وهى ناحية

الرصف ، فقبل أن يعم استخدام العربات بنحو ثلاثة قرون كانت قد توارت عن الأنظار الطبقة السطحية الطبيعية لمواطئ الأقدام فى الشارع . وذلك أن رصف الشارع للسائر على قدميه قد أدخل فى باريس منذ سنة ١١٨٥ ، وفى فلورنسا فى سنة ١٢٣٥ ، وفى لوبيك فى سنة ١٣١٠ . والواقع أنه فى سنة ١٣٣٩ كانت فلورنسا قد رصفت بأكملها ، على حين أنه عند أواخر القرن الرابع عشر — حتى فى بلاد كانت متأخرة إلى حد ما مثل إنجلترا — كان فى وسع وليم لانجلاند أن يستخدم مثل هذا التشبيه : « عادى مألوف كالطريق المرصوف لدى كل من يسير على قدميه » . وكثيراً ما كانت هذه التحسينات المبكرة لا تطبق إلا فى شارع واحد هام ، وقد انتشرت هذه الحركة ببطء بالغ حتى إنها لم تصل إلى لاندسهوت (Landshut) فى بافاريا إلا فى سنة ١٤٩٤ ، ولو أن ذلك الابتكار الفنى العظيم الآخر ، ونعنى به زجاج النوافذ ، كان يستعمله الفلاحون الباڤاريون فى القرن الثالث عشر ، طبقاً لما يقوله هين (Heyne) . ولقد غدا رصف الشوارع فنا على أيدى الراصفين فى العصور الوسطى ، وكثيراً ما كانوا يحاكون فى الحجر شكل منجل الحصاد ، على حين أنه فى مدينة البندقية تزيد ألوان الرصف وأشكاله من رونق ميدان سان مارك ذاته .

وتزويد الشوارع بالرصف والعناية بأمره يذكرنا بخاصية أخرى تتعلق بكيفية إدارة شئون المدينة فى العصور الوسطى . وفى هذا المجال أيضاً كان الترابط يقوم على أساس من الصالح العام ، على حين أن التنظيم المادى كان يقوم فى أكثر الحالات ، على أساس من الصالح الخاص ، ومن المحقق أن ذلك ينطبق على الرصف والإضاءة وتوفير المياه بالأنابيب . ولم يحل القرن السادس عشر حتى كان الرصف والإضاءة قد أصبحا عادة أمرين لابد منهما ، بيد أنه كان من شأن ملاك البيوت القيام بهما أمام ملكهم الخاص .

وكذلك فإن تنظيف الشوارع ظل زمناً طويلا من شئون الأفراد ، وهى عادة بقيت قائمة فى لندن إلى ما بعد القرن التاسع عشر فى نظام الكناس الذى يقوم بكنس الشارع ، متنقلا من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر ، ولم يختف هذا الكناس إلا مع اختفاء الحصان . (وهذه العادة من عادات القرون الوسطى ، لكن من الغريب أنها ما زالت تطبق عادة فى حالة إنشاء وصيانة الطوارات) . وبمقتضى قانون الرصف الذى كان معمولا به فى نورثمبتون فى سنة ١٤٣١ ، كان من حق رجال البلدية أن يأمروا أصحاب الأملاك برصف وإصلاح الشوارع الواقعة أمام منازلهم والأرض المجاورة لها ، ولكن « لم يكن يتحتم على أحد من أصحاب الأملاك أن يمد الرصف فى داخل الشارع إلى أكثر من ثلاثين قدماً ، وبذلك أصبح من واجب المدينة أن تقوم برصف السوق وما يماثلها من الأماكن الواسعة » .

ولنتأمل ظاهرة أخرى من ظواهر المدينة ، ونعنى بها انقسامها إلى وحدات للجوار وخطط[1] وظيفية (functional precincts) . فإلى حد ما ، كانت المدينة فى العصور الوسطى عبارة عن مجموعة مدن صغيرة ، كل منها على قسط معين من الاستقلال الذاتى ، والاكتفاء الذاتى ، وكل منها تكونت على وجه طبيعى نتيجة لحاجات وأهداف مشتركة كان من شأنها أن تعود بالخير على المجموعة وتكملها . فقد كان من الظواهر التى اتسمت بها المدينة تقسيمها إلى وحدات تبلغ مساحة كل منها ربع المدينة وكانت لكل منها كنيستها أو كنائسها ، وكثيراً ما كانت لها سوق محلية للحاجات الغذائية ، وكان لها دائما موردها المحلى للمياه ، كبئر أو نافورة ، بيد أنه عندما كانت المدينة تزداد نمواً ، كان عدد الوحدات يزيد وتبلغ مساحة كل منها سدس المدينة كلها أو أقل من ذلك ، ولكن دون أن تذوب

---

(١) مفردها خطة بمعنى حى أو مجموعة مبان تتوسطها ساحة مكشوفة . (المشرف)

فى كتلتها . وكما هى الحال فى البندقية ، كثيراً ما كانت وحدة الجوار تعتبر هى والأبرشية شيئاً واحداً وتستمد اسمها من اسم كنيسة الأبرشية : وهذا النظام فى التقسيم ما زال متبعاً إلى اليوم :

وهذا الإدماج فى وحدات أولية للإقامة ، مؤلفة من أسرات وجيران ، قد استكمل بنوع آخر من التقسيم إلى خطط على أساس الحرفة والمصلحة ، وبذلك فإن كلا من المجاميع الأولية والثانوية ، أى الأمة والجماعة (Gemeinschaft and Gesellschaft) اتخذت الوضع الحضرى نفسه ، ففى رجنزبرج (Regensburg) قسمت المدينة منذ القرن الحادى عشر إلى خطة لرجال الدين ، وخطة للقصر الملكى ، وخطة للتجار ، وبذلك كانت مناطق المدينة تقابل المهن الرئيسية فيها ، ولابد من أن الصناع والفلاحين كانوا يشغلون ما تبقى من المدينة . وكانت مدن الجامعات ، مثل تولوز أو أوكسفود ، تضيف إلى هذه المجموعة من المناطق ، ما فيها من خطط خاصة بالكليات ، كانت كل منها مكتفية بذاتها نسبياً ، على حين أنه — تبعاً لاندماج أديرة الرهبان والراهبات فى المدن ، وهى حركة ظلت تواصل سيرها منذ القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر — كانت تتناثر بالمثل خطط خاصة بالأديرة ، مختلفة عن خطة الكاتدرائية ، كانت حدائقها وعرصاتها الطلقة — مهما تكن خاصة — تزيد المجموع الكلى لما فى المدينة من الأماكن الفضاء . وفى لندن ، كانت مبانى هيئات المحاماة (Inns of Court) — مثل التمبل (The Temple) تؤلف نوعا آخر من الخطط المحوطة بالمبانى .

وإن ما للخطة الوظيفية من دلالة لم يتم إدراكها إلا بعد فوات الأوان ، حتى لدى علماء من أصحاب النظريات فى تخطيط المدن . والواقع أنه لعل من بين المحدثين المشتغلين بتخطيط المدن ، كان أول من أدرك القيمة الصحيحة للخطة الوظيفية ، سواء من حيث شكلها التاريخى أم من حيث وجوه

تنوعها الحديثة ، هما هنرى رايت (Henry Wright) وكلارنس ستين (Clarence Stein) : بيد أن هذه الخطط كانت أول مظهر حضرى استخدم فى شئون الحياة اليومية الصفات المكانية التى اتسم بها الحرم المقدس فى المدينة الأصلية . وفى الوقت الحاضر – حين أصبح كيان المدينة ذاته يتهدده ازدياد حركة النقل بالوسائل ذات العجلات ازدياداً جاوز الحد – فإن ما كان سائداً فى العصور الوسطى من تقاليد الخطة المتحررة من حركة المرور فى الشوارع والطرق الكبرى ، قد عاد إلى الظهور بوصفه شكلا جديداً يحتل مكاناً رفيعاً فى معارج التقدم .

ولا نستطيع أن نترك مدينة العصور الوسطى ، بما فيها من ألوان الوحدة والتباين ، دون أن نوجه سؤالا ختامياً عن تخطيطها وهو : إلى أى مدى اتبع بوصفه محاولة واعية لتحقيق النظام والجمال ؟ وعند إعداد الجواب يسهل المبالغة فى تقدير جمال المنظر من حيث ما فيه من جمال تلقائى ومن جمال عرضى ، كما يسهل إغفال التشدد والنظام اللذين كانا من الصفات الأساسية فى تنشئة كل من العالم والصانع . والواقع أن ما فى مدينة العصور الوسطى من وحدة جمالية لم تتحقق – كشأن باقى منظماتها الأخرى – دون مجهود ونضال وإشراف ومراقبة .

ولا شك أن أغلب هـذا الإشراف كان شخصياً ، ومن المرجح أن أغلب الاتفاقات كانت تتم عن طريق المناقشة وجهاً لوجه بين الأطراف المعنية بالأمر دون أن يتخلف عنها أى أثر مدون . بيد أننا نعلم أنه عندما شيدت دار البلدية فى سيينا فى القرن الرابع عشر ، أصدرت إدارة البلدية أمراً بأن المبانى الجديدة التى تقام على بياتزا ديل كامبو (Piazza del Campo) يجب أن تكون نوافذها من ذلك الطراز بعينه ، وعلى الرغم من أنه ما زال يوجد الكثير مما يجب إتمامه عن أعمال البحث فى سجلات العصور الوسطى لاستجلاء جميع مهام مهندس مبانى المدينة ، فإننا

نعلم أيضاً أن تلك الوظيفة كانت قديمة العهد فى إيطاليا . ولا حاجة بنا إلى الشك فى ديكارت (Descartes) عندما يلاحظ فى مؤلفه « المقال فى المنهج » أنه « كان يوجد فى كل الأزمنة موظفون كانت مهمتهم أن يراعوا أن المبانى الخاصة تسهم فى زيادة الرونق العام » .

وإن ما كان أبناء القرن التاسع عشر المعجبون بفن العصور الوسطى يعتبرونه بمثابة نتيجة جاءت من تلقاء نفسها دون مجهود وعن غير وعى ولا غاية ، كان قد تم عمله فى الواقع طبقاً لمنهج وغاية مقصودة فى تخطيط المدن ، كما هو الشأن تماماً فى أداء أى عمل فنى آخر . حقاً إن « لافدان » فى إعرابه — على نحو يدعو إلى الإعجاب — عن تقديره لمدينة العصور الوسطى ، يميل إلى اعتبار جمالها مجرد نتيجة فرعية لمظاهر العناية بما فيها من النواحى العملية والرمزية ، إلا أن المدينة لم تكن أكثر افتقاراً إلى النظام الجمالى المقصود منها إلى النظام الهندسى وإن كان فى نظامها من المرونة ما كان يسمح بتقبل الجديد والتلقائى والمغاير من المظاهر .

ونتيجة لذلك فإن عين تخطيط مدينة « العصور الوسطى » قد تيسر له فى القرن الثامن عشر أن يحتوى معاً منشآت من الطراز الرومانسكى ، والطراز القوطى المتقدم ، والطراز الزاخر بالزخرفة ، وطراز عصر النهضة ، والطراز الباروكى . وكثيراً ما كانت هذه المنشآت تتزاحم فى الشارع عينه دون أن يكون فى ذلك ما يقلل من قيمتها الجمالية ، بل إنه فى الواقع كان يحدث عكس ذلك الأثر . فقد كان هذا المزيج الجمالى يقابل تعقد المجتمع التاريخى . وقد كان ذلك طريقة للتخطيط تفى بحاجات الحياة وتتقبل التغيير والابتكار دون أن يكون ذلك سبباً فى إفسادها . فقد كانت فى آن واحد قادرة على أداء وظيفتها وتحقيق الغرض منها بكل ما تحتمله هذه الكلمات من معنى ، لأن الوظائف التى كانت أجل خطراً من سواها ، كانت تلك التى لها قيمتها بالنسبة للنواحى الرفيعة فى حياة الإنسان .

وفى كنف قواعد كهذه للتخطيط لم يكن ثمة ما يغرى أحدا بالانتقاص من قدر الشكل القديم — الذى كان لايزال يجيد أداء مهمته — أو الشكل الجديد ، الذى كان يمثل هدفاً جديداً . وبدلا من إزالة مبان مختلفة الطراز لكى تعاد إقامتها جملة طبقاً للنموذج الثابت الشائع فى حينها ، فإن بنائى العصور الوسطى اصطنعوا من القديم والجديد نموذجاً ازداد على الأيام غنى وكمالا . والجمال المزيف الذى يتسم به طراز واحد متطابق يُتبع فى تخطيط صلب جامد ، ويكون من شأن هذا الطراز أن يوقف على نحو تعسفى سير العملية التاريخية عند نقطة معينة — لم يُنشد هذا اللون من الجمال إلا فى عهـــد تال كان يقدر التطابق أكثر مما يقدر الانتشار والتعميم ، ويفضل القوة الظاهرة للعيان على ما فى الحياة من عمليات خفية .

٦ — التحكم فى النمو والتوسع

يتصور كثير من الناس أن الحياة فى العصور الوسطى كانت كسلة خاملة ، وأن مدينة العصور الوسطى كانت جامدة ساكنة ، ولكن على الرغم من أن سرعة الحركة كانت تختلف عما هى عليه فى القرن العشرين الذى كثيراً ما تكون ديناميته هدامة وتقضى على نفسها بنفسها ، فإن العصور الوسطى كانت عهد تغيير متواصل بل عنيف فى بعض الأحيان . فقد تكاثرت المدن ونمت من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر ، ولهذا يجب أن نتساءل : كيف كانت مدينة العصور الوسطى تجد مأوى لسكانها المتزايدين؟ وماذا كانت حدود نموها ، إن وجدت؟

والسور هو الحد الذى كان يحدد فى الأصل التكوين المادى للمدينة ، ولكن طالما ظل سور بسيط من الخشب ، أو جدار من المبانى كافياً لأغراض الدفاع العسكرية ، فإن السور لم يكن عقبة حقيقية دون اتساع المدينة ، وكان

من اليسير ، من الناحية التقنية ، هدم السور وإطالة امتداد حدود المدينة لزيادة المساحة الداخلية . والشوارع الدائرية فى كثير من مدن العصور الوسطى تنهض دليلا — شأنها شأن الحلقات السنوية للأشجار — على الفترات المتعاقبة فى النمو ، وهى التى يشهد بها تعدد عمليات إطالة السور. فمدينة فلورنسا مثلا وسعت دائرة سورها للمرة الثانية فى سنة ١١٧٢ ، وبعد ذلك بمدة لا تزيد على قرن أقامت دائرة ثالثة تطوق مساحة أكبر اتساعاً ، وعندما أصبح ضغط البطن المتخم مزعجاً فإن بلدية فلورنسا — على حد ما يقال — أرخت حزامها .

وكلما امتدت الضواحى كان السور يمتد ويطوقها ، وكان هذا من الإجراءات المألوفة فى المدن الآخذة فى النمو حتى القرن السادس عشر ، عندما أصبح مثل هذا الأسلوب من أساليب توسع المدينة مستحيلا بسبب النظام الجديد للاستحكامات الذى استلزمته الدقة فى تصويب نيران المدفعية . بيد أن مدينة العصور الوسطى ، حتى فى أقصى حالات اتساعها ، لم تكن عادة تتجاوز فى امتدادها نصف ميل من منتصف المدينة ، أى إن كل منشأة ضروية ، وكل صديق أو قريب ، أو شريك ، كان فى الواقع من الجيران القريبين ، على قيد مسافة يمكن قطعها على الأقدام بسهولة . فكان لا مناص من أن يلتقى الإنسان فى كل يوم عن طريق المصادفة بكثير من الناس الذين كان لا يتيسر له مقابلتهم فى مدينة أوسع نطاقا إلا بجهد وترتيب سابق . وإن ما يعرف فى أدنبرة بالميل التاريخى ، كان يمتد من أقصى أطراف قمة الحصن إلى دير هوليرود (Holyrood Abbey) على حدود المدينة . وعند تجاوز هذه الحدود ، فإن مدينة العصور الوسطى ، بوصفها جهازاً يؤدى عمله كان لا يعود لها وجود تقريباً بحكم هذا التعريف ، وذلك لأن تكوين مجتمع المدينة بأسره كان عبارة عن نظام يتألف من قيود وحدود ، فكان انهيار هذه القيود والحدود فى المدينة يتكشف عن تصدع أوسع نطاقا فى الحضارة بأسرها .

وكانت القيود التى تحد من نمو المدينة فى العصور الوسطى ترجع فى جانب منها بطبيعة الحال إلى الظروف الطبيعية والاجتماعية أكثر منها إلى تطويق السور ، فقد كانت هناك قيود تفرضها موارد المياه وما ينتج محليا من مواد الغذاء ، وقيود تمليها البلدية وأنظمة النقابات التى كانت تحول دون استقرار الغرباء بلا قيد ولا شرط ، وقيود تنشأ عن صعوبات النقل والمواصلات التى لم يتيسر التغلب عليها إلا فى المدن المتقدمة ، مثل مدن الأقاليم الواطئة التى كانت توجد لديها طرق مائية بدلا من الطرق البرية لوسائل النقل الثقيلة . ومن ثم فإنه لأسباب عملية ليس غير ، بلغ التوسع الأفقى غاية حدوده سريعا . ونتيجة لذلك فإنه فى القرون الأولى لتطور المدينة فى العصور الوسطى ، كان يدبر أمر الزائدين من السكان بإقامة مراكز استقرار جديدة لهم ، فى مواقع قريبة أحيانا ، ولكنها كانت على الرغم من ذلك وحدات مستقلة مكتفية بذاتها . ولقد اتبع هذا الإجراء فى نيوإنجلند إلى عهد متأخر وصل إلى القرن السابع عشر ؛ وعلى هذا النحو تولدت عن مدينة تشارلستون ثلاثة من هذه المراكز وهىووبرن (Wopurn) وديدهام ميدفيلد (Dedham Medfield) وكمبردج بلمونت (Cambridge Belmont). ولم يكن كل منها عبارة عن مجرد مجموعة من البيوت المتناثرة ، بل كان مجتمعا مدنيا ودينيا ، له نظام محلى للحكم ، وبه دار مركزية للاجتماع من أجل الشئون الدينية . وحتى فى القرن التاسع عشر أنشأت مدينة ابسوتش (Ipswich) مركز ماريتا (Marietta) فى ولاية أوهايو .

وجملة القول أن القيود على المساحة وعدد السكان لم تؤد إلى بقاء مدينة العصور الوسطى جامدة ساكنة ، فهذا وهم باطل ، إذ أن الأمر لم يقتصر على إقامة ألوف من المراكز الحضرية الجديدة فى صدر العصور الوسطى بل إن مدنا مستقرة ، عندما ألفت نفسها مكبلة بالعوائق الطبيعية أو أنها تقوم فى موقع غير ملائم ، أقدمت بشجاعة على الانتقال إلى أماكن أفضل

موقعا ، وعلى هذا النحو غيرت مدينة لوبيك موقعها الأصلى لتحسين وسائلها التجارية والدفاعية ، وكذلك هجرت أولد ساروم (Old Sarum) موقعها على التل ، لعدم ملاءمته وتعرضه لضربات الرياح ، واستقرت فى سالزبورى إلى جانب النهر . وبوجه عام أنشئت المدن وسط جو من الهمة الدافقة والتحمس البناء ، مما لا نظير له فى العهد الحديث إلا القليل فى غير حالات المناطق المنكوبة . بيد أن هذه الحركة الحضرية الواسعة لم تكن واقعة تحت تأثير جشع المحدثين من المضاربين فى أسعار الأملاك ، الذين يسعون وراء الربح العاجل المفرط . وحتى فى حالات توظيف المال فى الشئون العمرانية كان الناس يعنون بالاستثمار لأجل طويل أكثر من عنايتهم بالاستثمار لأجل قصير ، فالمفهوم الإقطاعى للأرض بأنها بمثابة منحة ووديعة تنتمى إلى نوع يختلف عن أنواع الممتلكات المنقولة ــ هذا المفهوم بلغ من عمق تغلغله فى النفوس أنه لم يختف كلية من أوروبا على الإطلاق .

فالنسق العام لنمو مدينة العصور الوسطى كان إذن يختلف اختلافا أساسياً عما أعقبه مباشرة فى فترة التجمع والتماسك حول عواصم سياسية كبرى ، فقد كان نسق العصور الوسطى عبارة عن عدد وفير من المدن الصغيرة والقرى التابعة لها على اتصال لا ينقطع بالمدن المجاورة لها والموزعة فى أرجاء الإقليم على نطاق واسع ، والواقع أن اليزيه ركليس (Elisée Reclus) وجد أنه يمكن تحديد مواقع قرى ومدن فرنسا بدقة تدعو إلى الدهشة ، حيث إنها منسقة فى وضع يجعلها على مسيرة يوم على الأقدام ، من أقصى نقطة إلى السوق ، ذهابا وإيابا . وبعبارة أخرى فإن حاجات السائر على قدميه كانت مقدمة على ما عداها ، أى إن من كان يستطيع استخدام قدميه كان فى وسعه أن يصل إلى المدينة . وقد كان النسق الحضرى مطابقا للنسق الاقتصادى ، وكان كلاهما يتلاءم مع الوحدة الصغيرة والاتصال المباشر وجها لوجه .

وأما من حيث توزيع السكان فإن الحقائق واضحة ، فقد كان عدد السكان فى مدينة العصور الوسطى يتراوح بين بضعه آلاف وأربعين ألفاً ،

وهو ما كانت عليه لندن فى القرن الخامس عشر . وحتى القرن السابع عشر ، كان من الخارج على المألوف إلى حد بعيد أن يتجاوز عدد السكان مائة ألف ، وهو ما بلغته من قبل باريس والبندقية وميلان وفلورنسا . وحوالى أواخر العصر ، كانت مدينة نورنبرج المزدهرة تشتمل على عشرين ألفاً من السكان ، على حين أن مدينة ليست قليلة الشأن مثل بازل (Basel) كانت تضم حوالى ثمانية آلاف نسمة . وكان هذا التحديد سائدا حتى فى الأقاليم الواطئة ، حيث كان إنتاج الأرض وفيراً وتعززه صناعات النسيج التى بلغت مستوى رفيعا من التنظيم فى ظل نظام صارم للاستغلال الرأسمالى . ففى سنة ١٤١٢ كان عدد سكان إيبر (Ypres) لا يزيد على ١٠ر٣٧٦ ، وفى منتصف القرن بعينه كان عدد سكان لوفان وبروكسل يتراوح بين ٢٥ر٠٠٠ و ٤٠ر٠٠٠ نسمة . ومن المحتمل أن بروج ، وهى أكبرها ، كانت تضم ٧٠ر٠٠٠ نسمة . وأما عن ألمانيا فإن حياة المدن فيها كانت مركزة فى نحو ١٥٠ مدينة كبيرة ، ولم تكن أكبرها تشتمل على أكثر من ٣٥ر٠٠٠ من السكان .

حقا إن كل هذه الإحصاءات ترجع إلى القرن التالى لحدث وباء الموت الأسود ، الذى قضى على نصف السكان فى بعض المناطق . بيد أنه حتى إذا رفعنا إلى الضعف الأرقام الخاصة بالمدن ذاتها ، فإنها سوف تظل قليلة ومتناثرة بالقياس إلى تكتل السكان فى العهد الحديث ، وإنما ينبغى التوسع فى هذه الأرقام فيما يتعلق بإيطاليا وحدها ، وذلك من ناحية بسبب المنشآت الرومانية القديمة ، ومن ناحية أخرى لأن قيام الرأسمالية هناك كان أسبق منه فى البلاد الأخرى . والإفراط فى الازدحام ، والإفراط فى البناء مع اطراد الزيادة فى الأجور الباهظة ، واطراد الزيادة فى ضيق مساحة المساكن — وكذلك اتساع الضواحى وتناثرها — كل هذا لم يصبح شائعاً إلا عندما ضعفت القدرة على تشييد مدن جديدة ضعفا شديداً . ولسوف أتناول بالبحث فى فصل تال الأسباب التى أدت إلى هذا التدهور الذى أصاب قوة النشاط الحضرى .

الفصل الحادي عشر

آيات انهيار العصور الوسطى وبواكير العصور الحديثة

١ — كريستيانوبوليس (المدينة المسيحية) — خيال وحقيقة

كان الدير والنقابة والكنيسة هي العناصر التي أسهمت في تكوين مدينة العصور الوسطى ، ولما كانت هذه العناصر أفعل أثراً في مدينة العصور الوسطى مما كانت كوس ودلفي وأوليمبيا في بلاد اليونان ، فإنها صاغت شكل كل حي من أحياء المدينة وأقامت لونا عاما من الحياة يبشر بالتغلب على النظم العقيمة التي رسخت أقدامها أصلا في القلعة القديمة . وإلى حد ما حل التعاون الاختياري والتزامات التعاقد والواجبات المتبادلة مكان الطاعة العمياء والإكراه الشديد . ويتسنى للمرء أن يقول إن النموذج الأصيل لمدينة العصور الوسطى قد تم تكوينه في اللحظة التي ظهرت فيها هذه الأنظمة الجديدة وأخذت تزاول عملها جنباً إلى جنب . وهذا لا يستتبع أن كل هذه الأنظمة كانت موجودة في كل مدينة بذاتها ، أو أنه كان لها شأن مماثل في كل مكان ، إذ أن الروح التجارية كانت قطعاً معادية للجامعة ، ولذا فإن بعض مدن العصور الوسطى مثل بروج ولوبيك لم يكن لها إطلاقاً فخر وجود مثل هذا المركز الفكري فيها ، على حين أن مدنا أخرى مثل البندقية وبريستول قاومت هذه البدعة زمناً طويلا .

ومع ذلك فإنه في أوائل العصور الوسطى كانت تقوم بين الدين والأعمال التجارية صلة وثيقة إلى حد أن الهيئات التجارية كانت تحاكي المنظمات

الدينية فى تنظيم قواعدها التجارية ، فمراكز عصبة هانزا التجارية مثلاكانت قائمة على أسس ديرية ، وكانت تقتضى ذات الانقطاع الشديد ، لا للعبادة ابتغاء للمثوبة السماوية ، وإنما للعمل ابتغاء للربح المالى ، على حين أن إحدى المهام الرئيسية التى كان يضطلع بها فرسان المعبد[1] (Knights Templar) هى أن يؤدوا عمل وكلاء النقل ورجال المصارف . بيد أنه فى نهاية العصور الوسطى — وهذه هى إحدى الدلالات الحاسمة على النهاية — حتى شئون الدين اصطبغت بصبغة دنيوية ، وتخاذل الدين أمام التجارة ، « والإيمان » أمام « الائتمان » .

وحتى إقامة ضروب النشاط التجارى على أساس رأسمالى ، كان لها أصل دينى ؛ إذ أن عقيدة « كنز الخلاص » ، كما وضعها اللاهوتيون فى العصور الوسطى ، كانت إرهاصاً لنظرية المدخرات الرأسمالية أملا فى جزاء آجل ، فقد كانت هذه العقيدة تبشر بالحصول فى النهاية على ثمار جزيلة وأرباح طائلة ، أما تبرير الربح ذاته — مع ما فى ذلك من تناقض مع مبدأ تبادل شيء لقاء شيء آخر — فقد تولى أمره الراهب فنسان من بوڤيه[2] :

فهل يستطيع الإنسان إذن أن يعتبر مدينة العصور الوسطى مدينة مسيحية ، أى صورة مجسمة لطريقة الحياة المسيحية — مجسمة فى المبانى وفى نظام تكافل سياسى ؟ وهل كانت ملجأ حقيقياً — أى ملاذا من ضروب التناقض والخيبة التى شاهدناها فى كل حضارات المدن التى سبقتها ؟ لسوء الحظ أن مدينة العصور الوسطى لم تكن رمز النجاح فى تحقيق الآمال المسيحية — كما بدت أحيانا فى نظر بعض الأنصار الأتقياء فى القرن الثالث عشر — أكثر مما كانت مزيجا فاسداً من الجهل والقذارة والقسوة الوحشية والمعتقدات الخرافية ، كما بدت فى نظر الكثيرين من الناقدين بعد العصور الوسطى .

---

(١) كانوا أعضاء طائفة دينية عسكرية لحماية الحجاج إلى الأراضى المقدسة .

(٢) كان فنسان (حوالى ١١٩٠ — ١٢٦٤) راهبا فرنسيا من طائفة الدومينكان ، كتب ثلاثة أرباع موسوعة لاتينية تحت ألوان المعرفة فى القرن الثالث عشر .

ويجدر بنا أن نتجنب كلا الخطأين عند تقدير قيمة مدينة العصور الوسطى ، كما يجب علينا طبعا أن نستبعد الصورة المزخرفة الرائعة التى دبجها عن العصور الوسطى بيوجين (Pugin) ورسكين وموريس وأضرابهم من الكتاب ، إذ أنهم كثيراً ما تناولوا الأغراض كما لو كانت مشروعات نفذت ، والأهداف المثالية كما لو كانت أمور تحققت ، فقد كانوا لا يترددون فى أن يعزوا إلى ما كانت حياة العصور الوسطى تنطوى عليه من المحتويات الجياشة ، كل الجمال الذى كان لا يزال يشاهد فى الوعاء . بيد أننا إذا نبذنا حضارة العصور الوسطى فى جملتها بسبب غرفة التعذيب ، وإحراق المارقين من الدين ، والمجرمين ، إحراقهم علنا على رؤوس الأشهاد ، فينبغى كذلك أن نمحو تماما كل أدعياء المدنية فى عصرنا الحاضر . ألم يستعد عصرنا المستنير التعذيب المدنى والعسكرى ، ويبتكر معسكرات الإبادة ، ويحرق أو ينسف سكان مدن بأسرها ؟ ألا لقد كانت ألوان التناقض فى حياة العصور الوسطى ضئيلة بالقياس إلى تلك التى نخفيها بين جوانحنا :

لقد نجحت مدينة العصور الوسطى فى نواح معينة إلى حد لم تبلغه حضارة أى مدينة سابقة ، فلأول مرة كان أغلب « سكان المدينة » أحرارا ، و فيما عدا طوائف خاصة مثل اليهود ، أصبح الآن التعبيران « ساكن المدينة » و « مواطن » مترادفين . وبعد أن كانت السلطة تنبعث من مصدر خارجى ، أصبحت الآن تنبعث من مصدر داخلى ، وتستوجب ضبط النفس وترويضها على النظام ، على نحو ما كانت تمارس بين أعضاء نقابة واحدة ومواطنى مدينة تدير شئونها ، فأداة الحكم والمجتمع ، أو بعبارة أخرى التنظيم والتكافل ، اندمج كل منهما فى الآخر . ولم يحدث إطلاقا منذ عهد الأسرات المصرية العظيمة أن وجدت مثل هذه الوحدة المقدسة فى الهدف فى ظل مثل هذا التباين فى المصالح والمشروعات المحلية . وعلى الرغم من أن البناء الاجتماعى للمدينة ظل قائما على أساس تفاوت الطبقات ، فإن مجرد إمكان القن أن يغدو

مواطنا حرا قضى على كل تفرقة بيولوچية بين الطبقات وأحدث قدراً متزايداً من التطور الاجتماعى . .

ولقد كانت هذه مآثر جليلة ، ولكن الإيمان والمذاهب التى جعلت تحقيقها أمراً ميسوراً ، حالت دون المضى فى التطورات التى كانت تتحدى فى سلطتها ومطامعها الدنيوية الواسعة . وحقيقة الأمر أنه فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة تسيطر على كل ناحية من نواحى الحياة فى العصور الوسطى ، بفضل وجودها ورسالتها فى كل مكان ، كان من شأن نجاحها فى ذاته أن تنغمس فى شئون هذا العالم ؛ إذ أن الكنيسة ، فى مقابل استمرار سيطرتها ، قبلت الاضطلاع بنفس الأعباء التى أودت فى النهاية بكل حضارة قامت فى المدن من قبل ، سواء أ كان يتولى قيادها رجل مثل أشور بانيبال أم مثل بريكليس . واهتمام الكنيسة المثالى بشئون العالم الآخر — وهو المجال الوحيد الذى كانت تدعى لنفسها السيادة المطلقة عليه — قد حط من شأنه ذات تمدنها لأنه حدا بها إلى العمل على أن يكون مظهرها مضارعاً لمكانتها المقدسة السامية ، أى أن يكون مظهرها أعظم رواء مما يتسنى لأى منافس دنيوى . وقد هاجم هذا الافتضاح واحد بعد آخر من آباء الكنيسة فى العصور الوسطى من برنارد من كليرفو إلى فرنسيس من أسيسى ، وأوضح أكثر من واحد من القديسين ، أنه كان من اليسير جداً أن يطغى البناء على الروح التى كان مفروضاً أنها تكمن فيه ، وعندما بنيت كنيسة نوتردام دوبارى حوالى سنة ١١٨٠ كتب بيير شانتر فى مؤلفه « سيادة الكنيسة » (Summa Ecclesiastica) : « يجب أن تكون المحاريب فى كنائسنا أشد تواضعاً من أجسامها نظراً إلى السر الذى ترمز إليه ، فإن المسيح الذى يقف على رأسنا — رأس كنيسته — أشد تواضعاً من كنيسته » . ويلاحظ هذا الكاتب أنه بدلا من ذلك فإن المحاريب « تبنى على نسق يزداد ارتفاعاً باطراد » :

وماذا كان ينطوى عليه وجود مدينة مسيحية ؟ إنى أقرر بأن ذلك لم يكن ينطوى على ما هو أقل من أن تنبذ نبذاً تاماً الأسس الأصلية التى أقيمت عليها المدينة ، أى نبذ ما طال عليه العهد من احتكار السلطة والمعرفة ، وإعادة تنظيم القوانين وحقوق الملكية بما يكفل العدالة فى مأمن من الإكراه ، وإلغاء الرق والعمل الإجبارى لصالح أقلية حاكمة ، وإزالة الضروب البشعة لعدم المساواة الاقتصادية فيما بين طبقة وأخرى . وعلى هذه الأسس كان من الممكن أن يجد المواطنون الدنيا قسطاً على الأقل مما كانوا يوعدون به من العدل والإحسان فى الآخرة لوتابوا وأنابوا . وإنه لخليق أن يفترض الإنسان أن تتاح للمواطنين فى المدينة المسيحية الفرصة لكى يعيشوا معاً فى إخاء ومعونة متبادلة دون النكوص وجلا أمام سلطة متحكمة ، أو العيش دائماً فى فزع من توقع عدوان خارجى وموت مفاجئ ، فنبذ النظام القديم الذى فرضته القلعة فى الأصل ، كان الأساس الأدنى لبسط الأمن والنظام وفقاً للتعاليم المسيحية .

ومنذ ذات اللحظة التى أصبحت فيها المسيحية الديانة الرسمية للدولة الرومانية فى سنة ٣١٣ ميلادية كانت المخاطر تهدد هذا النهج ، وكانت « مدينة الله » تزداد عنه ابتعاداً باطراد . وقد بقيت واضحة فى الدير بعض مظاهر الأمن والنظام وفقا للتعاليم المسيحية ، وتطرق إلى المدينة قدر غير قليل من تلك الروح عن طريق الخدمات الأخوية التى كانت النقابات تقوم بها ، ولكن الفكرة المسيحية بلغت أوج الازدهار فى وقت المحن ، ولقيت مع النجاح سلسلة من ضروب الفشل بلغت ذروتها فى القرن الثالث عشر. وطيلة الوقت الذى كانت فيه قبلة الحياة ذاتها الموت والألم ، كان قدر غير ضئيل من المقاصد المسيحية يجد مجالا له فى أعمال البر والرحمة التى اتخذت فى المدينة شكل منظمات ملائمة . ولم يحدث إطلاقاً أن وجد فى حضارة أية مدينة سابقة شىء يماثل ما كان موجوداً فى مدينة العصر

الوسطى من تدابير واسعة النطاق للعناية بأمر المرضى والمسنين والمكروبين والمعوزين : وقد كانت هذه المآثر من أعمال البر والإنسانية تشبه إلى حد ما المآثر الفكرية التى حققها اللاهوتيون فى العصور الوسطى ، ونعنى بذلك أن البناء كان يبدو ثابتاً لا يتزعزع بشرط ألا يدقق المرء النظر فى فحص الأساس :

وبأسرع مما ينبغى ، لم تكتف الكنيسة بإعطاء ما لقيصر لقيصر ، بل أعطته أيضاً ما لله ، إذ أن الكنيسة لم تكتف بمجرد تحاشى المساس بالأسس القديمة للسلطة السياسية والعسكرية والملكية الخاصة ، والاحتكار الفكرى ، بل إن الكنيسة بدلا من أن تنبذ هذه الدعاوى التى تتناقض مع الحياة الروحية الرفيعة ، باركتها وتبنتها لنفسها ، وعند الضرورة كانت تحاول أن تحقق بالتهديد والقوة ما كانت تعجز عن إدراكه بالولاء الصادر عن رغبة . وبالمنحة الناشئة عن إرادة حرة . وفى العهد المفروض أنه يمثل أوج التركيبات المذهبية فى العصور الوسطى ، كان دانتى يحلم بإمبراطور يتولى حكم العالم المسيحى ، بحيث يكون فى وسعه إنقاذ الدنيا من براثن « بابا » جائر جشع :

ولما كانت الكنيسة تتوقع آلام البشر وتألفها جيداً ، فإن القسس كانوا يواجهون بلا تردد ولا وجل ما تأتى به الحياة من ألوان الحرمان والخيبة وضروب الفشل والمآسى ، بيد أنه عندما دبت الحياة من جديد فى هذه الحضارة بأسرها ، تبعاً لازدهار التجارة وتكدس الثروات ، أخذت الكنيسة ، فى سبيل مجدها وقوتها الذاتيين ، تستخدم بازدياد مطرد كل الأساليب السائدة سواء أكانت غير مسيحية أم مناهضة للمسيحية ، ومضت فى ذلك إلى حد أنه حتى أرفع عقائدها ذكراً كثيرا ما كانت تتخذ شكلا خرافياً ، وإذا كانت الكنيسة قدحمت الجثث البشرية من أن ينتهك حرمتها الأطباء الذين كانوا يسعون وراء إدراك معلومات طبية عن جسم الإنسان

عن طريق التشريح العلمى ، فإنها كانت تسمح عن طيب خاطر بأن تشوه أجسام الأحياء بطريقة جهنمية عقاباً لهم ، وذلك تنفيذاً لأحكامها هى ذاتها على الهراطقة . ومنذ أنشئت محكمة التفتيش فى القرن الثالث عشر ، ذهبت الكنيسة إلى حد أنها هى نفسها ابتدعت وسائل آلية بارعة لتعذيب المتهمين بالهرطقة لحملهم على الاعتراف .

وعند حلول القرن الثالث عشر كان ما تزخر به المدن الرئيسية فى العصور الوسطى من ثروة وترف وسلطة دنيوية قد قوض دعائم المبادئ الأساسية التى قامت عليها المسيحية ، ونعنى بها الفقر والعفة ، وعدم المقاومة ، والتواضع ، والطاعة لأمر سماوى يعلو على كل اعتبارات السلامة البدنية أو المتعة المادية . والكنيسة ذاتها بوصفها أوفر المنظمات ثروة فى العالم المسيحى ، كانت المسرح ذاته الذى وقع فيه هذا الانقلاب الوضيع . فمهما يبلغ عدد أفراد القديسين الذين كان فى وسعها أن تستمر إنجابهم ، فإنه لم يكن من شأن المثل الدنيوى الذى ضربته أن يطهر أولئك الذين يسعون فى ساحة السوق وراء زيادة ثروتهم باطراد ، أو يسعون فى ساحة القتال وراء القوة ، أو يسعون فى مدينة تم فتحها وراء الأسلاب والغنائم . ولعل هذا يفسر السبب فى أن المسيحية لم تنشئ مدينة مسيحية (كريستيانوبوليس) .

وفى القرن الثالث عشر بلغت الذروة كل من العمارة القوطية وحضارة العصور الوسطى ، وفى القرن التالى أصبح من الواضح أن القوى التى كان فى وسعها إصلاح حال مدينة العصور الوسطى وردها إلى نهج الحياة المسيحية — أصبح من الواضح أن هذه القوى سوف تلقى أعنف ضروب المقاومة بادئ ذى بدء ، ليس فى ساحة السوق بل فى داخل الكنيسة نفسها .

ويعتبر فرنسيس[1] رمزا مجيدا للمجهود الذى بذل لاستعادة الروح المسيحية الأصيلة — وكذلك لفشل ذلك المجهود فشلا ذريعاً .

ومع أن فرنسيس نفسه كان ابن تاجر ، إلا أنه هو الذى سعى إلى إحلال الخدمة المسيحية الاختيارية ، وتبادل المنح فى حرية مطلقة ، مكان ما ألفه الناس من أساليب البيع واستخدام الأجراء . وكان فرنسيس يرى أن أولئك الذين يودون محاكاة المسيحيين الأوائل فى معيشتهم ، يجدر بهم ألا يعيشوا ثانية فى عزلة على غرار الرهبان الأوائل ، بل أن يختلطوا بالناس ويضربوا مثلا مشرقاً للمحبة المسيحية ، ويعظوا بأعمالهم كما يعظون بأقوالهم ، وأن يعملوا من أجل الآخرين ويعيشوا فقراء ليس لهم مأوى مستديم ، وألا يفكروا فى شأن الغد . فقد كان هدفه أن تصبح المحبة سدى ولحمة كل أنواع العمل ، وأن تصبح الحياة أنشودة الطريق المفتوح ، بدلا من أن تبقى حبيسة داخل المبانى والأسوار ، وأن تسد حاجاتها المادية حيثما اتفق ، على نحو ما فعل هو حينما أقام ، دون إعداد سابق ، ذلك الاجتماع العظيم للإخوة والأخوات المسيحيين والمسيحيات فى بورتونكولا (Portiuncula) حيث نجح التطوع بتقديم الأغذية نجاحاً أذهل منافسه دومينيك .

وكان فرنسيس يحلم بأن هذه الطائفة الجديدة من الإخوة والأخوات ينبغى ألا يكون لها مبنى خاص بها ، ولا ممتلكات دائمة تربط الروح بالتملك فى ذاته ، فكانت هذه محاولة أخرى ، وفقاً لمبادئ لاو — تسى والسيد المسيح ، لتحطيم جدران الذات التى تحركها شهوة السلطة وتلتحف بكساء الثروة ، وكذلك لهدم المدينة ذات الأسوار فى النهاية بوصفها أعظم مظهر جماعى يعبر عن تلك الذات . ومجمل القول أن هذه المحاولة

(١) اسمه الحقيقى جوفانى دى برناردونى (١١٨٢ — ١٢٢٦) وعرف باسم فرنشيسكو (أى الفرنسى) بسبب أسفار أبيه فى فرنسا ، وهو مؤسس طائفة الفرنسيسكان .

كانت تنشد الفكاك من الوعاء المغلق ، أو بعبارة أخرى التحرر من المادية تحرراً صحيحاً كاملا :

ولقد أخذت البابوية هذه الهرطقة بنفس الشدة التى قمعت بها حركة بيتر والدو (Peter Waldo) (حوالى سنة ١١٧٠) ، ذلك التاجر الورع الذى أنشأ من أجل غرض مماثل أولى الطوائف البروتستنتية العظيمة ، وبدهاء لم يكن يخلو من دهاء رجال السياسة ، أصر البابا على جعل طائفة الفرنسيسكان أداة فى يد السلطة البابوية ، وقد ضمن خضوعها ، وفى الواقع هدمها داخلياً ، بالعمل على تشجيع استخدام أموال طائلة فى إقامة مبان لائقة للدير فى المكان ذاته الذى ظهرت فيه الطائفة الجديدة إلى عالم الوجود . وذلك أنه ما من وسيلة أسرع فى القضاء على فكرة ما من التعجيل ، قبل الأوان ، بإبرازها فى صورة مادية ، وإن روعة لوحات جوتو (Giotto) ، التى تزدان بها الكنيسة العظمى فى أسيسى ، لتخفى وراءها الغدر الذى حاق بفرنسيس ، وهو الذى كان خليقا بألا يأنس إلا بوجوده فى الكنيسة الصغرى . وبعد ذلك بفترة وجيزة أصدر البابا يوحنا الثانى والعشرون مرسوما اعتبر من قبيل الهرطقة التى تستوجب اللعنة ذلك الاعتقاد فى الاشتراكية المسيحية الذى بعث من جديد استناداً إلى أن الحواريين الأوائل كانوا يمارسون نوعا من المشاركة فى الممتلكات ووسائل الحياة ، على نحو ما ورد فى إنجيل العهد الجديد .

بيد أن الرغبة فى إنشاء مدينة مسيحية ظلت زمنا طويلا تراود العقول فى العصور الوسطى ، من عهد والدو ولانجلاند ، إلى عهد جون بنيان (John Bunyan) ويوهان أندرياى . ويجب أن نتذكر أن الجنة نفسها كانت صورة حضرية من صنع العقل البشرى ، أى مدينة تلتقى فيها الأرواح الخالدة بعضها مع بعض ، وتشاهد إلى الأبد جلال الخالق الذى يعز على الوصف . وعلى الرغم من أمارات الإمتعاض البابوى ، فإن الحنين

إلى مدينة مسيحية ظل يبدو على استحياء بين طوائف العلمانيين الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الدين ، مثل طائفة البيجين (Beguines)[1]. وقد رسخت أقدام هذه الطوائف فى الأقاليم الواطئة بوجه خاص ، وكثيراً ما احتدم هذا الحنين بين طائفة الأنابابتيست (Anabaptists)[2] فى مدينة مينستر (Münster) وسواها إلى درجة القيام بمحاولة ثورية . ولكن الكنيسة ذاتها ، أى القوة الوحيدة التى كان فى وسعها أن تجعل من المدينة المسيحية (كريستيانوبوليس) أكثر من مجرد حلم طوباوى ، كانت مصممة على مناهضتها .

وإذا كانت مدينة العصور الوسطى قد اتخذت حقا فى البداية شكلا أملته الاحتياجات والمصالح المسيحية ، فإن انتقاض التعاليم المسيحية عليها لم يؤد إطلاقا إلى تغييرها تغييراً شاملا ، لأن السلطات والإمارات القديمة كانت أعز منالا وأشد منعة فى تحصنها خلف أسوارها ، فالآلهة الحسود التى أشرفت على مولد المدينة فى بلاد ما بين النهرين وفى مصر ، كانت أشد إلحاحاً وأقوى إغراء من المادى الجديد الذى وفد من فلسطين وعمد — مثل بوذا — إلى الازورار عن كل ما يرمز إلى الدوام المادى ، وعن جميع المظاهر الشكلية التى تنطوى على التباعد . فبقيت فى صميم قلب مدينة العصور الوسطى أنظمة طقوس المعبد القديم بأسلوبها المتكرر ، ووسائل القلعة القديمة للإخضاع والقهر بالقوة والعنف ، وألوان الحواجز والعزلة العدائية التى أكسبت الانحرافات السحرية القديمة وضعاً مستديماً . وعلى الرغم من التعرض مرات متوالية للغزو الخارجى على أيدى الهون والعرب والمغول والأتراك ، فإن أفدح الأضرار التى نزلت بمدن العصور الوسطى كانت تلك التى ارتكبها مجتمع مسيحى ضد آخر ، فى جولة لا نهاية لها

---

(١) طائفة أسسها فى القرن الثالث عشر قسيس بلجيكى يدعى اوبيج (Le Bègue) .

(٢) أتباع مذهب بروتستنتى ظهر فى القرن السادس عشر ، وكانوا يرون أن تعميد الطفل لا يكفى ، ولذا يجب تجديد التعميد عند الانضمام إليهم .

من الحروب الوحشية الخالية من كل رحمة بين المدن . ولم يرتفع صوت الكنيسة مرة للتنديد بهذه الفضائح والمخازى . وكيف كان يتسنى أن يكون الأمر غير ذلك ؟ إن أعمال روما ذاتها كانت خليقة بأن تجعلها تغص بكلمات زجرها .

ولقد كان لدى الفقه المسيحى تعليل لفشل مدينة العصور الوسطى على هذا النحو ، وهو يتمثل فى عقيدة الخطيئة الأولى ، وفحواها وجود عيب جوهرى فى تكوين الإنسان نتيجة لعصيان آدم ، مما أدى إلى تحويل خطيئته الأصلية إلى علة جوهرية وراثية ، هى الميل المنحرف إلى تجاهل المقاصد الإلهية بإقدام الفرد على تقديم ما توحى به طبيعته الأنانية على ما عداه . ويبلغ من تأصل هذا الميل أنه — طبقاً للفقه المسيحى — فى أثناء العمل على كبح هذا الميل ، قد يرتكب المرء ما هو ساع لتفاديه ، ولذلك فإن طريق الخلاص الوحيد هو الاعتراف بالفشل المزمن ، والأمل فى التوبة والغفران .

والواقع هو أن الخطيئة غدت المصدر الرئيسى لدخل الكنيسة الدنيوى ، ولم يكن ثمة سبيل غير توسيع نطاق هذا المجال ، والتهويل من شأن هذه الخطايا لكى يتسنى للكنيسة أن تستدر ما يكفيها من الأرباح عن طريق احتكارها وسائل الخلاص ، وعلى هذا فإنه عندما توافرت مظاهر المدنية من جديد منذ القرن العاشر ، أعادت مساوئ المدينة بنسبة معادلة ذات الهيئة التى كان يجب أن توجه همها إلى الإنقاص من تلك المساوئ . وفى القرن السادس عشر نرى مكيافيلى يلاحظ فى مؤلفه « أحاديث » (Discourses) — دون أن يجانب الحق — أنه « كلما كان الناس أقرب إلى كنيسة روما ، التى تحتل مكان الصدارة فى ديانتنا ، كانوا أكثر بعداً عن الدين » . وعندما وجه مجمع ترنت (Council of Trent) عنايته

نحو هذه الحالة ، كان الأوان قد فات لوقف تصدع المجتمع الحضرى فى العصور الوسطى .

فمهما يكن من شأن مدينة العصور الوسطى إذن فإنها ظلت مجرد صورة باهتة للمدينة المسيحية (كريستيانوبوليس) . ولقد كانت معالمها قوية إلى حد بعث الأمل فى قيام نظام حضرى جديد على أساس من المبادئ الدينية والاجتماعية لأوسع الأديان القويمة انتشاراً . بيد أنه فى أثناء نمو المدينة ذاتها ، جنحت العناصر الروحية نحو التلاشى ، وهكذا نعود إلى مواجهة التناقض ذاته الذى سبق أن تناولناه بالبحث فى حالة نمو المدينة الإغريقية ، من حيث اتخاذ صورة مادية ذات جانب واحد لا يتغير .

٢ — البندقية والمدينة الطوباوية

وفى نهاية العصور الوسطى كانت مدينة واحدة فى أوروبا تبز كل ما عداها بسبب ما أوتيت من جمال وثراء ، فإن سيينا الحمراء ، وجنوة ذات اللونين الأسود والأبيض ، وباريس القاتمة ، وفلورنسا المتعددة الألوان ، قد تدعى جميعاً أنها نماذج أصلية لمدن العصور الوسطى . ومن المحقق أن فلورنسا فاقت جميع مدن أوروبا من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر بسبب ما فى فنها من روعة جليلة ، وما فى حياتها الفكرية من حيوية دافقة . بيد أن البندقية الذهبية لها علينا حق خاص يستدعى منا العناية والاهتمام ، فما من مدينة أخرى ترينا — على نحو أكثر إيضاحاً — العناصر المثالية لتكوين المدن فى العصور الوسطى . وفضلا عن ذلك فإنه ما من مدينة واحدة أقامت دليلا يفضل ما قدمته فى تطورها الداخلى من الدلالة على نشوء مجموعة حضرية جديدة تبشر بتجاوز أوضاع الوعاء المطوق بالأسوار ؛ تلك الأوضاع التى ظلت باقية منذ آخر العصر الحجرى الحديث .

ولم يحدث إطلاقاً أن كانت أمجاد البندقية الجمالية نهبا للنسيان أو الاستخفاف إلا — فيما يحتمل — من جانب سكانها عندما حلت بهم الفاقة فى تلك الفترة المحزنة التى تقوضت فيها دعائم بنيان البندقية الاقتصادى ، وأخذ البنيان بأسره فى الانهيار . بيد أن المثال الجديد الذى جاءت به البندقية فى مجال تخطيط المدن لم تعه المدن الأخرى ، ومن باب أولى لم تقدم على الاقتداء به . وإذا كان الناس يدركون أن تخطيط البندقية فذ فى بابه ، فإنهم كانوا يعتبرونه مجرد حدث من أحداث الطبيعة ، وليس سلسلة من المحاولات الجريئة للتلاؤم مع البيئة ، ومع أن هذه المحاولات كانت تقوم على أساس من الظواهر الطبيعية الفريدة ، إلا أنه كان يمكن تطبيقها فى كل مكان . ومن أجل هذا فإنى أعتزم القيام هنا بدراسة تخطيط البندقية ، لأن البندقية ذهبت أبعد مما ذهبت إليه المدن الأخرى — حتى فى عصرنا الحاضر — فى التنظيم على أساس الخطط ووحدات الجوار ، وهو الذى تعتبر العودة إليه اليوم — بوصفه عنصرا جوهريا فى التخطيط — خطوة من الخطوات الأساسية فى سبيل إعادة إنشاء وضع حضرى جديد .

وقد أنشأ البندقية — فى القرن الخامس للميلاد — جماعة من اللاجئين من بادوا ، فروا عبر الخلجان الضحلة اتقاء لشر الغزاة ؛ فكانت مياه البحر الادرياتى القليلة الغور تقوم مقام السور الحجرى فى الوقاية ، كما أن المستنقعات والجزر — التى لم يوجد اتصال بينها إلا عن طريق الماء — أوحت بفكرة تطهير القنوات وتعميقها لردم الأراضى المجاورة ، ولإيجاد طرق للنقل . وكان قارب « الجندول » (الذى ورد ذكره منذ سنة ١٠٩٤) ابتكارا يتلاءم كل الملاءمة مع هذه الطرق المائية الضيقة الضحلة . وعلى الرغم من أن البندقية اضطرت إلى التفنن فى إقامة صهاريج لجمع مياه المطر ، استكمالا لحاجتها إلى الماء الذى كان يؤتى به من البر عن طريق السفن ، فإنها وجدت حلا لمشكلة المحافظة على الصحة العامة — وهى مشكلة مقلقة على الدوام —

على وجه أيسر مما تسنى لمنافساتها على البر (mainland) ؛ وذلك بأنه كان فى وسعها تصريف مواد المجارى فى البحر مباشرة حيث يبدو أن فى استطاعة مفعول الملح وضوء الشمس – إلى جانب حركات المد – أن تجعل تجمع كميات معقولة من البكتريا عديمة الأثر .

ويقع ميدان سان ماركو فى قلب البندقية ؛ وهو عبارة عن ساحة فضاء أمام كنيستها البيزنطية ، وكان أصلا بساتين فاكهة سان مارك ، وفى سنة ٩٧٦ شيد نُزُل لحجاج الأراضى المقدسة بالقرب من المكان الذى أقيم فيه برج الأجراس لأول مرة فى القرن الثانى عشر ، وكان ذلك منشأ حىّ الفنادق الذى ظهر فيما بعد . ومنذ عهد مبكر يرجع إلى القرن الثانى عشر أخذ يتكون فى هذا الموقع ميدان يمتلئ بمنصات الباعة ؛ إذ أنه فى سنة ١١٧٢ تم توسيع الموقع ، والمبانى التى تقوم اليوم حول الميدان تسجل تطويرا متواصلا بدأ بإعادة بناء كنيسة سان مارك نفسها فى سنة ١١٧٦ ، وتشييد برج الأجراس القديم فى سنة ١١٨٠ ، والشروع فى إقامة قصر الدوق Ducal Palace فى سنة ١٣٠٠ ، والدار القديمة للقضاء فى سنة ١٥٢٠ . ولقد تلا ذلك تشييد المبنى الذى يسد أحد جوانب الميدان الصغير ، وهو مبنى المكتبة الذى وضع تصميمه سانسوفينو Sansovino فى سنة ١٥٣٦ ، وأقيم فى مكان المخابز القديمة . ولكن لنلاحظ أن آخر إضافة إلى الميدان الحالى – وهى التى جعلت منه وحدة جمالية كاملة باستكمال الطرف المواجه للكاتدرائية – لم تتم إلا فى سنة ١٨٠٥ .

وجملة القول أن كلا من شكل الميدان ومحتوياته قد نشأ عن تجمع أغراض حضرية وتناولها التعديل الذى قضت به الظروف والمهمة المنشودة ومرور الزمن ، ومن ثم فإنها نتائج عضوية ليس فى وسع أى عبقرية بشرية أن تحققها فى بضعة شهور فوق لوحة رسم . وتدريجا أخذت المهام السياسية والاجتماعية المنشودة من الميدان تحتل مكان الصادرة بدلا من المهام الأصلية ،

سواء أكانت ريفية أم سوقية ، وشيئاً فشيئاً انتقلت هذه المهام الأخيرة إلى أحياء أخرى من المدينـــة دون أن تخلف وراءها غير المطاعم والمقاهى والحوانيت والفنادق على مقربة من موقع النزُل الأول للحجاج .

وموجز القول أن تخطيط البندقية لم يكن تخطيطا جامدا لا يسمح بتغيير بحيث يشتمل على حاجات جيل واحد ويحول بطريقة تعسفية دون احتمالات النمو والتوسع وإعادة النظر فى مقتضيات التلاؤم والتغيير ، فعلى الأصح ، هذا مثال للاستمرار المستمد من التغيير ، وللوحدة المنبثقة من نظام معقد . ومما له دلالته أن فى مدينة تحكمها طبقة أرستقراطية ذات قبضة من حديد لا تعرف الرحمة فى سبيل تركيز السلطة والمسئولية فى يدها ، كان أعضاء المجلس المؤلف من ٤٨٠ عضوا لا يقيمون فى حى واحد ، وذلك لأنهم كانوا ملزمين بالإقامة فى الأبرشيات التى كانوا يمثلونها . وتأييداً لهذا فإن المشرفين على دار الصناعة البحرية كانوا يقيمون فى ذلك الحى من المدينة المتخصص فى فى تلك الصناعة ، وقد حال هذا دون تجاوز الحد فى تجمع مساكن الطبقة العليا ، وهو ما يؤدى فى كثير من الأحيان إلى التسامح فى شأن سوء النظام العمرانى فى الأحياء المتطرفة فى المدينة . وإذا كانت القصور العظيمة تشغل المواقع الطلقة الهواء على القناة الكبرى ، فإنها على اتصال أيضا بالحى الواقع خلفها .

وإن ما يحدث كثيراً هو أن السائح العابر لا يدرك دائماً أن نموذج ميدان سان مارك يتكرر وجوده على نطاق أضيق فى كل أبرشية من أبرشيات البندقية ؛ فكل منها لها ميدانها (أو كامپو campo) ، وكثيراً ما يكون شكله غريباً غير منتظم ، ومع ذلك فإن له نافورته ، وكنيسته ، ومدرسته ، وفى أحيان كثيرة داره الخاصة بنقابته ، وذلك لأن المدينة كانت أصلا مقسمة إلى ست وحدات جوار ، كانت كل منها تضم نقابة من النقابات الست فى المدينة . وكانت القنوات — ويبلغ عددها الكلى الآن نحو ١٧٧ قناة — تؤدى غرضين : أحدهما بيان الحدود بين هذه الوحدات ،

والآخر توفير حلقات الاتصال بينها ، أى إنها أشرطة مائية ، وفى الوقت ذاته طرق كبرى للمواصلات تؤدى وظيفتها على منوال ما فى مدينة حديثة خططت بعناية من طرق وأشرطة خضراء (شوارع عريضة بها مزروعات) ، ولو أنها لا تصل إلى ما يوجد كثيراً من حالات عدم المبالاة بمساحة أرض المدينة ، كما هو شأن الطرق الرئيسية الأمريكية ، أو الأشرطة الخضراء فى أحياء « المدن الإنجليزية الحديثة » . وحول المدينة تقوم الخلجان العظيمة فى آن واحد بمهمة حديقة ، وباعث على التنزه على صفحة الماء ، حيث يحل منظر المدينة والماء محل المنظر الخلوى على الأرض . وما من مدينة أخرى منذ القرن الخامس عشر إلى اليوم أغرت عددا من المصورين أكثر ممن أغرتهم البندقية على تصوير مناظرها .

وكثير من هذه الصفات التى تتصف بها البندقية يمكن أن نجد لها مثيلا فى مدن أخرى من العصور الوسطى ، بيد أن ما لم يتحقق إطلاقا فى أى مدينة أخرى بمثل هذا الجلاء والوضوح كان نظام التقسيم إلى مناطق وظيفية ، وقد كانت إقامة هذا النظام هنا أيسر منه فى المدن الأخرى بسبب ترتيب وضع الجزر الكبرى والصغرى حول المدينة المركزية ، فإن البندقية حولت هذه العقبة الظاهرية إلى فرصة موانية :

ولقد خصصت لكل جزيرة من جزر البندقية الوظيفة الملائمة لها ، تبعا لموقعها وحجمها ، ولم تكن أقلها شأنا تلك التى خصصت لدير سان جورجو على مقربة من ميدان سان مارك . وكانت أول خطة (precinct) تخصص لأداء وظيفة معينة هى خطة تورشيللو (Torcello) التى خصصت لدفن الموتى ، وكانت هذه الخطة عبارة عن كنيسة وجبانة فى جزيرة صغيرة على بعد سبعة أميال ، وكانت الخطة التالية حيًّا صناعيا ، وهو حىّ دار الصناعة البحرية . وقد أنشئ هذا الحى فى سنة ١١٠٤ ، وتم توسيعه مرة فى سنة ١٤٧٣ ، ومرة أخرى فى القرن السادس عشر ، وهو عبارة عن

حوض لبناء السفن وإصلاحها ، ومركز لتموين السفن ، ومصنع للذخائر .
وفى القرن الخامس عشر كان ١٦٠٠٠ صانع يعملون فى هذا الحىّ الذى
كان يؤوى أيضا ٣٦٠٠٠ من البحارة . وكانت توجد فى البندقية صناعة
أخرى رئيسية وهى صناعة الزجاج ، وقد أنشئت بموجب قرار من المجلس
الأعظم فى سنة ١٢٥٥ على جزيرة مورانو المنعزلة .

ولقد كانت هذه المرة الأولى التى أقيمت فيها مناطق صناعية على
نطاق واسع بمعزل عن الوظائف المتباينة التى كانت تختلط بعضها مع بعض
فى مدينة العصور الوسطى . ولو أنه كانت هناك عيون ترى وعقول
تقدر ، لاتخذت البندقية نموذجا لتطور الصناعات الثقيلة فى المراكز
الحضرية التى كانت آخذة فى النمو بعد القرن السادس عشر ، وتبعا لازدياد
وسائل النقل السريع ، فإن تخطيط مدينة البندقية — الذى يتسم بالانفراج
مع بقائه متجمعا حول نواة مركزية — لو أن محاكاته انتشرت ، لتغلب
على الميل إلى تدبير التوسع عن طريق تكتيل المبانى ، والإفراط فى الازدحام ،
والامتداد كيفما اتفق ، على النحو الذى تتبعه مدن أخرى آخذة فى التوسع .

وبعبارة أخرى فإن أهل البندقية باستغلالهم الفرصة المهيأة أمامهم إلى
أقصى حد مستطاع ، ابتدعوا — عفواً ولا شك — طرازاً جديداً من المدن
يقوم على أساس التفرقة بين مختلف الوظائف الحضرية وتحديد مناطق خاصة
لكل منها ، تفصل بينها طرق المواصلات والساحات الفضاء . وقد كان
هذا تحديدا للمناطق فى أحسن صورة ، وطبّق على وجه معقول روعيت
فيه المحافظة على وحدة الجوار متكاملة ، والاقتصاد إلى أبعد حد فى مسافة
الانتقال إلى العمل وما تسببه من ضياع الوقت . ولقد بلغ من تغلغل هذا
النظام البندقية ، أن العمل به قد ظل جاريا فى القرن التاسع عشر عند ما
غدت جزيرة ليدو مرتعاً للهو على شاطئ البحر ، أى منطقة للترفيه .

ولم تؤد وحدات الجوار والمناطق الصناعية فى البندقية إلى القضاء على

وحدة المدينة ، بل إنه كان من شأنها صون الحى المركزى فى المدينة من الازدحام بلا موجب . بيد أنه فى أيام الأعياد العامة - مثل المهرجان المائى الرائع للاحتفال باقتران المدينة بالبحر الأدرياتى - كان أهل المدينة بأسرها يتجمعون فى ميدان سان ماركو والميدان الصغير « والأرصفة » المجاورة ، على حين أن قصر الدوق ذاته - ولعله أجمل مثال فى العالم لعمارة دور البلديات - كان يؤلف الخلفية الرئيسية لهذه الطقوس الجماعية .

وكان النظام السياسى للبندقية يقوم على العنف والعمل فى الخفاء ، وكان من شأن ذلك أن يؤدى فى النهاية إلى الانحلال الخلقى ؛ فقد كان استخدام العيون الخاصة والقتل سرا الوسيلة المألوفة التى عمد إليها حكام البندقية لبسط سلطتهم . ولا بد من أنه كان من شأن هذا النظام أن يعوق كل ضرب من ضروب العمل النزيه ، والرأى الصريح ، والتعاون القائم على الثقة ، وأن يؤدى كذلك إلى الزراية بالقائمين بالأمر ، بحكم ما يدور فى خلدهم هم أنفسهم من تخيلات وأوهام عليلة ، شأنهم فى ذلك شأن أولى الأمر فى أى نظام استبدادى اليوم . ولقد رأينا - حتى فى أمريكا تحت ظل حكومتنا الديمقراطية قانونا - أن أى جماعة تعمل فى الخفاء ، سواء أكانت لجنة للطاقة الذرية ، أم مجلساً للأمن القومى ، أم إدارة مركزية للمخابرات ، إنما تفقد صلتها بالواقع بحكم ذات القواعد التى تعمل بموجبها ، فإن ما يبدأ على هيئة إخماد معارضة محرجة لينتهى إلى إزهاق الحق واستبعاد أى بديل عن السياسة المقررة مهما تكن أخطاؤها واضحة للعيان ، ومهما تكن مشروعا يتسم بالخبل ، ومهما تكن التزاماتها تجر إلى الهلاك .

والواقع أن البندقية كانت من الناحية السياسية أقل نجاحاً مما كان يظن منشئوها ، على الرغم من رخائها واستمرار بقائها . بيد أن أهل المدينة زودوا بما هيأ لهم قدرا من التوازن فى حياتهم ، وذلك لأن الطائفة الحاكمة دفعت ثمن نظامها ، على نحو ما تفعل الدول المطلقة التصرف اليوم ، بتوفير الطمأنينة للمواطنين عوضاً عن حريتهم المسلوبة . وهكذا قامت خلال قرون

عدة بتدبير الوسائل لتشغيل العمال فى الصناعة على وجه متواصل ، وتهيئة خدمات اجتماعية من أنواع مختلفة ، وإقامة أعياد ومهرجانات عامة تخلب الألباب ، ومن ثم فإنه على النحو المألوف فى مثل هذه الحالة ، لم يكن العمال بل المتنافسون من أفراد الطبقات الحاكمة هم الذين كانوا عادة مكمن الخطر لوقوع خيانة أو قيام ثورة .

بيد أن النظام المادى الذى أنشأته مدينة البندقية كان أفضل حتى مما كان يعتقده منشئوها ، ذلك أنهم فى الواقع — دون أى إدراك واضح لما حققوه — أوجدوا طرازا جديدا من الوعاء الحضرى يتسم بتحرره من ربقة السور . وحتى بقاياها المتهدمة المفرطة فى الازدحام تشير إلى نظام حضرى يختلف اختلافاً جوهريا عن شكل وطراز العصر الحجرى العتيق اللذين ما زالا باقيين فى المدن الأخرى . وإن ما تسنى للبندقية أن تحققه فى مدينة لم يتجاوز عدد سكانها إطلاقا مائتى ألف نسمة فى أزهى أيامها ، قد تستطيع بلدية حديثة أن تقوم به من أجل مجتمع يبلغ عشرة أضعاف ذلك العدد ، بفضل ما لدينا من الوسائل السريعة للمواصلات والانتقال . ومن الغريب أن الأمر كان فى حاجة إلى ابتكار تخطيط رادبرن (Radburn)[1] فى سنة ١٩٢٨ قبل أن تتفتح عينا أحد المشتغلين من حين إلى آخر بتخطيط المدن إلى القدر الكافى لاستيعاب الابتكارات التى كانت البندقية قد استوفتها على أكمل وجه قبل ذلك بخمسة قرون . غير أن ما يسترعى النظر من التشابه بين البندقية ورادبرن من حيث فصل السائرين على الأقدام عن وسائل النقل والانتقال الأخرى — ويلاحظ أن ذلك تم فى البندقية زمناً طويلا قبل أن يتقدم ليوناردو دافنشى بنفس المشروع لمعالجة ازدحام حركة النقل فى ميلان — ليس إلا جزءا يسيرا مما أسهمت به البندقية فى فن تخطيط المدن .

وقد نشأت البندقة من أحداث قاسية كانت هى الهجرة الاضطرارية

---

(١) إحدى ضواحى فيرلون (Fair Lawn) فى ولاية نيوجرسى بأمريكا .

والحرب والمنازعات والقرصنة والتجارة ، وعلى الرغم من أنها – على مرّ الزمن – اكتسبت الولاء لها والتعلق بها ، بفضل ما توافر لها من بهاء ونظام ، فإنها لم تزعم أنها كانت مدينة مثالية ، فهي لم تكن إلا أفضل ما تسنى أن يصل إليه تفكير طائفة متعاقبة من التجار ورجال الصناعة ذوى الهمة والنشاط الذين كانوا يسعون وراء المال والسلطة وألوان الترف التي يمكن الحصول عليها عن طريق المال والنفوذ . ولنقارن إذن بينها وبين مدينة كان مبتدعها يريد فى الواقع أن يجعل منها نموذجاً مثالياً ، ونعنى بها أموروت (Amaurote) عاصمة الدولة الطوباوية التي ابتكرها خيال سير توماس مور فى كتابه الذى نشر فى سنة ١٥١٦ ؛ أى فى الوقت الذى أخذ فيه نجم البندقية فى الأفول .

وأموروت الواقعة فى وسط جزيرة يوتوبيا هى واحدة من ٥٤ مدينة أو بلدة ريفية لا يقل بُعد إحداها عن الأخرى عن ٢٤ ميلا ، ولو أنه « ما من واحدة منها معزولة إلى حد أنه يتعذر عليك أن تذهب من مدينة إلى أخرى سيراً على الأقدام فى يوم واحد » . وعاصمة الجزيرة – أى أموروت ذاتها – رقعتها مربعة الشكل ، وتقع مثل لندن على نهر تدخله أمواج المد فتحمل إليها السفن من البحر ، ويبلغ اتساع الشوارع عشرين قدماً . « وقد خططت تخطيطاً جيداً يفى بأغراض حركة النقل ويكفل تجنب هبوب الرياح » ، ولكل منزل بابان ، أحدهما على الشارع والآخر على الحديقة . والواقع أن شدة تحمس الأهالى للعناية بالحدائق « لا يزيد منها مجرد المتعة التي يلقونها ، بل التنافس الحاد بين الشوارع لتتوافر لديها أفضل الحدائق المعتنى بها » . ومما يدعم هذا الإطار الخارجى الأخضر وهذا الاتساع الداخلى ، أن القانون يحتم على كل ساكن أن يعيش فى الريف لمدة سنتين ، وعلى هذا النحو يوفر « مور » أسباب الاطمئنان لبقاء مدينته ذات الحدائق ، بتنشئة مواطنين ملمين بشئون الحدائق .

وكل مدينة فى يوتوبيا مقسمة إلى أربعة أحياء ، وفى وسط كل حىّ توجد ساحة للسوق تقوم حولها الحوانيت والمخازن ، بيد أن النظام الداخلى الأعمق من ذلك ، نظام وحدة الجوار ، يقوم على أساس الأسرة ، فكل ثلاثين أسرة تختار حاكماً ، وهيئة الحكام بأسرها تختار العمدة ، وترسل كل المدن نواباً يمثلونها فى المجلس التشريعى للدولة الطوباوية ؛ فالأساس الذى يقوم عليه كل هذا النظام للحكم النيابى هو وحدة الجوار المؤلفة من ثلاثين أسرة ، والتى كان أفرادها يتناولون طعام العشاء معاً بانتظام فى إحدى قاعات الأكل الفسيحة التى تملأ الشارع . وهناك يأخذ كبير الحكام وزوجته مكانيهما على المائدة الرئيسية ويتصدران الاجتماع .

ولعل هذه الفكرة التى ابتدعها مور لم يُمْحَ أثرها كلية ؛ فقد كانت نموذجاً لما ابتدعته مجتمعات طائفة أمانا (Amana)[1] فى ولاية أيوا (Iowa) من قاعات مشتركة للطعام تستخدم اليوم مطاعم عامة ؛ وإلى جانب ما قام به « مور » من تجميع أفراد الأسر أوجد دارا مشتركة للحضانة ، فحتى فى الوقت الذى كان وجود الخدم فيه أمرا مألوفاً ؛ فإن « مور » لم يجهل مزايا الإعفاء أحياناً من همّ العناية بشئون الأسرة ، وعلى هذا فإن الشكل الأولى للنظام لم يكن النقابة ، بل الأسرة ووحدة الجوار ، أو على وجه أصح ما دعاه مهندس التخطيط الفرنسى جاستون بارديه (Gaston Bardet) « النظام الأبوى » (patriarchal echelon) . ولقد أعاد « مور » إلى منظات مجتمعاته المشاركة والسخاء اللذين كانا مألوفين فى المجتمعات البسيطة قبل ظهور نظام اقتصادى يقوم على العملة .

ولعل أعظم ما ابتدعه « مور » هو أنه جعل الأنظمة تساند حب سكان المدن فى العصور الوسطى لحياة الريف والألعاب الرياضية ؛ إذ أنه

---

(١) كانت هذه الطائفة تتألف من أهالى سبع قرى تقع حول نهر ايوا فى وسط تلك الولاية .

استوجب بحكم القانون أن تكون الزراعة العمل الوحيد المشترك لكل الناس رجالا ونساء ، وكلهم يتعلمونها منذ سن مبكرة ، فيتلقون جانباً منها عن طريق الدراسة النظامية فى المدرسة ، وجانباً آخر عن طريق الخروج بهم إلى الأرض المجاورة للمدينة كما لو كان ذلك للترفيه عنهم . وهناك لا يقتصر الأمر على مجرد مشاهدة النشاط الريفى ، بل يقومون فعلا بالعمل عندما تسنح الفرصة .

ولما كانت المشاركة فى العمل واجبة ، فإن أهل الدولة الطوبارية لا يعملون إلا ست ساعات فى اليوم ، وهذا يهيء لهم فى آن واحد وفرة فى الإنتاج وفيضاً من الفراغ ، يكرسونه بوجه خاص لتحصيل العلم عن طريق الدراسة الخاصة والمحاضرات العامة . ولا يوجد فى دولة « مور » الطوباوية مكان للأثرياء العاطلين ، ولا الأتباع المتبجحين ، ولا المتسولين الجشعين ، لا ولا « للطائفة العظيمة العاطلة من القسس ومن يقال عنهم أهل الدين » ، فإن « مور » — وقد كان هو نفسه رجلا تقياً على استعداد لملاقاة الموت حرقاً فى سبيل شرفه وكنيسته — كان يعلم جيداً زيف الكثير من مظاهر الولاء الدينى فى مدينة أواخر العصور الوسطى .

وقد يبدو من بعض النواحى أن مدينة « مور » الخيالية ليست مجرد مرحلة عظيمة من التقدم تفوق ما بلغته البندقية ، بل إنها إزاء رغبتها فى تحقيق المساواة ، وإزاء محاولتها توفير الإنتاج والفراغ فى وقت واحد ، وإزاء تحويلها العمل إلى نوع من اللهو وفى الوقت بعينه إلى وسيلة لتغذية الذهن — إنها إزاء هذا كله سبقت المشروعات الاجتماعية التى شرع عصرنا الحاضر فى تخطيطها . وفى أموروت يخفف العمل الجماعى والصلات الودية من صلابة أوضاع الحكم ، وإذا كنا نجد هنا على الأقل صورة باهتة لمعالم الناحية الاجتماعية فى مدينة المستقبل ، فإن البندقية — فيما يحتمل — تمثل سلفاً صورة أشد جرأة وأكثر وضوحاً للناحية المادية فى مدينة المستقبل .

وما زال أمام المدن العظمى فى العالم شوط بعيد لا مناص من قطعه قبل الوصول إلى كلا الهدفين .

بيد أنه بالضبط عند النقطة التى كان يتحتم فيها على « مور » أن يحول إصلاحاته الاجتماعية إلى أوضاع مادية تعثر خياله كما تعثر خيال أفلاطون من قبله ، أو على الأصح تبلرت تصورات « مور » فى أوضاع عصره التى كانت آخذة عندئذ فى الابتعاد عن نظام العصور الوسطى . ولذلك فإن معاييره لم تعد معايير العصور الوسطى التى كانت تتناسب مع السير على الأقدام ؛ فالمدينة مربعة الشكل تقريباً ، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعها نحو ميلين ، وتوزيع السكان على أساس عشرة إلى ستة عشر من البالغين فى الأسرة الواحدة ، على حين أن عددها جميعاً ستة آلاف أسرة ، مما يجعل المجموع الكلى للسكان يزيد كثيراً على مائة ألف نفس ، ولا جدال فى أن « مور » يضع الحد عند هذا المستوى ، إذ أنه بعد سد النقص فى المدن التى يهبط عدد سكانها عن ذلك الحد ، يتخذ العدة للاستعمار خارج البلاد .

ويقترن بهذا المعيار الجديد للاتساع نوع جديد من الاطراد ، أجل ، ونمط جديد من الكلاحة والرتابة ، فإنه يلاحظ « أن من يعرف مدينة واحدة من المدن فإنه سوف يعرفها جميعاً لما بينها من التشابه التام ، إلا حيثما تحول طبيعة الأرض دون ذلك . وذلك أنه تسود فيها جميعاً عين اللغة ، وعين آداب السلوك والتقاليد والقوانين ، وعين التشابه فى المظهر دون أي تنوع فى شكل المدن ، ولا فى الملابس ، ولا فى الألوان . تلك كانت النغمة الجديدة ، نغمة توحيد المستوى والتنظيم على وتيرة واحدة والتحكم الجماعى ، فما أشبه ذلك بكلاحة المترمتين ، أو كلاحة المسجون . فهل هذه هى الدولة الطوباوية ، « المكان الذى يطيب العيش فيه ؟ » .

فهل أعد « مور » نفسه سلفا للانسجام مع العهد المقبل للحكام

المستبدين مع أنه كان على استعداد لأن يتحدى بنفسه أقرب حاكم مستبد ؟ .. ماذا دعاه إلى اعتبار انعدام التنويع والاختيار ضرورة مثالية على أى وجه من الوجوه ؟ هل ساورته الظنون ، ولو بالسابقة ، حول الثمن الذى سوف يتحتم على عصرنا الحاضر أن يدفعه فى النهاية لقاء إنتاجه الآلى و نظامه الاقتصادى القائم على الوفرة ؟ وهل كان بناء على ذلك مستعدا ، باسم العدالة المجردة ، أن يدفع ذلك الثمن ، مهما يكن باهظاً ، على هيئة التضحية بقيم أخرى لا تقل ضرورة للحياة البشرية ؟ لقد تركنا دون أى هاد نستشف منه الإجابة .

وسوف يلاحظ القارئ أن دولة « مور » الطوباوية قد عالجت ، من بعض النواحى ، العيوب ووجوه النقص الأساسية فى مدينة العصور الوسطى ، مثل رجحان كفة أصحاب الثروات الخاصة ، وتجاوز الحد فى التخصص الحرفى والمهنى حتى غدا له نظام دقيق تتفاوت فيه الطبقات ، وكثيراً ما كانت تتبادل العداء وينعدم بينها الاتصال . فبتزويد أبناء المدن بتربية ريفية وقضاء فترة فى الخدمة الزراعية الإجبارية ، حاول القضاء على ألوان التفاوت وضروب العداء الخفى التى كانت قائمة بين الريف والحضر ، ولذلك أيضاً أعاد ووسع نطاق الحديقة الحضرية بوصفها جزءا أساسيا فى تخطيط المدينة ، وذلك عندما كانت قد بدأت تنكمش ، بل كانت قد تلاشت فعلا فى بعض الأماكن .

وإن رغبة « مور » فى الاتساع الداخلى قد تكرر ظهورها عرضاً فى الوحدات الكبيرة التى أعدها وليم بين (W. Penn) فى التخطيط الذى وضعه لفيلادلفيا سنة ١٦٨٨ ، ولكن عند ما حل القرن الثامن عشر كانت الوحدات الأصليه السخية قد أعيد تقسيمها بشق شوارع وأزقة فيها — ولا يزال يذكرنا بذلك زقاق إيلفرث (Elfreth's Alley) وكثير غيره من الأزقة المماثلة — وقد ترتب على ذلك انكماش المساحات المخصصة للمنازل إلى حجم منازل الدمى ، وتقلص ساحات الفضاء بالمعدل نفسه إلى حجم المهد أو حجرة

الباخرة . ويبدو فوق كل شيء أن « مور » حاول عامدا أن : « يقتصد أقصى ما يستطاع من الوقت الذى يصرف فى خدمة البدن ، وأن يخصصه لتحرير العقل وتثقيفه » ، على ألا يكون ذلك مقصوراً على طبقة واحدة ، بل يتناول المجتمع بأكمله . ومع ذلك فإنه — حتى فى أحلام هذا الرجل الإنسانى التى تبدو كأنها متحررة من القيود — تراه لا يزال مشدود الوثاق إلى الأسوار الخنيقة فى القلعة ، فالأرقاء كانوا يقومون بأحط أعمال المجتمع عقابا لهم على جرائمهم ، والحرب ، ولو أنها كانت كريهة إلى الطوباويين ، ظلت جزءا أساسياً من أنظمة حياتهم ، والواقع أن الطوباويين كانوا خبراء فى الدعاية والتخريب بوصف ذلك من وسائل الحرب ، وكانوا لا يلجأون إلى القتال الفعلى إلا للإجهاز على الخصم ، فمرة أخرى : أهذه هى الدولة الطوباوية ؟

وإذا كانت البندقية أرقى ما أنتجته تجارب العصور الوسطى ، فلعل الدولة الطوباوية كانت أكمل مثال للتفكير فى أواخر العصور الوسطى من حيث تكوين المجتمعات الحضرية وتنظيمها . ولكن من ذا الذى يجب أن يستبدل بالبندقية تلك الوحشة المقبضة التى تبعثها أموروت فى النفس بتماثلها المطرد وبتنظيمها على نسق واحد ؟ ومع ذلك فمن ذا الذى يجب أن يستبدل بكياسة نظم الحكم فى أموروت ما كان فى البندقية من طغيان مستتر ، وضروب من المظان والبغضاء كانت تتلظى بنيرانها الصدور ، فضلا عن مذابح الأخلاق وضروب الاعتداء والقتل الإجرامى التى كانت تكمن وراء تجارتها المزدهرة وفنها الباعث على المرح والابتهاج ؟ إن العيب الذى انتقل من حضارة إلى حضارة عن طريق الوعاء الحضرى ، كان لا يزال واضحا للعيان فى كلتا المدينتين ، فعندما نعجب بالمظهر الخارجى المتبقى يجب ألا يغيب عن بالنا استمرار بقاء القرح الداخلى — قرح الحضارة ذاتها الذى يتمثل فى اقتران السيادة بالعبودية والقوة بالضحايا البشرية .

٣ — مخلفات وطفرات[١] من العصور الوسطى

إن أفضل الأمثلة التي تنم عن حضارة ما ليست دائماً أكثرها اتساما بصفاتها المميزة ، لأن ما يكون أكبر مثال نمطي يكون أضيق الأمثلة نطاقاً وأشدها ارتباطاً بالعصر ، فكلا ديكر (Dekker) وتشابمان (Chapman)[٢] جزء لا يتجزأ من لندن في أواخر العصور الوسطى ، على حين أن شكسبير — مع أنه شاركهما في تلك البيئة — قد تخطاها في مائة ناحية . وهذا ينطبق كذلك على حضارة المدن ؛ ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر ظهرت إلى الوجود بعض أوضاع حضرية جديدة ، كانت لا تمثل العصور الوسطى الراحلة ولا نظم الاقتصاد التجاري وأساليب الحكم المطلق المقبلة ، ولم تكن هذه الأوضاع الحضرية « انتقالية » وذلك لأنها لم تؤد إلا إلى اتجاهها نحو ما هو أبعد من ذلك من الأهداف المتعلقة بها . بيد أن لها عندنا اليوم دلالة أعظم شأنا من النماذج السائدة في ذلك العصر ، وهي التي سوف أتناولها بالبحث تحت عنوان شامل هو : « النظام الباروكي » .

وفي الوقت الذي انقطعت فيه تجارة ما وراء البحار عن الكثير من أقدم مراكز التجارة في العصور الوسطى ، فأخذت مياه الحياة تغيض في هذه المراكز كما تغيض مياه النهر وقت الجفاف فلا يتبقى منه إلا المجرى الذي حفرته المياه المتدفقة في وقت من الأوقات ، وحين كانت النزعات العسكرية والتجاربة تفرض نموذجاً لنمو أكثر اتساما بالآلية ، كانت نواحي الريف تمر بفترة تقدم وانتعاش جوهريين . فإن فيض أنظمة المدينة في العصور الوسطى ارتد أخيرا إلى نواحي الريف فأنتج قرى ومدناً ريفية

---

(١) المفرد طفرة ، وهي عند علماء الأحياء ظهور صفات جديدة في الكائن الحي نتيجة لحدوث تغير أساسي في الكروموزوم .

(٢) مؤلفان مسرحيان إنجليزيان عاش أولها من سنة ١٥٧٢ إلى ١٦٣٢ ، وثانيهما من سنة ١٥٥٩ إلى سنة ١٦٣٤ وبذلك كانا يعاصران شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦) .

أبرزت بيئتها الريفية طابعها الحضرى . ولقد تمثل هذا التقدم على خير صورة فى قرى وسط وشمال أوروبا ، ابتداء من بافاريا إلى الأقاليم الواطئة ، ومن ثم إلى إنجلترا حيث امتد إلى قرى المقاطعات الغربية .

ولقد نشأ عن ذلك أن ما كان قائما فى العصور الوسطى من مراكز الاستقرار الصغيرة العفنة — وكثيراً ما كانت عبارة عن مجموعة من الأكواخ الضئيلة الحجم التى صنعت من النفايات ، وهى ما زالت تشاهد فى كثير من صور القرن السابع عشر المطبوعة — قد تحولت إلى مراكز مجتمعات صغيرة أنيقة الشكل ، محكمة الوضع ، حسنة التنسيق ، مبنية من الحجر أو الآجر ، تزدان دارها الصغيرة المخصصة لنقابتها أو سوقها بلوحات مصورة بالألوان أو قطع نحت لا تقل كثيراً عما يوجد فى المراكز الحضرية الكبرى ، فكل مركز من هذه المراكز صورة مصغرة من مدينة العصور الوسطى ، حيث ترى ثانية حدائق فسيحة خلف صفوف المنازل .

وإن بعضا من أجمل القرى فى إنجلترا — بيرفورد (Burford) وبايبرى (Bybury) وتشيبينج كامدن (Chipping Camden) — ليرجع تاريخ ظهورها فى شكلها النهائى إلى الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ، وهو عهد يجب أن يعتبر بوجه خاص عهد انحلال فى داخل المدن الكبرى ذات البلديات . وربما كان انتعاش القرى على هذا النحو يرجع فى أساسه إلى سبب اقتصادى ، وهو فرار أهل الحرف تدريجا مما كان يوجد فى المدن ذات البلديات من فرط الحماية وفرط الإشراف ، والتكافؤ المتزايد بين الصانع الريفى ، الذى كانت لديه حديقة تكمل ثمارها أجره ، وبين العامل الحضرى ، الذى كان يعيش فى مسكن مكتظ ، ويدفع إيجارا مرتفعا ، ولا يحظى من النقابة إلا بالقليل من الحماية الفعالة ولا سيما فى الصناعات الجديدة . ولا شك فى أن ازدياد الكفاية فى الإنتاج الزراعى منذ القرن السادس عشر كان له أيضاً نصيب فى هذا الانتعاش ، ولا سيما فى

الأقاليم الواطئة حيث تسنى للزراعة — وكان يمارسها الرجال والنساء على السواء وتمدها البقر والخيل والخنازير بما يلزمها من السماد الطبيعي — أن ترفع فلاحة البساتين إلى مستوى لعله لم يتيسر بلوغه إلا فى الصين .

وكان اختفاء نظام الحقول الثلاثة[١] وتوحيد القطع الصغيرة المتناثرة فى أقسام أكبر مساحة ، يسيران جنباً إلى جنب مع اندماج الإقطاعيين فى وحدات قومية كبرى . وقد نشأ عن ذلك أن المنظر الطبيعى لأوروبا بعد العصور الوسطى أصبح أكثر توحدا ، وأحياناً كانت توجد فيه حدود ثابتة من العلامات والأسيجة ، كما هو الشأن فى إنجلترا ، وأحياناً أخرى كانت تقوم فيه الأوضاع القديمة المفتوحة ، كما هى الحال فى بافاريا وسويسرا وهولندا . والقرية التى كانت ترزح فى وقت ما تحت النير الإقطاعى ، انتعشت بفضل ما أدخل فيها من الصناعة اليدوية ، وما توافر لديها من مقادير أكبر من الغذاء ، فتهيأت أمامها لأول مرة تقريباً الفرصة لأن تتاجر مع المدينة على قدم المساواة ، ولأن تطلب تبعاً لذلك سلعاً من العالم الخارج عن دائرتها .

ويستطيع المرء أن يستمد من هذه القرى الباقية إلى اليوم خير فكرة عن توزيع الأبنية أصلا فى مدن العصور الوسطى التى أصبحت الآن شديدة الاضطراب فى تكوينها بسبب أنقاض ما تعاقب عليها من العهود الحضارية المختلفة . وفى قرى مثل بايبرى يعثر المرء حتى على حالات للعزوف عن نظام إقامة المنازل فى صف واحد ، ففى هذه الحالات تؤلف المنازل تجمعات صغيرة سبقت — وفى الحقيقة عاونت على تكوين — أفضل المحاولات

---

(١) يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى كتابه « أوروبا العصور الوسطى » ج ٢ ص ٨١ إن أوروبا العصور الوسطى اتبعت هذا النظام لعدم إجهاد الأرض : وللحصول على محصول طيب ، فقد كانت جميع الأرض الصالحة للزراعة فى الضيعة تقسم إلى ثلاثة أقسام يزرع أحدها فى الربيع ، والثانى فى الخريف ، ويترك الثالث مراحاً بغير زرع ، وفى كل سنة كان يحدث تبادل بين هذه الأقسام .

التى بذلها ريموند أونوين (Raymond Unwin) وبارى باركر (Barry Parker) ولم يؤد الإنتاج الآلى إلى قلب أوضاع هذا النظام الجديد ، بل الأصح أنه دعمه ؛ إذ أن التوسع فى استخدام طاحون الماء وطاحون الهواء زود القرية بمصدر القوة المحركة التى كثيراً ما أصبحت لا تفى بالحاجة فى المركز المزدحم بحكم النمو الحضرى ذاته .

ومن بين هذه الألوان الجديدة للعزوف عن المألوف ، التى اتسمت بطابع قومى ، كانت النماذج الهولندية ذات أهمية خاصة ؛ فقد كان لها تأثير محسوس على أوروبا بأسرها مثل تأثير المتفوقين فى فلاحة البساتين بفضل بيوتهم الزجاجية ، وذلك لأن المزرعة الهولندية والحديقة الهولندية أصبحتا نموذجين للزراعة المتقدمة . كما أن التحكم فى الماء — وقد تم تحقيقه على السواء فى داخل المدينة وفى الأراضى الواطئة التى استصلحت بحجز مياه البحر عنها ، فقد كان كلاهما على اتصال مستمر — أكسب المدينة الريفية العادية فى هولندا أو القرية الواقعة على القناة ما لا يقل عما فى امستردام من واجهة نظيفة وإطار من الخضرة ، وليس هذا فحسب ، بل نظافة ممتازة فى الداخل كتلك التى عساها أن تتحقق على ظهر أكثر السفن نظافة بفضل الاستعانة بالرمل ، وحجر مالطة[1] ، ومياه البحر . وإن النوافذ الكبيرة التى زود بها المنزل الصغير فى هولندا فى القرن السابع عشر — وهى التى أعيدت بعد ذلك بأكثر من مائتى سنة ، سواء فى مبانى أوت (Oud)[2] التقدمى أم فى مبانى جرانبريه — موليير (Grandprè-Molière) المحافظ — قد أدخلت فى المسكن قدراً من ضوء الشمس والهواء النقى يضارع ذلك الذى كان قد صوره يوهان أندرياى فى مدينته المثالية كريستيانوبوليس ، وهى ذاتها لم تكن أكبر من قرية .

---

(١) حجر مالطة (holystone) حجر رملى رخو لتنظيف ظهر السفينة .

(٢) معمارى هولندى شهير ولد فى أواخر القرن الماضى .

وبالجملة فإن المرافق وتوزيع العناصر فى الكوخ الهولندى المبنى من الآجر فى هذا العهد لم تقتصر على أنها كانت أرقى فى مستواها عن معاصراتها فى مساكن الطبقة الراقية فى بلاد أخرى ، بل إنها ما زالت فوق المستوى الذى بلغه إلى الآن فى أغلب الأماكن رجال العصر الحاضر القائمون على إصلاح أساليب الإسكان . ولم تكن النتيجة مثالية من كل الوجوه ، كما سوف نرى حينما نناقش حالة امستردام ، ولكن إدخال الروح الديمقراطية فى مدينة العصور الوسطى وتوزيع مراكز الصناعة كان كلاهما يسير فى الاتجاه الصحيح نحو تشجيع الفصل فى الأمور محلياً ، وكان من شأن ذلك اتسام الأداة الحاكمة بالرحمة والتزام المعيار الإنسانى فى الحكم على الأمور .

ولقد حدث تغيير مماثل فى العالم الجديد حيث بدأ نظام العصور الوسطى ، وكأنه قد بعث من جديد عن طريق الاستعمار ، ففى أمريكا الجنوبية كانت المدن الاستعمارية الجديدة تخطط مقدما وفق المبادئ التى تقررت فى قوانين جزر الهند الغربية التى صدرت فى سنة ١٥٢٣ عند فتح المكسيك . بيد أن هذه المدن الجديدة كانت تتطلع إلى الخلف وليس إلى الأمام ؛ لأنها اتبعت نموذج المدن الحصينة القياسى ومضت فى التقييس إلى أبعد من ذلك بتهيئة الأسباب لإنشاء « فوروم » أو ميدان (بلازا) فى وسط المدينة ، مع إقامة كنيسة تشرف على أحد الجوانب وترك الميدان (البلازا) ذاته خاليا ، وكان النسق المثالى للميدان يبلغ ٦٠٠ قدم فى الطول و٤٠٠ قدم فى العرض . وقد روعيت الدقة التامة فى أن تكون وحدات المبانى مستطيلة الشكل ، والشوارع فسيحة إلى حد أنه — طبقا لما يقوله روبرت سميث — عند وصول الأسقف الإيطالى جاردينى إلى سان دومينجو فى سنة ١٥٢٠ امتدح الشوارع ، وقال إنها أكثر اتساعا واستقامة من شوارع موطنه الأصلى ، فلورنسا . وعلى الرغم من أن المدن الاستعمارية البرتغالية كثيرا ما كانت تشاد على نحو أقل

انتظاما ، وكانت أقرب شبها إلى أكثر نماذج العصور الوسطى تناسقا ، فإننا لا نجد إلا فى « بالمانوفا » (Palma Nova) ما يضارع مثل هذا التخطيط المثالى من الطراز الباروكى .

وإذا كانت المدينة الاستعمارية الإسبانية من مخلفات المنشئات الاستعمارية العسكرية ، فإن القرية فى نيو إنجلند كانت طفرة[1] مباركة ، وذلك أنه عندما استقر المغامرون من طائفة البيوريتان فى مستعمرة باك باى (Back Bay) قاوموا بسهولة بواعث الإغراء على تركيز الإقامة فى ميناء بوستن ، وذلك بالرغم من أنهم كانوا يألفون التجارة والصناعة اليدوية أكثر من الزراعة ، ولحسن الحظ أنهم كانوا فى البداية يعتمدون على الزراعة ، وهوما أرغمهم على المخاطرة بأن يعيش عدد قليل من السكان فى مزارع واسعة ليتسنى لهم احتلال الأرض . وكان مركز القلب من مدنهم وقراهم الجديدة منطقة عامة ، هى مساحة من الأرض الخلاء كثيرا ما كانت أكبر اتساعا من البلازا الإسبانى ، وهناك كانت تستطيع الأغنام والمواشى أن ترعى فى أمان تحت إشراف حارس الماشية ، وكان أحد موظفى البلدية . وحول المنطقة العامة كانت تشيد منذ البداية المبانى العامة — أى دار الاجتماعات ، ودار البلدية ، والمدرسة فيما بعد . وإذا كانت هذه المنشآت تؤدى وظيفة مركز احتشاد المجتمع ، فإن المنطقة العامة كانت تقوم مقام ساحة تدريب للحرس المحلى ، وهذا نظام آخر من أنظمة العصور الوسطى . والمثل الأعلى للحكم الذاتى فى العصور الوسطى — وهو الذى لم يتحقق فى أوروبا إلا على نحو شديد القصور بسبب المناهضة المستمرة من جانب النبلاء والأساقفة وأقطاب الطبقة المتوسطة — ازدهر هنا على أكمل وجه ، لأن أتباع المذهب البروتستنتى كانوا يسيطرون على الكنيسة والمدينة سواء بسواء .

وفى مبدأ الأمر أعطى كل فرد فى المجتمع حصته من الأرض ، وكانت

---

(١) انظر الحاشية ص ٦٠٢ بأول القسم ٣ من هذا الفصل .

تتراوح عادة بين نصف فدان وفدان فى داخل القرية ، ولو أنه كان فى وسع القس أن يحصل على ما قد يبلغ عشرة فدادين ، أما الحصص المخصصة للزراعة فإنها كانت تقع فى الضواحى ، خارج نطاق حواجز الدفاع التى كانت تقام فى أول العهد ، وفى بعض الأحيان كانت مواقع هذه الحصص تبعد عن القرية إلى حد يبرر إقامة منزل صيفى هناك على نحو ما كان يحدث فى مدينة العصور الوسطى. وطبقا لما يقوله وليم ويدن (Weeden) فإنه بموجب الأنظمة التى سنت فى البداية ، لم يكن مباحا لأى فرد أن يقيم فى مكان يبعد أكثر من نصف ميل عن دار الاجتماعات لئلا تكون قسوة الشتاء فى نيو إنجلند ذريعة لتهربه من التزاماته الاجتماعية بوصفه من أعضاء الكنيسة .

وفى بعض الأحيان كانت المنطقة العامة عبارة عن شريط عريض يبلغ اتساعه مائة وخمسين قدما أو مائتى قدم ، ويمتد على طول القرية ، كما هى الحال فى شارون (Sharon) بولاية كونكتيكت (Connecticut) ،وفى بعض الأحيان كانت تتخذ شكل مستطيل أو مربع . ومنذ القرن الثامن عشر ، كانت تقام حول هذه المنطقة ، المنازل المنفصلة بعضها عن بعض بجدرانها الخارجية ذات الألواح الخشبية البيضاء ونوافذها ذات المصاريع الخضراء ، وكان كل منزل منها قائما بذاته ، على بعد مناسب من المنازل المجاورة ، وتوجد خلفه حديقة فسيحة إلى حد يسمح بغرس بستان صغير للفاكهة وإقامة حظيرة للحيوانات وتخصيص رقعة لزراعة الخضراوات ، وكانت أشجار الغرغاج والاسفندان السامقة على جانبى الطريق تقى السائرين حرارة الشمس اللافحة فى الصيف ، وتؤلف حاجزا جزئيا يخفف من قوة هبوب الريح فى الشتاء ، وكانت عقود أغصانها المورقة تربط بين المنازل المتناثرة ، وياله من مظهر للانسجام التام بين الإنسان والطبيعة . ولقد احتفظ بهذه المعالم التى تدعو إلى الإعجاب حتى القرن التاسع عشر ، على نحو ما نرى فى تخطيط بعض القرى الباكرة فى أوهيو مثل جاليبوليس (Gallipolis) .
ولم يتحقق أى شيء يدانى ما فى هذا التخطيط الطلق من نظام وجمال إلا

فى ضواحى الشق الأعلى من الطبقة الوسطى فى القرن التاسع عشر .

وفى الوقت الذى كانت الاستحكامات تطوق فيه مدينة العصور الوسطى ، عندما كان الناس يحتشدون خلف تحصينات ضخمة ، راضين بمدينة خلت من الأشجار أو الحدائق ، أو حتى من المساكن المعدة لأسر بمفردها ؛ بوصف ذلك البيئة العادية لحياة المدينة ، فى هذا الوقت أبقى هنا فى أمريكا على نظام مدينة العصور الوسطى الأكثر رحباً ، بل إنه فى الواقع ازداد رحباً ونفاسة ، وغدا اتساعاً فخما جليلا من أجل أغراض ديمقراطية ، ولقد قام هذا النظام على أساس أن المدينة فى نيو إنجلند كانت تأبى عامدة أن تتجاوز فى نموها الحد الذى تستطيع فى نطاقه توفير التجانس بين أبنائها وتوثيق الروابط الاجتماعية بينهم ، وبذلك أوجدت ما ظل قائماً فى جهات كثيرة مدى قرنين من الزمان ؛ أوجدت توازناً بين المهن الريفية والحضرية ، وكذلك توازناً داخلياً بين السكان والأرض التى يمكن الانتفاع بها .

وعندما كانت المساحة المخصصة لمجتمع من المجتمعات يتم شغلها بأكملها وتبدأ نذر الازدحام ، كان من يفيضون عن الحاجة من أفراد المجتمع يعمدون إلى اختيار قس جديد ويرحلون إلى مزرعة جديدة لينشئوا دارا جديدة للاجتماعات ، ويحددوا منطقة عامة جديدة ، وينشئوا قرية جديدة ، ويخططوا حقولا جديدة . فكان التجمع فى مراكز جديدة يحول دون التكدس فى المراكز القديمة ، وكان من شأن تقسيم الأرض فى المجتمعات الجديدة بين كل أفرادها ، على أساس حاجة الأسرة ، وكذلك حسب المركز والثروة ، أن يوفر للأفراد قدراً من المساواة أو يكفل على الأقل للمجد والمقتصد مستوى أساسياً أدنى للمعيشة ، وكان لكل أسرة حقوقها فى الأرض العامة ، كما كان لكل أسرة حقول فى الضواحى ، وكذلك حدائق فى مواقع أقرب من ذلك إلى منازلها . وكان من واجب كل رجل

المشاركة فى الشئون السياسية للمدينة عن طريق الاجتماع السنوى لأهل المدينة ، وهذا نظام ديمقراطى للحكم ، كما أن هذه أكثر البيئات توافراً لشروط الصحة والملاحة — ما دامت صغيرة النطاق . ولم يكن هذا الوضع المجدد المنحدر من العصور الوسطى متناقضاً فى كل دقائقه مع ماضيه الجبار فحسب ، بل كان متناقضاً كذلك مع جميع مزاعم النظام الباروكى الجديد المنافية للديمقراطية .

والنمو المتواصل للمدينة فى نيو إنجلند عن طريق انقسام النواة الاجتماعية المركزية إلى خلايا جديدة لكل منها كيان مستقل خاص بها ، استوحى النمط الإغريقى الأقدم عهداً . بيد أن مدن نيوإنجلند أضافت ظاهرة جديدة لم تنل إطلاقاً ما يفى بحجمها من التقدير ولا ما تستحقه من انتشار محاكاتها على نطاق واسع ، ونعنى بذلك مجمع المدن (town ship) . ومجمع المدن عبارة عن تنظيم سياسى يشمل مجموعة من المدن والقرى والكفور مع منطقة من أرض الريف الخلاء تحوطها جميعاً ، ويؤدى مهام الحكم المحلى بما فى ذلك تدبير المدارس والعناية بالطرق المحلية ، دون التسليم بما استقر عليه الوضع زمناً طويلا من التفرقة بين المدينة والريف . وفى داخل نطاق مجمع المدن — وكان أحياناً يشمل مساحة تمتد إلى اثنى عشر ميلا فى كل اتجاه — كان السكان يعترفون بالحاجة إلى وسائل التيسير اللامركزية ، ويتمثل ذلك فى دار المدرسة الابتدائية التى كانت تتكون من حجرة واحدة ، أو فى الحانوت الريفى الذى كان يحتوى على مختلف السلع ، وفى نمط مجمع المدن لم يقتصر نمو السكان ولا المساعدات الاجتماعية على مركز واحد ، فقد تحقق ما يشبه التوازن المحلى فى داخل نمط إقليمى يعادله فى التوازن .

ويجب ألا يستهان بالقيمة السياسية لهذا الوضع الجديد ؛ فقد كان العجز عن فهمه وعن الإبقاء عليه — بل عن إدماجه فى الدستور الفيدرالى

وفى دساتير الولايات — من الأمثلة المحزنة للغفلة فى التطور السياسى بعد الثورة . وعلى هذا فإن القواعد النظرية للنظام السياسى الديمقراطى كانت تعوزها أجهزة واقعية ، وما من أحد قدر قيمة نظام مجمع المدن خيرا من ايمرسون ، فقد كتب فى يومياته فى سنة ١٨٥٣ : « المدينة هى وحدة الجمهورية ، ولقد أقامت ولايات نيوإنجلند نظمها الدستورية على أساس المدن ، وليس على أساس المجتمعات ؛ وهو ما يفضى بنا إليه نظام التقسيم إلى دوائر . وعندما تتخذ المدن أساساً تكون الشئون السياسية بمثابة مدرسة الشعب ، واللعبة التى يتعلم كل فرد مزاولتها . ولذلك فإن كل من فى كاليفورنيا وجزيرة روبنصن كروزو لديهم من المهارة ما يمكنهم من أن يقيموا فوراً حكومة تستطيع مباشرة عملها ؛ على حين أن الفرنسيين أو الألمان يعجزون عن ذلك . وفى الولايات الغربية وفى نيويورك وبنسلفانيا لا يقوم الوضع على أساس نظام المدينة ، ولذلك فإن مصروفات الهيئة التشريعية لا تتسم بالاقتصاد بل بالتبذير . وفى نظام الدوائر أو أى نظام يضع الانتخاب فى قبضة لجان ، يعاد انتخاب رجال ما كانوا ليحصلوا على أصوات من يعرفونهم » .

بيد أن هذا المثال لم يفقد أثره تماما عند تكوين مجتمعات تالية ؛ إذ أن انتشار السكان فى قرى ومدن متناثرة فى أرجاء الريف الطلق ظل باقياً فى أوهيو وويسكونسين على نحو يشبه إلى حد كبير النمط عينه المتبع فى نيوإنجلند . وقد كان من أثر هذا الانتشار الواسع النطاق إضعاف الميل إلى تركيز السكان فى بضعة مراكز كبرى ، كما هى الحال اليوم فى استراليا والجهات الشمالية الغربية فى المحيط الهادى .

والمزايا الاجتماعية المتوافرة فى القرية والمدينة الصناعية فى نيو إنجلند لم يتكرر وجودها بعد القرن الثامن عشر إلا فى مجتمعات طوباوية ، كان أبرزها بوجه خاص مجتمع قرى طائفة أمانا فى أيوا ، فقد كان صادرا عن

إلهام صادق ، وظل مزدهرا لمدة قرن تقريباً . وكان مجتمع طائفة أمانا يضم نحو خمسة وعشرين ألف فدان ، ويتكون من سبع قرى زراعية لكل منها كنيستها ، ومدرستها ، ومخبزها ، ومصنع ألبانها ، وقبو خمورها ، ومكتب بريدها ، وحانوتها لبيع مختلف السلع . وكان كل مجتمع منها يبعد عن الآخر مسافة تتراوح بين ميل ونصف ميل وأربعة أميال ، ولكنها كانت جميعاً تقع فى دائرة نصف قطرها ستة أميال ومركزها « أمانا القديمة » .

وأما القرى ذاتها فإنها كانت تتألف من مجموعة من المنازل يتراوح عددها بين أربعين منزلا ومائة منزل ، وكانت منظمة على غرار القرية الألمانية ذات الشارع الواحد ، أى التى بها شارع واحد طويل يمتد على غير هدى وتخرج منه فروع عديدة غير منتظمة ، وكانت توجد المخازن والحظائر فى أحد طرفى القرية ، والمصانع ودور التشغيل فى الطرف الآخر ، وعلى كلا الجانبين كانت تقع بساتين الفاكهة والكروم والحدائق ، على حين أن الغابات المزروعة بعناية فى المناطق الواقعة بين مراكز المجتمعات كانت تزودهم بشطر كبير من الخشب اللازم لصناعتهم الخاصة بعمل الأثاث ، وقد كان لها فى وقت ما من ذيوع الصيت ما كان للاحف أمانا وقديد خنزير أمانا وفخذه ومقرار (Freezer) أمانا . وكانت مبانى هذه القرى وتنسيقها العام على طراز بديع صريح قوامه استخدام الآجر المصنوع محلياً . وكان هذا الطراز يفوق الطراز العادى الذى شاع فى مبانى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، بل كان ينافس طراز مبانى مجتمعات شيكر (Shaker)[1] . الأقدم عهدا — كان ينافسه فى كل شىء إلا فى الابتكار المعمارى .

وبالرغم من أن هذه الألوان من التقدم فى التطور الحضرى على وجه عملى معقول كانت على مستوى القرية ، فإنها فى الواقع كان لها من الأهمية ،

(١) قامت هذه المجتمعات فى ولايات نيويورك ونيوإنجلند وكنتكى وأوهايو وإنديانا .

من حيث ما كان يمكن أن تسهم به فى بناء المدينة ، بقدر ما كان لها من الأهمية من حيث نجاحها الفعلى فى بيئتها الريفية ؛ إذ أنها ضربت مثلا رائعاً بنموها النووى فى نطاق تخطيط طلق ولكنه مترابط ، فقد كانا كلاهما جزءا من حضارة عامة استطاعت أن تقيم نظاماً اقتصادياً متوازناً ، وذلك من ناحية بفضل حسن الحظ وسلسلة من الظروف المواتية ، ومن ناحية أخرى بفضل تخطيط واع .

وهذه الحضارة المتسمة بأساليب تقنية مبكرة (eotechnic) تغلغلت فى عديد من المدن الصغيرة والقرى التى كانت تربطها شبكة من القنوات والطرق غير الممهدة . وقد عززت هذه الشبكة بعد منتصف القرن التاسع عشر بخطوط قصيرة من السكك الحديدية لم تكن قد أدمجت بعد فى شبكة من الخطوط الرئيسية القليلة ، فهذه كانت لا تنشأ إلا لتعزيز قوة المدن الكبرى . وكان من شأن توليد القوة المحركة من الهواء والماء لسد حاجات الإنتاج المحلى ، قيام لون من النظام الاقتصادى المتوازن ، ولو أنه احتفظ بما فيه من التوازن ، وكان التوازن حتماً غاية منشودة عن وعى وإدراك لكان من المحتمل أن يظهر نموذج عام جديد للتطور الحضرى . ولكن هذا الاحتمال قضت عليه الاتجاهات الفكرية السائدة التى كانت تحبذ الإمعان فى التخصص وتركيز القوة الاقتصادية فى عدد قليل من المراكز الكبيرة تخضع لها الوحدات الحضرية الصغيرة .

ولقد بينت فى كتابى « التقنيات والمدنية » (Technics and civilization) كيف أن ما سبق ابتكاره من محركات أساسية على قسط أكبر من الكفاية ، مثل « التوربين » المائى الذى ابتكره فورنيرون (Fourneyron) وتوربين طاحون الهواء ، كان من الممكن أن تنشأ عنها منافسة خطيرة لمناجم الفحم ومناجم الحديد ، مما كان يحتمل أن يفضى إلى بقاء هذا النظام اللامركزى فى عالم الوجود حتى يفيد من كشف الكهربا وإنتاج المعادن الخفيفة الوزن . وإزاء

تطور العلم فى مختلف نواحيه كان من المحتمل أن يؤدى ذلك رأساً إلى إدماج « الحقول والمصانع ودور التشغيل » معا فى وحدة متكاملة أكثر اتساماً بالرحمة ، على النحو الذى رسم خطوطه الرئيسية بيتر كروبوتكين (Peter Kropotkin) مرة أخرى فى تسعينيات القرن التاسع عشر . وإذا كان من العبث الوقوف عند هذه الاحتمالات التى تلاشت ، فإن من الغفلة تجاهل أنها كانت موجودة فى وقت ما ، وأنها ظلت متاحة لمدة أطول بكثير مما يدرك أغلب الناس . ولا تزال الفرصة سانحة أمام البلاد المتخلفة صناعياً لتنفيذ هذا الطراز الممتاز ، بيد أنه لسوء الحظ أن المستشارين الغربيين لتلك البلاد — سواء أكانوا من الرأسماليين أم من الشيوعيين — شديدو التمسك بالإنتاج عن طريق التنظيم المركزى على نطاق واسع ، وينقصهم فى آن واحد الاستبصار التقنى وإدراك الجذور التاريخية للأوضاع القائمة ، فلا غرو أنه ليس فى وسعهم إيجاد نظام اقتصادى أكثر ملاءمة لأحوال البلاد من الناحية الإنسانية .

وإن الإنسان لينظر اليوم بعين جديدة إلى كل هذه الطفرات ، ولا سيما قرية القرن السابع عشر فى هولندا وفى نيوإنجلند ، فإن كلا منهما تعبر عن نوع جديد من التوازن الدينامى بين البيئة وسكانها ، وهو أفضل مما كان يوجد فى العصور الوسطى من ألوان الاحتكار الحضرى ، ومما أعقبها من التوسع الصناعى وانتشار الضواحى بغير نظام ولا ضابط . وكما نجد فى الدراسات النفسانية العميقة التى قام بها سبينوزا أو رمبراندت — كما نجد فيها روحا أجدى نفعا للمستقبل مما يوجد فى التحليل الآلى الجاف لديكارت ، أو فى أكثر صور الأشخاص التزاما للنمط المألوف التى كان يرسمها مصورو البلاط مثل فان ديك (Van Dyke) ؛ فإننا نجد كذلك فى هذه الأوضاع الحضرية بشيرا مبكرا تجريبيا لنموذج بيئة حضرية وريفية متوازنة توازنا ديناميا يماثل ذلك الذى لا مناص لنا من إيجاده فى النهاية وفقاً لمفهوم حضاراتنا ، من أجل المدنية جمعاء .

أليس من الواضح أن معمارى المدينة الهولندية وأعضاء مجلس القرية ، مثلهم مثل الحكام ورجال الوعظ فى نيوإنجلند ، كانوا يفهمون حياة الناس فى المدن فهما أعمق بكثير مما كان يفهمه أمراء العهد الباروكى الذين كانوا لا ينشدون إلا مرآة لغرورهم وخيلائهم ؟ لقد كانت نظرتهم أوسع أفقا وأكثر اتساقا من نظرة أولئك الأمراء ، وطبقاً لواقع الحياة ، فإن لويس الرابع عشر ولو نوتر[1] (Le Notre) هما اللذان يجب أن نعتبرهما الآن من الريفيين ؛ فقد كانت فرساى فى جوهرها لعبة ضخمة لطفل مدلل مثلما كانت تماما سياسة حكام ذلك العصر لهو أطفال ، إذا نظرنا إليها من الناحية الواقعية . وولع لويس الرابع عشر باللعب بالجنود — فقد اعترف فى شيخوخته ، مع قدر من الاعتذار ، بولعه المفرط بالحروب — كان حريا أن يكون أكرم له لو أنه انهمك فى اللعب بجنود من الرصاص ، بدلا من جنود من اللحم والدم . فهل كان هذا الضرب من سياسة الدولة سوى طفولية شباب تتظاهر بأنها تخدم الصالح الوطنى وتتنكر فى زى معمارى فخم ؟ إن المهندسين الذين استصلحوا زويدر زى (Zuyder Zee) وبسطوا رقعة امستردام وأعادوا بناء روتردام ، والمعماريين الذين أنشأوا العديد من المجتمعات الحديثة المحكمة الترابط على سطح تلك الحديقة العظيمة التى هى هولندا ، كانوا يتبعون تقليدا أبقى وأكثر رسوخا .

٤ — تفكك وتحجر

إذا كانت فكرة القرن التاسع عشر — فكرة التغيير المتواصل « والتقدم » المستمر — تثير بين ظهرانينا اليوم مشكلة الاستقرار والتوازن ، فإن فكرة العصور الوسطى — فكرة الأمن والطمأنينة —

(١) كان أندريه لو نوتر (١٦١٣ — ١٧٠٠) مهندسا فرنسيا للمناظر الطبيعية . وهو الذى وضع تخطيط حدائق فرساى وفونتنبلو التى كان لها أثر بعيد المدى فى تخطيط حدائق قصور أخرى .

أثارت ، منذ القرن الرابع عشر ، مشكلة كيفية الحياة والنمو والحركة فى عالم كانت تسوده أفكار منبثقة من تقاليد راسخة وامتيازات موروثة . أكان يجب هدم السور ؟ أكان يجب إزالة وسائل الوقاية ؟ أو هل كانت هذه المدنية تستطيع المضى فى النمو من مركزها ذاته حتى تصل دون تفككك إلى تكوين أوسع نطاقاً ؟ لقد واجهت هذه المشكلة فى آن واحد كل من مدينة العصور الوسطى ، ومنظمتها الرئيسية — الكنيسة — بيد أنه ما كان يتسنى لإحداهما أن تحل هذه المشكلة دون التغلب على ما فيها من أسباب العجز الموروثة .

وليس هناك مجال للجدل حول ما نجم عن ذلك من الحقائق ، فقد فشلت المنظمتان كلتاهما ، ودفعت المدينة الحديثة ثمن ذلك الفشل . فبعد القرن السادس عشر أخذت مدينة العصور الوسطى تتحول إلى قوقعة ، وكلما ازدادت العناية بصيانة القوقعة ، قلّ ما تبقى فيها من الحياة ، وهذه هى قصة كركاسون (Carcassonne) أو روتنبرج على نهر التاوبر (Ruthenberg - am - der - Tauber) وغيرهما من المدن ، فحيثما كان الوضع الخارجى يتغير على عجل بتأثير ازدحام السكان والتدابير الجديدة للمشروعات الاقتصادية ، كانت الروح الداخلية تتغير كذلك ، وأحياناً كانت المدينة القديمة تحاول أن تكون مرآة تنعكس فيها صورة الحياة الجديدة ، وذلك عن طريق التلاؤم الخارجى البحت ، أى بتغير المظهر الخارجى ، ففى خلال القرن الثامن عشر بأكمله كثيراً ما كانت الدور القديمة لسكان المدن تتشح برداء من الجص ، تكسو به سقوفها الخارجية المائلة ، وكذلك واجهاتها المبنية بالآجر على نحو بالغ الرونق ، وأحياناً كان يصحب ذلك توسيع فتحات نوافذها ، أو مسحة من الزخارف الكلاسيكية على هيئة طُنُف (كورنيش) أو عتب ، أو مدخل . وحى ريدرسترات (Ridderstraat) الأنيق الذى يوجد فى مدينة بروج (Bruges) — ويدل اسمه وحده على طبيعته الأرستقراطية — لا يزال يبدو

على هذا النحو ، ولكن الأوضاع القديمة — حتى مع ما طرأ عليها من تغييرات داخلية طفيفة — لم تكن تعبر عن الحياة الجديدة ، ولذلك فإن مدينة العصور الوسطى غدت فى الواقع متحفاً للماضى ، وإذا كان سكانها لم يصل بهم الأمر إلى أن يصبحوا أمناء هذا المتحف ، فإنه لم يعد لهم إلا دور محدود يقومون به فى المدينة الجديدة ، وأمثال هذه البرك — وهى برك من حياة العصور الوسطى — لا تزال متناثرة فى أرجاء أوروبا ، وقد غاض ماؤها فى بعض الأحيان ، وتنبعث منها زهمة التعفن فى أحيان أخرى :

والنظام الاقتصادى فى بلديات العصور الوسطى ، كان نظاماً مغلقاً يقوم فى الأصل على أساس أن المدينة ذات الأسوار — بوصفها وحدة متكاملة — كانت أسمى وأفضل من الحياة الهمجية الخالية من الأمان فى الريف الطلق ، وقد كان يتوافر للمدينة من المزايا العظيمة فى تدريب الناس على بذل الجهود الاقتصادية المنظمة وتنمية الحذق والمهارة بمختلف ضروب التنافس ومجالات الربح ما جعل الصناع يبقون أمداً طويلا دون أن يجدوا ما يغريهم بالسعى وراء الأجور المنخفضة فى الريف أو الرضا بالمستوى المنخفض للصانع الريفى وما لديه من المعدات التقنية الفجة ، وربما كانت القيود البلدية مرهقة للذين كانوا شديدى الاندفاع فى المغامرة ، ولكن هذه القيود كانت أخف وطأة من ألوان الاغتصاب الإقطاعى ، ونظراً إلى أنها كانت تقوم على أساس موافقة عامة صيغت فى قالب قانون ، فقد كانت أقل تعرضاً لتحكم الأهواء . وحتى طبقة النبلاء كانت تقدر قيمة هذه المزايا الحضرية ؛ فقد كانت تتركز فى المدن أسباب الحياة ومتاع الدنيا بكل ما فى ذلك من تنوع صنوف الإثارة وما تنطوى عليه المفاجآت من التحدى :

وعندما أقبل القرن السادس عشر ، كان التفاوت بين المدينة والريف ،

من الناحية السياسية ، قد تلاشى إلى حد ما ، فإن التحسينات التى أدخلت على وسائل النقل المائى قربت الشقة بين المدينة ونواحى الريف . ولما كانت القروض الإقطاعية — حتى فى المناطق الريفية — قد حولت إلى دفع مبالغ نقدية فى كثير من الأقاليم ، فقد أصبح فى وسع الناس أن يظلوا مقيمين فى الريف ، أو أن يروحوا ويغدوا دون الاستهداف لخطر الإنزال إلى مصاف الأقنان أو الأتباع ، ومما ينهض دليلا على هذا التساوى ، عدد المحاورات التى كتبها بعض السادة فى القرن السادس عشر للموازنة بين مزايا كل من البيئتين ، وهو ما يدل على أن كلتيهما كانتا على الأقل متقاربتين إلى حد يسمح بالمقارنة والاختيار بينهما .

وقد عاون على تحقيق هذه الظاهرة الجديدة — ظاهرة التساوى بين الريف والمدينة — أن الأمن أخذ يستتب تدريجاً فى الريف الطلق نتيجة لظهور سلطة مركزية فى الدول التى توحدت منذ عهد قريب.. فعندما قضى الملوك على قوة الأمراء المولعين بشن الحروب ، تسنى للصناعة أن تزدهر خارج نطاق البلديات القائمة ، وفى ظل الحماية الرمزية لقوة الحكومة القومية استطاعت الصناعة أن تقوم حتى فى القرى التى لم تحصل على حقها فى الحكم الذاتى ، وكانت تقع خارج نطاق أى إدارة بلدية قائمة . والتجار الذين كان لديهم من رأس المال ما يكفى لشراء المواد الخام ومعدات الإنتاج — كمكنات الحياكة مثلا — كانوا يستطيعون استئجار اليد العاملة وممارسة أعمالهم فى نواحى الريف فلا يدفعون إلا أجر الكفاف بدلا من معدل الأجور فى المدينة ، وبذلك كانوا يتفادون قيود الأنظمة التى وضعتها النقابات فيما يتعلق باستخدام العمال ومستوى العمل ويهبطون بمستوى المعيشة الحضرية ، وبالجملة كانوا ينشرون الاضطراب فى الأسواق المستتبة النظام . وقد وفد تشغيل الأطفال فى ظل هذا النظام ، فمنذ عهد مبكر يرجع إلى القرن السابع عشر ، لاحظ چون إيفلين (John Evelyn) فى الأقاليم الواطئة

« التقدمية » أن أطفالا فى سن الخامسة كانوا يستخدمون فى أداء عمل مفيد ، ولم يكن فى استطاعة اقتصاد المدينة أن يصمد أمام هذه المنافسة القاتلة .

وفضلا عن ذلك فإنه حوالى أواخر العصور الوسطى كانت صناعتا التعدين والزجاج تقومان بدور أكبر مما كانتا تقومان به فى مبدأ الأمر ، وكانت هاتان الصناعتان تقامان عادة خارج حدود مراكز الاستقرار الباكرة نظراً إلى مخلفاتهما وأقذارهما وما كانتا تتطلبانه من الأخشاب والاتساع الكافى للتخزين . ومنذ البداية اتسمتا بأغلب الصفات التى عرفت عن الصناعات الرأسمالية التى تلتها ، للأسباب ذاتها التى كانت حاسمة فيما بعد ، وذلك أن آلات الإنتاج كانت أغلى ثمناً من أن يستطيع شراءها فرد واحد ، أو أن تتولى إدارتها وحدة أسرية . وكانت ذات الطرق المتبعة تستدعى استئجار وتنظيم زمر بأكملها من العمال الذين كانوا يستخدمون عادة كأجراء ، ولم يكن يقوى على استئجارهم إلا صاحب عمل لديه من رأس المال ما يكفى لمواجهة نفقاته حتى يبيع إنتاجه . وقد صاحب ذلك أن شطراً أكبر من المشتغلين بالصناعة أصبحوا يتكسبون أود معيشتهم خارج نطاق المدن المتمتعة بحقوقها البلدية . وحتى إذا كانت هذه الصناعات قد أدت إلى ظهور مراكز جديدة للاستقرار الحضرى ، فإنها لم تفض إلى تمتع تلك المراكز بالحقوق البلدية ، وظلت تنافس المراكز التى كانت النقابات تظلها بحمايتها .

ولقد تحققت الاحتكارات القديمة بتعاون جهود المواطنين من أجل صالح المدينة . أما منذ القرن السادس عشر فإن الاحتكارات الجديدة التى ظهرت فى إنجلترا وفرنسا لم تكن احتكارات خاصة بالمدن ، بل احتكارات تجارية ، فقد كانت من أجل صالح أفراد يتمتعون بامتيازات ويتحكمون فى التجارة مهما تتفرق الجهات التى كانوا يعيشون فيها . وفى نظر تلك الاحتكارات الإنتاجية كانت البلاد بأسرها تعتبر منطقة

نشاطها ، وكان منشئوها — مثل السير ريتشارد مونسل Sir Richard Maunsell صاحب مصانع الزجاج الإنجليزى — ينتمون إلى طبقة النبلاء أو يرفعون إليها على عجل ، ولم تكن الصناعات الكبرى ومصارف الاستثمار وتجارة الجملة تقوم على أساس ممارسة نشاطها فى مدينة واحدة ، فقد كان نشاطها يمتد إلى كل مكان عن طريق المصاهرات والمشاركات والوكلاء . وحتى فى المدن المتمتعة بكامل حقوقها البلدية ، انهارت النقابات والهيئات الاتحادية القديمة — فى إيطاليا أولا ، ثم فى غيرها من البلاد — تحت وطأة هجوم الجماعات الأقوى منها مالياً ، وهى التى كثيراً ما كانت تغتصب مهام الحكم فى المدينة وتنحى عنها الحكام المنتخبين وذلك بفضل مقدرتها على استخدام المأجورين .

وقد أفادت التجارة الدولية ، التى أخذت أهميتها فى الازدياد منذ القرن الخامس عشر ، أفادت من مواطن الضعف الكامنة فى نقابات الحرف والمدن ذات الأسوار . وأول هذه المواطن هو أن هذه النقابات والمدن كانت تقوم على أساس محلى بحت ، ولكى تمارس المدينة التحكم الاحتكارى فى داخل نطاق أسوارها ، كان من الضرورى أن تكون قادرة على التحكم فى المنطقة الواقعة خارجها أيضاً ، وكان هذا يستتبع انتهاج سياسة تستهدف التنسيق بين صوالحها الذاتية وصوالح نواحى الريف ، وفى النهاية إقامة نظام فيدرالى لأقاليم المدينة :

ولكن ضروب السياسة التى اتبعتها فعلا أكثر مدن العصور الوسطى مقدرة وأعظمها دينامية قامت على أساس عدوانى اتخذ اتجاهاً مضاداً لذلك ، فمدينة البندقية أرغمت سكان البر الأصلى حتى برجامو (Bergamo) — وهم الذين كانت تعتمد عليهم فى الحصول على الطعام — أرغمتهم على ألا يزودا بما لديهم سوى سوق البندقية وحدها . وإذا كانت فلورنسا قد عاملت بيستويا (Pistoia) بطريقة معقولة واكتسبت صداقتها ، فإنها

هاجمت لوكا وبيزا وسيينا بأقسى ضروب الوحشية وحولتها إلى أعداء ألداء لها على الدوام . وكان يحــدث بين حين وآخر أن تقدم نقابات إحدى المدن يد المعونة إلى نقابات مدينة أخرى ، على نحو ما حدث من أن النقابات المجاورة لمدينة كولمار (Colmar) عاونت نقابة خبازى كولمار على الإضراب لمدة عشر سنوات . بيد أنه بوجه عام كانت النقابات لا تستطيع ممارسة سلطتها إلا على الذين كانوا يزاولون عملهم فعلا فى داخل أسوار المدينة . أما المدن ذاتها فقد كان يسيطر على علاقات بعضها عاملان ؛ وهما قصر النظر ، والغيرة المزمنة .

ووراء نواحى الضعف فى النقابات كان يكمن فى السياسة التى اتبعتها مدن العصور الوسطى هذا العيب الأبعد غورا ؛ وهو أن مدينة العصور الوسطى كانت حصناً لساكن المدينة . وعلى الرغم من أنها تكونت أصلا من الفلاحين والصناع الذين فروا من الريف ، فقد شاء القدر فى سخريته أن تتحول إلى جهاز استبدادى لاستغلال أولئك الذين بقوا فى المزارع وفى القرى ، فكان سكان المدن يجتثون الأرض — بالمعنى الحرفى — من تحت أقدامهم ؛ إذ أنه من حيث العلاقة بين الكائن الحى والوسط الذى يحيط به ، فإن المدينة والريف يكونان وحدة واحدة . وإذا كان فى وسع أحد الطرفين أن يعيش بدون الآخر ، فإنه الريف وليست المدينة — أى الفلاح وليس ساكن المدينة ؛

ولكن الانتصارات التى أحرزتها المدينة فى مجال الفن والابتكار ضاعفت من احتقارها لجيرانها الريفيين المتخلفين ، فكان الريف يعامل معاملة التابع الغبى ، أو معاملة أنكى وأسوأ من ذلك ، معاملة الأجنبى . ففى إيطاليا كانت البلديات تنكر على الفلاحين حق التمتع بامتيازات المواطنين ، وفى ألمانيا كان حق حدود المدينة (Bannmeilenrecht) يحتم على الفلاحين المجاورين أن يزودوا المدينة بالطعام واحتياجات الصناعة ، وهكذا فإن

المدن بدلا من أن توجد لها حلفاء فى الريف الطلق يستطيعون مساعدتها على اجتثاث السلطة الإقطاعية من جذورها ، أقامت حولها سياجاً من الأعداء الناقين ، ولعله لم يكن من شأن مسلك جيوشها فى أثناء الحملات التى كانت توجهها ضد مدن أخرى أن يجعلها أكثر أهلا للترحيب بها .

وكل هذه الحقائق تشير إلى القضاء على اقتصاد المدينة المغلق بكل ما فيه من طمأنينة وقيود اقتصادية مقبولة ، وإقامة نظام اقتصادى متوسع ركز الامتيازات وعاد بالخير على الذين لم يحفلوا كثيراً بالطمأنينة ، وأحال التوتر الناشئ عن تفاوت الطبقات إلى حرب سافرة بين الطبقات . وبطبيعة الحال لما كان نظام العصور الوسطى يقوم على أساس تفاوت المراتب الاجتماعية ، فإنه لم يعرف المساواة الاقتصادية ، بيد أنه فى أوائل العصور الوسطى عندما كانت أرض المدينة تقسم على قدم المساواة تقريباً ، وكانت وسائل الإنتاج تعتمد — إلى حد كبير — على ما لدى الفرد من آلات ومهارة ، كانت قدرة العامل المدرب على التنقل — عند انتهاء مدة تدريبه — تؤمنه من الذل والفاقة ، فما دامت آلاته ملكاً له ، فإنه كان يستطيع أن يتكسب ما يقوم بأوده ، وقد كان ذلك من أهم الضمانات التى كانت تكفل الحرية والاستقلال الذاتى فى العصور الوسطى ، إذ أن هذه القدرة على الكسب حالت دون ازدياد التفاوت بين المراتب العليا والدنيا إلى حد بالغ ما دام عدد العمال المهرة لم يبلغ حداً يزيد على الحاجة .

وفى صناعة النسيج فى الفلاندر وشمال إيطاليا ظهر النزاع النمطى بين العمال وأصحاب العمل منذ عهد مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر ، فإن ما أدخل حديثاً من استخدام عجلة الغزل ونول السحب كان له أثر يضارع ما كان لاستخدام آلة الغزل والنول الآلى بعد ذلك بخمسة قرون . وفى مدينة كولونيا نجح عمال النسيج نجاحاً وقتياً فى القضاء على سيطرة الطبقات العليا فى سنة ١٣٧٠ — ١٣٧١ وحدث ما يماثل ذلك فى غنت بزعامة أرتفلد (Artevelde)

ولكن الظروف لم تكن مواتية للنقابات ، ولذا فإن انتصاراتها كانت قصيرة الأمد . فعلى حين أنها كانت تعمل على أساس محلى ، كان خصومها يعملون متضافرين فى كل أرجاء أوروبا ، بفضل المصاهرات والمحالفات مع الأمراء والملوك والأساقفة ، ومن ثم فإن الطبقات الحاكمة كان فى وسعها أن توجه ألواناً جديدة من الضغط والسلطان نحو نقطة واحدة .

ونتيجة لذلك فإنه على الرغم من التحدى الذى قام فى وجه سلطة الطبقات الأرستقراطية الإقطاعية وأسر الأمراء ، فإنه لم يتيسر إطلاقاً لأى مجموعة متحالفة من المدن فى أوروبا أن تنجح فى القضاء على تلك السلطة لأى فترة طويلة من الزمن ، وعندما كانت المدن تتحالف مع الملك لكى تخفف مما كان يفرضه عليها النبلاء أو رجال الدين ، فإنها لم تكن تفلح إلا فى أن تستبدل بحاكم محلى مستبد ، حاكماً مستبداً أكثر نشاطاً وأظهر وجوداً فى كل مكان ، ولو أنه كثيراً ما كان ألين جانباً ، وأكثر تسامحاً ، وسرعان ما وجدت المدن نفسها تابعة للدولة صاحبة الحول والقوة التى عاونت هى على قيامها . وإنما أمثال لندن من المدن العظيمة الثرية هى وحدها التى كان فى استطاعتها أن تواجه سيدها الملكى على نحو يدنو من المساواة ، بل إنها فى الواقع ، فى حالة الاضطرار ، كانت تستطيع خلعه . وقد كانت الصعوبة الكبرى هى أن الوحدة السياسية ، والوحدة الاقتصادية ، والوحدة الدينية فى مجتمع العصور الوسطى ، لم تقم بينها صلات متماثلة ، ولم توجد بينها أية رابطة مشتركة سوى الدولة التى كانت على رأسها أسرة حاكمة :

ولقد كان من شأن القوة والامتيازات والتقاليد القديمة أن جعلت خريطة أوروبا السياسية تبدو كثوب صنع من قطع غير منتظمة ، بسبب ما كان فيها من السلطات المتعارضة ، وروابط الولاء المتباينة ، وضروب التحزب التى لا معنى لها . وعلى الرغم من أنه ، كما أشار جيرك (Gierke) ،

كانت النظريات السياسية فى العصور الوسطى تتضمن فكرة وجود رابطة ظاهرة بين بنى الإنسان تتمثل فى الكنيسة والإمبراطورية ، فإن هذه الرابطة لم تكن مطلقة ولا مقصورة على جماعة بعينها ، بل كانت على الأصح « نظاماً متشعباً متعدد الدرجات يتألف من هيئات جزئية كانت كل منها وحدة كاملة فى ذاتها ، إلا أنها بحكم الضرورة كانت تنشد الارتباط بوحدة أكبر منها » .

ولسوء الحظ أنه عند إخراج هذه النظرية إلى حيز التنفيذ لم يحافظ دائماً على بقاء الأجزاء – بعد ربطها – وحدات لها كيانها واستقلالها الذاتى ، ومن ثم فإنه كما يشير جيرك مرة أخرى : « نرى على مرور الزمن أن هذا البناء الإقطاعى للكيان الاجتماعى هو الذى كان هدفاً لهجمات ازدادت باطراد وانبعثت من الاتجاه نحو المركزية . وإننا لنستطيع أن نتبين حدوث ذلك فى النطاق الدينى أولا ، ثم فى النطاق الدنيوى » وعندما فرضت هذه العملية التركيزية نموذجاً جديداً ، قُضى على ما اتسمت به العصور الوسطى من أوضاع محلية واستقلال ذاتى . وعندما أعيد من جديد الاقتصاد المكفول بأنظمة تحميه ، نفذ على هيئة استغلال تجارى مارسته الملكيات المطلقة بإنشاء احتكارات حكومية لكى تغذى الخزانة العامة .

والواقع أنه بذلت محاولات عديدة للترابط بين مدن كانت تقوم بينها صلات ، فإنه فضلا عن اتحاد مدن عصبة هانزا – وكان اتحاداً طويل البقاء نسبياً ويتصف بالنشاط والإقدام – أنشئت عصبة مدن سوابيا فى سنة ١٣٧٦ ، وعصبة الراين فى سنة ١٣٨١ ، على حين أنه كان يوجد فى انجلترا اتحاد الموانئ الخمس . ولكن ضعف هذه العصب ، كضعف عصب المدن الإغريقية ، كان بمثابة تحذير وعاه الكتاب الأذكياء الذين ألفوا

« البحوث الفيديرالية »[1] (Federalist Papers) وجملة القول أن الاتجاه نحو الاتحاد لم يصدر عن المدن الحرة ، كما أنه لم يبلغ من قوة العزم ونزاهة القصد مبلغاً يكفل ذيوعه . وفى إيطاليا فى خلال القرن الرابع عشر قسمت أقاليم لومبارديا وورومانا وتسكانيا وامبريا والماركيات[2] إلى ثمانين مدينة حرة تؤلف كل منها دولة ، أو على حد ما يقوله توينبى ، كان يوجد فى شطر واحد من إيطاليا فى سنة ١٣٠٠ عدد من الدول التى تتولى حكم نفسها أكبر مما كان يوجد فى العالم بأجمعه سنة ١٩٣٣ ، ولكن « الذات » التى كانت تباشر الحكم كانت ضيقة الأفق شديدة العزلة إلى حد بالغ . وفى خلال القرنين التاليين أدى التوحيد إلى خفض عدد هذه البلديات الإيطالية إلى عشر وحدات سياسية ، ونظراً إلى أن المدن ذاتها لم تقدم على إقامة اتحاد فيديرالى فإن هذه العملية الضرورية اقترنت بفقد الحرية والحكم الذاتى والقوة .

وقد كانت سويسرا وهولندا هما البلدين اللذين تم فيهما فعلا حل مشكلة الاتحاد الفيديرالى بين الريف والمدن المتمتعة بالحقوق البلدية ، دون المساس بالكيان السياسى للوحدة الحضرية . ويجب أن نتجه إلى المدن السويسرية والهولندية للعثور على ما لعلها أنجح الأمثلة للانتقال من نظام العصور الوسطى إلى النظام الحديث . وإن نجاح السويسريين فى تحقيق الاتحاد ، دون استبداد أو خضوع لسلطة مركزية تفرض عليهم أوضاعاً تعسفية ، ليقوم دليلا على أن هذا العمل كان ميسوراً من الناحية التنظيمية . وفضلا عن ذلك فإنه يؤيد

(١) « البحوث الفيديرالية » سلسلة من ٨٥ بحثا كتبها اسكندر هاميلتون وجيمس ماديسون وچون چاى (John Jay) فى سنة ١٧٨٨ لشرح الدستور الفيديرالى وحث الأمريكيين على الموافقة عليه ، وقد أسهمت هذه البحوث إسهاما كبيرا فى إقرار هذا الدستور .

(٢) كانت الماركيات وحدات إدارية على الحدود ، ويحمل حاكم كل منها لقب « ماركيز » .

الفكرة القائلة بأن هذا العمل كان فى وسع البشر تنفيذه عملياً على أساس أوروبى أوسع نطاقاً ، نظراً إلى أن سويسرا – بمجتمعاتها ذات اللغات الثلاث وحواجزها الجبلية التى تعوق النقل والاختلاط قد توافر فيها من العقبات العديدة فى سبل اتحاد البلاد ما يكاد يماثل ما يوجد بين أشد الأقاليم اختلافاً فى أوروبا بأسرها . ولقد كان البرهان صحيحاً ، ولكن القدوة لم تكن فعالة التأثير ، فسارت الحياة الواقعية فى المناطق الأخرى فى اتجاه سياسى مختلف .

إلا أن الوحدة الإقليمية والسلام الداخلى وحرية الانتقال كانت جميعاً بالغة الضرورة عندئذ للنظام الجديد للصناعة الرأسمالية : وفى دول مثل إنجلترا وفرنسا لقى تطور السلطات المركزية – على الأقل – تواطؤاً سلبياً من البلديات والمجتمعات القائمة هناك ، بسبب المزايا الملموسة التى أخذت تتدفق من وراء إقامة الأمن الملكى والعدل الملكى والحماية الملكية التى كانت تكفل السفر الآمن على الطريق الملكى . أما من وجهة نظر التجارة والنقل والسفر فإن الأحوال كانت فى الواقع تسير من سيئ إلى أسوأ منذ القرن الثانى عشر ، وهى حقيقة تتناقض مع المزاعم التى كان الناس يتشدقون بها فى عصر الملكة فكتوريا عن اطراد سير التقدم ، فعلى ضفاف الراين مثلا ، كان لا يوجد إلا تسعة عشر مركزاً لجباية رسوم المرور فى آخر القرن الثانى عشر ، فزيد عليها خمسة وعشرون مركزاً آخر فى القرن الثالث عشر ، وعشرون أخرى فى القرن الرابع عشر ، حتى إنه عند نهاية العصور الوسطى كان المجموع الكلى يبلغ نيفا وستين مركزاً ، فكان الأمر يصل إلى حد الوقوف ودفع الرسوم الباهظة مرة فى كل ستة أميال ، وهى حالة لا تطاق :

فرسوم الطرق ، ورسوم القناطر ، ورسوم الأنهار ، ورسوم المدن – هذه الضرائب الاقتصادية الثقيلة الوطأة كانت تضاعف فى عين الوقت الذى أخذت تمتد فيه الطرق التجارية ، ويصبح استمرار تدفق السلع أمراً

أعظم أهمية لثبات حالة السوق الاقتصادية . وفضلا عن ذلك فإنه كان من شأن عدم وجود عملة موحدة بالإضافة إلى أساليب التضخم المالى الجديدة التى كان يعمد إليها هذا أو ذاك المعوز من الحكام أو المدن — كان من شأن ذلك إقامة عقبة أخرى فى سبيل التجارة . وفيما عدا الأقاليم التى ذكرناها فإن مدن أوروبا أثبتت أنها أكثر تمادياً فى تعصبها الإقليمى الضيق الأفق ، وفى غيرتها على امتيازاتها الخاصة من أن تستطيع حل هذه المسائل بوسائل مشتركة . وهنا تدخل امتثال المدن للأوامر — وهو ما فرضته عليها القوة العسكرية للدولة — تدخل للقيام بالعمل الذى لم تجرب فيه الوسائل التعاونية أو جربت على مضض بصورة جزئية وفشلت . وكثيراً ما كان الحكم الذاتى العاجز والأساليب المالية القصيرة النظر والمؤدية إلى الإفلاس ، كثيراً ما كان كل ذلك يهيئ الفرصة أمام السلطة المركزية لكى تتدخل وتضع الأمور فى نصابها على حساب حريات المدن كما حدث فى فرنسا .

ونحن الذين نعيش فى عالم ما زالت تنخر فى كيانه حماقة مماثلة يتناول تأثيرها الآن كوكب الأرض بأسره ، وليست قارة أوروبا فحسب ، نستطيع أن ندرك ماهية هذا المأزق القاتل دون أن تخامرنا سخرية الشعور بتفوقنا . ولقد حاولت عبثاً الهيئات البلدية فى العصور الوسطى أن تحل فى داخل أسوار المدينة مشكلات كانت لا تتسنى معالجتها إلا بتحطيم الأسوار وانتظام سيادتها وإشرافها فى وحدة مشتركة أوسع نطاقاً . وقد كان اتخاذ هذا الاتجاه يمس كل مظهر من مظاهر الحياة فى أوروبا ؛ إذ أن الأمر لم يكن — كما كان يظن دانتى — مجرد وضع بابا أو إمبراطور على رأس دولة دنيوية . ولما كانت مدينة العصور الوسطى قد سبقت الحكومة القومية ذات السيادة فى ممارسة كثير من النواحى السياسية ، فإنها خلفت للدولة كل ما كان فيها من وجوه القصور مضاعفة مرات عديدة ، ولقد ساعدت الدولة على إضعاف الحكم المحلى وإفساده بحلولها محل المدن وعزوفها عن الإفادة من وظائفها البلدية .

ولقد أثبت الوعاء الحضرى المحكم الإغلاق أن من المستحيل مواجهة الموقف عن طريق القيام بتعديلات محلية غايتها الوصول إلى الاكتفاء الذاتى ، وهو ما لا بد من أن تتبينه كذلك الدول القومية فى عصرنا الحاضر مهما تبلغ من كبر الحجم ، ودول اليوم ذات الأسوار تسعى إلى الفوضى والخراب الشاملين لعين الأسباب التى أطاحت بمدينة العصور الوسطى ، فالجماعات المستقلة لا يمكن أن تزدهر بدون تعهد عمليات التوحيد فى كل مكان والمشاركة فيها مشاركة فعالة .

وكانت توجد فى العصور الوسطى منظمة واحدة فقط هى التى كانت قادرة على التغلب على هذا التعصب الإقليمى الضيق الأفق ، وهذه الجهود الاحتكارية العقيمة . وكانت تلك المنظمة هى كنيسة روما ، بيد أن تقلص نفوذها ، واتجاهها نحو الانكماش فى داخل قوقعتها الرومانية القديمة ، وتأكيد انفرادها بالسلطة وسيادتها المطلقة ، وما جرت به عادتها من إسناد أغلبية مناصبها الكبرى إلى الإيطاليين بوجه خاص — وهى عادة كانت تلقى تحبيذاً لدى بابوات عصر النهضة وما عرف عنهم من الولع الشديد بإيثار ذوى القربى — بيد أن كل هذا كان فى أساسه من أعراض الداء الذى أودى بمدينة العصور الوسطى . وإذا كانت سلطة الكنيسة الروحية لم تنكمش فى الحال ، فإن مواردها الدنيوية أخذت تزداد منذ القرن الثالث عشر — وهذا هو أضمن سبيل إلى انهيار السلطة الروحية . وإذا كان أقطاب الكنيسة الأثرياء قد بزوا مكانة الأمراء الدنيويين فى البذخ والإسراف ، فإنهم كسفوا ضياء مولاهم وسخروا منه ؛ إذ أن متاع هذه الدنيا لا يدخل فى نطاق ملكه . وعند حلول القرن الخامس عشر ، كثيراً ما كان يوجد فى دور الأعمال من مظاهر الزهد والتقشف قدر أكبر مما كان يوجد فى الأديار ، وكذلك مستوى أرفع من حيث المسلك الشخصى والنزاهة .

ولو أن الكنيسة بقيت بمنأى عن الشواغل الاقتصادية ، فلربما تسنى لها

أن تقف إلى جانب المدن وتهيء إطاراً لاتحادها . بيد أنه على الرغم من أن طوائف الدومنيكان والفرنسيسكان ظهرت فى القرن الثالث عشر ، وشقت طريقها سريعاً إلى داخل المدن فإن الكنيسة نفسها ظلت مستمسكة بأساليب الماضى الإقطاعية ولم تتخل عنها إلا لتتولى سلطة القياصرة الجدد ، وعندما تركت الأساليب الإقطاعية ، خضعت لذات عوامل وأساليب الحياة التى كانت تعاليمها الأساسية تحرمها . ولذلك فإنه عند حلول القرن السادس عشر ، بل فى الواقع منذ القرن الرابع عشر ، كانت سلطة الكنيسة قد أصيبت بتصدع خطير فى داخلها ، فلم تعد حكماً سامياً ولا قوة عالمية تسعى لإحقاق الحق ، ولقد استشرى الفساد فى روما إلى حد لم يقل عما كانت عليه الحال فى البلديات والإمارات الاستبدادية . وفى القرن السادس عشر كانت ذات بركات الكنيسة — صكوك الغفران — تباع على أساس المشاركة ، عن طريق يعقوب فوجر (Jacob Fugger) ، وكان أكبر المصرفيين المشتغلين بتوظيف الأموال فى ذلك العهد .

ولإصدار حكم نهائى على هذا النظام بأكمله — الذى كانت الكنيسة تتصل به اتصالا وثيقاً ألجأ إلى شهادة أحد المعاصرين ؛ وهو توماس مور الذى رُفع الآن إلى مصاف القديسين فى هذه الكنيسة بعينها ، فهو يقول : « حينما أتأمل وأجيل فى خاطرى حالة كل الأمم المزدهرة اليوم ، فإننى — وأسأل الله العون فهذه هى الحقيقة — لا أستطيع أن أرى إلا تآمراً من جانب الأغنياء الذين يرمون إلى نفعهم الذاتى باسم الأمة ذاتها ، فهم يبتكرون ويدبرون الطرق والوسائل التى تمكنهم من الاحتفاظ — دون خوف من الضياع — بكل ما كدسوه باتباع أساليب مرذولة ، وتمكنهم بعد ذلك من أن يشتروا بأرخص الأسعار ويستغلوا عمل الفقراء وكدهم » .

وإذا كان النظام الدينى الدولى للعالم المسيحى قد عجز عن الإبقاء على نظام العصور الوسطى عن طريق التجديد الداخلى ، فإن البروتستنتية — وقد قامت

على أساس قومى وظهرت فى كنيسة تؤيدها الدولة ـ كانت أشد عجزاً عن الوفاء بحاجات المدن ، وبظهور البروتستنتية فى ذلك الوقت المتأخر ، ضعفت روح الزمالة القديمة ، فإن ضروب الشقاق الدينى زادت فى شدة التصدع الاقتصادى كما زادت فى ضعف الاحتمال فى إمكان إعادة إيجاد هدف عام مشترك ولاسيما فى الشمال . وحتى فى المجتمعات البروتستنتية كان التكاثر المستمر للطوائف المنشقــة ـ من الصحاب (Quakers) والموحدين (Unitarians) واللا معمدانيين (Anabaptists) ـ يخلق مزيداً من الهرطقات ومزيداً من الانشقاق فى صفوف المنشقين ، وقد كان فى وسع المرء أن يجد خلف الواجهات المماثلة للمنازل فى المدن القديمة ، أعداء دينيين ألداء ، كانوا وهم يعيشون متجاورين جنباً إلى جنب على هذا النحو ، أشد عداء مما كانوا وهم يعيشون بعيدين بعضهم عن بعض بمسافات شاسعة ، وعندئذ لم يعد التجاور وضعاً مواتياً للألفة بين الناس ، ومن ثم لم تزدهر إلا حياتهم الخاصة فحسب .

وفى النهاية ، بعد تحدى سلامة موقف الكنيسة العالمية ، وإنكار حقيقة وجود الجماعة ، لم يبق إلا ذلك الجزء الضئيل من المجتمع ، ونعنى به الفرد الذى أخذ يسعى بجهوده الفردية ، إما وراء الخلاص وإما وراء الربح ، أو وراء قدر يسير من كلا الاثنين معاً إن أمكن ، وذلك على حساب إخوانه المواطنين ، إذا اقتضى الأمر ذلك .

ولقد أوجز روبرت كرولى وصف هذا الانهيار فى عدد من الأبيات اللاذعة كتبها فى القرن السادس عشر إذ قال : وهذه مدينة اسما ، ولكنها فعلا قطيع من الناس يسعون وراء النفع ، لأن الموظفين وكل من عداهم يجرون وراء صالحهم الذاتى ، وأما مصالح الشعب ، فما من أحد يكلف نفسه عناء التفكير فيها ، وإنى لأستطيع القول بحق إنها جحيم بلا نظام ، حيث يقصر كل فرد همه على نفسه ، وما من فرد يهب نفسه لخدمة الكل .

وإن ما تنبأ به لانجلاند فى القرن الرابع عشر فى خطابه الطويل عن ألوان الخديعة والانحراف التى اتصفت بها ليدى ميد (Lady Meed) السعى وراء المصلحة الذاتية قد انتهى بها الأمر إلى التغلغل فى مدى قرنين فى جميع أرجاء المجتمع الأوروبى، فلم تكد المدينة تكون منظمة عامة من أجل الصالح العام، ولم تكن السلطة المحلية للهيئة البلدية ولا السلطة العامة للكنيسة بكافية لتوجيه القوى الجديدة نحو خير المجتمع، تلك القوى التى كانت آخذة فى السير قدماً فى جميع نواحى الحضارة الأوروبية.

وعند الشروع فى بناء مدن جديدة فى القرن التاسع عشر، كانت سابقة مدينة العصور الوسطى آخر ما يمكن أن يتجه إليه تفكير أى فرد، فنضب معين الحياة فى المدن القديمة على مهل، وأصبحت أسوارها أصدافاً جوفاء تحتوى منظمات أصبحت كذلك أصدافاً جوفاء. واليوم إذا عمد الإنسان إلى وضع الصدفة على أذنه فى هدوء — لو أن ذلك كان ممكناً على نحو ما يفعل بصدفة بحرية — فإنه عندئذ فقط، فى فترة الهدوء التى تعقب ذلك، يستطيع سماع صدى خافت لهدير الحياة القديمة التى قامت يوماً بين جدرانها حافلة بالأهداف الجديدة، عامرة بالإيمان العميق بحقها فى الوجود:

الفصل الثانى عشر

بناء القوة الباروكية

١ — انحلال العصور الوسطى

إن الحضارات البشرية لا تموت فى ظروف لحظة معينة كالكائنات الحية ، فعلى الرغم مما يبدو كثيراً أنه يتألف منها كيان موحد ، فإنه لا يستبعد أنه كان لأجزائها وجود مستقل قبل اندماجها فى الكيان الكلى ، ومن ثم لا يستبعد كذلك أنها تستطيع الاستمرار فى الوجود بعد أن يتلاشى الكيان الكلى الذى ازدهرت فيه وقتاً ما . وقد كان هذا هو الشأن فى حالة مدينة العصور الوسطى ، فإن عادات الحياة وأوضاعها فى تلك العصور ظلت قائمة لمدة ثلاثة قرون على الأقل بعد انتهاء العصور الوسطى — إذا اعتبرنا القرن السادس عشر الحد الفاصل لتلك العصور . وحتى اليوم نرى كنيسة روما التى سيطرت ألف عام على غرب أوروبا ، مع ما ساد تلك الفترة من مزيج غريب فى بابه يجمع بين المركزية المطلقة ، والحكم الرومانى الاستبدادى ، والحكم الذاتى المحلى ، والمرونة السياسية والاستقامة الخلقية النظرية ، نراها لا تزال تمارس نشاطها على الأساس التوكيدى لمذهب توماس أكويناس Thomas Aquinas فى اللاهوت ، مع التزام حدود الإطار السياسى الذى أقامه جريجورى الأكبر ، فهى لا تزال تعتبر نفسها المستودع الوحيد لحقيقة وعقيدة لا غنى عنهما لخلاص البشر .

والواقع أن بعض منظمات العصور الوسطى جددت نفسها فى القرن السادس عشر بمسايرة أسلوب عصرها ؛ وعلى هذا نرى أن الرهبنة قد سلكت حياة جديدة بإعادة تنظيمها على نمط عسكرى يتسم بالخضوع المطلق فى

جمعية يسوع لرئيس الطائفة الذى أطلق عليه اسم ملائم ، وهو « المدير العام » . ولما كانت هذه الجمعية لم تعد تقنع بأن تكون قدوة فى التقوى ، أو بأن تقوم بالوعظ ، فإنها عملت على سد الحاجات الجديدة فى التعليم بإنشاء نوع جديد من المدارس ، وهو المدرسة الثانوية ، وكانت مرحلة متوسطة بين مرحلتى المدرسة الابتدائية والجامعة . وأما من الناحية المعمارية فإنه لم يكن هناك انفصام حقيقى بين الطراز القوطى والطراز القوطى الحديث فى المبانى . ولقد واصل البناءون الإنجليز فى الأقاليم عملهم حتى فى خلال القرن الثامن عشر وفقاً للأساليب التقليدية فى البناء ، وهى التى أخذ السادة المتعلمون ، فى جهلهم بالحياة خارج نطاق الدوائر التى كانوا يعيشون فيها ، يُحيُونها من جديد على سبيل الزخرفة والمتعة ، كما حدث فى بيت والبول (Walpole) المعروف باسم تل ستروبيرى (Strawberry Hill) . وهل البرج الذى شاده المعمارى رن (Wren) فى أوكسفورد — ويعرف باسم برج توم (Tom Tower) — من الطراز القوطى أم الطراز القوطى الحديث ؟ إن فى وسع المرء أن يجد من الأسباب ما يبرر إطلاق أى الوصفين عليه .

ويمكن أن يشاهد هذا المزج بين القديم والحديث فى كل مكان بأوروبا ، فإن شطراً لا يستهان به من المبانى الحديثة ، حتى تلك التى شيدت فى القرن السابع عشر ، وفى الواقع كل ما بنى بطراز عصر النهضة قبل هذا القرن ، قد بنى على تخطيط شوارع العصور الوسطى فى داخل أسوار مدن كانت أساساً من مدن العصور الوسطى ، وأقيم بفضل حرف ونقابات كانت لا تزال منظمة على قواعد العصور الوسطى .

ونجد فى المدينـــة ما يقابل دير رابليه — الذى يدعى دير تيليميا (Rabelais' Abbey of Thelema) — بما فيه من مزيج بين الدير القديم والمنزل الريفى الأرستقراطى الحديث . وحتى فى العالم الجديد نجد أن قوانين العصور الوسطى — تلك القوانين البالغة فى التقدم والخاصة بالأسواق — قد

ظلت سارية فى المدينة فى خلال القرن الثامن عشر ، ولذلك فإن المدن التى أنشئت حديثاً لتكون مقراً يليق بإقامة الأمراء أو من أجل أغراض استعمارية ، هى وحدها التى أوجدت فيها منظمات ما بعد العصور الوسطى نظاماً منطقياً دقيقاً يرجع بجذافيره إليها وحدها .

٢ — العصر الحضرى الجديد

تكوّن فى أوروبا فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ، تعقد جديد من الخصائص الحضارية ، وتبعاً لذلك فإن كلا من شكل الحياة الحضرية ومشتملاتها تغــير تغيراً أساسياً : وقد انبثق النموذج الجديد للحياة من نظام اقتصادى جديد ، هو نظام الرأسمالية التجارية — ومن نظام سياسى جديد ، قوامه فى الغالب سلطة مركزية مطلقة أو أقلية حاكمة مستبدة تتولى عادة شئون دولة قومية — ومن إيديولوجيا جديدة مستمدة من الفيزياء الميكانيكية التى تقوم على مسلمات تقررت قبل ذلك بزمن طويل فى الجيش وفى الدير .

وحتى القرن السابع عشر كانت كل هذه التغييرات مضطربة تمر بدور التجربة ومقصورة على عدد قليل من المجتمعات ، ولم يكن لها أثر فعال إلا فى نواح محدودة متفرقة . وعلى حين فجأة تبلورت وتبينت بوضوح تام فى القرن السابع عشر ، وعندئذ أخذ نظام العصور الوسطى فى الانهيار بتأثير الفساد الداخلى البحت ، ومنذ ذلك الحين سلك كل من الدين والتجارة والسياسة طريقه على حدة .

ولكى ندرك حقيقة مدينة ما بعد العصور الوسطى ، يجب أن نكون على حذر من التفسير الذى ما زال شائعاً عن النهضة بأنها كانت حركة تستهدف حرية الإنسان واستعادة كرامته ، وذلك لأن النهضة الحقيقية للحضارة الأوروبية — ذلك العصر العظيم الذى شهد إنشاء المدن والانتصار

الفكرى — كانت تلك النهضة التى بدأت فى القرن الثالث عشر وبلغت ذروة الكمال فى أعمال رجال مثـــل أكويناس أو ألبرتس ماجنس (Albertus Magnus) أو دانتى أو جوتو ، وفى خلال الفترة بين هذه النهضة والنهضة الكلاسيكية فى القرن الخامس عشر ، وقعت كارثة طبيعية عظمى ، وهى كارثة وباء الموت الأسود التى وقعت فى القرن الرابع عشر ، وقضت على ما يتراوح بين الثلث والنصف من عدد السكان ، طبقاً لأكثر التقديرات تحفظاً . وعندما أقبل القرن السادس عشر كانت هذه الخسارة قد عوضت ، ولكن الفجوة التى أحدثها الوباء فى طريق الاستمرار قد زادها اتساعاً ما أصاب القوة الحيوية للمجتمع من ضعف على غرار ما يحدث فى أعقاب حرب مضنية .

وفى أثناء الاضطراب الاجتماعى الذى تلا ذلك ، وقعت السلطة فى قبضة أولئك الذين كانوا يتحكمون فى الجيوش وفى الطرق التجارية وفى رؤوس الأموال العظيمة التى تكدست . ولقد صحب ظهور ضروب الحكم العسكرى المستبد إخماد حرية البحث العلمى فى الجامعات ، والقضاء دون هوادة على استقلال السلطات الروحية ، خدمة لصوالح الحكام الدنيويين . وإننا لنجد لكل هذا رنيناً مألوفاً لدينا اليوم ، فهو يضارع ما حدث فى روسيا وألمانيا وإيطاليا وجهات أخرى عديدة فى أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى ، وماجرى بعد الحرب العالمية الثانية حتى فى الولايات المتحدة البعيدة بحكم موقعها الطبيعى . ولقد سار العمل قدماً بانتظام لتحويل جامعات العصور الوسطى من هيئات دولية للطلاب والباحثين إلى منظمات قومية ، تخضع فى ذلة للحكام الجدد المستبدين ، صامة آذانها عن « الأفكار الخطرة » ، مقيدة بأيمان الإخلاص والولاء ، وكان لهذا ما يناظره فى الكنيسة وفى المدينة .

وفى خلال بضعة قرون ، تكشفت منظمات العصور الوسطى الأقدم عهداً من سواها ، عن دلائل تغلغل الفساد فيها ، ولقد أتى هويزينجا

(Huizinga) فى مؤلفه « تدهور العصور الوسطى » The Waning of the Middle Ages بذخيرة من الأمثلة التى تدعم حدوث هذا التغير ، وطبقا لما يقوله فون بيلو (Von Below) فقد بدأ فى القرن الخامس عشر وجود لعب القمار المنظم فى ألمانيا فى دور أعدتها البلدية . وظهرت هذه الاتجاهات بعينها فى الكنيسة ، فإن الأمر لم يقتصر على شراء المناصب الدينية وبيع بركات الكنيسة ، بل إن المعتقدات الخرافية ذاعت من جديد على نطاق عام ؛ فالاعتقاد فى قوة السحر — وهو ما أبى القديس بونيفاس (St. Boniface) أن يسلم به فى القرن الثامن — نال مصادقة تامة من الكنيسة فى سنة ١٤٨٤ . ولعل ذلك يرجع إلى ما حدث من عودة ذيوع سالف المذاهب الوثنية الأرضية التى قلبت المبادئ الخلقية المسيحية رأساً على عقب . ولم يصبح اضطهاد السحرة من الأمور المألوفة إلا فى القرن السابع عشر الذى امتاز بظهور المناهج الدقيقة للعلوم الطبيعية ، وقد كان من بين أشد المسيئين أذى فى هذه الناحية المحدثون من علماء الطبيعة والفلاسفة أنفسهم ؛ قوم من أمثال يوسف جلانفيل (Joseph Glanvill) الذين تنبأوا فى وقت واحد تقريبا بأن العلم والتقنيات ستحدث تغيراً شاملا فى العالم المادى .

بيد أن ذات الصدمة التى أحدثها وباء الموت الأسود أفضت كذلك إلى رد فعل مختلف جداً ، وهو حشد الجهود على نطاق هائل ليس من أجل الموت أو الخلود أو الطمأنينة أو الاستقرار ، بل من أجل كل ما تستطيع الجرأة البشرية أن تستحوذ عليه وتتحكم فيه فى مدى حياة فرد من الأفراد . وبين عشية وضحاها انقلبت ست من الخطايا المهلكة إلى فضائل أساسية ، وأصبحت أقبح خطيئة منها ، خطيئة الكبرياء ، هى السمة التى يتسم بها القادة الجدد للمجتمع ، سواء فى مضمار الأعمال أو فى ميدان القتال ، وأصبحت الدوافع التى تسيطر على الناس فى كل مكان هى

الحصول على الثروة وعرض مظاهرها ، والاستحواذ على السلطة وبسط نطاقها . ولقد كان الخضوع لهذه الدوافع سارياً منذ أمد بعيد ، ولكن اعتُرف الآن صراحة بأنها مبادئ يستهدى بها المجتمع بأسره .

ولقد استغرق الانتقال من الوضع القديم إلى الوضع الجديد أربعة أوخمسة قرون ، أى الانتقال من نزعة الشمول التى سادت فى العصور الوسطى إلى نزعة الانتظام المطرد التى شاعت فى العصر الباروكى ، ومن النزعة المحلية فى العصور الوسطى إلى النزعة المركزية فى العصر الباروكى ، ومن الخضوع للسلطان المطلق لرب العالمين وللكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، إلى الخضوع للسلطان المطلق للعاهل الدنيوى والدولة القومية ، من حيث إن كلا منهما كان مصدراً للسلطة وموضعاً للتقديس الجماعى . ولنحذر حجب الصفة الجوهرية لهذا التغيير بالاقتصار على الرجوع إلى ما صحبه من المظاهر الجمالية ؛ فإن الكشف عن الآثار القديمة وتسجيل مقاييسها ، والكشف عن قدر أفلاطون وفيتروفيوس ، واحترام الطرز الخمسة فى العمارة ، والإغراق فى الابتهاج بالزخارف العتيقة وبالتماثيل التى يكشف عنها حديثاً — إن كل هذا أسدل ستاراً من الوقار الجمالى على ألوان المظالم والتهتك التى ارتكبتها السلطات الحاكمة . وقد كان بوسع الخبيرين من أمثال هيبوليتو فيتيلسكو (Hippolito Vitellesco) — على حد ما روى چون إيفلين — أن يعانقوا التماثيل العتيقة وأن يتحدثوا إليها كما لو كانت على قيد الحياة ، ولكن الأحياء من الناس كانوا فى سبيل التحول إلى آلات لا مشيئة لها ولا إرادة ، فلا تفعل إلا ما تؤمر به ، وقد كان ذلك بمثابة العودة إلى أقدم الأساليب التى كانت تمارس فى المدن التى كان الملوك يقبضون على زمام السلطة فيها .

والاتجاه الذى انطوى عليه هذا النظام الجديد لم يصبح واضحاً على أتم وجه إلا فى القرن السابع عشر ، فعندئذ ابتعدت كل مظاهر الحياة عن اتجاه العصور الوسطى لتنضوى تحت شارة جديدة وهى شارة الأمير ، وإن كتاب

« الأمير » الذى وضعه مكيافيلى يمدنا بالكثير مما يهدينا إلى تبين تخطيط المدينة الجديدة وأحوالها السياسية ، كما أن ديكارت ، الذى جاء فيما بعد ، سيعيد تفسير دنيا العلم بلغة النظام الموحد للمدينة الباروكية . وإن ما تفتقت عنه بديهة الرجال السالفين من أمثال ألبيرتى ، قد تحقق أخيراً فى القرن السابع عشر فى النهج الباروكى للحياة ، وفى التخطيط الباروكى ، والحديقة الباروكية ، والمدينة الباروكية . وحتى منتصف القرن التاسع عشر ، كان تخطيط الأحياء الجديدة فى المدن لسكنى الطبقات المتوسطة يوضع على نسق سقيم الأناقة ، وفقاً للنموذج الباروكى الأرستقراطى ، وحى سوث كنسنجتون (South Kensington) فى لندن ، الذى يعتبر الآن الحى الرئيسى للفنادق والمنازل المعدة لاستقبال النزلاء (boarding houses) ، ليس إلا زفرة الاحتضار التى لفظها عهد الملكة فكتوريا مما استنشقه من تلك النسمة الجديدة من القوة والنظام .

٣ — طرقة وتنغيمة

قبل أن تتم للنظام الباروكى السيطرة على كل نواحى الموقف تقريباً ، كانت هناك مرحلة متوسطة امتزج فيها الجديد بالقديم وأفادا فائدة متبادلة ، نتيجة لذات ما بينهما من تناقض وتعارض ، ولسوء الحظ أنه لايزال يطلق على هذه المرحلة « الـ » نهضة ، وهو تعبير أصبح راسخاً إلى حد لا يمكن معه نبذه بسهولة ، إلا أن مداوله يكاد يكون مضللا ، كمداول « الـ » انقلاب الصناعى ، وفى هذه المرحلة من مراحل بناء المدن ، أصبح مما لا يطاق بقاء السور الذى بات الآن بلا معنى ، وكذلك بقاء الفوضى وسوء النظام ، وهو كثيراً ما اتصفت به المدن فى أواخر العصور الوسطى ، وحتى من الناحية العملية أصبحت تساور الناس الظنون بأن الشوارع المتعرجة ، والأزقة المظلمة ، تساعد على ارتكاب الجرائم . بل إنه فى سنة ١٤٧٥ وصف فيرانتى (Ferrante) ملك نابولى الشوارع الضيقة بأنها خطر على الدولة .

ولكى يجد الناس مجالا للتنفس من جديد ، عمد المشتغلون الجدد بالتخطيط والبناء إلى إزالة الجدران المتزاحمة ، وهدم الحظائر والحوانيت الخشبية والمنازل القديمة ، وإلى اختراق الأزقة المتعرجة لإنشاء شارع مستقيم أو ميدان مستطيل طلق . ولا بد من أنه فى مدن كثيرة أحس الناس وكأن مصاريع النوافذ قد فتحت على حين فجأة ، فى حجرة حبيسة الهواء تعلو جدرانها بيوت العنكبوت .

بيد أن إطلاق تعبير « مولد جديد » على هذه التغييرات التى تمت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر إنما ينم عن إساءة فهم للدافع والنتيجة فى آن واحد ، فإننا على الأصح بصدد نوع من التنقية الهندسية للروح التى كانت سارية على مدى عدة أجيال ، والتى كانت لا تسعى وراء تغيير المدينة التاريخية على نطاق واسع ، بل وراء تعديلها جزءاً جزءاً . فى مدن مثل فلورنسا وتورين — وكانت معالمهما الرومانية الأصلية لا تزال واضحة للعيان — كان الطراز الجديد وثيق الصلة ببيئته إلى حد يبدو معه أنه استمرار للماضى أكثر مما يبـــدو أنه إنكار له . فمثلا « البوائك » المعروفة باللوجيا دى لانزى (Loggia dei Lanzi) فى فلورنسا قد تمت فى سنة ١٣٨٧ ، ومن ثم فإنها تنتمى إلى العصور الوسطى من حيث التاريخ ، إلا أنها تنتمى قطعاً إلى عصر النهضة من حيث الشكل — إذ أنها طلقة رصينة بأقواسها الثلاث المستديرة ، وأعمدتها الكلاسيكية ، فهل هذا مولد جديد ؟ كلا إنه تصفية ، محاولة للعودة إلى نقطة الابتداء ، على نحو ما قد يصنعه المصور عندما يقوم بالتصوير فوق الألوان الملطخة والأشكال المضطربة على لوحته ليستعيد معالم تخطيطه الأصلى .

وإذا أردنا استعمال التعبير بدقة فإنه لا توجد مدينة نهضة ، وإنما توجد قطع من طراز النهضة ، وهى عبارة عن فتحات وتنقيات عدلت من تكوين مدينة العصور الوسطى على نحو جميل ، وإذا كانت المبانى الجديدة — بما اتسمت

به من وقار مبهم وانتظام رصين ــ أفسدت ما فى طراز العصور الوسطى من تناسق ، فإنها أوجدت علاقة الطباق التى أظهرت ، عن طريق المفارقة ، ما فى الشوارع والمبانى من الصفات الجمالية التى بدونها كانت تبقى غير لافتة للأنظار ، وفى الغالب خافية . فلقد ظل اللحن ذاته من ألحان العصور الوسطى ، وإنما أضيفت آلات أخرى إلى فرقة العازفين فتغيرت سرعة إيقاع لحن المدينة وصبغته .

وأمارات هذا الطراز الجديد هى الشارع المستقيم ، والخط الأفقى المتواصل للسقوف ، والقوس المستديرة ، وتكرار عناصر متجانسة على واجهة المبنى ، كالطنف (الكورنيش) ، والعتب ، والنافذة ، والعمود ؛ ولقد ألمع ألبيرتى إلى أن الشوارع « سوف تكون أجل مظهراً بكثير إذا بنيت الأبواب جميعاً طبقاً لنموذج واحد ، وأقيمت المنازل على الجانبين على مستوى خط واحد بحيث لا يعلو واحد منها الآخر » . ولقد عزز هذا النقاء ، وهذه البساطة ، مظهر الواجهة ذات البعدين والمنظر الأمامى الذى يواجه القادم ، ولكن الطراز الجديد ، فى الفترة التى كان ما زال حياً فيها ، لم يثابر إطلاقاً على تعميم تنفيذه مثابرة طاغية تماثل ما أتى به القرن السابع عشر فى ركاب قواعده الدقيقة التكوين ، وشوارعه العريضة التى لا نهاية لها ، وأنظمته القانونية المتجانسة . والواقع أنه بهذه المرونة فى ذاتها ، وهذا الابتعاد عن التنظيم على وتيرة واحدة ، دلل البناة المحدثون فى عهد النهضة على مدى ما يدينون به لطراز العصور الوسطى . ونجد أن ارتفاع المكتبة الحديثة التى شيدها سانسوفينو (Sansovino) فى بياتزا سان ماركو لا يصل تماماً إلى مستوى ارتفاع القصر الدوقى ، وكذلك أيضاً نجد أن المبانى القائمة حول بياتزا سانتيسيما أنونزياتا (Piaza Santissima Annunziata) فى فلورنسا لا تتساوى فى الارتفاع إلا على وجه التقريب ، ومهما يبلغ من دقة نظام شارع عصر النهضة فإنه لا يتمادى إلى الحد الذى يجعله صلباً أو مرهقاً .

ولقد أطلق فعلا اسم الشارع الجديد (ستّرادا نوفا Strada Nuova) ، على أحد هذه الشوارع الأولى الجديدة ، وهو الشارع الذى أنشأه الأقطاب الأربعة فى جنوة . ويروى لنا فازارى (Vasari) أن جالياتزو أليسى (Galeazzo Alessi) من بيروجيا هو الذى وضع تصميمه ليكون أفخم شارع فى إيطاليا . ولقد أقيمت على جانبيه قصور ضخمة منفصلة بعضها عن بعض تولى هو تصميمها أيضاً ، وكانت تقوم من ورائها على سفح التل حدائق كان اتساعها يكفى لإيواء جيش خاص ، كما كانت الغرف تتناسب مع ذلك فى ارتفاعها ، بيد أن هذا الشارع الجديد الجرىء ، وإن كان أوسع من الأزقة والطرقات القديمة ، فإن عرضه مازال لا يزيد على عشرين قدماً وطوله يقل عن سبعمائة قدم . وهكذا فإنه فى مبدأ الأمر لم يطرأ تغيير جوهرى على نموذج المدينة القديمة ، حتّى عند تنفيذ إرادة من لايعبأون بشئ من ذوى الجاه والنفوذ . ولقد شيدت أغلب قصور عصر النهضة فى فلورنسا على جوانب شوارع ضيقة ترجع إلى عهد الرومان أو العصور الوسطى ، ومن أعظم الأمثلة التى تستثنى من ذلك قصر بيتى pitti على الضفة الأخرى للنهر — وهو يقع فى الضواحى إلا أنه مع ذلك قريب من شارع رومانا القديم .

ولم يحدث فقط أن أهداف المحدثين من المشتغلين بتخطيط المدن فى القرن السادس عشر كانت محدودة ومتواضعة ، بل إن هذا التواضع كان فى ذاته سبباً فى إبراز أفضل ما فى الطرازين القديم والجديد على السواء . ولم يبذل القائمون الجدد بالتخطيط أية محاولة للتنسيق بين تصميماتهم والنماذج القديمة للعصور الوسطى ، فإن ذلك كان من شأنه إحباط مقاصدهم ، ولكن لما كان الكثير من المبانى القديمة لا يزال قائماً ، فإن المبانى الحديثة خلقت طرازاً دسماً معقداً فى تكوينه ، وكثيراً ما كان أبعث على الارتياح مما جاء فى حقبة تالية من التكوينات الموحدة التنسيق والهدف . والنموذج المثالى لما

تحقق على هذا الوجه الظاهر للعيان هو الشارع المستقيم الضيق الذى يتألف جانباه من مبانى دواوين الحكومة (أوفيتسى Uffizi) فى فلورنسا فى عصر النهضة ، فإن هذه المبانى بمثابة أشكال هندسية لتوضيح الطراز الجديد : وإن التكوين الكلاسيكى لهذه المبانى ، بما فيها من عناصر زخرفية متكررة وخطوط أفقية متلاقية ، لخليق أن يبعث سريعاً على الملل لولا أنها تكشف على الفور عن نوع آخر من المبانى ، وهو برج القصر القديم للسادة الحكام القائم فى الميدان الواقع عند نهاية المبانى .

وعندما أتيح للمشتغل بالتخطيط أن يكون حراً فى وضع تصميم لمدينة بأكملها وفقاً للمبادئ عينها التى أنشئ عليها الشارع الجديد (ستّرادا نوفا) أو مبانى الدواوين الحكومية (أوفيتسى) ، انكشفت وجوه النقص من الناحية الجمالية ، فى هذا الاطراد فى تنظيم الأرض الفضاء على نطاق واسع ، وفى هذا الإغفال ، على نطاق واسع كذلك ، لتنوع الوظائف البشرية وتعددها . ففى الحالة الأولى كان النظام لا يزال أداة من أدوات الحياة ، أما فى الحالة الثانية فقد أصبحت الحياة أداة من أدوات النظام . بيد أن هذا الطراز الجديد كثيرا ما أضاف قدراً قليلا إلى جمال مدينة العصور الوسطى بأن أكسبها — كما هو الشأن فى حالة بيانزا سانتيسيما انونزياتا — قسطاً مما يتوافر فى رواق الدير من هدوء الفضاء الداخلى . وسوف نتولى فى مرحلة قادمة دراسة امتداد استخدام فكرة مثل هذه الساحات الطلقة إلى مبانى السكنى ، حيث أضافت عنصراً جديداً إلى فن المشتغل بالتخطيط .

والتقليد الجديد فى البناء باستخدامه النماذج الكلاسيكية ثانية للتعبير عن مشاعر وأحاسيس جديدة ، قد أوجد حتى القرن التاسع عشر معنى جديداً للطلاقة والتنقية والنظام الدقيق . والأماكن التى كان يسمح ببقائها مضطربة المظهر فى المدينة القديمة كسيت برداء قشيب ؛ فالمواقع التى لم تتناولها يد الإنسان بالتهذيب ، ودرست بفعل عوامل التعرية مثل تل الكابيتول فى

روما ، رصفت بالحجر ، وتحول طريق الماعز الوعر الانحدار إلى مرتقى فاخر من الدرج . ولم يكن فى الواقع أقل الخدمات التى أدتها تقاليد عصر النهضة ما جهز به الشارع من رصف بالحجر وبالآجر ، وتشييد درج حجرى ، وإنشاء نافورات مزينة بزخارف منحوتة ، وإقامة تماثيل تذكارية ، وبما فى صعود الدرج وحركة تلاعب مياه النافورات من اتجاه إلى أعلى يعبر عن معنى الحركة العمودية أضافت هذه المبتكرات بهجة فضائية إلى الوظائف التى كانت تؤديها . وإن الدرج الإسبانى (Spanish steps) فى روما الذى كان فى آن واحد سوقاً للأزهار ، ومجتلداً ، وطريقاً يكفر عن سيئات الذاهبين إلى كنيسة الثالوث المقدس (Trinitá) التى تعلوه — إن هذا الدرج ليؤدى مهمة تنفيس يجب ألا تقاس بالمساحة التى يشغلها ، بل بمدى درجة الانتفاع به .

ولقد ظل قدر من هذه الروح باقياً فى أفضل الأعمال التى تمت فى العصر الباروكى ، وبخاصة فى النافورات المزينة بزخارف منحوتة والميادين التى صممها وزخرفها برنينى (Bernini) فى روما . وكانت قيمة هذه البقاع تزداد كثيراً إزاء التباين بين ما فيها من جمال ونظام وما يحيط بها من فوضى واضطراب . وحالما أصبح الطراز الباروكى واسع الانتشار على نسق واحد مطلق ، ولم يعد فى الإمكان وجود تباين ولا تجنب مسايرة ذلك الطراز ، ظهر ما به من وجوه الضعف ، فقد حل التنظيم المطرد مكان التنقية ، والفراغ مكان الطلاقة ، والفخفخة مكان العظمة ، وإن القائم بالتخطيط إذا غنى منفرداً فإن من المحتمل أن يتضاعف ارتفاع صوته لعدة طبقات ، ولكنه لا يتسنى له أبداً أن يحل مكان كل المغنين المشتركين فى فرقة الإنشاد بالمدينة ، فإن لكل منهم دوراً يؤديه مع متابعته النص المدون لأنغام اللحن .

وفى الأبراج العاجية التى يعيش فيها المتخصصون فى نقد الفن ، بل المتخصصون فى نقد تخطيط المدن ، كثيراً ما تفسر هذه التغييرات من

طراز النهضة إلى الطراز الباروكى بأنها ليست إلا تغييرات فى الذوق أو استبصاراً جمالياً . بيد أن التأثير الذى أحدثته فعلا فى تخطيط المدن يرجع إلى أنه كان يعززها فى كل ناحية تغييرات سياسية واقتصادية بعيدة الغور ، فالعوامل التى تمخضت عنها أصلا مدن الملوك فى العالم القديم ، عادت إلى الظهور من جديد دون أى تغيير تقريباً ، فيما عدا ما يحتمل من أن الأجهزة الجديدة للقوة كانت أكثر فاعلية ، وأن تخطيطات المدن التى نشأت عن تلك العوامل كانت تبز تخطيطات المدن القديمة فى صرامتها وانصرافها إلى اتجاه بعينه ، وبُعدها عن روح التعاون ، بل إنها كانت تفوقها فى عدم الاكتراث بألوان التفاعل المتبادل المعقد البطىء وضروب التلاؤم والتعديل التى تتم على مهل نتيجة للتجارب والاختبار ، وهى التى تتميز بها أكثر أساليب تطور المدينة انتظاماً . ولفهم التخطيط الباروكى ، الذى استقر شكله فى النهاية قبيل آخر القرن السابع عشر ، وتمخضت عنه أحياء جديدة فى المدن ، بل مدن جديدة لإقامة الأسر المالكة ، يجب أن يتتبع المرء ما طرأ من الانتقال والتبديل على النفوذ والسلطة عند ختام العصور الوسطى .

وبما أن كل هذه الاتجاهات برزت فى النهاية فى المدينة الباروكية فقد راق لى منذ عهد طويل استخدام هذا التعبير — على سبيل الزراية أصلا — فى مجال الوصف الاجتماعى دون قصره على الناحية المعمارية . والمفهوم الباروكى على النحو الذى تبدى فيه فى القرن السابع عشر يمتاز بميزة خاصة ، إذ أنه ينطوى فى ذاته على العنصرين المتعارضين فى ذلك العصر ، فأولا من الناحية المجردة الرياضية والمنهجية ، تم التعبير عنه إلى درجة الكمال فى التخطيط الصارم للشوارع ، والتوزيع الدقيق لأجزاء المدينة ، وفى الأسس الهندسية لنظام حدائقها ، وفى منظرها العام . وفى الوقت ذاته نرى أنه فى فنى التصوير والنحت لذلك العصر ، يسلم المفهوم الباروكى بالنوازع الشهوانية المتمردة ، المسرفة ، المنافية للنزعة الكلاسيكية ، والنزعة الميكانيكية ، وقد

تم التعبير عن هذه النوازع فى ملابس العصر وحياته الجنسية وأساليبه السياسية الهوجاء . ولقد كان هذان العنصران موجودين معا فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، وتارة كان كل منهما يعمل على حدة منفصلا عن الآخر ، وتارة كانت تسودهما حالة من التوتر فى داخل كيان كلى أوسع نطاقا .

وإزاء ذلك يمكن اعتبار نماذج أوائل عهد النهضة — فى صفائها — بواكير الطراز الباروكى واعتبار النماذج الكلاسيكية الحديثة — من فرساى إلى سنت بطرسبرج — الطراز الباروكى المتأخر ، على حين أن الرومنطيقية الجامحة المستهترة ، التى اتسمت بها مبتكرات العاملين على إحياء الطراز القوطى فى القرن الثامن عشر ، يمكن اعتبارها طورا من أطوار الأهواء الباروكية . ولا يكون لشىء من هذا كله معنى إذا اعتبرنا الطراز الباروكى طراز فترة بذاتها فى تطور العمارة ، بيد أن التوسع فى مدلول كلمة باروكى قد سار قدما باطراد فى خلال الجيل الأخير ، وإن ما تنطوى عليه أصلا هذه الكلمة من الغموض والتناقض يسوغ استعمالها على هذا الوجه الأعم . وأما من حيث المدينة ، فإن نماذج النهضة هى المتغيرة ، والنماذج الباروكية هى البارزة ، والنماذج الكلاسيكية الحديثة هى الثابتة فى هذا التحول الحضارى المعقد .

٤ — الإقليم والمدينة

منذ بداية العصور الوسطى كانت سلطتان تتسابقان فى سبيل الفوز بالسيطرة فى أوروبا الغربية ؛ وكانت إحداهما ملكية والأخرى بلدية . وحتى فى أزهى أيام المدن الحرة ، كانت توجد فى أوروبا جهات دعمت فيها السلطة الملكية مركزها على وجه أسرع من سواها ، وأنزلت المدن إلى مصاف أنصار الإقطاعيين ، وكانت تلك الجهات هى إنجلترا واكويتانيا

وصقلية والنمسا : وأما حيثما كانت السلطة الملكية والإمبراطورية فى أضعف حالاتها ، كما كان الشأن فى شمال إيطاليا ، فإن المدينة حققت استقلالها على أكمل وجه بوصفها وحدة سياسية متكاملة ، بيد أنه – حتى فى الجهات التى كانت فيها السلطة الملكية قوية ، كأراجون مثلا – كانت هذه السلطة أبعد من أن تكون مطلقة ، وآية ذلك القسم الذى كان يؤديه رعايا ملك أراجون ، فقد كان نصه : « نحن الذين لا نقل عنك ، نقسم لك أنت الذى لست أفضل منا ، بأننا نقبلك ملكنا ومولانا على شريطة أن ترعى كل حرياتنا وشرائعنا ، وإلا فلا » . وقد كان توحيــد الضياع الإقطاعية المتفرقة وإنشاء مناطق متصلة للإدارة السياسية فى داخل إطار واضح المعالم أمرين هامين لخير المجتمعات التى كان هذا التنظيم يتناولها . وقد كانت المشكلة الحقيقية هى هل هذا التوحيد يجب أن يتم لصالح طبقة صغيرة ممتازة أو يجب أن يتم عن طريق اتحاد حر بين المدن والأقاليم ؟ ولسوء الحظ أن المدن ذاتها – على نحو ما رأينا – لم تكن لديها مناعة تقيها عوامل الإغراء بمتابعة حياة السطو والتطفل التى غدت ميسورة بفضل ما توافر لها من أسلحة عسكرية ، فكانت تستخدم القوة لتحقيق مآربها الاستغلالية فى مناطق محلية ، وفى مغامرات استعمارية أكثر بعدا من ذلك ، وكررت على التناوب الأخطاء السياســية التى ارتكبها الإسبرطيون والأثينيون وإن لم تكرر أخطاء الرومان .

وكثيراً ما كانت المدن الأقوى تسعى إلى غزو جاراتها الأضعف منها ، ولو لم يكن ذلك من أجل هدف أكبر من القضاء على سوق منافسة . وفى أوقات الحرب ، كانوا فى إيطاليا – منذ أواخر القرن الثانى عشر – ينقلون قدراً كبيراً من السلطة التنفيذية إلى موظف خاص يدعى البوديستا (Podesta) كان يتحرر عند الضرورة من قيود القانون ، وأحيانا كانت المدن تستخدم الجند المرتزقة المحترفين لدعم سيادتها على منافساتها ، وكان

أهل بيزا من أوائل من استأجر الجنود المحترفين فى الحرب مع فلورنسا ، ولقد كان نجاحهم مثلا إلى حد أن هذه المدينة الأخيرة بدأت تفقد ثقتها بجيش مواطنيها الذى كانت تفاخر به . ولقد كانت فلورنسا مدينة حرة ، ولكنها تعاقدت فى سنة ١٣٢٢ على أن تتنازل عن حريتها مرة ثانية لملك نابولى فى مقابل حمايته إياها .

وحيال الشدائد الحربية ، كانت بلديات المدن الإيطالية أول من قلب عملية الحصول على الحرية رأسا على عقب . وعلى الرغم مما كان يحدوها من أمل فى اعتبار استخدام المحترفين من الإقطاعيين أو المأجورين تدبيراً مؤقتا ، فإنها كثيراً ما وجدت أن القائد الجديد الأجير (الكوندوتييرى Condottiere) يصبح ، فى مقابل انتصاره ، حاكما للمدينة التى كان قد استؤجر للدفاع عن حريتها . وسرعان ما أصبح يقف فريدا بلا شريك فى ساحة السوق ، تمثال رجل على صهوة جواده ، كان صاحب الأمر الجديد المطلق السلطان ، ورمزا للأساليب الجديدة والقوة الجديدة — ولو أنه فيما عدا الجواد — يكاد يكون قديماً قدم المدينة ذاتها .

وكان يوجد ضعف آخر فى نظام الحكم الديمقراطى فى العصور الوسطى لا يختلف عما كان يوجد فى أثينا ، فإن التوزيع الواسع النطاق للسلطة والمسئولية كان يستنفد قدراً كبيراً من وقت كل مواطن . وإذا كانت الدورة السريعة للتناوب فى شغل الوظائف — فستة من أصحاب المراكز الرئيسية فى فلورنسا كانوا يؤدون فترة خدمة لمدة شهرين والآخرون لمدة سنة فحسب — قد حالت دون استشراء الفساد ، فإنها قضت على الكفاية ، ووقفت عقبة دون اتباع سياسة طويلة المدى . وفى تقدير « براونفلز » كانت فلورنسا تقتضى خدمات نحو ألف مواطن فى كل سنة طبقاً للنظام النقابى والحزبى ، وفى المدن الأقل سكانا مثل سينا وبيزا (٢٠٫٠٠٠) أو بيستويا وأريتزو (١٠٫٠٠٠) كانت الحاجة تدعو إلى استخدام عدد

أكبر من ذلك نسبيا . وفى القرن الثالث عشر كان المجلس الأكبر فى لوكا يتألف من ٥٥٠ عضوا ، مع أن سكانها كانوا يبلغون خمسة عشر ألف نسمة .

وما دام عدد السكان محدوداً ، كان العمل بالنظام الديمقراطى ميسوراً ، ولكن صاحب نمو المدن انعدام المسئولية ، وعدم الكفاية وتشعب الصوالح ، والخمول السياسى — وقد مهد كل ذلك السبيل أمام ديكتاتور طاغية يجمع السلطة بأسرها فى قبضة يديه ، فإنه عند ما يتمرد « الهاوى » على العمل يحل مكانه « المحترف » .

ومجمل القول أن المدن فى سبيل بسط سلطة غاشمة على جيرانها ، رضيت شيئاً فشيئاً بفقدان ما كانت هى ذاتها تستمتع به من حرية داخلية ، وأنكى من ذلك أنها خسرت دعواها الأدبية حيال الأوضاع الأخرى للاستبداد . والجهات الوحيدة فى أوروبا التى تم فيها الاتحاد بين المدن المتمتعة بالحقوق البلدية والدولة المؤلفة من أقاليم دون أن تفقد المدن حريتها ، كانت — كما أوضحت — الاتحاد الكونفيديرالى للمقاطعات السويسرية والأقاليم الواطئة .

وفى أوائل العصور الوسطى لم ينجح كبار النبلاء الإقطاعيين فى إطعام أتباعهم ، وجمع إيجاراتهم ، ونشر قدر يسير من الأمن والنظام فى أملاكهم إلا بالتنقل المستمر من ضيعة إلى أخرى من ضياعهم . وكان « البلاط » عبارة عن معسكر متنقل ؛ فقد كانت اليقظة والحركة ثمنا للسلطة ، وكان هذا ينطبق على الملوك وكذلك على من دونهم من النبلاء . وكان الوزراء الملكيون ، والقضاة الملكيون ، والجهاز الحكومى بأسره ، والرقابة المالية ، كان كل أولئك جهازا متحركا فى جوهره ، فقد كان يحتفظ بالسلطة عن طريق الإشراف الشخصى . وفى خلال القرن الرابع عشر بطل العمل على هذا المنوال فى أرجاء المملكتين العظيمتين : إنجلترا وفرنسا ، وذلك لأن مدونات المحاكم ، والقوائم ، والسجلات ، والمحفوظات ، والمراسلات

ــ فضلا عن الموظفين أنفسهم ــ كانت قد بلغت من الكثرة والضخامة حداً لا يسمح بنقلها . وتبعا لازدياد عدد السكان واتساع المساحة غدا الإشراف الشخصى مستحيلا ، ومن ثم بات لا مناص من الإدارة عن طريق الغير ، ومن مباشرة السلطة عن طريق الإنابة .

وعلى الرغم من أن الحركة الشعبية للحصول على الرقابة البرلمانية لم تصادف نجاحا كبيراً فى متابعة نشاطها إلا فى إنجلترا ، فإن الدولة الحديثة أخذت تتكون فى القرن الرابع عشر ، وكانت إماراتها جهازا من الموظفين ، ومحاكم دائمة لتصريف العدالة ، ومحفوظات ومدونات دائمة ، ومبانى دائمة فى مواقع مركزية على قدر الاستطاعة لمباشرة الأعمال الرسمية . ولقد أجاد تاوت (Tout) فى وصف هذه العملية ، فهو يلاحظ أنه « عند ما أقبل حكم هنرى الثانى كان الملك الإنجليزى قد ذهب فى تركيز السلطة فى شخصه إلى حد جعل كل ذوى الثروة والجاه يكثرون من التردد على البلاط سعيا وراء العدالة أو التماسا للرعاية » . وهذه الحركة ، أو على الأصح هذا الوضع استقر أولا فى الإدارة المالية ، التى كان لها مقر خاص فى وستمينستر ، ثم امتد تدريجا حتى تناول جميع مرافق الدولة . وكانت العملية فى ذاتها عملية متبادلة ؛ إذ أن تركيز السلطة استوجب إنشاء المدينة العاصمة ، على حين أن المدينة العاصمة بسيطرتها على الطرق الرئيسية للتجارة وتنقلات الجيش ، كانت عونا قويا على توحيد الدولة .

وكان هذا الانتقال للسلطة مصحوبا بظهور هيئة موظفين حكومة ، فإن الحاكم المتجول الذى عرف فى أوائل العصور الوسطى ، وكان يتغيب كثيراً عن قلعته أو عاصمته للقيام بحملاته أو للاشتراك فى الحملات الصليبية ، قد ألقى الآن عصا الترحال واستقر ، وبلغ من القوة قدراً يكفى لإرغام أقوى أتباعه على السعى إليه . ولقد صحب وضع المحفوظات والعقود وسجلات الضرائب فى المدينة العاصمة مجىء جحافل من الكتبة والموظفين

الدائمين — ولم يكن موظفو « أداة التعطيل » الجديدة تحت رحمة الانتخابات البلدية .

وفى كنف النظام الاستبدادى لم يكن ميسورا القيام بأى عمل فى داخل نطاق المدينة دون ترخيص خاص ، وكان وضع الأنظمة ونقضها مصدر نفع للأمير . فقد كان جمع الضرائب ، وفرض الغرامات ، وسن القوانين والأنظمة وما لا يقل عن ذلك شأناً من إصدار جوازات السفر — كان كل هذا بمثابة الحبوب التى تدور عليها رحى الأداة الحكومية : وعندما حل القرن السابع عشر ، كان قد وضع فى مدينة بادوا نظام لجوازات السفر ، وفى مدينة فيرارا كان الدوق يفحص بنفسه القائمة اليومية للمسافرين وهى التى كان أصحاب الفنادق يكلفون بتقديمها . وسرعان ما أصبح هذا النظام البيزنطى عاماً ، وكان فى الواقع قد نشأ أصلا فى مدينة القسطنطينية . والعقاب نفسه — ذلك السلاح الذى لا بد منه للسلطة الاستبدادية — أصبح مصدراً للإيراد ، وطبقاً لما أورده يعقوب بورخارد (Jacob Burckhardt) فإن أميراً إيطالياً قال إن مشاجرات رعاياه كانت تدر عليه من الغرامات ما ينوف عن اثنى عشر ألفاً من الدوكات .

ولإيواء هذه الإدارات الحكومية الجديدة ، كان لا بد من إنشاء نوع جديد من المبانى ، وهو مبانى الدواوين . والنموذج الأصلى لهذا الطراز من المبانى هو ذلك الذى وضع تصميمه فازارى فى فلورنسا للأوفتسى (الدواوين) ، وكانت تتوج الجزء الداخلى فيها وقتاً ما شرفة مكشوفة فى الدور العلوى . فهنا القالب الأصلى لدواوين الحكومة فى أحسن صورة ، وهو لحسن الحظ متواضع فى نطاقه ، كئيب فى شكله ، ولكن دون أن يكون مخيفاً ، وقد قدر له أن يُحاكى ، مع تعديلات ضئيلة وعلى نطاق ضخم ووتيرة واحدة مرهقة ، فى الأحياء القميئة المخصصة للدواوين الحكومية فى باريس وسانت بطرسبرج وبرلين وواشنطون والمدن التى تدأب على تقليدها . وإن ما ينطوى عليه

النظام البيروقراطى من ألوان التكرار والتنظيم على نسق واحد ، خلق فى المدينة أثراً أعمق مما خلقه الجيش الجديد . وفى كنف هذا النظام إذاً كان كثيراً ما تحقق ، فيما يبدو ، كسب عاجل من ناحية الكفاية فى إدارة الشئون البلدية ، فإنه كانت تحدث على وجه الدوام خسارة من ناحية الحكم الذاتى . واليوم بعد استتباب الأمر للسلطة الإدارية ، أصبح كيان النظام الإدارى والمهمة التى يؤديها يتسمان كلاهما بالصفة المفزعة التى صورها كافكا (Kafka) فى مؤلفه « المحاكمة » (The Trial) .

ولنتنبه إلى أن المدينة العاصمة كان عليها أن تقوم بدور اجتماعى ودور سياسى على حد سواء ، ففيها كانت العادات والتقاليد واللهجات الريفية تذاب وتعاد صياغتها على نمط يحاكى ما كان متبعاً فى البلاط الملكى ، وهذا هو ما أصبح يعرف باسم النمط القومى ، وهو قومى على الأصح عن طريق الفرض والمحاكاة أكثر منه عن طريق الأصل والنشأة . وكان لابد من انقضاء قرون لتحقيق التوحيد ، حتى فيما هو خارج عن نطاق الشئون الشخصية كنظام الموازين والمقاييس ، فإنه لم يحدث إلا فى سنة ١٦٦٥ أن اقترح كولبير (Colbert) « تطبيق نفس القوانين واستعمال نفس النظام للموازين والمقاييس فى جميع أرجاء مملكة صاحب الجلالة » . وحتى الأمن على الحياة والممتلكات لم يأت عاجلا على الأثر فى كل أركان المملكة القومية الجديدة ، فإنه حتى وقت متأخر يصل إلى سنة ١٥٥٣ كانت توجد فى « دليل الطرق فى فرنسا » ملاحظات فحواها وجود « قطاع طرق » ، أو « غابة خطرة » فى الأماكن الخالية فيما بين المدن .

وكان تركيز السلطة فى العاصمة السياسية مصحوباً بفقدان المدن الأخرى السلطة والمبادأة ، فكانت المكانة القومية تعنى اختناق الحرية البلدية المحلية . وأصبح الإقليم القومى ذاته الحلقة التى تربط بين مختلف أنواع الجماعات والهيئات والمدن ، فقد كانت الأمة عبارة عن مجتمع يشمل كل ذلك وينتمى

إليه الفرد منذ ولادته . وكما أوضح جيرك (Gierke) اضطر فقهاء القانون الجدد إلى إنكار أنه كان للمجتمعات المحلية والهيئات البلدية كيان مستقل ، فالأسرة كانت الجماعة الوحيدة - فيما عدا الدولة - التى كان ينظر إلى وجودها على أنه ينطوى على مبررات ذاتية ، كما أن الأسرة كانت الجماعة الوحيــدة التى لم تكن بها حاجة إلى الإذن الكريم من الملك لمباشرة مهامها الطبيعية .

وعند ما تم تركيز السلطة السياسية على هذا الوجه ، كان الأفراد يحصلون على امتيازات اقتصادية من الأمير وليس من المدينة ، وكان يتسنى عادة ممارسة هذه الامتيازات فى أى مكان من أنحاء المملكة . وتبعاً لذلك فإنه بعد القرن السادس عشر كانت أعظم المدن حظاً من الزيادة السريعة فى عدد السكان وفى المساحة وفى الثروة ، هى تلك التى كانت تأوى بلاطاً ملكياً ؛ فقد كان المصدر الرئيسى الذى تنبع منه القوة الاقتصادية ، وسرعان ما بلغت نحو اثنتى عشرة مدينة حجما لم يصل إليه فى العصور الوسطى ، حتى ولا عدد من المدن يعدّ على أصابع اليد الواحدة ، ففى فترة قصيرة كانت لندن تضم ٢٥٠٫٠٠٠ ونابولى ٢٤٠٫٠٠٠ وميلان أكثر من ٢٠٠٫٠٠٠ ، وباليرمو وروما ١٠٠٫٠٠٠ ولشبونة بوصفها ثغراً لمملكة عظمى ما يزيد على ١٠٠٫٠٠٠ ، وكذلك أشبيلية وأنتورب وأمستردام ، على حين أن عدد سكان باريس كان يبلغ ١٨٠٫٠٠٠ فى سنة ١٥٩٤ .

وعند ما استقرت أوضاع الدول العظمى فى العالم الحديث ، واصلت العواصم انفرادها بالزيادة فى عدد السكان ؛ ففى القرن الثامن عشر ، كانت المدن التى بها ما يزيد على ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة تشمل موسكو وفيينا وسانت بطرسبرج وباليرمو ، على حين كان عدد سكان نابولى ٤٣٣٫٩٣٠ ، وعدد سكان باريس حوالى ٦٧٠٫٠٠٠ ، وعدد سكان لنــدن يزيد على ٨٠٠٫٠٠٠ ؛ على حين أن المدن التجارية مثل بريستول ونوريتش ، أو المدن

الصناعية ، مثل ليدز ومنشستر وايزرلوهن (Iserlohn) وبادربورن (Paderborn) بقيت فى أغلب الأحوال مدناً صغيرة ، أى إن عدد سكان كل منها كان يقل عن ٥٠٠٠٠ نسمة .

وأما مدينة هامبورج التجارية ، ومدينة ليون الصناعية – وقد كانت كلتاهما ذات أسس راسخة من العصور الوسطى ، وحياة اقتصادية متواصلة النشاط – فإنهما الاستثناءان الرئيسيان ؛ فقد كان عدد السكان فى كل منهما يزيد على ١٠٠٠٠٠ نسمة فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولكنهما إلى ذلك الحين لم تكونا تمثلان الأوضاع السائدة للقوة السياسية والمالية . وقد امتدت إلى نواح أخرى زيادة الحجم والمدى فى العمليات المالية والسياسية ، فإن روما كانت تزهو بمستشفى جهز بمعدات لإيواء ٤٥٠ لقيطا ، ٥٠٠ بنت ، وبألف سرير للمرضى فى جناح واحد ، وهذا ينطوى على فقدان كلى للمعيار البشرى مع ما يقابل ذلك من تحويل العلاقات الشخصية إلى صلات آلية :

وعلى النقيض من نظام العصور الوسطى ، فإنه لم يعد هناك توزيع ولا لامركزية من حيث السلطة والسكان ، وإنما البلاد الألمانية وحدها هى التى ظل فيها الطراز الأقدم عهداً لنظام البلديات الاقتصادى باقيا على نحو فعال لمدة طويلة ، على أن توحيد براندنبرج وبروسيا فى القرن السابع عشر غير وجه الأمور حتى فى تلك البلاد . ولقد نمت الدولة على حساب أجزائها ، فالمدينة العاصمة تجاوزت فى نموها كل الحدود بالقياس إلى المدن الريفية ، وعلى حسابها إلى حد ليس بالقليل . وعند ما أصبح للبلديات شأن هام ، غدا الإشراف المحلى فى حاجة إلى تعزيزه بتشريع قومى ، وفى النهاية لم يعد يتسنى القيام بأى عمل دون معاونة السلطة المركزية ومصادقتها .

وعلى الرغم من أن العواصم الطبيعية كانت تقوم عادة فى مواقع تتوافر فيها مزايا خاصة للتجارة أو لأغراض الدفاع الحربى – ولقد كانت هذه المزايا من العوامل التى أسهمت أصلا فى اختيارها – فإن حكام العصر

الباروكى استعانوا بكل سلطات الدولة لدعم هذه المزايا . وحيثما كان يتعذر وجود الموقع الطبيعى ، كانوا يعمدون إلى محاكاة بطرس الأكبر — عن بعد — فى إرادته الجبارة التى تمثلت فى إنشاء مدينة سانت بطرسبرج .

وموجز القول أن تكاثر المدن توقف ، أو على الأقل أن الجانب الأكبر من النشاط فى هذه الناحية انتقل إلى العالم الجديد فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، فإن إنشاء المدن لم يعد فى نظر طبقة ناشئة من صغار الصناع والتجار وسيلة لتحقيق الحرية والأمان ، بل غدا على الأصح وسيلة لتركيز السلطة السياسية فى مركز قومى واحد تحت عين الملك مباشرة ، وللحيلولة دون أن يظهر ذلك التحدى للسلطة المركزية فى مراكز متفرقة فيكون أشد صعوبة فى وقفه عند حده . ومن ثم انقضى عهد المدن الحرة بحضارتها الواسعة الانتشار ، وأساليب حياتها الديمقراطية نسبيا ، وحل مكانه عهد المدن المحكومة حكما مطلقا ، وكانت بضع مدن قد تجاوزت الحد فى نموها تاركة المدن الأخرى تواجه أحد أمرين : فإما أن تقبل الركود ، وإما أن تريق ماء وجهها فى القيام بمحاولات يائسة من التقليد الذليل .

٥ — وسائل الإكراه

تقوم الرأسمالية وفنون الصناعة والحرب بدور حاسم فى نمو الدولة الحديثة ، ولكن من المستحيل تخصيص دور رئيسى لواحد من هذه العوامل فكل منها نما تبعاً لمؤثرات داخلية واستجابة لهيئة مشتركة ، ونمت الدولة منها جميعاً ، جنباً إلى جنب .

وكيف نشأت النظريات الحديثة الخاصة بالسلطات السياسية المطلقة ؟ ولماذا ظهر الحاكم السياسى المستبد بهذه السهولة نتيجة لما حدث فى تركيز رأس المال الاقتصادى والسلطة السياسية فى المدينة الإيطالية فى القرن الرابع عشر مع وجود أكثر من نقابة واحدة وأكثر من أسرة واحدة تتنازع على

إحراز ذلك المركز ؟ وكيف انتشرت فى أوروبا بدعة الحكم الاستبدادى ، فخلقت طغاة عمالقة مثل ملوك أسرة تيودور ، وطغاة أقزاما مثل صغار الحكام فى ألمانيا — طغاة كان لهم نظراؤهم بين الفئة الجديدة من رجال المال والأعمال التى نشأ منها بعضهم ؟ إن هناك اسما آخر لهذا الإيمان المتزايد بالسلطة المطلقة ، فنى وسعنا أن ندعوه أوهام البارود .

إن القول القديم المأثور بأن البارود قضى على النظام الإقطاعى زعم بعيد عن الحقيقة ، فعلى الرغم من أن الاستقلال الإقطاعى لم يقو على مقاومة تركيز السلطة فى ملكيات قومية ، فقد كان من أثر البارود أنه أتاح للنبلاء الإقطاعيين فرصة جديدة للبقاء بإنقاذهم من ضغط المدن المحصنة عليهم ، وذلك أن البارود وسّع دائرة نشاط الجنود المحترفين وقوتهم وقدرتهم على التنقل ، ولا يفوتنا أن حمل السلاح كان الحرفة الأزلية للزعيم الإقطاعى . ومع ذلك فلا مراء فى أن إدخال استعمال البارود فى أوروبا[1] فى أوائل القرن الرابع عشر — ذلك القرن الذى انهار فيه عدد كبير جداً من أنظمة العصور الوسطى — دق الناقوس الذى آذن بمغيب شمس المدن الحرة .

وإلى ذلك الحين كانت الطمأنينة تعتمد أساسا على الخندق البسيط والسور ، وكان ذلك كافيا للدفاع فى وجه المغيرين من المحاربين الذين كانوا لا يحملون معدات ثقيلة للهجوم ، فالمدينة التى أحكم تحصينها ، كانت منيعة فى الواقع ، وقد بقيت الحال كذلك حتى إلى عهد مكيافيلى ، فإنه لاحظ أن « مدن ألمانيا . . . محصنة على وجه . . . يجعل إخضاعها أمراً عسيرا طويل المدى ، إذ أنها جميعاً مجهزة بما يلزم من الخنادق

---

(١) كان يظن إلى عهد قريب أن روجر بيكون (Roger Bacon) أو برتولد شفارتز (Berthold Schwartz) هو الذى اخترع البارود ، ولكن الرأى السائد اليوم هو أن البارود اخترع فى آسيا (ويحتمل أن ذلك كان فى الصين فى القرن التاسع) وأدخل استعماله فى أوروبا فى القرن الرابع عشر .

والأبراج ، وبما يكفى من المدفعية وهى تحتفظ على الدوام فى مخازنها العامة بالطعام والشراب والوقود لسد الحاجة لمدة سنة » .

وإلى القرن الخامس عشر ، كانت للدفاع الغلبة على الهجوم ، وإن رسالة ألبرتى عن تخطيط المدن (سنة ١٤٨٥) — وكانت رسالة متقدمة — لم تدخل المدفع فى حسابها ، ولم يحظ فن التحصين الجديد إلا بقدر يسير من عنايتها ، والواقع أن المدفعية بلغت من القصور كما بلغت من قلة المهارة فى استعمالها فى أول الأمر ما جعل جويتشارديني[1] (Guicciardini) يلاحظ أن حصار المدن كان بطيئاً وغير محقق النتيجة ، وإلى أن غزا الفرنسيون إيطاليا فى عهد شارل الثامن بعدد من الجنود لم يسبق له مثيل ، وكان ٦٠٫٠٠٠ مقاتل ، وبقنابل للمدافع من الحديد بدلا من الحجر ؛ وكان الجيش جميعه يتحرك بسرعة لم يسمع بها إلى ذلك الحين — إلى أن حدث ذلك ، كانت كفة المدن تتعادل مع كفة مهاجميها أو على الأصح كانت هى الأرجح ، ولكن بعد ذلك الحين انعكست الآية ؛ فعلى حين أن القنبلة التى لا تنفجر — سواء أكانت من الحجر أم من الحديد ، وهى التى كان المدافع يستطيع استخدامها فى مدفعه — كانت لا تحدث إلا ضرراً يسيرا عند سقوطها وسط فصائل من الرجال ، كان يتسنى لها أن تحدث ضرراً بالغاً عند استخدامها فى الهجوم لفتح ثغرة فى سور أو عند اختراقها أحد السقوف . وقد كان من جراء استخدام المدفعية الجديدة فى أواخر القرن الخامس عشر ، القضاء على مناعة المدن ، ولم يكن من شأن وضعها الدفاعى القديم على تل وعر المرتقى ، أو قمة صخرة شاهقة ، إلا أنه جعل منها هدفا أشد وضوحا ، وبذا غدت المدينة — التى كانت « منيعة » فى أوائل العصور الوسطى — أيسر منالا من المدينة المحصنة التى خلفتها .

وفى سبيل محاولة التكافؤ مع الظروف الحربية ، اضطرت المدن منذ

---

(١) كان فرنشسكو جويتشارديني (١٤٨٣ — ١٥٤٠) مؤرخا إيطاليا مرموقا .

هذه اللحظة إلى التخلي عن نظامها القديم القائم على أسوار بسيطة يتولى الشطر الأكبر من الدفاع عنها جنود من المواطنين ، كما اضطرت إلى استئجار جنود لكي يستطيعوا الخروج والاشتباك مع العدو فى معركة فى العراء . وعلى أثر النجاح فى الدفاع عن ميلان على يد بروسبرو كولونا (Prospero Colonna) فى سنة ١٥٢١ ، اضطرت المدن إلى اتباع طرق التحصين الجديدة التى كان قد قام بوضعها المهندسون العسكريون الإيطاليون . وطبقاً لما يقوله ألبرتى فإن مدينة بيروجيا ، بأبراجها البارزة منها « على نحو ما تبرز الأصابع من يد الإنسان » كانت القدوة التى اقتدت بها المدن الأخرى .

وكانت هذه التحصينات الجديدة أحكم إعداداً بكثير من الأسوار القديمة ، فقد كانت لها معاقل أمامية ، واستحكامات نائتة منها ، وأبراج انتظمت على هيئة رءوس الحراب ، بحيث كانت تسمح فى آن واحد للمدفعية وللمشاة المسلحين أن يحصدوا صفوف القوات المهاجمة أنى كانت الناحية التى تتقدم منها ، وبفضل بنادق المدافعين فى أقصى المواقع الخارجية ، كان فى الاستطاعة نظريا جعل المدينة — وقد أصبح محيطها تبعاً لذلك على بعد مئات من الياردات إلى الخلف — فى مأمن من أن تصل إليها قنابل أقوى المدافع لدى العدو ، ولمدة لا تزيد على قرنين اثنين ، كان يبدو أن هذه التحصينات البارعة تبعث على الأمل فى الأمان ، إلا أنها على غرار سواها من الأساليب العديدة للحماية العسكرية ، ألقت عبئا اجتماعيا مخيفا على عاتق السكان الذين كانت تحميهم ، وكانت هى المسئولة آخر الأمر عن تلك الأحوال الوبيلة للازدحام ، التى كثيراً ما أوخذت عليها مدينة العصور الوسطى .

وبدلا من السور البسيط المبنى من أحجار — وهو ما كان فى استطاعة أى بناء عادى للمنازل أن يقوم بتصميمه أو بنائه — كان لا بد الآن

من إنشاء نظام معقد للدفاع كان يستدعى إلماما هندسيا واسعا ، وإنفاق مبالغ طائلة من المال . وهذه التحصينات على صعوبتها فى التشييد ، كانت أشد من ذلك صعوبة فى التعديل إلا أن يكون ذلك نظير تكاليف مانعة . ولقد كان من الميسور مد الأسوار القديمة لكى تشتمل إحدى الضواحى ، أى إنها لم تكن عقبة فى سبيل النمو الطبيعى والتلاؤم ، ولكن التحصينات الجديدة حالت دون الاتساع الأفقى ، ولا بد من أن يكون التحصين قد أحدث فى الحالة المالية لمدن القرنين السادس عشر والسابع عشر عين الأثر الذى كثيراً ما أحدثه فى الحالة المالية للعواصم الحديثة إنشاء الطرق السريعة وأنفاق المركبات الكهربية التى تسير تحت الأرض ، فإنها ألقت على كاهل البلديات عبئاً لا يطاق وعرضتها لاستمداد المعونة الباهظة من رجال المال .

وحتى فى ظل نظام مركزى ، كما كانت الحال فى فرنسا ، قدم سكان ميتز خدماتهم دون أجر ، لكى يستطيعوا بإنفاق ٢٥٫٠٠٠ جنيه أن ينفذوا مشروعاً كان لولا ذلك يكلفهم ٥٠٫٠٠٠ جنيه ، أى إنه كان تطوعاً بالجهود للتخلص من فرض أعباء مالية باهظة . وعلى الرغم من كثرة استخدام العمل الإجبارى فى فرنسا ، فإن الأعباء الاجتماعية لم تكن يسيرة ؛ إذ أن إنفاق رأس المال فى مشروعات غير إنتاجية وصرف الجهود عن إنتاج سلع استهلاكية ، يستنزف موارد الشعب ، حتى لو لم يترتب على ذلك تحمله أعباء مالية . ولعل إحدى المزايا العظمى التى تمتعت بها المدن الإنجليزية بعد القرن السادس عشر ، وساعدت إنجلترا فى تسابقها من أجل السيادة التجارية ، أنها هى وحدها التى لم يُبهظ كاهل مواردها بفرض هذه الأعباء عليها .

ولم تكن النتائج المباشرة أقل فداحة فى وقعها على السكان أنفسهم من التكاليف المالية للإنشاء ، فعلى حين أن المدينة القديمة الطراز كانت تُقسم إلى وحدات للمبانى وميادين ثم يقام سور حولها ، فإن المدينة الحديثة

التحصين كان يوضع تخطيطها أساساً على أنها حصن ، ثم تحشر المدينة فى داخل هذا النطاق المحكم المحدود . وعادة كان الحيز الذى تشغله هذه التحصينات أكبر مما تشغله المدينة بأسرها ، وطبقاً لما يقوله ايبرستات (Eberstadt) فإن مدينة ستراسبورج تم توسيع نطاق سورها أربع مرات على الأقل فى خلال العصور الوسطى فيما بين سنة ١٢٠٠ وسنة ١٤٥٠ ، ولكن عدد السكان تضاعف ثلاث مرات فيما بين سنتى ١٥٨٠ ، ١٨٧٠ دون أن يطرأ أى تغيير على نطاقها ، وسواء أكانت المدينة قديمة أم حديثة ، فإن فرص الاتساع قد وات من أمامها ، ولم يصبح هناك مجال للنمو الجديد إلا فى الاتجاه الرأسى : فما من رجل فطن من سكان المدن كان يقدم على تشييد منزله خارج الأسوار فى أرض كان يحتمل أن تغدو ميدان قتال . والواقع أن حكاماً مثل ريشيليو أمروا بهدم كل ما يوجد من المبانى فى المنطقة المحيطة بمدينة محصنة ، أى إن المدينة كانت تقف — مثل باريس إلى عهد لا يزال قريباً — وسط أرض بلقع خالية من المبانى ، معرضة لنيران المدفعية .

ولذلك فإن أثر التحصينات الحديثة لم يقتصر على إقصاء الضواحى والحدائق وبساتين الفاكهة عن المدينة بحيث أصبح لا يتيسر الوصول إليها على نحو مريح إلا للطبقات الفائقة الثراء التى كانت تستطيع اقتناء الخيول ، بل إن الأماكن الخلاء فى الداخل شغلت بالمبانى على عجل تبعاً لاضطرار السكان إلى النزوح عن أطراف المدينة مدفوعين بعوامل الخوف والنكبات ، أو تحت ضغط إقامة الأسوار واحتكار الأرض . ولقد أدى هذا الازدحام الجديد إلى القضاء على معايير العصور الوسطى من حيث الحيز المخصص للمبانى ، وذلك حتى فى بعض المدن التى احتفظت بطابع العصور الوسطى وحافظت على تلك المعايير زمناً أطول مدى من سواها . والواقع أن فرط الازدحام بدأ فى المدن العواصم قبل القرن السابع عشر ، ويذكر « ستو » أنه فى لندن كان يستبدل بالمبانى الحجرية مبان ذات هياكل

خشبية اقتصاداً للحيز الذى كانت تشغله الحوائط الحجرية الأضخم حجماً ، وأن مبانى تتألف من أربعة أوخمسة طوابق كانت تحل مكان مبان من طابقين ، (ولهذا السبب بعينه حدث التحول من استخدام الأحجار إلى إنشاء هياكل من الصلب فى المدينة الأمريكية فى أواخر القرن التاسع عشر) . بيد أن اتباع هذه الأساليب أصبح أمراً عاماً فى القرن السابع عشر ، فقد أخذ الناس عندئذ يقيمون بطريقة منتظمة مبانى عالية للسكنى — كانت تتألف من خمسة أو ستة طوابق فى مدينة جنيف القديمة أو فى باريس ، وأحياناً كانت تصل إلى ثمانية أو عشرة طوابق أو أكثر فى أدنبره .

وقد أفضت شدة التنافس على هذا الوجه فى سبيل الحصول على الأرض الفضاء إلى نتيجة محتومة ، وهى رفع قيمة الأرض فى العواصم السياسية . وترتب على ارتفاع قيمة الأرض — كما حدث فى برلين منذ عهد فردريك الأكبر — ظهور نموذج سيئ للإسكان ، يتسم بالإفراط فى شغل الأرض ، وانعدام المناطق المخصصة للعب الأطفال ، والافتقار إلى النور والهواء والاتساع الكفيل بالراحة فى داخل المنازل ، فضلا عن ارتفاع الأجور . ولقد أصبحت الصفة الغالبة على أسلوب المعيشة فى مدينة القرن السابع عشر الآخذة فى النمو ، هى سكنى شطر كبير من السكان فى دور فقيرة ، ولم يكن ذلك مقصوراً على المتسولين واللصوص والعمال المؤقتين وغيرهم من المنبوذين . وكان يدنس المبادئ الجمالية الرفيعة لدى معشر المعماريين والبناة وجود مثل هذه الدور الفقيرة على نحو ما كان يدنس النعرات الجمالية المتطرفة لدى بلاط قصر فرساى كثرة استخدام طرقات ذلك القصر كمباول عامة .

وبحلول القرن السادس عشر ، كانت أساليب المهندسين الإيطاليين ، قد أصبحت هى السائدة فى إنشاء المدن ، فإن رسالة دورر (Dürer) عن تحصين المدن لا تولى المدينة ذاتها إلا عناية ضئيلة ، وفى أغلب الكتب والخطط الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع ينظر إلى المدينة بوصفها مجرد جزء ملحق

بالقالب العسكرى ، أى إنها بمثابة الحيز الذى ترك « شاغراً » : وليوناردو دافنشى ، مثله مثل بالاديو ، عالج فى مذكراته موضوع المدينة ذاتها ، واقترح عزل الطرق الخاصة بالسائرين على الأقدام عن الطرق التى تشتد فيها حركة المرور ، ومضى فى بحثه إلى حد أنه استحث دوق ميلان على إقامة منازل للعمال على نطاق واسع وفقاً لنمط قياسى موحد . ولكن على الرغم من هذه المقترحات الحافلة فإن الخدمات التى أسداها لفن إنشاء المدن ظلت ضئيلة وعرضية بالقياس إلى ما بذله من جهود خارقة للمألوف فى سبيل رفع مستوى فن التحصين والهجوم . ومن اليسير أن نرى أين كانت توجد فى آن واحد الفرصة والطاقة الخلاقة .

وفى النهاية بلغت الحركة الجديدة ذروتها فى أنواع التحصينات التى وضع تصميمها فى القرن السابع عشر تحت إشراف المهندس العظيم سيبستيان فوبان (Sébastien Vauban) — وقد بلغ من جسامة هذه التحصينات أن تقويض أركانها وهدمها كانا فى حاجة إلى إنشاء كتيبة جديدة فى الجيش ممن يحفرون الأنفاق ويبثون الألغام ، وهو ما قام فوبان بتنظيمه أيضاً . وعلى الرغم من أن فن التحصين اقتضى بذل تضحيات لا حدّ لها ، فإنه سرعان ما انهار بعد ما أوجد هذا الشكل النهائى ، ولقد أحدث « منظار الميدان » الجديد تحسيناً فى إحكام نيران المدفعية ، وكان من شأن زيادة سرعة تحرك الإمدادات عن طريق القنوات والطرق ، وتنظيم إدارة مسئولة عنها ، تزويد الجيش المتنقل بقوة دافعة . وفى الوقت عينه أصبحت ذات الدولة المؤلفة من أقاليم هى « المدينة » التى كان يتحتم الدفاع عنها ، وإن ما فى هذا الانحراف العسكرى من تبديد للوقت والجهد والمال ، ظل بلا مثيل إلى حين القيام بالبحوث الحمقاء الخاصة بتطور القنبلة الذرية والصواريخ فى عهدنا الحاضر .

٦ — الحرب ودورها فى إنشاء المدن

أفضى تقدم فن التحصين إلى تحويل الاهتمام فى البناء من فن العمارة إلى فن الهندسة ، من التصميم المتسم بالصفات الجمالية إلى التقديرات المادية للوزن والعدد والموقع ، وكان ذلك تمهيداً لما هو أوسع نطاقاً من تقنيات المكنات : ولكن ذلك التقدم أحدث تغيراً على وجه الخصوص فى صورة العمران الحضرى بالانتقال من العالم الضيق النطاق لمدينة العصور الوسطى بأبعادها التى يمكن قطعها على الأقدام ، ومناظرها المغلقة ، وحيزها المكون من بقاع غير منتظمة إلى عالم الأساليب السياسية الباروكية الواسع النطاق ، بما فيه من مدافع بعيدة المدى ، ووسائل النقل ذات العجلات ، والرغبة المتزايدة فى غزو الأماكن الفضاء وفى جعل الناحية الأخرى من العالم تحس بوجوده .

وطبقاً للنمط القديم فى العصور الوسطى ، كان نمو المدينة أفقياً ، وكانت التحصينات عمودية ، وأما فى النظام الباروكى فإن المدينة — نظراً إلى أنها كانت محصورة بين تحصيناتها — لم يكن فى وسعها أن تنمو إلا عمودياً فى مساكن مرتفعة ، بعد شغل حدائقها الخلفية ، وإنما الحصون وحدها هى التى ظلت مستمرة فى الامتداد ، ولا سيما بعد ما تبينه المهندسون العسكريون من تجارب قليلة من أن نار المدافع ذات القذائف غير المتفجرة يمكن مقاومتها على وجه أفضل ، ليس بالحجر أو الآجر ، وإنما بمادة لينة مثل التراب ، ومن ثم فإنه كان للتحصينات الخارجية شأن أكبر من المتاريس والأبراج والخنادق التقليدية : وعلى حين أنه فى تحصينات أوائل العهد الباروكى كانت المسافة بين أسفل الجانب الحجرى المنحدر للاستحكامات والطرف الخارجى للمنحدر الترابى الواقع أمامها تبلغ ٢٦٠ قدماً ، فإن هذه المسافة بلغت ٧٠٢ من الأقدام فى الحصن المثالى الذى شيده فوبان فى نوف — بريزاش (Neuf-Brisach) . وهذا المحيط الذى كان لا يمكن الانتفاع به ، لم يكن

ينطوى على إضاعة جزء ثمين من أرض المدينة فحسب ، بل إنه كان يؤلف عقبة مكانية تحول دون سهولة الوصول إلى خلاء الريف لاستنشاق الهواء النقى . وهكذا فإن الامتداد الأفقى على هذا النحو كان تعبيراً أساسياً عما اتصف به النظام بأكمله من التبديد وعدم الاكتراث بشئون الصحة .

وقد نشأ شطر كبير من الأساليب الجديدة للحياة عن حافز إلى التدمير ، وكان تدميراً بعيد المدى ؛ فلقد تحالف الورع المسيحى مع الجشع الرأسمالى التطويح بالفاتحين الجدد إلى ما وراء البحار لنهب الهند والمكسيك وبيرو ، على حين أن النوع الجديد من التحصين ، والنوع الجديد من الجيش ، والنوع الجديد من دور التشغيل الصناعية — وقد تمثلت على أحسن وجه فى دور الصناعات البحرية الفسيحة ومصانع الأسلحة الهائلة — تآمرت جميعاً على قلب أوضاع المدينة المحصنة من حيث أساليبها التعاونية نسبياً ، وعلى تحطيم معاييرها الأساسية . فقد حل الاستغلال الذى لا يعرف هوادة ولا رحمة محل الحماية والوقاية ، وذلك أن الناس بدلا من أن ينشدوا الأمان أخذوا يسعون وراء مغامرات التوسع والفتح ، وكانت الطبقات الكادحة فى أرض الوطن تحت رحمة أسلوب من الحكم لا يقل عسفاً وخلواً من الشفقة عن ذلك الذى سحق المدنيات المتخلفة فى أمريكا الشمالية والجنوبية .

ولقد عجلت الحرب بكل هذه التغيرات ، إذ أنها كانت قدوة لكل نظام آخر ، فالجيوش القائمة الجديدة — بضخامتها وقوتها وما كانت تبعثه من رعب لم يكن ليقل فى زمن السلم عنه فى زمن الحرب — غيرت طبيعة الحرب ذاتها من حدث يقع بين حين وآخر إلى نشاط مستمر . وقد أفضت الحاجة إلى الباهظ الكلفة من أسباب القوة فى الحرب ، إلى وضع المدن فى قبضة أوليجاركيات من المرابين الذين كانوا يتولون تمويل مشروعات الحاكم السياسية الشريرة ، ويعيشون فى ترف مما كانوا يحصلون عليه من الأرباح والغنائم . ولذلك كانوا يعملون على تعزيز مراكزهم بمساندة الحكم المطلق

الذى أعقب ذلك . وفى حالة وقوع أزمة اقتصادية ، كان يتسنى عند ظهور أولى نذر الثورة استخدام بنادق الجنود المأجورين ضد الرعايا التاعسين . وقد تخلص الإنجليز — شأنهم شأن الهولنديين — من أسلوب الحكم الباروكى قبل البلاد الأخرى بفضل قيامهم بالثورة فى وجه حاكمهم المستبد .

ولقد كان جندى العصور الوسطى مرغماً على أن يشرك فى قوته الصانع والتاجر والقسيس ، وأما الآن فى ظل الأحوال السياسية فى الدول ذات الحكم المطلق ، فإن كل قانون قد أصبح فى الواقع قانوناً عسكرياً ، وكل من تسنى له تمويل الجيش ودار الصناعة الحربية كان فى وسعه أن يصبح سيداً للمدينة . ولقد سهل الرمى بالرصاص فن إدارة الحكم ؛ إذ أنه كان وسيلة سريعة لإنهاء أى مناقشة تسبب حرجاً . وبدلا من قبول الحلول الوسط العادية التى من شأنها أن تكفل التعبير السليم عن ألوان متنوعة من الميول والصوالح والمعتقدات ، فإن الطبقات الحاكمة كانت فى غنى عن أمثال هذه الأساليب التى كان قوامها الأخذ والعطاء ؛ وذلك لأن مفهومها كان لايعترف إلا « بالأخذ » دون سواه .

ولقد عاون وجود البندقية والمدفع والجيش القائم ، على ظهور سلالة من الحكام كانوا لا يعترفون بأى قانون سوى قانون إرادتهم وأهوائهم الذاتية . ولقد رفعت تلك السلالة الرفيعة من الطغاة — وكانوا تارة من الأغبياء ، وتارة من ذوى المواهب — رفعت الظنون والأوهام التى تلازم جنون الهذاء إلى مرتبة طقوس للإخضاع والإكراه ، وإن من يقومون اليوم بتقليدهم من الحكام المطلقى التصرف وأشباههم ، ويساورهم ما لا يقل عن ذلك من الأوهام ، وتتوافر لديهم مقدرة أعظم على التدمير ، ليهددون الآن كيان الجنس البشرى ذاته .

ولقد هيأ تغيير فن الحرب للحكام القوميين ميزة كبيرة على الاتحادات والجماعات الحقيقية التى يتألف منها أى مجتمع ، وكان لذلك من الأثر

أكبر مما كان لأى عامل من العوامل بمفرده فى تغيير تكوين المدينة ، فقد أصبحت القوة مرادفة لعدد السكان ، ولقد لاحظ بوتيرو (Botero) أنه « يقال إن عظمة المدينة لا تقاس باتساع موقعها ولا محيط أسوارها ، بل بكثرة سكانها وعددهم وما لديهم من قوة » . ولما كان الجيش يجند لممارسة الحرب باستمرار فإنه أصبح عاملا جديداً فى الدولة وفى حياة المدينة العاصمة . وفى باريس وبرلين وغيرهما من المراكز التى كانت تقل عنهما ، تطلبت هذه الجيوش القائمة إنشاء أنواع خاصة من المساكن نظرا إلى أنه لم يكن يتسنى إيواء الجنود لدى السكان بصفة مستديمة دون إثارة روح التذمر :

وإن ثكنات الجيش ليكاد يكون لها فى النظام الباروكى المكانة عينها التى كانت للدير فى نظام العصور الوسطى ، وساحات التدريب — مثل ساحة شان دى مارس (Champs de Mars) الجديدة فى باريس — كانت بارزة فى المدن الجديدة بروز الإله مارس نفسه فى فن التصوير فى عهد النهضة . وقد أصبح خروج الحرس بالسلاح لتأدية التحية ، وتدريب الجنود ، واستعراض الجيش ، أصبح كل ذلك من المشاهد الجماعية العظيمة لدى سكان كانوا يزدادون باطراد ذلة وخضوعاً ، فدوىّ الأبواق والطبول كان الصوت المميز لهذا الدور فى الحياة الحضرية على نحو ما كان رنين الأجراس الصوت المميز لمدينة العصور الوسطى ، وتخطيط طرق النصر العظيمة (Viae Triamphales) — وهى شوارع فسيحة كان يتسنى لموكب جيش ظافر أن يسير فيها محدثاً أقصى التأثير فى نفس المشاهدين — كان خطوة لا مفر منها فى إعادة تخطيط العواصم الجديدة ، ولا سيما فى باريس وبرلين . ومن كلتا الناحيتين الرمزية والعملية ، أثبت التخطيط أنه قد « تم القبض على ناصية الحال » فى جميع الأمور :

وإن ما ينطبق على الثكنات وساحات التدريب — وكانت تشغل

مواقع فسيحة جدا فى العواصم الكبرى – ينطبق كذلك على دور الصناعة الحربية ، ففى القرن السادس عشر أقيم عدد خارق للعادة من هذه المبانى ، وعندما حل عام ١٥٤٠ كان فرنسيس الأول قد شيد إحدى عشرة داراً للصناعة الحربية وللمخازن ، وقد كان ذلك يجرى فى جميع العواصم الأخرى بمعدل يزيد على ذلك أو يقل عنه . وكما أوضح سومبرت (Sombart) فإن الجنود ليسوا سوى مستهلكين بقدر ماهم سلبيون فى إنتاجهم ، حتى حين يشتركون فى القتال . وكان ما يتطلبونه من أماكن لسكناهم يقترن بما يتناسب مع ذلك من احتياجات إلى الغذاء والشراب والملبس ، ومن ثم نشأت حول أحياء الثكنات صفوف الحوانيت والحانات وجيش من الحائكين : والواقع أنه نشأ جيش قائم آخر من أصحاب الحوانيت والحائكين وأصحاب المشارب والمقاهى والعاهرات – ولعل الحالة التى كان عليها أشدهم بؤساً تعزى إلى تأثير المعارك الحربية التى توالت بلا نهاية وهزت أركان أوروبا وبلغت حدها الأقصى فى القرن الثامن عشر (انظر الموجز الإحصائى القدير الذى أعده بيتريم سوروكن (Pitirim Sorokin) فى مؤلفه « العوامل الدينامية الاجتماعية والثقافية » .

ولنحذر التهوين من شأن وجود حامية عسكرية بوصفها عاملا فى بناء المدينة ، فما الجيش القائم إلا هيئة من المستهلكين ذات حاجات واسعة النطاق ، وفى سنة ١٧٤٠ كان عدد السكان العسكريين فى برلين يبلغ حوالى ٢١٫٣٠٩ من بين مجموع كلى للسكان يبلغ حوالى ٩٠٫٠٠٠ نسمة ، أى الربع تقريباً . ولابد من أن وجود هذا الحشد من المخلوقات البشرية التى حولت إلى آلات وروضت على الطاعة كان له تأثير يمس كل مظهر آخر من مظاهر الحياة ، فقد هيأ نظام الجيش نموذجا لألوان أخرى من الإكراه السياسى ؛ وذلك أن الناس أخذوا يألفون تقبل ما كان يصدر من جاويش التدريب من أوامر صاخبة وما كان يبدو من

أفراد الطبقات العليا من مسلك فظ متعال . ولقد عمد أساطين الصناعة الجدد إلى محاكاتهم فكانوا يتولون إدارة مصانعهم على غرار الطغاة المطلق السلطان . ويروى هتون (Hutton) فى مؤلفه عن تاريخ مدينة برمنجهام كيف أن النبيل سيد الضيعة « فى سنة ١٧٢٨ ... وضع يده على مبنى عام يعرف باسم دار الجلود وحوّله إلى منفعته الخاصة . . . ولقد دعا ضابط الشرطة السكان لإثبات حقوقهم ، ولكن أحداً منهم لم يحضر ، فابتسم اللورد ساخرا من نكوصهم واحتفظ بالمبنى » . فتحت الطلاء السطحى لآداب الطبقة العليا الباروكية كان يكمن على الدوام جور لنظام تعسفى بشع ، وقد تغلغلت هاتان الصفتان فى كل نواحى الحياة الباروكية حتى فى ترفها ومجونها .

٧ — ايديولوجية القوة

كان سلاحا النظام الجديد هما الجيش والأداة الحكومية ، فهما الدعامتان الزمنية والروحية لكل نظام مركزى مستبد . وكان كلا العاملين يدينان بقدر غير يسير من نفوذهما إلى سلطة أكبر وأوسع انتشارا وهى سلطة الصناعة والمالية الرأسماليتين ، ويجب أن نذكر مع ماكس ويبر أن إدارة شئون الضرائب على وجه معقول كانت مما حققته المدن الإيطالية فى العصر التالى لفقدها حريتها ، فإن الأوليجاركيات الإيطالية الجديدة كانت أول قوة سياسية نظمت شئونها المالية وفقاً لمبادئ المحاسبة التجارية ، وسرعان ما أصبحت كل عاصمة أوروبية تستخدم الإيطاليين الخبراء فى شئون الضرائب والإدارة المالية .

وقد كان من جراء الانتقال من نظام الاقتصاد القائم على السلع إلى نظام الاقتصاد القائم على العملة ، اتساع نطاق موارد الدولة اتساعا عظيما . وقد كان احتكار الإيجار وأسلاب القرصنة وقطع الطرق ، وغنائم الفتوح ،

واحتكار امتيازات خاصة فى الإنتاج ، وفى البيع عن طريق تراخيص صادرة من الحكومة ، وتطبيق هذا النظام الأخير على المخترعات التقنية — كانت كل هذه الموارد تزيد خزائن الملك امتلاء . وكان معنى زيادة امتداد حدود الدولة زيادة عدد السكان الذين تفرض عليهم الضرائب ، وكان معنى زيادة عدد السكان فى المدينة العاصمة زيادة إيجار الأرض ، وكلا النوعين من الزيادة كان يتسنى الإعراب عنه فى النهاية بما يدره من المال على الخزانة المركزية للدولة . ولم يقف الأمر بالحكومات الملكية عند مجرد أنها أصبحت رأسمالية فى تصرفاتها بإنشائها صناعات خاصة بها للأسلحة والصينى والقماش المزركش ، بل إنها اتخذت من فكرة تحقيق « ميزان تجارى فى صالحها » ، وسيلة لتخلق نظاما للاستغلال تحصل بموجبه كل دولة ذات سيادة ، عن طريق التبادل ، على ما يزيد بمعيار الذهب عما كانت تعطيه ، وهو نموذج مثالى للنظام الاقتصادى الاستعمارى .

وأصبحت الرأسمالية بدورها عسكرية النزعة ؛ فقد كانت تعتمد على أسلحة الدولة عند ما كان يصبح متعذرا عليها أن تفيد من المساومة بدونها ، وتلك هى أسس الاستعمار والاستغلال الاستعمارى . وفوق كل شىء فإن نمو النظام الرأسمالى بث فى كل ناحية عادات دنيوية من حيث التفكير وتقدير الأمور تقديراً واقعياً ، وكانت هذه هى خيوط السداة المحكمة ، المنظمة ، ذات الكفاية السطحية التى نسجت عليها نماذج الحياة الباروكية المشرقة المعقدة . ولقد تولت الطبقات الجديدة من التجار والمصرفين دعم الأسلوب ، والنظام ، والمنهج الرتيب ، والسلطة ، والقدرة على التنقل ، وكلها عادات كان من شأنها أن تزيد التحكم العملى الفعال ، بل إن يعقوب فوجر الأكبر جهز نفسه بمعدات كاملة للسفر صنعت له طبقاً لتصميم خاص ، وكانت تشتمل على معدات وافية للأكل فى حيز محكم دقيق الترتيب ، أى إنه لم يترك شيئاً تحت رحمة الظروف .

وأصبح القالب الموحد لسك العملة فى الدور القومية للسكة رمزاً لهذه الصفات التى أخذ يتسم بها النظام الجديد . ولقد اكتسبت فلورنسا شهرة دولية ومكانة تجارية خاصة بسك عملتها من الفلورين الذهبى على نسق منتظم من حيث الأمانة فى الوزن . وبعض الاتجاهات التى احتلت فيما بعد مكانا أرفع ، ومجالا أوسع ، فى محيط علم الطبيعة ، تكشفت لأول مرة بين جدران دور الأعمال ، وذلك أن اهتمام التاجر بالإلمام بالرياضيات والقراءة والكتابة — وقد كان كلاهما أمراً لا بد منه للتجارة مع جهات نائية عن طريق وكلاء يعملون طبقاً لتعليمات مكتوبة — ذلك أن هذا الاهتمام أصبح العنصر الأساسى فى التعليم الحديث فى المدارس الثانوية . ولم يكن من قبيل المصادفة أن نيوتن عالم الطبيعة غدا رئيساً لدار سك العملة ، ولا أن تجار لندن عاونوا على إنشاء الجمعية الملكية وكانوا يتولون أمر القيام بتجارب فى علوم الطبيعة . والواقع أن هـذه الأنظمة الآلية كانت قابلة للتبادل .

وقد استتبعت المصالح المباشرة للرأسمالية الجديدة ، بما كانت تتسم به من حب خالص للمال والسلطة ، حدوث تغيير فى محيط التفكير بأكمله ، وظهرت فى الطليعة فكرة جديدة عن الاتساع ، فقد كان من أكبر الانتصارات التى حققها الفكر الباروكى ، تنظيم الاتساع وإكسابه صفة الاستمرار ، وإخضاعه للقياس والنظام ، وبسط حدوده بحيث تشمل ما هو متناه فى البعد وبالغ فى دقة الحجم ، وفى النهاية الربط بين الاتساع والحركة والزمن .

ولقد تم الإعراب بوضوح عن هذه التغييرات لأول مرة على أيدى المصورين والمعماريين ومصورى المناظر ، وكان فى طليعتهم ألبرتى وبرونيليسكى (Brunelleschi) وأوشيلو (Uccello) وسيرليو (Serlio) . وإذا كان قد توافر لدى الفلمنكيين الواقعيين إدراك صحيح للاتساع بحكم

ممارستهم عملهم وسط صناعات الغزل المتقدمة ، فإن الإيطاليين هم الذين قاموا فى القرن الخامس عشر بتنظيم الاتساع على قواعد رياضية فى داخل نطاق مستويين ، وهما مستوى الأمامية ومستوى الأفق . ولم يقتصروا على الربط بين المسافة وقوة اللون وحالة الضوء ، بل ربطوا بينها وبين حركة الأجسام فى البعد الثالث المبين فى الصورة . وهذا الجمع بين خطوط وأجسام صلبة (لم تكن بينها صلة حتى ذلك الوقت) فى داخل الإطار الباروكى المستطيل — وهو ما يميز التصوير الباروكى عن تصوير العصور الوسطى بحدوده غير المنتظمة فى أغلب الأحيان — كان معاصرا للتوحيد السياسى للأقاليم فى داخل الإطار المتماسك للدولة . بيد أن التطور نحو الخط المستقيم وخط المبانى المنتظم ، بوصف ذلك وسيلة للتعبير عن الحركة المنتظمة ، استغرق مدة قرن من الزمان على الأقل قبل أن تبنى فعلا واجهات على طول شوارع عريضة تبدو للعين أنها بلا نهاية .

وكذلك فإن دراسة المنظور قضت على المناظر المحدودة الضيقة النطاق ، وأطالت المسافة فى اتجاه الأفق ، وركزت الاهتمام فى المستويات الخلفية . وقد حدث ذلك زمناً طويلا قبل إزالة السور ، بوصفه عنصرا من عناصر تخطيط المدينة . وكان هذا تمهيداً جماليا لمقدم الشوارع العريضة العظيمة التى جاء بها التخطيط الباروكى ، وكان أقصى ما يوجد بها مسلة ، أو قوس ، أو مبنى منفرد تنتهى إليه وتلتقى عنده مسارات خطوط الكرانيش والطوارات ، ولقد كان المصور أول من كشف عن المسالك الطويلة والمناظر الممتدة إلى ما يبدو كأنه اتساع غير محدود — وهى الأمارات النمطية للتخطيط الباروكى . والمسالك فى ذاتها أخطر شأناً من الهدف الذى يراد بلوغه ؛ إذ أن أمامية قصر فارنيزى تسترعى من الانتباه أكثر مما تسترعيه الواجهة الخالية من الجمال القائمة على قمة التل : وإن النافذة الجديدة من طراز عصر النهضة لهى قطعا إطار لصورة ؛ والتصوير فى عصر

النهضة عبارة عن نافذة وهمية تجعل الإنسان فى المدينة يتناسى وجود ذلك الفناء الكئيب الذى قد تكشف عنه فتحة فعلية .

وإذا كان المصورون المبكرون قد أثبتوا — بنظام الإحداثيات الذى كانوا يتبعونه — صحة الرياضيات الديكارتية قبل ظهور ديكارت ، فإن التقدير العام للزمن أصبح كذلك أكثر خضوعاً للقواعد الرياضية ، ولذلك انتشرت الساعة المنزلية فى دور أفراد الطبقة الراقية منذ القرن السادس عشر . بيد أنه إذا كان الاتساع الباروكى يبعث على السرعة فى الحركة والسفر والفتوحات — وآية ذلك العربات الباكرة التى كانت تسير بقوة الشراع ، أو بمحركات تدفعها الأقدام ، وما تلاها من ألعاب « النزهات الجوية » و « الانزلاق فى قارب على منحدر خشبى إلى بركة ضحلة » — فإن الزمان الباروكى كان يفتقر إلى الأبعاد ، فقد كان متواصل الاستمرار من لحظة إلى أخرى . ولم يعد الزمان ينظر إليه على أنه المدة المتصلة المتجمعة ، بل على أنه كمام من الثوانى والدقائق ، أى إنه لم يعد يشمل حياة بأكملها . وقد كان المظهر الاجتماعى للزمان فى العصر الباروكى يتمثل فى الزى الشائع (الموضة) الذى يتغير كل سنة ، وابتدعت خطيئة جديدة فى عالم الأزياء الشائعة (الموضة) وهى أن يكون الشيء متخلفاً عن زمنه . وكانت الأداة العملية لذلك هى الصحف اليومية ، وكانت تتناول من يوم إلى يوم حوادث متفرقة بلا رابطة منطقية بينها ، فهى لم تكن تنطوى على أى صلة فيما بينها سوى وقوعها فى وقت واحد . وإذا كان تكرار النماذج فى الترتيب المكانى يكتسب معنى جديداً ، كالأعمدة على واجهات المبانى ، وصفوف الرجال فى حفلات العرض ، فإن الاهتمام من حيث الزمان كان بالجديد الذى لا يتكرر . وأما من حيث عبادة الماضى التى تمثلت فى العناية بالآثار ، فمن الواضح أنها لم تكن استعادة للتاريخ بل إنكاراً له ؛ إذ أن التاريخ الحقيقى لا تتسنى استعادته إلا باتخاذه وضعاً جديداً فى حياة جديدة .

والمال بوصفه مجرد رمز ثم المنظور المكانى والزمن الآلى ، كل أولئك زود الحياة الجديدة بإطارها الشامل . وأخذ يزداد باطراد قصر مجال التجارب على مجرد العناصر التى كان من الميسور فصلها عن المجموع الكلى وقياس كل منها على حدة ، فقد حلت المعايير التقليدية مكان الكائنات الحية ، إذ كان الشيء الحقيقى هو ذلك الجزء من التجارب الذى لا يخلف رواسب غامضة ، وكل شيء لم يكن يتسنى التعبير عنه على نحو محسوس تراه العين وعلى نمط آلى ، فإنه لم يكن يستحق عناء التعبير . وإليك الأوضاع الجديدة : ففى الفن ، المنظور والتشريح ، وفى الأخلاق ، فتاوى الجزويت الرتيبة ، وفى العمارة ، التماثل المحورى والتكرار الظاهرى ، والنسب الثابتة للطرز الخمسة (Five Orders) ، وفى بناء المدن ، التخطيط الهندسى البالغ الدقة .

ولا تسيئوا فهمى ، فإن عصر التحليل المجرد كان عصر تنقية فكرية باهرة . والطريقة الجديدة ، طريقة تناول الأجزاء القابلة للتحليل رياضياً بدلا من تناول كليات برمتها ، أوجدت أول وسيلة جماعية مفهومة للوصول إلى تلك الكليات ، وهى أداة نظامية لها من الفائدة ما لقيد الحسابات التجارية قيداً مزدوجاً . ففى العلوم الطبيعية أفضت طريقة التحليل المجرد إلى الكشف عن وحدات أمكن فحصها على وجه السرعة والدقة « لسبب واحد » وهو أنها كانت مبتورة جزئية وغير مكتملة . والمكسب الذى تحقق فى القدرة على التفكير المنهجى وفى التنبؤ الدقيق بأحداث طبيعية وجد ما يسوغه فى القرن التاسع عشر فى سلسلة من خطوات التقدم الجبارة التى خطتها الفنون الصناعية .

بيد أنه فى المجتمع ، كان لعادة التفكير بواسطة المجردات عواقب وخيمة ، فإن النظام الجديد الذى استقر فى العلوم الطبيعية كان أضيق نطاقاً من أن يسمح بوصف الحقائق الاجتماعية أو تفسيرها . وإلى القرن التاسع عشر لم يكن حتى للتقدم المشروع فى نواحى التحليل الإحصائى إلا دور يسير فى

اتجاه التفكير الاجتماعى ، فإن رجالا ونساء ذوى كيان حقيقى ، ومدنا وبلديات ذات كيان حقيقى ، اعتبرت فى نظر القانون ونظام الحكم كما لوكانت عناصر خيالية ، على حين أن ذرائع العمل المصطنعة ، مثل الحق الإلهى ، والحكم المطلق ، والدولة ، والسيادة ، اعتبرت كما لوكانت حقائق ثابتة . وبعد التحرر من إحساس التبعية والاعتماد على البلدية ومنطقة الجوار ، غشى « الفرد المحرر » إحساس بأنه لم تعد له روابط تربطه بأحد ولا بمكان ، وكأنه أصبح ذرة من القوة تسعى بلا هوادة وراء كل ما تستطيع القوة السيطرة عليه . وقد صاحب السعى وراء القوة المالية والسياسية اختفاء كل فكرة عن وجود حدود — حدود للأرقام ، وحدود للثروة ، وحدود لزيادة السكان ، وحدود لاتساع المدن — بل على النقيض من ذلك سيطرت على الناس فكرة التوسع الكمى ، فلم يعد ممكناً وضع حد لما قد يبلغه التاجر من الثراء ، أو قد تمتلكه الدولة من الأقاليم ، أو قد تصل إليه المدينة من التوسع ، وذلك أن التوسع أصبح صنو النجاح فى الحياة ، وما زالت هذه الخرافة محتفظة بمكانتها متمثلة فى فكرة التوسع الاقتصادى إلى غير حد .

وقد كان بوتيرو معاصراً لهذا التطور ، ولاحظ ما انطوى عليه فقال : « إن مؤسسى المدن — وقد وضعوا فى اعتبارهم أن القوانين والأنظمة المدنية لا يمكن الاحتفاظ بها وصيانتها بسهولة حيث تحتشد جموع كثيفة من الناس (لأن الجموع تولّد وتسبب الاضطراب) — عمدوا إلى وقف عدد المواطنين عند الحد الذى قدروا أنه فى حالة مجاوزته لا يتسنى الإبقاء على شكل ونظام الحكم الذى كانوا ينشدون إقامته فى مدنهم . بيد أن الرومان — وقد حسبوا أن القوة (التى لا يمكن بدونها الاحتفاظ طويلا بمدينة ما) يتألف أغلبها من احتشاد جموع الناس — حاولوا بكل ما فى وسعهم من الطرق والوسائل أن يجعلوا بلادهم عظيمة » . وإن هـــذه العبارات لتفصح عن كل شىء :

وفي الرغبة للحصول على المزيد من الرعايا ، أى المزيد من الرجال الذين يلقى بهم فى أتون الحرب ، والمزيد من الرجال الذين يؤدون الضرائب ويدفعون الإيجارات — اتفقت رغبات الأمير ورغبات الرأسماليين الذين كانوا يبحثون عن أسواق أكبر اتساعا وأكثر تركيزا وتعج بالمشترين الذين لا تنفد لهم حاجة ، فالأساليب السياسية التى تنشد القوة ، والنظم الاقتصادية التى تستهدف القوة ، كانت تساند بعضها بعضا ، ومن ثم اتسعت المدن ، وتضاعف المستهلكون ، وارتفعت الإيجارات ، وازدادت الضرائب ، ولم تحدث نتيجة من هذه النتائج مصادفة واتفاقاً .

فالقانون والنظام والتجانس كانت جميعها إذن منتجات خاصة للعاصمة الباروكية ، بيد أن القانون لم يوجد إلا لتثبيت الأوضاع ودعم مركز الطبقات الممتازة ، وكان النظام نظاماً آليا لا يستند إلى صلة الدم أو الجوار أو الأغراض والميول المماثلة ، بل إلى الخضوع للأمير . وأما التجانس فإنه كان عبارة عن تجانس موظفى الحكومة ، بطاقاتهم (Pigeonholes) التى يرتبون أوراقهم فيها ، وملفاتهم وإجراءاتهم المعقدة ، وأساليبهم العديدة لتنظيم وترتيب جمع الضرائب . وقد كان الجيش هو أداة تنفيذ هذا الطراز من الحياة ، وكانت السياسة التجارية الرأسمالية هى سلاحه الاقتصادى ، وكانت أكثر أنظمته دلالة عليه هى الجيش القائم ، وسوق الأوراق المالية ، والبيروقراطية ، والبلاط .

وهكذا فإن حكام العهد الباروكى ، أرجعوا جميع الأنظمة الأصلية للتجمع الحضرى ، بل إنهم فى بعض الأحوال أعادوا الجمع بين السلطات الدينية والدنيوية فى دولة يقوم على رأس كنيستها ملك أسند إليه منصبه بإرادة سماوية . والآن أصبح الإله القديم للمدينة إلهاً قومياً ، كما أن الأسوار القديمة للمدينة غدت « الحدود القومية » ، ولقد جدد ذلك الإله مطالبه الأصلية من القرابين والفداء بالدم البشرى ، وكان « الملك الشمس» أدنى ما سمحت به التعاليم المسيحية إلى أن يكون حقيقة إله الشمس :

٨ — الحركة والشارع العريض

لما كنت أتناول بالبحث عصر التجريد فإنني أعتزم اتباع منهجه ، ولذلك فإني أتناول الجزء قبل أن أناقش الكل ، فأبدأ أولا بالشارع العريض ، ثم بالأنظمة والمباني كلا على حدة ، وبعدها فقط سأتناول المدينة بوصفها وحدة جمالية ، إن لم تكن وحدة اجتماعية كاملة .

إن الشارع العريض هو أهم رمز للمدينة الباروكية ؛ وهو الحقيقة الرئيسية فيها ؛ إذ لم يكن من الميسور دائماً وضع تصميم لمدينة جديدة بأكملها طبقا للطراز الباروكي ، بيد أنه عند تخطيط بضعة شوارع جديدة عريضة ، أو عند إنشاء حي جديد ، كان يتسنى إعادة تحديد طابع المدينة . ولقد كان لحركة وسائل النقل ذات العجلات ، دور خطير في تطور تخطيط المدينة من حيث أطوال الشوارع واستقامتها . وقد كان تقسيم الأرض الفضاء تقسيما هندسياً عاما — وهو ما يتميز به هذا العهد بنوع خاص — كان خليقا بأن يكون عديم الفائدة بالكلية لو لم يؤد إلى تسهيل حركة المرور والنقل ، في الوقت عينه الذى كان فيه مظهرا معبراً عن روح الحياة السائدة ، ولم يصبح استخدام عربات النقل — صغيرها وكبيرها — أكثر انتشارا بوجه عام في داخل المدن إلا في القرن السادس عشر ، وكان ذلك إلى حد ما نتيجة للتحسينات التقنية التي استبدلت بالعجلة المصمتة العتيقة الطراز ، عجلة مصنوعة من أجزاء منفصلة — وهي الصرة والطوق والبرامق — وأضافت عجلة خامسة لتسهيل حركة الدوران ؛

ولقد صادف استخدام وسائل النقل ذات العجلات من المقاومة ما يماثل تماما المقاومة التي صادفها تسيير قطارات السكك الحديدية بعد ذلك بثلاثة قرون . ومن الواضح أن شوارع المدينة في العصور الوسطى لم تكن ملائمة لمثل هذا النوع من حركة المرور ، سواء من حيث الحجم

أم اتصال بعضها ببعض . ويروى لنا توماس أنه فى إنجلترا قدم الناس احتجاجات شديدة ، وأكدوا أنه إذا سمح لعربات نقل الخمور بالمرور فى الشوارع ، فإنه لن تتسنى المحافظة على رصفها ، على حين أنه فى فرنسا التمس البرلمان من الملك فى سنة ١٥٦٣ أن يحظر مرور عربات النقل فى شوارع باريس – بل إن هذا الدافع بعينه ظهر مرة أخرى فى القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من ذلك فإن الروح الجديدة فى المجتمع كانت فى صف وسائل النقل السريعة ، فإن سرعة الحركة وغزو الأماكن الفضاء والرغبة المحمومة « للوصول إلى مكان ما » كانت مظاهر تعبر عن الرغبة السائدة فى الوصول إلى السلطة ، فقد كان « العالم يجرى على عجل » – كما لاحظ ستو عندما شاعت هذه « الموضة » واستبدت بألباب الناس فى إنجلترا . فالكتلة ، والسرعة ، والزمن ، كانت من مراتب الجهود الاجتماعية قبل أن يضع نيوتن قانونه بزمن طويل .

ولم يكن التحرك فى اتجاه مستقيم على طول شارع عريض مدعاة للاقتصاد فحسب ، بل كان مبعثاً لسرور خاص ، فإنه حمل إلى المدينة ما فى الحركة السريعة من أسباب الانتعاش والابتهاج التى لم تكن معروفة إلى ذلك الحين سوى لدى الفارس حين يعدو على ظهر جواده فى الحقول أو الغابات . وقد كان من الميسور زيادة هذه البهجة من الناحية الجمالية عن طريق الوضع الرتيب للمبانى بواجهاتها المنتظمة و« كرانيشها » المستوية ، وكانت خطوطها الأفقية تتجه نحو عين نقطة الانتهاء التى كانت العربة ذاتها تسرع نحوها . وفى السير على القدمين تنشد العين تنوع المناظر ، وأما فى حالة ما يجاوز ذلك من سرعة السير ، فإن من شأن الحركة تكرار ما يُرى من الوحدات ، وعلى هذا النحو فقط تتسنى استعادة وتجميع كل جزء بمفرده فى أثناء مروره الخاطف . ومن ثم فإن ما يعتبر تكراراً على وتيرة واحدة إذا كان فى وضع

ثابت ، أو حتى فى موكب ، يصبح ضرورة لا بد منها للتعادل مع سرعة خيول تنهب الأرض نهباً .

وإنى — فى إبراز مقتضيات حركة المرور لوسائل النقل ذات العجلات ، وهو ما أصبح ضرورة ملحة فى القرن السابع عشر — لا أود إغفال حاجة ذات صفة خاصة أفصحت عن نفسها حتى فى عهد سابق ، وهى الحاجة إلى شوارع عريضة من أجل التحركات العسكرية . وإنى لأستشهد بألبرتى من جديد ، فقد فرق بين الشوارع الرئيسية والشوارع الفرعية ، وأطلق على الأولى — وللاسم أهميته — : (Viae militares) أى الشوارع العسكرية ؛ وقد حتم أن تكون هذه الشوارع مستقيمة . وإن أى شخص تولى قيادة فصيلة من الجنود فى أثناء اجتياز مدينة غير منتظمة التخطيط ليدرك مدى صعوبة قيادتهم وهم يسيرون بنظام عسكرى ويخترقون منحنياتها وتعرجاتها ، وبخاصة عندما تكون الشوارع ذاتها غير مستوية ، فلا مناص إذ ذاك من أن يتخلف بعض الأفراد عن صفوفهم ، ومن أن يتسم مظهر الفصيلة بالاضطراب . ولكى يتحقق أقصى مظهر من النظام والقوة فى أثناء العرض ، لا بد من أن يهيأ لأى قوة عسكرية ميدان متسع ، أو شارع عريض طويل الامتداد :

ولقد كانت حاجات الجيش على الدوام فى خاطر الجدد من المشتغلين بتخطيط المدن ، فترى بالاديو (Palladio) يؤيد ألبرتى ؛ إذ أن بالاديو لم يكتف بملاحظته أن الطرق ستكون قصيرة وملائمة فى حالة تخطيطها فى اتجاه مستقيم ، كما أنها ستكون عريضة بحيث لا تعوق الخيول والعربات بعضها بعضاً عند ما تتلاقى ، بل إنه يقول أيضاً : « سوف تكون الطرق أوفر للراحة إذا ما روعى فى إنشائها أن تكون على نسق واحد فى كل مكان ، بمعنى أنه لا يوجد فيها موضع لا تستطيع الجيوش أن تسير فيه بسهولة » . فهذه الشوارع المتجانسة ، المبالغ فى اتساعها ، والتى كان

مقدراً لها أن تغدو نقمة شديدة الوطأة على نمو مناطق الجوار فى المدن الحديثة ، وأن تكون سبباً فى زيادة النفقات زيادة كبيرة ، قد قامت على أساس عسكرى بحت :

ومما يعادل ذلك فى دلالته تعريف بالاديو للشارع العسكرى الجديد ، فإنه فرق بينه وبين الشارع الذى ليست له صفة عسكرية ، بما بيّنه من أن الشوارع العسكرية تمر فى وسط المدينة وتؤدى من مدينة إلى أخرى ، وأن « جميع المسافرين يفيدون من استخدامها ، فهى تصلح لسير العربات وزحف الجيوش سواء بسواء » ؛ وعلى ذلك فإن بالاديو قصر بحثه على الشوارع العسكرية وحدها ، لأن الشوارع التى ليست لها صفة عسكرية ينبغى أن تنظم طبقاً للقاعدة ذاتها كالشواع العسكرية ، وكلما زاد تماثلها « كانت أكثر جدارة بالثناء » . ونظراً إلى ما كان للجيش من شأن لدى الطبقات الحاكمة ، فإنه لا عجب أن كانت حركة النقل العسكرى هى العامل الفاصل فى التخطيط الجديد للمدينة ، منذ البادرة الأولى للتغيير التى أوحى بها ألبيرتى إلى المخلفات الأخيرة الواضحة فى تخطيط هوسمان (Haussmann) لشوارع باريس العريضة .

وإن انتظام الشارع العريض لزيد من الأثر الجمالى الذى يتركه فى النفس انتظام الصفوف واستقامة خط سير الجنود ، وإن خط السير الذى لا يشوبه انحراف ليعاون على إظهار القوة ، فإن كتيبة تتحرك على هذا النحو تحمل على الاعتقاد بأنها خليقة بأن تخترق سورا متينا دون أن تحيد قيد أنملة عن نظام سيرها . وهذا ، بطبيعة الحال ، هو عين الاعتقاد الذى كان كل من الجندى والأمير يروم إلقاءه فى روع أفراد الشعب ، إذ كان يعين على خضوعهم للنظام دون الالتجاء إلى الاشتباك معهم فعلا ، وهو ما ينطوى على مجرد الاحتمال بأن يسفر عن هزيمة الجيش . وفضلا عن ذلك فإنه فى الشوارع العديدة الانتظام ، السيئة الرصف ، حيث تكثر

أحجار الرصف المخلخلة وأماكن الاختباء ، تكون للتجمعات التلقائية من أفراد غير مدربين ميزة على جماعات من الجنود المدربين ، فإن الجنود لا يستطيعون إطلاق النار على المختبئين خلف نواصى الشوارع ، كما أنه لا يتسنى لهم حماية أنفسهم من الطوب الذى ينهال من قمم المداخن القائمة فوق رءوسهم مباشرة ، فهم يحتاجون إلى مكان متسع للقيام بمناوراتهم ؛ ألم تكن شوارع باريس القديمة التى ترجع إلى العصور الوسطى من أخريات ملاذات الحريات الحضرية ؟ لا عجب أن نابليون الثالث أقر اجتياح الشوارع الضيقة والشوارع المسدودة وهدم أحياء بأكملها لإنشاء شوارع عظيمة الاتساع ؛ فقد كانت تلك أفضل وسيلة لاتقاء الهجوم من الداخل ، وذلك لأن الحكم عن طريق القهر دون رضا صادر عن عطف ومودة ، لا بد له من خلفية حضرية ملائمة .

وفى المدينة الحديثة أو فى الإضافات المنتظمة التى أدخلت على المراكز القديمة ، تؤلف المبانى خلفية الشارع العريض ، والشارع العريض فى جوهره ساحة للعرض ، أى مكان يتسنى فيه للنظارة أن يتجمعوا على الطوارات الجانبية أو فى النوافذ ، ليروا تشكيلات الجيش وتدريباته ومواكبه الظافرة ، ويستقر فى نفوسهم قدر كاف من الخوف والرهبة . وتقف المبانى على كلا الجانبين ، جامدة منتظمة ، شأنها شأن الجنود وهم وقوف فى حالة انتباه ، ويسير الجنود بزيهم الموحد فى الشارع العريض منتصبى القامة ، جامدى المظهر ، وعلى وتيرة واحدة متكررة ، وكأنهم مبنى كلاسيكى متحرك ؛ وأما المشاهد فيظل ثابتا فى مكانه ، بينما الحياة تسير أمامه دون استئذانه ودون عون منه ، وفى وسعه أن يفتح عينيه ، ولكنه إذا أراد أن يفتح فمه أو أن يغادر مكانه ، فخير له أن يلتمس الإذن بذلك أولا .

وفى مدينة العصور الوسطى كانت الطبقات العليا والطبقات الدنيا تزاحم بعضها بعضاً بالمناكب فى الشارع وفى ساحة السوق ، وكذلك فى الكاتدرائية ،

وإذا كان فى وسع الغنى أن يمتطى صهوة جواده ، فإنه كان يتعين عليه أن ينتظر الرجل الفقير المثقل بما يحمل ، أو المتسول الأعمى الذى يتلمس سبيله بعصاه حتى يخلو له الطريق . وأما الآن ، بعد التطور الذى حدث بظهور الشارع العريض ، فإن الانفصال بين الطبقات العليا والسفلى اتخذ مظهره فى المدينة ذاتها ، فقد كان الأغنياء يستقلون مركباتهم ، والفقراء يسيرون على أقدامهم ، وكانت مركبات الأغنياء تجرى بهم فى منتصف الشارع العريض العظيم الرواء ، وأما الفقراء فكانوا يبتعدون عن وسط الشارع ويلتزمون جانبه حيث تمتد المجارى ، وفى النهاية هيئت شقة خاصة للسائر العادى على قدميه وهى الطوار . وكان الأغنياء يحدقون والفقراء يفغرون أفواههم ، فالوقاحة تترعرع على التذلل .

وكان العرض اليومى الذى يقوم به الأغنياء يؤلف أحد المشاهد الرئيسية فى مسرحية حياة المدينة الباروكية ، فإن حياة سداها المظاهر المتكلفة ولحمتها الاندفاع والتألق والإنفاق ، كانت تبسط رواقها أمام مبنى الجزار وهو يحمل سلته على رأسه ، وأمام ربة الأسرة الأنيقة وهى تجول بين الحوانيت تنشد فرص الشراء بأسعار مخفضة ، والمستحدث من الأزياء ، وكذلك أمام جمهور العاطلين من الفضوليين على اختلاف مراتبهم ، من ذوى المظهر الرث بعد نعمة إلى ذوى البؤس المدقع — وهم يقابلون الأتباع فى روما فى عهد الإمبراطورية :

« احترس من العربات ! » تلك كانت صيحة مرسييه (Mercier) فى مؤلفه « صورة باريس » الذى كتبه فى القرن الثامن عشر ، فهو يقول : « هاهو ذا الطبيب بحلته السوداء قادم فى مركبته الكبيرة (chariot) ، ومعلم الرقص فى عربته ذات المظلة والعجلتين (cabriolet) ، ومعلم السلاح فى عربته الصغيرة الوثيرة (diable) — والأمير خلف جياده الستة التى تنطلق فى عدوها كما لو كانت تركض فى خلاء الريف : : . إن عجلات الأغنياء

المتغطرسين تنذر بالشر وهى تكر بأقصى سرعة فوق الأحجار المخضبة بدماء ضحاياها المنكودى الحظ : ولا يتصور القارئ أن الخطر كان مبالغاً فيه ؛ فنى فرنسا كانت مركبات السفر ، التى أدخلت إليها فى القرن السابع عشر ، تقتل سنوياً أكثر ممن كانت تقتلهم السكة الحديدية التى أعقبتها : وهذا الازدياد فى معدل سرعة الحياة ، وهذه الحركة السريعة ، وهذه المخاطر وأسباب الإثارة السطحية ، كانت العناصر النفسانية التى جعلت النظام السياسى الاستبدادى المرير ، حلو المذاق ، ففى المدينة الباروكية كان فى وسع المرء أن يقول : « إن العربات تتحرك بسرعة » على نحو ما قال الناس يوماً تبريراً للفاشية فى إيطاليا : « إن القطارات تسير فى مواعيدها » :

وفى ظل هذا النظام الاستبدادى لم توجد سوى مكانة واحدة كانت النفوس تهفو إليها ، وهى مكانة الأغنياء ، فمن أجلهم أنشئ الشارع العريض ، وأدخل التحسين على « رصف » الطرق ، وزودت العربات بالوسائد وبموانع الاهتزاز ، كما أنه من أجل حمايتهم كانت تسير مواكب الجنود : وكان اقتناء جواد ومركبة أمارة لا بد منها للدلالة على النجاح التجارى والاجتماعى ، وأما اقتناء حظيرة عامرة بالخيول فكان دليلا على وفرة الثراء : وفى القرن الثامن عشر زحفت حظائر الملك والأفراد إلى الأحياء الوضيعة فى العواصم فيما وراء الشوارع العريضة والميادين الأنيقة ، حاملة إليها نسمات من رائحة الريف ، رائحة القش والسماد : وإذا كان لم يعد يسمع فى المدينة صياح الدجاج عند بزوغ الفجر ، فإنه كان من الممكن أن يسمع من النوافذ الخلفية فى أثناء الليل أصوات حركات التململ الصادرة عن الجياد الكريمة ؛ ذلك أن الرجـــل الممتطى صهوة جواده قد امتلك زمام المدينة .

٩ — الإله الجديد

أفضى انحلال كنيسة العصور الوسطى إلى إطلاق سراح « الأيونات » وإعادة تحديد اتجاهها فى المدينة الباروكية . وفى وسع المرء أن يلم على وجه محسوس بما حدث إذا وضع فى اعتباره كيف أن كل عنصر من عناصر البناء القديم استأثرت به منظمة أو طائفة أو جماعة خاصة . وإذا تتبعنا عملية التفكك فإننا نرى أن البروتستانت استولوا على منبر الوعظ واتخذوا منه نواة لهياكلهم حيث لم توجد تماثيل تزاحم وجه الخطيب ، ولا طقوس حافلة تصرف الأذهان عن الاستماع إلى صوته الملحّ فى دعواه . وكانت الطبقة الراقية تسيطر على المصورين والمعماريين ، فنُقل الفن إلى أروقة وردهات خاصة ، ولكى تكون العملية أسهل تنفيذاً حلت الصور التى كانت تعلق مكان الصور التى كانت ترسم على الجدران ، واستبدلت بالأشكال التى كانت تمثل الملائكة والقديسين أشكال تصور إله الخمر وربات الجمال والرشاقة عند الإغريق : وفى بادىء الأمر كانت صور الوجوه الدنيوية ، صور البابوات ورجال الحاشية ورجال الأعمال تحيط بصورة السيد المسيح ، وفى النهاية حلت مكانها .

وكذلك كانت الحال فى شأن أجزاء البناء الأخرى ، فإن طائفة المنشدين ، الذين كانوا يترنمون فى وقت ما بأناشيد التسبيح لله ، نقلت إلى قاعة الحفلات الموسيقية أو إلى شرفة تطل على قاعة الرقص ، فقد تحول الحفل الدينى إلى حفل سمر فى البلاط للاحتفاء بمناسبات دنيوية من عيد ميلاد أو زواج ، على حين أن المسرحية انتقلت من بهو الكنيسة ، حيث كان رجال الدين وأعضاء النقابة يقومون فى وقت ما بتمثيل القصص التى تدور حول المعجزات وتحث على الفضيلة ، وترك أمرها للممثلين المحترفين تحت رعاية طبقة النبلاء ، وفى مبدأ الأمر كانت مساكنهم السيئة السمعة تقع فى أطراف المدينة . ومنتدى رجال الكنيسة — وكان قوامه رجالها الذين كانوا ، رسمياً على الأقل ، غير

متزوجين — تحول إلى ما عرف فى القرن التاسع عشر من أندية لرجال الطبقة العليا ، وكانت عضويتها مقصورة على أفراد تلك الطبقة ، وكان يسودها جو من الهدوء والعزلة كجو الأديرة ، وإن كانت تتجلى فيها مظاهر الترف ، ومثال ذلك أندية الكارلتون والريفورم والجوكى كلوب والهرنكلوب (Herrenclub) وما شاكلها .

وأخيراً فإن صحن الكنيسة ، وهو المكان الخالى من الزخرف والمخصص فيها للاجتماع ، تحول إلى سوق الأوراق المالية ، ولا تتخيلوا أن هذه الموازنة الأخيرة مزيفة ، فإنه فى القرن السابع عشر كان السماسرة يمارسون حرفتهم فى صحن كنيسة سانت بول ، ولم يبق أمام صيارفة النقود سوى أن يطردوا ممثلى السيد المسيح من المعبد — إلى أن تفاقمت الحالة فى النهاية وبلغ الفساد حداً تجاوز ما تطيق احتماله كنيسة فاسدة . وإن التخطيط الذى وضعه رين (Wren) — ولم يؤخذ به — لإعادة بناء لندن بعد الحريق ، اعترف إلى حد كبير بهذا الوضع الجديد للحياة ؛ ذلك أنه لم يخصص لكنيسة سانت بول الموقع الممتاز ، بل إنه وضع تخطيط الشوارع الكبرى الجديدة بحيث يكون هذا الشرف من نصيب السوق الملكية للأوراق المالية .

وإن ما أصاب الكنيسة من الانحلال على هذا النحو الشامل ، هيأ لكل منظمة فرصة خاصة للازدهار حسبما ترى ويحق لها . ومن الناحية الإيجابية كان هذا دليلا آخر على ما اتسم به النظام الباروكى من تنقية النواظر وتخصص فى الوظائف قائم على الوعى والإدراك ؛ فإن كل هذه المنظمات انفصلت عن الكنيسة لأنها أخمدت كل جديد من مظاهر الحياة والنمو . ولو أن الكنيسة ظلت قابضة على زمام المسرحيات ، لما ظهرت عبقرية شيكسبير ، ولو أن رمبراندت ظل مستمراً فى تصوير لوحات تمثل الطائفة الرئيسية من أساطين النقابة الراضين عن أنفسهم ، لما وجدت لوحاته العظيمة . بيد أن هـــذه الأجزاء المتنوعة من الفن والثقافة قد تشتتت بالنسبة إلى السكان فى

مجموعهم ، تشتت وبعدت عن متناول أيديهم ، وإنما « بلاط » الأمير وحده كان المكان الذى تجمعت فيه هذه الأجزاء مرة أخرى لتؤلف وحدة كاملة جـــديدة يستأثر بالإفادة منها أولئك الذين كانوا يقبضون على زمام السلطة :

لقد رأينا ما حل بكاتدرائية العصور الوسطى ، ولكن ماذا كان مصير ربها ؟ هنا لا ينسى تسجيل ما حدث من التغيير إلا بعبارات تنم عن الكفر والإلحاد ، فإن الحاكم المطلق بموجب الحق الإلهى ، اغتصب مكان الله وادعى لنفسه ما لله من مراسم الإجلال ، بل كان فى وسعه أن يدعو نفسه : « الملك الشمس » ، منتحلا لذاته ، دون أساس ، الصفة الخرافية التى اتسم بها الفراعنة والإسكندر الأكبر : وفى العبادة الجديدة ، قامت عشيقة الملك بدور السيدة مريم العذراء ، بوصفها أقوى شفيع لدى عرش السماء : وأما السلطات والإمارات فى السماء الجديدة ، وهى التى لم يكن لنظامها غنى عنها ، فإنها تمثلت فيمن كانوا يتزاحمون حول عرش الملك ويتنادون بما له من مجد . ولم تغب هذه الموازنة حتى عن أذهان الأتقياء فى القرن السابع عشر ، فقد قال لابروير (LaBruyere) : « كل من يعتبر أن وجه الملك هو مصدر السعادة القصوى لرجل الحاشية ، وأنه يقضى حياته متطلعاً إليه ، وعلى مرأى منه ، سوف يدرك إلى حد ما كيف أن رؤية الله هى مصدر سعادة للقديسين وهالة الجلال التى تحيط برءوسهم » .

ولقد قام بعض المتزلفين من العلماء بكتابة الرسائل لإقامة الدليل على وجود صلة مباشرة بين العاهل المستبد وبين السماء ، ولتأييد سلطته الشاملة ، والحث على الخضوع لأوامره المقدسة . وحينما كانت تبريراتهم تقصر دون الوفاء بمطالبه الفادحة ، كان فى وسعه ، مثل چيمس الأول ملك إنجلترا ، أن يذهب إلى حد الاشتراك شخصياً فى تدبيج ما يلزم من المديح . وطبقاً لما يقوله كاستيجليونى (Castiglione) الذى كتب رسالة نموذجية عن « رجل

الحاشية » (The Courtier) فإنه كان « يتعين على الأمير أن يكون بالغ السخاء والعظمة ، وأن يجزل العطاء لجميع الناس بلاحساب ، إذ أن الله — على حد القول الشائع — هو الذى يدبر المال لذوى الجود من الأمراء » : ووفقا للمعدل الذى كان البلاط يستنزف به المال ، لا بد من أن معين الثروة كان حقيقة لا ينضب ، فإن أڤينل (Avenel) يروى أن نفقات حفلة من الحفلات الراقصة الكبرى فى فرساى ، وكان يشترك فيها مائة وخمسون شخصاً ، كانت تبلغ مائة وخمسين ألفاً من الفرنكات ، ولم يكن فى هذا شىء خارق للعادة ، فإن ألارديس نيكول (Allardyce Nicoll) يلاحظ فى الدراسة التى قام بها عن التمثيليات الغنائية الراقصة فى عهد النهضة ، أنه « لمواجهة نفقات إخراج تمثيلية واحدة من هذه التمثيليات فى سنة ١٦١٨ خصص الملك چيمس — وهو لم يكن على الإطلاق أشد الملوك تهوراً من الناحية المالية — مبلغ أربعة آلاف جنيه — وتقدر قيمة هذا المبلغ الآن بأربعين ألفاً — على حين أنه فى سنة ١٦٣٣ — من أجل إعداد حفلة سمر كبرى — أنفقت هيئة المحامين فى لندن (Inns of Court) ما يزيد على اثنين وعشرين ألف جنيه أو مائتين وعشرين ألف جنيه بعملتنا الحالية » . فقد كان أكفأ رجال العصر الموهوبين من المصورين والمهندسين المعماريين يكدون وينصبون لإنتاج أعمال خليقة بألا تنسى ، مع أن مصيرها كان الزوال بعد حفلة واحدة .

ولقد امتد الترف من الملابس وأسباب اللهو إلى المآكل ، ومن المآكل فى القصر إلى المآكل على النسق نفسه فى ميدان القتال . فقد لاحظ الدوق دو سان سيمون (Duc de Saint-Simon) فى مذكراته ، « وبمناسبة الكلام عن مآدب العشاء ، فإن ترف البلاط والمدينة قد امتد إلى الجيش إلى درجة بلغ من شأنها أنه كانت توجد هناك لذائذ الأطعمة المختارة التى كانت قبلا غير معروفة حتى فى أوفر الأماكن حظاً من الأمن والسلام : وكانت وجبات الطعام الساخنة تقدم كلما أوقف السير لأخذ قسط من الراحة ، وكانت

الأطعمة التى تنقل إلى الخنادق فى أثناء حصارما ، أشبه بالمآدب لما كانت تشتمل عليه من عديد ألوان الطعام والفاكهة والمثلوجات . كما كانت جميع ألوان النبيذ موفورة بكميات كبيرة » . ولقد كان لهذه التفاهة البالغة تأثير يؤسف له فى العقول المفكرة ، وذلك أن فرنسيس بيكون فى تصويره الخيالى للعالم الجديد للعلوم ، لم يستطع مقاومة نزعة رجال البلاط ، فوصف الملابس الأنيقة التى كان يرتديها القائمون بالتجارب فى « اتلانتا الجديدة » فى أثناء تأدية أعمالهم العلمية .

ولقد استشرت عدوى المطالبة بأموال لا حدّ لها ، وكان ذلك حجر الزاوية لخطط السياسة الاقتصادية فى الدولة المطلقة السلطان ؛ فعندما كانت الضرائب لا توفر الموارد الكافية لحاجات الأمير وذوى الحظوة لديه ، كان يعمد إلى النهب ، نهب ممالك نائية فى حالة فيليب ملك إسبانيا ، أو نهب أديرة أقرب منالا فى حالة هنرى الثامن . وعندما كان ذلك لا يكفى ، كان يسلب الرجل الفقير دراهمه لكى يغدق الذهب على من كانوا أثرياء فعلا . ومن ثم نشأت كل سياسة الرخص وبراءات الامتياز ، فقد كان الإنسان يحتاج إلى ترخيص — وذلك لقاء ثمن معين — حتى للقيام ببناء منزل .

ولقد كان من شأن اطراد النمو فى هيئة الموظفين للإشراف على هذه الضروب من وسائل الابتزاز والتوسع فى توزيع الامتيازات ، ازدياد الأعباء التى ألقيت على كاهل المجتمع ، فلقد كانت الدواوين الحكومية المعطلة موئلا ملائماً يحشد فيه الأتباع وأبناؤهم الصغار ، وكانت هذه الدواوين من سانت بطرسبرج إلى هويتهول بمثابة إقطاع لا بد منه لهيئة الطبقة العليا . ولقد ورد فيما كتبه ميرسييه « لم يصل إطلاقا أمر هيئة الموظفين إلى مثل هذا من المبالغة والإسراف والمضايقة ، ولم يحدث إطلاقا أن كانت الأعمال تسير بمثل هذا البطء منذ إنشاء هذا الجيش من الموظفين الذين

بلغ شأنهم فى العمل شأن الخدم فى المنزل . وقد تضاعفت الاستشهادات واللوائح والتسجيلات والإجراءات الشكلية بجميع أنواعها على نحو بالغ من الوفرة مع قدر ضئيل جداً من التميز والإدراك » .

ولقد انتهت الحالة إلى هذا الوضع التالى ، فإن بلادا بأسرها كانت تدار لصالح بضع عشرات من الأسر أو بضع مئات كانت تملك قسطاً كبيراً من الأرض – بلغ النصف تقريباً فى فرنسا فى القرن الثامن عشر – وتتخم على ما لم تبذل جهدا لكسبه من الزيادة فى أرباح الصناعة والتجارة ، وفى أجور المساكن فى المدن :

الفصل الثالث عشر

البلاط والمظاهر العاصمة

١ — مركز القصر

كانت مبانى المدينة الباروكية من حيث الشكل ، صورة مجسمة لما كان يسود المجتمع من نهج للحياة ومراسم اتخذت أوضاعها فى البلاط ، والواقع أنها كانت مجموعة من الزخارف لأساليب القصر وحركاته : وكان القصر يطل على ناحيتين : فمن ناحية المدينة كان يستمتع بالإيجارات والخراج والضرائب والسيطرة على الجيش والتحكم فى أجهزة الدولة ، ومن ناحية الريف كان يفد الرجال والنساء الذين عنوا بتكوين أجسامهم وتدريبها وتغذيتها ، وكانوا يفيضون بالميول الجنسية ، وهم الذين كانوا يؤلفون أفراد الحاشية ويتلقون الإنعامات والمرتبات والمنح التى كان الملك يغدقها بسخاء : والقطبان اللذان كانت هذه الحياة تتجه نحوهما هما السلطة والمتعة ؛ أى ناحية معنوية جافة وناحية شهوانية تطفح بشرا : وقد كانت السيطرة لمارس (إله الحرب) ، وفينوس (إلهة الحب) إلى أن قام فولكان (إله النار والمعادن) فى النهاية بطرح شبكته الحديدية الماكرة ، شبكة المرامى النفعية ، فوق شخصيهما المشيعين بالنزوات الحيوانية .

ولقد كان « البلاط » عالما قائماً بذاته ، ولكنه كان عالما تبدو فيه الحقائق القاسية للحياة فى صورة مصغرة ، وكل تفاهاتها فى صورة مجسمة ، فقد كان اللهو يعتبر واجبا ، والبطالة وظيفة ، والعمل النزيه أدنى درجات الانحطاط : ولكى يصادف أى شىء أو عمل قبولا لدى « البلاط » الباروكى ، كان لا بد من أن يتسم بالأمارات الدالة على إغراقه فى التفاهة ، فأقوى

« السواقى » التى عرفت فى القرن السابع عشر — وهى توجد عند مارلى وما زالت تعمل إلى الآن — والمضخات المائية العظيمة التى اعتبرت من أهم ضروب التقدم التقنى فى ذلك العصر ، كانت تستخدم لمجرد تشغيل النافورات فى حدائق فرساى ، كما أن المضخة البخارية التى صنعها فيشر فون ارلاخ (Fischer von Erlach) — وكانت أول ما استخدم من نوعها فى النمسا — لم تستخدم فى منجم وإنما فى إدارة نافورات قصر بلفيدير فى ڤيينا ، والمكنات الأتوماتية — وهى تلك الوسيلة الهامة فى الإنتاج — حققت أول نجاح كبير لها عند استخدامها فى صنع الأزرار (مكنة الكبس) وفى صنع الأشرطة (النول الأوتوماتى الضيق) وفى صنع الملابس الرسمية للجيش (أول مكنة للخياطة) .

وكانت مراسم البلاط عبارة عن محاولة لتأييد مزاعم السلطة المطلقة بتمثيل مسرحية خاصة ، ولست أعرف صورة لتلك البيئة خيراً من المديح الذى دبجه يراع نيكولاس برتون (Nicolas Breton) ولا عرضاً لأوهامها المخدرة أفضل من هذا المديح الذى جاء فيه : « يا لروعة الحياة فى البلاط ، حيث تتوافر وتتعدد أسباب الغبطة والسعادة كما لو كانت جنة الدنيا على ظهر البسيطة ، فهناك جلال الملك وحكمة المجلس ، ونبل الأشراف ، وجمال السيدات ، واهتمام الضباط ، ورقة شمائل السادة المهذبين ، والصلوات الدينية فى الصباح وفى المساء ، والأحاديث الشائقة التى تدور طوال النهار بفيض من سرعة الخاطر والعلم والنبل . وهناك أنواع متباينة من الذكاء ، فضلا عن المقدرة على وزن الأمور وتقديرها بحكمة ، وهناك أيضا الطعام الفاخر الذى يطهى بعناية ويقدم بأناقة ، وهناك الخمور الراقية والفواكه النادرة ، مصحوبة بموسيقى ممتازة وأصوات بديعة ومشاهد غنائية راقصة ، وتمثيليات ورقص وركوب خيل ، وهناك أنواع عديدة من الألعاب تسر خاطر من يريد المقامرة ، وأحاجى وأسئلة وأجوبة ، وقصائد وقصص

تاريخية ، ومبتكرات ذهنية مدهشة تحير ألباب ذوى الفهم الرصين ، وحلل نفيسه ، ومجوهرات ثمينة ، وتناسق بديع ، وروح عالية ، ومركبات فاخرة ، وجياد مطهمة ، ومبان ملكية، وفن معمارى نادر المثال ، ومخلوقات محببة ، ولهو مهذب . ويبلغ من شأن ما تنطوى عليه التصرفات فى مجال الحب أنها تأتى بالروح فى أحضان البهجة والسرور ، مما لو حاولت التحدث عنه والإطناب فيه طوال النهار ، لوجدت أنى عند حلول الليل قد عجزت عن إيفائه ما يستحقه » .

ولست فى حاجة إلى إبراز ما كان للواقع من جانب آخر يختلف عن هذه الصورة ، كالحديث التافه الذى كان يؤخذ على أنه دليل الذكاء وسرعة الخاطر ، والأطفال غير المرغوبين الذين أفلتوا من الوسائل السائدة لمنع الحمل — وهى التى عرفت منذ القرن السادس عشر لدى الطبقات العليا فى فرنسا وإيطاليا — والتنافس المهذب وإنما دون رحمة ولا هوادة من أجل المكانة والأسبقية ؛ فقد كان لحن البلاط العذب لا يزال ينطوى على ما يوفر له قدرا كافيا من القبول ، وإن لم يفت الناس ما فيه من أنغام ناشزة . ولقد كان الشعار المدون على باب دير رابليه فى تيليما هو « اصنع ما يحلو لك ، وأما فوق أبواب القصر فقد كان هناك شرط إضافى وهو « ما دام ذلك يحلو للأمير » . على أنه يجب أن نضيف حقيقة واحدة كثيرا جداً ما أغفلت من تصور هذه الحياة الباروكية الحافلة بضروب المراسم والنزعات الشهوانية ، فقد كان يبلغ من ثقل ظل مراسمها أنها حقا تبعث على الملل إلى حد تشتت الذهن ، فقد كان نظام الحياة اليومية الرتيبة للأمير وبطانته مما تمكن مقارنته بنظام حياة عامل فى مصنع لتجميع أجزاء السيارات ، من حيث إن كل تفصيل فيها كان مرسوما ومحدداً سواء للملك أم لحاشيته على السواء ، فمنذ اللحظة التى كان الأمير يفتح فيها

عينيه ، إلى اللحظة الأخيرة التى كانت عشيقته تغادر فيها حجرة نومه ، كان الأمير ، على حد القول ، فى مكانه من خط التجميع .

ولعل تفشى الملل على هذا الوجه لا يقتصر على تعليل هذه السخافات التى كانت تستنفد جهداً كبيراً ، بل يفسر عنصر العبث البحت الذى كان يغشى سياسة الدولة الباروكية ، على نحو اندفاع تلاميذ المدارس بعد أن يكونوا قد ضيق عليهم الخناق إلى ما يفوق حد الاحتمال ، فكثير من خطط الدسائس والخطط المقاومة لها — كثير من هذه الخطط المعقدة كانت من صنع أساطين السياسة الذين أصابهم الملل ولم يكن أحب لديهم من إطالة أمد المباراة ذاتها . ومن المحقق أن الاستمرار دواما بين وقوف ، وانتظار ، وانحناء ، وأداء مراسم الإجلال والتعظيم — وهو ما أعطانا عنه تين (Taine) صورة لا تنسى فيما كتبه فى وصف « النظام القديم » — لا بد من أنه كان يجافى طبيعة رجال ونساء مكتنزى الأجسام ، فلا مجال للعجب من أن ألوان التسلية الاستعراضية كانت تشغل مثل هذا الحيز الكبير فى حياتهم .

ولسوء الحظ أن ضروب التسلية ذاتها أصبحت القصر واجبات . وقد كان « قضاء واجبات الفراغ » يفرض على الناس تضحيات جديدة ، فإن مأدبة العشاء ، والحفلة الراقصة ، والزيارة الرسمية طبقاً للأسلوب الذى جرت عليه الطبقة الأرستقراطية ، وسار عليه أولئك الذين أخذوا يحاكونها بعد القرن السابع عشر ، لم تكن مدعاة للمتعة إلا لمن كان المظهر يعنيهم أكثر من الجوهر . وقد كانت أسمى الواجبات الاجتماعية ، بل فى الواقع الشغل الشاغل للحياة بأكملها « ظهور » الشخص أمام الناس « وتعرفهم » عليه و« قبول » الأوساط الراقية اندماجه فيها . وأحط درجات الابتذال التى انحدر إليها قضاء واجبات الفراغ — وهو ما يتردد صداه فى أعمدة أخبار المجتمع فى الصحف المعاصرة — يتمثل اليوم فى التردد على أندية الليل وحضور حفلات افتتاح المسرحيات الجديدة : وإن شطرا غير قليل من

الحياة التى نقرأ وصفها فى روايتى « سوق الخيلاء » "Vanity Fair" ، و« الأحمر والأسود » اللتين ترجعان إلى مطلع القرن التاسع عشر ، وفيما كتبه بروست (Proust) فى أواخر ذلك القرن ، كان يتألف من القيام بالزيارات و« مطارحة الغرام » — أى من أمور تافهة : ولقد لاحظ بروست أنه فى عهـــد لويس الرابع عشر طرأ تغيير خطير على حياة الطبقة الأرستقراطية التى كانت عليها فى وقت من الأوقات مسئوليات جدية ، وواجبات خطيرة ، ومشاغل ذات بال ، فإن المسائل الوحيدة التى أصبحت تعتبر جدية ، كانت تلك المتعلقة بآداب السلوك .

وفى هذه الناحية ، كما فى غيرها من النواحى الكثيرة للحياة ، كان البلاط الباروكى مسرحا لبوادر ما ظهر فى عواصم القرن العشرين من مراسم ورد فعل نفسانى ، فهناك ضنى مماثل ، وملل مماثل ، ومحاولة مماثلة للاستجارة « بضروب اللهو » من الظلم الجارف الذى أصبح نظاما ثابتاً مستمراً ، ومن النظام الثابت المستمر الذى أصبح ظلماً جارفا :

٢ — تأثير القصر على المدينة

كان للبلاط الباروكى تأثير مباشر على المدينه فى كل مظهر من مظاهر الحياة تقريبا ، بل إنه الأب الذى أنجب الكثير من الأنظمة التى ادعتها لنفسها الديمقراطية فيما بعد . فلم يكن هناك ما يقابل سيادة القلعة حتى فى المدينة الإيطالية فى العصور الوسطى ، وإن كان ثمة شيء فهو أن القوى كانت تسير فى اتجاه عكسى ، وأصبحت طبقة السادة الإقطاعيين أكثر دماثة وظرفا . وبمرور الزمن وعلى عدة مراحل ، كان مآل المثل العليا الديمقراطية أن تنحرف جميعا فى ظل رأسمالية تعمل على تعميم نهج الحياة فى البلاط بوصفه أقصى ما يرجوه الإنسان فى الوجود ، والطابع النهائى

للنجاح : فمن ثم كان ترف موبق ، ونفقات تلفت الأنظار ، وإسراف فى التبديد ، ونهم فى المستحدثات وأسباب الإثارة ، التى انتظمت جميعا فى موكب التفاهة من أجل غرض واحد وهو الحفاظ على نشاط نظام اقتصادى يتجه نحو التوسع :

وإن الثمن النهائى لمثل هذا النظام الاقتصادى المتجه نحو التوسع — وهو ثمن اقتضى من البلاط ، وممن يقبلون على التهام السلع من أرباب المنازل فى نظامنا الديمقراطى المعاصر — إن هذا الثمن هو حياة متقلصة ، حياة الحشرة الطفيلية المنتفخة ، العديمة الحيلة ، التابعة ، والمستعبدة لمن تعيش على بره :

ويجب ألا يفكر المرء فى سيطرة القصر من حيث إنه مبنى قائم بذاته له وظائفه الرفيعة ، فقد انتشر نهج حياة القصر فى كل مكان ، والواقع أن كلمة قصر "palazzo" كانت تعنى فى إيطاليا فى مبدأ الأمر أى مبنى فخم على مثال كان يمكن أن يشغله أحد النبلاء أو أمراء التجارة ، والنسبة إلى القصر فى العرف الباروكى كناية عن الاتساع والقوة المستكفية بذاتها ؛ والواقع أن الرغبة فى الاكتفاء الذاتى كانت قد تجلت فى مظهر آخر فى القرن الرابع عشر ، فى الأبراج العديدة المتنافسة فى أشكالها المربعة والسحوقية التى جعلت معالم مدن لوكا وبولونيا وسان جيمينيانو تبدو على صفحة السماء كما لو كانت عدة من الوسائد غرست فيها « دبابيس » . وهناك اتخذت الروح الجديدة وضعا من صميم العصور الوسطى للإعراب عن السيطرة ، بيد أنه منذ القرن الخامس عشر أخذ الاتساع الأفقى يزداد بروزا ، فإن القوة أخذت توسع كيانها . وعندما كان يعوزها المكان فى المدينة ، كانت تلجأ إلى الضواحى ، كما فعل لويس الرابع عشر ، فإنه وقد ذكر كيف أنه فى صباه أرغم على الفرار من باريس هرباً من فتنة شعبية ، لجأ إلى فرساى وجعل منها عاصمة فى الضواحى :

وقد بلغ من شأن رحابة القصور الجديدة وتوافر وسائل الراحة فى داخلها أن نظاماً جديداً خاصاً كذلك بالطبقة الراقية — وهو نظام الفندق — لا يستمد اسمه فحسب من اسم القصر الحضرى فى فرنسا ، بل إنه يؤدى إحدى مهامه الرئيسية ، وهى تقديم ضيافة لا حد لها ظاهرياً — وإن كانت لقاء أجر — وإن مجرد صلاحية تصميم القصر وعدم اتسامه بطابع معين ، هيأ للقصر قسطا من المرونة فى القدرة على استقبال وإيواء الوافدين عليه ، فقد ساعده على ذلك أن تصميمه وضع على أساس إيواء عدد كبير من الخدم والأتباع . وكثير من أرقى فنادق الترف فى روما إلى اليوم هى قصور قديمة ، والواقع أن روما وبادوا كانتا أولى المدن التى قامت ببناء فنادق جديدة على طراز القصور لأغراض تجارية . وقد كان الفندق الذى أقيم فى بادوا (حوالى سنة ١٤٥٠) يحتوى على حظائر تتسع لمائتى جواد . وإن استخدام هذه القصور القديمة فيما بعد كدور لعرض أعمال الفن ومتاحف ومجامع علمية ومبان للمكاتب ، ليدل على الصلة الجوهرية بين الطراز الباروكى للحياة ومنظماته النمطية .

وبفضل رعاية الطبقة الأرستقراطية بوجه خاص ، اتخذ المسرح شكله الحديث فى لندن وباريس ، وفى مدن أقل منهما شأناً ، وهذا الشكل عبارة عن النموذج الإغريقى والرومانى القديم بعد إدخال بعض التعديلات عليه : واقتداء بمسرح أوليمبيكو (Olimpico) الذى شيده بالاديو فى فيشنزا ، أصبح المسرح عندئذ عبارة عن قاعة مسقوفة يجلس النظارة فيها تبعاً لمراتبهم وقدرتهم على دفع الأجر ، وأمسوا فى أماكنهم الثابتة مجرد متفرجين على مشاهد تمثيلية تبدو كما لو كانوا يرونها من خلل نافذة مكشوفة للعرض ، ولقد بلغ من تغلغل روح المسرح فى أسلوب حياة العصر أن عمليات التشريح كانت مشاهد عامة سنوية تجرى فى « مسارح » ، وهو الاسم الذى ما زال يطلق أحياناً على مثل هذه القاعات .

ولم يظهر المنظور المكانى الجديد للطراز الباروكى فى المدينة ذاتها ، بل فى منظر بالمسرح (فى سيرليو Serlio) يصور شكل شارع ، ولم يكن من قبيل المصادفة أن الحديثين من المشتغلين بتخطيط المدن ، مثل سيرفاندونى (Servandoni) وانيجو جونس (Inigo Jones) وبرنينى ، كانوا كذلك من مصممى مناظر المسرح . والواقع أن المدينة الجديدة ذاتها كانت محاولة لتصميم المناظر الرسمية ، أى بمثابة الستار الخلفى فى مسرح السلطة المطلقة . وعندما كانت الموارد المالية الملكية تعجز عن القيام بتشييد مبان من الرخام على قدر كاف من العظمة والرواء ، كان المظهر الخارجى يزيف بالجص والألوان ، أو كانت تقام واجهة رائعة المظهر لإخفاء ما وراءها من المبانى التافهة .

وقد كان تأثير القصر أقوى ما يكون شأناً بوجه خاص فى نواحى اللهو والترفيه والمشاهد التمثيلية والاستعراضية ، فحدائق الملاهى كحدائق رانيليو (Ranelagh) مثلا فى لندن فى القرن السابع عشر ، وحدائق فوكسهول (Vauxhall) وكريمورن (Cremorne) فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، كانت محاولات لتزويد جمهور الشعب – نظير أجر معقول من الفرد الواحد – بملاه أقل خلاعة من ملاهى « البلاط » . وكان يقابل ذلك فيما بعد لدى الفرنسيين الحفلات الراقصة التنكرية ، ولدى الألمان حديقة البيرة بجوها الأكثر اتساماً بجو الأسرة وروح النظام : وحدائق الملاهى التى من هذا القبيل كانت محبوبة لدى الجماهير حيثما كانت حياة البلاط تجرى على مرأى ومسمع من الناس ، وإن حدائق تيفولى الذائعة الصيت فى كوبنهاجن ما زالت تقوم شاهداً على ذلك ، وإن كانت حدائق البيرة ، التى ظلت نيويورك تفاخر بها طيلة نصف قرن بعد انتهاء الحرب الأهلية ، قد اختفت الآن . وكانت هذه الحدائق تتألف من مبنى رئيسى كبير ، وكثيراً ما كانت تزينه زخارف زاهية الألوان ، حيث كانت تتسنى إقامة الحفلات الراقصة

وتجمع السامرين ، وكذلك إقامة المآدب الكبرى ، وكانت تحيط بالمبنى حدائق ذات غابات وممماش منعزلة تظللها وتحوطها الأشجار حيث كان الناس يستطيعون فى الليالى الصافية أن يتجولوا ويأكلوا ويشربوا ويتغازلوا ويتضاجعوا ويشاهدوا الألعاب النارية أو لوحات الفانوس السحرى ، أى أنه كان يهيأ للناس يومياً ما فى أعياد المساخر من مرح ومجون : ولقد خلف أوليفر جولدسميث (Oliver Goldsmith) فى مؤلفه « حفلة فى حدائق فوكسهول » وصفاً وافياً لكل من المنظر والروح التى كانت تسوده .

ولقد ظهرت الأراجيح التى تتحرك فى دوائر رأسية وأفقية فى حدائق الملاهى المذكورة ، وكذلك فإنه فى أوائل القرن التاسع عشر تولد عن ولع الطبقة الأرستقراطية بالسرعة ظهور لعبة الانزلاق فى قارب على منحدر خشبى إلى بركة ضحلة (Chute - the - chutes) ، وكان الجمهور أشد إقبالا على هذه اللعبة . وأما لعبة الدوران المرح ، فإنها بخيولها الخشبية التى تلف فى حركة دائرية سريعة ، وباسمها الفرنسى كاروسيل (Carrousel) (لعبة الهوارة) تدل بجلاء على منشئها الأرستقراطى : وقد كانت هذه اللعبة بمثابة عرض يومى للخيول الحية والعربات ، وهى التى من أجلها أنشئت أصلا الأماكن والميادين والمستديرة ، أو الساحات الواسعة ، فعن طريق الخيول الخشبية كان يتسنى لكل من هب ودب أن يتذوق المتعة بعينها . وفى خلال القرن التاسع عشر ، اختفت الأناقة الباروكية الأقدم عهداً ، فلقد أخذت تظهر — ولعل ذلك كان فى المعارض الدولية — ضروب من التسلية أشد صخباً ، وأنواع من الألعاب أكثر إثارة للدهشة مثل عجلة فيريس[1] (Ferris Wheel) ، ولم تلبث أن احتلت مكان الصدارة : وفى النهاية لم تبق

---

(١) عجلة ضخمة تدور رأسيا وقد تدلت منها مركبات يجلس فيها الناس . ابتكر هذه العجلة مهندس أمريكى فى سنة ١٨٩٣ بمناسبة معرض كولومبيا الدولى .

إلا الألعاب البراقة المنظر السقيمة الذوق ، كما هو الشأن فى ملاهى جزيرة كونى (Coney Island) . وإنه ليحسن بنا أن نستعيد ملاحظات رينر ماريا ريلكى (Rainer Maria Rilke) عن جزيرة كابرى : « هل رأيت أبداً أن الناس يصلون إلى أى نتيجة تسر الخاطر عندما يعبثون أو يطلقون لأنفسهم العنان فى مجال اللهو والاستمتاع والتحلل من القيود ؟ » .

ومنشأ حضارة المدينة الباروكية واضح وضوح طريق التدهور ذاته ، فاللهو الذى تمارسه الجماهير فى كل مدينة كبيرة أو فى أقصى حاناتها أو مراقصها ، مازال لهوا باروكى الطراز ، أى عبارة عن مناظر استعراضية وبريق وبذخ ومشاهد مثيرة تصحبها اتصالات جنسية أو ما يدانيها — لقاء أجر معلوم — فضلا عما يقترن بذلك كله من مأكل ومشرب فى مطاعم ومقاه من المحتم أنها باهظة النفقات . وعندما اختفت حديقة الملاهى بذاتها ، تبعا لما حدث فى المدينة من التوسع والازدحام ، فإن ذلك العنصر بعينه عاد إلى ولوج المدينة والنزول فى الأحياء الملائمة مثل برودواى وبيكاديلى وسوهو ومونمارتر ورمبرانتبلاين (Rembrandtplein) .

وإذا كانت حديقة الملاهى قد نمت على إحدى سيقان شجرة حياة القصور الباروكية ، فإن المتحف قد نما فى موضع أشد قربا إلى الجذع الرئيسى . وإذا كان المتحف وليد نظام اقتصادى يستهدف الامتلاك بلا حد ، فإن حديقة الملاهى كانت وليدة استهلاك بلا حد . ولا شك فى أن المتحف نشأ فى مبدأ الأمر بدافع من حب الاستطلاع العلمى ، شأنه فى ذلك شأن مجموعات أرسطو ، على حين أنه فى فترة العصور الوسطى ، تحت تأثير التعاليم المسيحية اتخذ المتحف شكل مجموعة من الذخائر الدينية — سن قديس أو قارورة صغيرة من الدم ، أو شظية من الصليب الحقيقى ، وكانت بطبيعة

الحال يحتفظ بها فى الكنائس . بيد أن المتحف بمعناه الحديث بدأ من جديد بجمع العملات والنقوش ، وهو نهج عم اتباعه فى إيطاليا منذ عهد مبكر يرجع إلى القرن الخامس عشر . ولقد سبقت هذه المجموعات ببضع سنين مجموعات التاريخ الطبيعى التى قام بجمعها أمثال فون نيتسهين (von Netteshyn) أو براكلسوس (Parcelsus) أو چورچ اجريكولا (Agricola) . والواقع أن كتابات هذا العالم هى التى حدت بأغسطس أمير سكسونيا الناخب[1] (Elector Augustus of Saxony) إلى تكوين المجموعات التى نمت وتطورت منذ ذلك الحين حتى غدت متاحف درسدن .

وبمرور الزمن اتسع نطاق الغرض المنشود مما فى المتحف من المجموعات . وعندما وصف ميرسييه (١٧٧٠) صورة خيالية مثالية للمستقبل ، تنبأ بأنه فى سنة ٢٠٠٠ سيوجد متحف يضم بين جوانبه « جميع الأنواع المختلفة للحيوانات والنباتات والمعادن بحيث تراها العين بمجرد نظرة واحدة » ، ويكون مكتوبا على الواجهة « موجز لمشتملات العالم » . وقد كان هذا المطمح جديراً بالإعجاب ، بيد أن النتيجة ، كما تبينا مع الأسف ، قد تكون مدعاة للإتخام مادام الناس يرعون المعايير الباروكية من حيث انعدام الحدود فى الامتلاك والاستهلاك والعرض .

وفى مبدأ الأمر كان الولع بالفن القديم يبدو معادلا للشغف بما وجد حديثا من التحف الغريبة أو الفريدة فى شذوذها . ولقد وصف إيفلين قصراً فى البندقية حافلا بالتماثيل الرومانية ، ولكنه كان يحتوى كذلك على

---

(١) أى الذى كان يحق له المشاركة فى انتخاب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

« أشياء متحجرة كالجوز والبيض الذى يُسمع عند هزه صوت خشخشة محه المتيبس ، وثمرة كمثرى ، وقطعة من اللحم وفيها العظام ، وقنفذ برمته » .
ولقد كان هذا أيضاً هو الأسلوب الذى جرى به عرف العصر ، فى كل مكان كان يجرى البحث على غير هدى عن تحف فنية مدفونة وعجائب من صنع الطبيعة ، ولم يكن ذلك إلا ضرباً من انصراف العقل إلى نظام بدائى « للاقتصاد القائم على الجمع » قبل بلوغ الإنسان مرحلة الزراعة المنظمة .

ونتيجة لرغبة الملك فى أن يؤتى إلى الوطن بالغنائم من الفتوحات الأجنبية ، وفى الحصول عن طريق الشراء أو الرعاية على ما لا يتيسر إحرازه عن طريق التفوق فى قوة السلاح ، تكونت مجموعات الفن العظيمة التى تتألف منها متاحف الفاتيكان واللوفر والمعرض القومى للفن (National Gallery) والمتحف البريطانى وما شاكلها من المنشآت . وهنا أيضاً لعب البلاط والطبقة الأرستقراطية دوراً رئيسياً ، بيد أن افتتاح المتحف البريطانى فى سنة ١٧٥٩ عقب التركة التى خلفها السير هانز سلون (Hans Sloane) ، كان من المعالم البارزة فى توفير وسائل الثقافة الشعبية ، لأنه عندما لم يعد العرض متعة خاصة للمالك ؛ تهيأت الفرصة لأن يغدو ذلك وسيلة لتثقيف جمهور الشعب ، وكان نمو المجموعة فى ذاته مما عجل بهذا التحول .

وأما فيما يخص معرض الفن ، فإن القصر — بحكم طبيعته ذاتها — كانت تتوافر فيه أسباب الصلاحية لعرض آثار الفن ، فلم يكن تحويل القصر إلى معرض للفن يستوجب أكثر من إزالة ما فيه من عناصر التخدير وتعيين أحد الموظفين أميناً له . وأحياناً كان هذا التغيير يحدث بباعث من محض الدفاع عن النفس ، فمثلا لوحة رافائيل المعروفة باسم جالاتيو (Galateo) قد صورت لتوضع فى قاعة الطعام بدار المصرفى أجوستينو تشيجى

(Agostino Chigi) ، بيد أنه قد بلغ من كثرة الناس الذين كانو يتوافدون لمشاهدة الصورة أنه تحت هذا الضغط الشديد خولت القاعة فى أثناء حياة صاحبها إلى معرض للفن . وفى أواخر القرن التاسع عشر عندما شيد لنفسه كل من مسز جاك جاردنر فى بوسطن أو مستر هنرى فريك (Frick) فى نيويورك دارا عظيمة منيفة ؛ توقعا ما سوف يؤول إليه فى النهاية أمر مجموعاتهما ، فاقتصرا منـــذ البداية على القيام بدور أمين مؤقت لمبنى عام .

وفى الوسط فيما بين اللهو وحب الاستطلاع تقف آخر مخلفات القصر ، ونعنى بها حديقة الحيوان ، فإن الاحتفاظ بالحيوانات المتوحشة ، ولا سيما أشدها ضراوة أو غرابة ، كان لا يزال من خصائص الملوك فى العصور الوسطى ، ولو أن هذه العادة ترجع إلى أقدم عهود الملكية . وقد كان التوسع فى هذه المجموعات المؤلفة من الحيوانات الحية مع إعداد أماكن دائمة لإيوائها وأماكن لعرضها — وقد كان ذلك جزءا من الاتجاه نفسه الذى تمخض عنه المتحف . وعلى غرار المتحف كانت حديقة الحيوانات تهيئ وجهة ملائمة تنتهى إليها التحف التى يعثر عليها الرحالة أو أمارات الظفر التى يعود بها الصيادون . فالملك المعين بموجب الحق الإلهى ظل يقوم بالدور الأصيل الذى كان يقوم به الصائد وخافه له أسلافه من العصر الحجرى المتأخر .

وهنا أسديت خدمة جديدة للمدينة ، وهى التذكير بحالة الوحشية التى ينساها الإنسان المتحضر فى يسر بالغ وسط أوهامه بأنه نجح فى قهر الطبيعة . وإذا لم يكن من شأن ألعاب القرد البهلوانية ، وثبات جأش فرس النهر ، وحركات عجل البحر التى تنم عن المرح والمرونة — وكلها أمثلة لما للطبيعة من قدرة خلاقة لا ينضب معينها — إذا لم يكن من شأنها

أنها جعلت ساكن المدينة على اتصال بالطبيعة ، فإنه كان لها على الأقل من الأثر ما يريح أعصابه المكدودة ؛ فهى لم تكن باعثاً على السرور لدى الأطفال فحسب ، بل كانت تبقى على روح الطفولة حية فى نفوس الكبار : وحتى تلك المخلفات الباروكية التى أكل عليها الدهر وشرب ، مثل الدب الراقص ، أو قرد الرجل المتجول صاحب الأرغول الآلى ، كثيرا ما كانت تجلب قدراً من المرح الحيوانى إلى الأركان الكئيبة فى شوارع القرن التاسع عشر . وهل هو من قبيل المصادفة أن هذه البقية الباقية من الامارات المتخلفة عن حياة القصور الباروكية كان يتولاها عادة أحد الإيطاليين ؟ .

وواحدة إثر أخرى من هذه المنشآت المتفرعة عن القصر سجلت وجودها فى التخطيط الجديد للمدينة ، وكانت تنشأ أحياناً بفضل جهود خاصة ، وأحيانا بفضل معونة الملك أو البلدية ، ولكنها كانت تبدو على الدوام فى صورة مموهة بالذهب ، الطابع الأصلى للبلاط والقصر . وقد احتفظتُ بأجل خدمة للقصور إلى النهاية ، وهى الحديقة الملكية الفسيحة وقد اشتدت الحاجة إليها بسبب ما حدث من إقامة المبانى فوق ما هو دونها من ساحات الملاهى وميادين الألعاب التى كانت تطوق مدينة العصور الوسطى فى يوم من الأيام . ولعل إعادة تنظيم وتوسيع نطاق الحديقة الفسيحة بمناظرها التى تحاكى الطبيعة فى قلب المدينة كانت أجل الخدمات الموفقة التى أداها القصر للحياة الحضرية ، فما من شىء كان أعظم أثراً فى وقاية الأحياء الواقعة فى وسط لندن وباريس وبرلين من الازدحام الخانق والانحلال الكامل ، من حـــدائق سنت جيمس وجرين بارك ، والتويلرى ، والتيرجارتن . وعلى الرغم من أن الحيز الذى تشغله هذه الحدائق كان من المحتمل أن يوزع على وجه أفضل بين أنحاء المدينة بأسرها ، لو أنه لم يقصد بها الترفيه عن الملك ، بل عامة الشعب ، فإنها على الأقل قد أبقت دواماً أمام الأنظار مفهوم الطبقة الأرستقراطية للخلاء والخضرة بوصفهما

جزءاً أساسياً من الحياة الحضرية ، لا يمكن حجبه دون أن تترتب على ذلك نتائج ضارة من الناحية البيولوچية فضلا عن الكآبة والانقباض من الناحية الجمالية .

بيد أنه — حتى فى شأن إقامة الحدائق — أكدت روح العصر وجودها فى النهاية ، فإنه عندما وضع التاج مشروع حديقة ريجنت فى لندن ، كانت الحديقة ذاتها فى نظر الناس وسيلة لزيادة قيمة ممتلكات التاج المجاورة لها . بيد أنه حتى ذلك الدرس ضاع مغزاه عن بال تجار المضاربة الذين كانوا يسيطرون إلى حد كبير جدا على إنشاء المبانى فى القرن التاسع عشر ، وذلك أنهم استبقوا الرغبة الباروكية فى الربح دون أن يقيموا وزناً للشغف الباروكى باللهو والجمال ، وهو ما كان يحتمل أن يؤدى فى آن واحد إلى التخفيف من حدة جشعهم وإلى إكساب أموالهم المستثمرة مزيداً من الضمان والبقاء . وعلى طول المدى أثبت أصحاب الأملاك المترفون من أفراد الطبقة الأرستقراطية أنهم رجال أعمال أفضل — بل مواطنون أفضل من أولئك المضاربين .

٣ — غرفة النوم وغرفة الاستقبال

إذا كان للبلاط أثر فعال فى المدينة بوجه عام ، فإنه لم يكن أقل أثرا فى داخل المنازل ، وعلى أى حال فى منازل الطبقات المتوسطة وما يعلوها اقتصادياً . فهنا سادت فى النهاية عادات البلاط وأفضت إلى نتائج كانت مزيجاً من الخير والشر على السواء ، وأما من حيث الشر فقد ظهر نوع جديد من السلطة المطلقة فى المنازل كان مصدره وجود عدد ضخم من المحرومين من حقوق المواطنة الذين كانوا يحتشدون فى العواصم لعرض خدماتهم لقاء أى عطاء . وأما من حيث الخير فإنه كان يتمثل فيما حدث من رقى آداب السلوك — ولعله قد أسهم فى ذلك الإلمام المتزايد بأوضاع

الحضارة الصينية وما فيها من كمال وتهذيب — وفوق كل شيء فيما حدث من انتشار توافر العزلة فى داخل المنزل . وقد ترتب على ذلك ظهور قواعد جديدة لآداب السلوك فى المسائل الجنسية ، كان من شأنها توشية حواشى مقدمات المضاجعة ، والاتجاه نحو إطالة شباب الحب لكل من الجنسين . وكلمة « إبداء الحب » (وهى بالإنجليزية Courtship) التى ابتكرت فى القرن السادس عشر وتطلق على تلك المداعبة التمهيدية ، التى تنطوى على إظهار سرعة الخاطر والجاذبية فضلا عن شهوة الجسد ، تدل على مدى ما تدين به حياتنا الغرامية إلى ما جرت به العادة فى البلاط .

ولقد تجلى — فى نواح عدة — التغيير الذى طرأ على تكوين المنزل ، فظهر أولا فى فصل المنزل تدريجاً عن مكان العمل ؛ إذ أصبح المنزل منذ ذلك الحين مكاناً للأكل وللاحتفاء بالضيوف ، وفى المرتبة الثانية لتربية الأطفال ، وأصبحت مهام الإنتاج والبيع والاستهلاك مهمات تمارسها ثلاث فئات منفصلة من المنظمات تقوم فى ثلاث مجموعات مختلفة من المبانى توجد ثلاثة أجزاء متفرقة فى المدينة . وفى مبدأ الأمر كان استخدام وسائل النقل للذهاب إلى مكان العمل والعودة منه امتيازا يتمتع به الأثرياء من التجار فى المدن الكبرى ، ولم يصبح ميسورا للطبقات الأخرى فى المدينة إلا فى القرن التاسع عشر ، وبدلا من أن يكون امتيازا أصبح عبئاً ثقيل الوطأة . ونتيجة لما حدث من تحول المنزل إلى مجرد منظمة استهلاكية ، فقدت ربة البيت اتصالها بشئون العالم الخارجى ، وتحولت إلى « متخصصة » إما فى شئون التدبير المنزلى وإما فى شئون الجنس ، أى إنها انصرفت إلى لون من حياة الكدح ، أو إلى لون من حياة الغوانى ، ولعلها فى أغلب الأحيان كانت تجمع بين قدر من اللونين . ولقد صحب ذلك ظهور « المنزل الخاص » ، أى المنزل الذى لا يُمارَس فيه عمل ولا يتصل بأى وسيلة من وسائل إقامة أود الحياة ؛ فقد عمدت كل ناحية من نواحى الحياة إلى الأخذ بنصيب متزايد من هذه العزلة .

وقد كان نمو الحياة المنزلية على هذا النحو ينم إلى حد ما عن تناقص الاهتمام بالشئون العامة بين المواطنين من أبناء الطبقة المتوسطة ، وكانت توجد نزعة طبيعية لاستبدال الحياة الخاصة بالشئون العامة ، وذلك بوجه خاص بين الطوائف الدينية التى طردت من الكنيسة وصدرت ضدها عقوبة الحرمان الاجتماعى . وقد كان من الطبيعى أن يتحول اهتمام المواطن إلى محض شئونه الذاتية ما دام قد حرم حرياته القديمة ، وكان فى أحيان كثيرة عاجزا حتى عن الإدلاء بصوته فى شأن ممثليه فى البلدية أو الاشتراك فى الأعمال الرسمية لمدينته إلا إذا عينه الأمير . وإذا كان ينتسب إلى طائفة دينية صدرت ضدها عقوبة الحرمان ، كما كان شأن الكثيرين من أفراد طبقات التجار ، فإن الحافز كان أقوى وأشد . وعلى حد قول ذاع فى عصر الملكة فيكتوريا ، أخذت الطبقات المتوسطة تنطوى على نفسها ، وأخذت صلات المواطنة والجوار تجنح نحو الزوال ، ولم تعد شئون المدينة موضع اهتمام من أحد .

ولسد الفراغ الناشئ من عدم وجود عمل منزلى مثمر ، ابتكر نوع جديد من العمل المنزلى ملأ حياة الكسل وزاد من مظاهر عملية الاستهلاك ، وأعنى بذلك العناية بالأثاث ، فقد كانت المشتملات الثابتة للمنازل فى العصور الوسطى عبارة عن معدات تتألف من مقاعد للجلوس ، وأسرة للنوم ، وأيقونات للصلاة أمامها ولا شىء أكثر من ذلك ، فالأثاث فى الحقيقة ابتكار أحياه العهد الباروكى من جديد ؛ إذ أننا نعنى بالأثاث المعدات التى لا فائدة منها أو الممتازة فى صنعها إلى حد بالغ ، مثل « الفازات » الرقيقة التى تستوجب العناية بإزالة الغبار عنها ، والأخشاب الثمينة والقطع المكفتة التى تستدعى الاهتمام بلمعانها ، والمصنوعات المعدنية التى تستلزم الإبقاء على بريقها ، والستائر التى تحتاج إلى نفضها وتنظيفها ، والتحف والقطع الغريبة التى توضع للزينة وتتطلب الغسيل والتنظيف .

ولقد تفوق غرض العرض على غرض المنفعة ، واستلزمت العناية بالأثاث الوقت الذى كان يصرف فى وقت ما فى نسج الأقمشة المزركشة ، وتطريز الملابس ، وصنع ما يفيد أهل البيت من المأكولات التى يمكن حفظها ، والعطور والعقاقير البسيطة . ولقد ألقيت هذه الأعباء الجديدة على كاهل ربات البيوت والخدم فى عين الوقت الذى تغير فيه شكل البيت ذاته ، مما أدى إلى تضاعف عدد الغرف التى يجب تزويدها بالخشب والفحم والماء ، وإلى زيادة ارتفاع المساكن ، فبدلا من طبقتين من الدرج ، أصبح فيها خمس طبقات كانت إحداها تحت الأرض .

وإلى حلول القرن السابع عشر – فى الشمال على الأقل – لم يكن قد طرأ على المبانى ووسائل التدفئة من التقدم ما يسمح بإعداد غرف خاصة متعددة فى المسكن ، بيد أنه قد حدث الآن فصل بين الوظائف فى داخل المنزل وفى داخل المدينة فى مجموعها سواء بسواء . فقد أصبح لكل حيز فى البيت ، أى لكل غرفة ، اختصاص معين ، ففى إنجلترا – جرياً على نمط الدور الكبيرة – عزل المطبخ عن مكان غسل الأوانى ، حيث كان يؤدى كل عمل فيه قذارة ، وأما الوظائف الاجتماعية المختلفة التى كان المطبخ يؤديها فقد آلت إلى غرفة الجلوس وغرفة الاستقبال . ويروى لنا هولم أن « استخدام مائدة الأكل العامة لجميع أهل المنزل قد زال فى السنين الأولى من القرن السابع عشر ، ومنذ ذلك الحين كان الخدم يتناولون وجباتهم فى البدروم » .

وقد بلغ ما وصل إليه اتساع الفجوة بين الطبقات أنه حتى عندما حاول الرجل الإنسانى إمرسون أن يعيد هذا الوضع الديمقراطى ، قوبل بثورة من جانب خدمه ، وأرغم على العدول عن هذه المحاولة . ولم يعد يتسنى استخدام حجرة الطعام كحجرة للنوم أيضاً ، وعلى الرغم من أنه فى القرن السابع عشر كانت حجرة نوم السيدة ما زالت تستعمل حجرة لاستقبال

ضيوفها – سواء أكان سرير النوم موضوعاً فى فجوة غائرة فى الحائط أم لم يكن – فإنه فى القرن الثامن عشر ظهرت إلى الوجود حجرة خاصة للاجتماع وتبادل الأحاديث ، وهى حجرة الاستقبال (الصالون) . ولم تعد الغرف تؤدى إلى بعضها بعضاً ، بل كانت تجمع على جانبى الدهليز ، شأنها فى ذلك شأن المنازل المقامة على جانبى ما يقابل الدهليز فى المدينة ، وهو الشارع الجديد للمرور ، فقد كانت الحاجة إلى العزلة سبباً فى ظهور هذه الوسيلة الخاصة لحركة المرور العامة .

وكانت العزلة هى اللون الجديد من الترف لذوى اليسار ؛ ولم يتسن للخدم وعمال المتاجر ودور الصناعة ، أن يحصلوا على قدر طفيف منها إلا شيئاً فشيئاً . وحتى فى المنازل الأنيقة فى القرن التاسع عشر ، كثيراً ما كان الخدم ينامون فى المطبخ أو على سرير ضيق فى مكان يجاوره ، أو فى غرفة للنوم يتشاركونها جميعاً . ولقد كانت العزلة فى العصور الوسطى مقصورة على النساك ، أى على ذوى التقوى الذين كانوا ينشدون ملاذاً من خطايا العالم الخارجى وشواغله ، وفيما عدا ذلك لم يكن ميسورا لغير السادة النبلاء من رجال وسيدات أن يحلموا بالاستمتاع بالعزلة . وفى القرن السابع عشر كان فى العزلة ما يشبع ذات الفرد ؛ إذ أصبحت غرفة السيدة خلوتها (boudoir) ، وهى كلمة معناها الحرفى « مكان العبوس » ، وأما السيد فقد أصبح له مكتبه أو مكتبته ، وكانت هذه القاعة كذلك مكاناً مصوناً من الفضول . وكان فى وسعه فى باريس أن تكون له أيضاً حجرة نوم خاصة به ، نظراً إلى أن كلا من الزوج والزوجة كان يتابع مغامراته الغرامية على حدة . وللمرة الأولى لم يكن يفصل بين كل فرد وآخر من من أهل المنزل مجرد ستار ، بل باب .

فالعزلة والمرايا والغرف المدفأة ، هى الأشياء التى حولت ذروة الصلات الغرامية من عملية لا تتم إلا فى أوقات معينة إلى عملية تجرى على مدار السنة ،

وهو مثال آخر للانتظام الباروكى ، فنى الغرفة المدفأة لا يكون الجسم فى حاجة إلى الانكماش تحت الغطاء ؛ فقد كانت الإثارة الناجمة عما تراه العين تزيد من الإثارة المترتبة على الملامسة ، وكانت متعة الجسم العارى — وهى التى رمز إليها تيشان (Titian) وروبنز (Rubens) ، وفراجونار (Fragonard) — جزءاً من ذلك الانبساط فى الحواس الذى كان يصحب تناول الأطعمة الفاخرة ، والإكثار من تعاطى الخمور والمشروبات الروحية القوية ، ويقترن بما هو بالغ الإسراف من الملابس والعطور المعروفة فى ذلك العصر .

وكانت المغازلة وإبداء الحب يتسببان فى صدور تلك الحركات التى تنم عن القلق والحيرة ، وعن الإغراء والعزوف ، وهى التى تكون بمثابة عوامل الوقاية من إشباع الرغبة ، وتنطوى على ما يوازن تحكم العادة : وهؤلاء الرجال والنساء ، الذين كانت تستبد بهم الشهوات ، كانوا لايشعرون فى أى مكان بأنهم على سجيتهم بقدر ماكانوا يشعرون به عندما يكونون فى فراشهم ، فالسيدات كن يستقبلن الزوار وهن فى الفراش ، ورجال الدولة كانوا يملون رسائلهم وهم فى الفراش ، وهكذا كان تيار خفى من الشواغل الشبقية يسرى بين أهل المنزل ، وكان يبدو أحيانا بمظهر فاجر ، وأحياناً بمظهر وحشى ، وآناً بلون شاعرى ، وآونة بلون رقيق — أى على كل لون ، ابتداء من حجرة نوم جولييت إلى الحجرة التى كاد چوزيف أندروز يفقد فيها عفته . ولقد بلغ من شأن الاحتياجات الخاصة بحجرة النوم ، أنها امتدت كذلك إلى الحديقة ، حيث الدار الصيفية ، أو معبد الحب ، أو ما هو أرق مثالا وأكثر أرستقراطية ، ونعنى به ذلك التيه الذى كان يتكون من أسيجة مرتفعة من شجيرات البقس ، ويتألف من أماكن بعيدة عن عيون الفضوليين ووقع الأقدام المنذرة بالاقتراب منها حتى ولو كانت أقدام الخدم .

٤ — زوال الحمام

وفى خلال ذلك دخلت — على استحياء — تغييرات تقنية أخرى منازل السكنى ، فإن ما قام به السير جون هارينجتون من ابتكار المرحاض فى سنة ١٥٩٦ أوجد فى المنزل تحسيناً هاماً من الناحية الصحية ، ولكن هذه البدعة لم تنتشر بسرعة ، فحتى المرحاض الداخلى الجاف لم يدخل فرنسا إلا فى القرن الثامن عشر بوصفه من المستحدثات الإنجليزية ، على حين أن قصر ڤرساى ، الذى شيد دون مراعاة للنفقات ، لم يكن يحتوى حتى على وسائل الراحة التى كانت موجودة فى قلاع العصور الوسطى ، فقد كانت تستخدم فيه كراسى جهزت بوعاء لإزالة الضرورة كما جهزت بعجلات ليتيسر نقلها من مكان إلى آخر . وقبل ابتكار الأنبوبة المنحنية (الكوع — trap) وماسورة التهوية لاستخدامهما فى المرحاض ، كان ارتداد غازات المجارى إلى المسكن يكاد يتعادل مع مزايا التحسين الجديد ، ولنذكر انشغال بال الإنجليز طوال القرن التاسع عشر بأمر « المجارى السيئة » . ولقد صحب ظهور المرحاض — وكان من الأساليب التقنية المبكرة — عادة أخرى مستمدة من الصين رأساً ، وهى عادة استخدام ورق المرحاض ، وكان أجل شأناً للصحة المنزلية من ورق الحيطان الذى ظهر فى الوقت عينه تقريباً .

والمدينة الباروكية ، مع كل ما فيها من مظاهر الترف ، لا تقوى على الصمود أمام الفحص الدقيق فى أمر مستوى الصحة العامة والوسائل الصحية ، فإن المدينة النمطية للعصور الوسطى كانت أكثر توافراً للشرائط الصحية . وعلى الرغم من كثرة الإشادة بالجسم عندئذ فى الشعر والتصوير ، أو فرط الاهتمام بدراسته من الناحية الفسيولوچية ، فإن أهل ذلك العصر كانوا يهملون تنظيفه بمثل العناية التامة التى كان يبذلها أبناء الحضارة السابقة ، ومن المحتمل أنه من أجل الإقلال من خطر التعرض للإصابة بمرض الزهرى عن طريق الاختلاط ، أخذ الناس فى القرن السادس عشر ينقطعون عن التردد على

حمام العصور الوسطى : وحتى فيما بين اليهود ، الذين كان فى وسع المرء أن يتوقع أنهم احتفظوا فى الأحياء الخاصة بسكناهم بعادات العصور الوسطى التى كانت شديدة التوافق مع التعاليم الموسوية فيما يتعلق بالشئون الصحية ، نجد أن الاستحمام الذى كانت تقضى به الطقوس ، وكان يتم عادة فى الكنيس — التطهر "Mikveh" — قد أغفل فى خلال عصر النهضة . وإذا كان الأتباع الجدد لطائفة البابتست يصرون على وجوب التعميد بغمر الجسم بأكمله فى الماء ، فإن مرورهم بهذه التجربة مرة واحدة كان يغنيهم فيما يبدو عن الاستحمام طوال الحياة .

ولا شك أن ارتفاع ثمن الماء الساخن كان له بعض الشأن فى هذا الازورار عن الاستحمام بين عامة الشعب على الأقل ، ولعل سبب هذا الارتفاع كان قلة وجود خشب الوقود فى الأماكن المجاورة للمدن الكبرى مباشرة ، إلا أن الشك لا يرقى إلى الواقعة فى ذاتها . ففى سنة ١٣٨٧ كان يوجد فى فرانكفورت ٢٩ من فئة أصحاب الحمامات ، أما فى سنة ١٥٣٠ فإنه لم يكن يوجد أحد من هذه الفئة : وفى القرن السابع عشر ، أى بعد فترة انقطاع ، عاد الحمام إلى الظهور — بوصفه بدعة أجنبية مستوردة ، ولوناً من الترف ، ووسيلة لإنعاش البدن بعد نزوة فجور — فقد ظهر عندئذ ما يسمى بالحمام التركى أو الروسى . بيد أنه فى الوقت عينه تقريباً ، أصبحت هذه الحمامات مباءات للهو ودوراً للتلاقى وضرب المواعيد ، وعادت كلمة حمام (bagnio) من جديد تعنى ماخورا . وفى هذه الفترة تفشت الأمراض الناشئة عن القذارة كالجدرى ، وتبعاً لازدحام المدن فإن كمية المياه التى كانت وافية بالحاجة عندما مدت الأنابيب فى القرن السادس عشر ، ثبت أنها لا تفى بالغرض على الإطلاق . ولما كان لم يطرأ تجديد ولا امتداد على هذه الأنابيب فى أحوال كثيرة ، فإن نصيب كل فرد من الماء فى القرن الثامن عشر كان أقل بكثير من نصيب الفرد قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة قرون .

وعندما شق الحمام طريقه أخيراً إلى داخل المنزل فى القرن التاسع عشر على أنغام التقدم الميكانيكى الذى ظهر فى ذلك الحين ، فإن الآثارى الذى تخلف عن ركب الزمن هو وحده الذى قد يسلم بأن يوهان أندرياى قد سبق له أن خصص مثل هذه الحجرة لكل مسكن يتألف من ثلاث حجرات فى مدينته المثالية كريستيا نوبوليس ، وبأن مثل هذه الحجرات كانت مألوفة فى المنازل الأفضل حالا فى مدن ألمانيا فى العصور الوسطى .

٥ — السيطرة والمظاهر الباروكية

إذا تركنا جانباً نشاط الاستعمار فيما وراء البحار ، فإن المدن الرئيسية الجديدة التى بنيت فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر كانت إما « مدن إقامة » للملوك والأمراء مثل فرساى ، وكارلسروه ، وبوتسدام ، وإما مدن حاميات ، أى مقرات للسلطات الملكية « فى أثناء غيبتها » ، مثل لندندرى وفيليبفيل وكريستيانسند : وإنما فى مثل هذه المدن وحدها كان يتسنى تنفيذ النظرية الباروكية فى التخطيط تنفيذاً كاملا فى كل ناحية من النواحى ، وعند ما حاول كريستوفر رين (Wren) أن يفعل ذلك فى لندن بعد الحريق الكبير فى سنة ١٦٧٠ حبطت محاولته بسبب العادات التجارية الراسخة والغيرة على حقوق الملكية :

وكانت المدينة الباروكية فى الواقع بمثابة « عمل ينفذ بالأمر السامى » سواء أكانت بوصفها مقراً دائماً للأمير « وبلاطه » أم بوصفها حصناً لجيشه : وكان توسيع المدينة طبقاً لقواعد جديدة يجرى عادة فى مدن العواصم مثل نابولى أو ميونيخ ، أو فى مدن أرستقراطية مثل نانسى (١٥٨٨) أو أدنبره (١٧٦٥) . وفى مدن مثل لندن وأدنبره كان أفراد الطبقة البورجوازية الجديدة أنفسهم قد بلغوا فى ادعاءاتهم ومدى نفوذهم مستوى الطبقة الأرستقراطية تقريباً :

وهذه الرعاية الأصلية ربطت بين تخطيط المدينة ذاته وبين السلطة الاستبدادية ، مما قد يعلل إلى حد ما نظرة الشك التى تقابل بها عملية التخطيط بأكلها فى الأوساط الديمقراطية خلال القرن التاسع عشر ، فإن مذهب « حرية العمل » لم يكن يعنى التحرر من قواعد نظام النقابة ومن الاحتكار فحسب ، بل التحرر كذلك من الأنظمة المركزية ومن التحكم أياً كان لونه بما فى ذلك تحكم واضع تخطيط المدينة . وكانت أساليب تخطيط المدينة ، على النحو الذى كان يتبعه ممثلو الأمير المتغطرسون ، هى المسئولة عن قدر غير قليل من هـذا العداء : ففى سنة ١٤٩٢ مثلا أمر لودڤيكو المغربى (Ludovico the Moor) سكان فيجيفانو (Vigevano) أن يهدموا سوقهم القديم ويعيدوا بناءه طبقاً للتخطيط الذى وضعه مهندسه أمبروجيو دوكيرتيس (Ambrogio de Curtis) . وفيما عدا الكاتدرائية ، أنجز العمل بأسره فى بحر سنتين فى عجلة لا تعرف هوادة ولا رحمة مما كان خليقاً أن يعود بالفخر على رجل مثل البارون هوسمان . ولقد كانت سمات المهندس العسكرى واضحة فى كل من الخطط والأساليب فى آن واحد ، ولذلك فإنه لا حاجة بالمرء إلى الدهشة إذا وجد أن أهم الرسائل الباروكية عن تخطيط المدن قام بوضعها أمثال هؤلاء المهندسين : مارتينى (Martini) وبيريه (Perret) وسبيكل (Speckle) . ولذلك أيضاً فإن أكثر مقترحات التخطيط أصالة — وهى تلك التى كانت ترمى إلى فصل شوارع حركة المرور عن طرق السائرين على أقدامهم ، وإلى تقسيم المدن التى تجاوزت الحد فى نموها إلى وحدات أقل حجما تتألف من ٣٠٫٠٠٠ من السكان — قد صدرت كذلك عن عبقرى كان يزاول أيضاً الهندسة العسكرية وهو ليوناردو داڤنشى .

وقبل ابتكار الجرارات الثقيلة بزمن طويل ، نجد أن المهندس العسكرى الإيطالى ، عن طريق تخصصه فى الهدم بحكم مهنته ، قد اكتسب عادة التفكير الهدام الذى ينشد إزالة ما فى الأرض من عوائق حتى يتيسر له أن

يبدأ الإنشاء من جديد طبقاً لقواعده الرياضية الصلبة . وكثيراً ما كانت هذه « العوائق » عبارة عن مساكن بشر ، وحوانيت ، وكنائس ، وأحياء جوار ، وآثار تذكارية لها نفاستها وقدرها — أى إنها كانت سدى ولحمة نسيج كامل من العادات والاتصالات الاجتماعية ، فكان من شأن الإزالة الشاملة للمبانى التى تتجسم فيها هذه الأوضاع من الحياة ، القضاء على ضروب الترابط والولاء التى قامت على مدى عمر بأكمله ، وكثيراً ما كان ذلك على مدى أجيال عديدة . أما أنه فى سبيل القيام « بعمل كامل » كان لا بد لواضع التخطيط من أن يهدم أجهزة اجتماعية لم يكن يتسنى استبدالها بمثل السهولة التى كان يتيسر بها رصف الشوارع وبناء المنازل ، فذلك ما لم يكن يبدو أمراً خطير الشأن فى نظر المهندس العسكرى المبكر أكثر مما يبدو فى نظر خلفائه فى القرن العشرين الذين يتولون أمر « مشروعات إزالة الأحياء الفقيرة » أو وضع تصميم الطرق الرئيسية .

وفى سبيل مراعاة مقتضيات الكفاية المكنية والتناسق الجمالى الظاهرى ، أغفل المهندس التكوين الاجتماعى للمدينة ، وفى محاولته العمل على زيادة سرعة حركة المرور ، أقام العراقيل دون الاجتماع والتعاون بين أولئك الذين كان مفروضاً أن يقوم نظام المرور لخدمتهم . وعلى هذا الوجه فإن بارون هوسمان لكى ينشئ بولفارسان ميشيل ، ذلك الطريق الكئيب الحافل بالضوضاء ، شق قلب الحى اللاتينى القديم الذى كان وحدة قائمة بذاتها تقريباً منذ العصور الوسطى ، وعمد إلى أبسط الوسائل جميعاً لتحسين جزء منه بأن أزاله تماماً . ولم يقتصر على إزالة المبانى القائمة فى المنطقة المحيطة بالمعاهد الدراسية ، بل إنه انحرف جانباً فى عمليته واقتطع كذلك جزءاً من حديقة لوكسمبورج ، وبذلك فإنه فى سبيل الخطوط المستقيمة والشوارع العريضة ومرور العربات بلا عائق ، ضحى بالطابع التاريخى المميز للحى وبكل ما كان يكفله من احتياجات الناس وأغراضهم .

ولقد بقيت إلى صميم القرن العشرين هذه الرواسم الباروكية الثابتة التي تنم عن القوة والبطش — بقيت سافرة لا تسترها ولو غلالة من مظاهر الاستحياء ، وآية ذلك ما حدث عند إطالة سمنث أفنيو (Seventh Avenue) من اجتياح الحي التاريخي الوحيد في نيويورك الذي كانت له وحدته المتماسكة وطابعه الخاص ، أو ما يماثل ذلك ، بل ما يفوقه : المحو والإزالة من جراء إنشاء شارع كان ثمرة التصور السقيم ، ذلك هو شارع بنيامين فرانكلين في فيلادلفيا ، الذي ما زال بمثابة جرح عميق بالغ الوحشية لم تبرأ منه المدينة بعد على الرغم من مرور أكثر من ثلاثين سنة على إصابتها به . ولعله لا يزال يوجد لهذا النمط من التخطيط بعض ما يسوغه حيثما تكون الأوضاع الباروكية الأصلية ما زالت سائدة ، وعلى هذا فإن شارعاً عريضاً قصيراً وملائماً ، من الناحية الرمزية ، يصل بين قوس الأميرالية وقصر بكنجهام في لندن ، وتصطف دور سفارات أجنبية على الشط الذي يعلوه . بيد أنه في جهات أخرى ، لا يكون من شأن مثل هذه الخطط — التي ما زال يسود الاعتقاد الساذج بأن واضعيها « عصريون » — إلا أن تكرر بأمانة وعلى ذات المنوال ، ما كانت ترتكبه سلطة الأمراء من حماقات اجتماعية . وتتغلغل هذه الأخطاء بين طيات الماضي حتى عهد برامانتي[1] (Bramante) ، فإن رسالة من عصره تتهمه بنشر الخراب وإثارة الرعب في روما ، وتعزو إليه أنه اقترح على القديس بطرس أن يستبدل بالطريق الضيق الشاق المؤدي إلى الجنة — الذي جرت بذكره الأمثال — شارعاً عريضاً مستقيماً مرصوفاً رصفاً جيداً .

ولما كان التخطيط الجديد ربيب السلطة العسكرية المستبدة ، فإنه تميز عن التخطيط القديم المتحرر الذي كان متبعاً في العصور الوسطى باستخدام الخطوط المستقيمة ووحدات للمباني منتظمة في شكلها متماثلة قدر الاستطاعة في مساحتها ، إلا حيثما كان انحراف اتجاه الشوارع سبباً في جعل أشكال

---

(١) كان برامانتي معمارياً إيطالياً (حوالى ١٤٤٠ — ١٥١٤)

الوحدات متعددة الأضلاع والزوايا . ولقد كان النظام الجديد يجنح على وجه قاطع نحو الانبساط ، فكان يتميز بالساحات المفتوحة أو الميادين المستديرة وما يتفرع منها من شوارع وطرق عريضة تشق اتجاهها سواء بسواء وسط أحياء قديمة معقدة التخطيط أو أحياء جديدة قائمة على التخطيط الشبكى ، وتمضى قدماً نحو الأفق الذى لا حد له ، فلا مكان هناك للفضاء الداخلى ! والواقع أن التخطيط على هيئة النجمة كان من المبتكرات الباروكية الأصيلة ، ولو أنه ، كما أوضحت من قبل ، قد ورد ذكره لأول مرة فى صورة اقتراح أدلى به أريستوفان فى مسرحياته على سبيل السخرية ، إلا أن القائم بتخطيط المدينة فى العهد الباروكى حوّل ذلك الضرب المنسى من الزهو إلى حقيقة واقعة . بيد أنه كانت لديه دوافع أملتها عليه طبيعة حرفته ، فإنه من مثل ذلك المركز المتوسط كان يتسنى للمدفعية أن تسيطر على كل طريق يؤدى إليه . ولقد كان النموذج المثالى للتخطيط الجديد قائماً على اعتبارات عسكرية يرجع تاريخها البعيد إلى عهد فرانشيسكو مارتينى الذى وضع حوالى سنة ١٥٠٠ التخطيط المثمن الشكل مع تفرع الشوارع من المركز . ولقد أنشأت جمهورية البندقية فى سنة ١٥٩٣ مدينة جديدة على هذا النسق هى بالمانوفا (Palma Nuova) كما أن أحد الهولنديين المشتغلين بالتخطيط شيد ما يقابلها فى كويوردين (Coeworden) بعد ذلك بأربع سنوات ، وقامت على أثرها جليكستات (Glückstadt) على نهر الألب ، فى سنة ١٦١٦ ، على بعد أربعين ميلا تقريباً من مدينة هامبورج .

بيد أن مشروعات التخطيط المثالية للمدن الصغيرة والأوضاع الواقعية التى استمدت منها وطبقت فى مشروعات أكثر اتساعاً يجب أن تعتبر بصفة أساسية تدريبات عسكرية فى مجال علم الجمال العسكرى ، أى نماذج صغيرة لعرض القوة . وعلى الرغم من أن المدن الصغيرة التى كانت تبنى برمتها طبقاً لمثل تلك النماذج المغلقة ، كانت بطبيعة تحديدها المادى عاجزة عن النمو ،

فإنها أوجدت طرازاً من التفكير كان له تأثير واسع المدى . فالشوارع الثلاثة الكبرى التى تتفرع من ميدان الشعب (بياتزا ديل بوبولو) فى روما وتعزى فكرتها إلى البابا سكستس الخامس قد صممت لتيسر على الحجاج سبل الوصول إلى مختلف الكنائس والأماكن المقدسة ، إلا أن تصميمها وضع على ذات النمط العسكرى الذى لا ينثنى ولا يلتوى ، وليس من قبيل المصادفة أن أحدها وهو شارع كورسو (Corso) أصبح الشارع الرئيسى لحركة البيع والشراء فى روما ، ويموج بعربات الباعة .

وكما قد يتوقع المرء من طبقة أرستقراطية مولعة بالصيد ، كان النموذج السابق لتخطيط الشوارع طبقاً للنمط النجمى ، هو ذات الحديقة الملكية للصيد . فهنا كانت الدروب الطويلة ، التى شقت بين الأشجار ، تمكن الصيادين الفرسان من التجمع فى نقطة مركزية والانطلاق فى شتى الاتجاهات ؛ والصيد وما يقترن به من ركوب الخيل بسرعة تدق الأعناق ، ما زال إلى اليوم الرياضة التى تستمتع بممارستها البقية الباقية من الطبقة الأرستقراطية فى كل بلد ، ونقطة التجمع الرئيسية ، الساحة المستديرة ، كانت أصلا موقع بيت الصيد الذى كان الصيادون ينزلون فيه عند ممارستهم رياضتهم . وعندما وضع مشروع تخطيط فرساى ، أقيم القصر الجديد فى الموقع الذى كان يقوم عليه بيت الصيد القديم الذى كاشف فيه لويس الرابع عشر بحبه لأول مرة عشيقته مدام دولافاليير (Mme de la Vallière) . بيد أنه فى تخطيط عاصمة ملكية ، أصبح مكان التجمع يؤدى الآن غرضاً آخر ؛ إذ أن القصر جمع نحوه كل الشوارع العريضة الجديدة ، على غرار ما قام به الحاكم نفسه من جمع السلطة السياسية التى كانت فى وقت ما موزعة بين عدد كبير من الأسر الإقطاعية والهيئات البلدية ، فكانت الشوارع العريضة كلها تؤدى إلى القصر . وعند ما كان السائر فى الطريق يرفع عينيه كان القصر فى أغلب

الأحيان هو الذى ينتهى إليه المنظر ، فكان محور الاتجاه يؤدى وظيفة الضوء القوى الموجه لتركيز الانتباه على الأمير .

وفى البلاد اللاتينية بوجه خاص ، ظل التخطيط طبقاً للنمط النجمى ، لمدة ثلاثة قرون ، بمثابة الأمارة المميزة للتخطيط الحضرى الأنيق ، ولم يترك هذا الطراز طابعه فى فرساى وحدها ، بل فيما يماثلها من الضواحى مثل جارش (Garches) وميدون (Meudon) ، وإلى عهد متأخر حتى سنة ١٨٥٩ منحت الجائزة الأولى فى مسابقة لوضع مشروع لتوسيع برشلونة ، إلى مشروع تتجه أقطاره نحو المركز التاريخى للمدينة القديمة . بل إنه بعد ذلك ، فى سنة ١٩١١ على وجه التحديد ، وضع تخطيط لحى سكنى جديد فى روما يتوسطه ميدان رئيسى — على سبيل التقليد ، وإنما دون هدف له الآن — ليكون بمثابة مركز فسيح تتشعب منه الشوارع .

وكذلك فى منطقة الحدود (الإنجليزية) لكندا العليا ، وضع فى سنة ١٨٢٩ مشروع تخطيط لمدينة جودريتش (Goderich) الصغيرة وفيه جعلت ساحة السوق — وقد غرست الآن بالأشجار على نسق جميل — كالصرة التى تتوسط العجلة وتخرج منها ثمانية برامق لها من الاتساع ما يكفى لسد حاجة حركة المرور فى الوقت الحاضر . والواقع أن هذا النوع من التخطيط قد قلد على نطاق يبلغ من الاتساع ما بلغته الحضارة الغربية ذاتها ، فظهر فى أماكن متباعدة بعضها عن بعض بعد سمرقند عن واشنطون . وتخطيط سمرقند ، الذى يرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر ، كان فى الحقيقة نمطياً من كل الوجوه ، بل مثالا للنموذج الأصلى للطراز الباروكى . ففى الوسط قلعة ، وإلى الشرق منها كانت تمتد المدينة القديمة ، ومن القلعة كانت الشوارع العادية والعريضة للمدينة الجديدة تتفرع صوب الخارج فى اتجاه غربى . وهل كان من قبيل المصادفة أن هذه الشوارع العريضة كانت تنتهى شمالا وجنوباً عند ثكنة عسكرية ومستشفى عسكرى ؟ .

بيد أنه كان للتخطيط النجمى منشأ آخر يوازى ما تقدم ، ففى المشروعات المبكرة لإقامة التحصينات على هيئة النجمة ، أصبحت المدينة القائمة فى داخلها ذات شكل منتظم يتألف من ثمانية أضلاع ، وكانت الشوارع الرئيسية إما متقاطعة على هيئة صليب ، وإما منسقة بحيث تبدأ من كل زاوية من زوايا الشكل الثمانى الأضلاع وتتجه نحو المركز . وعندما فقد هذا النوع من التحصينات قيمته ، كانت النتيجة الرئيسية التى نشأت عن هذا النموذج الجديد ، هى أنه جعل المدينة ذاتها ، أو الحى ، قطاعاً من التخطيط الأصلى المشابه لبيت العنكبوت ، مع تفرع الشوارع الأخرى العريضة واتجاهها نحو إحدى الحدائق ، أو نحو الريف الطلق ، كما هو الشأن فى مدينة كارلسروه الملكية . وسنعود فيما بعد إلى دراسة تطبيق هذا التخطيط تطبيقاً مثمراً فى أجمل مدن القرن السابع عشر قاطبة وأشدها حيوية وهى امستردام التى يحتمل أنها ما كانت لتبلغ إطلاقاً ما بلغته من الكمال الأصيل لولا تلك الفكرة الهندسية بالذات .

وإن خطة إنشاء ميدان مركزى – سواء أكان دائرى الشكل أم مربعه ، وتشرف عليه نصب تذكارية ، وتقوم مبان عامة على جوانبه بشكل متماثل ، وتتفرع منه شوارع عريضة – إن هذه الخطة أحدثت تأثيراً بعيد المدى فى جميع المبانى صغيرها وكبيرها . وعلى النقيض مما كانت عليه مدينة العصور الوسطى ، حيث كان يتحتم على المرء أن يجوس خلالها على مهل لكى (يقدر) قيمة ما يصادفه من تغيرات لا نهاية لها من حيث الحجم والمنظر ، وما بها من تفصيلات معقدة تدعو إلى الدهشة ، فإنه فى وسع المرء أن يلم بالمدينة الباروكية فى نظرة واحدة تقريباً ، عندما تستقر خطوطها الأساسية فى ذهنه ، بل إن ما لا تراه العين منها يسهل على المرء أن يتمثله فى مخيلته . والآن أصبح الشارع العريض ، على وجه قاطع الإطار الأفقى للمبانى الرئيسية التى تحدد معالم المدينة : وإذا كانت هذه

المبانى تعلوها قباب أو أبراج تنتهى بقباب ، فإن الأثر الرئيسى لهذا التخطيط فى ذاته ، كان إبراز أهمية الخطوط الأفقية التى تنتظمها المبانى وتتكون من خطوط العتب وأحزمة الواجهة والكرانيش ، فلأول مرة اجتمعت هذه الأجزاء جميعا فى شكل منظور واحد ، كان مما يزيد من شدة وقعه فى النفس امتداد الشارع العريض امتداداً لا نهاية له .

ولم يقتصر الأمر على أن قباب المبانى الرئيسية كانت تبدو كأنها طافية ، بل إن المبانى ذاتها عندما كانت تشيد بمفردها فى نهاية شارع عريض الاتساع كانت تطفو كذلك فى الفضاء ، بل كانت فى بعض الأحيان تكاد تتلاشى فيه ، كالمبانى التى تقوم حول ميدان كونكورد . وإذا كان من المحتمل أن مدينة العصور الوسطى بإصرارها على إقامة الأسوار حولها كانت فى أسوأ الأحوال تحدث شعوراً قاتلا بالخوف من الأماكن المغلقة ، فإن المدينة فى عهد السلطان المطلق كانت تحدث عكس ذلك التأثير تماماً ، وهو الشعور بالخوف المميت من الأماكن الطلقة ، أى الفزع من الفراغ الذى لم يخفف من وطأته إلا أن الحركة الدائبة للعربات كانت تبدد شمل الفضاء .

والواقع أن تحرك المتفرج بسرعة فى خلال هذا الفضاء — سواء فى عربة أو على ظهر جواد — كان عاملا أساسيًّا للتخفيف من وطأة السمات الجمالية المملة لهذه الشوارع العريضة المتجانسة بمبانيها المتجانسة ، وأخيراً بتجانسها الذى يتجاوز الحد فى استخدام الطرز الكلاسيكية . فقد كان لا يتسنى التغلب على ذلك القدر من الجمود الذى كانت العمارة تتسم به إلا بالربط ربطاً وثيقاً بين الحديقة والطريق المحفوف بالأشجار وبين شكل الشارع الحضرى الجديد . وبفضل استخدام مثل هذه الخضرة ، توافر لشارع الأوبزرفاتوار وللشانزيلزيه طابع رشيق لم يكن معدوماً مطلقا ، حتى فى شوارع المضاربة التجارية التى عرفتها باريس كما خططها هوسمان .

وأياً كانت الأغراض الأخرى التى كان التخطيط الباروكى يمثلها ، فإنه يدل على الغزو العسكرى للأرض الفضاء . أما النتائج التى عادت على الناس فإنه لم يكن لها أى اعتبار إلا من حيث إنها أسهمت فى خدمة صوالح الطبقات العليا ، بيد أنه عندما زال التحصين الرادع تبين أن الشارع العريض الجديد ، بطوله الذى لا ينتهى ، كان مكمن ضعف ؛ إذ أنه انتقص من قدر الملك ورعاياه على السواء .

وهنا موطن ما تنطوى عليـه السلطة من تناقض ، فإن السلطة السياسية المركزية تستمد نشأتها من محض ما لشخصية بارزة متسلطة من قوة وكفاية ، ولكنها تصبح سلبية عندما تؤول جميع هذه الصفات ووجوه النشاط إلى جهاز رسمى ينقل السلطة الأصلية إلى نقطة بعيدة عن طريق هيئة من الموظفين والعسكريين . وإذا كان الطغيان يقوم نتيجة لما يحدث من الارتباك والعجز فى ظل النظم الديمقراطية ، فإنه من الصحيح كذلك أن النظم الديمقراطية المبتذلة نتيجة محتومة للمرحلة الأخيرة للطغيان ، حين تتوافر الكفاية وتختل الإنية ، وبعد فترة من الزمن يغدو أعظم الأباطرة ، أو أقطاب المال ، أو الديكتاتوريين ، ولا وزن له أكثر من رجل الشارع ، فكلاهما باتا من أسنان عجلة مثبتة فى الجهاز الآلى عينه . وإذا كان قصر پيتى (Pitti) لا يزال يبدو رهيباً عندما ننظر إليه عبر فنائه ، فإن قصر ڤرساى عندما ننظر إليه عن بعد شاسع ، لا يبدو أكثر رهبة من وحدة أفقية فى مصنع للدمى بنيت لينتظم فيها العمال فى خط مستقيم للقيام بعملية جمع أجزاء الدمى . وقد كان شأن الشوارع العريضة الطويلة الامتداد شأن مرآة يتناقص فيها حجم انعكاس المنظور كلما بعد عنها ، فى الشكل المنظور لڤرساى أو سانت بطرسبرج أخذت الشخصية الرئيسية هناك — سواء أكانت للملك أم لقيصر — أخذت تتضاءل باطراد وسرعان ما بلغت نقطة التلاشى السياسى .

٦ — الوظائف الحضرية بوصفها بقايا فائضة

لقد ضحى بالمدينة فى التخطيط الجديد — كما أوضحت — من أجل أغراض حركة المرور ، فأصبحت الوحدة فى التخطيط هى الشارع وليست منطقة الجوار ولا الحى . ولقد جلب الشارع العريض المتجانس الحركة والاضطراب إلى أحياء من المدينة كانت من قبل هادئة مكتفية بذاتها ، وكان من شأنه الاتجاه نحو بسط نطاق السوق على امتداد خطوط حركة المرور ، بدلا من توفير مواقع محلية يتركز فيها الجيران حيث يتلاقون ويتجمعون — ولو أنه فى مدن مثل لندن ، أقل تأثراً بنفوذ الآراء الباروكية من أغلب العواصم الكبرى ، كان لا يزال يسود احتشاد أهل الجيرة فى عدد قليل من الشوارع القصيرة حيث كانت تقوم السوق . وأما حيز السكنى فإن التخطيط الباروكى كان يعتبره البقية التى تبقت بعد ما حددت الشوارع العريضة بذاتها شكل رقاع المنازل ومدى عرض الوحدات السكنية .

ولقد صحب هذا الإغفال للوظائف الحضرية — إلا فيما يتعلق بحركة المرور — المغالاة فى تقدير قيمة الشكل الهندسى ، ومن ثم وجد شكل مربع مثل فرويدنشتات (Freudenstadt) الجديدة ، أو شكل ذو تسع أضلاع تشقه شوارع تتفرع من مركز واحد ، مثل بالمانوفا ، أو شكل على هيئة نجم غير كامل مثل كارلسروه . فما معنى هذا ؟ معناه أن الشكل المجرد يحدد نطاق المشتملات الاجتماعية ، بدلا من أن يكون مستمداً منها وإلى حد ما مطابقاً لها . فلم تعد منظمات المدينة هى التى يتولد عنها التخطيط ، بل إن مهمة التخطيط قد غدت على الأصح تحقيق تطابق المنظمات لإرادة الأمير . حقاً إنه توجد بضع حالات استثنائية ، إلا إنها ويالالأسف ! ظلت حبراً على ورق : وكانت إحدى هذه الحالات الاستثنائية التخطيط المثالى الذى وضعه فيلاريت (Filaréte) على هيئة نجم ، وكان الميدان الذى يتوسطه

مستطيل الشكل ، وتقوم الكاندرائية والقصر على ضلعيه القصيرتين ، وأحياء التجار وأسواق الأطعمة على ضلعيه الطويلتين . وينطوى هذا التخطيط على وجه آخر يجارى كذلك العصور الوسطى من حيث إحلال الوظيفة محل الاعتبار ، وذلك أن كل شارع من الشوارع الستة عشر المتفرعة من الميدان الرئيسى كانت تتخللها ميادين ثانوية ، كانت ثمانية منها لكنائس الأبرشيات ، والثمانية الأخرى لأسواق معينة ، مثل الخشب والقش والحبوب والخمور . ومثل هذا التخطيط ، بما ينطوى عليه من عناية بشئون الحياة اليومية فى أبرشيات المدينة ، كان لا يزال ينتمى إلى العصور الوسطى من حيث الروح ، وإن كان ينتمى إلى العهد الباروكى من حيث المظهر . ولست ثمة حاجة إلى القول بأن مدينة فيلاريت المثالية لم تشيد على الإطلاق ، فإن مثل هذا الطراز من التفكير كان يفتقر إلى السلطة والنفوذ ، وكان الأمير وأعوانه فى شغل باعتبارات أخرى تجول فى خواطرهم .

ولقد كان وضع مشتملات الحياة الحضرية فى المقام الثانى بالنسبة للشكل الخارجى مثالا نمطياً للعقلية الباروكية ، بيد أن ما كان ذلك يتكلفه من النفقات الاقتصادية الباهظة كان يكاد يتعادل مع ما كان يترتب عليه من الخسارة الاجتماعية الفادحة . فإذا كانت طبيعة الأرض غير منتظمة ، وجبت تسويتها مهما تبلغ النفقات فى المواد والجهود البشرية لمجرد الوصول إلى إمكان تنفيذ مشروع التخطيط ، فالشارع العريض كان لا يجوز أن ينحرف خط سيره أو يعدل اتساعه بمقدار بضع أقدام من أجل الإبقاء على شجرة جميلة أو عدم المساس بمبنى ثمين ، وفى حالة تعارض التخطيط مع صوالح البشر ، كان لحركة المرور ومقتضيات الهندسة الاعتبار الأول ، وليس أدل على صعوبة تنفيذ تخطيط باروكى من أن أغلب المدن الجديدة أنشئت فى مواقع مستوية السطح . والواقع أنه فى بعض الأحيان كان واضع المشروع يتراجع عن تصميماته الأصلية ، كما حدث فى حالة إنشاء

الشوارع العريضة المتفرعة من ميدان الشعب (بياتزا ديل بوبولو) بمدينة روما ، عندما تبين أن أحد التلال كان أشد وعورة من أن يتيسر اختراقه بأحد الشوارع المقترحة (ويبدو فى الواقع أنه مما يشك فيه إذا كان قد تسنى لواضع المشروع أن يتنازل بإلقاء نظرة على الموقع عندما خططه على هذا النحو ، وهو إهمال ليس نادراً فى مثل هذا النوع من التخطيط) .

حقاً إن فرنشيسكو مارتينى كان ينوع خطط مشروعاته المثالية بالتفنن فى تطبيق قواعد الهندسة الفراغية بحيث يجعل تلك الخطوط متلائمة مع سفوح الجبال المنحنية ، وانحدار الشوارع متدرجاً على نحو مقبول ، بيد أنه حتى هذه المحاولة فى مجال التفكير الثلاثى الأبعاد كانت تقتضى أن يكون منحنى الجسم الصلب — الذى سعى إلى مطابقة خطوطه الكنتورية — أكثر انتظاماً فعلا مما يكون عليه عادة فى الطبيعة . وعلى ذلك فإن عدم الاكتراث بطبيعة الأرض فى التخطيط الباروكى ، لم تترتب عليه زيادة عظيمة فى نفقات نمو المدينة فحسب ، بل إن ازدياد العربات زاد من التكاليف بما كان يستدعيه من مزيد من الرصف على نمط أشد متانة ، هذا إلى أن توسيع الشوارع وإطالتها أضاف عبئاً جديداً . وقد كان البابا سكستس الرابع حكيما عندما واجه ذلك فى سنة ١٤٨٠ بفرض ضريبة إضافية على أصحاب الأملاك الذين أفادوا من التحسينات التى تمت فى مناطق جوارهم . ولسوء الحظ أن هذا الإجراء السديد ، مثل ابتكاره الآخر الذى يلفت النظر — وهو الاستيلاء على الأرض الخاصة من أجل الأغراض العامة كتوسيع الشوارع — لم تأخذ به الهيئات البلدية الأخرى على وجه جدى إلى آخر القرن التاسع عشر .

وليس معنى هذا أن النظام الهندسى لا يمكن أن يقوم بدور مفيد فى التخطيط ، فإن الأمر على نقيض ذلك تماماً ، وإن عصراً كعصرنا الحالى الذى استسلم إلى « أوضاع حرة » زاخرة بالنزوات خالية من الأهداف ،

قد لا يرى مناصا فى القريب العاجل من أن يستعيد شيئاً من التقدير لنظام أشد صرامة مع ما يستتبعه من تبسيط وترتيب لا يدقان على الفهم ، ومن ضوابط يقرها العقل ، فإن مهمة الهندسة فى التخطيط هى أن توضح وترشد ، ومثلها مثل أى نوع آخر من أنواع التجريد المفيدة ، يجب أن تخضع للظروف المادية فى جملتها وتفصيلها ، وأن تفسح الطريق لاحتياجات بعينها عندما يتضح أنها تتعلق ببعض نواحى الحياة التى لا يتضمنها منطوق النظريات . وفى وقت كانت تجرى فيه التغييرات على عجل ، وعندما لم يعد يتسنى للتقاليد أن تقوم بما يكفى من الإرشاد ، كان فى وسع الهندسة أن تقوم بجدارة بدور وسيلة مؤقتة لتحقيق وحدة فى التناسق الظاهرى على الأقل . ولسوء الحظ أن المشتغلين بوضع التخطيط فى العهد الباروكى كانوا يفترضون بداهة أن نظامهم مخلد ، ولم يقتصروا على تنظيم الاتساع ، بل حاولوا وقف عجلة الزمن . وإن ما أبدوه من العنف فى إزالة القديم لم يكن ليعادله سوى تعنتهم فى مقاومة الجديد ، فإن لم يكن يتسنى إلا لنظام واحد أن ينسجم مع نوعهم فى التخطيط وهو المزيد من هذا النوع .

وبالإيجاز فإن التخطيط الباروكى كان عملا بالجملة ، يجب أن يتم دفعة واحدة ويثبت ويجمد إلى الأبد ، كما لو كان قد قام به جن ألف ليلة وليلة بين عشية وضحاها . وإن مثل هذا التخطيط ليتطلب مهندسا مستبداً فى شئون العمارة يعمل لحساب حاكم مطلق السلطان ويعمر زمناً يكفى لإتمام تنفيذ ما لديهما من أفكار . وقد كان تعديل مثل هذا النوع من التخطيط ، وإدخال عناصر جديدة من طراز آخر ، بمثابة قصم ظهره من الناحية الجمالية ، بل إن المشتملات السطحية فى التخطيط الباروكى كان لا يمكن الاحتفاظ بها إلا بأنظمة إدارية صارمة ، وحيثما ظلت هذه الأنظمة قائمة ، كما كانت الحال فى باريس ، كان فى الإمكان الإبقاء على النظام سطحياً لعدة أجيال بل لعدة قرون .

ولعل خير ما ينم بإيجاز عن الإحساس السائد فى القرن السابع عشر حيال الوحدة الظاهرية هو ما جاء على لسان ديكارت ، وكان من أعظم المفكرين الذين يمثلون ذلك العصر ، ولا يقلل من شأنه أنه كان جندياً كما كان فيلسوفاً رياضياً ، وقد قال ديكارت : « إنه لمما يلاحظ أن المبانى التى قام مهندس معمارى واحد بوضع تصميمها والإشراف على تنفيذها ، تكون بوجه عام أكثر أناقة وتوفيرا للراحة من تلك التى حاول نفر عديد أن يدخلوا التحسين عليها . وهكذا أيضاً فإن المدن القديمة — التى كانت فى بادئ الأمر مجرد قرى ، وأصبحت بمرور الزمن مدنا كبيرة سيئة التخطيط عادة بالقياس إلى المدن التى أنشئت على نحو منظم ، وتولى معمارى محترف وضع تخطيطها بمطلق الحرية فوق سهل منبسط . ولهذا فعلى الرغم من أنه فى حالات كثيرة قد تكون المبانى المختلفة فى المدن السابقة معادلة أو متفوقة فى الجمال على مبانى المدن الأخيرة ، إلا أنه عندما يلاحظ المرء تجاوز مبانى المدن القديمة بلا تمييز بين مبنى كبير هناك ومبنى صغير هنا ، وما ينشأ عن ذلك من تعرج الشوارع وعدم استقامتها ، فإن الإنسان يميل إلى الزعم بأنه لابد على الأصح من أن تكون المصادفة ، وليست أى إرادة بشرية يهديها العقل ، هى التى أدت إلى مثل هذا الوضع . وإذا أدخلنا فى تقديرنا أنه على الرغم من ذلك كان يوجد فى كل العصور موظفون معينون كانت مهمتهم السهر على أن تسهم المبانى الخاصة فى الزخرفة العامة ، فإننا نقدر على الفور مدى صعوبة الوصول إلى مستوى عال من الكمال ، عنـــدما لا يتوافر لممارسة نشاطنا سوى المواد التى يملكها الغير » .

وليس من الميسور أن يوجد تناقض أشد مما يوجد هنا بين أسلوب التفكير الطبيعى المنسق وأسلوب التفكير الآلى ، فالأسلوب الأول ينبثق من الموقف بأكمله ، والآخر يبسّط حقائق الحياة من أجل مسايرة نظام خداع

يقوم على تصورات أعز على العقل من الحياة نفسها ، فأحدهما يعمل على أساس تعاونى مستخدماً « مواد الغير » ، وقد يتولى توجيهها ولكنه لا يفعل ذلك إلا بعد أن يسلم بوجودها ويفهم الغرض منها ، وأما الآخر — وهو أسلوب الباروكى المستبد المتشبث بقانونه هو ونظامه هو ، ومجتمعه هو — فإنه يفرضه موظف فنى بمفرده ممن يعملون تحت إمرته . ولقد كان هذا النظام الدقيق نظاماً طبيعياً فعلا فى نظر من كانوا يعيشون فى داخل إطار الحياة الباروكية كرجال البلاط ورجال المال ، إذ أنه كان يمثل القيم التى خلقوها لأنفسهم بوصفهم طبقة قائمة بذاتها ، وأما فى نظر الذين كانوا خارج ذلك الإطار فإنه كان إنكاراً للحقيقة .

وقد كان جوهر هـــذا الأسلوب من التفكير وأكبر رمز يمثل التصميم الباروكى فى أضعف وأقوى حالاته الخلاقة على السواء ، هو حديقة القرن السابع عشر المنسقة تنسيقاً هندسياً بحتاً . فقد كانت عبارة عن تنسيق شكل مساحة من الأرض الفضاء تنسيقاً دقيقاً بحيث يصبح النمو والازدهار الطبيعى مجرد أشكال ثانوية فى تصميم هندسى ، كما لو كانت قدراً من السجاد وورق الحوائط وزخارف السقف اصطنعت بمهارة من مواد الطبيعة التى لا شأن لها بذلك . والدرب المشذب الجوانب الذى تستحيل فيه الأشجار إلى حائط أخضر أملس — أى السياج المشذب — ذلك التشويه للحياة مراعاة لاعتبارات الشكل الخارجى للنظام ، كان ينطوى على شىء رائع ، وفى الوقت ذاته مجاف للطبيعة كما لو كان بروكرستس[1] (Procrusts) قد وهب خيال فنان مثل بوسان (Poussin) .

(١) كان بروكرستس شخصية من شخصيات القصص الإغريقية ، ويقال إنه كان لديه سريران أحدهما قصير والآخر طويل وأن الذين كان ينتصر عليهم كان يرغمهم على النوم فى أحد السريرين ويوائم بين طول أجسامهم وطول السرير إما بالطرق لإطالتها وإما بالقطع لتقصيرها .

ولكى ندرك أخطر وجوه النقص فى التخطيط الباروكى ، أو بعبارة أخرى قصوره عن تناول أى أسلوب من أساليب الحياة إلا ما كان مستمدا من حياة البلاط ، يجب أن نتساءل : ما هى التدابير التى كانت تتخذ من أجل مركز الخدمات فى المدينة ؟ أما من حيث مناطق الجوار فلا شىء على الإطلاق ، فلا سوق الحى ولا مدرسته كان يخصص لها موقع معين فى التخطيط ، كما أن حديقة الحى القائمة فى الميدان الكبير كانت لا تقوم حتى بدور ساحة ألعاب صغيرة لأطفال الحى ، فيما عدا أولئك الذين كانوا يملكون حق الدخول إلى الميدان بحكم ما لهم فيه من أملاك . وأما من حيث المنظمات المدنية التابعة للبلدية فإنها كانت تحت سلطة قصر الأمير . ولقد أبدع بالاديو فى بسط نظرية مركز الخدمات فى المدينة ، إذ قال :

« ولنعد إلى الميادين الرئيسية ، تلك التى ينبغى أن تكون ملحقة بقصر الأمير أو بالقصر الذى يجتمع فيه ممثلو الأقاليم تبعاً للبلاد ، ملكية كانت أو جمهورية . وينبغى أن يلحق بها أيضاً ، بيت المال أو الخزانة العامة حيث تودع أموال الدولة وكنوزها ، وكذلك السجون . وهذه الأخيرة كانت قديماً من أنواع ثلاثة : أحدها لأمثال من يتبعون سيرة الفجور أو الابتذال . . . وهى التى نخصصها الآن للمعتوهين أو المجانين ، ونوع آخر للمدنيين . . وأما النوع الثالث فكان للخونة أو للمجرمين » .

القصر ، وبيت المال ، والسجن ، ودار المجانين — ما من أربعة مبان أخرى يتسنى لها أن تجمل وصف النظام الجديد على وجه أوفى من ذلك ، أو أن تفضلها فى تمثيل الظواهر الرئيسية فى حياته السياسية — فلقد كانت هذه المبانى أبرز معالم المدينة ، وفيما بينهما كانت تمتد للواجهات التى تتكرر تكراراً لا قيمة له ولا وزن ، وخلف تلك

الواجهات كانت تسير على نحو ما تلك النواحى من الحياة التى أغفل أمرها وأنكر وجودها .

٧ — ساحة المتأنفين

هناك ناحية واحدة ، مع ذلك ، ارتفع فيها التخطيط الباروكى إلى ما فوق مستوى مقدماته السياسية والعسكرية ، وفيها نراه قد أنشأ وضعاً مستقلا عن أغراض القصر . وقد تمثل هذا الوضع فى فكرة ميدان المساكن ؛ فالميدان المفتوح لم يختلف إطلاقاً ، بيد أنه كذلك ، حتى فى العصور الوسطى ، لم يحدث على الإطلاق أنه استخدم بأكمله لأغراض سكنية ، ولو لم يكن ذلك إلا لمجرد أن المكتب والحانوت كانا جزءاً من المنزل ، ولكنه عاد إلى الظهور فى القرن السابع عشر فى ثوب جديد ، أو بالأحرى كان يؤدى عندئذ غرضاً حضرياً جديداً ، وهو الجمع بين طائفة من المساكن ، بعضها على مرأى من بعض ، ويشغلها قوم لهم بوجه عام ذات الصفة من حيث الحرفة والمركز . وإن الدكتور ماريو لابو (Mario Labo) لعلى صواب فيما يراه من أن ستراداً نوفا (الشارع الجديد) فى جنوة يعتبر حياً أكثر منه شارعاً ، بيد أن الميادين الجديدة جاءت بتعريف جديد لمثل هذا النوع من تجميع الطبقات .

ففى الطراز الأقدم عهداً للمدن — وبخاصة فى القارة الأوروبية — كثيراً ما كان الأغنياء والفقراء ، والعظماء والصعاليك يختلطون معاً فى الحى نفسه ، وفى باريس مثلا ظلوا زمناً طويلا ينزلون فى المبنى عينه ، فكان أوفرهم ثروة يشغلون الطابق الأرضى ، وأشدهم فقراً يسكنون أعلى طابق فى المبنى ، فوق الطابق الأرضى بخمسة أو ستة طوابق . إلا أنه قد تكون الآن نوع جديد من الميادين يبدو أنه قد بدأ فى الظهور عند إنشاء مبنى هيئة المحامين المعروف باسم جريز إن (Gray's Inn) فى لندن فى سنة ١٦٠٠ . وهذا النوع الجديد من الميادين عبارة عن قطعة أرض فضاء لا تحوطها إلا المساكن وحدها ،

بلا حوانيت ولا مبان عامة فيما عدا احتمال وجود كنيسة . والواقع أن « جريز إن » كانت بمثابة مرحلة انتقالية بين مبنى العصور الوسطى المطوق بالأسوار والمشتمل على حدائق داخلية ، وكان الغرض منه أن يكون ديراً أو داراً لعظيم من النبلاء ، وبين الميدان الذى لا تطوقه سوى منازله وحدها والذى وضع تصميمه بوصفه جزءاً من الطراز الجديد للشارع .

وأقدم الميادين الفرنسية فى باريس ، وكان يسمى الميدان الملكى (Place Royale)— ويطلق عليه الآن اسم ميدان الفوج (Place des Vosges) — ترجع الفكرة الأولى فيه إلى هنرى الرابع فى سنة ١٦٠٤ ، على أن يكون موقع مصنع جديد للسجاد وكان أحد مبانيه قد تم إنشاؤه فعلا . إلا أنه فى سنة ١٦٠٥ اتسع نطاق هذا المشروع لكى يتضمن مساكن على ذات نسق المصنع بحيث يتسنى إيواء العمال فيها ، وهو ما كان يبدو سابقة مشجعة للنظام الصناعى الجديد الذى كان فى دور التكوين فى المصانع الكبرى للنسيج والفخار المشمولة بالرعاية الملكية . بيد أنه فى السنة بعينها أغفل أمر هذا الاستهلال الموفق للقيام بتجربة من نوع آخر ، وهى الميدان المخصص لغرض واحد دون سواه ، وهو إقامة مساكن للطبقة العليا . وعلى ذلك فإن هذا المكان الفضاء بالذات ، ارتد إلى حد ما إلى الحالة الأصلية التى كان يستخدم فيها ، فقد كانت تقوم على أحد جوانب ذلك الموقع الدار الملكية القديمة المعروفة باسم أوتيـــل دى تورنيل (Hôtel des Tournelles) بساحتها المخصصة للألعاب الفروسية ، ولفترة ما فى سنة ١٦١٢ عادت إلى استخدامها فى تلك الأغراض البهيجة ، ويمكن أن نلاحظ أنه على هذا النسق نفسه استمر الاحتفال بعيد سان أوفيد (St. Ovid) بإقامة مهرجان فى ميدان فندوم (Place Vendôme) ، وهى عادة قديمة ترجع إلى العصور الوسطى .

وفى لندن كانت الأرض اللازمة لإنشاء هذه الميادين الجديدة تقدمها الدوائر الإقطاعية الكبرى التى كانت تملك مساحات كبيرة فى المدينة ،

وحتى فى الأبرشيات — على نحو ما حدث فى ضاحية سان جرمان بباريس — أقام النبلاء الإقطاعيون دورا ريفية تقع خلفها حدائق فسيحة مثل تلك التى تمتد خلف متحف رودان (Rodin) ، ويرجع اتساع هذه الحدائق اتساعاً كبيرا إلى الغرض الذى أقيمت من أجله أصلا . وتذكر سيليا فين (Celia Fiennes) فى مؤلفها « رحلات فى إنجلترا » أنه كانت توجد قديماً فى وسط لندن منازل عديدة للنبلاء ذات حدائق كبيرة ومبان خارجية ومداخل عظيمة ، ولكنه منذ عهد قريب يجرى هدمها وتقام مكانها شوارع وميادين تطلق عليها أسماء النبلاء ، وهذا هو ما يتبعونه جميعاً على وجه التقريب .

والواقع أن الميادين الجديدة أشبعت حاجة جديدة للطبقة العليا ، أو على الأصح مجموعة بأكملها من الحاجات . فقد أنشئت هذه الميادين أصلا من أجل أسر النبلاء أو رجال التجارة الذين بلغوا ذات المستوى فى المعيشة ودرجوا على ذات العادات فى حياتهم . وإذا كانت الواجهات المتجانسة فى الميدان تخفى ضروب الاختلاف فى الآراء السياسية والمعتقدات الدينية ، فلعله فى القرن السابع عشر كانت الحاجة أشد إلى مثل هذا الستار الطبقى التعسفى لإخفاء ما أخذ يظهر بين الطبقات من ألوان التباين والتنافس والعداء . فقد كانت الأوساط الراقية تبدو على هيئة جبهة طبقية واحدة تخفى ، فى أدب ، ما بينها من خلافات فى النزعات الفكرية أو الحزبية . وأولئك الذين كانوا يقيمون فى ميدان ، حققوا لأنفسهم — بحكم هذه الحقيقة ذاتها — ميزة إضافية ؛ فمن المسلم به أنه كان من الميسور لهم أن تكون لديهم مركبة وخيول ، وهو ما كان يتكلف نفقات كان ينظر إليها بشىء من الوجل حتى من كان موظفاً حكومياً بارزاً مثل صمويل بيبس (Samuel Pepys) .

وأما من الناحية المعمارية ، فإن هذه الميادين كانت فى البداية على شىء من الكآبة ، فقد كانت أقرب شبهاً إلى ساحة التدريب العسكرى منها إلى

الحدائق الصغيرة فى المدينة وهو ما آل إليه مصير الكثير منها فى القرن الثامن عشر عند ما عاد الحنين الشاعرى إلى المناظر الطبيعية فغشى الفيافى الحجرية فى المدينة . وحقيقة الأمر أن الأماكن الفضاء فى الميادين لم يقصد منها مخططوها أن تكون أماكن للتجوال والترويح عن النفس فى الخلاء على نحو ما تستخدم الآن ، بل كانت على الأصح مواقع مخصصة لوقوف العربات ، أو كما ذكر إيفلين فى مؤلفه « لندن تبعث حية » (Londinum Redevivum) أماكن انتظار كان يتسنى للعربات الوقوف فيها ، كما كان يتسنى ولا شك تسيير الخيل فيها من وقت إلى آخر حين ينفد صبرها فى يوم قارس فى أثناء انتظار السائق سيده أو سيدته : وفضلا عن ذلك فإنه فى هذه الميادين المفتوحة كان يتسنى وصول المدعوين بمركباتهم إلى حفل كبير دون أن يحدث ذلك اضطراباً لا موجب له فى حركة المرور : وعلى ذلك فإن من سخرية القدر أن أمثال ميدان فندوم (١٦٧٧ — ١٧٠١) — وهو يستخدم الآن مكاناً لوقوف السيارات — إنما تعود على نحو ما إلى تأدية الغرض الأصلى منها ، ولكن مع هذا الفارق — وهو أن العربات القديمة كانت عادة محدودة العدد ، وكان الكثير منها لا يبقى طويلا فى مكانه ، على حين أن السيارات التى تشغل تلك الميادين الآن تؤلف كتلة جامدة لا تتحرك .

ولقد طرأ على ميادين المساكن مزيد من التغيير فى القرن الثامن عشر ، فإنه عند وضع تخطيط أغلب هذه الميادين لم يراع أن تتوافر فيها مساحات كافية لحدائق خلفية : والواقع أن هذه الحدائق تحولت بأسرع مما ينبغى إلى أفنية مرصوفة للانتفاع بها ، حيث كان يتيسر تنظيف السجاجيد وتجفيف الملابس بعد غسلها : وعند ما اشتد الإحساس بمبلغ هذا النقص ، عمد أصحاب المنازل المطلة على الميدان إلى تحويل الأرض الفضاء الخالية إلى متنزه أو بستان عام : وفى المنظور العظيم الذى رسمه تيرجو (Turgot) لتخطيط باريس فى سنة ١٧٣٧ ، نرى الميدان الملكى وقد أحيط بسياج ذى أربعة أبواب وتمتد

فيه ثمانية دروب تتجه نحو الوسط ، حيث يقوم تمثال لفارس على صهوة جواده . وفى إنجلترا ، بعد قضاء جيل أو جيلين فى العناية بالزرع والغرس أضفت الأشجار والحشائش الخضراء على منظر المدن حلة من الجمال ونشرت فى هوائها عبيراً منعشاً ، ولكن ضاع ما كان لحدائق العصور الوسطى من ميزة الوجود فى الداخل ، فإن النغمة الجديدة كان قوامها المنظر الطلق والعزلة الاجتماعية ؛ إذ أن الحواجز بين الطبقات كانت تصدر عنها الآن أصوات خفية تنم عن النجاح والتوفيق .

وعلى الرغم من أن تطور ميدان المساكن قد استغرق مدة قرنين ونصف قرن من الزمان ، فإن شكل الميدان وعمارة المبانى ومساحة الأرض الفضاء بقيت جميعاً ثابتة فى لندن على الأقل . ولعل ميـــدان بركلى (Berkeley Square) بمساحته التى تبلغ خمسة أفدنة يمثل المتوسط بينها . ولقد أنشىء أكثر من أربعة وعشرين ميدانا فى وسط لندن قبل سنة ١٨٢٧ وبخاصة فى بلومزبرى (Bloomsbury) وماى فير (Mayfair) وبلجرافيا (Belgravia) ، وكانت تمتد من كوفنت جاردن (Covent Garden) ، وليستر سكوير (Leicester Square) (١٦٣٠ و ١٦٣٥) مارة بجروفنر (Grosvenor) (١٦٩٥) وبدفورد (Bedford) (١٧٧٥) إلى بوسطن كريسنت (Boston Crescent) وبيلجريف سكوير (Belgrave Square) (١٨٢٠ و ١٨٢٥) . وبمرور الزمن كانت تمثل أشكالا بلغت حدا كبيرا من التباين ، منها المستطيل مثل تُورينجتون سكوير (Torrington Square) ، ومنها ما هو على شكل نصف دائرة مثل مورنينجتون كريسنت (Mornington Crescent) ، ومنها المستدير مثل بلاس دى فيكتوار (Place des Victoires) فى باريس ، ومنها ما هو على هيئة القطاع الناقص المفتوح مثل بعض تلك الميادين الموجودة فى أدنبرة الجديدة . وحتى فى بعض الأحياء التى آل بها الأمر فى النهاية إلى أن ترزح تحت طائلة تغير

الظروف وغائلة الفقر ، نجد أن هذه الأماكن المفتوحة كان لها فضل الاحتفاظ بمستوى من اللياقة والنظام يميزها عما هو أشد قذارة من الشوارع الجانبية :

وكان المثال الذى ضربته كل من لندن وباريس قدوة أخذت فى محاكاتها المدن الصغرى . فالميدان الدوقى (Place Ducale) فى مدينة شارليڤيل (Charléville) الصغيرة قد أقيم من الناحية المعمارية على ذات المنوال الذى أقيم عليه الميدان الملكى (Place Royale) فى باريس . والميادين التى أنشئت على هيئة مربعات ودوائر وأهلة فى مدينة باث (Bath) ، طبقاً للتخطيط الذى وضعه المعمارى چون وود ، بلغت مستوى من الكمال أرفع مما بلغته فى أى مكان آخر ، ولعل ذلك يرجع إلى حد ما إلى براعة رائعة حقا فى استغلال ما فى الأجزاء الجديدة بالمدينة من مواقع جبلية غير منتظمة . ولسوء الحظ أنه نظراً إلى أن العادة جرت بتصوير المبانى الواقعة على الميدان المعروف باسم الهلال الملكى (Royal Crescent) وليس بتصوير المنظر الذى تطل عليه هذه المبانى ، فإنه قد لا يتيسر لأولئك الذين لم يزوروا باث أن يدركوا بسهولة أن الامتداد الشاسع لمنحنى الهلال ليس شكلا تعسفياً ، بل إنه استجابة نابهة للامتداد الشاسع للمنظر الطبيعى الذى يطل عليه الموقع ؛ منظر التلال البعيدة الذى لابد من أنه كان أكثر روعة حتى قبل أن تبلغ الأشجار — التى تفصل بين الهلال والتلال — حدا من النمو يكفى لحجبه . وهنا كان للإسراف الباروكى فى استخدام الأرض الفضاء ما يبرره على أكمل وجه من حيث ما أسفرت عنه النتيجة من جمال فنى — وذلك فضلا عما فى مثل هذا التخطيط المفتوح من مزايا صحية . ونقاد الفن المعمارى الذين خلطوا حديثاً بين العمران الحضرى وبين ارتفاع كثافة السكان وتلاصق المبانى . إنما يسفهون أنفسهم إذ يغفلون ما فى باث من رحابة وطلاقة ، وهى التى

ظلت أشد المدن الانجليزية محافظة على صفتها الحضرية ، وكان شأنها فى أزهى أيامها شأن أى مدينة ريفية من حيث عدد السكان ، وشأن أى عاصمة من حيث آداب السلوك .

ولقد أظهر التخطيط الذى وضعه كريج (Craig) لمدينة أدنبرة الجديدة فى سنه ١٧٦٧ مدى ما يمكن للنظام الجديد أن يصل إليه لو سار فى اتجاه مغاير كل المغايرة للسوابق الباروكية المستمدة من القصر ، فإن ذلك النظام والتوحيد نجما عن اتخاذ موقف موحد إزاء الحياة وعن الملكية الموحدة للأرض ، وعن الإشراف الموحد على المهندس المعمارى وعلى القائم بعملية البناء . فلو أن الأرض قد قسمت من بادئ الأمر إلى قطع متعددة ، وبيعت لأفراد من الملاك الذين كان ينافس بعضهم بعضا ويعتز كل منهم بذوقه الشخصى ، ويحرص على نزواته الشخصية ، ويدافع بوحشية عن آرائه الشخصية ، لكانت النتيجة أن تعم الفوضى التى كثيراً جدا ما سادت فى شارع أواخر القرن التاسع عشر فى المدن وفى الضواحى ، فهنا فى لندن وباث وأدنبرة ، كان النظام الباروكى يتجلى فى أبهى مظاهره أكثر منه فيما هو أبعد من ذلك شهرة من مدن القصور التى اتخذها الملوك مقرا لإقامتهم ، حيث كان التنظيم متكلفاً حتى ليمكن القول إنه كان مصحوباً بانحناءة دقيقة وابتسامة هادئة ، وقد كانت عناصر التعمير بسيطة ولا تعتمد فى شىء تقريباً على تقليد الماضى تقليدا أعمى ، فما هى إلا الفضاء المفتوح فى شكل هندسى بسيط — هلال أو دائرة أو شكل بيضى أو مربع — يحده سور من الحديد يطوق الجزء المنزرع ، وشارع على المحيط الخارجى ليكون وسيلة الوصول . وكان الإطار المحيط بجوانب الميدان على نسق واحد منتظم يتألف من مواد واحدةللبناء — الآجر أو الحجر أو الجص — ومن خط واحد للسقوف ، ومن عناصر واحدة متكررة — النوافذ والأبواب والأعمدة .

وليس أدل على أن الاحتياجات التى تطلبها الناس كانت جوهرية ، وعلى أن هذه الاحتياجات توافرت بطريقة مباشرة ، من أن هذه المنازل مازالت صالحة للسكنى بعد انقضاء مدة تتراوح بين قرن وثلاثة قرون على إنشائها ، وفى وسعى أن أشهد بذلك عن تجربة ، فإن اتساعها وما تتسم به من انعدام الطابع المميز فى ذاته ، وعدم مطابقتها على وجه دقيق لوظيفة معينة – على حد تعبير ماتيو نويكى (Matthew Nowicki) كل هذا أطال أمد حياتها ، فإنها صالحة على وجه متساو تقريبا لاستخدامها شققاً للسكنى أو فنادق أو مكاتب أو مراسم (studios) ، أى إنها فى الواقع صالحة لكل الأغراض تقريباً فيما عدا الغرض الأصلى منها ، وهو أن تكون مسكناً لأسرة واحدة . وفى أحط ما وصلت إليه هذه المنشآت ، تكشفت عن حسن مزاياها من حيث العمارة والتخطيط ، وفى أوج ما بلغته ، وفت بكل ما كانت تتطلبه حياة حافلة بالمظاهر ولكنها متسمة بالوقار ، عندما كان من الميسور الاحتفاظ بمثل هذه المظاهر عن طريق استخدام حاشية كبيرة مؤلفة من خدم قليلى الأجور . وإن هذه الفترة الطويلة ، التى بقى فيها هذا الطراز سائداً دون تغيير ، لتدل على مدى ما كان ينطوى عليه من مزايا ، وقد كان توماس كبيت (Cubitt) لا يزال يقوم بإنشاء منازل وميادين من هذا القبيل فى لندن فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وحسبنا هذا القدر من حيث تقدير مزايا هذا الطراز ، بيد أنه يجب ألا يدقق المرء النظر فيما وراء الواجهة الأمامية المثالية الجميلة ، حتى فى مساكن الطبقة العليا ، فإن لها واجهتين إحداهما أمامية والأخرى خلفية : وقد كانت الواجهة الأمامية – وهى التى كان يراد أن يراها الناس – لا تزال جميلة ، وأما الواجهة الخلفية – وهى التى كان يراد أن تبقى خافية عن العيون – فإنها كانت عادة مزرية ، وفى كثير من الأحيان بالغة القبح . وهنا تنعكس صورة الحياة فى العمارة ، وإن مجموعة مقالات هوجارث

(Hogarth) عن سَيْر المستهتر (The Rake's Progress) مثـل يوميات (Diaries) بوزويل (Boswell) لتكشف الكثير مما تخفيه النقوش المعمارية البحت التي ترجع إلى ذلك العصر . وإذا نظرنا إلى ظهور المنازل الأنيقة القائمة في ميدان تشارلوت (Charlotte Square) بأدنبرة ، فإننا نجد أنها كالثكنات . وإذا تابعنا السير في الأزقة التي تخرج من الميدان فإننا نجد أنها تؤدى إلى مساكن زرية فقيرة لا يفصلها عن المنازل الأنيقة سوى حظائر للخيول ، ويقيم فيها الخدم وصغار المشتغلين بالتجارة ، وحيثما لم يكن لهذه المساكن الفقيرة وجود قبل ظهور الميدان الكبير إلى عالم الوجود ، وجدت في النهاية كجزء من التطور ؛ فالشوارع الواقعة خلف الواجهات المتسمة بقدر من الإسراف في رونقها والمطلة على حديقة ريجنت التي وضع ناش (Nash) تصميمها — هذه الشوارع وضع تخطيطها كما لو كان قد قُصد أن يكون إنشاء مساكن فقيرة على جوانبها جزءاً أصلياً من التخطيط ، بل إن واضعي التخطيط لم يغب عن قريحتهم الوقادة أن يوفروا حياً صغيراً لمنازل أصغر حجما أعدت لتكون مركزاً ملائما تشغله الخليلات وبائعات الهوى .

ولا جدال في أن هذا التخطيط الخاص بالطبقة العليا قد تجرد تقريباً عما يمكن أن يفيد منه النظام في باقي أنحاء المدينة ، حيث كان السكان يعيشون في مستوى أدنى من ذلك اقتصادياً ، وكانوا يسكنون ، كما سوف نرى ، على نهج مختلف لم يكن فيه أي اعتبار للذوق ولا للصحة ولا للحياة العائلية . ولقد صورت هذه الحالة على أبدع وجه في محاورة جرت في القرن السادس عشر بين رجل ريفي وآخر من سكان المدينة ؛ فإن الأول يطنب في وصف مزايا الريف والحياة الاجتماعية التي يستمتع بها هناك مع جيرانه الأوفياء من « رعاة وجزارين وفلاحين وتجار ماشية ، ونجارين ونقاشين وخياطين وأمثال هؤلاء من الناس ، وهم صحاب على أوفر قسط من الطيبة والاستقامة » . وهذه الحياة ، التي كانت توجد في المدينة أيضاً في يوم ما ، قد اختفت

وزالت عندئذ ، فإن محدثه يرد قائلا : « وهذا ما أعتقده أنا أيضاً ، ولكن هذه الصحبة ليست أهلا لك بوصفك سيداً مهذباً » . فيبدى الريفى دهشته على هذا النحو : « ماذا تقول ، أتريد منى أن أعيش وحيداً بمعزل عن الناس ؟ إن ذلك يكون أسوأ من الموت » ، وهو ما يجيب عليه السيد ابن المدينة بقوله : « كلا إنى لا أقصد شيئاً من ذلك ، فإنك لو عشت أغلب وقتك فى البلاط وفى المدينة بين الأوساط التى تمتاز عن سواها ، لوجدت دائماً هناك الصحبة التى تلائم مركزك ومكانتك » . ولقد ظل التخطيط الباروكى ، حتى فى أحسن حالاته ، قائماً على هذا الأساس الضيق ، فإنه كان موجهاً لخدمة الأوساط الممتازة ، وملائماً لحالتها .

٨ — مخلفات باروكية

كانت العبادة الباروكية للقوة أكثر تشبثاً بالبقاء حتى من أيديولوجية العصور الوسطى ، فلقد ظلت قائمة وبسطت سلطانها على جوانب أخرى من الحياة ، فخلقت أشخاصاً عديدين على شاكلة نابليون ليس فى شئون السياسة فحسب ، بل فى شئون الأعمال والمال ، ولو أن تنظيماتها أخذت تفقد على توالى الأيام ، ما كان متوافراً لدى كبار القائمين على تنفيذها فى مراحلها الأولى من يقظة الإحساس بالجمال الفنى . ولقد كانت الأساليب الديمقراطية ذاتها سبباً فى ازدياد سيطرة الاستبداد الباروكى على المجتمع ؛ إذ يجب ألا ننسى أن فرض الخدمة العسكرية على جميع الذكور من السكان لمدة عدة سنين دفعة واحدة ، وليس لفترة بضعة شهور كل عام ، كما كانت الحال فى العهد الإقطاعى ، لم يحدث إلا منذ الثورة الفرنسية فحسب . وفى العصور الحديثة لم يجرؤ أى ملك مطلق السلطة على فرض مثل هذه الخدمة الإجبارية العامة ، والواقع أنها كانت قد غدت أمراً غير ميسور بعد عهد بناة الأهرام .

ولقد تمثلت فى الجيوش والحكومات والمشروعات الرأسمالية الدوافع

والأوضاع التى كان يتميز بها هذا النظام فى أقصى ما بلغه من الاتساع والتضخم . ولقد ظل الشبح الباروكى مسيطراً على تخطيط المبانى الحكومية بوجه خاص ، لأنه إذا كانت دور بلديات المدن الحديثة فى أوروبا فى القرن التاسع عشر – من ڤيينا إلى مانشستر – كثيراً ما تقام على نمط العصور الوسطى ، فإن دور البرلمانات (فيما عدا دار البرلمان فى وستمنستر) ودور المكاتب الحكومية ، كانت تمثل صورة كئيبة مترفة من الطراز الباروكى ، وإن جردت أحياناً من الزخرف لتبدو فى دقة الطراز الكلاسيكى . وحتى داعية النازية المعتوه ، فى دعوته المتعمدة إلى العودة إلى آلهة القبائل الجرمانية المتوحشة ، صب أوهامه عن القوة المجردة من الروح الإنسانية فى قالب يلائمها من البذخ الكلاسيكى الأجوف .

والطراز الباروكى ، فى كل من العمارة والتخطيط ، لم يبق قائماً فحسب ، بل وجد أقصى مجال لتنفيذه على نطاق واسع فى باريس ومدريد وسانت بطرسبرج وڤيينا وبرلين . فعلى حين أنه فى القرن الثامن عشر بطل إنشاء مدن لتكون مقراً لإقامة الملوك ، كانت العواصم الكبرى تنهج فى نموها وتوسعها نفس القواعد العامة ، وكثيراً ما كان يقترن ذلك بأسلوب غاشم من حيث عدم الاكتراث بالقيم التاريخية التى قد يتوقع المرء المحافظة عليها والعمل على إبرازها فى الهياكل والنصب القومية التذكارية . والواقع أنه كان من نصيب باريس أن تحقق فى القرن التاسع عشر بعضاً من أعظم آيات نجاح التخطيط الباروكى ، وهو ما يدل عرضاً على أن ما له صفة تاريخية من جوانب حضارة المدن يخلق طرازاً أصيلا يقوى على البقاء والاستمرار بحيث لا يتسنى وصفه بدقة فى نطاق الحدود الزمنية لأى عصر بمفرده ، وذلك لأسباب سبق لنا أن بحثناها .

ولقد أفاد من الاتجاه الباروكى إمبراطوران ، وهما نابليون الأول ونابليون الثالث ، فإنه من أجل تجميل باريس قام كل من هذين العاهلين

بتنفيذ وتوسيع مشروعات كان أسلافهما الأقل إقداماً قد اقتصروا على مداعبتها . وقد احتفظ الطراز نفسه بشيء غير قليل من قوته الحيوية القديمة بقدر ما كان هذان العاهلان يباشرانه من السلطة الحقيقية . وعلى حين أن التخطيط الذى وضعه كولبير لباريس فى سنة ١٦٦٥ عنى بوجه خاص بتجديد حجم المبانى واتساع المدينة ، فإن هذين الحاكمين الجديدين ، وكانا أكثر تشيعاً للنظام الملكى من الملوك القدماء ، كانا من أنصار النمو والتوسع ، وقد خدمت حوافزهما رجال المصارف والمضاربين الذين أفادوا مما ترتب على ذلك من زيادة فى إيجار الأرض وأرباح المبانى .

وإلى صميم القرن العشرين ، كان التخطيط الحضرى فى ذاته يعنى بوجه خاص التخطيط الباروكى ، على الأقل فى الحواضر الكبرى من طوكيو ونيودلهى إلى سان فرانسيسكو ، وكان أضخم هذه المشروعات ذلك التخطيط الذى وضعه برنهام (Burnham) وبنيت (Bennett) لمدينة شيكاغو ، بما فيه من متنزهات عامة وطرق بها حدائق ، وشوارع عريضة مائلة الاتجاه ، وما فيه من إقصاء مناطق الصناعة والطرق الحديدية عن وجه النهر . بيد أنه لا مفر من أن نلاحظ هنا — كما نلاحظ فى أماكن أخرى — مواطن الضعف فى التخطيط الباروكى ؛ وهى ألا أثر فيه للاهتمام بمنطقة الجوار بوصفها وحدة متكاملة ، ولا اعتبار لإسكان الأسر ، ولا تصوراً كافياً لتنظيم الأعمال والصناعة فى ذاتها كجزء ضرورى من أى مشروع كبير له صبغة حضرية . وعلى المنوال نفسه وضع تصميم مركز خدمات المدينة فى سان فرنسيسكو ، وكذلك فى كليفلند وسبرنجفيلد ، دون مزيد من التحكم فى منظر المدينة الذى يحيط بذلك الجزء — ويكذب صراحة مزاعمه الجمالية .

وإن بعضاً من أفضل أمثلة التخطيط الباروكى ، وكذلك بعضاً من أسوئها ، لم تنشأ إلا فى وقت لم تعد فيه ملائمة ، بوجه صارخ ، سواء من الناحية الرمزية أم من الناحية العملية ، للعصر الذى أنشئت فيه ، فإنه بدون

توافر سلطة واسعة مطلقة ، وتحكم شديد فى المنطقة المحيطة بالموقع ، وتوظيف رءوس أموال كبيرة ، كان لا يتسنى للتخطيط الباروكى أن يناضل المشروعات المتنافسة دون نظام فى المدينة الآخذة فى الاتساع وفى زيادة ارتفاع المبانى ، وذلك لأن نصف رغيف فى مجال التخطيط الباروكى يكون فى الواقع أسوأ من لاشىء ، فإن ما يتبقى دون إنجاز ، أو دون أن يتأثر بالخطة ، يكون بذاته اعترافاً بضعفها .

وفضلا عما هنالك من عدم التلاؤم بين الأوضاع الباروكية ، وما لمدينة حديثة من أغراض ومهام ، فقد كانت توجد ناحية ضعف أخرى لم يفطن إليها إطلاقاً أنصار الباروكية المتأخرون ؛ ذلك أن ذات ما فيها من عظمة كان يقوم على عدم احتفالها بالحاجات العملية ، حتى حاجات المرور ، إن لم يقم على احتقار هذه الحاجات ، ولذلك فإن أجل ما أدته من الخدمات ، وهو الشارع الطويل المستقيم المتسع ، قد أفاد حقاً فى إيجاد اتصال سريع بين نقطتين متباعدتين ، ولكن اتساع الشارع العريض كان فى ذاته عائقاً دون الاتصال بين الجانبين المتقابلين ، وإلى عهد قريب ، عند ما أدخل نظام الإشارات الضوئيـة للمرور ، كان من المجازفة عبور مثل هذا الشارع العريض ، حتى مع استعانة السائرين على أقدامهم « بالجزر » المقامة فى الوسط لمساعدتهم على عبوره .

وأما من حيث ارتياد الحوانيت لمشاهدة معروضاتها وانتقاء ما يروق منها – وهو ما أصبح بعد القرن السابع عشر وسيلة عظمى لقضاء أوقات الفراغ – فإن أكثر الشوارع نجاحاً فى تحقيق هذا الغرض هى الشوارع الضيقة التى لا تتسع لحركة المرور ، مثل شارع بوند (Bond Street) القديم والجديد فى لندن ، وكالفرستراات (Calverstraat) فى أمستردام وكالى فلوريدا (Calle Florida) فى بيونس إيرز . وإذا كان الشارع العريض يعتبر حائلا

دون عبوره ، فماذا عسانا أن نقوله عن مثل تلك الميادين الفسيحة العاصفة ، كميدان الأتوال (Place de l'Etoile) الذى لا تقل مشقة الطواف حوله على الأقدام عن مشقة القيام برحلة للحج ؟ إن أمثال هذه الضروب من الإسراف لتقتضى من التضحيات الباهظة يومياً ما لا يتناسب مع الفوائد التى تجنى من ورائها .

فما هو العامل المسئول إذن عن استحواذ التخطيط الباروكى استحواذاً فعالا على عقل المشتغلين بالتخطيط ، كل هذه الحقبة الطويلة ؟ . ما هو السبب فى أن مثل هذا العدد الكبير من مشروعات التخطيط ، الحديثة فى ظاهرها ، لا يزال يوضع وينفذ طبقاً للروح الباروكية ، بعين ما فيها من الإسراف العاتى والاحتقار العاتى للاحتياجات البشرية — على الرغم من أن الشارع العريض العظيم قد تحول إلى « طريق سريع للمرور » (expressway) وأن الميدان العظيم اتخذ شكل ورقة البرسيم ؟ إنه لتكمن وراء هذه الأساليب مزاعم وأوهام عن قدرة لا تحد . فالطريقة الباروكية فى معالجة الأمور تحمل فى طياتها ثقة من عين النوع الذى كان الطبيب يتمتع به قديماً عندما كان يصف لمريضه بطريقة آلية أن يتناول مسهلا قوى المفعول بغض النظر عن أغراض المرض وطبيعته ، فإن ذلك كان يبشر بالحصول على نتائج قاطعة ، عاجلة ، ملموسة ، بل تستوقف النظر .

وإذا ما قارنا بين ما فى أحد المشروعات الباروكية من هندسة أنيقة ، وبين ذلك النوع من العمليات الطويلة الأمد للتبديل والتعديل جزءاً فجزءاً على نحو ما اقترح رولند نيكولاس (Rowland Nicholas) فى المشروعات التى وضعها لإعادة بناء مانشستر ، تجلت المزايا الخداعة لتلك السطحية الإدارية . وإن الأمر ليحتاج إلى دراية وقوة خيال فى آن واحد لإدراك أن العملية التى يريد تنفيذها صاحب مشروع تخطيط مانشستر ، من شأنها أن تؤدى إلى قيام مدينة على أسس أحجى بمراحل من التسرع بإزالة حى

بأكمله دفعة واحدة ، وشفع ذلك بشق شوارع جديدة عريضة على نطاق واسع ، وإقامة مشروعات ضخمة للمبانى ، وما يستتبعه ذلك حتماً من تحويل الأموال والجهود عن نواح أخرى من المدينة هى فى حاجة مماثلة إلى الإصلاح على مهل خطوة فخطوة . وإن ما فى الأسلوب الباروكى من مظاهر الحسم ليكسبه فى البداية غلبة على المشروعات التى توجه عناية أوفى إلى اعتبارات الحقائق البيولوچية والاجتماعية والاقتصادية .

ومع ذلك فإن الملاحظة الشهيرة التى أبداها دانيل برنهام كانت على قسط من الإدراك العميق لطبيعة الإنسان ، فقد قال : « لا تضع مشروعات صغيرة ، فإنها لا تقوى على إثارة اهتمام الناس » . وهناك أوقات تكون فيها جرأة الذوق الفنى الباروكى وما يقترن بها من انتهاك غشوم لحرمة الحقائق التاريخية ، هى التى توفر الجواب عما قد يغدو صعاباً لا سبيل إلى التغلب عليها لو حاول المرء إيجاد حل لها واحدة بعد الأخرى . وليس فى وسع أحد أن يتهم و . ر . ليثابى (W.R. Lethaby) — وهو من المتشيعين للعصور الوسطى بحكم مهنته ، ومن الداعين إلى استخدام لغة عملية حديثة تكون دارجة فى البلاد ومتحررة من قيود الأسلوب — بأنه تبعاً لذلك مولع بالطراز الباروكى ، بل إن الأمر على النقيض من ذلك تماماً ، وعلى الرغم من هذا فإنه حيال انبطاح الجزء الأوسط من لندن انبطاحاً مائعاً ، وما فيه من شوارع متشابكة وضيقة لا سبيل إلى إصلاحها ، وما يتسم به من انعدام أى أثر لنظام مفهوم أو غرض واضح ، مما جعله (كما أبدى) عديم الشكل كضباب لندن ، حيال ذلك تقدم بمشروع التخطيط الذى أسماه « القوس الذهبية » . وهيئ انحناء نهر التيمز ثنية القوس التى توجد كنيسة سانت بول عند أحد طرفيها ودير وستمنستر عند الطرف الآخر ، وأما السهم فكان عبارة عن شارع عريض جديد يمرق فوق جسر ووترلو (Waterloo) إلى قلب لندن رأساً ، صوب المتحف البريطانى .

فهاهنا حل جرئ بلغ من حسن التوفيق ما بلغه شارع ريجنت الذى وضع تصميمه وقام بإنشائه ناش (Nash) وجعله يخترق منطقة مماثلة من حيث التخلف الحضرى . ولم يتضمن مشروع القوس الذهبية إنشاء شبكة مترامية الأطراف من الشوارع المماثلة ، والشوارع العريضة المائلة الاتجاه لخدمة حركة المرور ، على غرار ما قام به هوسمان فى باريس ، إذ أن ليثابى فى الواقع حدد وصف « السهم » بأن يكون من شأنه أن يكشف منظر النهر ، وأنه ينبغى أن يكون طريقاً ظليلا للمشاة خالياً من العربات . بيد أنه توسل بهذه الطريقة لكى يحدث شقاً جديداً يخترق الأنقاض الحضرية على نحو يقرب مما يقوم به الجراح عندما يجتث الأنسجة الميتة فى جرح متقيح . وبطبيعة الحال لم يكن هذا سبيل الاتجاه النمطى الباروكى ، بل كان على الأصح سبيل المشتغلين بالتخطيط فى عصر النهضة مع تطبيقه بأسلوب أشد عنفاً وفى نطاق أوسع مدى ، وفقاً للمعيار الكبير الذى راض الأذهان عليه طويلا واضعو التصميمات فى القرن السابع عشر . بيد أن ما طرأ على التخطيط الباروكى عند تطبيقه برمته فى مدينة حديثة ، يمكن أن نتبينه عندما نتأمل مثلا واحداً من أعظم الأمثلة الفريدة للطريقة والطراز ، وهو تخطيط مدينة واشنطون .

٩ — عظات مدينة واشنطون

لا يفصل إلا قرن واحد أو نحو ذلك بين تخطيط فرساى — وهى أعظم ، إن لم تكن أكبر ، « المدن الجديدة » الفخمة — وبين مشروعات الميجور بيير شارل لانفان (Major Pierre Charles L'Enfant) لإنشاء مدينة واشنطون ، وهى التى قدمت فى سنة ١٧٩١ . وفى تلك الأثناء كان بنيان النظام السياسى فى المجتمع الغربى قد تصدع من أساسه ، فقد قضت ثلاث ثورات — الإنجليزية والأمريكية والفرنسية — على كل نظام السلطة المركزية التى

لا ترد لها كلمة ، والممثلة فى شخص ملك مطلق التصرف إلى حد أن تصرفاته ومزاعمه أخذت تنافس ما عرفت عن أقدم أسلافه من الفراعنة ؟ ولقد صحب انهيار الحكم المطلق زوال الضياع الإقطاعية ، واصطباغ الدولة بصبغة مدنية ، والقضاء على الأنظمة المقيدة التى كانت تفرضها النقابات والهيئات البلدية ، واقترن ذلك بإلغاء النقابات ذاتها وتحويل المدينة إلى منظمة تابعة للدولة التى منحتها بعض السلطات وكان فى وسعها أن تعود فتسلبها هذه السلطات .

ولو أنه كان فى قدرة شيء تعديل النموذج الباروكى ، لفعلت ذلك — فيما نظن — إعادة تكوين المجتمع السياسى على هذا النطاق الواسع ، وبخاصة فى الأيام الأولى للجمهورية الأمريكية عندما كانت سلطات الدولة وما زالت غامضة مبهمة لا تقيدها وتحدها حقوق أنظمة الحكم الإقليمى . ولكن ماذا نجد ؟

عند الاتجاه إلى وضع تصميم للعاصمة الجديدة ، بوصفها مقراً للحكومة الفيدرالية ، عهد إلى مهندس فرنسى القيام بذلك العمل . ولقد كان رجلا فذاً فى كفايته ، بلغ من المقدرة وبعد النظر حداً جاوز أقصى ما وصل إليه إطلاقاً إدراك أولى الأمر وزملائه ، وفى الحقيقة أنه يمكن اعتباره عبقرياً إذا أخذنا فى الاعتبار حداثة سنه وخبرته المحدودة . وكان « لانفان » يؤمن على حد عبارته ذاتها ، بأن « كيفية الاستيلاء على المنطقة بأسرها والعمل على تحسينها فى بادئ الأمر ، يجب أن تخلف للأجيال القادمة فكرة رائعة عن الدوافع التى حفزت إليها » وعلى ذلك فإنه حتى ميادينها يجب أن يسبغ عليها الجلال والمهابة بإقامة تماثيل فيها « لكى تدعو شباب الأجيال القادمة إلى اقتفاء أثر أولئك الحكماء أو الأبطال الذين استصوبت بلادهم الإشادة بذكرهم » .

وعلى الرغم من أن « لانفان » كان يؤمن إيمانا راسخا بالنظام الجمهورى ، فإن المشروع الذى تقدم به لتخطيط العاصمة الجديدة كان يتضمن فى جميع نواحيه الأفكار التى استنبطها أصلا المعماريون الذين كانوا فى خدمة الحكم المطلق ، فهو لم يستطع أن ينقل إلى العصر الحديث إلا الصورة الثابتة التى سبق أن فرضتها السلطة المركزية القائمة على الإكراه ، وإذا كان لم ينقص هذه الصورة سوى مظهر واحد وهو تحصينات القرن السادس عشر الأصلية ، فإن مرد ذلك إلى أنه لم تكن هناك حاجة ظاهرة إلى دفاع عسكرى . وقد تبين أن ذلك كان تقصيرا معيبا ، فلعل مثل هذه المنشآت هى وحدها التى كان من شأنها أن تنقذ المبانى العامة الجديدة فى واشنطون مما أصابها من التدمير على أيدى المغيرين البريطانيين فى حرب سنة ١٨١٢ ، وفيما عدا ذلك كان المشروع مثالا نموذجياً لتطبيق القواعد الباروكية الأساسية على حالة جديدة .

ونرى أن « لانفان » بفضل ما أوتيه من الاستبصار الخليق بمهندس تخطيط جدير بالاسم ، لم يبدأ بنظام شبكة الشوارع ، بل بالمبانى والميادين الرئيسية . وفيما بين هذه النقط الأصلية مد « خطوطاً أو شوارع عريضة للاتصال المباشر » لم يكن الغرض منها مجرد تسهيل حركة المرور ، بل « أن تتوافر خلالها جميعاً الرؤية المتبادلة فى عين الوقت » ، مع توجيه عناية خاصة نحو الرحابة والمناظر السارة على طول الطريق ، ومن ثم فإن واشنطون قد خططت على هيئة سلسلة من بيوت العنكبوت المتشابكة ، وتضارع شوارعها العريضة الرئيسية شارع الشانزليزيه فى سخاء الاتساع ؛ إذ أن اتساع هذه الشوارع كان يبلغ ١٦٠ قدما ، فقد كان يوجد على كل من الجانبين طوار عرضه عشر أقدام ، وممشى عرضه ٣٠ قدما مرصوف بالحصباء « ومزروع بالأشجار على امتداد جانبيه » ، وطريق عرضه ثمانون قدما لمرور العربات فى الوسط ، وحتى الشوارع العريضة الأخرى الأقل من ذلك

اتساعا ، مثل الشوارع المؤدية إلى المبانى العامة أو الأسواق ، كان اتساعها يبلغ ١٣٠ قدما ، على حين أن الشوارع الباقية ، وكان اتساعها يتراوح بين ١١٠ و ٩٠ قدماً ، كانت تنافس أكبر الشوارع التى تخترق « مانهاتان » من أقصاها إلى أقصاها وفقاً للتخطيط الذى وضع لها فى سنة ١٨١١ ، وتفوق فى الرحابة كل ما كان موضع التفكير فى أى مكان آخر فى المدن التاريخية .

ولا جدال فى أن انعدام وجود المبانى هو الذى جعل « لانفان » يمضى إلى هذا الحد البعيد فى إبداء تقديره للشارع العريض . بيد أن الشكل الشبكى الذى وضعه لنظام الشوارع ، كان متنوعاً من حيث الاتساع ، ولا يقوم على أساس واحد منتظم المقاييس على غرار ما فعله پن (Penn) فى تخطيط مدينة فيلادلفيا . وإلى جانب عدم انتظام شكل وحدات المبانى بسبب الشوارع المتلاقية المائلة الاتجاه ، فإن اختلاف هذه الوحدات فى الحجم يطابق حاجة لم يفسرها « لانفان » تفسيراً وافيا ، وإن وجوه التباين فى مقاييس وحدات المبانى والشوارع فى آن واحد ، ليدل على أن ذلك لم يكن مجرد تخطيط وضع على لوحة الرسم ؛ إذ أن « لانفان » استطاع وهو يضع تصميمه أن يربط بين عناصر التخطيط ووجوه النشاط اليومية التى تقوم على خدمتها .

وفى الوقت الذى نعترف فيه بما يستحقه « لانفان » من التقدير لما أوتى من مقدرة على التخيل ، فإنه مما يجب ملاحظته أنه لم يستطع تفادى ما جرت به العادة الباروكية من تضحية كل المهام الأخرى للمدينة فى سبيل الأماكن الفضاء وروعة المواقع وحركة التنقل ، فمن بين حوالى ستة آلاف[1] فدان اشتمل عليها مشروعه ، احتاج الأمر إلى ٣,٦٠٦ أفدنة للطرق الرئيسية ، على حين أن مساحة الأرض التى دعت إليها الحاجة للمبانى العامة ولساحات أو مناطق خصصت لأغراض معينة اقتصرت على ٥٤١ فداناً فحسب .

---

(١) جاء فى النص الإنجليزى أن المساحة ٦٠,٠٠٠ فدان ، وهو رقم يبدو من ناحية غير معقول لمن زار واشنطون ومن ناحية أخرى لا يتفق مع ما سيأتى فى سياق الحديث ، ويتبين منه أن الرقم الصحيح هو ستة آلاف فدان .

ومهما يكن المعيار الذى نتخذه أساساً للحكم، فإن نسبة التوزيع بين المساحة الفضاء المخصصة للحركة ، والمساحة الفضاء المخصصة لأغراض ثابتة ، أو بعبارة أخرى بين العربات والمبانى ، نسبة غير معقولة ، وما من أحد يستطيع منافسة « لانفان » فى هذا الإهدار الطائش لأرض حضرية ثمينة سوى أحد مهندسى الطرق الحديثين المعروفين بتبديد الأرض فى منشآتهم عند تقاطع الطرق :

وقد كانت النتيجة أنه لم يبق سوى ١٩٦٤ فداناً ــ أى أقل من ثلثى القدر اللازم للشوارع العادية والعريضة ــ لتقسيمها إلى قطع للمبانى تألفت فى جملتها من ٢٠,٧٧٢ قطعة للبناء . ومع الكرم فى التقدير على أساس إقامة ستة أشخاص فى كل دار للسكنى ، فإن هذا القدر لا يكفى لإيواء أكثر من مائة وعشرين ألف نسمة ، لو أنه تسنى استخدام كل قطعة فعلا لأغراض السكنى وحدها ، ولا يبرر النظام الذى وضع للشوارع إلا مدينة يبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة على الأقل ، على حين أن مشروع التخطيط ــ طبقاً لشروطه الأصلية ذاتها ، قام على أساس وجود عدد فى حدود مائة ألف نسمة .

وهذا أيضاً لا يدل على نواحى القصور فى مخيلة « لانفان » بقدر ما يدل على نواحى القصور فى الأيديولوچية التى اعتبرها قضية مسلما بها ، وليس مما يبرر التوزيع الأصلى ما يلاحظ من أن كلا من حركة المرور وكثافة السكان قد أدركت فى النهاية مدى إمكانيات تخطيط « لانفان » وجاوزت ما يكفى لتبرير إسرافه . بيد أنه عند ما حدث ذلك ، كان قد أصبح من الواضح أنه متى اعتبرت حركة مرور العربات أهم ما يجب مراعاته فى التخطيط ، فإنه لن يوجد إطلاقا ما يكفى من الاتساع للحيلولة دون اشتداد ازدحامها ، ولا ما يكفى من ارتفاع نسبة الكثافة بين السكان للحصول على الضرائب الكافية للوفاء بمطالبها الفادحة .

ولقد كانت واشنطون فى ظاهرها تشتمل على كل وجوه تخطيط باروكى ممتاز ، كمواقع المبانى ، والشوارع العريضة الفخمة ، والاتجاهات المحورية ، والمعابر الضخمة ، والخضرة التى تطوقها ، ومع عدم وجود مدينة واحدة كبيرة – حتى ولا سانت بطرسبرج – ليتخذ منها « لانفان » نموذجاً له ، فإنه نجح ، على الرغم من ذلك ، فى أن يتخيل صورة ما يمكن أن تكون عليه عاصمة عظيمة ، وضح تصميمها وفقاً للنمط الباروكى . وقد وضع نصب عينيه قول ألبرتى المأثور من أن « المدينة أو على الأصح منطقة المدينة هى أعظم وأهم المنشآت العامة » : بل إنه استثمر إلى أقصى حد ما كان قبل أن تمسه يد الإنسان موقعاً يبعث على اليأس ، إذ كان عبارة عن أرض منخفضة ، يحدها مستنقع من ناحية نهر البوتوماك (Potomac) ويشطرها نهر صغير – كان يدعى من باب السخرية نهر التيبر – سرعان ما أصبح مستودعاً للمجارى : وقد كان الإطار مهيأ ، ولكن المشتملات كانت معدومة ؛ إذ كان ينقص شىء واحد وهو المقدرة على تنفيذ المشروع بالإقدام على البناء ، فقد كانت الخطة موجودة على الورق ، ولكنه لم يكن لها وجود على الطبيعة .

ولقد كان إختناق هذا المشروع باعثاً على مزيد من الأسف والرثاء ، لأنه ما من أحد منذ المشروع الذى اضطلع به المعارى چون وود فى مدينة باث كان أشد لهفة من « لانفان » على قبول تحدى موقع ملىء بالصعاب ، وبدلا من أن يحاول « لانفان » إزالة هذه الصعاب عمد إلى محاولة الانتفاع بها ، ومن ثم فإن مشروعه الخاص بإنشاء شلال صغير تنحدر مياهه على سطح تل الكابيتول مستخدماً فى ذلك مياه نهر التيبر ، كان مشروعاً جديراً ببرنينى نفسه : ولقد كان « لانفان » بارعاً حين بدأ بتحديد مواقع المبانى العامة الرئيسية لكى تقام مراكز خدمات المدينة ؛ وهى نقط الجاذبية ، فى

فى أبرز المواقع ، وحتى فكرته عن الصلة الحيوية بين « المول » (Mall)[١] وشارع بنسلفانيا كانت – على الرغم من المبالغة المحزنة فى تقدير أهميتها – من عين طراز تفكير ليثابى الذى ابتدع مشروع القوس الذهبية ، وعندما انتهى من تحديد مواقع المبانى العامة الرئيسية ، وعندها فقط شرع فى ملء ما بينها من فرجات بالشوارع ووحدات المساكن : وكان بعض هذه المواقع لمبان فيديرالية – كانت من بينها كنيسة قومية مستقلة عن الطوائف لإقامة الحفلات الدينية العامة – وكان البعض الآخر من المواقع لمبان محلية كالمدارس والكليات . وقد عنى « لانفان » بتحديد مواقع جميع هذه المبانى بوصفها عناصر تقوم بدور حاسم فى مشروعه .

ومن المحقق أن حكومة رشيدة بعيدة النظر ما كانت لتغفل هذه المقترحات التى تدعو إلى الإعجاب ، أو تفرط فى هذه المواقع : بل كانت حرية بأن تعمل على امتلاك جميع مقاطعة كولومبيا[٢] عن طريق الشراء ، وأن تعمد إلى تأجير ، وليس إلى بيع الأرض التى لا غنى عنها لتوسعها بوصفها عاصمة قومية . وبدون تملك الدولة الأرض ذاتها ، كان مآل مشروع « لانفان » الفشل حتى قبل أن يواجه هجوم خصومه .

وحتى اليوم ، بعد إدراك فكرة « لانفان » جزئياً بفضل حسن تقدير لجنة مكميلان التى شكلت فى سنة ١٩٠١ ، فإن البعض من أجل مقترحات « لانفان » لم يتيسر إدراك حقيقة أمرها إلا بصورة جزئية ، على حين أن البعض الآخر مثل « المول » يتكشف عن العقم الذى يتسم به التخطيط القائم على أساس نظرى بحت عندما لا يكون له سند من المهام التى يؤديها ، « فالمول » فى الواقع عبارة عن شريط من الخضرة ، وهو على أحسن

---

(١) طريق عريض به مزروعات وأشجار .

(٢) لكيلا تستأثر ولاية بعينها بشرف وجود العاصمة الفيديرالية فيها ، أنشئت واشنطون فى مقاطعة نزلت عن أرضها ولايتا ماريلاند وفرجينيا ، واعتبرت منفصلة عن سائر الولايات ، وعرفت باسم مقاطعة كولومبيا (District of Columbia)

الفروض بمثابة حاجز يحول دون امتداد الحريق ، فهو يفصل ويفرق بين مناطق كان يجب فى الواقع أن تكون أشد اتصالا بعضها ببعض . وفى بادئ الأمر لم يكن فى ميسور المدينة الوليدة أن تملأ فراغ هذه الثياب الفضفاضة ، وعندما أصبح فى وسعها أن تفعل ذلك كان طراز العصر قد تغير إلى غير رجعة .

وحتى المبانى الحكومية ذاتها ، بحكم قيام الفرع التنفيذى والفرع التشريعى عند أقصى الطرفين المتقابلين للمحور الرئيسى ، كانت المسافة التى تفصل بينها أكبر من أن تسمح للعين بالربط بينها على نحو فعال . ومبنى الكابيتول ذو القبة — بحكم شكله وحجمه وموقعه — ينفرد بالإفلات من التلاشى بتأثير المسافات الهائلة التى تضمنها هذا التخطيط ، فقد مضى « لانفان » إلى حد أبعد مما ينبغى فى احترامه ومجاراته للمبدأ الدستورى القائل بالفصل بين السلطات . وحتى لو أن شارع بنسلفانيا كان منذ البداية قد أقيم على جانبيه من أوله إلى آخره صف من المبانى الحكومية الموحدة النظام ، على غرار تلك التى أقيمت مؤخراً فى « المثلث » ، لكانت النتيجة خليقة بأن تبعث على الأسى والحسرة .

وأما « المول » — وكان « لانفان » يرى أنه مكان مناسب للسفارات — فإنه قضى على المبانى المقترحة بأن يطغى عليها ذات اتساع شريط الخضرة الطويل . ولسوء الحظ أن شكل النمط الباروكى ما زال قوى الأثر حتى فى الوقت الحاضر ، إلى درجة أنه ما من أحد يجرؤ على أن يقترح أنه لعل هذا هو الجزء الوحيد فى واشطنون الذى يناسب إقامة مبان تتألف من عشرة أو خمسة عشر طابقاً ، وأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لإنقاذ هذا الفضاء الشاسع الموحش ، وادخار باقى نواحى واشنطون لإقامة مبان على نطاق أقرب إلى معايير البشر .

ولقد كانت قوة التخطيط الباروكى فى أزهى أيامه تكمن فى أن أعمال تخطيط سطح الأرض وبنيان المدينة بأبعاده الثلاثة ، أو على الأقل واجهات

ذلك البنيان ، كانت تمضى قدماً جنباً إلى جنب ، فقد كانت أعمال التخطيط والبناء تسير معاً خطوة فخطوة فى كارلسروه وفرساى وسانت بطرسبرج . وأما فى ظل الظروف التى سيطرت على عمل « لانفان » ، فإن التخطيط على الورق لم يكن له أى تأثير مطلقاً على المشتملات ؛ إذ أن القوى التى كان بيدها أن تبعث الحياة فى المشروع أو أن تقتله لم تكن فى يد واضع المشروع ولا فى يد عميله ، الحكومة الجديدة للولايات المتحدة ، وكانت هذه الحكومة معدمة مترددة ومشبعة بفلسفة حرية العمل ، وهى فلسفة كان من شأنها إحباط المبادئ السياسية التى كانت تكمن وراء المشروع .

ولا مجال للتساؤل عما حدث فى واشنطون ، فإن مشروع « لانفان » الجرىء قتل شر قتلة ، وكأن ذلك لم يكن كافياً ، فإنه بمرور الزمن طرأ على منظره التفكك والتشويه ، فقد تناثرت فى أرجاء المدينة مبان غير مهذبة الشكل وغير متلائمة مع البيئة التى أقيمت فيها . وحتى إلى يومنا هذا ، نجد أن المنطقة التى تحيط بالكابيتول مباشرة قد طفح عليها ما يشبه الأكزيما الحضرية ، وهو ما كان فى وسع مهندس معمارى مشبع بالروح الباروكية أن يقوم على الأقل بحجبه وراء سور ، إذا كانت تعوز عميله السلطة الكافية لهدم المبانى ذاتها . ومن الواضح أنه لم يكن يتسنى للتخطيط وحده أن يخلق من العدم ، المدينة ذات الواجهات الحجرية الناصعة البياض والسقوف المنتظمة الخطوط التى لا بد من أن تكون قد راودت أحلام « لانفان » ، وعندما زار ديكنز مدينة واشنطون فى سنة ١٨٤٢ ألفاها مدينة « ذات شوارع فسيحة لا تبدأ من معالم معينة ، ولا تؤدى إلى مكان معين ، شوارع طولها ميل ولا تعوزها إلا المنازل والطرق والسكان ، وذات مبان عامة للجمهور ولا ينقصها إلا الجمهور لتكون مستكملة ، وذات زخارف تليق بطرق رئيسية عظيمة ولا تفتقر إلا إلى الطرق الرئيسية العظيمة لتزينها » .

ولقد أبدى « لانفان » جرأة عظيمة فى تصميم المدينة فى مجموعها كما

كانت خليقة أن تبدو عليه فى وضعها النهائى ، ووضع مشروع تخطيط ممتاز طبقاً للأصول والأغراض الباروكية ؛ مع إضافة رموز ذات دلالة جمهورية ، كما لو كانت صورة رسمها دافيد . بيد أنه نسى حدود مهمته ، فقد أغفل أنه لم يكن فى مقدوره هو نفسه أن يقوم ببناء المدينة التى وضع تخطيطها ولا كان ذلك فى مقدور القادة السياسيين فى عصره مهما يبلغ من استعدادهم لذكرى الشخصيات الكلاسيكية التى أوردها بلوطارخ . وذلك أن البلاد ذاتها كانت فى حاجة إلى نصف قرن على الأقل من النمو والرخاء والاتحاد قبل أن يتسنى لها حتى الشروع فى ملء فراغ مثل هذا التخطيط الشامل ، وفى تلك الأثناء فإن المنشآت الأكثر تواضعاً التى كان يمكن البدء بها فى نطاق مشروع أكثر تلاؤماً معها من مشروع « لانفان » ، كانت خليقة بألا تعرقل إقامتها ، بل على الأصح أن تحول دونها عظمة المشروع الضخم الذى وضعه « لانفان » .

والواقع أن « لانفان » نسى أن الزمن كان عقبة خطيرة أمام المفهوم الباروكى للعالم ؛ إذ أن النظام الباروكى نظام آلى لا يقيم وزناً لاعتبارات النمو والتغيير والتلاؤم والتجديد الخلاق ، فمثل هذا النوع من العمل بموجب الأمر يجب أن ينفذ بحذافيره دفعة واحدة فى حينه . ولو أن « لانفان » راعى هذه الحدود الضيقة فلربما استطاع أن يحقق من النجاح فى تحديد مواقع المبانى الرئيسية للحكومة ما تيسر لجيفرسون أن يحققه فى مبانى جامعة فرچينيا ، ولكنه باهتمامه بألا يترك شيئاً دون أن يدبر أمره أضاع حتى القليل الذى كان من المحتمل أن يحققه .

ولم ينقذ مشروع « لانفان » من طمس معالمه طمساً كاملا إلا أمران ، كان أحدهما العمل الذى قام به إسكندر روبى شبرد ، وكان عبارة عن سلسلة من الإصلاحات العامة الكبرى قام بها بعد الحرب الأهلية ، وكان هذا الموظف يعرف باسم « المعلّم شبرد » (Boss Shepherd) ، فقد كان على شاكلة هوسمان — الذى كان شديد القرب من زمنه — يملك الصفات

الدكتاتورية الملائمة لتنفيذ خطة باروكية . ولحسن الحظ أن شبرد أيضاً كان له من قوة الخيال ما جعله يتولى أخيراً غرس الأشجار فى الشوارع العريضة على النسق الذى عينه « لانفان » . ولقد أكسبت هذه الأشجار التخطيط السطحى بعداً ثالثاً هيأ له الثبات والاستقرار . وإن هذه البوائك الطبيعية ، التى تبقى خضراء شطراً كبيراً من السنة ، لترحم الناس بإخفاء جانب من أسوأ ما فى واشنطون من حالات القبح المعمارى دون أن تحجب إلى حد كبير أوفر المبانى نصيباً من الجمال . بيد أنه فى حالة الشوارع العريضة التى تفتقر إلى مثل هذا اللون من التجميل ، كثيراً ما ينعدم وجود ما يخفف من شدة قبحها .

وأما الأمر الآخر الذى أنقذ تخطيط « لانفان » الأصلى ، ولو أنه لم يكسبه شيئاً جديداً من الجمال ، فهو ملء الاتساع الكبير الذى اتسعت به الشوارع العريضة بحركة مرور العربات على نحو يكفى لتسويغ وجودها ، ولم يحدث ذلك إلا على أثر ظهور السيارات . وعلى الرغم من أن حركة السيارات قد وصلت الآن إلى مستوى التخطيط وتسبب انسداد أشد الطرق إسرافاً فى الاتساع وكذلك إخفاء منظر الخضرة وراء سور معدنى من السيارات الواقفة بالانتظار ، فإن واشنطون قد قامت بدور حقل تجارب لدراسة مسألة ما إذا كان يتسنى لمدينة خصصت بأكملها لحركة المرور أن تقوى على البقاء على نحو يكفى لخدمة أغراض أخرى .

وإنه لواضح منذ الآن فى واشنطون — وسوف يصبح ذلك أكثر وضوحاً تبعاً لما تتلقاه المدينة من طوفان الطرق الجديدة السريعة التى لا تكترث بإتلاف وتشويه كل منفذ إلى أفضل مناظرها الحضرية — أنه عندما تتمتع حركة المرور بالأسبقية على كل المهام الحضرية الأخرى ، لا يتسنى للمدينة بعد ذلك أن تقوم بأداء مهمتها وهى تسهيل اجتماع الناس واختلاط بعضهم ببعض . وليس الحق المتحجل للسيارة الخاصة فى أن تذهب

إلى أى مكان فى المدينة وأن تقف للانتظار فى أى مكان ، إلا ترخيصاً بإتلاف المدينة . وقد أثبت الآن تخطيط « لانفان » بما ينطوى عليه من تشجيع زيادة حركة المرور ، أنه ألد أعدائه بالذات .

ولكن فلنلاحظ أن الجزء الذى أصبح الآن المنطقة المفضلة للإقامة فى واشنطون ، ليس المنطقة التى تطل على الشوارع العريضة ذات حركة المرور الكبرى بضوضائها وغازاتها السامة ، بل على النقيض من ذلك تماماً ، فإنها منطقة جورجتاون (Georgetown) ، ذات الشوارع الضيقة والتخطيط البالغ الاندماج ، التى بلغت من ضعة الشأن فى القرن التاسع عشر ما جعلها عندئذ مقر مساكن صغيرة للصناع وصغار التجار . وقد حولت هذه المنطقة فى خلال الجيل الأخير إلى حى لمساكن الطبقة الراقية ، حيث يجد الإنسان شاكراً أن المقاييس ليست ضخمة بل عادية مألوفة .

وعلى الرغم من كل شىء ، فإنه يجب أن تعتبر واشنطون مثالا كلاسيكياً للتخطيط الباروكى ، ولو أنه تسنى تشييد واشنطون فى خلال عشرين سنة ، وبدت مبانيها على نسق ملائم منتظم ، وتم شغلها جميعاً لكانت آية الإعجاز لفن الرجل الذى وضع التخطيط بمفرده ، وآخر تحفة تمثل عصرها وتختتمه . وما دام هذا لم يتحقق ، فإن امتدادها واتساع نطاقها كانا فى ذاتهما من دواعى سوء النظام ؛ فقد انعدمت فيها على السواء السلطة المطلقة والروح النظامية الجمهورية وروح المصلحة العامة . ولا يتحمل وزر هذا العيب « لانفان » وحده ، بل كذلك المسئولون عن تنفيذ تخطيط « لانفان » ، وأولهم الرئيس واشنطون ، الذى كان أقل مراعاة لسلامة مشروع « لانفان » من مراعاة صوالح زميله فى امتلاك الأراضى دانيل كارول (Daniel Carroll) — وكان أكبر ملاك الأراضى فى المنطقة .

وقد كان الاستغناء عن خدمات « لانفان » دليلا على أن ملاك الأراضى

والمضاربين التجاريين – وليست الحكومة – هم الذين سيمارسون أكبر نصيب من الإشراف على نمو العاصمة . وعلى الرغم من أن « لانفان » كان يدرك – طبقاً لنص عباراته ذاتها – « أن المدينة العاصمة ، على خلاف ما سواها من المدن ، تستمد رواءها من مبانيها العامة أكثر مما تستمده من مراكزها التجارية » ، فإن التجار والمضاربين عمدوا فى غير اكتراث إلى طمس خير ظواهر مشروع « لانفان » ، ولم يتركوا منه سوى معالمه الباهتة . وفيما عدا عجز « لانفان » عن صد غائلة القوى الفعلية التى كان من شأنها إفساد تخطيطه ، فإنى لا أعرف أحداً سواه من واضعى تخطيط المدن على النمط الباروكى – حتى ولا أولئك الذين كانوا يعملون مع هوسمان – أبدى إدراكاً يفوق ما أبداه « لانفان » نحو الصلة المتبادلة بين الطبوغرافية وحركة المرور والنصب التذكارية والمبانى العامة . وأما ما كان مفتقداً فهو لون من الإشراف السياسى الذى يقدر التبعات ليقوم مقام أوامر السلطة الاستبدادية التى كثيراً ما كانت تبلغ حد الإسراف وعدم تقدير المسئولية . بيد أن هذا بدوره كان خليقاً بأن يغير ذات الطابع الذى اتسم به التخطيط .

ومن هذه الناحية ، نجد أن التلطيخ الذى أصاب المشروع العظيم لتخطيط واشنطون يمثل مصير الخطط الباروكية بأكملها ، من حيث تأثيرها فى حياة سكان المدن ، فإنه فى عصر زاخر بالتغيير والتحول كان تشبث الخطط الباروكية بنظام المظهر ووحدة التناسق ، يفرض على الأقل قياساً عاماً ، ويذكر الطبقة الراقية من سكان المدن باعتماد مختلف نواحى الحياة العامة بعضها على البعض الآخر . ولقد وضعت سلسلة من تشريعات المبانى فى أوروبا معايير للبناء ، وحددت الارتفاعات ، وفرضت قدراً من أصول اللياقة ، كان من شأنه وضع حد للتنافس على مستوى أدنى من ذلك . وكانت هذه المعايير تبدو مزعجة لقادة القرن التاسع عشر فى إنجلترا ، وإلى مدى أبعد من ذلك فى الولايات المتحدة ، ولهذا فإن القانون الإنجليزى الحصيف للمبانى ،

الصادر فى سنة ١٧٧٤ ، غدا يعرف باسم « القانون الأسود » ومرادفاً للتعنت البيروقراطى والتكرار الكئيب . وحالما تحقق للقادة الجدد فى مجال التجارة والصناعة التحرر من قيود الذوق الباروكى ، عمدوا باسم الحرية إلى تشجيع المضاربة غير المأمونة والمنافسة العشواء . وكانت النتيجة أن التيار العظيم لحركة العمران الحضرى فى القرن التاسع عشر تمخضت عنه ظاهرة غريبة وهى غمر المدينة بالمبانى تدريجاً ، فإنه بدلا من التعمير المنتظم ، امتلأت جوانب المنظر العام بما أخذ يتناثر على سطحه من أكداس المواد والحطام الحضرية التى طرحت بها سفينة العمران للتخفيف من حمولتها ، عندما هبت عليها عاصفة المشروعات الرأسمالية .

الفصل الرابع عشر

التوسع التجارى والانحلال الحضرى

١ — من ساحة السوق إلى اقتصاديات السوق

حتى قبل أن تجد المركزية السياسية فى التخطيط الباروكى مظهراً يعبر عنها فى أقصى أوضاعها المطلقة ، كان مركز الثقل قد بدأ يتحول خفية إلى مجموعة جديدة من القوى الاقتصادية . وقد تبين أن سياسة الدولة التى كانت تعرف باسم سياسة التجارة ، وترمى إلى تحويل ما كانت مدينة العصور الوسطى تمارسه من حماية اقتصادياتها وإشراف على الاحتكارات إلى إشراف مركزى يمارسه التاج — تبين أن هذه السياسة لم تكن إلا حيلة انتقالية . وذلك أن القوى الجديدة كانت تحبذ التوسع والانتشار فى كل اتجاه ، من الاستعمار فيما وراء البحار إلى إقامة صناعات جديدة قضت ، بفضل ما جاءت به من ضروب التقدم التكنولوچى ، قضاء تاماً على كل قيود العصور الوسطى ، فكان هدم أسوار مدن تلك العصور هدماً عملياً ورمزياً فى آن واحد .

والنظام الذى يمثل تلك القوى يحمل الاسم التقليـــدى المعروف « بالرأسمالية » ، وإنى لأتصدى عامداً إلى معارضـــة ما جرى به العرف الأمريكى الشائع من إطلاق اسم جديد عليه يبعد عما يرتبط به من الأواصر التاريخية الكريهة . فعندما وافى القرن السابع عشر ، كانت الرأسمالية قد غيرت ميزان القوى بأسره ، ومنذ ذلك الحين كان الحافز على التوسع الحضرى ينبعث على الأخص من التجار ورجال المال وأصحاب الأملاك الذين كانوا يعملون على خدمة مصالحهم . ولم تطرأ على هذه القوى زيادة عظيمة إلا فى القرن التاسع عشر بتأثير الابتكارات الميكانيكية والتصنيع على نطاق واسع .

وعلى الرغم من أن هناك صلة وثيقة دائمة بين تقدم التجارة والصناعة ، فإن من الملائم عند البحث فى التحول الحضرى أن نفصل بين هاتين الناحيتين من نواحى النظام الرأسمالى الجديد . والحقيقة أن هذا ليس ملائماً فحسب ، بل إنه عين الصواب من الناحية التاريخية ، فإن شطراً ليس بالقليل من المبتكرات الفعلية فيما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر كان ثمرة جهود المحدثين من أصحاب المشروعات التجارية أو أتباعهم ، من إمساك الدفاتر بطريقة القيد المزدوج ، والحوالات التجارية ، والشركات المساهمة ، إلى السفن الثلاثية القلوع ، والمنارات ، وأحواض السفن ، والترع . و مدن الموانئ المزدهرة على شاطئ النهر وساحل البحر ، مثل بريستول والمافر وفرانكفورت على نهر الماين وأوجسبرج ولندن وأنتورب وأمستردام ، كان الناس يستهدون بمعايير ومثل عليا جديدة ، فقد أصبحوا يدخلون فى الاعتبار عند ممارسة جميع معاملاتهم ما يمكن أن تدره عليهم من ربح وإيجار .

وكان نمو المدينة التجارية عملية بطيئة ؛ إذ أنها كانت تلقى مقاومة من جراء تكوين مدينة العصور الوسطى وتقاليدها ، وعلى الرغم من أنها أفادت من الانتظام الباروكى — والواقع أنها كانت إلى حد ما من أسبابه — فإنها كانت لا ترتاح إلى مظاهر إسراف الأمراء . بيد أن الرأسمالية أدت فى النهاية إلى إدخال أساليب ساحة السوق ، على نحو شامل ، إلى كل حى من أحياء المدينة ، فلم يعد أى جزء فيها بمنأى عن التغيير إذا كان ذلك يعود بفائدة . وكما رأينا لقد بدأ هذا التغيير فى مدينة العصور الوسطى ، واقترن بنمو التجارة مع الجهات النائية . ولقد بلغ من شدة رسوخ هذا النوع الجديد من التجارة — خارج نطاق القواعد التى كانت كل نقابة تضعها — أنه فى سنة ١٢٩٣ كان الوسطاء فى مدينة بروج قد أثبتوا حقهم فى القيام بالوساطة فى كل صفقة للبيع بالجملة تعقد فى بروج . وقد كان هذا الأثر محسوساً إلى حد أنه قبل ظهور توماس أكويناس بمدة قرنين من الزمان ، تسنى لألين

من مدينة ليل (Alain of Lille) أن يقول : « إن المال هو كل شيء الآن ، وليس قيصر » :

وتبعاً لاتساع نطاق سوق البيع بالجملة — وكانت تزاول عمليات التعامل مع الجهات النائية عن طريق النقد والائتمان فى آن واحد وتجد فى السعى وراء ما تعود به المضاربة من أرباح طائلة — ظهر اتجاه جديد نحو الحياة ، كان يجمع بين ما فى الانتظام من تقشف وما فى الإقدام من مغامرة ، وبين الجشع المنظم والكبرياء العاتية . وإذا كان قوام الفكرة الرئيسية فى العصور الوسطى الحماية والاطمئنان ، فإن النظام الاقتصادى الجديد قد قام على أساس من المخاطرات المدروسة . وفى كنف نظام العصور الوسطى كان التحكم فى السوق لصالح كل من المنتج والمستهلك ، وكانت الآثار الناجمة عن الانشغال بالربح أكثر مما ينبغى ، تجد على مر الزمن ما يوازنها فى إجزال الهدايا ، والإحسانات ، ورد الحقوق إلى أربابها عند دنو ساعة الموت ، وتقديم المعونة الأخوية لذوى الحاجة . وعلى الرغم من أن الكنيسة كانت تفوق سواها فى تلقى أكداس المال ، فإنها كانت تقوم بإعادة توزيع جانب غير قليل مما يتجمع من الأرباح فى سبيل العناية بالمرضى وذوى الفاقة ، ولكنها لم تبذل أى مجهود فى سبيل القيام بأى توزيع آخر على نطاق أعم شمولا .

ولقد كان أحد وجوه الاعتراض الكبرى لآدم سميث على أمثال أنظمة العصور الوسطى التجارية التى ظلت قائمة إلى القرن الثامن عشر ، هو أن أولئك الذين كانوا ينتمون إلى حرفة واحدة كانوا « يفرضون ضرائب على أنفسهم لتدبير ما يحتاج إليه فقراؤهم ومرضاهم وأراملهم وأيتامهم » . وقد تولت الرأسمالية إزالة هذا العبء عن كاهل الإنتاج ، فكان لا يقف حائلا بين العامل والموت جوعا سوى رغبته فى العمل — حالما يدعى وإذا ما دعى — على أساس الشروط القاسية التى وضعها المغامرون الجدد :

وكلما تسنى الهبوط بمعيشة العامل إلى مستوى أشد انخفاضا ، كانت أرباح الرأسمالى المغامر أشد ارتفاعا :

وفى عش مدينة العصور الوسطى ، على الرغم من أن بيضة العندليب الرأسمالى كانت أكبر حجما من البيضة العادية للتاجر المحلى ، فإنها كانت تعتبر من ذات الحضنة ، والواقع أن الرأسمالية اتشحت فى مبدأ الأمر بثياب العصر وتأدبت بآدابه فترنمت بالعزوف عن الربا ، وقبول مبدأ الثمن العادل بغض النظر عن تلهف المشترى أو قلة الإنتاج : ولكن الزمن ألقى زمام القيادة فى قبضة المغامرين الجدد — والواقع أن ذلك حدث على وجه بالغ السرعة بعد القرن الرابع عشر — فقد أصبحوا فى حالات كثيرة على رأس أداة الحكم فى البلديات وما هو أكبر منها من الحكومات . وفضلا عن ذلك فإن حوافزهم وطرائق حياتهم سرت فى جميع نواحى النظام الاقتصادى : ولكن هؤلاء الأشياع الجدد لميداس[1] (Midas) لم يعد موضع اهتمامهم للسلع وللناس ، والأسرات والطوائف ، بل المقادير المجردة ، فلقد صرفوا همهم كله تقريبا إلى ما أسماه توماس اكويناس الثروة المصطنعة التى — كما أشار — لم تضع الطبيعة حدا لمدى إحرازها : وانعدام الحدود على هذا الوجه لم يصبح أقل شأنا من سواه من الأمارات البارزة فى المدينة التجارية ، بل إنه يفسر بعض الشيء ما حدث بعد القرن الثامن عشر من اطراد الخروج على العرف : ولقد اقترن بظهور الطرق الرأسمالية للمحاسبة ، ظهور الحاجة إلى بيروقراطية غير حكومية ، إلى أى جيش من الكتبة والمعاونين المأجورين لقيد الحسابات وتولى أمر المراسلات ، بل لتوفير المعلومات اللازمة لكى تتسنى الإفادة من تغير أحوال السوق قبل أى إنسان آخر لو أمكن ذلك : ولذا فلعل أول دخول سافر للرأسمالية إلى مدينة العصور الوسطى

---

(١) تروى الأساطير أن ميداس كان ملك فريجيا فى آسيا الصغرى ، وأنه كان فاحش الثراء ، حتى إن اسمه لا يزال إلى اليوم علما على الثراء العريض .

كان عن طريق المدرسة الابتدائية ، حيث كانت مبادئ القراءة والكتابة والحساب هي مواد الدراسة الأساسية . وقد وازن التقدم في هذه الناحية ما أبدته المدن التجارية من المقاومة للنقابة الثقافية الجديدة ، أي الجامعة ، عندما ظهرت بعد تأخير بالغ ، في بروج ولوبيك وليون وانتورب ولندن وأوجسبرج والبندقية .

وقد أصبح التحكم في الورق – بما تعنيه كلمة تحكم في اللغتين الإنجليزية والفرنسية من « فحص » و« مزاولة السلطة للسيطرة » – علما على البيروقراطية التجارية الجديدة ، وكانت في أول الأمر تستقر متواضعة في المكاتب الموجودة في المنازل والدور الكبيرة بالمدن القديمة في العصور الوسطى . بيد أن المنظمة التي كانت نقطة التحول في تطور المدينة الجديدة وأول مظهر حاسم لها ، كانت « البورصة » ، وقد سميت كذلك تبعا لاسم أحد البيوت المصرفية الأصلية في بروج وهو دو بورز (De Beurze) ، الذي بدأ في القرن الثالث عشر يقوم بدور مركز لعقد الصفقات التجارية الكبيرة .

وكانت تتم في دور البورصات الجديدة الأعمال الخاصة بتحويل العملة ، والمضاربة بيعا وشراء ، وأعمال الوساطة ، وكانت المدن هي التي أنشأت مثل هذه الدور – بروج أولا ثم أنتورب في القرن السادس عشر ، قبل أن يهدمها الإسبان ، ثم امستردام ولندن في القرن السابع عشر . وقد نمت هذه الدور سريعاً ، وأنشأت الأوضاع الجديدة لحياة أرباب المال ، فأصبحت بورصة المال ، والمصرف القومي وبورصة التجارة ، كاتدرائيات النظام الرأسمالي الجديد .

ولم يخل من العوائق تحويل السوق من عنصر يدخل في تكوين مدينة العصور الوسطى وتكلؤه بحمايتها ولا يتحدى نشاطه حدود نطاقه الخاص ، إلى منظمة آخذة في الاتساع ، تنشر أساليبها وأهدافها في كل ناحية أخرى من أنحاء المدينة وتطالب بحصتها في كل صفقة . فحينما عرض هنري الثاني

على بلدية باريس اقتراحا يرمى إلى إنشاء مصرف غرار النموذج الإيطالى ، اقترح تجار المدينة أنفسهم أن يعرض الأمر على فقهاء الدين ، إذ أن السعر المقترح للفائدة على أساس ثمانية فى المائة لم يكن فى نظرهم إلا نوعا من الربا ينافى شريعة الله ويخل بأصول الأخلاق القويمة . وكذلك فإن الدولة ذاتها ، بدلا من المبادرة إلى القضاء على ما كان للبلدية من منظمات واقية ، عمدت على الأصح إلى وضعها تحت إشراف قومى أوسع نطاقا . ولقد استمر فى داخل المدينة هذا النضال الدفاعى فى وجه قوى التدمير الرأسمالية ، ولذلك فإن مشروع التخطيط الذى وضعه كولبير لباريس فى سنة ١٦٦٥ شدد القيود والإشراف على المبانى إلى حد يفوق حتى ما اقتضته فى لندن التشريعات التى وضعت فى عهد الملكة إليزابيث قبل ذلك بمدة تزيد على جيلين .

بيد أن رأس المال السائل أثبت أنه مذيب كيميائى ؛ فقد اخترق الطلاء المنشقق الذى تولى وقاية مدينة العصور الوسطى زمنا طويلا ، وشق سبيله إلى صلب الجوهر ، مبديا من العنف وعدم الاكتراث فى القضاء على المنظمات التاريخية ومبانيها ، ما جاوز حتى مسلك أشد الحكام المستبدين تهورا . ويمكن وصف هذا التغيير الكلى بأنه عبارة عن أن الساحة المادية للسوق فى مدينة العصور الوسطى قد استبدلت بها سوق مجردة كانت تنتشر فى كل أرجاء الدولة ، وتزدهر حيثما كان يتسنى عقد صفقة رابحة . وفى بادئ الأمر كانت السلع المادية تتبادلها الأيدى فيما بين المشترين والبائعين ، الذين كانوا يرون بعضهم بعضا ويرتضون عين المبادئ الخلقية ويلتقون على قدم المساواة تقريبا ، وعندئذ كان الاطمئنان والعدل والاستقرار أجل شأناً من الربح ، كما أن الصلات الشخصية التى كانت تنشأ على هذا النحو كان من المحتمل أن تدوم طول الحياة ، بل حتى على مدى الأجيال :

وأما فى السوق المجردة ، فقد كان من الجائز ألا يرى الناس بعضهم

بعضا على الإطلاق وهم يعقدون صفقات مالية ، كانت السلع ذاتها تؤدى فيها على الأصح مهمة العداد ، وكان الهدف من هذه الاتفاقات هو الربح وتكديس المزيد من رأس المال لطرحه فى مشروعات أخرى متزايدة التضخم . وكانت المبادئ الخلقية المألوفة ، ومعايير الجماعات ، وأسس التقدير التقليدية بمثابة ضوابط تحد من مغامرات المضاربة ، وقد كان ذلك أيضاً شأن استثمار الأموال الكثيرة فى المبانى القديمة التى أنشئت لتحتمل البقاء أجلا طويلا . ولكى تفوز الرأسمالية بمجال فسيح لخدمة صوالحها النمطية ، اتبعت طريقين فيما يتعلق بالمنشآت الحضرية القائمة ، فكانت تحاول الهروب من المدينة إلى الضواحى الخالية من جميع القيود البلدية ، أو تعمد بدلا من ذلك إما إلى أن تهدم المنشآت القديمة ، وإما إلى أن تشغلها إلى مدى يتجاوز كثيراً من حيث كثافة السكان الحد الذى روعى فى تصميمها — وذلك فى زمن من المفروض أنه كان أشد فقراً . ولقد أصبح الهدم والاستبدال من أهم مظاهر النظام الاقتصادى الجديد ، وكلما كان الوعاء قصير الأجل ، كان التغيير أكثر سرعة .

ومنذ البداية كانت الرأسمالية معادية للتاريخ من حيث صلتها بالمدينة ، وتبعاً لازدياد دعم قواها على مدى القرون الأربعة الأخيرة ازدادت ديناميتها الهدامة : ولم يكن للثوابت الإنسانية مكان فى الخطط الرأسمالية ، فإن عوامل الدوام الوحيدة التى كانت تعترف بها هى الطمع والجشع والكبرياء والرغبة فى المال والسلطة .

وكان شرط النجاح المالى أمرين هما : احتقار الماضى لأنه كان حقيقة ثابتة ، والترحيب بالجديد لمجرد أنه كان بداية ، ومن ثم فرصة سانحة لمشروعات تعود بالربح . وفى سبيل التوسع ، كانت الرأسمالية على استعداد لهدم أكثر ألوان التوازن الاجتماعى مدعاة للرضا . وإذا كانت الآراء الجديدة التى انطوت عليها الأعمال التجارية قد أفضت — تدريجاً بعد القرن

السادس عشر ، وعلى عجل بعد الثامن عشر — إلى إلغاء النقابات والقضاء عليها ، فإنها كذلك أدت إلى هدم المبانى القديمة وإزالة ساحات الألعاب ومزارع البقول والخضراوات ، وبساتين الفاكهة ، والقرى التى كانت تعترض سبيل المدينة الآخذة فى النمو والاتساع . ومهما يكن لهذه الأوضاع القديمة من مكانة محترمة أو يكن من شأن قيمتها من الوجهة الصحية لكيان المدينة ذاتها ، فإنه كان يضحى بها فى سبيل سرعة حركة المرور أو سبيل الربح المالى .

٢ — الحرية الجديدة

وفيما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر ، توحدت مستحدثات الرأسمالية على هيئة مذهب وقاعدة يجرى العمل بموجبهما ، فانتقلت عادات التقشف وإنكار الذات والنظام الرتيب وسنة إرجاء الاستمتاع بمباهج الحاضر من أجل الفوز بجزاء أوفى بكثير فى المستقبل — انتقلت جميعاً من الدين إلى العمل ، حيث نشأت عنها مكاسب عظيمة واضحة الأثر . ولم يكن الأخذ بنظام إقامة الساعات فى المدن ، فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلا إحدى الدلالات على أن العمل لم يعد يخضع فى نظامه لسير الشمس وقوى الإنسان . وفى نهاية العصور الوسطى ، كان العمال فى مصانع النسيج الكبيرة يرغمون على الكد والنشاط عن طريق إشراف أشد دقة ، وأكثر بعدا عن الصلات الشخصية ، مما كان يتسنى ممارسته فى جو النظام اللين الذى كانت تسوده الألفة فى دور التشغيل الصغرى ، وتتخلله فترات لتجاذب أطراف الحديث فضلا عن المزاح السمج ، والتلاعب والإهمال فى العمل . وقد ظلت روح النظام القديم باقية فى عهد الملكة اليزابيث ، على الأقل ، فى مسرحية ديكر « Dekker » المسماة « عطلة صانع الأحذية » (The Shoemaker's Holiday) .

وحين أنكرت الرأسمالية على الفقر صفاته الروحية ، وعلى الفن قدرته على تغذية الفكر والخيال ، لم تنشد إلا زيادة مقادير السلع الاستهلاكية والأرباح المحسوسة . وفى اللحظة الحرجة التى أعقبت وباء الموت الأسود ، عندما بدأ عدد السكان يزداد من جديد بقوة سرعان ما عوضت تلك الخسائر الكبرى ، عملت المشروعات الرأسمالية وسعة الحيلة التكنولوجية الآخذة فى النمو على مواجهة تحدى ازدياد عدد السكان ، وذلك بأنها وجهت إلى العوامل الاقتصادية قدراً من الاهتمام المتواصل لم يسبق له مثيل من قبل . وقد تمخض عن نجاح المشروعات الرأسمالية ثقة بالقوى البشرية ، وفى عصر كان يسود فيه الانشقاق الدينى والفساد ، بدت الرأسمالية حركة سليمة تؤدى إلى التحرر وتفضى أرباحها الخاصة فى النهاية إلى مكاسب عامة . والواقع أن كثيراً من الأساليب التى أوجدتها الرأسمالية كانت سليمة وتعود بالنفع الدائم على أى نظام اقتصادى رحيم . إلا أنه عندما حل القرن السابع عشر كان الأثر العاجل الذى نجم عن هذا النظام الجديد ، هو تغيير ما فى المدينة من نظام اجتماعى معقد إلى ما فى السوق من أساليب رتيبة تجاوزت الحد فى بساطتها . وقد كانت النتيجة النهائية قيام نظام اقتصادى أساسه جمع المال ، وليست له غايات ولا أغراض يمكن تحديدها سوى إكسابه هو ذاته مزيداً من التوسع .

بيد أن هؤلاء المغامرين الجدد من أصحاب المشروعات كانوا فى حاجة إلى المدن القديمة ، ولا سيما مدن العواصم الكبرى أو ما يضارعها من مدن الأقاليم ، حيث كانت أجور المساكن والأرباح فى متناول اليد ، وفرص استثمار الأموال واسعة . فقد كانت تتجمع فى هذه المدن الراسخة القدم طوائف كبيرة من المستهلكين الذين كانوا يجاهدون فى سبيل الفوز بمكانة لهم ، وإحراز الرضا والرعاية عن طريق مظاهر الترف ، محاكين فى ذلك سادتهم الأرستقراطيين . وهناك كانت لا تزال تقوم كذلك منشآت قديمة

تمثل توظيف رءوس الأموال الضخمة ، وكان فى الاستطاعة تحويل استخدامه إلى طرق جديدة للنفع دون سحب رأس المال والأيدى العاملة من مغامرات جديدة أوفر ربحاً بكثير .

وكانت أولى المدن التى أحست بحركة المشروعات الجديدة وعاونت على الاتجاه نحو التركيز الاقتصادى ، هى المدن التى كانت بلدياتها تمنح الامتياز الجديد الخاص بحرية التجارة وحرية إيداع السلع ؛ دون فرض ضريبة دخول ، لتشجيع المزيد من المعاملات التجارية . وهذا هو السبب فى روعة ازدهار انتورب وليون فى القرن السادس عشر . وقد كان ما يعنيه الرأسمالى « بالحرية » هو الإفلات من الاقتصاد المغلق والتنظيم وامتيازات الجماعات ، وحدود البلديات ، والقيود القانونية ، والتزامات الإحسان . وقد أصبح الآن كل مشروع بمفرده وحدة قائمة بذاتها ، تدعى لنفسها الحق فى أن تكون هى بذاتها ناموسها وشريعتها فى تنافسها مع الجزئيات الأخرى المكتفية بذاتها ، وتضع مواصلة السعى وراء الربح فوق كل التزام اجتماعى .

وفى العصور الوسطى ، كانت « الحرية » تعنى التحرر من القيود الاقطاعية ، أى الحرية لصالح ألوان النشاط الجماعى لهيئة البلدية والنقابة والطائفة الدينية ، وأما فى المدن التجارية الجديدة أو مـــدن التجارة (Handelstädte) ، فإن الحرية كانت تعنى التحرر من قيود البلديات ، أى الحرية لصالح الاستثمار الخاص ولصالح النفع الخاص والتكديس الخاص دون أى اهتمام بصالح المجتمع فى جملته والذين قاموا بتبرير هذا النظام ـــ من برنارد ماندفيل (Mandeville) إلى آدم سميث ـــ كانوا يزعمون أنه لما كانت مواصلة الجهود الفردية مستمدة من الطمع والجشع والشهوة ، فقد كان من شأنها توفير أكبر قدر من السلع للمجتمع فى جملته . وفى الحقبة التى كانت فيها هذه العقيدة هى المذهب الصحيح السائد ـــ إلى

حوالى الربع الثالث من القرن التاسع عشر عندما شرعت الأنظمة الصناعية والبلدية تخفف على استحياء مما نجم عن ذلك من عواقب وخيمة ، كان الأثرياء يزدادون ثراء والفقراء يزدادون فقراً . وكانت هذه الحقيقة تتمثل بوضوح كوضوح الرسم البيانى فى المفارقة بين الشق الغربى والشق الشرقى فى أكثر من مدينة من المدن الكبرى .

على أنه على غرار ما كان من شأن نمو الدولة القومية ذاتها ، كان تطور الرأسمالية أمراً لابد منه إلى حد ما للتغلب على وجوه النقص الخطيرة التى كان يتصف بها النظام الاقتصادى فى العصور الوسطى . والهيئات الاتحادية فى العصور الوسطى ، فى محاولتها تحقيق طمأنينة دائمة ، قاومت مبتكرات جديدة وطرقا جديدة العمل ، وتشبثت بأسرار مهنها ، أى بصيغها السرية أو بعبارة أخرى بأسرارها الخفية . وقد عمل أعضاؤها أيضاً على الأحتفاظ بالامتيازات النقابية فى داخل نطاق أسر أو طوائف محدودة من تلقاء ذاتها ، فكانوا يقيمون العقبات دون التوسع فى منح حق المواطنة إلى الغرباء ، بل يسعون عن طريق التآمر والحرب إلى القضاء على المنافسة التى كان يمكن أن يلقوها من المدن المجاورة ، وبدلا من التسليم بأن المنتجات التقليدية للنظام الاقتصادى الإقليمى ذات صفة ثابتة ومحدودة نسبياً ، فإن التجار المغامرين الجدد كانوا يسعون إلى توسيع نطاق الإنتاج وفتح آفاق السوق ، ولذلك كانوا يعملون على تعضيد التحسينات التكنولوجية مثل آلة الغزل ، وكانوا يعتمدون إلى حد كبير على المناطق الواقعة فيما وراء البحار ليحصلوا منها فى آن واحد على المواد الأولية وعلى المنتجات الكاملة الصنع . ولقد كانت عمليات شحن هذه البضائع وتبادلها تؤلف جانباً كبيراً متزايداً من وجوه نشاط المدن المزدهرة ، وتبعاً لذلك أخذت الحياة الاقتصادية تفلت شيئاً فشيئاً من إشراف البلديات .

وعلى ذلك فإن الرأسمالية ، بحكم طبيعتها ذاتها ، قوضت دعائم الحكم الذاتى المحلى ، والاكتفاء الذاتى على حد سواء ، وأقحمت على المدن القائمة عنصراً من عناصر عدم الاستقرار ، بل فى الواقع من عناصر التحات الفعال . فإن الرأسمالية بتوجيه عنايتها إلى المغامرة بدلا من الطمأنينة ، وإلى المبتكرات التى تدر الربح بدلا من التقاليد ووجوه الاستمرار التى من شأنها الاحتفاظ بالقيم ، اتجهت نحو هدم كيان الحياة الحضرية بأسرها ، وأقامتها على أساس جديد مجرد من الصلات الشخصية ، قوامه المال والربح .

وكان لهذا كله أثر مباشر فى المنشآت قديمها وجديدها فى آن واحد ، فقد أصبحت القديمة قابلة للتوسع ، وصممت الجديدة منذ البداية على أن تكون وقتية . فإن رأس المال — وقد كان يذهب إلى أقصى غايات المغامرة وهو سائل سيار — كان ينظر بعين الريبة إلى توظيف أموال ضخمة فى معدات ومبان دائمة . وحتى بعد أن اتخذ فى الشركة المساهمة وضعاً محكماً أكثر سيلاناً وقابلية للتحول ، كان يميل إلى تفضيل المبانى ذات الطابع النفعى ، التى تبنى على وجه السرعة وتستبدل فى يسر وسهولة — إلا عند ما كانت الحاجة إلى اكتساب ثقة الجمهور فى ثروة ومتانة مركز إحدى المؤسسات تسوغ استخدام المال الوفير فى مبان فخمة المظهر .

ولقد كان لهذا الحافز نتيجة مزدوجة الأثر فى تكوين المدن ، فإن الاعتبارات المرتبطة بالمال سيطرت تدريجاً على الاعتبارات المرتبطة بالأرض فى تخطيط وإنشاء الأحياء الجديدة فى المدينة ، بيد أن ما قد يكون أشد دلالة من ذلك هو أن كل الأراضى التى كانت قد أفلتت من التملك الإقطاعى وكانت عرضة للبيع بلا قيد ، أصبحت تعتبر ، بازدياد اطرد يوماً فيوماً ، وسيلة للاستغلال . وقد كانت الأراضى الإقطاعية تؤجر لمدة ٩٩ أو ٩٩٩ سنة ، أى لمدة ثلاثة أجيال على الأقل . وكان هذا النظام يرجح كفة الاستمرار ،

ويحد من حركة ارتفاع الأسعار ، ولكن عند ما أصبحت الأرض سلعة ولم تعد وديعة ، خرجت عن نطاق أى نوع من أنواع الإشراف الجماعى .

ولقد بذلت جهود كثيرة للحد من نقل أراضى البلديات والأراضى الإقطاعية إلى الملكية الفردية ، ولكن اطرد سير التغيير من الملكيات الإقطاعية ، بما فيها من واجبات متبادلة بين المالك والمستأجر : إلى ملكيات تجارية خالية من الالتزامات إلا فيما يتعلق بدفع الضرائب . ولقد أعطانا « ستو » وصفاً ناطقاً لهذه العملية إذ قال : « كان يوجد فى شورديتش (Shoreditch) صف من المنازل الصغيرة المناسبة التى كانت بها حدائق ومخصصة لسكنى الفقراء الضعاف الصحة الذين أنزلهم هناك المشرف على ذلك المستشفى (سانت مارى سبيتل ، (St. Mary Spittle) ، وكان كل منهم يدفع إيجاراً قيمته بنس واحد فى السنة عند حلول عيد الميلاد . . . إلا أنه بعد تعطيل المستشفى ، ساءت حالة هذه المنازل فى غضون سنوات قليلة بسبب الحاجة إلى الترميمات إلى حد أنه أطلق عليها اسم الصف العطن . وقد باع جودارد (Goddard) المنازل التعسة البالية . . . لقاء مبلغ يسير من المال إلى تاجر الأقمشة راسل فقام ببنائها من جديد ، وتأجيرها بقيمة كافية ، وتقاضى أيضاً غرامات كبيرة من المستأجرين تكاد تعادل ما كلفتـــه المنازل فى شرائها وبنائها » .

وحالما قُبلت مبادئ التحول الرأسمالى المجردة من أى معنى من معانى المسئولية الاجتماعية ، كان ذلك ترخيصاً بالسكنى الوضيعة وبإقامة مساكن فقيرة . وإن دافينل (D'Avenel) الذى كتب الرسالة التاريخية المثالية عن « النقود والأسعار » ليعتبر القرن السادس عشر نقطة تحول قاطعة . فمنذ ذلك الحين تأخذ أجور المساكن الحضرية فى الارتفاع وتستنزف قدراً لا يتناسب مع دخل العامل الحضرى . ولا بد من أن يكون التغيير الفعلى قد حدث قبل القرن السادس عشر فى عدة أماكن — كانت لندن أحدها —

وإلا فكيف نفسر بغير ذلك تلك العبارات الساخطة التى وردت فى قصيدة[1] . « بيرز الحراث » (piers plowman) : « إنهم يبتاعون الدور ويصبحون من أرباب الأملاك ، ولو أنهم كانوا يبيعون بأمانة لما تيسر لهم أن يقيموا مبانى بهذا الارتفاع » . وعند ما أقبل القرن السادس عشر أيد روبرت كرولى (Robert Crowley) هذه الملاحظة فى مقطوعاته الشعرية عن « رافعى قيمة الإيجار » التى يقول فيها : « عاين رجل أرضه وكانت تغل عشرة جنيهات فى السنة ، ثم أجرها نظير قيمة غالية وبذلك جعل من الجنيهات العشرة عشرين جنيهاً ، وحصل فى السنة على أكثر مما كان يحصل عليه سواه من قبل » .

ولما كان عدد سكان المراكز التجارية الجديدة يزداد باطراد ، فإنها كانت القدوة فى شدة استغلال الأراضى ، وكلما كانت الأرض الموجودة محدودة المساحة بسبب الضيق الطبيعى ، كما هو الشأن فى جنوة الكثيرة التلال ، أو بسبب الاحتكار الخاص ، كما هو الشأن فى ڤينا أو لندن ، ازداد ارتفاع الإيجار ، وزادت فرص الربح من وراء استغلال الأراضى على وجه مزر مناف للروح الاجتماعية . وإن ما اكتشفته شركات الملاحة فى القرن التاسع عشر باستغلال الركاب الذين يدفعون أدنى الأسعار ، اكتشفه أصحاب الأراضى قبل ذلك بزمن طويل ، فإن أقصى الأرباح كانت لا تأتى عن طريق توفير وسائل الإقامة الممتازة لأولئك الذين كانوا يستطيعون تحمل نفقاتها عن سعة ودفع أجر كبير لقاءها ، بل عن طريق وسائل الإقامة الفقيرة المكتظة لأولئك الذين كانت دراهمهم أندر من دنانير الأغنياء .

ولقد كانت توجد فى لندن ونيويورك وباريس قبل منتصف القرن التاسع عشر أنحاء كثيرة كان يتسنى للمرء أن يقول عنها فى ثقة إنه كلما ازدادت

---

(١) كتبت هذه القصيدة الإنجليزية فى القرن الرابع عشر ، ويرجح أن يكون مؤلفها وليم لانجلاند . وهى تهاجم مساوئ رجال الدين والناس عامة وتحث على التمسك بأهداف المسيحية .

حالة المسكن سوءاً ، ازدادت القيمة الإجمالية لإيجاره ارتفاعاً . ولم يوضع حد لهذا العمل الموفق الذى انطوى على اعتصار الربح من ضرورات حياة الفقراء إلا عندما أخذ يقل صافى الربح من الإيجار ، نتيجة لما كانت تتكلفه الجريمة والرذيلة والمرض فى بيئة المساكن الفقيرة على النحو الذى تبين أثره فى الضرائب العامة والضرائب الخاصة بإعانة الفقراء . ولم يحدث ذلك فى لندن إلا فى عهد الملكة فيكتوريا ، عندما أزيلت المساكن الفقيرة على نطاق واسع ، وكان ذلك إلى حد ما للحصول على حيز جديد للاتساع التجارى ، ولكنه كان أيضاً للتخلص من الأعباء المتزايدة المترتبة على القانون الخاص بإعانة فقراء الأبرشية .

وتحويل المنازل الأقدم عهداً والأكثر اتساعاً إلى مساكن رخيصة ممسكة بتلابيب بعضها بعضاً ، حيث كان يتيسر حشر أسرة بأكملها — وأحياناً أكثر من أسرة — فى غرفة واحدة ، لم يكن كافياً لإيواء العدد المتزايد من السكان فى المدن التى كانت تفوق غيرها « رخاء » ، فكان لا بد من إنشاء أحياء جديدة يكون من شأنها أن تقبل هذه الأوضاع الكئيبة على أنها قياسية فيها منذ البداية .

وطبقاً لما أورده روجر نورث (Roger North) فى مؤلفه عن سيرة حياته ، فإن إقامة المبانى لأغراض الاستثمار بدأت تظهر فى لندن على نطاق واسع بالمغامرات التى أقدم عليها الدكتور باربون (Barbone) بعد الحريق الكبير الذى حدث فى سنة ١٦٦٦ ، فقد هيأ له نقص المساكن حينئذ فرصة ملائمة ، « فهو الذى ابتكر الطريقة الجديدة للبناء بتحويل الأرض إلى شوارع ومنازل صغيرة ، وبيع الأرض للعمال بمعدل سعر معين للقدم من الأرض المطلة على الشارع ؛ وكان يتولى بنفسه بناء ما لا يتسنى له أن يبيعه . وكان هذا سبباً فى رفع قيمة إيجار الأرض لصلاحيتها للرهن . وقد اقتفى أثره آخرون ، نمقوا طريقته ، وتفننوا فيها ، وضربوا حول لندن نطاقاً من

المنازل كان شأنها شأن الجنين الذى يتكون خارج رحم يحمل من قبل جنيناً آخر » .

ومالك المساكن الفقيرة ، بدلا من أن يلقى العقاب على استغلاله الأرض على نحو يجافى الروح الاجتماعية ، لقى جزاء حسناً طبقاً للقواعد الرأسمالية ، فإنه بدلا من أن تصبح أملاكه الخربة عديمة القيمة لقدمها وعدم ترميمها ، أصبحت من العوامل التى كانت تؤثر فى تقدير الضرائب وقيمة الأرض . وإذا اتجهت المدينة إلى الانتفاع بالأرض على وجه آخر ، فإنه لم يكن يتسنى تحقيق ذلك على نحو مربح إلا بالاحتفاظ بمستوى الازدحام الموجود فى المساكن الفقيرة ، أو حتى بالمضى إلى ما هو أكثر من ذلك كثافة فى الازدحام .

وكلما ازدادت كثافة شغل المساكن ازداد ارتفاع الدخل ، وكلما ازداد ارتفاع الدخل ، ازدادت القيمة الرأسمالية للأرض . وإذا كانت مدن مثل لندن قد ظلت زمناً طويلا بمنجاة من أسوأ عواقب هذه الحلقة المفرغة ، فإن مرد ذلك إلى أن قدراً كبيراً من الأرض كان من الممتلكات الإقطاعية المؤجرة لمدد طويلة ، ولكن عندما خرج فردريك الأكبر على التقاليد الجرمانية ، وجعل للأرض وضعاً يقوم على أساس مستمد من القانون الرومانى ، بحيث تكون لها عين الصفة التى للمبنى ، فإنه فتح السبيل أمام استثمار الأملاك العقارية استثماراً جامحاً ، مما أفسد تخطيط برلين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ؛ عندما وضعت البلدية يدها على مساحات كبيرة من الأرض لمشروعات الإسكان .

ولقد كانت هذه العملية تجرى بسرعة مضاعفة فى أطراف المدن التجارية . وبتقسيم أرض المزارع المجاورة إلى قطع للمبانى ، تفككت أوصال المدينة المترابطة وتمزقت إرباً . ومنذ بداية القرن التاسع عشر كانت سياسة حرية العمل تعنى فى نظر البلديات « فليضارب من شاء على ارتفاع قيمة الأرض وفئة الإيجار » ، فإنه بهدم السور العسكرى ، زالت الضوابط

الاجتماعية على توسع المدينة وانتشارها دون قيد أو حد . وقد نشأ عن ازدياد سرعة وسائل النقل ، الخاصة أولا ثم العامة ، ازدياد فرص التحول ، وازدياد سرعة سير التغيير الحضرى بأكمله ، فالمضاربة التجارية والتفكك الاجتماعى واضطراب النظام الطبيعى ، مضت متلازمة جنباً إلى جنب : وفى عين الوقت الذى كانت تتضاعف فيه المدن عدداً وتزداد حجما فى جميع مناطق المدنية الغربية ، كانت طبيعة المدينة وأغراضها قد نسيت تماماً ، فأوضاع الحياة الاجتماعية التى لم يعد يدركها أوفر الناس ذكاء ، كان أشدهم جهلا على استعداد لإنشائها ، أو على الأصح لم يكن لدى الجهلة أى استعداد على الإطلاق ، ولكن ذلك لم يحل دون إقدامهم على الإنشاء .

٣ — تنظيم النقل والمبادلة

كان أعظم ما حققه اقتصاد السوق هو تجميع السلع من أجل سرعة تبادلها وتوزيعها ، ولقد كان ذلك سابقاً لما شهده عصر الفحم والحديد من الأعمال التكنولوجية الباهرة ، وكان له نصيب ملحوظ فى تيسير القيام بها . وفى هذه العملية ، كما كان الشأن أصلا فى تطور المدينة القديمة ، كانت الطرق المائية الوسيلة الرئيسية للنقل والمواصلات ، ليس فيما يتعلق بالمناطق النائية فحسب ، بل فى داخل المدينة ذاتها . وإلى وقت متأخر — امتد حتى أوائل القرن التاسع عشر — كان لا يزال الألوف من الملاحين فى لندن يقومون بنقل الركاب فى قواربهم على صفحة التيمز .

وحين كانت المدن التجارية الأقدم عهداً ، مثل بروج وفلورنسا : آخذة فى التدهور فى القرن السادس عشر ، كانت الموانى البحرية والنهرية الواقعة على طرق التجارة الرئيسية تنعم بالازدهار ، وتشهد بذلك نابولى وبالبرمو ولشبونة وفرانكفورت على نهر الماين وليفربول . ولقد انتشر إنشاء القنوات من الأقاليم الواطئة إلى سائر أرجاء أوروبا ، وفضلا عن ذلك فإن مهارة الهولنديين فى التحكم فى الماء وفى ضخه ، انتفع بها فى استخدام أقدم المواسير

الرئيسية للماء من أجل سد حاجة المدن الآخذة فى التوسع . وقد أنشئ فى القرن السابع عشر لأول مرة نظام النقل بالقوارب فى القنوات بصفة منتظمة فى كل ساعة ، وكان ذلك فيما بين ديلفت وروتردام ، وطبقاً لما يقوله بلانشار (Blanchard) كانت توجد وسائل عامة لنقل الركاب والبضائع فيما بين جرينوبل وليون منذ سنة ١٦٢٣ .

وأما المرافئ ومستودعات البضائع ووسائل الشحن ، فإنها أعقبت ذلك على مراحل بطيئة . وعلى الرغم من أن المرفاع الميكانيكى الذى يديره جهاز على هيئة قفص السنجاب كان يستخدم فى بروج فى العصور الوسطى ، فإن آلات الشحن لم تتطور إلا ببطء ، ولعل ذلك يرجع إلى كثرة ما كان يوجد حول الموانئ الكبرى من الطبقة الآخذة فى الازدياد ، طبقة العمال العرضيين الذين لم تكن تحميهم أى نقابة . وكذلك فإن إقامة المنائر جاءت متأخرة ، على حين أن ما فى الموانئ من وسائل التسهيل المماثلة لما كان يوجد فى دار الصناعة البحرية فى البندقية ، بما كان فيها من مواد للبناء والترميم وتزويد السفن بحاجاتها للقيام برحلات بعيدة لم ينشأ على أى نطاق إلا فى القرن السابع عشر عندما ضربت أمستردام المثل فى ذلك المجال ، وتبعتها ليفربول فى القرن الثامن عشر . وعلى الرغم من أن مرافئ شركة الهند الشرقية فى لندن يرجع تاريخها إلى سنة ١٦٠٠ ، فإن المرفأ الكبير الذى تلاها ، وهو مرفأ شركة الهند الغربية ، لم يتم إنشاؤه إلا فى سنة ١٨٠٢ .

وعند الاطلاع على سجلات المدن التجارية قبل القرن التاسع عشر ، يذهل المرء حيال ضروب التقتير والشح فى التحسينات التى أدخلت على المدن ذاتها ، فإن روح تدبير الأمور حيثما اتفق أو جعل الموجود يسد حاجة المطلوب — إن هذه الروح كثيراً جداً ما كانت تسود بالقياس إلى ما كان يتم من المنشآت فى عهد أسبق ، عندما كانت التجارة جزءاً لا يتجزأ من ألوان النشاط الحضرية الأخرى بدلا من كونها غاية فى ذاتها ؛

فإن مستودعات الملح التى أقيمت فى لوبيك القرن الثالث عشر ، كانت مازالت قائمـــة فى القرن العشرين ، وقد كان ذلك أيضاً شأن مستودعات مماثلة لها فى أمستردام ترجع إلى القرن السابع عشر . بيد أنه فى دور تكوين المدن التجارية التى أعقبت ذلك ، لم تستثمر الأموال إلا بقدر قليل نبسياً فى إقامة منشآت مستديمة ، وقد ظهرت إحدى الحالات الأولى للخروج على تلك القاعدة فى إنشاء المرافئ والمستودعات الكبيرة فى ليفربول ، وهى منشآت رائعة استخدمت فيها أعمدة من حديد الزهر ووضع تصميمها على أساس من المقاييس السخية . ولم يتم إلا فى القرن التاسع عشر ما أقامته لندن من السلسلة الكبيرة من الموانئ ومستودعات البضائع الممتدة على طول واجهة النهر مما يلى البرج حتى تيلبرى (Tilbury)

وحتى إنشاء طرق وشوارع عريضة تصل بين الميناء والمدينة ، لم يأت فى أغلب المدن إلا كفكرة طرأت متأخرة ، ولو أن هذه السبل كثيراً ما تبين أنها مكتظة ويتعذر المرور فيها . وأما فيما يتعلق بتدبير مساكن لائقة لأسر عمال الشحن والتفريغ والبحارة وعمال النقل بالعربات الذين كانوا يعملون فى خدمة الميناء ، فقد تركت هذه المسألة تحت رحمة نشاط السوق أسوة بالنزل الوضيع والمواخير والحانات التى كانت تحيط بالموانىء . وإن سوء أحوال عمال الشحن والتفريغ والحمالين والعمال غير الفنيين والبحارة لم تتفش عدواها فى الحى المجاور للميناء وحده ، بل امتدت إلى أحياء أخرى فى المدينة ، وربما زادت من حدوث الأوبئة الفتاكة ، ومن المحقق أنها زادت من انتشار مرض الزهرى .

ولقد بلغ من انتشار هذه الأحوال بصفة عامة فى مدن الموانى أنها أصبحت تعتبر مظهراً عاديا من مظاهر الحياة فى مدينة بحرية . ولعل أفضل النتائج التى أسفر عنها تخريب المدن على نطاق واسع فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت الفرصة التى أتاحتها للسلطات اليقظة المختصة

بالتخطيط فى مرسيليا وروتردام ولندن للقيام بمشروعات جديدة فى المناطق المجاورة للميناء التى طال بها العفن :

وعلى نحو ما سوف نلقاه فى نواح أخرى من مظاهر الاقتصاد الحضرى الرأسمالى ، فإنه حيثما كان يطرأ على الروح الجديدة تعديل ، تحت تأثير عقيدة فكرية أقدم عهداً وأشد اهتماماً بالمعايير الاجتماعية والجمالية ، كانت النتائج أفضل حالا بصورة واضحة ، وآية ذلك الحافر حيث عهد فرنسيس الأول إلى جويون لوروى (Guyon le Roy) فى تشييد الميناء الذى كان قد أعد له التصميمات . ولقد كان هذا المشروع ضرباً من المغامرة ، وعلى الرغم من أنه كان سبباً فى إفلاس من تولاه أصلا ، لعدم حصوله على حق صريح فى امتلاك الأرض ، فإنه كان الحلقة الأولى فى سلسلة من الأعمال العامة التى كفلتها الحكومة وأكسبت الموانئ الفرنسية ، بحسن رونقها ونظامها ، تفوقاً ظاهراً على منافساتها المضطربة النظام من الموانئ الألمانية والإنجليزية . وما زالت منائر شربورج وملاطمها تنهض دليلا ، لا على إقدام رجال الأعمال ، وإنما على ما اتسم به مهندسو نابليون بونابرت من بعد نظر وسعة حيلة :

ولنتأمل التناقض العجيب بين ما كان للرأسمالية فى أوائل أيامها من سعة الحيلة فى التجارب — باتباعها مسلك الحسابات بالقيد المزدوج ، والكمبيالات والاستثمارات المحدودة المسئولية — وبين ما أحدثته فى الأحياء التجارية الجديدة فى المدينة من التغييرات الإنشائية الضئيلة نسبياً : ولعل أحد أسباب التخلف فى هذه الناحية ، حتى فى الشئون التى كانت خليقة بأن تخدم أغراضهم ، هو أن المصرفين والتجار كانوا معنيين بما يعود عليهم بالربح العاجل ؛ إذ يبدو أنهم كانوا يخشون الإقدام على أى مشروع جماعى قد يعود عليهم بالنفع لئلا يكون أكثر نفعاً لمنافسيهم : ولقد كانت المدينة التجارية وسيلة لكسب المال ، ولذلك فإنه — فى سبيل الربح — كان يغض

الطرف عن مظاهر البلى وسوء النظام وعدم وفاء المنشآت بالغرض ، بل الواقع أنه كان يعمل على تشجيعها كوسيلة لتخفيض النفقات العامة . ولقد سبق للبندقية أن أثبتت أن الجمال والنظام لا يتعارضان مع الرخاء المالى ، كما أتيح لأمستردام أن تثبت ذلك من جديد فى القرن السابع عشر . وقد تولى تنظيم كل من هاتين المدينتين جماعة كانوا من أوفر رجال الأعمال نجاحاً ، ويتمتعون بقدر كبير من المهارة والذكاء والجشع ، ولا يرعون مبدأ أو يستشعرون للضمير وخزاً . ومع ذلك فإنه حتى أولئك الذين كانوا يعجبون بأعمالهم لم يحاولوا أن ينهجوا على منوالهم .

٤ — التخطيط العام على أساس المضاربة

إن الخصائص الرئيسية للروح التجارية الجديدة ــ وكانت عبارة عن الاهتمام من ناحية بكل ما هو نظامى وما يمكن وضعه فى ميزان التقدير ، والاهتمام من ناحية أخرى بالتوسع الجرىء والمغامرة القائمة على المضاربة ــ وجدت ما يعبر عنها تعبيراً مثالياً فى مظاهر التوسع الجديدة فى المدينة . وقد كان الشكل قديماً ومألوفاً ، ولكن الرأسمالية التى انبعثت فى القرن السابع عشر كانت تعتبر كل قطعة أرض ، وكل وحدة مخصصة للمبانى ، وكل شارع عادى وشارع عريض ، وحدات مجردة لأغراض البيع والشراء ، دون مراعاة للاعتبارات التاريخية ، أو الظروف الطبوغرافية ، أو الاحتياجات الاجتماعية : وفيما عدا الحالات التى كانت فيها الحقوق الإقطاعية أو الامتيازات الملكية تقلل من سرعة السير فى العملية ، فإن البلدية فقدت السيطرة على الأرض اللازمة لتطورها هى ذاتها .

وإذا كان لا يوجد ارتباط بين تخطيط المدينة وحاجات الإنسان وألوان نشاطه فيما عدا الأعمال التجارية ، فإنه يتسنى تبسيط شكل المدينة ؛ إذ أن النموذج المثالى لتخطيط المدينة فى نظر رجل الأعمال هو ذلك الذى يمكن

تحويله بأقصى ما يستطاع من السرعة إلى وحدات نقدية قياسية لأغراض البيع والشراء . وعندها لا تظل الوحدة الأساسية هى منطقة الجوار أو الحى ، بل قطعة الأرض المخصصة للبناء التى يمكن تقدير قيمتها على أساس مساحتها المطلة على الشارع ، وهذا يرجح كفة القطعة المستطيلة الشكل ذات الواجهة الضيقة والامتداد الكبير إلى الداخل ، مما لا يهيئ للمبانى إلا أقل قدر من الضوء والهواء ، وبخاصة للمساكن التى تطابق ذلك الوضع . ولقد تبين أن مثل هذه الوحدات كان يفيد منها على السواء ، مساح الأرض ، والمضارب فى بيع الأرض ، والقائم بالبناء للاستغلال التجارى ، والمحامى الذى كان يحرر عقد البيع . وكانت قطع الأرض بدورها ترجح كفة إقامة كتل المبانى على شكل مستطيل ، وهو ما أصبح بدوره الوحدة القياسية لامتداد المدينة .

وما من أحد تتبع فصول هذا التاريخ سوف يرتكب الخطأ الشائع بأن المصدر الأصلى لمثل هذا النوع من التخطيط هو الولايات المتحدة ، فإن الحقيقة الوحيدة التى تجعله أكثر وضوحاً فى أمريكا منه فى العالم القديم هو عدم وجود ما هو أسبق منه من أنواع تخطيط المدن إلا فى بعض المناطق مثل مراكز الاستقرار الأصلية فى بوسطون ونيويورك . ومنذ القرن السابع عشر ، كان التوسع يتم على وتيرة واحدة فى المدن الغربية ، كما حدث فى ستوتجارت وبرلين وفى لندن وأدنبره ، وذلك فيما عدا الحالات التى كانت فيها مجارى المياه القديمة أو الطرق أو حدود الحقول قد وضعت خطوطاً لم يكن ليتسنى الإغضاء عنها دون تروٍّ .

وإن جمال هذا النموذج الميكانيكى الجديد كان خليقاً أن يكون واضحاً من وجهة النظر التجارية . ولا يجد المهندس فى هذا التخطيط شيئاً من تلك المشكلات الخاصة التى تصادفه فى القطع غير المنتظمة الشكل وفى خطوط التحديد المنحنية ، فإن صبياً من صبية المكاتب كان بوسعه أن يقدر عدد الأقدام المربعة التى يقتضيها فتح أحد الشوارع أو عملية بيع قطعة من

الأرض ، وحتى أحد كتبة المحامين كان يتسنى له تحرير مواصفات عقد البيع اللازم ، وذلك بمجرد قيامه بملء الوثيقة القياسية بالأبعاد الصحيحة . وأخيراً فإن مهندس البلدية ، بفضل الاستعانة بزاوية تخطيط قائم (T-square) ومثلث ، ودون أى تدريب يؤهله لأن يكون مهندساً معمارياً أو باحثا اجتماعياً ، كان يتسنى له أن يضع مشروع تخطيط لحاضرة من الحواضر ، بما فيها من رقع أرض قياسية ، ووحدات قياسية ، وأبعاد قياسية لاتساع شوارعها ، وبالجملة لكل أجزائها التى وحدت مواصفاتها وكان يمكن مضاهاة بعضها ببعض ، وإحلال أحدها مكان الآخر .

ولم تكن مثل هذه المشروعات مواتية لشىء سوى سرعة تقسيم الأرض ، وسرعة تحويل المزارع إلى أرض للمبانى ، وسرعة البيع . وقد كان من شأن انعدام التلاؤم على وجه أكثر تحديداً بين مثل هذا التخطيط وصفحة الأرض أو الأغراض البشرية أنه زاد من فائدته بوجه عام لأغراض المبادلة بفضل ما انطوى عليه من انعدام التحديد وانعدام الهدف . فالأرض الحضرية أيضاً أصبحت مجرد سلعة مثل العمال ، وكانت قيمتها فى السوق هى التى تعبر عن قيمتها الوحيدة . ولما كان تخطيط المدينة يوضع على أساس من التصور بأن المدينة ليست إلا عبارة عن كتلة مادية من المبانى التى يمكن الانتفاع بتأجيرها ؛ فقد كان من الميسور أن تنتشر فى أى اتجاه دون أن يحد من ذلك سوى عقبات طبيعية ضخمة والافتقار إلى وسائل سريعة للنقل العام . وكان من الممكن أن يصبح كل شارع شارعاً للمرور ، وكل قسم قسما تجارياً .

وفى نظر رجال الأعمال ، كانت إحدى المزايا الخاصة التى يتسم بها هذا النوع من التخطيط غير العضوى ، هى السماح باطراد التوسع الشديد فى استغلال الأرض ، وما يقابل ذلك من ارتفاع فى معدل الإيجار وفى قيمة أرض المبانى . وكان هذا ضرباً جديداً من ضروب النظام الحضرى تمتعت

فيه الأعمال التجارية بالأفضلية على كل أنواع النشاط الأخرى . ولكن حتى من أضيق وجهات النظر النفعية ؛ كانت هذه التخطيطات الشبكية الجديدة تستوقف النظر من حيث عدم الوفاء بالحاجة وتبديد الأرض : وبسبب ما كان يحدث عادة من عدم التفرقة على وجه كاف ، قبل كل شيء ، بين الطرق الرئيسية لحركة المرور والشوارع السكنية ، كانت الأولى لا تنشأ بالاتساع الكافى ، على حين أن الثانية كانت عادة أوسع مما ينبغى لمجرد تأدية الأغراض الخاصة بمنطقة الجوار . وكانت هذه المغالاة تلقى عبء تكاليف الرصف الزائد على الحاجة ، والإفراط فى طول امتداد وسائل المنافع العامة والأنابيب الرئيسية للمياه ، على كاهل أهل الشوارع السكنية الذين كان يتعـذر عليهم تحملها :

وإن ما تتسم به الشوارع الإنجليزية (التى أنشئت بمقتضى القوانين المحلية بعد سنة ١٨٧٠) ، من ضعة أنيقة لهو حالة استثنائية ، ولكن حتى فى هذه الشوارع الحبيسة — وهو ما أوضحه ريموند أنوين (Raymond Unwin) من أن « الإفراط فى الازدحام لا يعود بشيء من الربح » — كان يلقى بالمال لشراء مساحات زائدة على الحاجة فى الشوارع وللقيام بعمليات رصف بالغة التكاليف ، وهو ما كان يتسنى إنفاقه فى سبيل أغراض أجدى نفعاً بتهيئة عين القدر من الأماكن العامة الفضاء لإقامة حدائق عامة وساحات للألعاب .

وواضع التخطيط الشبكى ، بعد مراعاته للطبوغرافية ، فتح المجال لصفقات دسمة من الأعمال البلدية « النزيهة » لتسوية انحدار الشوارع وردمها ورصفها . وفى المواقع الكائنة على تلال شديدة الانحدار ، مثل موقع سان فرانسيسكو ، ألقى التخطيط المستطيل ، بما صحبه من إهمال لمراعاة الخطوط الكنتورية ، عبئا مستديما على كاهل السكان من حيث الوقت والجهد ، وأنزل بهم خسائر اقتصادية يومية ، تقدر بأطنان الفحم وجالونات البنزين التى تضيع هباء ، دون أن نذكر شيئاً عن إهدار

الإمكانيات الجمالية الكبرى لموقع على التلال يستخدم الذكاء فى تنسيقه.

وعلى النقيض من ذلك ، فإن الشوارع المتعرجة فى « سيينا » ، التى ترجع إلى العصور الوسطى ، قد روعيت فيها الخطوط الكنتورية ، وهى تتقاطع معها على فترات لتكشف عن منظر ما ، وتهبط فى انحدار شديد على هيئة طبقات من الدرج لينتفع بها المشاة فى اختصار الطريق . وهذا يبين على وجه يدعو إلى الإعجاب ناحية التفوق من الوجهة الهندسية والجمالية فى تخطيط عضوى يتم تنفيذه وقد وضعت نصب العينين أغراض أخرى عدا توفير أقصى عدد من قطع الأرض التى يمكن بيعها ، واستخدام أقل قدر من قوة الخيال . ومنذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٨٦٥ ، أوضح فردريك لو أولمستيد (Frederick Law Olmstea) أن هذه المزايا تتوافر فى سان فرانسيسكو — إلا أنه ضرب بنصيحته عرض الحائط .

وفى هذا التخطيط العقيم المتكلف ، لم يعن سواء باتجاه الرياح السائدة ، أم بتحديد المناطق الصناعية ، أم بملاءمة الطبقات الواقعة تحت سطح الأرض من الناحية الصحية ، أم بأى عامل آخر من العوامل الحيوية التى تحدد مدى الانتفاع الصحيح بموقع حضرى . وأما من ناحية توجيه المبانى بحيث تتعرض إلى أقصى حد لضوء الشمس فى الشتاء — وهى تلك الضرورة القديمة التى عرفها كل من الإغريق والصينيين — فإنها أغفلت إغفالا تاما إلى أن أعاد تقرير هذا المبدأ عدد من الباحثين ، كل منهم على حدة ، وبخاصة مهندس التخطيط الفرنسى أوجيستان رى (Augustin Rey) ، فى مطلع القرن العشرين . ولا بد من الإشارة إلى وجه آخر من وجوه القصور فى هذا التخطيط ، وهو عدم وجود أى تفرقة فيه من حيث الوظيفة بين الأحياء السكنية والصناعية والتجارية والمدنية — إذ أنه لو وضعت احتياجاتها موضع الاعتبار ، لتطلب كل

حىّ منها وحدات مختلفة الطول والعرض مع ما يناسبها من الشوارع العادية والعريضة ، لكى تتلاءم مع اختلاف أعباء حركة النقل فى كل منها ، ومع اختلاف توزيع مبانيها طبقا للوظائف التى يؤديها كل منها .

وكل هذا يعنى أنه فى التخطيط الشبكى ، على نحو ما طبق فى المدينة التجارية ، ما من قسم أو حى وضع تخطيطه على أساس ملائم لمهمته الخاصة ، وبدلا من ذلك فإن المهمة الوحيدة التى أخذت فى الاعتبار كانت الزيادة المطردة فى الانتفاع بالتخطيط من أجل مقابلة حاجات حركة العمل الآخذة فى التوسع ، ورفع قيمة الأرض : والواقع أنه فى التخطيط الحضرى لا يعتبر مثل هذا النظام السطحى العقيم نظاما على الإطلاق ، وأن أى مشروع لتخطيط مدينة لا يكون إلا ذريعة مسطورة على الورق إلى أن ينشأ عنها ، كأدنى مبرر لها ، شغل أقصى مساحة من الأرض ، وتوافر أقصى نسبة من كثافة السكان ، تتلاءم مع الوظائف المراد أداؤها ومستويات المعيشة المنشودة ، وإقامة مبان تبلغ أقصى حد من الارتفاع والحجم يتناسب مع الحاجة إلى الأماكن الفضاء والحركة العامة ، وكل هذا فى نطاق إطار من التجديدات والاستبدالات المتعاقبة فى فترات موقوتة .

ولا بد من التنويه بنتيجة أخرى لنظام التخطيط الشبكى ، وذلك أنه بعد تجزئة الأرض إلى قطع منفصلة حددت مساحة كل منها أصلا وفقا لحجم المسكن التقليدى لأسرة واحدة . فإن تجميع مثل هذه القطع فى رقعات مناسبة لإقامة مبان أكبر حجما ، كان يهيئ مجالا للمضاربة الماكرة والسبق الذى لا يتحرج من شىء ، وذلك على حين أن تجميع مساحات أكبر حجماً تتألف منها وحدة كاملة للمبانى أو منطقة جوار بأكملها فى داخل نطاق النواحى المأهولة فى مدينة ما ، ظل أمرا يتجاوز أقصى حدود الموارد الخاصة إلا إذا كانت إحدى المنظمات القائمة منذ

أمد طويل تملك الموقع لقطعة واحدة ، كما هو الشأن فى حالة مركز روكفلر (Rockefeller Center) ، وحتى عند ما كانت تنشأ حاجة إلى قطعة أرض لأغراض عامة ، فإن شراء حقوق الملاك العديدين ، كلا على حدة ، كان يصبح من أكبر العقبات أمام الإدارة التى تصرف الشئون العامة بنزاهة ، وهى عملية كان من شأنها أن تؤدى فى مدن كثيرة إلى ضروب من التأخير ، فضلا عن ألوان متنوعة من الرشوة وابتزاز الأموال :

وإن قانون الضم (Lex Adickes) ، الذى أباح تجميع القطع وإعادة توزيعها على أفراد الملاك وفقا لتخطيط أفضل ، وبنسبة ما يملكه كل منهم ، لم يعمل به حتى فى ألمانيا إلا فى سنة ١٩٠٢ . وقد اقتضى الأمر نسف وسط روتردام بقنابل النازيين فى سنة ١٩٤٠ ليُبعث فى المدينة قدر كاف من الشعور بالواجب نحو الصالح العام لتطبيق هذا النظام على نطاق بلغ فى اتساعه حدا سمح بتنفيذ ذلك المشروع الجرىء — مشروع إعادة تخطيط المدينة — الذى يأخذ مجراه هناك فعلا منذ سنة ١٩٤٥ .

وطبقاً للمبادئ التجارية البحت ، استجاب التخطيط الشبكى إلى ما لم يستجب له أى تخطيط آخر من مقتضيات النظام الرأسمالى مثل تغير القيم ، وسرعة التوسع ، وتضاعف السكان . ولكن المدينة التى كانت تخطط على أساس من هذه المبادئ كانت تعجز عن تحقيق الأغراض الإنسانية الأخرى ، وكان مقضيا بالفشل على كل محاولة تبذل لتحسين حالتها بدون تغيير هذه المبادئ . فالتخطيط ، بحكم طبيعته ، عملية شاملة تنطوى على التفاعل المتبادل بين الكثير من الاحتياجات والأغراض والوظائف ، على حين أن مشروعا للتخطيط على شاكلة ذلك الذى كان يقوم به أحد أصحاب المشروعات بمفرده كان عبارة عن محاولة مفككة العناصر من أجل خدمة أغراضه الخاصة المحدودة . وإلى جانب إطالة امتداد الشوارع ووحدات المبانى ، كانت أغراضه لاتحتاج إلا إلى ضرب واحد من

جهود البلدية ، وهو إنشاء خطوط النقل . وفى هذا النطاق ، بلغ التخطيط الشبكى ذروته المثالية فى المشروع الذى وضعه السنيور سوريا اى ماتا (Soria y Mata) « للمدينة الممتدة طوليا » (Linear City) . ولما كان هو نفسه من مهندسى النقل ، فقد اقترح فى جرأة أن يجعل المدينة الجديدة تؤدى مهمة نظام « فقارى » للنقل السريع ، وتؤلف إطاراً حضريا متصلا فى موازاة خطوط النقل التى تربط بين المراكز التاريخية الأقدم عهدا ، وهكذا كانت وسائل النقل المجهزة بمحركات هى المتحكمة فى كل شىء .

وقد كان امتداد نطاق التخطيط الشبكى القائم على أساس المضاربة ، واتساع نظام وسائل النقل العامة ، وجهى النشاط الرئسيين اللذين استمدت منهما الأوضاع الرأسمالية سيطرتها فى المدن الآخذة فى النمو فى القرن التاسع عشر . فعربات السفر على مراحل قد أعقبتها الطرق الحديدية ، والقوارب البخارية ، والقناطر ، والوسائل الكهربية للتنقل على سطح الأرض ، وفى أنفاق فى باطن الأرض ، وعلى جسور مقامة فوق الأرض ، ولو أنها لم تظهر فى جميع الحالات بنفس الترتيب الزمنى ، وكل اتساع جديد فى نطاق المدينة ، وكل ازدياد جديد فى عدد السكان ، كان يتسنى تسويغه بوصفه وسيلة للتأمين من الإفراط فى توظيف المال هذه المرافق ومزيدا من الضمان لزيادة قيمة الأرض بوجه عام ، ليس فى داخل حدود المدينة فحسب ، بل فى المناطق الواقعة خارجها التى لم تدمج فيها أو تضم إليها . فالاقتصاد المطرد التوسع كان يتطلب توسعاً مطرداً فى عدد السكان ، كما كان التوسع المطرد فى عدد السكان يتطلب مدينة مطردة التوسع ، ولم توجد لهذا التوسع حدود سوى السماء والأفق . وفى عرف المبادئ التجارية البحت ، كانت الزيادة العددية مرادفة للتقدم ، فكان إحصاء عدد السكان كافيا لتقرير مكانة المدينة

من حيث الحضارة ، وسنشاهد عاجلا النتائج النهائية لهذه العملية فى تكوين المدينة الكبيرة (ميجالوبوليس) .

وعند تقدير مدى الحاجة إلى أنفاق جديدة لوسائل النقل الكهربية فى نيويورك مثلا منذ نصف قرن تقريباً ، أورد مهندس لجنة الخدمات العامة بيانا مثاليا لهذه الأهداف حيث قال : « يجب بالضرورة أن تمتد جميع الخطوط نحو الغاية المنشودة ، وهى مانهاتان ، فكل خط من خطوط النقل يجلب الناس إلى مانهاتان يؤدى إلى زيادة قيمة أرض المبانى فيها . وقيمة الأملاك فى جزيرة مانهاتان ، نظرا إلى موقعها الجغرافى والتجارى ، لابد من أن تزداد كلما ازداد عدد السكان فى المناطق المجاورة » . ويبدو أنه لم يدر فى خلد هذا الموظف الساذج أن هدف أى نظام صالح للنقل قد يكون التوزيع على أساس توفير مزيد من التساوى فى الفرص الصناعية والتجارية ، وفى تسهيلات الإسكان ، بل حتى فى قيمة الأرض ، بحيث يتسنى أن يكون للعملية كلها هدف آخر سوى إثراء من فى حوزتهم الأرض فى مانهاتان على حساب الباقين من أفراد المجتمع فى الحاضرة .

ولقد أثبت ذلك النظام الشبكى العديم الشخصية أنه نظام عقيم من حيث الإسهام فى أداء الخدمات الاجتماعية المستديمة فى المدينة ، ففى الولايات المتحدة ، زودت أحيانا بعض المدن الجديدة التى أنشئت فى القرن التاسع عشر بمراكز للخدمات المدنية (Civic Centers) ، كما حدث فى مشروعات التخطيط التى وضعت لمدن سنسناتى وسانت لويس وشيكاجو ، بيد أنه عندما ارتفعت حمى المضاربة بيعت هذه المواقع التى كانت تملكها البلدية لدفع نفقات التوسع فى مد الشوارع ونفقات الرصف ، وحتى مدينة سافانا التى كانت تنمو على مهل ، فقدت تدريجيا المزية التى كان يوفرها لها نظامها القديم بما كان فيه من ميادين ، وحينما كانت تنشأ حاجة إلى

مواقع لإقامة مبان عامة أو حدائق ، كان يتبين أن ملكية القطع الملائمة من الأرض قد سبق وقوعها فى يد الأفراد ، وأنها فى بعض الأحيان قد سبق البناء عليها ، وأنها دائما أبدا مرتفعة الثمن ، وتكاد تكون روتشستر الحالة الوحيدة الشاذة التى استطعت أن أعثر عليها ، حيث يوجد عدد من الميادين كان المضاربون قد أنشأوها أصلا كوسيلة للإعلان فى سنة ١٨٢٠ وهى ما زالت قائمة كجزء من تخطيط المدينة — ولعل الفضل فى ذلك يرجع إلى نمو هذه المدينة الريفية نموا بطيئا نسبيا بالقياس إلى المدن الواقعة فى نهاية خطوط المواصلات مثل بفلو ونيويورك .

ولم يكن العقل الحضرى الجديد قد بدت له فكرة أنه لا يتيسر لمدينة ما أن تتحكم فى نموها بدون التحكم فى تعمير أرضها ، وأنه لا يتسنى حتى تدبير المساحة اللازمة لمبانيها العامة فى المواقع المناسبة ما لم يتسن لها على الأقل أن تحوز الأرض وتضع يدها عليها قبل أن تنشأ فعلاً الحاجة إليها بزمن طويل ، وذلك أن فكرة تحكم المجتمع كانت فى ذاتها مستبعدة منذ البداية ، فحيثما كان الأمر يتعلق بالأرباح ، كان الصالح الخاص يسمو فى الاعتبار على الصالح العام طبقا للنظرية الرأسمالية الكلاسيكية . والحق أن أصحاب المشروعات الرأسمالية لم يتنكروا إطلاقا لسلطات الدولة أو البلدية كافة ، فالرأسمالية كانت شرهة فى طلب الإعانات والمساعدات المالية ، بل المنح الصريحة ، مثل تلك التى أخذت بيد خطوط السكك الحديدية فى غرب الولايات المتحدة ، والتى تقوم الآن — على وجه مماثل من عدم التبصر — بإعانة شركات النقل الجوى والبرى .

وهكذا نرى أنه منذ القرن التاسع عشر كانت المدينة لا تعتبر منظمة عامة ، بل مغامرة تجارية خاصة يجب أن تهيأ على أى شكل يمكن أن

يزيد من حصيلة الدخل ومن ارتفاع قيمة الأرض ، وأن التحليل الذى وضعه هنرى چورچ لهذه الحالة ، وتصحيحها الجرئ على النحو الذى قام به ايبنزر هوارد (Ebenezer Howard) فى مشروعه عن مدينة الحدائق الجديدة بحيث تمتلك بلديتها كل أرضها ، ليؤذن بتحول فى أفق تفكير نظامى البلديات الاقتصادى والإدارى .

٥٠ — نمو التوسع الحضرى

إن قانون النمو الحضرى ، طبقا لما تمليه مبادئ النظام الاقتصادى الرأسمالى ، كان يعنى القضاء بلا هوادة على جميع المعالم الطبيعية التى من شأنها أن ترفع روح الإنسان المعنوية وتدخل عليها البهجة وسط أعبائها اليومية . فالأنهار كان مآلها أن تحول إلى مجار للتصريف — انظر وصف وليم موريس لتدنيس مجرى الواندل (Wandle) — والمواقع المطلة على صفحات الماء قد يجعل الوصول إليها متعذرا على راغبى النزهة والتجوال فيها ، كما أن الأشجار العتيقة قد تجتث من جذورها ، والمبانى التى لها مكانتها وإجلالها قد تهدم خدمة لسرعة المرور ، ولكن ما دامت الطبقات الراقية تستطيع أن تمضى فى مركباتها للطواف فى سنترال بارك[1] ، أو أن تستمتع بركوب الخيل صباحا والعدو بها خببا فى روتن رو[2] (Rotten Row) ، فإن افتقار المدينة فى جملتها إلى الأماكن الفضاء للتنزه ، وإلى الجمال المنعش للأرواح ، لم يكن ليلفت الأنظار .

ولم يبد المجتمع أى اعتراف جدى بالحاجة إلى ساحات للعب الأطفال إلا بعد سنة ١٨٧٠ ، وعندئذ كان لايتسنى الحصول على المساحات اللازمة إلا ببذل نفقات طائلة ، ومن ثم نشأت مهمة غريبة للشارع

---

(١) حديقة عامة كبيرة فى وسط جزيرة مانهاتان بنيويورك .

(٢) طريق غير معبد لركوب الخيل فى وسط حديقة هايدبارك فى لندن .

الذى جاوز استغلاله الحد فى مشروع التخطيط التجارى ، فقد أرغم على أن يؤدى مهمة الحديقة الخلفية والميدان المأمون فى مدينة العصور الوسطى ، أو الميدان الطلق والحديقة العامة فى النظام الباروكى . ومن ثم فإن هذا المكان الموحش المرصوف الذى أعد فى بادئ الأمر لحركة مرور العربات غدا كذلك حديقة عامة ومتنزها وساحة للألعاب ، فكان حديقة عامة كئيبة ، ومتنزها مغبرا ، وساحة خطرة للألعاب .

وحتى فى الحالات التى لم يبلغ فيها ازدحام الأرض حداً مفرطاً — كما هو الشأن مثلا فى كثير من المدن الصغرى فى الولايات الوسطى بأمريكا — كان الشارع العريض يعتبر رمزاً للتقدم ، ولذلك فإنه كان ينشأ على قدر من الاتساع لم يكن يتناسب بأى وجه ، من حيث مهمته ، مع استعماله وقتئذ ، ولا مع احتمالات استعماله مستقبلا ، على الرغم من أثر النفقات الباهظة لرصفه وصيانته فى ازدياد الضرائب على الأملاك المطلة عليه . وتخطيط الشوارع على هذا النحو كانت قيمته إلى حد كبير قيمة زخرفية ، فقد كان أشبه ما يكون بصورة ممسوخة متأخرة الأوان للتوسع الباروكى فى المساحات كمظهر للإعراب عن إرادة الأمير ، وكان رمزاً لحركة المرور المحتملة ، والفرص التجارية المحتملة ، والتحول المحتمل من الاستعمال لأغراض سكنية إلى أغراض أوسع مدى فى مجال الأعمال . وبذلك فإن الشارع ذاته كان يهيىء مسوغاً إضافياً للأسعار الخيالية التى كانت أحياناً تحدد مقدماً ، بدافع من التفاؤل ، للأملاك الريفية الواقعة فى طريق المدينة الآخذة فى الزحف نحوها . والتقاليد الحضرية الباقية إلى الآن فى نيو إنجلند لم تبد فى مكان ما أشد وضوحاً مما بدت عليه فى أن مُدناً مثل بتسفيلد (Pittsfield) ونيوبدفورد (New Bedford) على الرغم من امتداد التصنيع إليها ظلت مستمسكة بنظام الشوارع الضيقة التى يتراوح عرضها بين ثلاثين وستين قدماً ، وبذلك خففت من عبء الضرائب على المنازل والحدائق المجاورة لها . ولذلك فإن المدينة ، حتى عندما خططت وفقاً

للنظام الشبكى ، ظلت محتفظة ببعض المزايا التى قدر لجيل جديد من مهندسى التخطيط أن يكتشفوها عند تخطيط القرى الصناعية ذات الحدائق فى نهاية القرن التاسع عشر ؟

وفى خلال القرن التاسع عشر ، أقيمت فى جميع أنحاء العالم الغربى مدن جديدة واتسع نطاق مدن قديمة طبقاً للقواعد التى فرغت الآن من وصفها . وكانت أول أمارة من أمارات الازدهار مد هياكل شوارع لا تتألف إلا من أحجار لأطراف الطوارات ومن أنابيب تغذية لشبكة أنابيب المياه . وكان تضاعف هذه الشوارع يوسع نطاق المدينة قبل الأوان ويزيد من عبء النفقات الباهظة التى كان يتكلفها الرصف وكذلك المجارى والأنابيب الرئيسية للمياه ، وهو ما كان يستتبع حدوث التوسع بأفدح التكاليف وذلك بتشييد منازل منفردة متناثرة ، تقام حيثما اتفق دون نظام من حيث الموقع أو الزمن ، بدلا من وحدات سكنية متضامة تبنى فى خلال فترة محدودة . فمن حيث أى غرض آخر سوى المضاربة ، كان هذا النظام بالغ الإمعان فى التبديد ، كما أن عبء تكاليف مثل هذا الاستغلال السابق للأوان كان يقع على كاهل باقى المدينة .

ولقد أدركت منذ عهد مبكر حقيقة هذه المعايير المالية البراقة ، ففى تقرير إلى هيئة المشرفين على الغابات فى إنجلترا ، لاحظ چون ناش أن « الأسباب المصطنعة لاتساع المدينة هى مضاربات القائمين بحركة الإنشاء ، الذين يشجعهم ويشد من أزرهم التجار المشتغلون بتجارة مواد البناء ، والمحامون ذوو العملاء من أرباب المال ، فهم يسهلون وفى الواقع يسيرون النظام بأكمله ، وذلك بالتصرف فى إيجار الأرض المرتفع ، وبوسائل أخرى عديدة يتسنى بها لعملائهم استخدام أموالهم استخداماً مثمراً ، وللمحامين أن يهيئوا لأنفسهم عملا جزيل الربح » .

وهذا الاعتقاد فى النمو الدائم الذى لا يحد ، كان اعتقاداً عاماً شاملا ،

ففى أمريكا كان أصحاب المشروعات العمرانية يقامرون على مثل هذا النمو ثم يعمدون إلى دعم آمالهم بتدبير وسائل اجتذاب المتاجر والمصانع والسكان من المدن المنافسة ، وذلك عن طريق منح هبات من الأرض أحياناً ، بل إقامة مبان للمصانع ، دون المطالبة إطلاقاً بأن يتكفل أرباب الصناعة الذين يستقرون فى المدينة بأن يكون مستوى الأجور عالياً إلى حد يكفل الحيلولة دون أن يصبح العمال الجدد عبئاً على كاهل المدينة . والواقع أن نيويورك لم تكتف ببناء قناة إيرى Erie لتضمن وسـيلة ممتازة للاتصال بالمناطق الداخلية . بل إنها فيما بعد ، عن طريق فرض أجور لنقل البضائع بحيث تكسبها ميزة على المدن الأخرى ، استطاعت الاحتفاظ باحتكارها لحركة النقل على الخطوط البحرية فى المحيط ، والخطوط البرية فى داخل القارة الأمريكية .

وكانت تسيطر على الملاك الرغبة فى الانتفاع بكل قدم مربعة يمكن تأجيرها ، حتى عندما كان الغرض من المبنى استعماله الخاص وليس الاستغلال المالى المحض . وفى مدن كثيرة ، نجم عن ذلك فى خلال القرن التاسع عشر ، تحويل الحديقة الخلفية إلى مجرد فناء خلفى لتجفيف الملابس ، وأدى ذلك بدوره إلى تخفيض هذه المساحة إلى حد أن كثيراً من المساكن الباهظة التكاليف المجاورة للشارع الخامس (Fifth Avenue) فى نيويورك ، بنيت ظهراً لظهر تقريباً ، على غرار مبانى أى حى من أوضع الأحياء الفقيرة ، وبذلك أعوزها الرونق والتهوية فى آن واحد . ومرة أخرى نجد أن المشروعات الرأسمالية ، وقد سيطر عليها انهماكها الشديد فى السعى وراء الربح ، أساءت إلى نفسها ، فإنه ليس من المحتم أن تخطيطاً يقوم على أساس الازدحام المفرط يعود بأقصى الأرباح فوراً ، كما أنه ليس من المحتمل أن يحتفظ بما فيه من صفات طيبة وجذابة إلى حد يكفل ضمان الاستغلال المجزى على مدى حقبة طويلة من السنين .

والتصميمات الفسيحة – مثل تلك التى أنشىء وفقاً لها ميدان فندوم (Place Vendome) أو ميدان راسل (Russel Square) ، وكلاهما لا يزال مزدهراً بعد استخدامه عدة قرون – قد تبين أنها ذات مزايا اقتصادية أفضل بكثير من التصميمات التى لم ينشد من ورائها سوى شغل أقصى قدر من المساحة التى يمكن تأجيرها ، فإن الربح الوفير فى الحالة الأخيرة يتوقف على الدخل العاجل ، أما فى الشئون الاقتصادية للبلديات – على نقيض شئون الأفراد – فليست النفقات الأولى للمشروع هى التى تكون موضع الاعتبار بل النفقات الأخيرة ، تبعاً لتوزيعها على مدى حياة المشروع بأكملها .

ولم يكن المصدر الرئيسى لهذه المساوىء فى التخطيط والتصميم هو الحصول على الربح فى ذاته من وراء المضاربة بقدر ما كان الانشغال بأمر هذا الربح إلى حد إغفال أى اعتبار إنسانى آخر . وأعمال البناء الواسعة النطاق التى تولى « چون وود » أمرها فى مدينة « باث» أنشئت استجابة لحوافز تجارية ، ولكن ذلك حدث لحسن الحظ فى وقت تيسر فيه لعوامل أخرى – هى مراعاة ما يليق بمركز الفرد ومكانته – أن تخفف من حدة الهدف التجارى . ولهذا فإن چون وود ، على غرار روبرت آدم فى أدنبره ، استطاع أن يعمل وفقاً للقياس الباروكى السخى ، وأن يتصور واجهة الشارع بأكمله كوحدة واحدة ، وأن يعتبر الأماكن الفضاء جزءاً لا يتجزأ من التصميم كله . وعندما صادفت هذه المثل الأرستقراطية الإغفال لدى الطبقة الناشئة من الماديين ذوى الأفق الضيق الذين تولوا بناء مدينة القرن التاسع عشر ، لم يحتفظ إلا بما كان فى التصميم الباروكى من تكرار وتجانس ، وذلك فى صفوف المنازل المقامة على نمط موحد فى نيويورك ولندن ، أو فى عمائر السكنى الموحدة النمط التى أقيمت فى باريس فى عهد نابليون الثالث أو فى برلين فى عهد بسمارك .

٦ — الانحدار فى حركة النقل

كانت إحدى السمات الأخرى فى التخطيط التجارى هى الشارع العريض على هيئة ممر ؛ إذ كان عبارة عن ممر عام طويل وضع تصميمه أساساً لتيسير حركة مرور العربات : وفى التخطيط الجديد ، قلما كانت توجد أى تفرقة بين الشارع العادى والشارع العريض ، أو بين حركة المرور فى منطقة الجوار وحركة المرور بين أنحاء المدينة ، وحتى أولئك الذين كان يتسنى لهم أن يقيموا أروع المساكن ، أقاموها فى الشوارع العريضة ، مثل فيفث أفينيو فى نيويورك أو برود ستريت فى فيلادلفيا ، مفضلين ذلك على إقامتها فى الشوارع الجانبية حيث تتوافر أماكن هادئة فى الداخل ، ويبلغ من صعوبة التخلص من هذا الطراز عند ما تكون الغلبة للمبادئ التجارية أنه حتى فى يومنا هذا ، نجد أن مركزا تجاريا جديدا على طريق رئيسى كبير فى لونج ايلند يفاخر بحقيقة مريرة ، وهى أن طوله يبلغ ميلا .

وقد استمرت طوال القرن التاسع عشر بأكمله التضحية بمنطقة الجوار من أجل الشارع العريض لحركة المرور : وحتى فى ضاحية سكنية مثل حديقة هامبستد فى لندن — وهى ذات تخطيط جميل يشتمل على مبتكرات كثيرة تدعو إلى الإعجاب — قام مهندسو التخطيط بوضع منطقة المتاجر على امتداد شارع عريض على هيئة ممر ، وذلك بدلا من إنشاء مركز تجارى مجمع ، وقد بلغت حركة المرور المتولدة عن المدينة التجارية حدا هائلا بلغ من شأنه أنه فى نيويورك ، منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن التاسع عشر ، كان ازدحام حركة المرور ازدحاما شديدا قد أصبح أمراً شائعاً ، وازداد البحث عن وسائل عامة للنقل أشد سرعة : وإلى هذا الحين ، كان الشطر الأكبر من السكان فى معظم

المدن يتوجهون إلى أعمالهم سيرا على الأقدام ، وكان هذا لا يعنى حتما أن أعمالهم قد ظلت باقية فى منطقة الجوار التى كانوا يعيشون فيها ، بل إنه ، حتى عند ما لم يكن الأمر كذلك فإن العامل أو حتى صاحب العمل ، كان يقطع على قدميه مسافة ميلين أو ثلاثة أميال ليصل إلى عمله ، على الرغم من أنه فى حالة سوء الطقس كان هذا عقبة كئودا للسائرين على أقدامهم ممن كانت تغذيتهم سيئة وملابسهم غير واقية .

وبابتكار الوسائل الزهيدة الأجر للانتقال بعربات السفر على مراحل (stage coach) والطرق الحديدية ، وأخيرا المركبات الكهربية ، ظهر نقل الأعداد الكبيرة فى الوجود لأول مرة فى التاريخ ، فلم تعد المسافة التى يمكن قطعها على القدمين هى التى تحدد مدى نمو المدينة ، وازدادت السرعة التى تقدمت بها حركة انساع المدينة ؛ إذ أنها لم تعد تتناول شارعا فشارعا أو وحدة سكنية فوحدة سكنية ، بل منطقة بعد أخرى من المناطق التى يخدم كلا منها خط حديدى ، وضاحية فضاحية ، وكانت هذه المناطق تتشعب من المنطقة الرئيسية وتنتشر فى كل اتجاه . ولما كانت هذه الوسائل التكميلية للنقل تسلك طرقاً لم تكن دائماً مطابقة لتخطيط شبكة الشوارع ، فإنها من بعض النواحى كانت تعوض أسوأ وجوه النقص فى نظام حركة المرور فى الشوارع ، وفى عهد رخصت فيه أجور النقل ، كانت تهيئ للعمال قليلى الأجر قسطاً من القدرة على التنقل ، جعلهم على قدم المساواة مع أولئك الذين كان فى وسعهم اقتناء المركبات الخاصة .

ولسوء الحظ أن تدبير وسائل النقل العامة مضى فى سيره وفقا لعين قواعد الربح القائم على المضاربة ، وهى التى كانت تسيطر على باقى المدينة ؛ فكانت المضاربة فى حركة النقل والمضاربة فى الأرض تشدان أزر بعضهما بعضا ، وكثيراً ما كان الشخص نفسه يمارس المضاربة فيهما

معا . وفى ذات الوقت الذى حدث فيه ذلك ، تسنى لأيمرسون النافذ البصيرة أن يتبين منذ عهد مبكر يرجع إلى سنة ١٨٣٦ ، مدى الاحتمالات الكبرى للمعيار الجديد للزمان والمكان ، أى إنه سيكون من شأنه أن يحيل الطرق إلى شوارع والأقاليم إلى مناطق جوار ، ولكن تحقيق هذا الاحتمال على وجه مثالى ، باتخاذ الإقليم وحدة للتطور ، ظل غير ناجز ؛ لأن اتساع مدى حركة النقل استخدم وسيلة لتوسيع نطاق المدن التى كانت قد بلغت من قبل حجماً جاوز حد الفائدة للإنسان ، فإن الوسائل العامة للنقل السريع بدلا من أن تكون سببا فى إنقاص الوقت اللازم للوصول إلى مكان العمل ، كانت سبباً فى الازدياد المستمر فى المسافة والتكاليف دون أى كسب للوقت على الإطلاق .

وإن ما ينطبق على الاتساع الأفقى للمدينة التجارية فى القرن التاسع عشر وما بعده ينطبق كذلك على اتساعها الرأسى عن طريق المصاعد ، وقد كان استخدامها فى مبدأ الأمر مقصورا على المدن الكبرى فى العالم الجديد : بيد أن الأخطاء الأساسية التى ارتكبت أصلا فى إقامة ناطحات السحاب ، أصبحت الآن عامة شاملة ، وذلك لعدة عوامل : أحدها التخفيف من شدة القيود المفرطة فى صرامتها ، وثانيها الضغط التجارى ، وثالثها محاكاة البدع ، ورابعها رغبة المهندس المعمارى فى استغلال أساليب تكنولوچية حديثة . وكل الأخطاء التى ارتكبت أصلا فى المدن الأمريكية يتكرر ارتكابها فى أوروبا وآسيا على ذات النطاق المخيف . وإذا كان النقل السريع قد جعل الأفق حد امتداد المدينة ، فإن الطرق الجديدة فى الإنشاء جعلت « السماء هى الحد » ، كما كان يحلو للمغامرين أن يقولوا ، وبغض النظر عن أى خدمات يمكن أن تؤدى على وجه أفضل بتكديس الطوابق بعضها فوق بعض ، فإن المبنى الشامخ أصبح قاعدة أساسية ترمز إلى « العصرية » .

والجمع بين هذين الأسلوبين للتوسع والتكدس ، أفقيا وعموديا ، هيأ أوسع الفرص لجنى الأرباح ، بل كان فى الواقع القوة الأساسية الدافعة إلى الاستغلال . بيد أن نظام النمو على هذا النمط الآلى البحت يصبح فى النهاية سببا فى أن يحد نفسه بنفسه ، فإن مساوئ بطء حركة النقل فى اختراقها شوارع المدينة بما يعادل نصف سرعة المركبات التى كانت تجرها الخيل منذ خمسين عاما ، هى النتيجة المباشرة للزيادات المفرطة فى الكثافة الحضرية من حيث المساكن والأعمال ، وكذلك للزيادة فى عدد السيارات الخاصة . والافتقار إلى المساحة اللازمة للتنقل فى المدينة ليس من شأنه أن يقل بتخصيص مساحات مطردة الزيادة من المدينة للشوارع العريضة الواسعة ؛ وللطرق السريعة ، والقناطر المرتفعة ، وساحات انتظار السيارات ، وحظائر إيواء السيارات ، فإن الزمن يقترب فى مدن عديدة عندما تتوافر كل أسباب التيسير للطواف فى أرجاء المدينة دون أن يكون هناك أى داع على الاطلاق للذهاب إليها . وحتى فى الوقت الحاضر ، نجد أن الهواء السام الملوث ، والسكنى المكتظة بمعدل ثلثمائة أو أربعمائة ساكن فى الفدان الواحد ، والحياة الاجتماعية المنحطة الزاخرة بألوان العنف والجرائم — نجد أن كل هذا قد أدى إلى هجرة شاملة من المناطق الواقعة فى وسط المدن . وعلى هذا الاعتبار فإن الداء الدفين فى هذا النمط من النمو يحد منه . وما ذلك إلا لأن الداء لابد له فى النهاية من أن يفتك بالكائن الذى يأويه .

وهذا النقد لأساليب وأهداف الرأسمالية على النحو الذى بدت عليه فى التوسع الحضرى ، ليس محاولة للتهوين من شأن مشكلات النمو الضخمة التى واجهت القرن التاسع عشر ، بل إن هذا النقد أبعد من أن يعنى عدم إدراك قيمة وسائل التقدم التقنية الجديدة التى أصبحت الآن تحت تصرف المدينة ، وعلى أهبة الاستعداد لتكملة ما تؤديه الطرق البرية والطرق

المائية التى لم تعد تفى بحاجات الحياة فى المدينة الحديثة وقد أصبحت أساليبها أكثر تنوعا وديناميـة ، فالأمر على النقيض من ذلك تماما ؛ إذ أن مشكلة النمو يجب أن تعالجها جميع الهيئات والمنظمات الجماعية مثلما يعالجها الأفراد ، ومن ذا الذى يمكن أن يساوره الأمل جديا فى الوصول إلى حل لأى مشكلة من مشاكلنا الحضرية بالرجوع إلى قاعدة تكنولوجية أو اجتماعية أقل تحضرا ؟

لقد كان خطأ العقلية التجارية التقدمية أنها أولت ما لا موجب له من الاهتمام إلى أساليب التنقل التى كان يرجى من ورائها أكبر قدر من الدخل المالى . ولقد أدى هذا بواضع التخطيط إلى إغفال شأن السائر على قدميه ، وشأن الحاجة إلى الاحتفاظ بمرونة الحركة للجماهير ، وهو ما لا يمكن أن تكفله إلا حركة انتقال السائر على قدميه . وفى الوقت بعينه فرض ذلك على المخطط ، فيما بعد ، حلا محدودا لمشكلة النقل الخاص عن طريق السيارة ، كما أدى إلى تقديم النقل على كثير من الوظائف الحضرية الأخرى التى تعادله فى ضرورتها لوجود المدينة .

وعلى ذلك فإن اتساع شبكة طرق النقل اتساعا مفرطا ، بدافع الإصرار على زيادة الربح الناجم عن اكتظاظ وسط المدينة ، نشأ عنه فى الواقع ، حتى من الوجهة التقنية ، حل بدائى إلى أقصى حد ، فإن المدينة فيما آلت إليه ، فيما عدا وسطها المكتظ ، افتقرت إلى كثير من من أسباب المتعة الرضية فى الحياة الاجتماعية التى كانت لاتزال متوافرة فى مدن أصغر حجماً وأشد تأخراً فى ظاهرها .

٧ — تنظيم الاكتظاظ

كثيراً ما اتسم التخطيط العام الجديد على الورق بمظهر النظام والاتساع ، ولكن نظام البناء الجديد فى المدينة التجارية قضى على أى

ادعاء لهذه الصفات ، بإيجاد درجات من الاكتظاظ لم يسمع بها إلى ذلك الحين ، وبتعميم أساليب سيئة لم تكن إلا وقتية أو شبه عرضية فى أسوأ الحالات فى أغلب المدن قبل القرن السابع عشر . وبمرور الزمن أحدث هذا التنظيم أثره فى كل جزء من أجزاء المدينة ، ولا سيما فى مساكن الفقراء .

ويحدث الاكتظاظ الحضرى بطبيعة الحال عندما يشرع عدد كبير جداً من الناس فى التنافس للحصول على عدد محدود من المساكن والحجرات ، ولما كانت طبقة من العمال التجاريين والصناعيين قد أخذت تحتشد فى العواصم الكبرى فى أوروبا فى القرن السادس عشر ، فإن هذه الحالة أصبحت مزمنة . ولم يكن ميسوراً أن تتحسن أحوال المدن إلا بعد التحكم فى مصادر العوامل التى كانت تدفع بالناس إلى المدينة .

ولقد كان للتنافس على الأماكن الشاغرة من جانب الفقراء المهاجرين الذين كانت تعوزهم الرعاية ، تأثير على باريس أو أدنبره فى القرن السابع عشر ، يماثل ما كان له من التأثير على مانشستر فى القرن الثامن عشر ، وعلى ليڤربول ونيويورك فى القرن التاسع عشر ؛ إذ ارتفعت قيمة إيجار الأرض ، وساءت حالة المساكن . ولقد كان الهكتار من الأرض فى باريس يساوى ٢٦٠٠ فرنك فى القرن الثالث عشر – طبقاً لما يقوله دافينال – وفى القرن العشرين كان الهكتار فى ذات المنطقة يساوى ١ر٢٩٧ر٠٠٠، فرنك ، وحتى مع مراعاة الفرق فى قيمة العملة نجد أن الارتفاع كان مذهلا . ومن الذى أفاد من وراء هذا الارتفاع ؟ لم يكن السكان هم الذين أفادوا من هذا الارتفاع . ومن الذين احتفظ دخلهم بذات المعدل فى الارتفاع ؟ لم يكن العمال هم الذين ارتفع دخلهم بذات المعدل .

« إن العامل فى العصور الوسطى الذى كان يبلغ دخله ألف فرنك سنوياً ، كان يتسنى له أن يدفع دون مشقة أجر منزل يتراوح بين مائة

ومائتى فرنك فى السنة ، ولقد تحسن حاله أكثر من ذلك حينما انخفضت قيمة الإيجار انخفاضاً جسيما فى القرن الخامس عشر بسبب كثرة المساكن الخالية ، على حين أن أجور العمال ارتفعت إلى ١٢٠٠ فرنك . ولكن فى الوقت الذى كان فيه الصانع الأجير — منذ سنة ١٥٥٠ إلى أواخر القرن الثامن عشر — لا يحصل على أكثر من ٦٧٥ فرنكاً فى السنة ، وكان إيجار أحقر المنازل فى باريس يبلغ ٣٥٠ فرنكاً ، نتبين لماذا لم يكن أمامه مفر عندئذ من أن يتخلى عن الإقامة فى مسكن منفصل » .

ولقد كانت هذه الحالة سائدة — مع الفوارق المناسبة — فى أوروبا بأسرها وفيما تفوق سواها رخاء من الموانئ البحرية فى أمريكا الشمالية . ومن جهة نظر الطبقات العاملة ، كان ذلك العصر عصر استغلال متزايد ، وأما فيما يتعلق بمساكنهم فقد كان عصر ازدياد فى التصدع وفى التضييق . وإن المرء ليلاحظ المستوى الجديد المنخفض حتى فى مؤسسات العصر الخيرية . وعلى الرغم من أنه بالقياس إلى معايير الإسكان الحالية ، تعتبر مجموعة مساكن المسنين فى أوجسبرج ، التى قام يعقوب فوجر ببنائها للفقراء ، مجموعة تسترعى النظر بجمالها من الناحية المعمارية ، فإن الصفوف المتوازية للمنازل لا يتوافر فيها إلا أدنى قدر من المكان الفضاء للحدائق ، وذلك بالقياس إلى ما كان يوجد من الأماكن الفضاء فى مشروع معاصر لمدينة أوجسبرج ، فحتى أعمال الإحسان أصبحت ضنينة فى استخدامها للأرض ، إذ أن الأرض أصبحت من ذهب ، شأنها فى ذلك شأن الوقت .

ولإدراك المصدر الذى نبع منه هذا الاكتظاظ ، بغض النظر عن الرغبة فى اعتصار الربح من ضروريات الفقراء الذين كانوا لا يستطيعون المساومة ولا الامتناع عن الموافقة على غرار الذين كانوا أسعد منهم حظاً من الوجهة الاقتصادية ، يجب أن يدرك المرء أنه بحلول القرن السابع عشر كان قد أصبح من المسلم به أن الفاقة هى النصيب العادى فى الحياة لشطر كبير من السكان .

وبدون حافز الفقر والجوع لم يكن من المتوقع أن يقبلوا العمل لقاء أجور لا تسمح إلا بحياة الكفاف ، فكان البؤس بين أدنى الطبقات أساس الترف بين أعلاها . ولقد قدر الباحثون أن ربع السكان الحضريين فى المدن الكبرى كان يتألف ممن يعملون بعض الوقت ومن المتسولين ، ولقد كان هذا الفائض فى الأيدى العاملة هو الذى هيأ ما كانت الرأسمالية الكلاسيكية تعتبره سوقا ملائمة للعمل ، حيث كان الرأسمالى يستأجر العمال طبقا لما يفرضه من الشروط ، أو يفصل العمال على هواه ، دون إخطار سابق ، ودون أن يشغل باله بما كان يحدث للعامل أو للمدينة من جراء هذه الأحوال المنافية للإنسانية . وفى مذكرة مؤرخة فى سنة ١٨٦٤ أشار رئيس الشرطة فى باريس إلى « البؤس المروع الذى يعانيه الشطر الأكبر من سكان هذه المدينة العظيمة » ، فإن عدداً يتراوح بين أربعين ألفاً وأربعة وستين ألفاً كانت تنحدر بهم الحال إلى التسول فعلا. ولم تكن حالة باريس ضرباً من الاستثناء لا مثيل له فى مدن أخرى ؛ إذ أنه عندما زار الكاتب الأمريكى هرمان ملفيل (Herman Melville) وهو صبى ، مدينة ليفربول المزدهرة ، فى القرن الثامن عشر ، وجد ، على نحو ما يصفه فى قصة « ردبرن » (Redburn) ، امرأة وعلى صدرها طفلان وهم يحتضرون جميعاً فى مدخل طابق أرضى دون مستوى طوار الشارع ، وعلى الرغم مما بذله من المجهود ليوفر المساعدة اللازمة ، فإن أحداً لم يتقدم لنجدة هذه المخلوقات ، ولم تنقل من مكانها إلا حينما دب التعفن إلى جثثها .

بيد أنه فى النهاية نالت الطبقة العاملة ثأرها دون عمد ولا أى تدبير من جانبها ، فإن المعايير التى روعيت فى بادئ الأمر فى مساكن الفقراء ، كانت عند حلول القرن التاسع عشر تراعى باطراد فى بيوت الطبقات المتوسطة والعليا . وقد أقيم فى سنة ١٨٣٥ بشارع تشيرى (Cherry) فى نيويورك أول مبنى لسكنى أسر عديدة من أقل الفئات أجوراً ، وكان هذا المبنى يشغل تسعين فى المائة من رقعة الأرض ، وقد جعل أحوال السكنى المفتقرة إلى

الهواء والشروط الصحية تصبح قاعدة عامة . وفى خلال جيل واحد ، كان هذا النوع الجديد من المساكن يعرض على الطائفة الميسورة الحال بوصفه أكثر مبتكرات البدع (الموضة) أناقة ، أو المسكن الباريسى الذوق . ولاشك أنه فى مدينة مثل نيويورك كان ثمة مجال لإقامة مساكن أصغر حجما — تحت إدارة مشتركة — من أجل الأعزب المقيم بمفرده أو من أجل أسرة صغيرة . والمسكن (الشقة) فى ذاته ، بوجود جميع حجراته فى طابق واحد ، يتوافر فيه نظام مريح لمكان إقامة متواضع ، ولكن المساكن (الشقق) الجديدة لم تنشأ وفقاً للتصميم القديم للمساكن حيث لم يتجاوز الطول اتساع حجرتين ، بل أنشئت على غرار مساكن الفقراء ، وكانت تشغل الجزء الأكبر من رقعة الأرض ، وبدلا من توفير منظر بهيج يتألف من عدد من الحدائق والأماكن الفضاء ، كان لا يتهيأ لأغلب الحجرات إلا أن تطل على مسقط للهواء ، أو مع ازدياد حركة المبانى فى منطقة الجوار ، على الحائط الخلفى لمسكن (شقة) آخر مماثل من حيث سوء التصميم .

وكان تطور المدينة التجارية يتسم بعدم المبالاة على هـذا الوجه بالاحتياجات الأولية من حيث الصحة وجمال المنظر ، ومن ثم جاء هذا التعليق اللاذع على لسان باتريك جيديس عندما أجمل وصف تدهور مستوى حركة البناء والإسكان فى خلال القرن التاسع عشر ، تحت تأثير الانصراف إلى ناحية واحدة ، وهى ناحية الإيجار والربح ، فقال « مساكن فقيرة ، ومساكن شبه فقيرة ، ومساكن فقيرة ممتازة ، هذا هو ما انتهى إليه تطور المدن » . وبمرور الزمن ، كان معدل الدخل ، حتى من مساكن الأغنياء ، يكاد يتساوى فى ربحه من وجهة النظر التجارية مع ما تدره المبانى التى حولت إلى بيوت أو عمائر سكنية بائسة للفقراء .

وفى خلال القرن التاسع عشر كانت المؤسسات الخيرية المصدر الذى جاء منه الدليل النهائى على هذا الانحطاط فى مشروعات الإسكان من جراء تطبيق

المقاييس الرأسمالية ، وهنا نجد أن التجربة التى حدثت فى عهد الملكة فيكتوريا قد أعادت إثبات ما سبق أن أثبتته من قبل تجربة أسرة فوجر[١] . وعندما أقام جماعة من أهل البر أول مبنى نموذجى للإسكان بمدينة نيويورك فى خمسينيات القرن التاسع عشر ، تضمن التصميم ، كأمر طبيعى ، حجرات داخلية لا يصل إليها الضوء إلا عن طريق نافذة تطل على حجرة خارجية . وحتى على أساس ما كان مألوفاً إذ ذاك من تقديم مساعدات طفيفة إلى العمال القليلى الأجر ، دل هذا المبنى النموذجى للإسكان على أنه بلغ من الانحطاط ما جعله يصبح فى وقت سريع الملجأ المفضل لدى اللصوص والعاهرات .

وقد كان من الجائز أن يبدو أن هذه الصورة الممسوخة للإسكان كانت من قبيل ما يقع مصادفة ، لو أن القصة نفسها لم تتكرر على نحو وقور فى المساكن النموذجية التى أنشأها چورچ پيبودى (Peabody) فى لندن على مدى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولو لم تقم بمحاكاتها على نطاق واسع طوائف وهيئات عامة أخرى . وكان يتوافر فى مبانى بيبودى أدنى قدر من الضوء والهواء والقواعد الصحية ، فإن هذه المساكن النموذجية بدلا من أن ترتفع إلى طابقين أو ثلاثة طوابق ، شأنها شأن المسكن المألوف فى أفقر أنحاء لندن ، كان ارتفاعها يصل إلى أربعة أو خمسة طوابق ، فكانت تشتمل على قدر من كثافة السكان يتفق ، ليس مع الحاجات البشرية ، بل مع قيمة الأرض . وكان الفناء الواقع بين المبانى يرصف من الحائط إلى الحائط ، ولم يكن من شأن ذلك أن يحول دون إنشاء حديقة ولو فى أضيق الحدود فحسب ، بل إنه فى سبيل المزيد من الوقاية ، كان محظوراً على الأطفال استخدام هذا الحيز الضئيل للعب فيه .

والمحاولات التى قام بها بيبودى عن حسن نية كانت قدوة تعسة للمزيد

---

(١) كانت أسرة فوجر غنية من أقطاب التجارة فى أوجسبرج وقد بلغ ثراء هذه الأسرة ذروته فى عهد فوجر الثانى (١٤٥٩ – ١٥٢٥) وكان يحتكر التعدين والاتجار فى الفضة والنحاس والزئبق .

من مشروعات الإسكان للفئات ذات الدخل القليل . وحتى فى الحالات التى تزوّد فيها الآن أمثال هذه المشروعات « النموذجية » بمساحات من الأرض الفضاء بادية للعيان ، ولا تشغل المبانى إلا ما يتراوح بين خمسة عشر وعشرين فى المائة من مساحة الأرض ، نجد أن كثافة السكنى فى مبان يتفاوت ارتفاعها بين عشرة طوابق وخمسة عشر طابقاً ما زالت هى كثافة المساكن الفقيرة ، إذ أنها تتراوح بين ٣٠٠ و ٤٥٠ نسمة فى الفدان . وينشأ عن هذا أنه يندر وجود الأرض التى يمكن استخدامها فى منطقة الجوار لإنشاء حدائق وساحات لعب ، وهو ما يكاد يكون معادلا فى خطورته لما كانت عليه الحال فى المساكن القذرة الوضيعة التى حلت مكانها المبانى الجديدة . أما أن هذه المبانى تتحول جميعاً إلى مساكن فقيرة فى وقت قصير جداً ، فإنه يجب ألا يثير دهشة أحد سوى واضعى تصميمها الذين لم ينظروا إلى الأمر إلا من وجهة نظر واحدة ، ولم يستبصروا طبيعة أمر البيت أو منطقة الجوار فضلا عن المدينة .

٨ — ضروب الكسب والإنفاق

لم يقترن بظهور المشروعات الرأسمالية اختفاء الأوضاع القديمة للسوق اختفاء تاما فى العالم الغربى ، بيد أنها منذ ذلك الحين أصبحت مقصورة إلى حد كبير على تجار المواد الغذائية . وحتى فى العالم الجديد ، كثيرا ما كانت مثل هذه الأسواق تجمع معا فى مبنى واحد ، كان فى بعض الأحيان يحاكى فعلا دور الأسواق الأوروبية ، كما حدث فى نيويورك وفيلادلفيا وواشنطون وبالتيمور ، على حين أن « دار فانيول » (Faneuil Hall) فى بوسطن يمكن اعتبارها امتدادا مباشرا لسوق العالم القديم .

وبوجه عام ، فإن أفقر الأحياء هى وحدها التى كان لا يزال يتيسر فيها شراء ثوب أو سروال (بنطلون) أو موقد من عربة مكشوفة ، ولو أنه فى باريس — وهى أشد تشبثا بعادات العصور الوسطى مما قد يبدو

فى الظاهر — اضطرت المخازن التجارية الكبرى إلى أن تنشر سلعها على مناضد فى الشارع ، وذلك على الأقل فى أحياء الطبقات المتوسطة الدنيا . ولكن ميادين الأسواق لم يكن لها مكان فى التخطيط الحضرى الجديد ، فإنه لا طرق المرور الدائرية فى التخطيط الباروكى ، ولا الشارع العريض على هيئة ممر لانهاية له فى التخطيط التجارى ، كان مناسبا لمثل هذا النوع من تجمع السائرين على أقدامهم .

والحانوت المفتوح للهواء الطلق — وكان منفذ حجرة العمل الواقعة فى الخلف — اتجه أيضا نحو الاختفاء ، واتخذ الطراز الجديد للحانوت وضعه خلف نوافذ من الزجاج زيدت مساحتها إلى حد كبير ، بحيث أصبحت تشغل الواجهة بأكملها وتستخدم مركزاً للعرض . ولم يدخر وسعا فى تصميم الداخل تصميما أنيقاً ، وبخاصة فى حوانيت بيع السلع المستحدثة الذوق . ولقد كان تزويد حانوت لبيع الفطائر (الجاتو) بنوافذ من ألواح الزجاج ورفوف زجاجية ومصابيح زجاجية ، وخمس وعشرين ذراعاً من المعدن تثبت فى الحائط لحمل الشموع ، وست صحاف كبيرة من الفضة ، وطلاء السقف ، ونحت الأعمدة ، وتمويه المصابيح بالذهب — كان كل هذا يستلزم مبلغا من المال لايستهان به . وكما يبدى دانيل ديفو (Defoe) فى مؤلفه (التاجر الإنجليزى الكامل) ، أن من العادات الحديثة « اضطرار التجار إلى إنفاق ثلثى ثروتهم فى إعداد حوانيتهم . . . وإنه لمن هين الأمور إنفاق مائتين أو ثلاثمائة بل خمسمائة جنيه » .

وكانت قد ظهرت إلى الوجود سوق لعرض السلع الجاهزة لا السلع المصنوعة بناء على الطلب وفقا للنظام القديم ، ومنذ القرن السابع عشر وما بعده ، أخذت هذه السوق تغزو تدريجا فرعاً بعد آخر من فروع السلع فأحدثت زيادة فى سرعة حركة البيع ؛ واتخذت من المشاهدة بالعين وسيلة لإغراء المشترى . وإذا كان اليوم المخصص للسوق قد ظل

باقيا فى الريف ، فإنه فى المدينة التجارية كان كل يوم يوم سوق ، ولم تصبح عملية البيع والشراء مجرد عملية اتجار فى نقل السلع بين المنتج والمستهلك ، بل أصبحت أحد الشواغل الرئيسية التى تعنى بها كل الطبقات ، « فالتسوق » كان يقوم على أساس الاحتياجات المنزلية ، وأما « تفقد الحوانيت » فكان شاغلا أقل ضرورة وأكثر اتساما باللهو ، فتفقد الحوانيت كان زاخرا بالإثارة ، إذ كان يهيئ فرصة خاصة لربة المنزل لكى تتزين وتخرج لتعرض شخصها ذاته .

ومن الواضح أن « ديفو » كان لايزال منزعجا من هذه العادة عند ما قال : « لقد سمعت أن بعض السيدات — وهن ممن يتمتعن بسمعة طيبة — ركبن مركباتهن وقضين طول ما بعد الظهر بأكمله فى شارع لدجيت أو كوفنت جاردن ، لالغرض سوى تسلية أنفسهن بالذهاب من متجر أقمشة إلى آخر لمشاهدة ما فيها من ألوان الحرير الفاخرة ، والثرثرة والتفكه مع أصحاب المتاجر دون أن تكون لديهن أقل مناسبة ولا أدنى نية لشراء أى شىء » .

وعند ما استقر وضع السوق الدائمة أخذت تختفى باطراد شخصية المنتج والمستهلك ، وقد كان الوسيط هو الذى كون لنفسه شهرة بسبق الميول الفطرية للمشترى ، أو معالجة مطالب ذوقه وميوله ببراعة . ولتفادى التخبط فى الظلام تولت التحكم فى السوق راعية ومشترية جديدة هى « صاحبة السيادة الموضة » . ولا بد لى من أن أعود إلى الاستشهاد بعبارات ديفو الفائقة القيمة ، فهو يقول : « كل خياط يبتكر « موضات » جديدة ، وتاجر الأقمشة يدرس نماذج جديدة يقوم النساجون بنسجها فى أشكال جميلة بهيجة ، ويزود حانوته بكميات متعددة الأنواع ، تستميل كل الأهواء . وصانع المركبات يستنبط أنواعا جديدة من وسائل الانتقال على هيئة الكراسى والعربات ذات الأربع العجلات وذات

العجلتين . . الخ وكل ذلك لإثارة نزوات الطبقة الراقية وغرورها الجامح . . . ويفعل أرباب صناعة الأثاث مثل ذلك بالأثاث إلى أن يستدرجوا السيدات المرحات إلى التطرف فى الحماقة إلى حد يحتم عليهن تجديد أثاث منازلهن سنويا ، فكان كل شىء مضى عليه أكثر من عام يجب أن يسمى قديماً ، وكان السماح بأن يرى شخص له أية مكانة أثاثهن الأنيق أكثر من مرتين يعتبر أمرا مزريا خليقا بالعامة » .

فالمال كانت له السيادة ، ولم تكن تقاليد السوق مقصورة على الحوانيت ، ومرة أخرى نجد أن الفيكونت دافينال — الذى أورد فى كتابه عن تاريخ الممتلكات أسانيد بالغة الأهمية عن السلع والأسعار — قد أجاد الإعراب عن حقيقة الأمر حين قال : « لقد حدث فيما مضى ، أن المال كان يحكم فرنسا ، وذلك فى ظل النظام القديم ، منذ العصور الوسطى إلى عهد الثورة ؛ عندما لم يكن للقوة نفوذ كبير ، وعندما لم يكن للرأى العام من الاعتبار سوى القليل . فكل شىء تقريبا كان يتسنى شراؤه : النفوذ والألقاب ، والمناصب المدنية والعسكرية ، وذات مرتبة النبلاء الذين كانت ألقابهم لاتنفصل عن الأرض التى كانوا يعتمدون عليها . وكان لابد للمرء من أن يكون غنيا ليصبح له شأن ، ولو حدث أن حظوة لدى أمير رفعت أحيانا من مكانة رجل فقير ، فقد كان من شأنها أن تجعله غنيا فى الوقت عينه ، نظرا إلى أن الثروات كانت النتيجة الطبيعية للنفوذ » .

وشئون الحياة ، حتى شئون الحياة الأرستقراطية ، كان يعبر عنها فى يسر بالغ بأساليب التجارة والمال . ولنلق بالنا إلى التعبير المجازى الوارد فى مطلع عظة خلقية من القرن السادس عشر عن الجارين وراء مصالحهم فى هذه « البورصة » أو سوق التعامل فى الشئون البشرية التى قوامها بأسرها (إذا جاز القول) السلع والشراء والبيع ، من الملائم

جدا أن توجد كل ألوان الحالات والحرف . . . وكانت تفرض غرامة قدرها عشرة جنيهات على من يتخلف عن الحضور ومعه دائماً المال والسلع للمحافظة على هذه السوق الدنيوية » . ولقد كانت الحياة على هذا المثال ، فكان الفرد يحصل على المال بوسيلة أو بأخرى ، عن طريق التجارة أو السرقة ، أو الرشوة ، أو المشروعات المالية . وكانت ضروب « السلب والجشع والإنفاق » تجعل الحياة « أمراً وضيعاً أعده الصانع أو الطاهى أو خادم الخيل » . إلا أن منظومة وردزورث Wordsworth لقائمة اتهام محكمة الإيجاز .

وفى مدن العواصم الكبرى ، التى كانت من الضخامة بحيث كان لا يتسنى للناس معرفة جيرانهم ، سادت معايير السوق بوجه عام ، فكان الناس يحاولون عن طريق المظهر الذى يبدون به أمام غيرهم ، أن يتركوا أثرا عميقاً فى النفوس عن مكانتهم فى الحياة ، وعن ذوقهم ، وعما هم عليه من الرخاء . وكان كل فرد يعنى بمظهره الخارجى ، وكذلك كل طبقة ، حتى ليمكن القول إن « الموضة » كانت الزى الرسمى للعصر ، وإن كل ميسورى الحال كانوا يرتدون ذلك الزى الرسمى فى المنزل أو فى الشارع ، ملتزمين عين النظام الدقيق الذى كان الجندى يلتزمه فى أثناء سيره فى مواكب العرض العسكرى . وكانت البندقية هى التى أمسكت زمام القياد فى فرض « موضات » الملابس والزينة بفضل ما كان لغانياتها من سحر نسجت حوله كثير من القصص ، ثم تولت باريس القيام بهذه المهمة فى القرن السابع عشر ، وبعد ذلك الحين كانت كل عاصمة قومية تتخذ نموذجاً لباقى بلادها . ومن وجهة نظر الوسطاء والمستوردين ، كان بعض ما يفيدونه من العاصمة اقتصاديا هو الحط من قدر السلع المحلية — وكانت تتباين فى نماذجها وألوانها ومادتها ونسيجها وزخرفتها مجاراة للتقاليد المحلية — وترويج السلع التى كانت

تستعمل فى العاصمة . ولقد كان من شأن الأساليب التجارية البارعة أنها قوضت أركان الأسس الرصينة التى كانت تقوم عليها الصناعة ، بقدر ما قضت على ما كان للصانع والمستهلك من ميول ونزعات فطرية تقليدية : :

وكانت بعض البوادر التى تنم عن هذه الحالة قد ظهرت بوضوح فى القرن السادس عشر ، فقد عنى « ستو » بالرد على اتهامات أولئك الناس الذين يحملون لندن مسئولية الخسارة والتدهور اللذين حلا بكثير من المدن القديمة (أو بمعظمها) ، والمدن المتمتعة بحقوق البلديات والأسواق فى داخل هذه المملكة . : . وأما فيما يتعلق بتجار التجزئة وأصحاب الصناعة اليدوية ، فإنه لا وجه للعجب إذا هجروا مدنهم الريفية ولجأوا إلى لندن ، إذ أنها لا تشتمل على البلاط وحده ، وقد أصبح فى الوقت الحاضر أعظم بكثير وأشد بهاء مما كان عليه فى الأزمان السابقة . . بل إنه لوجود البلاط هناك ، يسارع أصحاب المكانة فى جميع المقاطعات بالمجىء إلى المدينة والتجمع فيها ليستمتع شبابهم بالمشاهدة وليعرضوا مظاهر الترف والخيلاء ، ولكى يوفر كبارهم على أنفسهم نفقات الضيافة وأجور الخدم » : وإذا كان تنافس « الموضات » قوام حياة التجارة ، فإنه كان مسئولا أيضاً إلى حد كبير عن موت الصناعات المألوفة فى المدن الريفية ، وقد اضطرت فى النهاية إلى الإنتاج لحساب السوق البعيدة المجهولة وإلا فقدت صناعاتها كلية . وقد كانت لهذا نتيجة يمكن تبين أثرها إلى يومنا الحاضر فى نظامنا الذى يقوم على أساس المناطق فيما يتعلق بالإنتاج والتوزيع .

وفى هذا النظام الاقتصادى ، أصبح ما فى العاصمة الباروكية من تركيز ميزة خاصة ، وإن كان هذا التركيز ينطوى على تكبد خسائر باهظة التكاليف من جراء عمليات النقل ، إذ يقول ديفو : « إن ضخامة مدينة لندن تزيد من التجارة الداخلية إلى حد بالغ جدا ، إذ أنه لما كان

حى الأعمال والتجارة فيها هو مركز تجارتنا ، فإن كل المصنوعات تجلب إليه ومن ثم توزع ثانية فى جميع أنحاء البلاد . . . » .

ويتساءل ديفو فى موضع آخر : « وكم من ألوف ، بل أستطيع أن أقول ، كم من مئات الألوف من الناس والخيول تستخدم فى نقل وإعادة نقل منتجات إنجلترا والمنتجات المستوردة من البلاد الأجنبية إلى لندن ومنها ، وكم من هؤلاء يكون مصيرهم التعطل والاحتياج إلى عمل . . . لو أن هذه المدينة العظيمة كانت مقسمة إلى خمس عشرة مدينة . . . وكانت هذه المدن واقعة فى مثل هذا العدد من الأماكن المختلفة البعيدة بعضها عن بعض ، وكانت نواحى الريف الممتدة فى نطاق عشرين أو ثلاثين ميلا حولها ، كافية لها وقادرة على تزويدها بحاجاتها ، وكان يتسنى لكل ميناء أن يقوم باستيراد سلعه الخاصة به من الخارج » .

وتتضمن الفقرة الأخيرة تفسيراً موجزاً للفارق بين النظام الاقتصادى الحضرى فى العصور الوسطى والنظام الاقتصادى الجديد ، وليس فى الاستطاعة تقديم ما هو أفضل من ذلك : بيد أنه من حيث قوى النشاط الاجتماعى والحياة الثقافية ، فإن ما اعتبره ديفو مدعاة للثناء كان فى الواقع دليل اتهام يقضى بالإدانة .

وكان اتساع نطاق السوق من أكبر الخصائص المميزة للنظام التجارى ، فهو وثيق الاتصال بجميع نواحى الخطة القائمة على سد الحاجات عن طريق غير مباشر ، بدلا من سدها عن طريق مباشر ، وعلى إحلال السلع التى تشترى بالمال مكان تجارب الحياة . وعند حلول القرن الثامن عشر ، كان ما فى مدن العصور الوسطى من أسواق عامة ودور للإنتاج فى سبيل التحول إلى دور متخصصة دائبة العمل بصفة مستمرة . وحتى فى ذلك التاريخ المبكر ، فى عهد لويس الخامس عشر ، أنشأ مصرفى يدعى كروم (Kromm) متجراً كبيراً يعمل فيه نحو مائتين أو ثلثمائة موظف .

وفى سنة ١٨٤٤ فتح فى باريس متجر كبير حديث كان يدعى « مدينة فرنسا » (Ville de France) وكانت هيئة مستخدميه تتألف من مائة وخمسين موظفا .

وإذا كان فى الاستطاعة أن تقاس حيوية منشأة من المنشآت بمظهر مبناها ، فإن المتجر الكبير كان من أعظم المنشآت حيوية فى هذا النظام التجارى ، وقد كان من أول المبانى الكبيرة التى استخدمت فيها الأعمدة الحديدية بدلا من الجدران الحجرية متجر ا . ت . ستيوارت فى نيويورك . وإذا كان التصميم الذى وضعه شينكل (Schinkle) فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر لمتجر كبير فى برلين لم ينفذ ، فإنه كان يفضل بمراحل التصميم المحافظ المتكلف الذى وضعه ميسيل (Messle) لمتجر فيرتايم (Wertheim) فى برلين ولقى من الإطناب أكثر مما يستحقه ، وأخيراً فإن من أعظم ما أقيم فى عصرنا من المبانى ذات الفائدة العملية ، ويعتبر الآن تحولا جوهرياً فى التصميم ، كان المبنى الذى صممه سليفان (Sullivan) وأقيم بمدينة شيكاجو وكان يعرف بمبنى شلزينجر وماير (Schlesinger and Meyer) (ويعرف الآن بمبنى كارسون وبيرى وسكوت وشركاهم) .

والمتجر الكبير ينشر أمام المشترى أكبر عدد ممكن من السلع تحت سقف واحد ويعرض عليه أنواعا متعددة مما يغريه بالشراء ، ويحكم حوله الشباك لاقتناصه ، وعلى ذلك فإنه أصبح فى الواقع ساحة سوق متعددة الطوابق ، بل أكثر من ذلك فإنه كان بمثابة معرض عالمى للفن والصناعة ، كل ما هو معروض فيه مطروح للبيع .

بيد أنه ليس ثمة ما يدعو إلى العجب من أن الأشكال المعمارية الرئيسية التى أوجدتها المدينة التجارية كانت قائمة على أساس وحدات الاتساع المجردة ، أى القدم المسطحة والقدم المكعبة ، فإنه بدون القيام بتعديل جوهرى فى تكوين المبانى ، كان يمكن تحويل الفندق ، والعمارة السكنية ، والمتجر

الكبير ، والمبنى المخصص للمكاتب ، بحيث يحل أى واحد منها مكان الآخر ؛ وحينما كان يتبين أن فى أرباح المضاربة من وراء بيع المبانى ما يكفى من عوامل الإغراء ، كان اعتبار التحول يخلى مكانه فى النهاية لاعتبار الاستبدال ، ولم يكن أى جزء فى المبنى يوضع تصميمه على أساس النظر إلى استخدامه زمناً طويلا ، بل على أساس النظر إلى هدمه لكى يقام مكانه مبنى أكثر ارتفاعا وأجزل ربحا فى خلال جيل واحد ، بل حتى فى زمن أقصر من ذلك فى بعض الأحيان . وإن الرأسمالية ، من حيث تأثيرها على المدن ، لأشبه شىء بذلك الخلل الذى يطرأ على أعضاء البدن ويعرف فى الطب بالمعدة التى تهضم نفسها .

ولقد أوجد النشاط التجارى فى القرن التاسع عشر طرازاً واحدا لم يحقق المبدأ الرئيسى لذلك النشاط ، وهو القابلية للتحول وازدياد القيمة ازدياداً مستمرا فى مجال المضاربة ؛ وليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة من أن هذا الطراز باء بالفشل ؛ وبطل منذ زمن طويل العمل على محاكاته أو تحسينه ، وكان عبارة عن ممر تجارى يتألف من بوائك مسقوفة بالزجاج ، وقد كان محاولة لإيجاد بنيان جديد ينتفع فيه بما هيأته فنون الصناعة الحديثة من ثمار جديدة فى مجال الإطارات الحديدية والجدران الزجاجية : وفى أوائل القرن التاسع عشر أنشئت نماذج من هذا الطراز من الممرات التجارية فى كل مدينة تجارية ، ابتداء مما أقيم منها فى نابولى وجنوه إلى ممر برلنجتون (Burlington Arcade) الذى شيد فى لندن فى سنة ١٨١٩ : ويعد ممر بروكسل التجارى من أطول ما أقيم من هذا النوع من الممرات المؤلفة من بوائك مسقوفة بالزجاج ، أما أفخمها جميعا فهو ذلك الممر العظيم الذى أنشئ فى ميلان على هيئة الصليب ، وهو مجمع رحب يشتد فيه الزحام لما فيه من حوانيت ومقاه ومطاعم : ولقد كان لهذه المنشآت الجديدة ميزة خاصة ، وهى إبعاد حركة تفقد المتاجر عن الشوارع المزدحمة الزاخرة بأسباب الإزعاج من جراء الضوضاء وتدفق العربات ، فهى مثال للتخطيط الوظيفى الذى يدعو

إلى الإعجاب . وفكرة إقامة ممر من هذا الطراز لم يتقدم بها فقط السير جيمس سيلك بكنجهام (Sir James Silk Buckingham)– صاحب مشروع إنشاء مدينة نموذجية من طراز عصر الملكة ڤكتوريا – بل تقدم بها أيضاً إيبنزر هوارد فى التخطيط الأول الذى وضعه لمدينة الحدائق ، حيث كان يريد أن يجعل منطقة المتاجر بأسرها مسقوفة بالزجاج ، ولقد قام فعلا واضع تصميم « مدينة نموذجية » – مدينة بولمان (Pullman) بولاية الينوى – بإنشاء مثل هذا الممر التجارى . ومن الغريب أن ممرا كهذا قد بنى حتى فى مدينة هيتشين (Hitchin) الريفية الصغيرة على مقربة من ليتشورث (Letchworth) ، وهى أول مدينة حدائق أنشأها هوارد .

وعلى الرغم من أن أغلب هذه الممرات التجارية ما زالت قائمة تنعم بالازدهار ، فإن محاكاتها لم تنتشر على نطاق واسع ، أو على الأصح فإنه إزاء إنشاء مراكز تجارية منافية للروح الحضرية من أجل استقبال وسائل النقل الآلى ، وإزاء ذلك فقط تيسر لهذه الفكرة أن تعود إلى الظهور فى شكل معدل . وقد كانت نقطة الضعف الحقيقية فى الممر التجارى ذى البوائك المسقوفة بالزجاج ، من وجهة نظر العرف التجارى ، هى ملاءمته التامة لوظيفته ، فإنه كان لا يصلح إلا للغرض الأصلى منه ، ومن ثم فإنه كان ، بحكم طبيعته ذاتها ، غير قابل للتحويل ، وكان فى هذا انتهاك لحرمة القاعدة الأولى فى تصميم المدينة التجارية .

٩ — تباين أمستردام التالى

وتقوم مدينة واحدة شاهداً على الروح التجارية فى أحسن صورها قبل أن تتحلل تماماً من الضوابط المألوفة والالتزامات الجماعية التى كانت تسود نموذجها الأول فى العصور الوسطى ، وهذه المدينة هى امستردام ، وعدم تقليدها على نطاق واسع ينهض دليلا على أن ما جعل تلك المدينة مثالا من

أعظم أمثلة تخطيط المدن لم يكن الرأسمالية وحدها ، بل مزيجا من الأنظمة والشخصيات والفرص التى تجمعت فى وقت لا نظير له . ومع ذلك فإنها لا تزال العمل البارز الوحيد الذى حققته الرأسمالية فى مجال العمران الحضرى ، والذى لا ينافسه إلا مدينة « باث » الأنيقة .

وإذا اعتبرنا أمستردام أعظم مثال لمدينة حققت الانتقال من نظام الاقتصاد المغلق إلى نظام التنافس التجارى دون أن تفقد شيئاً من لياقتها ، فإن هذا لا يعنى الحط من قدر القوة الحيوية لبعض منافسات امستردام مثل ديلفت (Delft) وهارلم (Haarlem) ، بل إنه باتخاذنا أصعب الأمثلة ، نريد أن نبين بالأحرى أنه برغم التوسع التجارى على أسرع وجه ، وازدياد عدد السكان على أسرع منوال ، لم يكن النمو العادى لمدينة ما بعد العصور الوسطى ، يستتبع إقامة عقبات لا يستطيع أن يتغلب عليها تخطيط منظم . وذلك أن أمستردام طوال الفترة الرئيسية لتوسعها ، لم تفقد شيئاً من وحدتها . وعلى الرغم من أن الحى الذى يرجع فيها إلى العصور الوسطى ترك نهبا للاضمحلال ، فإن المدينة فى مجموعها لم تتدهور فيما خلا فترة وجيزة فى القرن التاسع عشر ، عندما تمخض الجشع التجارى والذوق الفاسد عن إنشاء أحياء كانت — بما انسمت به من كآبة وعجز عن الوفاء بالحاجات البشرية — تنافس أحياء أكثر المدن الصناعية مطابقة للنمط السائد فى القرن التاسع عشر .

وقد كان التقدم التقنى الذى أحرزته المدينة الهولندية يقوم على أساس التحكم فى الماء على وجه يدعو إلى الإعجاب ، وذلك من أجل تسخيره فى المواصلات والنقل وكذلك فى تشكيل وجه الأرض ، فمنذ زمن طويل قبل إتقان صنع الأجهزة الميكانيكية لحفر الأرض ونقل التراب ، كان الهولنديون قد استطاعوا عن طريق دأبهم على العمل اليدوى أن يقيموا الكثير من مدنهم فوق رواب أعلى من مستوى سطح الماء ، كما أن استخدام المجهود

الجماعى عينه مكنهم من وقاية البلاد من غائلة الفيضان : ويروى جيرالد بيرك (Gerald Burke) أن التحكم فى البحر وفى المياه الداخلية بدأ بصورة مصغرة منذ عهد يرجع إلى القرن الثامن ، وعلى الرغم من أن الهولنديين كانوا فى حاجة إلى معاونة طاحونة الهواء لحل مشكلة التحكم فى الماء فى بلادهم ، حيث يقع الكثير من أجزائها تحت مستوى سطح الماء ، فإنه عند حلول القرن الحادى عشر ، أى حتى قبل إدخال هذه الآلة الضاخة ، كان قد أمكن تحسين الوسائل التقنية للصرف ولإقامة سدود الماء ، وكانت مساحة كبيرة من الأرض قد استصلحت .

ولما كان هذا العمل يحتاج منذ البداية إلى إدارة تعاونية سواء لبناء السدود أو صيانتها ، فإن هذه الحاجة قد أفضت إلى إنشاء « هيئات إمساك الماء » (Water Catchment Boards) منذ القرن الثالث عشر — وهى هيئات ذات سلطات مستقلة ما زالت قائمة بعملها إلى اليوم . ولما كان مستوى سطح الماء قريباً جداً من سطح الأرض ، فقد كان لا بد من أن تبنى منازل المدن الهولندية على ركائز ، وحالت صعوبة إقامة هذه الأساسات دون اتساع المدن الهولندية على غير هدى وفقاً لمشيئة مالك الأرض ، فكانت المدينة الآخذة فى النمو تتسع قسماً فقسماً وتزود بالخدمات العامة تحت إشراف البلدية وتوجيهها . وفى نطاق هذا النظام القائم على العمل الجماعى والتقييد المنظم ، كانت القوى الرأسمالية الدينامية تعمل ، رغم أنفها تقريباً ، فى سبيل غاية عامة : ولهذا السبب فإنه يمكن اتخاذ أمستردام مثالا رائعاً لبيان قيمة نظام اقتصادى مختلط ، تقوم فيه المشروعات العامة والخاصة بتكملة بعضها بعضاً .

وقد بدأ وجود أمستردام على هيئة مجتمع عند إقامة حاجز أو سد على نهر أمستل (Amstel) الصغير : وكانت النواة الأصلية للمدينة تقع داخل هلال القناة التى كانت تحيط بالمدينة القديمة ، وقد بقيت هذه المدينة

بلا أسوار حتى سنه ١٤٨٢ : بيد أنه فى المدن الهولندية ، كان حاجز المياه يقوم فى الواقع مقام السور فى الحث على التماسك والتعاون فى بذل الجهود : وعندما تحولت التجارة من بحر البلطيق إلى بحر الشمال ، تبعاً لهجرة سمك الرنجة التى لا يعرف لها تعليل ، فإن أمستردام — وكان يمكن الوصول إليها عن طريق مائى طويل مأمون ؛ إذ أنه لم يكن معرضاً للعواصف ولا للقراصنة — أخذت تتقدم بوصفها ميناء لتبادل نقل البضاعة بين السفن : ومن ثم فإنه عندما شل الإسبان حركة انتورب فى القرن السادس عشر ، أصبحت السوق المالية (البورصة) فى أمستردام مركز التعامل المالى : ويبدو أنه إلى نهاية ذلك القرن ، كان الصراع مع إسبانيا يحول بانتظام دون نمو أمستردام ، ولكن حوالى آخر ذلك القرن ، وقبل خروج الاسبان من الميدان بجيل كامل ، وجهت أمستردام كفاحها الباسل فى ميدان التجارة نحو تقدمها هى ذاتها من الناحية الحضرية :

ومن الجلى أن أمستردام لم تكن لتخرج بلا نتيجة من استيعابها كل الدروس التجارية التى كان فى وسع الإيطاليين تلقينها لغيرهم : وعلى ما تحدثنا به فيوليت باربور (Violet Barbour) كان يمكن الاطمئنان عادة إلى أن السلع المرسلة إلى أمستردام سوف تباع سريعاً ويسدد ثمنها دون تأخير ، وتهيئ مجالا واسعاً من فرص الاختيار لاستثمار حصيلتها . وهنا أيضاً كانت وسائل التخزين موفورة ، والتجار الذين كانوا يريدون تخزين بضاعتهم إلى أن يحصلوا على أثمان أفضل ، كان يتسنى لهم اقتراض المال بضمان إيصال مستودع التخزين . وقد بلغ من حسن إدارة المال أن المستثمرين فى أمستردام كانوا يقنعون بقبول عائد يقتصر على اثنين فى المائة من رأس المال ، بدلا من الحصول على ما يبلغ أضعاف ذلك القدر عدة مرات فى أسواق مالية أخرى كان يحتمل أن يضيع فيها رأس المال هباء :

ولنلق بالنا إلى النتيجة : أنشئت غرفة للتأمين فى سنة ١٦٠٢ ، وبورصة جديدة للأوراق المالية سنة ١٦٠٨ ، وبنك للتسليف فى سنة ١٦١٤ ،

وتضاعف عدد السكان إلى حوالى أربعة أمثال ما كان عليه ، فيما بين سنة ١٥٦٧ حين كان يبلغ نحو ٣٠,٠٠٠ وسنة ١٦٣٠ حينما بلغ حوالى ١١٥,٠٠٠ . وتوسيع المدينة الذى لم يكن منه بد ، قد هيأ الفرصة لنظام جديد فى التخطيط ، على حين أن رخاء التجار أصحاب السلطان وفر الأموال اللازمة للإنشاء . وحتى الحرب لم تكن عقبة فى سبيل هذا النمو ، إذ أن أمستردام أصبحت السوق الرئيسية للحبوب والمواد اللازمة لتموين السفن والذخائر ، وهى جميعاً عصب الحرب ، بل إن الرأسماليين من أهلها كانوا يتجرون مع العدو دون قيد ، بحيث إنه أيا كان الخاسر فى ساحة القتال ، فإن الهولنديين كان مآلهم الربح فى سوق التعامل المالى .

وكان تفوق التخطيط الجديد يرجع مباشرة إلى قانون المبانى الصادر فى سنة ١٥٦٥ ، وقد بلغ من وفاء نتائجه بالغرض أنه ظل معمولا به إلى أوائل القرن التاسع عشر ، حينما أفضى التغاضى عنه ، فيما يحتمل ، إلى بعض ما يوجد فى أمستردام من أشد المظاهر كآبة . وقد كان من بين ما اقتضاه هذا القانون أنه يتعين الحصول على موافقة البلدية على ركائز الأساسات قبل الشروع فى البناء ، وأن كل قطعة أرض يجب أن يكون لها مرحاضها الخاص ، وأن الشوارع وطرق السير على الأقدام التى تتولى البلدية إنشاءها ، كان يتعين على أصحاب قطع الأرض أن يقوموا بدفع نفقاتها تبعاً لمقدار عرض الواجهة . وقد كان فى هذا ما يعزز الشروط الصحية التى صدر بها قانون فى سنة ١٥٣٣ حيال فرط ازدحام المساكن بالأسر العديدة ، واقتضت وضع أنابيب الصرف والمجارى بحيث يمكن التفتيش عليها ، وبعبارة أخرى ، فإن هذا التخطيط لم يكن تقدماً سطحياً ، بل كان دليلا قاطعاً على عناية أوسع مدى بشئون الصحة والحياة الاجتماعية :

ولقد بدأ تنفيذ التخطيط الجديد فى سنة ١٥٨٥ بإنشاء قناة هيرنجرخت (Heerengracht) على موقع الحصون التى أزيلت فى الناحية الشمالية ،

ولما كانت هذه القناة تقوم فى آن واحد بمهمة النقل ومهمة المكان الفضاء ، فقد أوجدت أساساً جديداً للأبعاد فى مثل هذا التخطيط ، إذ كان عرضها يبلغ ثمانين قدماً . ولقد اتسعت هذه البداية على يد هندريكجى ستيتس (Hendrikje Staets) فى « مشروع القنوات الثلاث » ، وهو مشروع وافقت عليه البلدية فى سنة ١٦٠٧ ، ولم تكن القناة الأولى ولا القناة الثانية ، قناة كايزرجرخت (Keisergracht) (١٥٩٣) ، هى التى أوجدت شبكة من القنوات على هيئة بيت العنكبوت وهو ما تم إنشاؤه فى النهاية ، بيد أنه لعله فى خلال إنشاء هاتين القناتين كان التصميم الهندسى لحصن أمستردام المعروف باسم كووردن (Coeworden) قد ترك أثره لدى واضعى التخطيط . ففى أثناء تقدم السير فى العمل ، طرأت الفكرة من تلقاء ذاتها ، بأن ينشئوا شبكة من القنوات الموحدة المركز على أن تتقاطع معها قنوات وشوارع تتجه نحو المركز القديم . وعلى الرغم من أنه فى وقت ما قدم مشروع لإنشاء حديقة عامة كان من شأنه الإخلال بهذا الترتيب المتماثل واعتراض شبكة حركة النقل ، فإنه أدرك فى النهاية كنه هذا التخطيط على حقيقته ، وهو أنه من حيث الوظيفة والشكل الهندسى يؤلف وحدة واحدة ، وبالتعبير عن هذه الوحدة اتخذت المدينة الداخلية بأكملها شكلها النهائى .

والرجل المسئول إلى حد كبير عن تنفيذ مشروع القنوات الثلاث هو دانيل ستولبرت (Daniel Stolpaert) ، وكان مهندس مساحة وعمارة (١٦١٥ — ١٦٧٦) ، نقل المشروع من شكل على الورق إلى حقيقة اجتماعية متعددة الجوانب ، فإنه هو الذى تولى توزيع الواجهات الواقعة على طوال القنوات الثلاث العظمى وتخصيصها لدور الأعمال التجارية الكبيرة ولمنازل التجار فى المدينة ، وهى مبان كانت عندئذ على مستوى واحد من حيث الحجم والرواء ، كما أنه هو الذى خصص لمساكن الطبقة الوسطى والصناع وحدات المبانى الواقعة بين القنوات التى كانت تؤلف أنصاف

أقطار الدائرة ومحيطها : وقد احتفظ كذلك لمستودعات البضائع بالواجهات المطلة على الميناء ذاته وعلى طول قناة بروزجرخت (Browersgracht) ، على حين أن المنطقة الجديدة الواقعة إلى الجنوب ، وهي منطقة جوردان (Jordaan) ، خصصت للصناعة ولبعض المؤسسات الخيرية . وإن ما تميز به هذا المشروع عما تم فى القرن الحالى فى المدن الأمريكية من تحديد المناطق بالجملة تحديداً سطحياً خطير العواقب ، هو أن كلا من التخطيط والبناء كان جزءاً من عملية واحدة متوافقة :

ولكن فلنلاحظ أن تنفيذ المشروع كان عملا نهضت به الجهود الخاصة ، فقد تولى أمره أفراد وجماعات صغيرة من أجل الربح ، ولو أنه فى بعض الأحيان تولت هيئات دينية إقامة مساكن لكبار السن والمعوزين ، أو منظمات تجارية كبيرة كانت تنشد توفير مساكن كافية لموظفيها ، وأحياناً ، ولو نادراً ، كانت تتولى العمل جمعيات للإسكان : ولقد كان المضى على هذا النحو المستمر فى تنفيذ التخطيط والإنشاء هو الذى صان نمو أمستردام السريع من أن تكون نتيجته كارثة على حسن الإسكان ونظام المدينة مثلما كانت نتيجة النمو السريع لمدينة لندن ؛ وليست أقل النواحى شأناً فى هذا التخطيط — وهو ما يربطه بمشروع « لانفان » لمدينة واشنطون — القيام بحجز المواقع فى الأوان المناسب للكنائس وساحات الأسواق المحلية ، ولو أن هذا المثال وحده كان قد اتبع عند وضع مشروعات التخطيط لمدن أخرى فيما بعد ، لكان من شأن ذلك الاقتصاد فى النفقات وتحسين طابع المدن الجديدة ، ومناطق التوسع الجديدة فى المدن :

ولقد كان مشروع القنوات الثلاث آية فى الرحابة والتجمع والنظام الواضح الدلالة : وقد استوعب هذا المشروع كل ما كان سديداً فى التخطيط الباروكى ، مع الاقتصار على إدخال ما يكفى من التنوع فى الوحدات

المنفردة ، بالإضافة إلى الزخرفة الوفيرة الناشئة عن منظر الأشجار التى تحف بالقنوات من الجانبين ، وذلك لإزالة الأثر الكريه لطابع التنظيم العسكرى الذى اقتضته النظم والقواعد الباروكية : ومن شأن الفواصل المتوالية فى اتجاهات التخطيط القائم على هيئة بيت العنكبوت ، من شأنها أن تحول دون أن تبدو المناظر البعيدة ، التى تنفرج عنها ، خالية موجبة للانقباض : وكان عرض القنوات ذاتها يتراوح بين ثمانين وثمان وثمانين قدما ، ويفصلها عن المبانى التى تحف بها ، طرق مرصوفة للتنزه ، غرست فيها الأشجار . وكانت تلك المبانى تقوم على قطع من الأرض يبلغ متوسط عرضها ستاً وعشرين قدماً ، ومن ثم هيأت مجالا لظهور الواجهة الفسيحة ذات ثلاث النوافذ ، أى التى فتحاتها أكبر حجماً بكثير من حجم الحائط مما كان يتيح لضوء الشمس أن يتغلغل إلى أعماق المنزل . وكانت توجد بين ظهور المنازل مسافة تبلغ مائة وستين قدماً فى حدها الأدنى ، ولذلك فإنه كان يوجد فى كل قطعة أرض حيز لحديقة تبلغ مساحتها حوالى ست وعشرين قدماً فى ثمانين قدماً ، وهى مساحة وافية لكل من عشاق الحدائق ، ومن ينشدون الراحة فى الهواء الطلق ، وكان الحد الأقصى لما تشغله المبانى من مساحة الأرض ستة وخمسين فى المائة . وقد كان من أثر هذا التخطيط أنه أضفى على أكثر المواقع تغلغلا فى داخل المدينة ، ما الضواحى من ألوان البهجة بأماكنها الخلوية وحدائقها وأشجارها .

فهنا فى الأحياء الجديدة فى أمستردام تمثلت الذروة الجمالية التى توجت جهوداً جماعية بذلت على مدى خمسة قرون فى التحكم فى الماء وتكوين الأرض ، فإن النظام قد امتد إلى المدينة من المناطق التى جففت واستصلحت ، ولم يسبق أن دخل حظيرة تخطيط المدن فى أى مكان وعلى ذات النطاق ، ما يماثل أمستردام فى توفيق تخطيطها توفيقاً شاملا وعلى نسق منتظم ، بل إن الهولنديين أنفسهم لم يثابروا طويلا على اتباع المثال العظيم القائم أمامهم .

ولقد ظل النظام الذى أوجده مشروع القنوات الثلاث ، على مدى ثلاثة قرون ، متفوقاً على أى مشروع آخر للتخطيط الحضرى فى جملته ، ولم تهدده المخاطر إلا فى الوقت الحاضر بسبب شدة احتفال الناس بالسيارة إلى حد أنهم لا يترددون فى التضحية بما فى حياة المدينة من وجوه النفع والبهجة لتوفير الوسائل التى تسهل الوصول إلى المدينة والخروج منها ، مع ما ينطوى عليه ذلك من التهام مساحات كبيرة من الأرض — ولو أن تعدد هذه الوسائل فى ذاته ، يقلل السرعة الفعلية لحركة النقل وهى التى تنشد تلك الوسائل زيادتها . وعلى مثال الشوارع العريضة فى باريس ، انتهى الأمر بالطرق الجميلة ، التى تظللها الأشجار وتمتد على طول جوانب القنوات الكبرى ، إلى أن تصبح أماكن لانتظار السيارات ، وهو منظر يبعث على الكآبة .

وبحث هذه المشكلة الخاصة بصيانة القلب التاريخى ، قد يستدعى فصلا قائماً بذاته ، ولا بد لى هنا من أن أقرن إعجابى بنجاح تخطيط أمستردام ، يلفت النظر إلى تلك المنطقة حيث كانت المنافع التجارية ، وليست الأهداف الحضرية ، هى التى تتحكم فى تطور أمستردام ، وبذلك أوجدت سابقة ازدادت سوءاً مع تقدم الرأسمالية . وقد كان ذلك فى منطقة جوردان (Jordaan) إلى الجنوب الغربى من المدينة ، فهنا بدلا من إنشاء حى جديد ، على نفس القواعد التى جرى عليها العمل فى المدينة القديمة ، عمد واضعو التخطيط إلى اتباع تخطيط الحقول القديمة ، وهو تخطيط مختلف ، وشقوا فيه مسالك ضيقة منحرفة الاتجاه تتقاطع مع الخطوط الجديدة للنمو فى تلك المنطقة . ولما كان مجلس البلدية لم يضع يده على تلك المنطقة ، فقد تولى جماعة من التجار تعميرها من قبيل المضاربة ، بشق قنوات ضيقة ، وشوارع ضيقة ، فهى لا يبلغ عرضها ثمانين قدماً ، بل نحو ثمانى عشرة

قدماً . وأدهى من ذلك أن مستوى سطح الأرض أكثر انخفاضاً من باقى المدينة ، فإن القائمين بعملية التعمير خفضوا نفقاتها بتفريطهم فى إعداد السطح على نحو ما جرت به العادة :

وفى هذه الأحياء المنحصرة ، وعلى قطع من الأرض تماثلها فى الانحصار ، أنشأوا منازل مزدحمة ، حيث كان يتسنى لأفقر العمال أو للمهاجرين من البروتستنتيين الفرنسيين ، ولليهود الإسبانيين والبرتغاليين ، أن يجدوا أقل قدر من وسائل السكن . وعلى حين أن أدنى مسافة بين ظهور مساكن التجار كانت تبلغ ١٦٠ قدماً ، فإن كامل عرض وحدة مساكن العمال لم يتجاوز ١٢٠ قدماً . ومع أن معدل كثافة الازدحام فى الفدان الواحد من صافى المساحة السكنية كان عادة لا يزيد على خمسة منازل فى المدن الهولندية الصغيرة ، أو عشرين منزلا على أقصى حد فى المدن الكبيرة ، فإن هذا المعدل فى الأحياء السكنية الجديدة للعمال كان يزيد على ذلك أضعافاً مضاعفة : وتوفير حالة أفضل من ذلك لنزلاء تلك المساكن ، كان يقتضى إما نزول الذين تولوا البناء عن أرباحهم ، وإما تقديم إعانة مالية من قبل البلدية ، أى من قبل الذين تولوا البناء ، بوصفهم مواطنين فى المدينة . والرأسمالية — بحكم تعريفها تقريباً — لم يكن لديها من حل لهذه المشكلة ، بل إنها فى الواقع رفضت التسليم بإمكان وجود أى حل ، حتى على أسس غير رأسمالية ، وذلك إلى أن حل النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وإن مثال أمستردام ليغرينى باستخلاص نتيجتين متناقضتين ، إحداهما هذه النتيجة البالغة الوضوح وهى أن مغانم الرأسمالية كانت مقصورة على من يمارسون أساليبها من التجار والمتاجرين ، والماليين والمستثمرين ، وأنه لم يكن من شأن نظام اقتصادى رأسمالى أن يوفر مساكن حضرية للطبقات

العاملة إلا بموجب أوضاع تعود بربح مجز ؛ وهذا معناه ، عن طريق فرط الازدحام ، والتقتير ، والشح فى تدبير الوسائل حتى لتوفير الضوء والهواء ، أى ازدياد سوء الحالة العامة فى البيئة الحضرية بأسرها : ومع ذلك فإنه حينما توافر للسكان دخل كاف كانت تهيأ لهم مساكن صالحة إذا لم يكن الربح هو الدافع الوحيد من وراء القيام بالبناء : وإن ما جعل أحياء مساكن التجار فى أمستردام على هذا المستوى الممتاز ليرجع إلى مواصلة البلدية يقظتها فى وضع التخطيط وفى الإشراف على المشروع بأكمله مستهدفة الصالح العام : وقد كان هذا تراثاً موفقاً من مخلفات النظام الاقتصادى للعصور الوسطى ، فإن التوجيه الحكومى المسئول الذى يستهدف تحقيق غايات عامة وضعت خطتها بإحكام هو أمر جوهرى لإقامة ولتقدم جميع ألوان المجتمعات الحضرية :

وإن أسوأ مظاهر الرأسمالية أثراً فى التطور الحضرى لم تتكشف إلا عندما انفردت الرأسمالية بالسيادة ، وظهرت حقيقتها الوحشية العارية مجردة من أى نوع من الثياب التاريخية ، فيما عدا أسمالاً رثة مهلهلة : وعند هذا الحد ، كشف النجاح التجارى عن حقيقة ما كان وما لا يزال عليه أمره حتى الآن إلى حد كبير ، وهو فقر مدقع فى الشعور بالواجب العام : والواقع أنه من وجهة نظر نظام اقتصادى آخذ فى التوسع ، كانت آمال الرأسمالية فى الأرباح — وهى تعتمد على استدرار دخل متواصل — تستدعى الاستمرار فى هدم المبانى الحضرية القديمة من أجل ما تجنيه من وراء إقامة مبان مكانها تدر إيجاراً يزداد ارتفاعاً على الدوام ، وذلك أن استثمار رءوس أموال كبيرة لآجال طويلة فى إقامة مبان من شأن اتساع المساحة المحيطة بها أن تكفل استمرار بقائها ، لم يكن ليروق فى عين الرأسمالى المستثمر إذا ما طرح جانباً اعتبارات الدخل المأمون : وفى الأحياء الشديدة الفقر كان

الرأسمالى – فى اقتدائه بمثال سلفه الرومانى الكبير ، كراسوس – يمضى حتّى إلى حد العمل على تعجيل الهدم ، وذلك بضنه باستخدام المال اللازم للترميم والتجديد . وفى نظر القرن العشرين ، أصبحت النغمة الجديدة لتطور المدينة ، هى هدم المبانى وإقامة غيرها مكانها ، فكان الدور الذى قامت به الرأسمالية فى ذلك هو تصفية الوعاء .

بيد أنه فى خلال القرنين أو القرون الثلاثة التى اختلطت فيها الرأسمالية بأنظمة أقدم منها عهداً وتأثرت بها ، تمخضت ديناميتها عن وضع بعض من أسمى مشروعات تخطيط الأحياء السكنية التى ازدهرت بها فخراً أية مدينة إلى ذلك الحين . وفى مدن مثل باث ، اتسع هذا النظام الجديد فامتد حتّى إلى أدنى أحياء الطبقة المتوسطة : والواقع أن جانباً كبيراً من المبانى الأنيقة الجديدة فى القرن الثامن عشر ، فى لندن وباث وأدنبرة ، وفى مدن أقل منها شأناً ، كانت من المبانى التى أنشئت لأغراض استغلالية ، ولو أن بعضاً من أفضلها – مثل مبانى شرفة أدلفى (Adelphi Terrace) التى أنشأها آدامز فى لندن ، والمبانى التى أنشأها بولفنش (Bullfinch) على شرفة مماثلة فى بوسطون – كانت فى مبدأ الأمر فاشلة من الوجهة التجارية .

ولسوء الحظ أن جميع الوظائف الحضرية الأصلية ، لم يعد لها مكان بارز فى المدينة التجارية ، فإن المنظمات القديمة حشرت فى الفُرَج التى خلفتها مشروعات الأعمال التجارية ، أو أرغمت على اتباع الطرق والأساليب التى فطرت عليها تلك المشروعات ، بتحويل بضاعتها التقليدية إلى مناضد مجردة ، وبالانفاق فى سبيل الدعاية والإعلان والمظاهر الاستعراضية والانتصارات العددية (من حيث الحضور والتسجيل والتبرعات والدخل) ما كان ينفق أصلا فى سبيل الأغراض التربوية والثقافية التى تشير إليها هذه النتائج الثانوية على وجه غير شاف : والمصير النهائى

للمدينة التجارية فى وقتنا الحاضر ، هو أن تغدو بمثابة ستار خلفى للإعلان »
وهو مصير يرمز إليه على خير ما تم حديثا من تحويل محطتين من
محطات الطرق الحديدية فى نيويورك من منشأتين عامتين رائعتين إلى ردهتى
عرض لأغراض تجارية ، من شأن ما فيها من تألق زائف أن يجعل
ما بين الوضعين القديم والجديد من تناقض يسبغ جلالا يكاد يكون ملكيا
على الماليين الذين وضعوا أصلا مشروع هاتين المحطتين مدفوعين بقدر
من الشعور بالواجب نحو الصالح العام ؟

الفصل الخامس عشر

جنة الوسائل التقنية العتيقة
مدينة فحم الكوك

١ — نشأة مدينة الفحم الكوك

إلى أن أقبل القرن التاسع عشر كان يوجد قدر من التوازن بين وجوه النشاط فى داخل المدينة . وعلى الرغم من أنه كانت للعمل والتجارة مكانة هامة على الدوام ، فإن الدين والفن واللهو كانت تقتضى نصيبها كاملا من نشاط ساكن المدينة . بيد أنه منذ القرن السادس عشر ، كان الميل يزداد باطراد نحو تركيز الجهود على ألوان النشاط الاقتصادى ، ونحو اعتبار ما يبذل فى سبيل الوظائف الأخرى — على الأقل خارج المنزل — بمثابة مضيعة للوقت أو الجهد . وإذا كانت الرأسمالية قد اتجهت نحو توسيع مدى نطاق ساحة السوق ، وتحويل كل جزء من المدينة إلى سلعة قابلة للتداول ، فإن التغيير من الصناعة اليدوية الحضرية المنظمة إلى الإنتاج المصنعى على نطاق واسع ، قد حول المدن الصناعة إلى خلايا داكنة لاتنفك تلهث وتدمدم وتزمجر وتنفث الدخان لمدة اثنتى عشرة أو أربع عشرة ساعة فى اليوم ، وأحيانا طوال الليل والنهار دون انقطاع ، والنظام الصارم المعتاد للعمل فى المناجم — وكان العمل فيها عقابا مقصوراً على المجرمين — أصبح القاعدة العادية للعامل الصناعى الجديد . وما من مدينة من هذه المدن اكترثت بالقول القديم المأثور : « مداومة العمل تصيب العقل بالكلل » ، فإن مدينة الفحم الكوك تخصصت فى إنجاب أصحاب العقول الكليلة .

وينهض دليلا على إنتاج المكنات الهائل ، أن أكداس الخبث وأكوام القمامة كانت تبلغ حجم الجبال ، على حين أن المخلوقات البشرية ، التى كملت جهودها تحقيق تلك الأعمال ، كانت تصاب بالعاهات وتلقى الموت — على وجه يكاد يماثل فى سرعته ما كانت تلقاه لو أنها كانت فى ساحة قتال . ولقد كان لدى المدينة الصناعية دروس كثيرة تلقنها للناس ، ولكن درسها الرئيسى الذى تلقنه الباحث فى شئون المدن هو معرفة ما يجب تفاديه . وبفضل رد الفعل الذى نجم عن أخطاء النظام الصناعى ، استطاع الفنانون والمصلحون فى القرن التاسع عشر أن يصلوا فى النهاية إلى فكرة أفضل تكوينا عن الحاجات الإنسانية والإمكانيات الحضرية . وفى خاتمة المطاف ، نبهت العلة الأجسام المضادة اللازمة للتغلب عليها .

وكانت العوامل التى تولدت منها المدينة الجديدة ، هى المنجم والمصنع والطريق الحديدى ، ولكن نجاح هذه العوامل فى الحلول مكان كل فكرة تقليدية عن المدينة يرجع إلى أن التضامن بين الطبقات العليا كان فى طريقه إلى التصدع بشكل واضح ، فقد أخذ الشعور يتزايد بأن الحاجة لاتدعو إلى وجود البلاط ، وحتى المضاربة الرأسمالية تحولت من التجارة إلى الاستغلال الصناعى ، لتحقيق أقصى ما يمكن من التوسع المالى . وفى كل ناحية حل مكان المبادئ القديمة للتربية الأرستقراطية والثقافة الريفية ، انصراف تام إلى السلطة الصناعية والنجاح المالى ، وهو ما يستخفى أحيانا فى زى الديمقراطية .

والحلم الباروكى بالسلطة والترف كانت له على الأقل مظاهر إنسانية ، وغايات بشرية . فألوان المتعة المحسوسة فى الصيد ، ومائدة الطعام ، والفراش ، كانت على الدوام تلوح أمام العين بمغرياتها . وأما الفكرة الجديدة عن مصير الإنسان ، على نحو ما صورها طلاب الفائدة العملية ، فإنها لم تفسح إلا مجالا ضيقاً حتى لأسباب المتعة الحسية ؛ إذ كانت

دعامتها مذهبا يقوم على الكد المنتج ، والجشع المضنى ، وإنكار الاحتياجات البدنية ، واتخذ ذلك شكل انتقاص شامل من شأن مسرات الحياة ، على غرار ما كانت تستلزمه حالة الحرب فى أثناء وقوع حصار ، ولقد عمد السادة الجدد للمجتمع إلى الانصراف باحتقار عن الماضى وكل ذخائر التاريخ ، ووضعوا نصب أعينهم بناء مستقبل كان مصيره ، طبقا لنظريتهم الخاصة عن التقدم ، أن يغدو كذلك موجبا للاحتقار ، عندما يصبح أيضاً فى عداد الماضى – وأن يغدو كذلك موجبا للنبذ والإهدار بلا هوادة .

ونجد أن حالة الهدم والاضطراب ، التى غشيت المدن الكبرى فيما بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٩٠٠ ، تشبه الحالة التى تسود ساحة الحرب ، وكانت هذه الحالة تتناسب مع ما توافر للمدن من معدات وللقوى المستخدمة من قدرة ؛ وفى جميع النواحى الجديدة المتعلقة بحركة الإنشاء فى المدينة يجب ألا يغيب عن البال أرباب المصارف ورجال الصناعة ومبتكرو الآلات ؛ فقد كانوا مسئولين عن أغلب ما كان صالحا ، وعما كان سيئاً بأجمعه تقريبا . وقد أنشأوا – طبقا لتصورهم – مدينة من طراز جديد ، وهى التى أطلق عليها « ديكنز » اسم مدينة الفحم الكوك (Coketown) فى قصته « أوقات عصيبة » (Hard Times) : وقد اتسمت كل مدينة فى العالم الغربى – إلى مدى متفاوت – بطابع الصفات الأصيلة المميزة لمدينة الفحم الكوك . وحركة التصنيع ، بوصفها القوة الخلاقة الرئيسية فى القرن التاسع عشر ، تمخض عنها أسوأ ما شهده العالم إلى ذلك الحين من حالات انحطاط البيئة الحضرية ؛ إذ أنه حتى أحياء الطبقات الحاكمة كانت معيبة ومفرطة فى ازدحامها ؟

وكان الأساس السياسى لهذا الطراز الجديد من التجمع الحضرى يرتكز على ثلاث دعامات رئيسية وهى : أولا إلغاء النقابات وإشاعة

جو مستديم من عدم الاطمئنان تعيش فيه الطبقات العاملة ، وثانياً إقامة سوق مفتوحة أمام المنافسة فى العمل وفى بيع السلع ، وثالثاً الاحتفاظ ببلاد أجنبية تحت سيطرة الدولة لتكون موردا للمواد الخام اللازمة للصناعات الجديدة ، وسوقا مستعدة لامتصاص فائض إنتاج الصناعة المجهزة بالمعدات الميكانيكية . أما الأسس الاقتصادية فكانت تقوم على استغلال مناجم الفحم ، والزيادة الهائلة فى إنتاج الحديد ، واستخدام مصدر ثابت للقوة الميكانيكية يمكن الاعتماد عليه — وإن كان على قدر كبير من عدم الكفاية — وهو الآلة البخارية .

وفى واقع الأمر ، كانت هذه الوجوه للتقدم التقنى تعتمد من الناحية الاجتماعية على ابتكار أوضاع جديدة للتنظيم والإدارة الجماعيين ؛ فالشركة المساهمة ، والاستثمار المحدود المسئولية ، وإسناد السلطة الإدارية فى الشركات المساهمة إلى أعضاء يندبون من مجالسها لمباشرة أمورها ، والرقابة عن طريق الميزانية والحساب الختامى ، هذه الشئون جميعاً أساليب فنية تعاونية لا يعزى الفضل فى نجاحها إلى عبقرية أى فرد معين أو جماعة من الأفراد . وهذا ينطبق أيضاً على التنظيم الآلى للمصانع ، وهو ما كان سببا فى زيادة الكفاية فى الإنتاج زيادة عظيمة ، ولكنه وفقاً لأيديولوجية ذلك العصر ، كان الناس يعتقدون أن أساس هذا النظام هو تلك الذرة البشرية : الفرد . وكانوا يرون أن كل واجب الحكومة هو أن تحرس ممتلكاته ، وتحمى حقوقه ، وتؤمن حريته فى الاختيار وحريته فيما يقدم عليه من الأعمال .

وهذا الزعم الخرافى بأن الفرد مطلق من كل قيد ، كان فى الواقع بمثابة خلع طابع ديمقراطى على الفكرة الباروكية عن الأمير المطلق التصرف ، فقد أخذ كل رجل مقدام يحاول الآن أن يكون مطلق التصرف فى نطاقه الخاص ، فوُجد مستبدون عاطفيون مثل الشعراء

الخياليين ، ومستبدون عمليون مثل رجال الأعمال : ومع ذلك فإنه كانت لآدم سميث نظرية جامعة عن المجتمع السياسى فى مؤلفه « ثروة الأمم » ، ولقد كان سديد الرأى فيما يتعلق بالأساس الاقتصادى للمدينة ، وسليم الإدراك فيما يتعلق بالوظائف الاقتصادية التى لا يعود من ورائها نفع ، ولكن عند التطبيق غلبته الرغبة الجامحة فى زيادة ثروة الأفراد ، فقد كانت هى الكل فى الكل فى مذهب مالثوس (Malthus)[1] الجديد عن الصراع من أجل البقاء .

ولعل أضخم حقيقة فى جميع أدوار الانتقال الحضرى كان ما حدث فى شتى أنحاء الأرض من تنقل السكان ، وذلك لأنه اقترنت بهذا الانتقال والاستقرار من جديد حقيقة أخرى جسيمة الشأن ، وهى الارتفاع المدهش معدل زيادة السكان . ولقد كان لهذه الزيادة من الأثر فى بلاد كالروسيا ، متخلفة صناعياً والأغلبية الساحقة من سكانها ريفيون ، ومعدل المواليد والوفيات مرتفع ، مثل أثرها فى بلاد متقدمة وصبغتها الغالبة التجهيز بالمعدات الميكانيكية والتجرد من الطابع الريفى . ولقد صحب الزيادة العامة فى عدد السكان اجتذاب الفائض منهم إلى المدن ، واتساع هائل فى مساحة المدن الكبرى . فقد سار ازدياد العمران الحضرى بمعدل يتناسب تناسباً يكاد يكون مستمراً مع سير حركة التصنيع ، ففى إنجلترا وولايات نيو إنجلند بأمريكا انتهت الحال بأن أصبح ما يزيد على ثمانين فى المائة من مجموع السكان يعيشون فى مدينة يربو عدد سكانها على خمسة وعشرين ألفاً .

ولقد فاضت سيول المهاجرين ، من البلاد التى كانت تعانى الاضطهاد السياسى والفقر الاقتصادى ، على البلاد التى فتحت أبوابها حديثاً فى أنحاء

---

(١) كان توماس مالثوس (١٧٦٦ – ١٨٣٤) من رجال الاقتصاد الإنجليز .

الأرض ، وكانت أصلا تغشاها معسكرات حربية ، ومراكز تجارية ، وبعثات دينية ، ومستعمرات زراعية صغيرة . وقد اتخذت هذه الهجرات ، أو بعبارة أخرى هذا الاستعمار ، مظهرين ، وهما : فتح آفاق جديدة فى كل من الزراعة والصناعة ؛ وكان من أثر المظهر الأول ملء المناطق التى لم يكن يشغلها من السكان إلا عدد قليل متناثر بين جنباتها ، وذلك فى أمريكا وأفريقيا واستراليا وسيبيريا وبعدها فى منشوريا ، وأما المظهر الثانى فإنه أتى بفائض السكان إلى القرى والمدن الصناعية الجديدة . وفى أغلب الحالات حققت المظهرين موجات متتابعة من المهاجرين .

والهجرة إلى أقاليم فسيحة الأرجاء ، ساعدت بدورها على أن تدخل نظام الزراعة فى أوروبا موارد أجزاء من العالم لم تكن قد استثمرت حتى ذلك الحين ، وبخاصة مجموعة كاملة من المحصولات الجديدة الباعثة على النشاط ، الذرة والبطاطس ونبات التبغ ، ذلك العامل الحريف من عوامل الترويح عن النفس والمجاملة الاجتماعية . وفضلا عن ذلك فإن استعمار الأراضى الاستوائية والأراضى الواقعة دون خط الاستواء أضاف محصولا منشطاً آخر أخذت أوروبا الآن تتزود به لأول مرة على نطاق واسع ؛ وهو سكر القصب .

ولقد كانت هذه الزيادة العظيمة فى المواد الغذائية هى التى جعلت زيادة عدد السكان أمراً ميسوراً ، ومن ثم فإن الاستعمار الخارجى فى مناطق ريفية جديدة ساعد على إيجاد العدد الفائض من الرجال والنساء والأطفال الذين اتجهوا نحو الاستعمار الداخلى للمدن الصناعية والمراكز التجارية الجديدة . فاتسعت القرى حتى غدت مدناً ، وأصبحت المدن حواضر ، وتضاعف عدد المراكز الحضرية ، كما ازداد أيضاً عدد المدن التى يربو عدد سكانها على خمسمائة ألف نسمة . وحدثت تغييرات خارقة للعادة فى مقاييس كتل المبانى والمساحات التى تشغلها ، وأصبحت تقام مبان

ضخمة بين عشية وضحاها تقريباً . وكان الناس يبنون على عجل فلا يكادون يجدون وقتاً للندم على أخطائهم قبل القيام بهدم منشآتهم الأصلية وإعادة البناء على نفس الغرار من عدم الاكتراث . ولما لم يكن فى وسع الوافدين الجدد ، سواء من الأطفال أم المهاجرين ، الانتظار لحين إنشاء مساكن جديدة ، فإنهم كانوا يحشرون فيما كان موجوداً مهما يكن شأنه . وقد كانت تلك الفترة فترة ارتجال حضرى هائل تراكمت فيها على عجل تدابير وقتية فوق تدابير وقتية .

ولنلق بالنا إلى أن النمو السريع للمدن لم يكن مجرد ظاهرة من ظواهر العالم الجديد ؛ ففى الحقيقة كان معدل نمو المدينة أشد سرعة فى ألمانيا بعد سنة ١٨٧٠ – عندما كانت الثورة على الأساليب التقنية العتيقة فى أوجها هناك – منه فى بلاد حديثة مثل الولايات المتحدة ، وهذا على الرغم من أن الولايات المتحدة كانت إذ ذاك تتلقى سيلا متواصلا من المهاجرين . ومع أن القرن التاسع عشر كان أول عهد نافس أوائل العصور الوسطى من حيث استعمار الأرض على نطاق واسع ، وإقامة مراكز استقرار على نطاق واسع ، فإن الآراء التى اتبعت فى تنفيذ هذه المشروعات كانت بدائية إلى حد أبعد بمراحل مما اتبع فى القرن الحادى عشر . ولم تعد القاعدة المتبعة أن تقوم بالاستعمار جماعات منظمة – اللهم إلا فى حالة طوائف صغيرة ذات أهداف مثالية كان أوفرها حظاً من النجاح الواسع طائفة المورمون (Mormons)[1] – فكان كل فرد يسعى وراء صالحه ، وإذا لم يكن الشيطان فى مؤخرة الصفوف فإنه على الأقل احتفظ لنفسه بحق بناء المدن .

وقد لاحت هنا فى المراكز الصناعية الجديدة فرصة للبناء على أسس

---

(١) إحدى الطوائف المسيحية فى الولايات المتحدة وتعتبر ولاية يوطه (Utah) أكبر مراكزها .

وطيدة والشروع فى بداية جديدة ، وكانت فرصة تماثل تلك التى اقتنصتها الديمقراطية فى مجال الحكم السياسى فى القرن التاسع عشر . ولقد أسئ استخدام هذه الفرصة فى كل مكان تقريباً ؛ ففى عصر تقدم تقنى كانت المدينة ، بوصفها وحدة اجتماعية وسياسية ، تقع خارج نطاق دائرة الابتكار . وفيما عدا ما يتعلق بالمرافق ، مثل أنابيب الغاز والمياه والمعدات الصحية التى كثيراً ما تأخر إدخالها ، وكثيراً ما كانت فى حالة مزرية وكانت على الدوام سيئة التوزيع ، فإنه لم يكن فى وسع المدينة الصناعية أن تدعى أى لون من التحسينات الهامة تمتاز به عن مدينة القرن السابع عشر . والواقع أن أوفر الحواضر ثراء و « تقدماً » كثيراً ما كانت تنكر على نفسها الضروريات الأولية للحياة مثل النور والهواء التى كانت حتى القرى المتأخرة لا تزال تنعم بها . وإلى سنة ١٨٣٨ لم تكن مانشستر ولا برمنجهام تمارس حقها السياسى كمدينة تتمتع بالحقوق البلدية ، فكانت هاتان المدينتان عبارة عن كتل بشرية ومستودعات للآلات وليستا من عوامل التعاون الاجتماعى للنهوض بمستوى الحياة :

٢ — التجهيز بالمعدات الميكانيكية والنضوب

قبل أن نبحث كيف وجد هذا السيل العظيم من الناس مساكن حضرية ، فلنفحص الفروض والاتجاهات التى أقبل بها أولئك الناس على المهمة الجديدة ، مهمة بناء المدينة .

كانت الفلسفة الرئيسية فى الحياة وليدة نوعين من التجارب مختلفين كل الاختلاف ، كان أحدهما عبارة عن المفهوم الدقيق للنظام الرياضى ، وهو مفهوم مستمد من تجدد دراسة حركات الأجرام السماوية ، التى تعتبر أسمى نموذج للحركة الميكانيكية المنتظمة . وأما النوع الآخر فكان عبارة عن تلك العملية الفيسيائية ، عملية التفتيت والسحق والتكلس والصهر ،

التى كان الكيميائيون – بمعاونة الوسائل الآلية المتقدمة لدى عمال المناجم فى العصور الوسطى – قد حولوها من مجرد عملية آلية إلى جزء من النظام المألوف فى نطاق البحث العلمى . وهذا النظام الجديد – وفقاً للشكل الذى صاغه فيه الفلاسفة الجدد – لم يكن فيه مجال للكائنات أو الطوائف الاجتماعية ، ولا لشخصية الإنسان من باب أولى . وليس فى نماذج المنظمات ولا الأشكال الجمالية ، ولا فى التاريخ أو الأساطير ، ما هو مستمد من التحليل الخارجى لـ « عالم الطبيعة » . والمكنة وحدها هى التى كان من الممكن أن يتمثل فيها هذا النظام ، ورأس المال الصناعى وحده هو الذى كان يفخر بأن له وضعاً جماعياً .

وإننا ما زلنا ، حتى فى هذا الوقت المتأخر ، غارقين فيما تخلف من لجج المعتقدات عن الوسائل التقنية العتيقة ، إلى حد أننا لا ندرك الإدراك الكافى ما فيها من شذوذ بعيد . وقليل منا يقدرون حق التقدير ما كان للمنجم من أثر هدام فى كل ناحية من نواحى النشاط ، بتعزيز ما هو مناف للحياة ونظامها . فقبل القرن التاسع عشر لم يكن للمنجم ، من حيث الكم ، إلا دور ثانوى فى حياة الإنسان الصناعية ، وعند منتصف القرن كان قد تغلغل فى كل جزء منها . وكان انتشار التعدين مصحوباً بانهيار عام للأوضاع فى جميع أنحاء المجتمع – فقد اقترن به تشويه صفحة الأرض ، وما لا يقل عن ذلك قسوة من إشاعة الخلل فى البيئة الاجتماعية .

وتهيئ الزراعة توازناً بين الطبيعة الجامحة وحاجة الإنسان الاجتماعية ؛ فهى من ناحية ترد إلى الأرض ، عامدة ، ما يسلبه الإنسان إياها . ومن ناحية أخرى نجد أن الحقل المحروث ، وحديقة الفاكهة المقلمة ، وبستان الكروم المنسق ، والبقول ، والحبوب ، والأزهار ، كلها أمثلة للغاية المنظمة ، والنمو المرتب ، والوضع الجميل . وأما التعدين فإنه عملية هدامة ، كما أن ما ينتج مباشرة من المنجم ليس منظماً ولا عضوياً ، وما يؤخذ

مرة من المحجر أو من فوهة المنجم لا يمكن تعويضه . وأضف إلى هذا حقيقة أخرى وهى أن الاستمرار فى ممارسة الزراعة يؤدى إلى ازدياد وجوه التحسين فى صفحة الأرض وتكييفها على نحو أكثر انسجاما مع حاجات الإنسان ، على حين أن المناجم تنتقل عادة من الوفرة إلى النضوب ، ومن النضوب إلى تركها وهجرها ، وكثيراً ما يتم ذلك فى خلال بضعة أجيال . وعلى ذلك فإن المناجم تمثل ذات صورة الإنسان فى عدم دوامه على حال واحدة ، فهو اليوم بين ظهرانينا ، وغداً مرتحل عنا ، وهو حيناً منتفخ الأوداج بالأرباح ، وحيناً فارغ خالى الوفاض .

ومنذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، أدت الطرق الحديدية إلى تعميم بيئة المنجم التى كانت يوما ما مقصورة على موقعه الأصلى ، فحيثما امتدت القضبان الحديدية ، مضى معها المنجم وأنقاضه ، وعلى حين أن قنوات مرحلة الأساليب التقنية المبكرة — بأحواضها لمرور السفن وقناطرها ودور جباية المكوس وكذلك بضفافها المهذبة وصنادلها المنزلقة على صفحة الماء — أدخلت على المنظر الريفى عنصرا جديداً من عناصر الجمال ، فإن الطرق الحديدية فى مرحلة الوسائل التقنيـــة العتيقة أحدثت شجات جسيمة ، والشطر الأكبر من الفتحات والجسور بقيت زمنا طويلا دون أن تزرع ، كما أن الجروح التى أصابت الأرض لم تندمل . وفى ركاب القطارات البخارية المسرعة جاءت الجلبة والدخان والحصباء إلى قلب المدن ، وتدنس أكثر من موقع حضرى ممتاز مثل حدائق الأمير (Prince's gardens) فى أدنبرة ، من جراء غزو الطرق الحديدية . هذا إلى أن المصانع التى قامت على امتداد الطرق الحديدية الفرعية كانت مرآة تعكس صورة البيئة القذرة للطرق الحديدية ذاتها . وإذا كانت مدينة التعدين هى التى تبدت فيها خصائص عملية استخراج الخامات أو النضوب Abbau فى أجلى صورة ،

فإنه قد كان عن طريق السكك الحديدية ما حدث من أنه عند حلول الربع الثالث من القرن التاسع عشر كانت هذه العملية قد امتدت إلى كل بيئة صناعية تقريبا .

وعملية النضوب – كما أبدى وليم مورتون هويلر – ليست مجهولة فى عالم الكائنات الحية ، فى أثناء النضوب يفقد كائن حىّ من الكائنات الأسمى مرتبة طابعه المعقد فينشأ عن ذلك انحدار تطوره إلى مستوى كائنات أكثر بساطة وأقل دقة فى اكتمالها . وقد لاحظ هويلر أنه « يوجد تطور عن طريق الضمور ، وكذلك عن طريق زيادة التعقيد ، وقد تكون العمليتان ماضيتين فى طريقهما فى وقت واحد وبسرعتين متفاوتتين فى نفس الكائن الحى » :

وإن هذا لينطبق تماما على حالة المجتمع فى القرن التاسع عشر ، ولقد ظهر ذلك بوضوح فى تنظيم المجتمعات الحضرية ، فقد كانت تجرى عملية بناءة ، مصحوبة بمزيد من التخصيص والاندماج وتهيئة الوضع من الناحية الاجتماعية ، لكى تتلاءم الأجزاء المنفردة من حيث صلتها بالمجموع ، إذ كان يجرى فى داخل المصنع – وفى الواقع فى داخل النظام الاقتصادى بأكمله – ترابط فى داخل بيئة آخذة فى الاتساع باطراد ، فقد أخذت تتكون فى جميع أنحاء الأرض مؤسسات لبيع الأغذية ومؤسسات للإنتاج متعددة الفروع ومعقدة التركيب ، فكانت المثلوجات تسافر من بوسطون إلى كلكتا ، والشاى يرحل من الصين إلى إيرلندة ، على حين أن الآلات والمصنوعات القطنية والأدوات القاطعة المصنوعة فى برمنجهام وما نشستر كانت تشق طريقها إلى أقصى أركان الأرض ، كما أن قيام خدمة بريدية عالمية ، والنقل الآلى السريع ، والاتصالات التى تكاد تتم لساعتها عن طريق الأسلاك البرقية البرية والبحرية ، أدى إلى تزامن جهود جماهير كبيرة من الناس كانوا إلى ذلك الحين يفتقرون إلى أبسط الوسائل الأولية

لتنسيق الأعمال الموكولة إليهم . وكان هذا مقرونا باطراد التخصص فى الصناعات والحرف والمنظمات والرابطات ، وكانت غالبيتها هيئات تدير شئونها بذاتها ، ومكونة طبقا لأحكام القانون . وقد استخفى هذا التطور الهام فى حياة المجتمع وراء بدع نظرية الفردية الذرية ، ولذلك قلما تولد عنه بنيان حضرى .

بيد أنه فى الوقت بعينه كان هناك « Abbau » أو نضوب بأخذ مجراه ، وكثيراً ماكان يحدث ذلك بمزيد من السرعة فى نواح أخرى من البيئة ، فقد كانت أشجار الغابات تجتث ، وتربة الأرض تنسف ، وفصائل من الحيوان تباد عن آخرها تقريبا ، مثل كلب الماء والثور البرى والحمام البرى ، على حين أن الفناء كان يلاحق الحيتان بشكل خطير سواء أكان يصاد منها لزيوتها أم لعظامها . وإزاء ذلك كله اختل توازن الكائنات الحية من حيث علاقاتها ببيئتها ، وعلى أثر قيام الرجل الغربى باستغلال الطبيعة بلا هوادة من أجل نظامه الاقتصادى الهادف إلى الربح ، ذلك النظام الموقت المحدود الأثر من الناحية الاجتماعية – على أثر ذلك ظهر نظام بيولوجى أدنى مستوى وأكثر بساطة ، كان يتميز أحيانا بالإبادة الشاملة لأوضاع الحياة السائدة .

وفوق كل شىء – كما سنرى – حدث هذا النضوب فى البيئة الحضرية .

٣ – مسلمات النفعية

حيثما وجد أى تنظيم سياسى واع لحركة نمو المدن وتطورها فى خلال فترة استخدام الوسائل التقنية العتيقة ، كان ذلك التنظيم يتم وفقا لمسلمات النفعية . وكان حجر الأساس فى هذه المسلمات ، فكرة أخذها النفعيون فى سذاجة واضحة من فقهاء الدين ، وهى الاعتقاد بأن العناية الآلهية تسيطر على النشاط الاقتصادى ، وما دام الإنسان لا يجترئ على التدخل

فإنها تكفل تحقيق أقصى درجات الخير للجميع ، وذلك عن طريق الجهود الموزعة غير المنظمة التى يبذلها كل فرد على حدة يسعى وراء صالحه ، وقد كان الاسم المجرد عن الصبغة الدينية لهذا التناسق الذى قضى به القدر هو حرية العمل .

ولفهم ما كان يغشى المدينة الصناعية من سوء نظام كريه ، يجب أن يعمد المرء إلى تحليل التصورات الميتافيزيقية القبلية الغربية التى كانت تسيطر فى آن واحد على الحياة العلمية والحياة العملية معا ، فقد كانت عبارة « بدون تدبير » تستعمل للمديح فى عصر الملكة فيكتوريا . وكما حدث فى عهد تدهور بلاد الإغريق ، « رُفع الحظ » إلى مرتبة إله افترض الناس أنه كان لا يتحكم فى مصير الإنسان فحسب ، بل فى جميع عمليات الطبيعة أيضا . ولقد كتب العالم البيولوجى ارنست هايكل (Ernst Haeckel) فقال : « إن خلاصة نظرية داروين هى هذه الفكرة البسيطة : أن الصراع من أجل البقاء فى الطبيعة ينشئ أنواعا جديدة بدون تدبير ، على نحو ما ينتج الإنسان ضروبا جديدة فى الزراعة عن طرق التدبير . » وإن رجل الصناعة وموظف البلدية باتباعهما ما افترضا أنه أسلوب الطبيعة ، أنتجا النوع الجديد من المدن ، وهو لم يكن إلا حشداً من الناس عصف بهم ، وحولت صفاتهم الطبيعية ، وهُيئوا للتلاؤم لا مع حاجات الحياة بل مع الصراع الخرافى من أجل البقاء . وقد شهدت هذه البيئة ، بذات ما فيها من تدهور ، على مدى ما انطوى عليه ذلك الصراع من شدة وقسوة لا تعرف الرحمة ، ولم يكن هناك مجال للتخطيط فى إنشاء هذه المدن ، فالفوضى لا تحتاج إلى تخطيط :

والتبرير التاريخى لانتهاج سياسة حرية العمل لا يحتاج الآن إلى إيضاح ، فقد كان ذلك عبارة عن محاولة للفكاك من شبكة الامتيازات والإعفاءات والأنظمة الآسنة التى كانت الدولة المطلقة التصرف قد فرضتها على البناء

الاقتصادى المتداعى والخلق الاجتماعى المتدهور فى مدينة العصور الوسطى ، ولقد كان لدى أصحاب المشروعات الجديدة أسباب وجيهة تدعوهم إلى عدم الثقة بروح الشعور بالواجب لدى بلاط فاسد لاذمة له ولا ضمير ، ولا بالكفاية الاجتماعية لمكاتب الحكومة المعطلة للأعمال ، والمؤلفة من موظفى الضرائب الآخذين فى التكاثر . ومن ثم فإن النفعيين كانوا يسعون وراء تخفيض نشاط الحكومة إلى أدنى حد ، إذ كانوا يرغبون فى أن تكون أيديهم مطلقة فى استثمار أموالهم ، وفى إقامة الصناعات ، وفى شراء الأرض ، وفى استخدام العمال وطردهم ، ولسوء الحظ أن التناسق الذى قضى به القدر فى النظام الاقتصادى ، تبين أنه خرافة ، وأن النضال على السلطة ظل نضالا وضيعا ، وأن التنافس الفردى من أجل المزيد من الأرباح باطراد أدى بأوفرهم حظا من النجاح إلى أن يسلكوا سبيلا معوجا ، وهو سبيل الاحتكار على حساب الصالح العام ، ومع ذلك فإنه لم يظهر للتدبير وجود .

ومن الناحية العملية ، كان يوجد تناقض بين المساواة السياسية التى أدخلت رويدا رويدا على أنظمة الحكم فى الغرب منذ سنة ١٧٨٩ ، وبين حرية المبادأة التى كان أرباب الصناعة يطالبون بها . فلتحقيق الحرية السياسية والحرية الشخصية ، كان لا بد من فرض قيود اقتصادية قوية ووضع ضوابط سياسية ، ففى البلاد التى نمت فيها تجربة المساواة دون محاولة القيام سنويا بتصحيح آثار قانون الإيجار ، كانت النتيجة مناقضة للغرض الأصلى . وفى الولايات المتحدة مثلا ، نجد أن منح الأرض لمن استقر بهم المقام فى مساحات تبلغ ١٦٠ فدانا ، طبقا لقانون المزارع ، لم يؤد إلى وضع أساس لنظام حر للحكم ؛ ففى خلال جيل واحد أدى تفاوت خواص الأرض ، وتفاوت مواهب المنتفعين بها إلى ضروب خطيرة من التفاوت الاجتماعى . وبدون المثابرة بانتظام على إزالة عوامل التفاوت الأساسية التى

نشأت عن احتكار الأفراد ملكية الأرض ، ووراثة الثروات الكبيرة ، واحتكار امتيازات الاختراعات ، فإن النتيجة الوحيدة لسياسة حرية العمل كانت إضافة طبقة جديدة إلى الطبقات القديمة الممتازة :

والحرية التي كان النفعيون ينشدونها كانت في الحقيقة حرية الحصول على أرباح غير مقيدة ، وعلى الاستزادة من النفوذ والمكانة الشخصية : فكان يتعين ألا تقف الأرباح وقيمة الإيجار إلا عند حدود ما تطيقه حركة التجارة ، وأما القيمة اللائقة المعتادة للإيجار والسعر العادل فكان أمرهما خارجاً عن نطاق التفكير . ولقد لاحظ تونسند (Townsend) فى تعليقه على التشريعات الإنجليزية الخاصة بالفقراء ، أنه ما من شيء سوى الجوع والبؤس والفاقة كان يتسنى له أن يستحث الطبقات الوضيعة على الرضا بأهوال البحر وميادين القتال ، وما سوى هذه الحوافز بعينها كان من شأنه أن « يوخزها ويهمزها » للإقبال على العمل فى المصانع . ومع ذلك فإن الحكام احتفظوا بجبهة تكاد تكون متماسكة إزاء أى مسألة تمس ثروتهم كطبقة ، ولم يتورعوا عن العمل متكاتفين عندما كان الأمر يتعلق بإخضاع الطبقات العاملة .

بيد أن هذا الاعتقاد اللاهوتى فى التناسق الذى قضى به القدر كانت له نتيجة هامة فى تنظيم المدينة التى استخدمت فيها الوسائل التقنية العتيقة ؛ فقد جعل من الطبيعى توقع إتمام المشروع بأسره على أيدى أفراد بصفتهم الشخصية مع أدنى قدر من التدخل من جانب أجهزة الحكم المحلى أو القومى ، فتعيين مواقع المصانع ، وبناء مساكن العمال ، وحتى إمداد الماء وجمع القمامة ، كان يُقصر القيام بها على أصحاب المشروعات الخاصة الساعين وراء المنفعة الخاصة . فقد كان يفترض أن المنافسة الحرة تؤدى إلى اختيار الموقع الصحيح ، وتوفر التتابع الزمنى الصحيح فى تنفيذ المشروع ، وتنشئ من آلاف الجهود غير المتناسقة ، نمطاً اجتماعيا

متماسكاً ، أو على الأصح ، لم يكن شئ من هذه الاحتياجات يعتبر جديراً بالتقدير المنطقى والتنفيذ الرزين .

فسياسة حرية العمل كانت أكبر أثراً حتى من النظام الاستبدادى فى القضاء على فكرة نظام تعاونى للحكم وخطة عامة مشتركة . ألم يكن الشخص النفعى يتوقع أن النشاط المطلق من كل قيد ، نشاط الصوالح الخاصة المتضاربة على غير هدى ، يتمخض عن نتائج التدبير المنطقى ، وأنه بإطلاق العنان للتنافس المطلق من كل قيد ، كان لا بد من ظهور العقل والنظام التعاونى ؟ والواقع أنه كان يُفترض أن التخطيط المنطقى ، بحيلولته دون ضروب التلاؤم التلقائية ، لم يكن من شأنه سوى التدخل فى أمر التدابير العليا لعناية إلهية اقتصادية :

والنقطة الرئيسية الجديرة بالملاحظة الآن هى أن هذه المعتقدات قوضت أركان ما عساه أن يكون قد ظل باقياً من ساطة البلدية ، وانتقصت من قدر المدينة ذاتها فلم تر أنها أكثر من « ملتقى عرضى للذرات » — على نحو ما كان علماء الطبيعة فى ذلك العصر يصفون العالم خطأ — المتماسكة موقتا بحكم دوافع الأنانية والفائدة الشخصية . وحتى فى القرن الثامن عشر ، قبل قيام الثورة الفرنسية وثورة الفحم والحديد ، كان قد أصبح من البدع الشائعة الزراية بالسلطات البلدية والسخرية من الصوالح المحلية . وفى الدول التى أقيمت حديثا ، وحتى فى تلك التى أقيمت على مبادئ جمهورية ، لم يكن هناك اعتبار فى آمال الناس وأحلامهم ، إلا للشئون ذات الأهمية القومية التى تتولى تنظيمها الأحزاب السياسية .

وكما قال و . ه . ريل (W. H. Riehl) فى لهجة لاذعة ، إن عهد التنور كان عهداً يتلهف الناس فيه على الحنان والشفقة على حين أنهم كانوا لا يكنّون أى حنان أو شفقة نحو ذويهم ، وكانوا يتأملون فى شئون الدولة وينسون شئون المجتمع . « وما من عصر كان أشد فقراً من القرن

الثامن عشر فى نمو روح الشعور بالواجب العام نحو المجتمع ، فإن مجتمع العصور الوسطى كان قد انحل ، والمجتمع الحديث لم يكن قد تكون بعد . . . . وفى الأدب الساخر لذلك العصر ، كان من يريد أن يصور رجلا غبيا ، كان يمثله فى شكل عمدة ، وإن أراد أن يقدم وصفا لاجتماع طائفة من البلهاء ، وصف اجتماعا لأعضاء مجلس المدينة » .

وكان النمو الحضرى قد بدأ فى الحقيقة نتيجة لأسباب صناعية وتجارية ، حتى من قبل أن تبدأ بصورة جدية ثورة استخدام الوسائل التقنية العتيقة . وفى سنة ١٦٨٥ كان يبلغ عدد سكان مانشستر نحو ٦٠٠٠ نسمة ، وفى سنة ١٧٦٠ وصل إلى ما يتراوح بين ٣٠٫٠٠٠ و ٤٥٫٠٠٠ نسمة ، وكان عدد سكان برمنجهام فى التاريخ الأول ٤٫٠٠٠ نسمة ، وفى التاريخ الثانى ٣٠٫٠٠٠ تقريبا ، وعند حلول سنة ١٨٠١ كان سكان مانشستر يبلغون ٧٢٫٢٧٥ نسمة ، وفى سنة ١٨٥١ كانوا قد بلغوا ٣٠٣٫٣٨٢ نسمة . ولكن عندما ساعد تركيز المصانع على نمو المدن ، بلغت الزيادة فى عدد السكان حدًّا طاغيا . ولما كانت تنشأ عن الزيادة فرص غير عادية لجنى الأرباح ، فإنه لم يوجد فى التقاليد السارية فى المجتمع ما يحد من هذا النمو ، وعلى الأصح كان هناك ما يدعو إلى تشجيعه .

٤ – تقنيات التجمع

نشأ أصلا المركز الصناعى المتخصص فى صناعة معينة على هيئة بؤرة ابتعد عن مدينة العصور الوسطى المتمتعة بالحقوق البلدية ، إما بسبب طبيعة الصناعة – كالتعدين وصنع الزجاج – وإما لأن أساليب الاحتكار التى اتبعتها النقابات كانت تحول دون أن تظهر هناك صناعة جديدة مثل الغزل بالمكنات . بيد أنه عند حلول القرن السادس عشر ، كانت الصناعة اليدوية أيضا آخذة فى الانتشار فى الريف ، وبخاصة فى إنجلترا ؛ للإفادة من

الأجر الرخيص للعمل فى الأكواخ الذى لم يكن مشمولا بحماية القانون . ولقد بلغ من اتساع نطاق الأخذ بهذه الوسيلة أنه فى سنة ١٥٥٤ صدر تشريع لمعالجة تدهور حالة المدن المتمتعة بالحقوق البلدية ، وذلك بأنه جعل من المحظور على أى فرد مقيم فى الريف أن يبيع إنتاجه بالتجزئة إلا فى الأسواق :

وعندما أقبل القرن السابع عشر ، أى حتى قبل استخدام المكنات فى صناعة الغزل والنسيج ، كانت الصناعات الإنجليزية الخاصة بالقماش مشتتة فى أرجاء مقاطعتى شروپشير Shropshire وورسسترشير (Worcestershire) كما كان كل من أصحاب الأعمال والعمال متناثرين فى القرى ومدن الأسواق . وبذلك لم تنج هذه الصناعات من أنظمة المدينة فحسب ، بل أيضاً مما كانت النقابات تتقاضاه من مبالغ طائلة بمثابة رسوم التحاق وفروض لأعمال البر . ولما لم يكن هناك معدل للأجور جرت العادة بمراعاته ، ولا ضمان اجتماعى ، فإنه ، كما أوضح آدم سميث ، كان العامل ، وقد جدع الجوع أنفه ، فى خوف من أن يفقد عمله ، وهو يقول : « إذا كنت تود أن ينجز عملك على وجه مقبول ، فلا بد من أن يتم ذلك فى الضواحى ، حيث لم يكن لدى العمال ما يعتمدون عليه سوى سلوكهم وأخلاقهم ، نظراً إلى عدم انفرادهم بامتياز خاص مقصور عليهم ، ولا بد لك بعدها من أن تقوم بتهريب الإنتاج إلى داخل المدينة بأفضل ما فى وسعك من الوسائل » .

وكان ازدياد الإقبال على استخدام قوة الماء فى الإنتاج ، باعثاً على الإقلال إلى مناطق المرتفعات حيث كانت توجد جداول صغيرة سريعة الجريان ، أو أنهار ذات شلالات ، توفر منسوباً عالياً من الماء . ومن ثم فإن صناعة المنسوجات اتجهت نحو الانتشار فى أودية يوركشير ، وفيما بعد على طول مجرى نهرى كونيتيكت ومريماك فى نيو إنجلند . ولما كان عدد

المواقع الصالحة – على مدى أى امتداد – محدوداً فى العادة ، فقد صحب التجهيز بالمعدات الميكانيكية قيام وحدات صناعية كبيرة نسبياً ، ذات مصانع ترتفع إلى أربعة أو خمسة طوابق . وقد كان يسد حاجات الصناعات الجديدة ما اجتمع من رخص قيمة أرض الريف ، وسكان طيعين هدهم الجوع ، ومصدر كاف من القوة المحركة المطردة .

بيد أن الأمر استغرق الشطر الأكبر من مدة قرنين ، من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر ؛ قبل أن تبلغ جميع عوامل التجمع الصناعى درجة متساوية فى مجال التقدم . وأما قبل أن يحدث هذا ، فإن المزايا التجارية للمدينة المتمتعة بالحقوق البلدية كانت توازى المزايا الصناعية لرخص القوة المحركة ورخص الأجور فى قرية المصنع . ولقد ظلت الصناعة إلى القرن التاسع عشر موزعة فى دور صغيرة للتشغيل يتناسب حجمها مع نطاق الزراعة فى منطقتها ، أى فى مراكز مثل سدبرى (Sudbury) ومدن ريفية مثل ورستر (Worcester) فى إنجلترا .

ومن الوجهة الإنسانية ، كان بعض من أسوأ سمات نظام العمل فى المصنع – كساعات العمل الطويلة ، والعمل الممل ، والأجور المنخفضة ، والدأب بانتظام على إساءة استخدام الأحداث فى العمل – قد استقر من قبل إبان التنظيم اللامركزى للإنتاج ومرحلة الأساليب التقنية المبكرة . ولقد بدأ الاستغلال محلياً ، ولم يترتب على استخدام القوة المحركة للمياه ، واستخدام القنوات فى النقل ، إلا تشويه يسير فى صفحة الأرض ، كما أن التعدين وصهر المعادن ، طالما بقيا متناثرين وعلى نطاق صغير ، كانا يحدثان من التشويه ما كانت آثاره تعالج فى يسر وسهولة . وحتى فى الوقت الحاضر فى غابة دين (Dean) بالقرب من نهر سيفرن Severn – حيث يمارس الناس ما جرت به العادات القديمة من استخدام الفحم النباتى فى الوقود ، جنبا إلى جنب مزاولة التعدين على نطاق صغير –

نجد أن قرى التعدين تروق العين أكثر من قرى المناطق الأوفر « دينامية » ، كما نجد أن كلا من المناجم وأكداس الخبث يسهل حجبها بالأشجار أو إزالة آثارها تقريبا بأنواع أخرى من المزروعات . ولقد كان تغيير المعيار ، أو بعبارة أخرى تكديس السكان والصناعات بلا قيد ولا حد ، هو الذى أفضى إلى بعض من أكثر النتائج الحضرية مدعاة للفزع .

ولقد تغير كل هذا باستخدام الآلة البخارية — التى ابتكرها وات (Watt) — بوصفها أداة رئيسية للحركة ، فإنها بوجه خاص غيرت المعيار ، وجعلت من الميسور المضى فى زيادة تركيز كل من الصناعات والعمال إلى حد أشد كثافة بكثير مما كانت عليه الحال ، على حين أنها نقلت العامل نفسه إلى مكان أكثر بعدا عن موطنه الريفى الذى كان يهيئ لساكن الكوخ من حديقته موردأ إضافيا للطعام ومسحة من الاستقلال . ولقد زاد الوقود الجديد من أهمية شأن حقول الفحم ، وشجع على إقامة الصناعة هنالك أو فى الأماكن التى كان يسهل الوصول إليها عن طريق القنوات أو الطرق الحديدية .

ولقد أدى البخار مهمته على أكمل وجه من الكفاية فى الوحدات الكبرى المركزة ، حيث كانت أجزاء الوحدة لا تبعد عن مركز القوة المحركة أكثر من ربع ميل ، فقد كانت كل مكنة للغزل وكل نول يستمد القوة المحركة من الأشرطة والأعمدة التى تديرها الآلة البخارية الرئيسية . وكلما كثر عدد الوحدات فى داخل نطاق مساحة معينة ، كان مصدر القوة أكثر كفاية فى وفائه بالغرض ، ومن ثم ظهر الاتجاه نحو الضخامة ، فالمصانع الكبرى ، كتلك التى أنشئت فى ما نشستر ونيوها مشير منذ عشرينيات القرن الثامن عشر — وأعيدت إقامة مثيلاتها فى نيو بدفورد (New Bedford) وفول ريفر (Fall River) — كان يتسنى لها أن تستخدم أحدث آلات توليد القوى ؛ على حين أن المصانع الصغرى كان يعوقها فقرها فى الوسائل

التقنية ، ولما كان فى استطاعة مصنع واحد أن يستخدم مائتين وخمسين عاملا ، فإن اثنى عشر مصنعا من هذا القبيل مع كل ما يلحق بها من الآلات والخدمات ، كان من شأنها بذاتها أن تتألف منها نواة لمدينة لا يستهان بها .

وعندما حاول المصنعون إنتاج سلع من صنع المكنات بأسعار مخفضة من أجل الاستهلاك فى الأسواق العالمية ، عمدوا إلى إنقاص التكاليف فى كل ناحية لكى تزداد الأرباح . وقد كانت أجور العمال هى أوضح النواحى أمام الأنظار للبدء فيها بهذه العملية ، عملية التقليم . وفى القرن الثامن عشر ، كما لاحظ روبرت أوين ، كان حتى أوفر المصنعين حظا من التنور ، لا يدخرون وسعا فى الانتفاع بتشغيل الأحداث والمعوزين : وعندما وضعت تشريعات لتحديد سن العمال الأحداث ، وتضاءل العدد المعروض ، أصبح من الضرورى طرق أبواب موارد أخرى . فللحصول على العدد الإضافى اللازم من العمال لمواجهة الحاجة الإضافية فى مواسم ازدحام العمل ، كان من المهم للصناعة أن تقوم على مقربة من مركز كبير للسكان ، إذ أنه فى قرية ريفية قد يقع عبء إعانة المتعطلين على عاتق صاحب المصنع ذاته مباشرة ، فإنه كثيراً ما كان هو الذى يملك الأكواخ ، وكان من الجائز أن يفقد ما له من إيجار فى أثناء فترة تعطل المصنع .

وكان جنون الهوس الذى ينتاب سير حركة التعامل فى السوق ويؤدى إلى نوبات من الانطلاق والركود ، هو الذى جعل المركز الحضرى الكبير بالغ الأهمية بالنسبة للصناعة ، إذ أنه بالإفادة عند الحاجة من طبقه دنيا من العمال الفائضين ، الذين لا يستأجرون بانتظام ، تيسر للرأسماليين الجدد تخفيض الأجور ومواجهة أى طلب فجائى فى مجال الإنتاج ، وبعبارة أخرى فإن الحجم حل مكان سوق للعمل منظمة تنظيما كفيا بحيث تراعى فيها

معايير للأجور أقرتها النقابات وتكون لها مراكز رسمية لاستخدام العمال ، فكان التجمع الطوبوغرافى بديلا من اتباع أسلوب فى الإنتاج مشرب بروح إنسانية وتكون أوقات العمل فيه مناسبة ، على غرار ذلك الذى بدأ يظهر فى الوجود فى النصف الأخير من هذا القرن .

وإذا كان المصنع الذى يستمد قوته المحركة من البخار وينتج للسوق العالمية هو العامل الأول فى الاتجاه نحو زيادة نطاق الازدحام الحضرى ، فإن النظام الجديد للنقل بالطرق الحديدية ــ بعد سنة ١٨٣٠ ــ قد شجع على ذلك إلى حد كبير .

وقد كان مصدر القوة المحركة مركزا فى حقول الفحم ، فحيثما كان يتسنى استخراج الفحم أو الحصول عليه عن طريق وسائل رخيصة للنقل ، كان يتيسر للصناعة أن تنتج بانتظام على مدار السنة دون فترات توقف بسبب العجز الموسمى فى مصدر القوة . وقد كان لهذا الانتظام أهمية كبرى فى نظام للعمل يقوم على عقود محددة الأجل والتزامات مالية محددة الأجل كذلك . ولهذا كان للفحم والحديد قوة جاذبة على كثير من الصناعات الفرعية والإضافية ، وكان ذلك عن طريق القنوات أولا ثم عن طريق السكك الحديدية الجديدة بعد سنة ١٨٣٠ . وقد كان الاتصال المباشر بمناطق التعدين شرطا أساسيا للتجمع الحضرى ، وقد كانت ولا تزال السلعة الرئيسية التى تنقلها السكك الحديدية هى الفحم للتدفئة وللقوة المحركة .

وقد عاون نظام النقل بالأساليب التقنية المبكرة ــ الطرق الزراعية والسفن الشراعية والعربات التى تجرها الخيول ــ على تناثر السكان ، فقد كانت توجد فى داخل المنطقة مواقع عديدة متساوية المزايا ، ولكن ضعف قوى القاطرات البخارية نسبيا ــ إذ كانت لا تستطيع أن تصعد بسهولة منحدراً يتجاوز ميله قدمين فى كل مائة قدم ــ أدى إلى الاتجاه نحو تركيز المراكز الصناعية الجديدة حول مواقع الفحم وفى الأودية المتصلة بها ،

ومثل ذلك منطقة ليل (Lille) فى فرنسا ، ومناطق ميرزبرج (Merseburg) والرور فى ألمانيا ، والإقليم الأسود فى إنجلترا ، ومنطقة جبال الليجانى Allegheny والبحيرات الكبرى وسهل الشاطئ الشرقى فى الولايات المتحدة .

فزيادة نمو السكان فى عهد نظام الأساليب التقنية العتيقة ، قد تكشفت عن مظهرين نمطيين : تكتل عام فى مناطق الفحم حيث ازدهرت الصناعات الحديدية الثقيلة ، واستخراج الفحم والحديد ، وصهر المعادن ، وصنع الآلات القاطعة ، والأدوات الحديدية ، والزجاج ، وتكوين الآلات . وفضلا عن ذلك فقد ازدادت كثافة السكان على طول السكك الحديدية الجديدة مع تزايدها تزايداً واضحا فى المراكز الصناعية الواقعة على الخطوط الرئيسية الكبرى ، وتكتل آخر فى المدن الواقعة عند المراكز الكبرى لالتقاء خطوط المواصلات وكذلك فى مراكز التصدير . ولقد اقترن بذلك تضاؤل عدد السكان وخمود وجه النشاط فى المناطق الداخلية من جراء تناقص العمل فى المناجم المحلية والمحاجر وأفران المصانع ، وتناقص استخدام الطرق العامة والقنوات والمصانع الصغيرة ودور الصناعة المحلية .

ولقد شاركت فى هذا النمو معظم العواصم السياسية والتجارية الكبرى القديمة ، وذلك فى البلاد الشمالية على الأقل ، فإنها كانت عادة تقوم فى مواقع استراتيجية من الناحية الجغرافية . فضلا عن أنه كانت لها وسائلها الخاصة فى الاستغلال عن طريق صلاتها الوثيقة برجال السلطة السياسية وعن طريق المصارف والأسواق المالية الرئيسية وهى التى كانت تتحكم فى تدفق أموال الاستثمار . وإلى جانب ذلك كانت لها مزية أخرى من حيث إنها كانت قد جمعت على مدى القرون مورداً ضخماً من التاعسين الذين كانوا يعيشون عيشة الكفاف ، وهو ما كان يسمى تلطفاً مورد العمال . وكون كل عاصمة قومية كبرى تقريباً قد أصبحت بطبيعة وضعها مركزاً صناعياً كبيراً ، كان حافزاً آخر على المضى فى سياسة التوسع والازدحام الحضرى .

٥ — المصنع والطريق الحديدي والمسكن القفير

كانت العناصر الأساسية فى التركيب المعقد للكيان الحضرى الجديد ، هى المصنع والطريق الحديدى والمسكن الفقير ، فقد كانت تؤلف بذاتها المدينة الصناعية ، وهى كلمة كانت لا تدل إلا على أن أكثر من ألفين من الناس اجتمعوا فى منطقة كان يتسنى إطلاق اسم علم عليها . وكان من الميسور أن تتسع — وقد اتسعت فعلا — أمثال هذه التجمعات إلى مائة ضعف دون أن تحرز سوى ظل من الأنظمة التى تتميز بها مدينة ما من حيث اكتمال نضجها اجتماعياً ، أى من حيث إنها مكان يتجمع فيه التراث الاجتماعى ، ويكون من شأن ما يتوافر فى هذا المكان من فرص الاختلاط بين الناس وتأثير بعضهم فى بعض على نحو مستمر أن يحفزهم على بذل قدر أكبر من الجهد فى كل نواحى نشاطهم . وحتى الأجهزة المميزة للمدينة فى العصر الحجرى كانت معدومة فى المدينة الصناعية اللهم إلا إذا استثنينا بعض الرواسب الضامرة .

وقد أصبح المصنع نواة الكائن الحضرى الجديد ، وكان كل جزء تفصيلى آخر فى الحياة ، دونه فى الأهمية . وحتى المرافق ، مثل إمداد الماء ، وأدنى قدر من الإدارات الحكومية التى كان لا بد منها لوجود مدينة ما ، كثيراً ما جاءت فى وقت متأخر كفكرة طارئة بعد الأوان ، إلا إذا كانت قد أنشئت من قبل على يد جيل سابق . ولم يقتصر الأمر على الفن والدين من حيث إن النفعى كان يعتبرهما مجرد وسائل للزينة ، بل إن الإدارة السياسية الرشيدة بقيت زمناً طويلا فى ذات المرتبة ؛ ففى المرحلة الأولى للكفاح من أجل الاستغلال لم تتخذ أى تدابير فى شأن الشرطة أو الوقاية من الحريق أو فحص الماء والطعام أو العلاج فى المستشفيات أو التعليم .

وكان المصنع يدعى الحق عادة فى أفضل المواقع ، وبصفة خاصة المواقع القريبة من شاطىء الماء فى حالة الصناعة القطنية والصناعات

الكيميائية والصناعات الحديدية ، فقد كانت الحاجة تدعو إلى استخدام كميات كبيرة من الماء فى عمليات الإنتاج لتزويد الغلايات البخارية ، وتبريد المسطحات التى تشتد حرارتها ، وعمل المحاليل والأصباغ الكيميائية اللازمة . وفوق كل شيء كانت للأنهار أو القنوات وظيفة أخرى كبيرة الشأن ، وهى أنها كانت أرخص الأمكنة وأيسرها لإفراغ جميع أنواع المخلفات القابلة للذوبان أو للتعلق بالماء . وكان تحويل الأنهار إلى مجار مفتوحة من الأعمال المميزة للنظام الاقتصادى الجديد ، وكانت النتيجة تسميم الأحياء المائية وإفساد الطعام وتلويث الميـــاه إلى حد أنها أصبحت غير صالحة للاستحمام فيها .

ولمدة أجيال كان أعضاء كل مجتمع حضرى « متقدم » مرغمين على احتمال عواقب التصرفات الدنيئة التى كان المصنّع يجدها مريحة له ، فكثيراً ما كان يلقى فى النهر بمنتجاته الثانوية الثمينة لافتقاره إلى المعرفة العلمية أو المهارة التجريبية للإفادة منها . وإذا كان النهر عبارة عن « مقلب » جار ، فإن أكواماً هائلة من الرماد والخبث والقاذورات والحديد الصدىء ، بل حتى القمامة ، كانت تحجب الأفق بما تشتمل عليه من المواد التى أسىء اختيار موضعها ولا يمكن استعمالها . وكانت سرعة الإنتاج تقابلها إلى حد ما سرعة الاستهلاك ، وقبل أن يصبح مثمراً اتباع سياسة احتفاظية بالانتفاع بكسر المعادن ، كانت الأجزاء المشوهة أو التالفة المتبقية فى نهاية الإنتاج يطوح بها ظهرياً فوق أديم الأرض . والواقع أنه فى « الإقليم الأسود » فى إنجلترا ، ما زالت أكداس الخبث الضخمة تبدو كأنها تكوينات جيولوجية ، وكانت سبباً فى إنقاص المساحة التى يمكن استخدامها للسكنى كما كانت سبباً فى إلقاء ظل من الكآبة على الأرض ، فضلا عن أنها كانت إلى عهد حديث تؤلف مشكلة لا سبيل إلى حلها من حيث الانتفاع بها أو إزالتها .

والأدلة التى تدعم هذه الصورة موفورة بكثرة ، والواقع أنها ما زالت

ماثلة أمام الأعين فى أقدم المدن الصناعية عهداً فى العالم الغربى ، على الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت لتنظيف مواقعها . ومع ذلك فليسمح لى بأن أستشهد بشاهد عيان فى وقت مبكر وهو هيو ميللر (Hugh Miller) مؤلف « صخر رملى أحمر قديم » (Old Red Sandstone) وكان رجلا على أتم الوفاق مع عصره ، ولكنه لم يكن مجرداً من الإحساس بالصفات الحقيقية للبيئة الجديدة ، وهو يتحدث عن ما نشستر فى سنة ١٨٦٢ فيقول :

« ما من شىء يبدو أكثر تمثيلا لخصائص المدينة الصناعية الكبرى — وإن كان ذلك على نحو كريه جداً — من نهر إيرويل الذى يخترق المدينة . . وهذا النهر السيئ الحظ — وهو مجرى يتسم ، على بعد بضعة أميال من المدينة ، بقدر كاف من الجمال بفضل ما يطل على ضفتيه من أشجار وما يحف بهما من إطار كثيف من نبات الحلفاء الأخضر اللون — يفقد طابعه عندما يمر بين دور الصناعة والطباعة ؛ إذ أن آلافا مؤلفة من الأشياء القذرة تقدم إليه ليغسلها ، وما يقدر بحمولة عربات بأكملها من سموم دور الصباغة وتبييض الأقمشة تطرح فيه لينقلها بعيداً ، كما أن الغلايات البخارية تفرغ فيه محتوياتها الشديدة الغليان ، وكذلك فإن المجارى والبالوعات تصرف فيه قاذوراتها الكريهة الرائحة ، إلى أن يجرى فى النهاية — هنا بين جدران طويلة مغبرة ، وهناك تحت وهاد من الصخر الرملى الأحمر — وقد أصبح سيلا من السماد السائل أكثر منه نهراً » .

ولنلق بالنا إلى الأثر الذى أحدثه فى البيئة تجميع الصناعات ، وهو ما كان النظام الجديد يميل إلى تعميمه . وقد يكون ميسوراً أن تمتص منطقة ما الأبخرة الكريهة التى تلفظها مدخنة مصنع واحد أو فرن واحد عالى الحرارة ، أو مصنع واحد للأصباغ ، أما وجود عشرين منها فى مساحة ضيقة فإنه يلوث الهواء والماء على نحو يستعصى علاجه . وعلى ذلك فإن الصناعات التى لا سبيل إلى تفادى ما فيها من قذارة أصبحت ، نتيجة للتجمع الحضرى ، أشد خطورة بكثير مما كانت عليه حينما كانت قائمة على

نطاق أصغر وكانت أكثر تناثراً فى أرجاء الريف . وفى الوقت عينه فإن الصناعات النظيفة ، مثل صناعة البطاطين ، وهى التى ما زالت قائمة فى « ويتنى » (Witney) بإنجلترا ، حيث تجرى عمليات التبييض والتكمش فى الهواء الطاق فى وسط ريفى ساحر ، أصبح من المستحيل مزاولتها فى المراكز الجديدة طبقاً للأساليب الريفية القديمة . فهناك حل الكلورين مكان ضوء الشمس ، وبدلا من العمل المستكمل أسباب الصحة فى الهواء الطلق – وهو ما كان فى أحيان كثيرة يقترن غالباً بالطرق القديمة فى الصناعة – مع تغييرات فى المنظر وفى منوال العمل لإنعاش روح العامل ، جاء الكدح الممل فى داخل مبنى قذر تكتنفه مبان أخرى قذرة . ولا يمكن أن تقدر مثل هذه الخسائر بمجرد معايير مالية ، وليست لدينا وسيلة حسابية نقدر بها إلى أى مدى كانت المكاسب فى الإنتاج تلقى ما يوازنها فى التضحية الوحشية بالحياة وبالبيئة الصالحة للمعيشة .

وعلى حين أن المصانع كانت تقام عادة على مقربة من الأنهار أو خطوط السكك الحديدية التى تمتد محاذية الأنهار ، (إلا حيثما كان مستوى سطح الأرض يدعو إلى التشعب) ، فإنه لم تستخدم أى سلطة لتركيز المصانع فى منطقة معينة من أجل عزل أشد الصناعات ضرراً أو أكثرها ضجيجاً – وهى التى ينبغى وضعها فى مكان بعيد عن مساكن الناس – أو من أجل عزل المناطق المجاورة الملائمة وتخصيصها لأغراض السكنى . « فالتنافس الحر » وحده هو الذى كان يتولى تقرير المواقع دون أى تفكير فى إمكان وضع تخطيط وظيفى ، وكذلك ظل الخلط بين الوظائف الصناعية والتجارية والسكنية يسير باطراد فى المدن الصناعية .

وفى المناطق التى تتسم طبيعة أرضها بالوعورة ، كما هو الشأن فى أودية هضبة الليجانى ، كان من المحتمل أن يوجد قدر معين من التحديد الطبيعى للمناطق نظراً إلى أنه لا يتهيأ إلا على ضفاف الأنهار الفضاء الكافى الذى

يسمح لمصنع كبير بالاتساع ، ولو أن هذا الوضع كان كفيلا بأن أقصى قدر من الأبخرة الضارة ترتفع وتنتشر فوق المنازل القائمة على جوانب التلال المشرفة على المنطقة . وفيما عدا ذلك ، فإن أحياء السكنى كثيراً ما كانت تحشر فى مساحات الفضاء المتبقية فيما بين المصانع والحظائر وساحات تخزين عربات السكة الحديدية . وكان يعتبر من ضروب التشبه بالنساء فى الرقة ، أن يلقى المرء باله إلى أمور مثل القذارة أو الضجيج أو الاهتزاز ، فمنازل العمال ، وفى أحيان كثيرة منازل الطبقة الوسطى أيضاً ، كانت تبنى ملاصقة لمصنع للصلب أو للأصباغ أو للغاز أو ممر للسكة الحديدية ، وفى أحيان عديدة كانت تبنى فوق أرض ردمت بالرماد والزجاج المكسور والقاذورات حيث لم يكن يتسنى حتى لجذور الحشيش أن تستقر . وكان من المحتمل أن تقوم على حافة مقلب القمامة ، أو كوم ضخم مستديم من الفحم والخبث . فكانت دورة الأعمال المنزلية المعتادة تتم يوماً بعد يوم مقرونة بالروائح الكريهة المنبعثة من الفضلات ، وبما تقذف به المداخن من أبخرة كثيبة داكنة اللون ، وبما يصدر عن المكنات من ضجة أصوات الطرق أو الدوران .

فى هذه الخطة الجديدة ، كانت المدينة ذاتها تتألف من قطع متناثرة من الأرض ذات أشكال غريبة وشوارع عادية وشوارع عريضة بلا قيمة ، تخلفت فيما بين المصانع والسكك الحديدية وأفنيه البضائع ومقالب القمامة . وبدلا من أن تتولى البلدية وضع أى نوع من أنواع التخطيط أو التنظيم الشامل ، ترك للسكة الحديدية أمر تحديد طابع المدينة وتخطيط حدودها . وفيما عدا جهات معينة فى أوروبا ، حيث حدث لحسن الحظ أن أبقت أنظمة إدارية عتيقة محطات السكة الحديدية فى أطراف المدينة التاريخية ، أبيح للسكة الحديدية ، بل الأصح أنها دعيت ، إلى التغلغل حتى قلب المدينة ذاته ، وإلى أن تنشئ فى أنفس الأجزاء الوسطى فى المدينة ، بلقعا من

ساحات شحن البضائع وساحات مناورات القاطرات ، مما لا يمكن تبريره اقتصادياً إلا فى فضاء الريف . وقد كان من شأن هذه الساحات أنها شطرت طرق المرور الطبيعية فى المدينة ، وأوجدت فيما بين أجزاء حضرية كبيرة ، حاجزاً لا سبيل إلى تخطيه ، بل إنها فى بعض الأحيان أقامت سوراً صينياً حقيقياً ، كما هو الشأن فى فيلادلفيا .

وعلى هذا فإن السكة الحديدية لم تحمل إلى قلب المدينة الضجيج والسناج فحسب ، بل المنشآت الصناعية ونظم الإسكان الوضيعة التى ما كان يتسنى لغيرها أن تزدهر فى البيئة التى أنشأتها . ولم يكن فى وسع أى شىء آخر سوى ما لابتكار جديد من سحر وتأثير فى عصر أولع بالمبتكرات الجديدة دون تحفظ ولا تمحيص ، أن يغرى بالتصرفات الطائشة التى انطوت على تقديم هذه القرابين لهذا المعبود اللاهث ، فإن مهندسى السكة الحديدية الجديدة اقترفوا كل ما يمكن اقترافه من الخطأ فى مجال التخطيط الحضرى ؛ إذ أن حركة القطارات كانت فى نظرهم أخطر شأناً من الغايات البشرية التى كانت تحققها تلك الحركة . ولم يكن من شأن إهدار مساحات من الأرض بإنشاء ساحات السكة الحديدية فى قلب المدينة ، إلا أنه ساعد على توسعها نحو مشارفها بخطى سريعة جداً . ولما كان ذلك قد أدى إلى ازدياد حركة النقل بالسكة الحديدية ، فإن الأرباح التى تحققت هيأت عاملا إضافياً للمصادقة على ما ارتكب من الأخطاء على هذا الوجه .

ولقد بلغ من انتشار تدهور حالة البيئة على هذا النحو ، وبلغ من تعود الناس فى المدن الكبرى احتمال هذه الحال على مدى قرن من الزمان ، أنه حتى الطبقات العريضة الثراء – وهى المفروض أن فى طاقتها تحمل نفقات أفضل وسائل المعيشة – مازالت إلى اليوم تقبل على أسوئها فى أحيان كثيرة . وأما فيما يخص نظام الإسكان فى ذاته فإن وجوه الاختيار كانت بسيطة ، ففى المدن الصناعية التى قامت على أسس أقدم عهداً ، هيئت

مساكن العمال فى مبدأ الأمر بتحويل المنازل القديمة التى كانت تأوى أسرة واحدة إلى ثكنات للإيجار . وفى هذه المنازل المعدلة ، كانت كل حجرة على حدة تأوى أسرة بأكملها ، ومن دبلن وجلاسجو إلى بومباى ظلت القاعدة القياسية لمدة طويلة هى حجرة واحدة للأسرة . وكثيراً ما كان فرط ازدحام الفراش ، باشتراك ما يتراوح بين ثلاثة وثمانية أشخاص متباينى السن ، فى النوم على فراش واحد من القش ، كثيراً ما كان يزيد من خطورة فرط ازدحام الغرفة فى مثل هذه الحظائر البشرية . وطبقاً لما ذكره كاتب يدعى الدكتور ويلان (Dr. Willan) الذى وضع كتاباً عن الأمراض فى لندن ، فإنه عند حلول القرن التاسع عشر ، كان ذلك الازدحام المفرط قد أدى إلى حالة لا تصدق من القذارة البدنية بين الفقراء . وأما الطراز الثانى من المساكن الذى كان يقدم للطبقة العاملة ؛ فكان فى جوهره عبارة عن اتخاذ هذه الأوضاع المنحطة قاعدة قياسية ، ولكنه كان يتوافر فيه مزيد من العيب ، وذلك أن تخطيط هذه المنازل ومواد الإنشاء كانت عادة لا يتوافر فيها شىء من وجوه اللياقة التى كانت توجد أصلا فيما هو أقدم عهداً من منازل سكان المدن ، فقد كانت تبنى على نحو حقير من أسفلها إلى أعلاها .

وفى كل من المساكن القديمة والجديدة بلغ الانحدار فى القذارة وسوء الحال حداً يندر أن كانت تبلغه حالة كوخ أدنى الأقنان فى أوروبا فى العصور الوسطى . وإنه ليكاد يكون ضرباً من المحال أن يسرد المرء سرداً موضوعياً التفصيلات المجردة لهذا النوع من الإسكان دون أن يتهم بالمبالغة الجامحة . وأولئك الذين يتحدثون بذلاقة عن ألوان التحسينات الحضرية فى هذا العصر ، أو ضروب الارتفاع المزعومة فى مستويات المعيشة ، إنما يتجنبون الحقائق الواقعية ؛ ذلك أنهم يعزون بسخاء إلى المدينة فى مجموعها مزايا لم تكن تستمتع بها إلا الأقلية الموفورة الحظ المؤلفة من الطبقة الوسطى ،

ويستنبطون الأحوال الأصلية من تلك التحسينات التى أسفرت عنها فى النهاية جهود ثلاثة أجيال من التشريعات الجادة وأعمال الهندسة الصحية الضخمة .

وبادئ ذى بدء نجد أن فى انجلترا كانت ألوف من المساكن الجديدة للعمال تبنى ظهراً لظهر فى مدن مثل برمنجهام وبرادفورد ، (وما زال الكثير منها موجوداً) ، ولذلك فإن حجرتين من بين أربع حجرات فى كل طابق ، كانتا محرومتين من ضوء النهار أو التهوية مباشرة ؛ ولم توجد أماكن فضاء عدا الممرات الجرداء الواقعة بين هذه الصفوف المزدوجة من المساكن . وعلى حين أنه فى القرن السادس عشر كان إلقاء القمامة فى الشارع يعتبر خروجاً على القانون فى كثير من المدن الانجليزية ، فإن ذلك كان الطريقة المألوفة للتخلص من القمامة فى هذه المدن الصناعية المبكرة . ومهما تبلغ حالة القمامة من القذارة والدنس وقتئذ ، كانت تبقى فى مكانها « إلى أن يغرى تكدسها أحد الناس بنقلها لاتخاذها سماداً » . وبطبيعة الحال لم تفتقر الأحياء الجديدة المزدحمة فى المدينة إلى مثل هذه القمامة . وكانت المراحيض القذرة إلى حد يعجز عنه الوصف توجد عادة فى أقبية المنازل تحت مستوى سطح الأرض ، وكان من العادات الشائعة أيضاً وجود حظائر للخنازير فى أسفل المنازل ، وعادت الخنازير تهيم على أوجهها فى الشوارع مرة أخرى ، وهو ما لم يسبق أن فعلته فى المدن الكبرى منذ قرون . وقد كان هناك افتقار مفزع إلى المراحيض ، إذ ورد فى « تقرير عن حالة المدن الكبرى والمناطق المزدحمة بالسكان » (فى سنة ١٨٤٥) أنه « فى أحد أجزاء مانشستر المزدحمة بالسكان فى سنة ١٨٤٣ — ١٨٤٤ كان ما يزيد على ٧٠٠ من السكان يقضون حاجاتهم فى ٣٣ مرحاضا فقط — أى بمعدل مرحاض واحد لكل ٢١٢ من الناس » .

وحتى مع هذا المستوى المنخفض فى التصميم ، وحتى مع مثل هذه

الأحوال الشنيعة التى كانت تصاحبه ، فإنه فى مدن كثيرة لم يكن يشيد عدد كاف من المنازل ، وعندها كانت تسود أحوال أشد سوءاً من ذلك بكثير ، فكانت الأقبية تستخدم أماكن للسكنى . فى ليڤربول كان سدس عدد السكان يعيشون فى « أقبية تحت الأرض » ، ولم تكن أغلب مدن الموانىء الأخرى أحسن حالا بكثير ، فقد كانت لندن ونيويورك تنافسانها فى ذلك منافسة شديدة وحتى فى ثلاثينيات القرن العشرين ، كان يوجد فى لندن ٢٠٫٠٠٠ من مساكن الأقبية (البدروم) التى وصفت طبياً بأنها غير صالحة لسكنى الإنسان . وقد ترتب على هذه القذارة وهذا الازدحام المفرط – وهما بليتان فى ذاتهما – قدوم بلايا أخرى ، كالفئران التى كانت تنقل الطاعون الدملى ، والبق الذى كان يغير على الفراش فيقض مضاجع النائم ، والقمل الذى كان ينشر وباء التيفوس ، والذباب الذى كان يتردد بلا محاباة بين مرحاض القبو وغذاء الطفل . وفضلا عن ذلك فإن اجتماع الحجرات المظلمة والجدران الرطبة كان يهيئ بيئة مثالية لتوالد الجراثيم ، ولا سيما أن الحجرات المكتظة كانت توفر أعظم الفرص لنقل العدوى عن طريق التنفس والملامسة .

وإذا كان الافتقار إلى مراحيض ، وإلى أنظمة بلدية للمحافظة على الصحة العامة ، قد ترتب عليه وجود روائح كريهة منفرة فى هذه الأحياء الحضرية الجديدة ، وإذا كان انتشار وجود البراز مكشوفاً – إلى جانب ما كان ينجم عن ذلك من التسرب إلى الآبار الخالية – معناه انتشار وباء التيفود على نحو يتناسب مع ذلك ، فإن الافتقار إلى الماء كان أشد وبالا فى نتائجه ؛ إذ أنه قضى على ذات الوسيلة التى كانت تمكن من النظافة المنزلية أو النظافة البدنية طبقاً لما تقضى به قواعد الصحة . وفى مدن الحواضر الكبرى ، حيث ظلت باقية بعض التقاليد القديمة للبلديات ، لم تتخذ التدابير الكافية لتوفير المياه فى كثير من المناطق الجديدة . وفى سنة ١٨٠٩ ،

حينما كان سكان لندن يبلغون المليون ، لم يكن الحصول على الماء ميسوراً في الجانب الأكبر من المدينة إلا في بدرومات المنازل . وفي بعض الأحياء لم تكن المياه لتصل إلا لثلاثة أيام في الأسبوع . وعلى الرغم من أن الأنابيب الحديدية ظهرت في الوجود في سنة ١٧٤٦ ، فإنها لم تستخدم على نطاق واسع إلا عندما صدر تشريع خاص في إنجلترا في سنة ١٨١٧ يقضي بأن كل الأنابيب الرئيسية الجديدة التي تمد بعد عشر سنوات من صدور القانون يجب أن تكون مصنوعة من الحديد :

أما في المدن الصناعية الجديدة ، فقد كانت تنعدم أبسط التقاليد الأولية للخدمات البلدية ؛ ففي بعض الأحيان كانت توجد أحياء بأكملها دون مياه حتى ولو من آبار محلية . وعند الضرورة ، كان الفقراء يعمدون إلى طرق أبواب المنازل واحداً بعد الآخر في الأقسام الخاصة بالطبقة الوسطى ، استجداء للماء ، كما قد يستجدون الخبز حين المجاعة ، ومع هذا الافتقار إلى الماء للشرب والاغتسال لا موجب للعجب من أن الأقذار تراكمت . وعلى الرغم من شناعة المجاري المكشوفة ، فإنها كانت تنهض دليلا على وفرة ثراء البلدية نسبياً . وإذا كانت الأسر تعامل على هذا النحو ، فليس ثمة حاجة للرجوع إلى الوثائق لمعرفة حالة العامل الذي كان لا يجد عملا بانتظام . وكانت منازل مهجورة ، لا يعرف أصحابها ، تستخدم نزلا حيث كانت الغرفة الواحدة تأوي خمسة عشرة أو عشرين شخصاً . وطبقاً لإحصاءات الشرطة في سنة ١٨٤١ ، كان يوجد في مانشستر نحو ١٠٩ من النزل حيث كان الرجال والنساء ينامون معاً بلا تمييز أو مراعاة ، وكان يوجد ٩١ نزلا للمتسولين . « ولقد أبلغ پلايفير (Playfair) لجنة شئون الصحة في المدن في سنة ١٨٤٢ أنه في مقاطعة لانكشير بأسرها لم تكن توجد سوى مدينة واحدة بها حديقة عامة وهي برستون ، وسوى مدينة واحدة بها حمامات عامة وهي ليفربول » .

وعندما استقرت تماماً أوضاع النظام الصناعى الجديد ، كان الانخفاض على هذا النحو فى مستوى حالة المساكن أمراً عاماً تقريباً بين العمال فى المدن الصناعية الجديدة ، وإن كانت الظروف المحلية قد سمحت فى بعض الأحيان بالنجاة من الحالة البالغة الشناعة التى وصفتها . فنظام إسكان عمال المصانع فى مانشستر بولاية نيو هامشير مثلا كان أرقى من ذلك بكثير ، وفى المدن الصناعية التى كانت أكثر توغلا فى الريف الأمريكى ، وبخاصة فى المناطق الوسطى الغربية ، كان يتوافر للعمال على الأقل قدر قليل من الاتساع ومساحة من الأرض تكفى لإنشاء حديقة . ولكن حيثما يجيل المرء بصره يجد أن التحسين كان من حيث تفاوت الدرجة فحسب ، وأما الطراز فقد تغير على وجه قاطع إلى ما هو أسوأ .

ولم يقتصر الأمر على أن المدن الجديدة كانت فى جملتها كئيبة وقبيحة المنظر ، مما كان يجعل منها بيئة غير مواتية للحياة البشرية فى أبسط مستواها الأولى من الناحية الفسيولوجية ، بل إن تقييس الإفراط فى الازدحام بين الفقراء امتد إلى مساكن الطبقة المتوسطة وإلى ثكنات الجنود ، وهى فئات كانت لا تُستغل على وجه مباشر من أجل الربح . وتستشهد مسز بيل (Mrs Peel) بقصر فاخر من أواسط عهد الملكة فيكتوريا ، حيث كان المطبخ ومخزن المؤن ، وقاعة جلوس الخدم ، وحجرة مديرة المنزل ، وحجرات نوم رئيس الخدم والخدم ، كانت جميعاً فى الطابق الواقع تحت مستوى سطح الأرض ، وكانت حجرتان منها فى الواجهة الأمامية ، وحجرتان أخريان فى الواجهة الخلفية ، وتطلان على « بدروم » خلفى منخفض ، وأما باقى الحجرات فكانت تتلقى « الضوء » و « الهواء » عن طريق ألواح من الزجاج مثبتة على ارتفاع كبير فى الجدران الداخلية . ولقد اتبع ما يماثل هذا الضرب المنحط من ضروب الإسكان فى برلين وفيينا ونيويورك وباريس فى خلال أواسط القرن التاسع عشر ؛ فالعمائر

الجديدة لسكنى الطبقة المتوسطة كانت تطل من الخلف على أفنية عميقة عديمة الهواء وتتوافر فيها أغلب خصائص الطوابق الواقعة تحت سطح الأرض ، حتى ولو كانت من الوجهة الفنية فوق الأرض ، ولم ينج من شر هذه المخازى سوى المدن « المتخلفة » .

وإذا حكمنا بموجب الخطب السوقية ، فإن هذه العيوب كانت ضيقة النطاق ، وإنها على كل حال قد قضى عليها إبان القرن الماضى بفضل تقدم سير العلم والتشريعات الإنسانية . ولسوء الحظ أن خطباء السوقة – وحتى المؤرخين ورجال الاقتصاد المفروض أنهم يتناولون بالبحث عين هذه المجموعة من الحقائق – لم تتكون لديهم عادة القيام بأنفسهم باستطلاع أحوال البيئة ، ومن ثم فإنهم يجهلون أن مجموعات من المساكن التى أقيمت على نمط أشد انحطاطاً من النمط الذى اتبعت فيه الوسائل التقنية العتيقة ، ما زالت موجودة فى جميع أنحاء العالم الغربى إلى اليوم دون أن يطرأ عليها سوى تعديل طفيف ، بل إنه لتوجد منازل قائمة ظهراً لظهر : وعمائر سكنية ذات أفنية عديمة الهواء ، ومساكن فى البدروم . وهذه المجموعات من المساكن لا تشمل أغلب مساكن العمال التى بنيت قبل سنة ١٩٠٠ فحسب ، بل إنها لتشمل شطراً كبيراً مما بنى منذ ذلك الحين ، وإن كانت تظهر فيها تحسينات من حيث المرافق الصحية . ومما يجدر بالملاحظة أن القدر الباقى من المساكن التى بنيت فيما بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٩١٠ ، لم تتمثل فيها حتى قواعد عصرها القياسية للمحافظة على الصحة ، وهى أشد انحطاطاً بكثير من مستوى يقوم على أساس المعرفة السائدة فى الوقت الحاضر عن الأساليب الصحية الوقائية وقواعد المحافظة على الصحة والعناية بالأطفال – فضلا عن الهناءة المنزلية .

« مساكن فقيرة ، ومساكن شبه فقيرة ، ومساكن فقيرة ممتازة ، هذا هو ما انتهى إليه تطور المدن » . أجل إن هذه الكلمات اللاذعة

الصادرة عن پاتريك جيديس لتنطبق انطباقاً تاماً على هذه البيئة الجديدة ؛ وحتى أشد النقاد المعاصرين تطرفاً فى الدعوة إلى الثورة على تلك الأوضاع ، كانت تنقصهم معرفة المعايير الحقيقية لمستوى البناء والمعيشة ، فإنه لم تكن لديهم أى فكرة عن مدى الانحدار الذى آلت إليه بيئة الطبقات العليا ذاتها . ولذلك فإن فريدريك إنجلز (Friedrich Engels) — لكى يثير السخط اللازم للثورة — لم يقتصر على معارضة كل التدابير « الملطفة » لتهيئة نظام أرقى فى مستواه لإسكان الطبقات العاملة ، بل يبدو أنه كان يعتقد أن مشكلة الطبقات العاملة ستحل فى النهاية بالاستيلاء الثورى على المساكن المريحة التى تشغلها الطبقة المتوسطة (البورجوازية) . وهذه الفكرة تتسم بالعجز والقصور من حيث الإلمام بمستوى مساكن الطبقة المتوسطة ، وتبعث على السخرية من حيث كفاية عدد هذه المساكن لسد حاجة العمال . ومن الوجهة الاجتماعية ، كانت هذه الفكرة لا تعدو الحث على أن تتخذ كإجراء ثورى تلك العملية التعسة التى حدثت فعلا فى المدن الأقدم عهداً ، عندما انتقل أفراد الطبقات الأوفر يساراً من مساكنهم الأصلية وقاموا بتقسيمها لكى يشغلها أفراد الطبقة العاملة . بيد أن الفكرة كانت ساذجة فوق كل شىء لأنها لم تتبين أن المعايير التى كانت تتمثل حتى فى أوفر المساكن الجديدة حظاً من مظاهر البهاء ، كانت فى أحيان كثيرة أدنى من المعايير المطلوبة للحياة البشرية مهما يكن مستواها الاقتصادى .

وبعبارة أخرى فإنه حتى هذا الناقد الثورى ، كان على ما يظهر لا يدرى أن مساكن الطبقة العليا كانت فى أغلب الحالات مساكن فقيرة ممتازة فى نوعها ولكنها لا تحتمل . وقد كانت الحاجة إلى زيادة عدد المساكن ، وإلى توسيع نطاق مساحتها ، وإلى مضاعفة معداتها ، وإلى تدبير وسائل المعيشة الجماعية ، كانت الحاجة إلى كل ذلك تنطوى ، بحكم مقتضياتها ، على روح ثورية أبعد من أى عمل طفيف الأثر مثل

الاستيلاء على المساكن التى كان الأغنياء يشغلونها . فهذه الفكرة الأخيرة لم تكن إلا تعبيراً عاجزاً عن الانتقام ، وأما الفكرة السابقة فإنها كانت تقتضى العمل بجد لإعادة بناء البيئة الاجتماعية بأسرها – على مثال إعادة البناء التى قد يكون العالم على أبوابها اليوم ، وإن كانت حتى البلاد المتقدمة ، مثل إنجلترا والسويد والأقاليم الواطئة ، لم تدرك بعد مدى اتساع هذا التغيير الحضرى .

٦ – منازل سيئة السمعة

لننعم النظر – على نحو أكثر تدقيقاً – فى هذه المنازل الجديدة التى أقيمت للطبقات العاملة . فقد كان لكل بلد ، وكل إقليم ، وكل مجموعة من السكان ، نموذج خاص ، فنجد فى جلاسجو وأدنبرة وباريس وبرلين وهامبورج وجنوة عمائر عالية ، ونجد فى لندن وبروكلين وفيلادلفيا وشيكاجو مبانى من طابقين بها أربع أو خمس وأحياناً ست حجرات ، ونجد فى نيو انجلند مبانى ضخمة من الخشب سريعة التعرض لشبوب الحرائق ويطلق عليها اسم المبانى ذات الطوابق الثلاثة ، وهى لحسن الحظ تنعم بشرفات طلقة الهواء ، ونجد فى بلتيمور صفوفاً من المنازل الضيقة المبنية من الآجر التى بقيت متعلقة بنموذج المداميك الأقدم منها عهداً ، وهو الذى كان شائعاً فى العمارة الجورجية[1] .

بيد أن نظام الإسكان فى المدن الصناعية يتسم بخصائص معينة مشتركة ، ذلك أن ذات التكوين يتكرر فى وحدة من المبانى بعد أخرى ، فتوجد عين الشوارع الكئيبة ، وعين الأزقة المحرومة من الشمس والمفعمة بالفضلات ، وعين انعدام الأماكن الطلقة للعب الأطفال والحدائق ، وعين افتقار منطقة الجوار المحلية إلى التماسك والشخصية : والنوافذ ضيقة

---

(١) شاع طراز هذه العمارة فى عصر الملوك چورج الأول وچورج الثانى وچورج الثالث (١٧١٤ – ١٨٢٠) .

فى العادة ، والضوء غير كاف فى الداخل ، فإنه لم تبذل أى محاولة لتحديد اتجاهات الشوارع على نحو تراعى فيه اعتبارات ضوء الشمس وهبوب الرياح ؛ وإن النظافة القاتمة المحزنة التى تبدو فى المساكن الأوفر حظاً من مظاهر اللياقة حيث يعيش أصحاب الأجور الممتازة من الصناع أو الموظفين — وقد تكون هذه المنازل قائمة فى صف أو شبه منفصلة بعضها عن بعض ، وقد تنبسط أمامها خضرة صغيرة مغبرة أشبه ما تكون بالمنديل الصغير المتسخ ، أو تقف شجرة فى الفناء الضيق الواقع فى الخلف — أن هذه المظاهر من مظاهر اللياقة تكاد تبعث فى النفس من الانقباض مثل ما تبعثه القذارة الصارخة التى تسود المساكن الأشد فقراً ، بل إنها فى الواقع تبعث مزيداً من الانقباض ، لأن هذه المساكن الأخيرة كثيراً ما يتهيأ لها على الأقل قدر من البهجة والحيوية ، بفضل ما يجرى فى الشــوارع من مشاهد « القرقوز » ، وبما تطن به السوق من ثرثرة الباعة والمشترين ، وبما يغشى الحانات من المظاهر الصاخبة لاجتماع الرفاق ، وبالجملة بفضل مظاهر الحياة الأكثر انطباعاً بروح المشاركة وروح الصداقة التى تسرى فى الشوارع الأشد فقراً من سواها .

ولم يكن لعصر الابتكار والإنتاج على نطاق واسع أى أثر تقريباً فى منزل العامل أو فى مرافقه إلى نهاية القرن التاسع عشر ، الذى شهد قدوم نظام الأنابيب الحديدية ، وكذلك قدوم نظام أرقى للمراحيض ، وفى النهاية مصباح الغاز وموقد الغاز ، وحوض الاستحمام الثابت المتصلة به أنابيب للمياه ، ومخارج ثابتة للتصريف ، ونظام جماعى للمياه جعل المياه الجارية فى متناول كل منزل ، وكذلك نظام جماعى للمجارى . وبعد سنة ١٨٣٠ ، أصبحت هذه التحسينات بالتدريج فى متناول الطوائف المتوسطة والعليا من الوجهة الاقتصادية ، وفى خلال جيل من قدومها ، غدت فى الواقع من ضرورات الطبقة المتوسطة . بيد أنه لم يحدث فى أى فترة فى خلال مرحلة استخدام الأساليب التقنية العتيقة أن جعلت هذه التحسينات فى متناول جمهرة السكان ، فقد

كانت المشكلة التى تواجه من يقوم بالبناء هى أن يحقق نزرا يسيرا من اللياقة بدون هذه المرافق الجديدة الباهظة التكاليف .

وقد بقيت هذه المشكلة لا تجد حلا إلا بإتباع نظم البيئة الريفية البدائية ، ولهذا فإن التقسيم الأصلى لمدينة مونسى (Muncie) فى ولاية انديانا – وهى « المدينة الوسطى » فى بحث روبرت ليند – كانت توجد به ثمانية منازل فى كل وحدة للمبانى ، وكان كل منزل منها يقوم على قطعة من الأرض يبلغ عرضها اثنتين وستين قدما ونصف قدم ، ويبلغ طول امتدادها إلى الداخل مائة وخمسا وعشرين قدما . ولا جدال فى أن هذا كان يوفر للعمال الشديدى الفقر ، ظروفا أفضل بكثير مما حدث فيما بعد عند ما أدى ارتفاع قيمة الأرض إلى ازدحام المنازل وتضييق نطاق الحيز المخصص للحدائق والحيز المخصص للعب ، ومن بين كل أربعة منازل كان هناك منزل واحد ما زالت تعوزه المياه الجارية . وبوجه عام ، فإن اكتظاظ المدينة الصناعية زاد من الصعوبات فى سبيل الوصول إلى نظام مرض للإسكان ، كما زاد من تكاليف التغلب على هذه المصاعب .

وأما عن تجهيز داخل المنازل ، فإن الصورة التى عرضها جاسكيل (Gaskell) لمساكن الطبقات العاملة فى إنجلترا ، قد بلغت أسفل درك ، ولكن المستوى الوضيع ظل باقيا فى القرن التالى ، على الرغم من إدخال بعض وجوه التحسن الطفيف . والواقع أن نتائج الفقر المالى ازدادت خطورة بسبب هبوط عام فى مستوى الذوق مما أبرز حالة الفقر السائدة فى البيئة ، وقد تمثل ذلك فى تغطية الجدران بورق تنم زخرفته عن ذوق همجى ، وفى تزيين الغرف بتحف زائفة براقة ؛ وصور لوحات زيتية ، وفى استخدام أثاث استمد طرازه من أسوأ أمثلة الذوق العقيم فى الطبقة المتوسطة ، أى ثمالة الثمالة .

وقد أبلغنى صديق لى أنه رأى فى الصين عاملا فى المناجم كاسف

البال ، مثقلا بالتعب ، راح يداعب فى رفق وحنان عودا من الزهر فى أثناء سيره فى الطريق ، غير أنه فى العالم الغربى ، إلى القرن العشرين ، حينما أخذ يظهر الأثر الطيب لتخصيص مساحة من الأرض للحديقة ، فإن الميل الغريزى نفسه إلى مظهر يانع من مظاهر الحياة كان مقدراً له ألا يتغذى إلا على ضروب البشاعة المتعمدة التى كان أرباب المصانع يقدمونها للطبقات العاملة تحت ستار الذوق الحديث (الموضة) والفن . وحتى الذخائر الدينية فى المجتمعات الكاثوليكية بلغت من الانحطاط فى مستوى الذوق الفنى حدا يكاد يكون انتهاكا لحرمة الدين . وبمرور الزمن ، أصبحت استساغة القبح متأصلة فى النفوس ، فإن العامل كان لا يقبل على الانتقال من مسكنه القديم ما لم يحمل معه شيئاً مما ألفه من القذارة والفوضى والضجيج وفرط الازدحام . وكانت كل حركة فى سبيل تحسين مستوى البيئة تلقى تلك المقاومة ، وكانت عقبة حقيقية فى وجه القضاء على المركزية .

وإن بضعة منازل من هذا القبيل ، وبضع حالات من الانزلاق إلى القذارة والقبح على هذا المنوال ، كان من شأنها أن تكون وصمة ، ولكن لعله من الممكن أن نجد فى كل عصر عدداً معيناً من المنازل تنطبق عليها هذه الصفات . بيد أنه عندئذ كانت أحياء ومدن بأكملها ، ومناطق تبلغ مساحتها الفدادين والأميال المربعة ، وأقاليم بأسرها قد امتلأت بمثل هذه المساكن التى تسخر من كل ما يزهى به « قرن التقدم » من مزاعم النجاح المادى . وفى هذه الحظائر الحديثة نشأت فصيلة جديدة من المخلوقات المشوهة ، فقد كان الفقر وبيئة الفقر سببا فى حدوث تغييرات عضوية ، كإصابة الأطفال بالكساح نتيجة لانعدام ضوء الشمس ؛ وتشوه تكوين العظام والأعضاء ، واختلال نظام أداء الغدد الصماء لوظيفتها بسبب سوء التغذية ؛ والأمراض الجلدية الناشئة عن الافتقار إلى العامل الأولى للمحافظة على الصحة وهو الماء ؛ والجدرى والتيفود والحمى القرمزية ، والتهاب الحلق

بتقيحه نتيجة لانتشار الأوساخ والبراز ؛ والتدرن الرئوى الذى يساعد على الأصابة به الجمع بين سوء التغذية ونقص ضوء الشمس وفرط الازدحام فى الغرف ، دون أن نذكر شيئاً عن أمراض المهن ، وكانت إلى حد ما ناجمة عن البيئة أيضا .

فالكلورين ، والأمونيا ، وأول أوكسيد الكربون ، وحامض الفوسفوريك ، والفلورين ، والميثان – دون أن نضيف قائمة طويلة بما يبلغ نحو المائتين من الكيميائيات التى تسبب السرطان – كانت تملأ الجو وتهدم عناصر الحيوية ، وكثيراً ما كان يحدث ذلك وسط أكداس من المخلوقات البشرية الخاملة فتزداد حالات النزلة الشعبية والالتهاب الرئوى ، مما كان ينشأ عنه حصد الأرواح على نطاق واسع . ولم يلبث أن رأى المشرفون على التجنيد أنهم لا يستطيعون الانتفاع بمن ولدوا فى ظل هذا النظام ، حتى بمثابة طعمة لنيران المدافع : ولعله كان لما كشف عنه الفحص الطبى فى إنجلترا – أثناء حرب البوير والحرب العالمية الأولى – من سوء معاملة العمال فيها ، لعله كان له من الأثر قدر ما كان لأى عامل آخر فى العمل على رفع مستوى الإسكان هناك .

والعواقب الوخيمة التى نجمت عن هذه الظروف يمكن متابعتها فى جداول الوفيات بين البالغين ، وفى معدل الإصابة بالأمراض بين العمال الحضريين بالقياس إلى العمال الزراعيين ، وفى متوسط أطوال الأعمار بين أرباب المهن المختلفة . ولعل أكثر المقاييس حساسية من حيث صلاحية البيئة الاجتماعية لحياة الإنسان ، هى جداول وفيات الأطفال .

وحينما عقدت المقارنة بين الريف والمدينة ، بين مساكن الطبقة المتوسطة ومساكن الفقراء ، بين منطقة تنخفض فيها كثافة السكان ومنطقة ترتفع فيها تلك الكثافة ، كان ارتفاع معدل الأمراض والوفيات من نصيب الفئة الأخيرة

عادة . ولو أن العوامل الأخرى ظلت على حالها ، لكان من شأن التحضر في ذاته أن يقتطع جزءاً من المكاسب المحتملة فى الناحية الحيوية . وعلى الرغم من أن عمال المزارع ظلوا طوال القرن التاسع عشر طبقة مغلوبة على أمرها فى إنجلترا ، فإنهم أثبتوا – وما زالوا يثبتون – أنهم يعيشون أمدا أطول كثيراً من عمال المدن المكنيين الذين يفوقونهم رقيا ، وذلك حتى بعد إدخال البلديات وسائل الصحة الوقائية ووسائل العناية الطبية . والواقع أن المدن ، بما فيها من مجافاة لأسباب الحياة ، لم يتسن لها أن تظل باقية فى الوجود على الإطلاق إلا بفضل عناصر الحياة الجديدة التى تتدفق عليها من الريف باستمرار . ولقد تكونت المدن الجديدة فى جملتها من الوافدين عليها من خارجها ؛ فني سنة ١٨٥١ كان عدد السكان الذين يقيمون فى لندن وإحدى وستين مدينة أخرى فى إنجلترا وويلز – ولهم من العمر عشرون سنة فما فوقها – يبلغ ٣٫٣٣٦٫٠٠٠ نسمة ، على حين أنه لم يولد من هؤلاء فى المدن التى كانوا يقيمون فيها سوى ١٫٣٣٧٫٠٠٠ نسمة .

وإذا أخذنا بمعدل الوفيات بين الأطفال ، فإننا نجد أن ما يسجله أكثر مدعاة للخزى ، فني نيويورك مثلا كان معدل الوفيات بين الأطفال فى سنة ١٨١٠ يتراوح بين ١٢٠ و ١٤٥ فى الألف من المواليد ، وقد ارتفع المعدل إلى ١٨٠ فى الألف فى سنة ١٨٥٠ ، وإلى ٢٢٠ فى سنة ١٨٦٠ ، وإلى ٢٤٠ فى سنة ١٨٧٠ . وقد كان هذا الارتفاع مصحوباً بانخفاض متواصل فى مستوى أحوال المعيشة ؛ إذ أنه بعد سنة ١٨٣٥ كان فرط الازدحام قد أصبح قياسيا فى عمائر السكنى التى بنيت حديثا . وهذه التقديرات الحديثة تؤيد ما هو معروف عن معدل وفيات الأطفال فى إنجلترا فى خلال عين تلك الفترة ، فهناك ارتفع المعدل بعد سنة ١٨٢٠ وكان أشد وطأة فى المدن . ولا شك أنه كانت هناك عوامل أخرى مسئولة عن هذه الاتجاهات الناكصة ، ولكن المدن الجديدة – من حيث إنها كانت تعبر عن

التكوين الاجتماعى المعقد بأسره الذى كان ينظم شئون الصحة والغذاء وظروف العمل والأجور والعناية بالأطفال والتعليم – قد أسهمت إلى حد كبير فى النتيجة .

وكثيراً ما أشيد دون وجه حق بإدخال تحسينات فى مجال الصحة الحضرية فى عهد حركة التصنيع ، وذلك لأن أولئك الذين كانوا يعتقدون أن التقدم كان يحدث تلقائيا فى جميع نواحى الحياة إبان القرن التاسع عشر ، كانوا يرفضون مواجهة الحقائق القاسية . فهم لم يسمحوا لأنفسهم بالقيام بدراسات للمقارنة بين المدينة والريف ، بين ما جهز بالمعدات الميكانيكية وما لم يجهز بها ، وفضلا عن ذلك ساعدوا على تشويه الحقائق باستخدام جداول فجة للوفيات ، لم تصحح طبقاً لفئات السن والجنس ، ومن ثم فإنها لم تدخل فى الاعتبار ازدياد كثافة البالغين فى المدن ، وارتفاع نسبة الموجودين فى الريف من الأطفال وكبار السن ، وهم الأكثر تعرضا للمرض والموت . وقد كان من شأن هذه الإحصاءات أنها جعلت معدل الوفيات فى المدينة يبدو أفضل مما كان فى حقيقة أمره على أساس التحليل الإحصائى الدقيق . وإلى اليوم الحاضر قلما اتخذت الخطوات التمهيدية فى سبيل القيام بدراسة تحليلية وافية للمواليد والوفيات والصحة والمرض من حيث علاقتها بالبيئة . وعن طريق إدماج المعدلات الحضرية والريفية معاً فى رقم « قومى » أمكن إخفاء الأدلة على سوء الحالة نسبياً فى المناطق الحضرية والصناعية « الموفورة الرخاء » :

وما زالت تجرى دراسات تحليلية مضللة من هذا القبيل ، تحت ستار أنها بحوث موضوعية . وعلى هذا الوجه حاولت مابل بوير (Mabel Buer) أن تبرئ الانقلاب الصناعى من تهمة خلق آفة حضرية ، بالقيام بدراسة ما حدث من نقص فى معدل الوفيات قبل سنة ١٨١٥ ، أى قبل أن يتمخض عن فرط الازدحام ، وسوء الوسائل الصحية الوقائية ، وتعميم

التحضير بين السكان ، قبل أن تتمخض عن كل هذه العوامل نتائجها المميزة لها من حيث إنهاك القوى الحيوية . وليس ثمة ما يدعو إلى الشك فى أمر هذا التحسن الأسبق عهداً ، أكثر مما يدعو إلى اغفال أمر الهبوط المطرد بوجه عام فى معدل الوفيات طوال القرن التاسع عشر . ولكن هذا ليس من شأنه أن يمحو الحقيقة التى لا سبيل كذلك إلى الشك فى أمرها ؛ وهى تدهور الحالة فيما بعد .

وبدلا من أن يعزو المرء الفضل فى التحسن المبكر إلى استخدام المكنات فى الصناعة ، يجب أن يوجه الفضل إلى ناحية أخرى مختلفة كل الاختلاف — وهى زيادة الطعام — مما هيأ غذاء أفضل ، وساعد على رفع قوة المقاومة للأمراض . وهناك عامل آخر ربما كان له أيضاً نصيب فى ذلك ، وهو ازدياد الإقبال على استعمال الصابون ، وقد أصبح ذلك ميسوراً نتيجة لازدياد مقدار الدهون التى كان يمكن الحصول عليها . ومن المحتمل أن استعمال الصابون فى شئون الصحة الشخصية قد امتد من قيام الأم المرضع بغسل حلمتى ثديها ، إلى القيام بغسل الطفل الذى تتعهده ، وانتقل ذلك فى النهاية بعامل القدوة من شطر النساء فى المجتمع إلى شطر الرجال . وليس من اليسير تقدير مدى الزيادة فى استعمال الصابون بالرجوع إلى البيانات التجارية ؛ لأن الصابون كان أصلا من سلع الاحتكار التجارى ، وعلى هذا الاعتبار كان من سلع الترف ، وأما الصابون العادى فكان غالباً يصنع ويستهلك فى داخل المنزل . ولعل انتشار عادة استعمال الماء والصابون يمكن أن يفسر إلى حد كبير انخفاض معدل الوفيات بين الأطفال قبل القرن التاسع عشر ، بقدر ما يمكن أن تفسر بعض الشىء ندرة الماء والصابون الدرجة المحزنة التى وصل اليها معدل الوفيات بين الأطفال فى المدينة التى كانت تستخدم فيها الوسائل التقنية العتيقة .

وبصفة عامة كان العوز منتشراً من حيث وسائل المحافظة على الصحة .

فالافتقار إلى ضوء الشمس ، والافتقار إلى الماء النقى ، والافتقار إلى الهواء الخالى من التلوث ، والافتقار إلى الغذاء المؤلف من ألوان شتى ، كل هذه الوجوه من العوز كانت شائعة إلى حد أنها شكلت حالة من المسغبة المزمنة بين الغالبية العظمى من السكان . وحتى الطبقات الأيسر حالا كانت ترزح تحت نير تلك الحالة ، بل إنها كانت أحياناً تفخر بنواحي النقص الحيوى فيها . وهربرت سبنسر ، الذى كان منشقاً حتى عن مذهبه النفعى ، اضطر إلى أن يدعو معاصريه إلى اللعب ، وإراحة البدن . وفى مؤلفه « رسائل فى التربية » ذهب إلى حد توجيه نداء خاص إلى الآباء لكى يسمحوا لأبنائهم بأكل الفاكهة .

٧ — صورة عن قرب لمدينة الفحم الكوك

قد يسلم المرء بأنه حيال معدل السرعة التى أدخل بها التصنيع فى العالم الغربى كانت مشكلة إنشاء مدن ملائمة تكاد تكون عديمة الحل ، فإن المتقدمات التى جعلت هذه العمليات ميسورة كانت تجعل نجاحها محدود المدى من الوجهة الإنسانية ، إذ كيف كان يتسنى إنشاء مدينة متماسكة من جهود مئات الأفراد المتنافسين الذين كانوا لا يرعون إلا مصالحهم الذاتية ولا يعرفون شريعة سوى إرادتهم الذاتية العذبة ؟ . وكيف كان يمكن إدماج وظائف ميكانيكية جديدة فى نمط جديد من التخطيط كان يوضع وينفذ على وجه السرعة — إذا كان ذات جوهر ذلك الإدماج يتوقف على الإشراف الحازم من جانب هيئات عامة لم يكن لها وجود فى أغلب الأحيان أو إذا وجدت فعلا فإنها كانت لا تباشر من السلطة إلا ما كانت الدولة تخولها إياه على وجه التحديد ، واضعة حقوق الملكية الفردية فوق كل اعتبار؟ وكيف كان يمكن تدبير حشد من المرافق والخدمات المستحدثة من أجل عمال لم يكن فى طاقتهم أن يستأجروا سوى أفقر أنواع المساكن ؟ وكيف كان يمكن وضع خطة طبيعية سليمة لوظائف اجتماعية ظلت هى ذاتها جهيضة بلا ثمرة .

إن المدن التى كانت لاتزال تحتوى على بقايا حيوية من تقاليد العصور الوسطى ، مثل مدينة أولم (Ulm) ، استطاعت أحياناً أن تمر بمرحلة الانتقال دون أن تتكبد إلا خسارة يسيرة نسبياً ، وذلك بسبب بطء سير حركة النمو فيها ، وبفضل سياسة جريئة قوامها تملك البلدية للأرض على نطاق واسع . بيد أنه حينما دخلت الصناعة باندفاع شديد ، كما حدث فى نورمبرج ، كانت النتائج وبيلة إلى حد يماثل مابلغته فى مدن ليس لها أى كيان تاريخى على الإطلاق . وفى العالم الجديد ، كانت المدن تنشأ إلى عهد متأخر امتد إلى سنة ١٩٠٦ (مثل جارى Gary بولاية أنديانا) دون مراعاة لأى سمات طبيعية سوى موقع الوحدة الصناعية . وأما فيما يتعلق بما أنشىء بعد ذلك من المدن الصناعية الكبيرة مثل ديترويت — حاضرة صناعة السيارات — فإنها لم تتعلم شيئاً من أخطاء الماضى ، ألم يؤكد هنرى فورد أن التاريخ هراء ؟ وعلى ذلك فإن الوحدات الصناعية التى أقاموها طبقاً لأرقى ما وصل إليه الفن الهندسى ، وضعت وسط حماة حضرية فكانت بذلك نماذج مثالية لسوء نظام البلديات والعجز الفنى . وإن ذات العصر الذى كان يزهى بانتصاراته الميكانيكية وبصيرته العامية ؛ ترك عملياته الاجتماعية تحت رحمة المصادفة كما لو أن ملكة العقل العلمية استنفدت قواها فى المكننات ولم تعد تقوى على مغالبة الحقائق التى تخص الإنسان . وسيل الطاقة الذى فجر من طبقات الفحم ، وانحدر إلى سفح التل دون أن يحدث إلا أيسر نصيب من التقدم فى حالة البيئة ، فإن قرى المصانع ومدن المصانع كانت ، من الناحية الاجتماعية ، أكثر تخلفاً من القرى الاقطاعية فى العصور الوسطى .

وأما الطارئ الحضرى الجديد ، ذلك التجمع حول الفحم ، الذى أطلق عليه باتريك جيديس اسم « التكتل الحضرى conurbation » فإنه لم يكن معزولا فى الريف ولا متصلا بأى مركز تاريخى قديم ، وكان يمتد على هيئة

كتلة متساوية الكثافة نسبيا على مدى عشرات ، وأحياناً مئات ، من الأميال المربعة . ولم تكن توجد وسط هذا التكتل الحضرى مراكز ذات أثر فعال ، ولا منظمات تستطيع جمع شمل أعضائه ليمارسوا حياة مدنية دافقة بالنشاط ، ولا هيئة سياسية فى وسعها توحيد ضروب النشاط العام فيه . فلم يكن قد بقى سوى الطوائف أو الحطام والانقاض الاجتماعية للمنظمات القديمة ، وقد بقيت على غرار الانقاض الموحلة التى يبعثرها نهر كبير عقب هدوء ثورة الفيضان ، فهى أشبه ما تكون بأرض لا سلطان لأحد عليها فى مجال الحياة الاجتماعية . ولم تكن هذه المدن الجديدة فى أغلب الأحوال عاجزة عن الإنتاج فى مجال الفن أو العلم أو الثقافة فحسب ، بل إنها كانت عاجزة فى مبدأ الأمر حتى عن استيرادها من المراكز الأقدم عهداً . وعندما كان يتكون ، محلياً ، فائض من الثروة كان يستنزف على عجل فى مكان آخر ، فإن أصحاب الأملاك ورجال المال كانوا يستخدمونه فى ألوان الترف الشخصية ، أو فى أعمال البر – مثل قاعة كارنيجى للموسيقى فى نيويورك – وكثيراً ما كانت العواصم الكبرى تفيد من تلك الأعمال أمداً طويلا قبل أن يوصى بهبات مماثلة للمناطق التى كانت أصلا مصدر الحصول على تلك الثروات .

ولنتقدم ونزدد قرباً من مدينة الوسائل التقنية القديمة ، ولنفحصها بالعين ، والأذن ، والأنف ، واللمس ؛ فالمراقبون من أبناء العصر الحاضر يستطيعون – بسبب التباين بينها وبين البيئة الآخذة فى الظهور ، بيئة الوسائل التقنية الحديثة – يستطيعون أخيراً أن يروا مالم يكن يراه منذ مائة عام سوى شعراء مثل هوجو أو رسكين أو موريس Hugo or Ruskin or Morris ، وهى حقيقة كان الماديون ، وهم يتخبطون فى حبائل أحلامهم النفعية ، تارة ينكرونها كضرب من المبالغة العاطفية ، وتارة أخرى يرحبون بها فى تحمس كدليل على « التقدم » لا سبيل إلى النزاع فى أمره .

ولقد خيم الظلام فوق مدينة الفحم ، إذ غدا السواد لونها السائد ، فسحب الدخان السوداء كانت تتصاعد من مداخن المصنع ، كما أن أفنية السكة الحديدية التى كثيراً ما كانت تشق قلب المدينة وتمزق أحشاءها ، كانت تذرو السناج والرماد فى كل الأرجاء . وكان ابتكار الاستضاءة الصناعية بالغاز معيناً لاغنى عنه لهذا الازدهار ، وإذا كان ابتكار موردوك Murdock يرجع إلى آخر القرن الثامن عشر ، فإنه فى خلال الجيل التالى اتسع مجال استعماله ، فى المصانع أولا ، ثم فى المنازل ، وذلك فى المدن الكبرى فى مبدأ الأمر ثم فى المراكز الصغرى فيما بعد ، فإنه لولا معونة هذا الابتكار لتعدد توقف العمل بسبب الدخان والضباب . ولقد أصبح من المعالم الجديدة المميزة للمدن ، صنع غاز الاستضاءة فى داخل حدودها ، فصهاريج الغاز الضخمة كانت تطل بضخامتها فوق منظر المدينة ، فقد كانت منشآت كبيرة فى حجم الكاتدرائيات . والواقع أن منظر شباكها الحديدية فوق صفحة الأفق الخضراء فى لون الليمون عندما يتفق صفاء الجو ساعة الشروق ، كان من أبدع ما فى النظام الجديد من العناصر الجمالية التى تبعث على السرور والارتياح .

ولم تكن مثل هذه المنشآت بالضرورة كريهة ، ففى الحقيقة لو أنه بذلت العناية الكافية لعزلها عن المناطق السكنية ، لكان من المستطاع أن تكون محببة للنفس ، أما ماكان شنيعاً فهو أنها على غرار كل المبانى الأخرى فى المدن الجديدة ، كانت تقام تقريباً حيثما اتفق ، فكانت رائحة ما يتسرب من الغاز تعم المناطق التى كان يطلق عليها اسم مناطق بيت الغاز ، فلا عجب أن هذه المناطق كثيراً ما أصبحت من أشد أقسام المدينة تدهوراً ، وقد كانت صهاريج الغاز ، بشموخها فوق المدينة وتلويثها الهواء ، ترمز إلى هيمنة المصالح « العملية » على احتياجات الحياة .

وكان ستار الدخان السام قد حل من قبل فى مناطق صناعة الفخار فى القرن الثامن عشر ، نتيجة لاستخدام أملاح رخيصة للتزجيج ، أما الآن

فقد أطبق على كل مكان ، فى شيفيلد وبرمنجهام ، وفى بيتسبرج وايسن (Essen) وليل (Lille) . وفى هذه البيئة الجديدة ، لم تكن الملابس السوداء مظهراً للحداد ، بل مجرد وسيلة للوقاية عن طريق اللون ، وتكاد تكون القبعة السوداء الاسطوانية الشكل قد صممت على هذا النحو لأداء مهمة معينة – وهى أن تكون رمزاً يؤكد قوة البخار ، فأصباغ ليدز السوداء مثلا أحالت نهرها إلى مجرى[1] داكن سام ، على حين أن بقع الزيت الناشئة عن الفحم التى كانت تتناثر فى كل مكان ، وحتى أولئك الذين كانوا يغسلون أيديهم ، كانوا يخلفون حول جوانب إناء الغسيل إطاراً من الشحم الذى لم يذب . أضف إلى هذه البقع المستمرة على البدن والملابس ، جزيئات الحديد المتطايرة من عمليات التجليخ والشحذ ، والكلورين الذى لم يستعمل ويتصاعد من مصانع الصودا ، ثم فيما بعد ، سحب الغبار المهيج للأغشية والمتصاعد من مصانع الأسمنت ، والمنتجات الفرعية المتنوعة للصناعات الأخرى الكيميائية ، فهذه الأشياء كانت تؤلم العينين وتخدش الحلق والرئتين ، وتضعف صحة البنية بوجه عام حتى لو لم تحدث عند الملامسة أى مرض معين . وأما رائحة دخان الفحم ذاتها ، فلعلها ليست كريهة ، إذ أن الإنسان فى ماضيه الطويل فى حالة البداوة غدا مولعاً بالروائح العفنة ، ولذلك لعل العيب الرئيسى فى هذه الحالة هو أنها كانت تتغلب على ما هو أزكى منها رائحة أو كانت تجعل الناس لا يقدرون الروائح الزكية .

فلكى يكون المرء سعيداً فى كنف هذه الظروف ، يجب أن تتبلد كل حواسه ، وقبل كل شىء يجب أن يفقد حاسة الذوق . وكان لهذا الفقدان لحاسة الذوق تأثير فى الغذاء ، فقد أخذ حتى من هم فى رغد العيش من

(١) مفرد « مجارى » .

الناس يقبلون على أكل الأطعمة المعلبة ، والأطعمة غير « الطازجة » مع وجود أطعمة « طازجة » فى متناول اليد ، وذلك لأنهم باتوا لا يستطيعون التفرقة بينها . ولقد امتد ضعف حاسة التمييز عن طريق الذوق إلى نواح أخرى غير الطعام ، فإن التمييز بين الألوان أصبح ضعيفا أيضا وغدت الدرجات « الأعمق » فى التلوين والألوان الأميل إلى الهدوء وتركيبات الألوان الداكنة مفضلة عن الألوان الزاهية الصافية . وكانت الطبقة البورجوازية توجه المطاعن إلى الفنانين المصورين السابقين على رافائيل ، وكذلك إلى الانطباعيين ، لاعتقادها أن ألوان لوحاتهم كانت « غير طبيعية » و « غير فنية » . وإذا تركت أحياناً مسحة من اللون الزاهى ، فإنها كانت لا توجد إلا فى لافتات الإعلان عن « مستردة كولمان » أو « زهرة غسيل ريكيت » ، وكانت تبقى زاهية بهيجة لأنه كان يجب تغييرها مرات عديدة .

فهذه البيئة الجديدة كانت قاتمة ، مظلمة ، عديمة اللون ، لاذعة المذاق ، كريهة الرائحة ، فهبطت هذه الصفات بمستوى كفاية الإنسان ، وكانت تحتاج إلى وسائل إضافية للتعويض عن ذلك بالغسيل والاغتسال ووسائل الصحة الوقائية — أو فى الحالات القصوى الطبية . وقد كان ما ينفق نقدا فى شئون التنظيف وحدها يبلغ قدراً لا يستهان به فى مدينة الوسائل التقنية العتيقة ، وذلك على الأقل بعد الاعتراف بالحاجة إلى النظافة . ولنأخذ تكاليف مغالبة جانب واحد من جوانب التلوث بالدخان فى مثال نمطى للمدن المتبقية من عهد الوسائل التقنية العتيقة ، وهى مدينة بيتسبرج ، التى بدأت تتلوث بالدخان منذ عهد مبكر ، فإن الدخان يبدو منطلقا على أشده فى صورة لها مطبوعة فى سنة ١٨٤٩ ، ومنذ جيل مضى قدرت التكاليف السنوية للاحتفاظ بهذه المدينة نظيفة بنحو ١٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار لأعمال الغسل والكى الإضافية و٧٥٠٫٠٠٠ دولار لأعمال التنظف

العام الإضافية و٦٠٫٠٠٠ دولار للتنظيف الإضافى للستائر ، وهذا التقدير الذى يبلغ حوالى ٢٫٣١٠٫٠٠٠ دولار سنويا لم يدخل فيه حساب الخسائر الناشئة عما يصيب المبانى من التلف ، ولا النفقات الزائدة لطلاء أشغال الخشب ، ولا النفقات الإضافية للإضاءة أثنـاء فترات الضباب الدخانى (smog) .

وحتى بعد الجهود المضنية التى بذلت للإقلال من التلوث بالدخان ، فإن مؤسسة كبيرة لصناعة الصلب فى قلب بيتسبرج ما زالت تسخر من هذه الجهود فى سبيل التحسين – والواقع أنه قد بلغ من شدة سيطرة تقاليد الوسائل التقنية العتيقة ، أن السلطات البلدية ، منذ عهد قريب جدا ، عاونت هذه المؤسسة باغضائها عن توسعها بدلا من الوقوف بحزم والمطالبة بإزالتها . وحسبنا هذا القدر فيما يتعلق بالخسائر المالية ، ولكن ماذا يقال عن الخسائر التى لا تقدر بسبب المرض ، وبسبب اعتلال الصحة ، وبسبب كل ألوان التدهور الغسانى من جراء عدم الاكتراث بالعصاب الصارخ ؟ وإذا لم يكن هناك سبيل إلى تقدير مثل هذه الخسائر تقديراً موضوعياً ، فإن هذا لا ينهض دليلا على أنه لا وجود لها .

وعدم الالتفات إلى هذه الأوضاع التى كانت تنهك القوة الحيوية فى أثناء عهد الأساليب التقنية العتيقة ، كان يرجع أساساً إلى الجهل المطبق . ولقد اقتطفت فى مؤلفى «التقنيات والمدنية» (Technics and Civilization) عبارات السخط والدهشة التى أبداها أحد زعماء المدافعين عن هذه المدنية – وهو أندرو أور (Andrew Ure) – بسبب الشهادة التى أدلى بها الأطباء الفطنون الذين دعوا أمام لجنة سادلر للبحث فى شئون المصانع ، فإن هؤلاء الأطباء أشاروا إلى التجارب التى قام بها الدكتور إدواردز من باريس حول نمو صغار الضفادع ، وأثبت أن ضوء الشمس عامل أساسى لتكامل نموها ، ومن هذا استنتجوا – ونحن نعلم الآن أن ذلك له ما يسوغه تماما –

أن ذلك الضوء ضرورى كذلك لنمو الأطفال . وكان رد أور الشامخ بأنفه أن فى إضاءة المصانع بالغاز البديل الكافى عن الشمس .

وقد بلغ من احتقار هؤلاء النفعيين للطبيعة ولعادات الإنسان المتولدة عن التجارب الطويلة ، أنهم أنشأوا أكثر من جيل واحد على غذاء مجرد من القوة الحيوية ولا يقوم إلا على أساس ما يستهلك من الوحدات الحرارية واتقد تحسن ذلك الغذاء فى خلال الجيل الأخير بفضل محصول جديد من المعلومات العلمية ، ولكنه لم يلبث أن فسد من جديد نتيجة لانتشار استعمال مواد سامة من مبيدات الحشرات ومبيدات الآفات لحفظ الطعام وإكسابه مزايا إضافية ، دون أن نذكر شيئاً عن سموم لا تقل عن ذلك ضراوة بما لها من نشاط إشعاعى مثل سترونتيوم ٩٠ . وأما فيما يتعلق ببيئة الوسائل التقنية العتيقة ، فإنها ما زالت طويلة الباع فى مقاومة الإصلاح وتنزل نقمتها بعشرات الملايين من الناس .

وكانت المدن الحديثة تفخر بميزة أخرى تلى القذارة وتماثلها فى سوء تأثيرها فى الحواس . ولم تظهر النتائج الضارة لهذه الآفة إلا فى السنين الأخيرة بفضل ما حدث من التقدم فى الوسائل التقنية التى ليست غير مرتبطة بالتليفون ، وهو ذلك الابتكار النموذجى للوسائل التقنية الحيوية ، وإنى لأعنى بذلك الضجيج ، وليسمح لى بالاستشهاد بما رواه شاهد سماع عن برمنجهام فى منتصف القرن التاسع عشر :

« ما من مدينة فى العالم فيها صناعات ميكانيكية أشد ضجيجاً ، فالطرق على السندان لا ينقطع ، وطنين المحركات لا ينتهى ، بينما تسمع دمدمة ألسنة اللهب وهدير الماء ، وزئير البخار ، ومن حين إلى آخر تدوى أصوات جشة جوفاء صادرة عن بيت التجارب ، حيث تختبر الأسلحة النارية ، فالناس يعيشون فى جو تتجاوب فى أرجائه أصوات الضجيج ؛ ويبدو كما لو أن ذوقهم قد سرى إليه الطابع السائد ، فأصبح صاخباً على شاكلة مبتكراتهم » .

فعدم المبالاة بالرنين والضجيج كان صفة نمطية ، ألم يعمد أرباب الصناعة فى إنجلترا إلى منع وات (Watt) من تقليل الضجة الصادرة عن محركه الترددى (reciprocating engine) لأنهم كانوا يريدون دليلا على قوته تحس به الأذن ؟

وقد أثبتت تجارب عديدة اليوم أن الضجه تستطيع إحداث تغيرات فسيولوجية بعيدة الأثر ، فالموسيقى تستطيع أن تقلل من خلايا البكتيريا فى اللبن ، ويؤيد ذلك ما يبدو من أن عللا معينة . مثل قرح المعدة ، وارتفاع ضغط الدم ، تشتد وطأتها بتأثير معاناة الإقامة مثلا على مسمع من ميناء جوى ، أو طريق زاخر بحركة المرور . وقد ثبت بجلاء أيضاً أن الضجة تسبب هبوط مستوى الكفاية فى العمل ، ولكن لسوء الحظ يظهر أن بيئة الأساليب التقنية العتيقة قد هيئت خصيصاً لتحدث أكبر قدر من الضجة ، فالنعيب المبكر لصفارة المصنع ، وصراخ القاطرة ، وصليل واندفاع المحرك البخارى العتيق الطراز ، ونشيج وأزيز دوران الأعمدة والسيور ، وقرقعة النول وحفيفه ، ووقع ضربات المطرقة ، وهمهمة وخنّة الأجهزة الناقلة ، وصيحات العمال الذين عملوا وأخذوا نصيباً من « الراحة » وسط هذه الضجة المختلفة الألوان – كل هذه الأصوات كانت تساعد فى الانقضاض الشامل على الحواس .

وعند تقدير الكفاية الحيوية للريف بالقياس إلى المدينة ، أو لمدينة العصور الوسطى بالقياس إلى مدينة الأساليب التقنية العتيقة ، يجب ألا ننسى أثر هذا العامل الهام فى الصحة . ولم تؤد ضروب التحسين التى تمت أخيراً فى بعض النواحى – مثل استعمال نعال من المطاط وإطارات من المطاط – إلى تخفيف أسباب الشكوى ، لأن الضجة التى تحدث فى مدينة مزدحمة بسيارات الركوب وسيارات النقل التى تسير بقوة البنزين ، عند إدارة محركاتها ، أو عند تغيير المسننات (تروس) ، أو عند ما تنطلق مندفعة فى

سيرها ، ليست إلا دليلا على عدم بلوغ درجة الكمال الفنى . ولو أن الجهود التى بذلت فى سبيل تحسين طراز هيكل السيارات وجهت إلى وضع تصميم لوحدة صامتة تولد الطاقة الحرارية عن طريق الكهرباء ، لما كانت المدينة الحديثة تضارع فى التأخر مدينة الوسائل التقنية العتيقة من حيث الضجة والأبخرة . وبدلا من ذلك فإن الحواضر « المتقدمة » فى مضمار استخدام السيارات ، مثل لوس أنجليس ، تعرض بل تضخم كل المساوئ الحضرية لعهد الوسائل التقنية العتيقة .

وتدل التجارب الخاصة بالصوت التى أجريت فى شيكاجو فى ثلاثينيات القرن العشرين ، على أنه لو وضع لمقادير الصوت ترتيب يتدرج فى وحدات نسبية تصل إلى مائة فى المائة — وهو مقدار الصوت ، كصوت قصف المدافع ، الذى من شأنه إذا استمر مدة طويلة أن يدفع بالمرء إلى الجنون ، فإن مقدار الضجة فى الريف يتراوح بين ثمان وعشر درجات ومقدارها فى الضواحى يبلغ خمس عشرة درجة ، وفى المناطق السكنية فى المدينة خمسا وعشرين درجة ، وفى المناطق التجارية ثلاثين فى المائة ، وفى المناطق الصناعية خمسا وثلاثين فى المائة . ولا شك فى أن هذه الخطوط العريضة خليقة أن تنطبق على الحالة فى كل مكان تقريباً فى خلال القرن ونصف القرن الأخيرين ، ولو أنه من المحتمل أن الحدود القصوى كانت أعلى من ذلك . ويجب أن نذكر أيضا أن مدن الأساليب التقنية العتيقة لم تقم بأى مجهود لفصل المصانع عن مساكن العمال ، ولذلك فإنه فى كثير من المدن كانت الضجة موجودة على الدوام فى كل مكان فى أثناء النهار وأحياناً كثيرة فى أثناء الليل . وعصر النقل الجوى الذى يقضى بضوضاء طائراته على القيمة السكنية للضواحى المجاورة للموانئ الجوية ، ينذر الآن بمزيد من التوسع فى نطاق هذا الاعتداء على الحياة والصحة .

وعند التأمل فى حالة هذه المدن الصناعية الجديدة على أساس مستواها الأدنى ، من حيث الاعتبارات المادية بغض النظر عن وسائلها الاجتماعية أو حضارتها ، فإنه من الواضح أنه لم يسبق إطلاقا فيما سجله التاريخ أن عاشت مثل هذه الجموع الهائلة من الناس فى بيئة انحدرت إلى هذا الدرك من التدهور الهمجى ، وكانت قبيحة فى شكلها ومنحطة فى مشتملاتها : فأرقاء السفن القديمة فى الشرق ، والأسرى التاعسون الذين كانوا يعملون فى مناجم الفضة التابعة لأثينا ، والطبقات العاملة الفقيرة التى كانت تعيش فى « جزر » روما – هذه الطبقات قد عانت ولا شك مثل هذه الحالة الكريهة ، بيد أنه لم يحدث إطلاقا من قبل أن ارتضى الناس فى كل مكان بلية بشرية واعتبروها أمراً عاديا – عاديا ومحتوما .

٨ – الهجوم المضاد

لعل أجل ما قدمته المدينة الصناعية من الخدمات كان ما أحدثته من رد الفعل إزاء أكبر ما ارتكبته هى ذاتها من أخطاء ، وفى مقدمتها ما يتعلق بالصحة الوقائية أو الصحة العامة . وكانت النماذج الأولى لهـــذه المساوئ سجون ومستشفيات القرن الثامن عشر التى تفشت فيها الأوبئة ، فكان من شأن تحسين حالتها أنها أصبحت بمثابة منشآت يسترشد بها فى مجال إصلاح المدينة الصناعية . وبفضل الأعمال الجليلة التى تمت فى القرن التاسع عشر ، من صب أنابيب للمجارى من الخزف المصقول ، وسبك أنابيب من الحديد ، تيسرت الإفادة من موارد بعيدة للماء النقى نسبيا ، وتصريف المواد البرازية فى مكان يبعد على الأقل إلى حيث يوجد جدول قريب . وقد كان تكرار تفشى الملاريا والكوليرا والتيفود وسل الكلاب ، حافزا على استحداث هذه المبتكرات ، نظرا إلى أن واحدا بعد آخر من رجال

الصحة لم يجدوا صعوبة فى إثبات الصلة بين هذه الأوبئة والقذارة وفرط الازدحام والماء الملوث والطعام الفاسد .

وفيما يتعلق بالأمر الجوهرى فى تدهور المدن ، فإن چون رسكين قد تناول صميم الموضوع حين قال : « إن تدبير المساكن من أجل الطبقات العاملة يتطلب قدراً عظيما من التشريع الحازم ، وتقليم أظافر الصوالح المادية التى تقف فى الطريق ، وبعد ذلك ، أو قبل ذلك تبعاً لمدى ما نستطيع الوصول إليه ، عن طريق اتباع الوسائل الصحية الوقائية والعلاجية فيما لدينا من المنازل ، ثم نعمد إلى بناء المزيد منها على نحو متين جميل ، وفى مجموعات محدودة النطاق بما يتناسب وحركة العمران مع إقامة أسوار حولها ، حتى لا تقوم فى أى مكان ضاحية يغشاها المرض ويخيم عليها البؤس ، بل توجد شوارع نظيفة تعج بالحركة فى الداخل ويكتنفها الريف الطلق الهواء فى الخارج ، مع إطار من الحدائق وبساتين الفاكهة الجميلة حول الأسوار ، بحيث إذا مضى الإنسان بضع دقائق من أى مكان فى المدينة أمكنه بلوغ الهواء النقى الصافى ، والحشيش اليانع ، ومنظر الأفق المترامى » . وحتى أصحاب المصانع استرعت انتباههم هذه الرؤيا السعيدة فشرعوا هنا وهناك ، فى بورت سانلايت (Port Sunlight) وبورنقيل (Bournville) ، فى تشييد قرى صناعية نافست فى جمالها أبدع الضواحى التى أنشئت فيما بعد .

ولقد أصبح الهدف الأول للتخطيط السليم هو أن تنعم المدينة من جديد بضوء الشمس ، والهواء العليل والماء النقى والساحة الخضراء الطلقة . وكانت الحاجة ملحة إلى كل ذلك إلى حد أن كاميلّو سيتى (Camillo Sitte) — بالرغم من غرامه الشديد بالجمال الحضرى — أكد المهمة الصحية للحديقة العامة الحضرية بوصفها خضرة ضرورية للصحة ، أو على حد

تعبير « رئتى » المدينة ، اللتين أدرك الناس حديثاً أهميتهما عندما افتقدوا وجودهما .

وأصول عبادة النظافة أقدم من عهد الأساليب التقنية العتيقة ، فإنها تدين بالكثير للمدن الهولندية فى القرن السابع عشر ، بما كان لديها من الموارد الوفيرة للماء ، وبنوافذها الكبيرة للمنازل التى كانت تكشف عن كل ذرة من الغبار فى الداخل ، وبأرضية منازلها المغطاة بالقرميد ، مما جعل ما كانت ربة البيت الهولندية تبذل من جهد فى التنظيف بالحك والدعك مضرب الأمثال . ولقد تلقت النظافة عوناً علمياً بعد سنة ١٨٧٠ ، فما دام البدن منفصلا عن العقل بموجب المذهب الثنوى ، كان فى الوسع الاستخفاف بأمر العناية بالبدن على وجه منتظم ، بوصف ذلك الاستخفاف دليلا – على وجه التقريب – على مزيد من الانشغال الروحانى . بيد أن الفكرة الجديدة عن الكائن الحى – وهى التى نادى بها فى القرن التاسع عشر يوهانس ميلر Johannes Müller وكلود برنار Claude Bernard – وحدت بين العمليتين الفسيولوجية والنفسانية ، ومن ثم فإن العناية بالبدن أصبحت من جديد واجباً نظامياً من الناحيتين الخلقية والجمالية . ولقد تسنى لباستور Pasteur ، عن طريق البحوث التى قام بها عن الجراثيم ، أن يعدل الرأى السائد فيما يتعلق بكل من البيئة الخارجية والبيئة الداخلية للكائنات الحية ، فإن كائنات فتاكة دقيقة بحيث لا تراها العين المجردة كانت تنمو وتزدهر فى البراز والأقذار ، ويبيدها إلى حد كبير الصابون والماء وضوء الشمس . ونتيجة لذلك فإن الفلاح الذى يقوم اليوم بحلب البقرة يتخذ من الاحتياطات الصحية ما كان جراح فى لندن فى أواسط عهد الملكة فيكتوريا لا يكلف نفسه عناء اتخاذها قبل الشروع فى القيام بجراحة كبرى ، إلى أن علمه ليستر (Lister) أن يتصرف على نحو أفضل من ذلك . والمعايير الجديدة التى وضعتها فاورنس نيتنجيل Florence

Nightingale للمستشفيات ، من حيث الضوء والهواء والنظافة ، طبقتها حتى فى غرفة الجلوس بمنزلها ذات الحوائط البيضاء — وكان ذلك تمهيداً حقيقياً « للروح الجديدة » التى بثها لوكوربزييه (Le Corbusier) فى فن المعمار الحديث ، وهى روح صحية جديرة بالإعجاب .

وفى النهاية فإن عـــدم اكتراث المدينة الصناعية بالظلمة والقذارة قد تكشف عن حقيقة أمره ، وهى أنه كان همجية بشعة . وقد كان من شأن ازدياد التقدم فى مضمار العلوم البيولوجية إبراز مساوئ البيئة الجديدة بما فيها من دخان وضباب وأبخرة . وتبعاً لازدياد معلوماتنا الطبية المستمدة من التجارب ، تزداد قائمة هذه المساوئ طولا ، وهى تشتمل اليوم على المائتى المادة التى تسبب السرطان ، وما زالت توجد عادة فى هواء أغلب المدن الصناعية ، دون أن نذكر شيئاً عن ألوان الغبار المتطاير من المعادن والصخور والغازات السامة ، وهى التى تزيد فى حالات الإصابة بأمراض الجهاز التنفسى وتجعل هذه الأمراض أشد فتكا بالحياة .

وعلى الرغم من أن دافع المعلومات العلمية أثر على مهل فى تحسين الأحوال فى المدينة بوجه عام ، فإنه كان أسرع أثراً فى الطبقات المتعلمة والميسورة الحال ؛ إذ أنها اتعظت مما عرفته ، وفرت من المدينة إلى بيئة لم تبلغ هذه الدرجة من الخطورة على الصحة . وقد كان أحد أسباب هذا التطبيق المتأخر لقواعد الصحة الحديثة فى تصـــميم المدينة ، أن التحسينات الفردية فى الأجهزة الصحية للمساكن كانت تقتضى زيادة جوهرية فى النفقات ، وتتضح زيادة التكاليف فيما استخدمته البلدية من أموال أكثر ضخامة فى سبيل إنشاء مرافق جماعية ، وفيما فرضته البلدية من ضرائب أشد وطأة لصيانة تلك المرافق .

وعلى نحو ما كان النظام الصناعى الباكر لا يقتصر على اعتصار أرباحه مما اقتصدته المكنات من تكاليف الإنتاج بل من فاقة العمال ، كانت مدينة

المصنع الفجة تحتفظ بأجورها وضرائبها المنخفضة عن طريق استنزاف ثروة البيئة وإفقارها . وكانت قواعد الصحة تحتاج من المكان والمعدات البلدية والموارد الطبيعية إلى ما كان منعدما حتى ذلك الحين . وبمرور الزمن قضت هذه الحاجة باتباع المبادئ الاشتراكية فى الشئون البلدية بوصفها من المستلزمات العادية لوجوه التحسين فى أداء الخدمات العامة ، فلا إمداد الماء النقى ، ولا تصريف القمامة والفضلات ومواد المجارى على نحو جماعى كان يتسنى الاعتماد على ضمائر الأفراد لتدبير أمرهما أو مجرد الإشراف عليهما إلا إذا كان يمكن الحصول على ربح من وراء ذلك .

ومن المحتمل أنه فى المراكز الصغرى كان يترك للشركات الخاصة حق القيام بأمر واحدة أو أكثر من هذه الخدمات إلى أن يتفشى مرض كريه فيكون ذلك سبباً فى فرض إشراف السلطات العامة . وأما فى المدن الكبرى فإن اتباع المبادئ الاشتراكية كان ثمن الأمان ، ولذلك فإنه – على الرغم من المطالبة النظرية بحرية العمل – أصبح القرن التاسع عشر قرن الاشتراكية البلدية ، وهو ما أصاب فى إيضاحه بياتريس وسيدنى وب . فكل تحسين على حدته فى داخل المبنى ، كان يتطلب أن تكون المرافق التى يفيد منها تحت ملكية وإدارة جماعية ، أى شبكة أنابيب للمياه ، وخزانات للمياه ، وقناطر مرتفعة لحمل قنوات المياه ، ومحطات للضخ ، وكذلك شبكة للمجارى ، ووحدات لضخ المجارى ، ومزارع لمواد المجارى . ولم يكن ينقص سوى الملكية العامة للأرض من أجل اتساع نطاق المدينة ، ووقاية المدينة ، وتعمير المدينة . وهذه الخطوة التقدمية كانت إحدى الخدمات الهامة التى قدمتها مدينة ايبنزر هوارد ذات الحدائق .

وبفضل اتباع المبادئ الاشتراكية الفعالة على نطاق واسع اتجه إلى الهبوط المعدل العام للوفيات ، ومعدل وفيات الأطفال بعد سبعينيات القرن التاسع عشر . وقد بلغ من وضوح أثر هذه التحسينات أن ازداد مقدار

الأموال التى كانت البلديات تنفقها على هذه المرافق طبقاً لمبادئ الاشتراكية . بيد أن الاتجاه الرئيسى ظل سلبياً ، إذ أن الأحياء الجديدة فى المدينة لم تعبر بأى وسيلة إيجابية عن إدراك ما جاءت به العلوم البيولوجية عن تبادل التفاعل بين البيئة والكائن الحى فى مجموعه . وحتى فى وقتنا الحاضر ، إزاء استعمال نوافذ كبيرة من الزجاج مغلقة إغلاقاً محكماً ، جرياً وراء البدع الذى يزعم أنه حديث ، يتعذر علينا أن نتبين أن داونز (Downes) وبلنت (Blunt) قد أثبتا منذ سنة ١٨٧٧ ما لضوء الشمس المباشر من خواص فى إبادة الجراثيم . وأن هذا التصرف المنافى للعقل ليكشف إلى أى مدى ما زال احترام العلم سطحياً بين الكثير من المفروض فيهم أنهم متعلمون ، بل تقنيون .

ولأول مرة أصبحت الآن فى متناول سكان المدينة بأسرها ضروب التحسينات الصحية التى عملت أصلا فى قصور سومر وكريت وامتدت فى زمن لاحق إلى قصور النبلاء فى روما . وكان هذا نصراً للمبادئ الديمقراطية التى لم يتيسر حتى للأنظمة الدكتاتورية أن تكبتها ، والواقع أن أجل الخدمات العامة التى أسداها الرجل الذى أطاح بالجمهورية الفرنسية الثانية ، كانت تتمثل فى تنظيف باريس تنظيفاً هائلا على يد البارون هوسمان ، وهى خدمة جوهرية بل مبتكرة إلى حد يفوق بكثير أيا من أعماله الأبعد صيتاً فى مجال التخطيط بأدق معنى الكلمة .

وكانت نيويورك أول مدينة كبيرة حققت التزود بكميات وافرة من المياه النقية عن طريق تنفيذ مشروع كروتون (Croton) للخزانات والقنوات الذى افتتح فى سنة ١٨٤٢ ، ولكن بمرور الزمن اضطرت كل مدينة كبيرة إلى الاقتداء بهذا المثال . وقد ظل تصريف مواد المجارى أمراً عسيراً ، وفيما عدا المدن الصغيرة إلى حد أن ما لديها من مزارع المجارى يستطيع تحويل طبيعة كل هذه الفضلات ، فإن هذه المشكلة لم تحل بعد على وجه

واف بالغرض . وعلى الرغم من ذلك فإنه عند نهاية القرن التاسع عشر كانت القاعدة الأساسية التى استقر عليها الوضع هى أن يكون لكل أسرة مرحاض صحى خاص ، أى دورة مياه متصلة بالمجارى العامة فى البيئات المتلاصقة المبانى . وأما القمامة ، فإن ما جرت به العادة من إلقاء أو إحراق هذا السماد الزراعى الثمين ، ما زال وجهاً من وجوه الخطأ المستديم فى تدبير شئون البلديات على أساس غير علمى :

وقد ظل تنظيف الشوارع مشكلة أشد صعوبة إلى أن عم استعمال القوالب البلجيكية والأسفلت ، واستبعد استخدام الحصان ، وأصبحت موارد المياه العامة وفيرة ؛ ومع ذلك فقد ثبت فى النهاية أن هذه المشكلة كانت أيسر علاجا من تنقية الهواء . وحتى فى يومنا الحاضر ، لا يزال حجب الأشعة فوق البنفسجية ، بسبب فرط الغبار والدخان ، عاملا من عوامل إضعاف الحيوية التى تتسم بها المراكز الحضرية الشديدة الإفراط فى الازدحام . وقد ازدادت هذه العوامل بدلا من أن تقل باستخدام السيارة الأنيقة من حيث المظهر ولكنها عتيقة من الوجهة التقنية ، بل إنها أضافت سم أول أكسيد الكربون الذى لا تراه العيون . ومن قبيل التعويض الجزئى ، فإن إدخال المياه الجارية والحمامات فى منازل السكنى – والمرحلة الوسطى فى إعادة إنشاء الحمامات العامة التى هجرت منذ العصور الوسطى – لا بد من أن يكون قد ساعد على إنقاص حالات المرض بوجه عام ، ووفيات الأطفال بوجه خاص .

وإذا نظرنا إلى الموضوع برمته ، فإن العمل الذى قام به الداعون إلى إصلاح الوسائل الصحية الوقائية والعالمون بأساليب المحافظة على الصحة – مثل تشادويك Chadwick ، أو فلورنس نيتنجيل ، أو لويس باستور أو بارون هوسمان – قد أزال من الحياة الحضرية فى أحط دركاتها بعضاً من أسوأ ما كان فيها من أسباب الفزع وامتهان البدن . وإذا كانت

النواحي الخلاقة في حياة المدينة قد تناقصت نتيجة للتصنيع ، فإن النتائج السيئة الناشئة عن فضلات الإنتاج وفضلات الإنسان قد تناقصت أيضاً بمرور الزمن . وحتى أجساد الموتى أسهمت فى الإصلاح ، فقد تألفت حلقة خضراء من ضواحي المدافن وحدائقها حول المدينة الآخذة فى النمو . وهنا ، مرة أخرى ، نجد أن الطريقة الجريئة الفذة التى عالج بها هوسمان هذه المشكلة ، جديرة بتحية ملؤها الاحترام .

ولقد كانت البيئة الجديدة تفتقر إلى الصفات الصحية أفتقاراً صارخاً إلى حد أنه لا يكاد يوجد ما يدعو إلى الدهشة من أن الحركة المضادة التى قامت من أجل الصحة ، قدمت أجل الخدمات الايجابية لتخطيط المدن فى خلال القرن التاسع عشر . ولقد أدمجت المثل العليا الجديدة بصفة وقتية فى مدينة طوباوية (يوتوبيا) أطلق عليها اسم مدينة الصحة (Hygeia) وهى التى دعا إليها الدكتور بنيامين وارد ريتشاردسون "Benjamin Ward Richardson" فى سنة ١٨٧٥ .

وهنا يستشف المرء بوادر لا شعورية لرفض درجة فرط الازدحام التى أصبحت أمراً مقبولا ، وذلك لأنه على حين أن ابينزر هوارد ، بعد ذلك بزمن يقل عن مدى جيل واحد ، خصص ٦٠٠٠ فدان لتضم وتحتوى ٣٢٫٠٠٠ نسمة ، فإن ريتشاردسون اقترح فى مشروعه وضع ١٠٠٫٠٠٠ من السكان فى ٤٫٠٠٠ فدان . وفى المدينة الجديدة ، كان يتعين أن تكون السكة الحديدية تحت سطح الأرض على الرغم من أن القاطرات التى تسير بالبخار كانت هى الشائعة إذ ذاك ، بيد أنه لم يكن ليسمح بوجود طوابق فى المنازل تحت سطح الأرض على أى وجه من الوجوه ، وهو حظر لقى تأييداً تشريعياً فى انجلترا . ولكن البناء كان يجب أن يكون من الآجر فى الداخل وفى الخارج بحيث يكون قابلا للغسيل بخراطيم الماء — وهو حلم من أحلام الرجولة التى لا تفتأ تراود المخيلة —

كما أن مداخن المدافىء كان يجب أن تتصل بمجار رئيسية لتنقل الكربون الذى لم يحترق إلى فرن بالغاز حيث يتم استهلاكه .

وإذا كانت بعض هذه المقترحات تبدو عتيقة الآن ، فإن الدكتور ريتشاردسون لم يكن من نواح كثيرة سابقاً لعصره فحسب ، بل إنه كان كذلك سابقاً للعصر الحاضر ؛ فقد اقترح التخلى عن « الفكرة القديمة ، فكرة اختزان المرض على أوسع نطاق » ودعا إلى إقامة مستشفى لكل ٥٠٠٠ر٥ شخص من السكان . وعلى هذا القياس بعينه فإن المعوزين والمسنين والمصابين بخبل فى عقولهم كان يجب إيواؤهم فى مبان متواضعة الحجم . وإذا كانت آراء ريتشاردسون فيما يتعلق بالتكوين المادى للمدينة تعتبر الآن عتيقة ، فإن الآراء التى أسهم بها فيما يتعلق بالعناية الطبيه الجماعية لا تزال فيما أرى جديرة بالتأمل ، فإنه استنادا إلى أسباب وفيرة معقولة ، اقترح العودة إلى ما كان يوجد فى مدينة العصور الوسطى من المعايير الطبية والبشرية.

٩ — المدينة القائمة تحت الأرض

أثر نظام الأساليب التقنية العتيقة فى أوضاع المستقبل الحضرية ، وذلك بوجه خاص بما تمخض عنه من حركات مضادة له ، وبما حفز إليه من نزوح عن المدينة الصناعية . ومنذ ثمانينيات القرن التاسع عشر ، كانت هذه الاتجاهات المضادة تلقى عوناً وتعضيدا من تغير كان يجرى فى داخل الصناعة ذاتها ، ويدفعه قدماً تطبيق النظريات العلمية تطبيقاً مباشرا فى الابتكار ؛ إذ أن النظام الجديد كان يقوم أساسه على القوى الكهربية والمعادن الخفيفة الوزن ؛ مثل الألومنيوم والمغنسيوم والنحاس ، وعلى مواد جديدة مصطنعة مثل المطاط والبكليت واللدائن (Plastics) . ولقد بدأت الإصلاحات الداخلية فى المدينة الصناعية جزئياً من ناحية هذه المبتكرات التى نقرنها بانتشار غرف الحمامات الخاصة ، والتليفون ، والسيارة ، والمواصلات اللاسلكية .

بيد أن رد الفعل الذى نشأ عن النموذج المثالى لمدينة الفحم الكوك وكان أبعد مدى فى آثاره حتى عما تقدم ، كان ذلك الذى تمثل فى الفكرة التى أخذت تتبت فكرة الدولة التى توفر الخدمات العامة . وما من شاهد على ما أوجدته المدينة الصناعية من أحوال التدهور أو الأحوال السيئة بشكل صارخ أفضل من مجموعة التشريعات التى أخذت تتراكم فى القرن الأخير بغية إصلاح تلك الأحوال ، عن طريق أنظمة صحية وقائية وخدمات للصحة ، ومدارس عامة مجانية ، وتأمين للعمل ، وقواعد للحد الأدنى للأجور ، ونظام لإسكان العمال ، وإزالة المساكن الفقيرة ، إلى جانب إنشاء حدائق عامة وساحات للألعاب ، ومكتبات ومتاحف عامة . وما زالت هذه الإصلاحات فى حاجة إلى الإعراب عنها بأوفى معانيها فى شكل جديد للمدينة . ومع ذلك فإن المدينة الصناعية النمطية خلفت جروحاً عميقة فى البيئة ، وقد ظل باقياً بعض من أسوأ سماتها ، ولم يحدث إلا أنها عولجت علاجاً سطحياً بوسائل تقنية حديثة .

فقد ظلت السيارة سادرة فى تلويث الهواء منذ أكثر من نصف قرن دون أن يبذل مهندسوها أى مجهود جدى لكى يزيلوا من « العادم » أول أكسيد الكربون السام إلى درجة عالية ، وذلك على الرغم من أن استنشاقه بضع مرات فى حالته النقية يودى بالحياة . ولم يصلوا كذلك إلى إزالة المواد الايدروكربونية التى لم تحرق ، وهى التى تساعد على إنتاج الضباب الدخانى الذى ينشر غلالته على حاضرة شديدة الازدحام بالسيارات مثل لوس انجليس ، وكذلك فإن مهندسى النقل والطرق الرئيسية الذين أقدموا بلا اكتراث على أن يمدوا فى قلب المدن طرق النقل السريع ، التى تتسع لسير عربات عديدة جنباً إلى جنب ، والذين دبروا مواقف تتسع لعدد ضخم من السيارات وحظائر تودع فيها السيارات — إن هؤلاء المهندسين قد كرروا — بطريقة فذة وعلى نطاق أوسع — أنكر الأخطاء التى ارتكبها مهندسو السكة الحديدية . والواقع أنه فى عين الوقت الذى كانت فيه السكة الحديدية

المقامة على قناطر مرتفعة ، والمستخدمة فى النقل العام ، تجرى إزالتها بوصفها مصدراً خطيراً للإزعاج ، قام هؤلاء المهندسون الغافلون بإعادة إنشاء ذات النوع من المنشآت – التى بطل استعمالها – من أجل راحة السيارات الخاصة . وهكذا فإن كثيرا مما يبدو فى مظهر عصرى براق ، إنما يستعيد الوضع الأصلى لمدينة الفحم الكوك تحت طلاء من معدن الكروم.

وهناك ناحية من المدينة الحديثة ما زالت مدينة الفحم الكوك تسيطر عليها إلى مدى أبعد من ذلك ، بل إن النتائج النهائية التى أفضت إليها أشد أذى للحياة ؛ إذ أن حبك الربط بين المرافق الضرورية المنشأة تحت الأرض أسفر عن نتيجة لا مسوغ لها على الإطلاق ، وهى المدينة القائمة تحت الأرض التى ظن أنها مثالية . وكما يجدر بالمرء أن يتوقع من نظام انبثقت مبتكراته الرئيسية من المنجم ، فإن النفق والطريق المار تحت الأرض كانا وحدهما كل ما أسهم به هذا النظام فى مجال الأوضاع الحضرية ، وليس مما يتنافى مع طبيعة خواص هذين المرفقين أنهما كليهما استمدا مباشرة من الفنون الحربية التى اتبعت أولا فى المدينة القديمة ، وفيما بعد فى العمليات الدقيقة الخاصة بالنسف وبث الألغام التى كان يتطلبها قهر الحصون الباروكية . وإذا كانت وسائل النقل والوقاية ، التى كانت توجد على سطح الأرض فى مدينة الفحم الكوك ، قد استبدلت على نطاق واسع ، فإن شبكة المرافق التى كانت تمتد تحت الأرض فى تلك المدينة قد نمت وتشعبت ، فالأنابيب الرئيسية للمياه والمجارى والأنابيب الرئيسية للغاز والكهربا كانت جميعاً تؤدى خدمات جليلة للمدينة القائمة على ظهر الأرض . وفى ظروف معينة محدودة ، يمكن تبرير السكة الحديدية التى تمتد تحت الأرض والنفق الخاص بالسيارات ، والمراحيض المنشأة تحت الأرض . بيد أن هذه المرافق قد تضخمت الآن بما زيد عليها من الحوانيت والمخازن التجارية المنشأة تحت الأرض ، وأخيرا بالمخابئ التى أنشئت تحت الأرض للوقاية من

الغارات الجوية ، كما لو كان نوع البيئة الذى قامت فيه الأجهزة والمرافق المادية للمدينة قد عاد على سكانه بأى فوائد حقيقية . ولسوء الحظ أن المدينة القائمة تحت الأرض تحتاج إلى الإشراف المستديم من جانب أفراد أحياء من البشر يستبقون أيضا تحت الأرض ، وهذا الإلزام لا يكاد يقل عن الدفن قبل الأوان ، أو هو على الأقل من قبيل الإعداد للمعيشة فى داخل « كبسولات » ، وهو السبيل الوحيد الذى سوف يبقى مفتوحا أمام أولئك الذين يسلمون بأن التقدم الميكانيكى هو المسوغ الرئيسى لكفاح الإنسان فى الحياة .

والمدينة القائمة تحت الأرض نوع جديد من البيئة ، وما هو إلا امتداد لتلك البيئة التى فرضت على عامل المناجم ، وتقييس لهذه البيئة ، وإنما مع فصلها عن ظروفها ووضعها تحت سيطرة التحكم الميكانيكى فى كل ناحية : وهو ما جعلته ميسوراً الإضاءة الصناعية ، والتهوية الصناعية ، والحدود الصناعية لمدى استجابة الإنسان لتلك الحدود التى يرى المهيمنون على تنظيم البيئة أنها كفيلة بالربح أو الوفاء بالغرض . ولقد تكونت هذه البيئة تدريجاً نتيجة لسلسلة من الابتكارات التجريبية ، ومن ثم فإنه — حتى فى أعظم الحواضر طموحاً — قلما نجد أن الشوارع ، أو المرافق الممتدة تحت الأرض (مثل المجارى العظيمة فى باريس) قد روعى فى تصميمها اعتبار الوجهة الاقتصادية عند الترميم والاتصال بالمبانى المجاورة ، ولو أنه من الواضح أنه فى أحياء المدينة الشديدة الازدحام ، يكون من شأن نفق واحد ، يمكن بلوغه من عدة أماكن ، أن يقوم بمهمة شريان جماعى وأن يؤدى فى النهاية إلى تحقيق اقتصاد كبير فى الجهد والنفقات .

وعندما قام هنرى رايت بدراسة تحليلية لتكاليف إنشاء المساكن منذ جيل مضى ، تكشف له أن تكاليف حجرة بأكملها ، كانت تنفق فى الشارع ، فى مختلف المنافع الآلية اللازمة لكى يؤدى المنزل مهمته . ومنذ ذلك الحين زادت التكاليف النسبيه لما يمد تحت الأرض من هذه الأنابيب

والأسلاك والمجارى ، على حين أنه – مع كل توسع فى المدينة ومع كل زيادة فى فرط الازدحام الداخلى – تزداد أيضاً تكاليف النظام بأجمعه زيادة لاتتناسب مع ذلك .

وتحت ضغط التوسع فى إغداق المال على المدينة القائمة تحت الأرض يقل المال الذى يصبح فى متناول اليد لتوفير الأماكن الفضاء وفن المعمار الجميل فوق سطح الأرض ، والواقع أن الخطوة التالية فى مراحل تطور المدينة – وقد اتخذت الآن فى كثير من المدن الأمريكية – هى التوسع فى فكرة المدينة القائمة تحت الأرض حتى تمتد إلى تصميم المبانى التى تقوم فعلا فوق سطح الأرض ، وبذلك يقضى على الفن من جميع الوجوه ؛ إذ أنه حيال الاعتماد على الهواء المكيف والإضاءة الفلورية طوال النهار ، فإن المساحات الداخلية فى ناطحات السحاب الأمريكية الجديدة ، لا تختلف إلا قليلا عما يكون عليه شأنها على عمق مائة قدم تحت سطح الأرض . ومهما يبلغ الإسراف فى الإنفاق على المعدات الميكانيكية ، فإنه لا يعد أكثر مما ينبغى فى سبيل الوصول إلى إيجاد هذه البيئة الداخلية الموحدة النسق ، ولو أن المهارة التقنية التى تبذل فى سبيل صنع مبان محكمة الإغلاق لاتستطيع أن تنشىء ما يعادل خافية عضوية لوظائف الإنسان ووجوه نشاطه .

وكل هذا ليس إلا من قبيل التمهيد ، فإن المدينة التى خلفت مدينة الأساليب التقنية العتيقة قد خلقت من الوسائل والظروف ما يحتمل أن يكون أشد فتكاً من تلك التى أودت بعدد كبير من الأرواح فى مدينة دونورا (Donora) بولاية بنسيلفانيا بسبب ما حدث من تجمع غازات سامة ، أو تلك التى قتلت فى أسبوع واحد من ديسمبر عام ١٩٥٢ عدداً إضافياً من سكان لندن يقدر بخمسة آلاف فرد . وذلك أن استخدام اليورانيوم للحصول على مواد قابلة للانشطار ، لينذر ، لو استمر ، بتسميم اليابسة والجو والمحيط الحيوى – دون أن نقول شيئاً عن مياه الشرب – على نحو سوف يبز أنكر مساوئ المدينة الصناعية الباكرة . فالعمليات

الصناعية السابقة على عهد الذرة كان فى الاستطاعة وقفها ، كما أن فضلات الإنتاج كان فى الوسع استهلاكها أو ردمها ، دون أن تكون مصدر شر مستديم .

بيد أنه عندما يحدث الانشطار ، فإن الفاعلية الإشعاعية التى تنطلق من عقالها تبعاً لذلك تظل باقية طوال حياة الأجسام الناتجة عن الانشطار ، وهى حياة تقدر أحياناً بقرون عديدة أو حتى بآلاف السنين . ولا يمكن تحوير الأجسام الناتجة عن الانشطار أو التخلص منها دون أن تتلوث فى النهاية المنطقة التى يلقى بها فيها ، سواء أكانت الطبقات العليا من الفضاء (استراتوسفير) أم فى قاع المحيط . ومع ذلك يجرى دون هوادة صنع هذه المواد الفتاكة ، استعداداً لاعتداءات عسكرية جماعية تستهدف إبادة شعوب بأكملها . ولجعل هذه الاستعدادات الإجرامية الجنونية مستساغة ، دأبت السلطات العامة على تعويد مواطنيها السير وادعين إلى أقبية وطرق تحت سطح الأرض « للوقاية » . والنفقات المذهلة ، التى يستدعيها إنشاء شبكة كاملة من المدن تحت الأرض تكفى لإيواء السكان بأسرهم ، هى وحدها التى تحول الآن دون إساءة استخدام الطاقة البشرية على هذا الوجه الشاذ .

ورجل الصناعة فى عهد الملكة ڤيكتوريا ، حين كان يعرض مواطنيه للسناج والضباب الدخانى ، ولمرافق صحية سيئة ولأمراض ناشئة عن البيئة ، كان يعتقد أن عمله يؤدى فى النهاية إلى « السلام والوفرة » بيد أن خلفاءه فى المدينة القائمة تحت الأرض لا تساورهم مثل هذه الأوهام ؛ فإنهم فريسة المخاوف القهرية والخيالات الفاسدة التى قد تكون نتيجتها النهائية إبادة العالم ومحوه من الوجود ، وكلما أوغلوا فى تكريس أنفسهم لجعل بيئتهم الحضرية تتلاءم مع هذا الاحتمال ، كان ذلك أدعى إلى الجزم بأنهم سيجلبون الفناء المطلق الشامل للجنس البشرى ، وهو ما يسوغه الكثيرون منهم فى أذهانهم بوصفه الثمن الضرورى للحفاظ على « الحرية » و « المدنية » . وقد التزم سادة القلعة القائمة تحت الأرض بشن حرب

لا يمكنهم وقفها ، وبشن هذه الحرب بأسلحة لا يمكنهم التحكم فى نتائجها النهائية ، ومن أجل أغراض لا يمكنهم تحقيقها . وتبعا لذلك فإن المدينة القائمة تحت الأرض تنذر بأن تغدو المثوى الأخير لمدنيتنا بعد إحراقها .
وليس أمام رجل العصر الحديث سبيل آخر سوى أن يبرز إلى النور من جديد وأن تكون لديه الشجاعة لا ليفر إلى القمر ، بل ليعود إلى بيئته البشرية — وأن يسيطر على ما يثير النزاع من العوامل القهرية والأعمال المنافية للعقل التى يشارك فيها حكامه وناصحيه . ولا يقتصر واجبه على أن ينسى ما تعلّمه من فن الحرب ، بل عليه أن يتعلم فنون الحياة ويحذقها على نحو لم يصل إليه إطلاقا من قبل .

الفصل السادس عشر

الضواحي وما وراءها

١ — الضاحية التاريخية

إن أولئك الذين تولوا قيادة « سير المدنية » منذ القرن الثامن عشر كانوا يجنحون إلى احتقار الريف ، موطن الفلاحين المتأخرين ، والريفيين أصحاب الشعر الكث الغزير ، والأرستقراطيين الذين ينشدون اللهو ويعيشون من دخلهم الإقطاعى وليس على الأرباح التى يعتصرونها من التجارة والصناعة . بيد أنه حتى فيما بين المتنفعين وقادة النفعيين كان الدافع الذى يحملهم على الفرار من بيئتهم الصناعية دافعاً شائعاً ؛ فى الواقع كان من أمارات النجاح أن يكون لدى المرء من الثروة ما يكفى للفرار من تلك البيئة .

وقبل أن تنشأ المدينة الصناعية بزمن طويل ، كانت فكرة الابتعاد عن تعقيدات المدنية قد أصبحت جذابة من جديد فى نظر العقل الأوروبى ، كما سبق أن حدث إبان تدهور روما . فأمام الضجور والجسور ، كان يوجد فتح واستعمار بلاد جديدة وما يقترن بذلك من المشاعر الخيالية التى كانت تثيرها فى النفس تلك الفيافى الباقية على طبيعتها ، وأما من كانوا أكثر ميلا للتأمل والتفكير وولعاً بالبقاء فى موطنهم ، فقد كان أمامهم صيد السمك ، أو التجوال حيثما شاءوا ، أو فلاحة البساتين ، أو القيام برحلات للتنزه مع أسرهم ، أو الاستغراق فى التأمل على انفراد وسط الغابات . ودون انتظار مجئ روسو ليثبت أن أغلب ما فى الحياة من علل كان مرجعه إلى الطقوس العقيمة لمدنية جاوزت الحد فى رفاهتها ، فإن

كثيرين من الأوروبيين كانوا قد بدأوا يتصرفون على أساس هذه المقدمات .

وكانت حياة الريف تبدو أفضل حالا ، وكلما ازداد المرء ابتعاداً عن المدينة ، ازداد اكتساباً للصحة والحرية والاستقلال . والواقع أن أغلب المزايا الصحية التي توافرت لضاحية القرن التاسع عشر كان قد سبق إدماجها في المدينة الريفية ، مع مزيد من المراعاة للاختلاط والتعاون الاجتماعي على وجه يفوق ما كان يمكن تحقيقه في مجتمع الضاحية ذي الطبقة الواحدة . وقد أثبتت جداول التأمين على الحياة تفوق الريف من حيث القوة الحيوية الحيوانية ، ففي إنجلترا كان الفلاح والسيد الريفي أوفر الناس حظاً من حيث طول الأجل .

وعلى الرغم من أن ظهور الضاحية أوجد تغييرات هامة في كل من المشتملات الاجتماعية والنظام المكاني في المدينة ، فإنه من الغريب أن أغلب من قاموا بتفسير تطور المدينة قد أغضوا عنها حتى عهد قريب ، وحتى القليل من الكتاب الذين تناولوا في إيجاز تخطيط الضاحية — وبخاصة الأستاذ كريستوفر تنارد Professor Christopher Tunnard — اعتبروها ظاهرة حديثة نسبيا . ولكن واقع الأمر هو أن الضاحية ظهرت في الوجود تقريبا في عين الوقت الباكر الذي ظهرت فيه المدينة . ولعل هذا يفسر قدرة المدينة القديمة على البقاء برغم سوء الحالة الصحية التي كانت سائدة في داخل أسوارها . (وقد عثر وولي Woolley على أدلة عن إقامة منشآت في ضواحي « أور العظمى » فيما وراء المنطقة التي أقيمت عليها مباني المدينة ، وهي عبارة عن مبان متناثرة في منطقة تمتد حتى معبد العُبيد على بعد أربعة أميال) . وإذا كنا في شك فيما يتعلق بتخطيط المدينة المصرية والجزء الأوسط فيها ، فإن كلا من التصاوير والنماذج الجنائزية تطالعنا « بفيلا » الضاحية ذات الحدائق الفسيحة . وقد ورد في التوراة ذكر أكواخ صغيرة كانت

تبنى فى وسط الحقول أو ساحات الكروم المفتوحة ، ولعلها كانت لحراسة المحصولات فى أثناء الليل عندما كانت على وشك أن تجمع ، ولكن لا شك فى أنها كانت أيضا لإنعاش النفس وقد سئمت الآجر والروائح الكريهة فى المدينة ذاتها . وما زال يحتفل بذكرى هذه المآوى الواهية فى عيد اليهود بمناسبة محصول الخريف .

وفى جميع عصور التاريخ ، نجد أن أولئك الذين كانوا يملكون أو يستأجرون أرضاً خارج أسوار المدينة ، وحتى إذا كانوا لا يزاولون فعلا عملا زراعياً ، كان يعنيهم أن يكون لهم فى الريف كوخ صغير أو منزل بسيط أو مأوى يتفيأ ظلال كرمة ، مما يشيد للإقامة المؤقتة إن لم يكن للإقامة المستديمة . ولم ينتظر سكان المدن الباكرة مجئ وسائل النقل السريعة للانتفاع بهذا الاسترواح الريفى . وطوال الوقت الذى بقيت فيه المدينة نسبيا وحدة متماسكة مستقلة بمحتوياتها ، كان من الميسور الاحتفاظ بتوازن بين المهن الريفية والحضرية ، أجل ، وبين ألوان المتعة الريفية والحضرية ، كالمأكل والمشرب والرقص والألعاب الرياضية ومطارحة الغرام ، وكانت كل وسيلة من وسائل الترويح عن النفس تحوطها هالة من جو الأعياد وسط منظر طبيعى تنتشر فيه الخضرة ويسطع فيه ضوء الشمس . وكان من أكبر مساوئ استمرار النمو الحضرى أنه جعل هذا الإطار الباعث على السرور شديد البعد عن المدينة وقصره باطراد على الطبقات الحاكمة .

وقد رأينا فى الفترات السابقة أنه لما كانت طوائف ومنظمات جديدة تتطلب حيزاً أوسع مما كان يتسنى للمدينة المكتظة أن توفره ، فإنها استقرت بحكم الضرورة فى أطرافها ، فى مناطق صغيرة منعزلة . ولم يكن الايسكليبيوم (Aesclepium) بجزيرة كوس هو وحده الذى يقع خارج المدينة — على حد ما يروى لنا سارتون — بل إن الجمنازيوم وحتى الأكاديمية كان كثيراً

ما يختار لها موقع فى ضواحى المدينة الإغريقية ، على غرار الحديقة التى نقرنها باسم الفيلسوف أبيقور .

وقد رأينا كذلك فى العصور الوسطى أن الدير كثيراً ما كان يستقر خارج أسوار المدينة بعد القرن الثانى عشر ، قبل أن تطوقه المدينة نتيجة لنموها المتزايد . وفى كل حالة ، كان النموذج المميز للضاحية نموذجا طلق الهواء ، حيث كانت تقوم جنبا إلى جنب المبانى ، حدائق وبساتين للفاكهة وممشى ظليلة وليس فضاء مقفراً . والجامعات العظيمة مثل أوكسفورد وكمبردج ، التى نشأت فى مدن ريفية ، نشدت وأوجدت لنفسها بيئة تماثل بيئة الحدائق ، وفى الواقع لعل جهودها من أجل الفوز بترف الرحابة زاد من استعار العداء بين المدينة والجامعة .

ويشير الظهور الباكر للضاحية إلى حقيقة أخرى أخطر شأنا ، وهى أن وسائل إعالة الحياة – من فلاحة بساتين وزراعة ، ومن رياضة وألعاب ، ومن مصحات ومنتجعات للصحة – تنتمى إلى الريف المجاور للمدينة ، حتى عندما تكون الوظائف التى تنهض بها ناشئة عن احتياجات المدينة ووجوه النقص فيها .

حقا إنه عند حلول القرن التاسع عشر كانت الحركة الرومنطيقية قد أوجدت تفسيراً عقليا جديداً لحركة الهجرة إلى الضواحى ، وكان قد تولد عن اطراد ازدياد الدخان وفرط الازدحام فى المدينة حافز جديد إلى هذه الهجرة ، بيد أنه من الخطأ اعتبار سكنى الضواحى مجرد نتيجة لهذا الرأى الفلسفى ، فإنها كانت ذات جذور أقدم وأعمق من ذلك . وإن ما يحتاج إلى تعليل ليس الهيام بالطبيعة الذى أصبح عاما شائعا فى القرن الثامن عشر وأحدث تأثيراً فى كل شىء من الطب إلى التعليم ، ومن العمارة إلى الطهى ، بل على الأصح أن الناس كثيراً ما تشبثوا مدى قرون ببيئة مزدحمة أنهكت قواها ، وتبدلت طبيعتها ، وضاق الخناق عليها ، وكان أكبر أسباب عزائهم عما كانوا فيه من بؤس صحبة أمثالهم من البؤساء .

وعندما ترسم خرائط وتؤخذ مناظر من الجو لمدن العهد الأخير من العصور الوسطى ، سوف نرى أدلة مفصلة عن وجود أكواخ ومنازل صغيرة و « ڤيلات » مع حدائق فسيحة خارج أسوار المدينة ؛ إذ أنه عند حلول القرن السادس عشر كانت الأرض المستعملة على هذا الوجه تستخدم لأغراض تتجاوز الإقامة فى الصيف والتريض . والواقع أن ڤيلانى[1] (Villani) يحدثنا منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر بأن الأرض الواقعة حول فلورنسا فى دائرة قطرها ثلاثة أميال كانت تشغلها ضياع غنية ذات قصور فاخرة ، ولم تكن أسر البندقية متخلفة عن ذلك بڤيلاتها القائمة على نهر برنتا . فمنذ مبدأ الأمر كانت مزايا ومباهج السكنى فى الضواحى مقصورة إلى حد كبير على الطبقة العليا ، ولذلك فإن الضاحية يمكن أن توصف على وجه التقريب بأنها الشكل الحضرى الجماعى للمنزل الريفى – المنزل القائم وسط حديقة – نظراً إلى أن أسلوب الحياة فى الضواحى مستمد إلى مدى بعيد من الحياة الأرستقراطية الرخية اللاهية الاستهلاكية التى أسفر عنها التطور من الحياة الخشنة المضنية الحافلة بالقتال فى عهد الحصن الإقطاعى .

وبعد ڤيلانى ببضعة قرون ، لاحظ ستو أن الناس كانوا ينشئون خارج أسوار لندن حدائق صغيرة ومنازل صيفية غريبة الشكل « شبيهة بمناظر مواكب الصيف ، ذات أبراج كبيرة وصغيرة ومداخن » ، وذلك فى وقت سبق بمائتى سنة انسياق الناس مع الوجدان ، وشروعهم فى إنشاء «ڤيلات » غريبة الشكل ، وارتكاب ضروب الحماقة التى صحبت إحياء الطراز القوطى . وتوجد إشارة إلى النوع الجديد من الضاحية فى كتاب « رجل البلاط الانجليزى» (The English Courtier) ، فقد ورد فيه « ومن عادة السادة والنبلاء أيضاً أن يقيموا لأنفسهم مساكن (إذا كان ذلك فى مقدورهم) ، فى ضواحى المدينة ؛ إذ أنه فى أغلب الأحيان يكون الموقع صحيا نظراً إلى أن

---

(١) كان جوڤانى ڤيلانى مؤرخاً إيطالياً من فلورنسا (١٢٧٥ – ١٣٤٨) .

الهواء طلق إلى حد ما ، ولا يكون الضجيج شديداً بسبب البعد عن صميم المدينة ، ونتيجة لذلك يكون الموقع هادئا . ومن أجل توفير أسباب الراحة أيضا ، نجد أن كثيراً من المساكن فسيحة وعديدة الغرف ولها حدائق وبساتين للفاكهة تسر الخاطر . ولذلك فإننا بفضل حسن الإدارة تقل لدينا أسباب الخوف من العدوى مثلما تقل فى الريف ومأوانا ممتاز ويفضل بكثير أى نوع قد يوجد لديكم ، وينساب فوق أراض وحقول أشد ما تكون إشاعة للبهجة والسرور » .

وعلى الرغم من أن تفوق الضاحية من الوجهة الصحية كان أحد العوامل الكبرى فى اجتذاب الناس إليها ، مما جعل الأطباء يثابرون على تزكيتها ، فإن هناك شيئا آخر كان يغرى الناس بترك المدينة ، وعلى نحو ما يجد المرء أقدم دليل على حركة العودة إلى أحضان الطبيعة ، فى اللوحات التى رسمها بيرو دى كوزيمو (Piero di Cosimo) ، فإنه يجد كذلك مسوغا لتطور الضاحية من الناحيتين الجمالية والنفسانية فى الرسالة التى وضعها البيرتى عن البناء ، فقد لاحظ أن « الإنسان يشعر بغبطة كبرى فى مأوى ملائم على مقربة من المدينة ، حيث تتوافر له الحرية فى أن يفعل ما يشاء » . وهذه هى النغمة الحقيقية لصوت الضاحية ، بل إنها فى الواقع إرهاص لما يجرى فى الوقت الحاضر من الاهتمام « اللاحضرى » بعدم الكلفة فى الملبس ، فإن البيرتى يصر على القول : «أما من ناحيتى ، فإنى لا أحبذ أن تكون لى [ڤيلا] فى مكان يقع مثل الجهة التى يجب ألا أجرؤ فيها إطلاقاً على الظهور عند باب منزلى دون أن أكون مرتديا ملابسى بأكملها » .

وأما من حيث صفات كل من المنزل والموقع من الناحية الجمالية ، فإن أولى أحاسيس البيرتى تكاد تكون الكلمة الأخيرة المثالية فى هذا الصدد : « إن وجوه الجمال الكبرى فى مثل هذا المأوى ، هى أنه قريب من المدينة ، وواقع على طريق طلق الهواء ، وفى بقعة من الأرض تبعث السرور فى

النفس ، وإن أعظم ما يزكيه هو أنه يبدو بهيج المظهر أمام من يخرجون من المدينة لاستنشاق الهواء على بعد مسافة قليلة منها : كما لو بدا أنه يدعو إليه كل من تقع عينه عليه . . . كما ينبغى ألا يوجد أى نقص من حيث المناظر الطبيعية السارة ، والمراعى الحافلة بالأزهار ، والأراضى المنبسطة ، والفيافى الظليلة ، أو الجداول ذات الماء الصافى أو مجارى المياه والبحيرات الصالحة للعوم وكل المباهج الأخرى التى من هذا القبيل وأخيراً . . . سأعنى بأن تكون واجهة المنزل ومبناه بأكمله مغمورين بالضوء على أتم وجه ، وأن يكون به من الفتحات ما يتيح له الحصول على قدر عظيم من الضوء والشمس وعلى مقدار كاف من الهواء الصحى » . وعندما يستطرد إلى الحث على إنشاء حجرات مستديرة وحجرات مربعة ، وبيان الحجرات التى يمكن أن تقام فى طابق واحد : لا مناص من أن يتساءل المرء عما تركه لابتداع المهندس المعمارى فى أوائل القرن العشرين ، فقد أورد المواصفات الكاملة لنظام المنزل فى الضواحى .

وعلى الرغم من أن الابتعاد عن المدينة كان يتضمن مزايا جلية للصحة وحياة الأسرة ، فإنه كان كذلك محاولة للتحرر مما كان يوجد أحياناً فى المجتمع الحضرى من التقاليد والالتزامات الكئيبة ، فهى محاولة — إذا ما توافرت الوسائل المالية الضرورية — لكى ينظم المرء حياته وفق مشيئته شخصيا ، ولو أدى ذلك إلى أن يعيش بمفرده ، أى فوضوية المال الوفير ، أو مروق الفرد عن العادات والتقاليد ، إذ يحاول أن يؤدى فى داخل حدود أسرة بمفردها مهام مجتمع بأكمله . وهذا ينطبق على كل من ساكن الضاحية ومنزله ، وهنا أيضاً يزودنا البيرتى بالاستشهاد المثالى على الفارق بين الحياة المنزلية فى المدينة وفى الضاحية ، فعنده أن هذا الفارق « عبارة عن أنك فى المدينة تكون مضطرا إلى تحديد مستواك فى عدة نواح طبقا لما يمتاز به جارك عنك ، على حين أنه فى الريف تكون لديك حرية أوسع نطاقا من ذلك بكثير » .

وأن تكون على سجيتك الفريدة ، وأن تبنى منزلك الفريد وسط منظر طبيعى فريد ، وأن تحيا فى هذا الملكوت المطابق لتصورات أرنهايم[1] Arnheim حياة منطوية على نفسها يُطلق فيها العنان لخيالات النفس وأهوائها الخاصة لتعرب عن ذاتها جهارا ، وجملة القول أن يعتزل المرء الناس كراهب ويعيش كأمير — هذه هى الغاية التى استهدفها من قاموا أصلا بإنشاء الضاحية . فقد قصدوا فى الواقع إلى إنشاء ملاذ يتسنى لهم فيه ، بصفتهم أفرادا ، أن يتغلبوا على ما فى المدنية من عيوب مزمنة على حين يظل رهن إرادتهم التمتع بما فى المجتمع الحضرى من مزايا وفوائد . وقد ثبت أن من الممكن تحقيق هذا الحلم الخيالى إلى حد ما ، وبلغ من تأثير سحره فى النفوس أن أولئك الذين استنبطوه عجزوا عن إدراك مصيره المشئوم ، وهو الرواج والذيوع ؛ إذ أن إقبال سيل طاغ من الجماهير عليه كان من شأن ضخامته أن تقضى على كل المزايا التى كان كل فرد ينشدها للدائرة المنزلية الخاصة به وحده ، وأسوأ من ذلك أن تستبدل بهذه المزايا حياة لم تكن حتى بديلا تافها ، بل نقيضا بشعا .

ولم تظهر النتيجة النهائية لتباعد الضاحية عن المدينة إلا فى القرن العشرين ، تبعا لانتشار الأفكار الديمقراطية بفضل كثرة التماثل والإنتاج بالجملة . وقد نشأ عن انتقال الجماهير إلى مناطق الضواحى نوع جديد من المجتمع ، كان صورة ممسوخة لكل من المدينة التاريخية والنموذج الأصلى لمأوى الضاحية ، أو كان عبارة عن مجموعة من المنازل المتوافقة الخالية مما يميزها ، التى صفت وفقا لنظام صارم ، على بعد مسافات متوافقة فى طرق متوافقة ، فى قفر مأهول لا سحر فيه ، يسكنه ناس من عين الطبقة ، لهم عين الدخل ، ومن عين الفئة فى السن ، ويشاهدون عين البرامج

---

(١) رودلف أرنهايم أستاذ أمريكى من معتنقى مذهب الجشطلت .

التليفزيونية ، ويأكلون عين الأطعمة المجهزة مقدما والعديمة الطعم ، الآتية من عين الثلاجات ، ويطابقون فى كل مظهر خارجى وداخلى لطابع عام مشترك صاغته الحاضرة المركزية . وعلى ذلك فإن النتيجة النهائية للفرار إلى الضواحى فى وقتنا الحاضر هى وياللسخرية وجود بيئات منحطة متوافقة. ولا سبيل إلى الفرار منها . وإن ما آلت إليه الهجرة إلى الضواحى فى الولايات المتحدة لينذر الآن بأن يكون مآلها فى كل مكان آخر على نحو يعادل ذلك فى سرعة وقوعه عن طريق عين الوسائل الميكانيكية التى عاونت على حدوثه. ما لم تتخذ أشد التدابير المضادة .

ولكن قبل أن نواجه هذه الصورة النهائية الممسوخة للحياة فى الضواحى. حياة طليقة من كل قيد ، والمعيشة وفق الطبيعة من أجل الصحة وتنشئة الأطفال ، فلنتأمل بمزيد من الدقة فى التطور الفعلى لوعاء الضاحية . وذلك لأننا سوف نرى أنه قد نشأ عن هذا التصدع فى الأوضاع الحضرية القديمة ، وعما فى مجتمع الضاحية من الحرية المضطربة ومن عدم الترابط المكانى ، أولى التغييرات الجوهرية التى طرأت على التكوين الحضرى ، وهى التى كانت تماثل ، دون أن نشعر ، التغييرات التى أخذت تطرأ على تصورنا بأسره للكون . ولا يوجد إلا قدر قليل من الشبه بين الضاحية ، بتكوينها الذى يتخلله كثير من الفجوات المفتوحة على نحو ما يوجد فى جوانب السلال ، وبين الوعاء الحجرى الصلد ، الذى عرفته حضارة العهد الأخير للعصر الحجرى الحديث. وعلى الرغم من أن الضاحية كان ينقصها كثير من صفات المدينة القديمة ، فإنها كانت بمثابة حقل تجارب لنشوء نوع جديد من التخطيط المفتوح ، وتوزيع جديد للوظائف الحضرية .

وعلى هذا فإن الضاحية مهدت السبيل لنوع أرقى من التخطيط لم يتم بعد الإعراب عنه ، أو تحقيقه على وجه كامل فى أى مكان بحيث تجد كل من الوظائف الثابتة والدينامية — أى وظائف الوعاء والقطب المغنطيسى —

تعبيراً جديداً عنها . وعلى الرغم من أن الضاحية ، بوضعها الراهن ، تنتمى إلى الماضى وقد سبق أن أحيطت بغلاف من التجمع الحضرى ، فإن بعضاً من الدروس التى حذقها لأول مرة المحدثون من المخططين فى إنشاء الضاحية يجب أن تدمج فى المفهوم الجديد للمدينة .

٢ — مراحل نمو الضاحية

منذ القرن الثالث عشر ، كان الخوف من الطاعون يحفز من حين لآخر على الهجرة من المدينة ، وعلى ضوء هذا يمكن القول بأن الضاحية بدأت بمثابة نوع من أماكن العزل الريفية . وحتى فى الوقت الحاضر ، نجد فى دراسة إحصائية لأسباب الانتقال من مدينة كليفلند إلى الضواحى أن أكبر نسبة مئوية بين الأسباب المحبذة لهذه الحركة ، وهى تبلغ ٦١ فى المائة ، كانت « للمعيشة فى بيئة أنقى وأصح » ، على حين أن ٨ فى المائة كانوا ينشدون مدارس أصلح أو فرصة لامتلاك منازلهم . بيد أن ٢٨ فى المائة فقط كانوا يرغبون فى الحصول على فناء أو حديقة .

فى كل عصر إذن كان يهيء الدوافع السلبية والإيجابية : الخوف مما فى المدينة من أسباب العدوى وما فى الريف الطلق من ضروب الجاذبية . ومن الواضح أنه كان لكل هذه الدوافع أثرها فى حالة السيدات والسادة التى وصفها بوكاتشو فى مؤلفه القصصى (The Decameron) عندما فروا من فلورنسا الموبوءة بالطاعون ، إزاء ما كان يتهددهم على السواء من جانب جثث الموتى وأقذار الأحياء ، إلى منزل ريفى على مرتفعات فيسولى (Fiesole) . وطبيعة موقع المنزل تدل فى ذاتها على أن الأتروريين كانوا أحسن تقديراً للموقع الصحى من الرومان الذين أنشأوا فلورنسا .

فالهواء النقى ، والماء النقى ، والخلاص من ضوضاء الناس المزعجة ؛ والحقول المفتوحة لركوب الخيل ، والطراد ، ورمى السهام ، والتجوال

فى الريف – هذه هى الصفات التى كان يقدرها على الدوام أفراد الطبقة الأرستقراطية فى كل مكان ، ولعلها هى السبب فيما يتسمون به من لياقة بدنية وثقة بالنفس هما على طرفى نقيض من ألوان الضجر والتشويه والعجز التى يُرزأ بها الكادح الحضرى المتخصص بسبب البقاء طويلا فى المصنع أو المكتب أو المكتبة . وعندما جاء عهد الملكة اليزابيث ، كانت الدور العظيمة للطبقة الأرستقراطية تصطف على امتداد شارع ستراند فى لندن وكانت حدائقها تمتد إلى حافة النهر ، على حين أن منطقة من الأراضى الزراعية كانت تفصلها عن « التيمبل » وحركة المدينة فى الناحية الشرقية . وكذلك كانت دور الطبقة الراقية فى باريس – على الضفة اليسرى لنهر السين – تماثل مساكن الضواحى فى اتساعها حتى إن كانت أفنيتها وقصورها المحوطة بالأسوار تؤلف واجهة تطل فى تواصل على الشارع فتخفى ما وراءها من الحدائق الفسيحة .

وأحب أن أؤكد أهمية تطلب الاتساع ، فهو الذى غير معيار التخطيط الحضرى عندما لم يعد بقاء التحصينات الواقية ضرورياً لضمان الأمان . ومهما تكن المظاهر الأخرى التى تمثلت فى الضاحية ، فإنها أوحت بضرورة اتساع مساحة المناطق الطلقة الهواء من حدائق وأراض مكسوة بالحشائش بوصفها من الملحقات الخليقة بالمدينة . وما كان فى وقت ما لا يتسنى إلا للملوك أن يتطلبوه ، أصبح الآن من حق كل فرد من عامة الشعب يستطيع أن يضع يده على الأرض نفسها . وكلما كانت الأحياء القديمة فى المدينة أكثر انحباساً كانت شوارعها ومنازلها أكثر انضغاطاً ، وكان ارتياح العين إلى طلاقة الضاحية أكبر وأعظم . والواقع أن جانباً مما للضاحية من قيمة جمالية – وهو يمثل ميزتها الخاصة من الناحية النفسانية – ينبثق من حركة الانتقال اليومية بينها وبين المدينة ذهاباً وإياباً ، وما يقترن بذلك من تناوب بين الطلاقة والإحاطة ، بين الرحابة والضيق ، بين سهولة

التنقل واختناق حركة المرور ، بين الاتساع وفرط الازدحام ، فهذه المفارقات ترهف الإحساس بما للضاحية من مزايا جمالية طبيعية .

وعندما أصبح ازدحام الحواضر الكبرى والمدن الصناعية الآخذة فى الانتشار حالة مزمنة فى القرن الثامن عشر ، أصبحت تبعاً لذلك الحاجة إلى الابتعاد عن المدينة أمراً لا مناص منه ولا يمكن إغفاله . وإذا لم يغادر الإنسان المدينة نهائياً من تلقاء نفسه فإن أوامر الطبيب كانت تحمله على أن يقيم مؤقتا فى منتجع للصحة ، للاستحمام أو تناول المياه المعدنية ، أو على شاطئ البحر ، أو أن يتخذ له سكنا مستديما فى ضاحية خارج المدينة القذرة . وقد لاحظ سوم چنينز (Soame Jenyns) فى سنة ١٧٩٥ أن زوجات التجار اللائى كن يشعرن بالاختناق من جراء الدخان فى لندن ، كان لا بد من أن تكون لهن « ڤيلات » فى كلاپهام (Clapham) ، وكانت همستيد (Hampstead) البقعة المفضلة لدى من توافرت لديهم الموارد التى كانت تمكنهم من الإقامة بها ، نظراً إلى أن موقعها المرتفع لا يزال حتى الآن يهيء لها هواء نقيا عندما يكون الضباب الدخانى مطبقا على بقية لندن ويكاد يكتم أنفاسها . وعند منتصف القرن التاسع عشر أضافت المخاوف من سوء حالة الفقراء حافزاً جديداً إلى الهجرة من المدينة ، فقد لاحظ أحد الكتاب فى مجلة كوارترلى (Quarterly Review) فى سنة ١٨٥٠ أنه « ما من شيء عاون على ابتعاد الموسرين عن مساكن الفقراء مثل الفزع من سوء حالتهم الصحية وقذارتهم » .

ولقد سارت حركة الهجرة إلى الضواحى على نحو أبطأ من ذلك فى المناطق الحضرية التى كانت صناعية بحت ، حيث كان النبات المختنق بالدخان ينمو بصعوبة ، وكانت المناطق التى يمكن أن تنشأ فيها بساتين وحدائق يستولى عليها لاتخاذها مواقع لأكداس القمامة وأكوام الخبث ، وحيث كان تجمع مداخن المصانع ينفث من الحمم ما يكفى فى الواقع لتلويث

ناحية من الريف بأسرها . بيد أن الضاحية ازدهرت حول المدن التى كان سكانها أكثر تنوعاً من سكان المدن الصناعية البحت — ازدهرت الضاحية بما تسرب إليها من الطبقة الأرستقراطية الريفية ومن أرباب الفراغ ، وفى نهاية الأمر ، كما حدث فى ادجباستون (Edgbaston) ببرمنجهام ، أصبحت تضم الأصلب عوداً من ضيقى الأفق غير المثقفين الذين لم يكن لهم هم إلا جمع المال ، مثل شخصيتى بوندرباى (Bounderby) وجرادجريند (Gradgrind) اللتين صورهما ديكنز فى روايته « أوقات عصيبة » . ولا شك أنه فى مبدأ الأمر كانت سبل الإقامة فى الضواحى مقصورة على أولئك الذين كانوا على شاكلة والدچون رسكين ، أى ممن كان يتوافر لهم من الموارد ما يمكنهم من أن يكون لديهم جواد ومركبة وسائق ، أو كانوا على الأقل يستطيعون تحمل الأجر المرتفع للرحلة اليومية بالمركبة العامة . بيد أنه عند نهاية القرن الثامن عشر ، كانت بيئة جديدة آخذة فى التكوين فى لندن — وبعد ذلك بطبيعة الحال فى أماكن أخرى — حول أطراف المدينة ، بارنز (Barnes) وغابة سانت جونز (St. John's wood) وهمستد ، وفيما بعد بدفورد پارك (Bedford Park) وبتنى (Putney) وهمرسميث (Hammersmith) . ولم يكن من شأن الانتقال على نطاق واسع بالسكة الحديدية فوق وتحت سطح الأرض إلا أنه وسع نطاق الأساس الاقتصادى لحركة كانت قد بدأت بين الطبقات العليا قبل ابتكار تلك الوسيلة بزمن طويل .

وقد ظل نموذج الشوارع فى هذه المناطق الجديدة للڤيلات قائماً زمناً على نظام رتيب يكاد يتعذر تمييزه عن نظام الشوارع فى المدينة الرئيسية . وفيما عدا وفرة اتساع المكان المخصص للحديقة لم يوجد فى نظام التنسيق الشكلى إلا القليل من الأمارات المميزة للضاحية فى أوائل عهد الملكة فيكتوريا ، وحتى هذا الفارق لم يكن ليختلف عما كان يوجد فى الأحياء

الجديدة فى مركز مستقل لانتجاع الصحة أو فى بلد يعتكف فيه أرباب المعاشات مثل مالفرن الكبرى (Great Malvern) . وكانت المنازل من نوع المنازل الحضرية الفسيحة العادية ، وكان تخطيطها منتظما ، وفى الغالب مربع الشكل . وكانت سقوف الحجرات مرتفعة ، فكانت « ڤيلات » من الطراز الذى اشتهر به المعمارى الإيطالى بالاديو (Palladio)(١) إن لم تكن من الطراز القوطى ، أو – وهذا فى أمريكا – الطراز الكاذب للمعابد الإغريقية محاكية روعة المبانى المرمرية وسط ساحة منبسطة يكسوها عشب سندسى لم ينمُ إطلاقا فى بلاد الإغريق . بيد أنه عندما انتصف القرن التاسع عشر كانت النزعة الرومنطيقية فى تخطيط المنظر الطبيعى قد بدأ يظهر أثرها فى العمارة وتخطيط المدن بترجيح كفة ما هو طبيعى ، أى ما هو طليق من القيود ، وما هو عرضى ، متقلب الأطوار ، خارج على القواعد . وعمد مخططو المدن الجدد إلى تطبيق مبدأ حرية العمل على البيئة ومبانى الإنسان فى آن واحد . وقد كان المذهب الرومنطيقى ثورة على النظام ، أو بعبارة أخرى غوثا من الالتزامات المرهقة التى كانت تفرضها الحياة اليومية الرتيبة المنظمة على نسق ممل صارم . وهذه المبالغة فى التسلية واتباع النزوات ، بما ينطوى عليه ذلك من نبذ ما خلفته التقاليد من قواعد التوجيه ونظم خليقة بإجادة العمل ، تطرقت فى النهاية إلى تربية النشء .

وكان الفنان الرومنطيقى يفضل الأصالة الجافية على المطابقة المهذبة ، وكان هذا الجفاء مما لا يمكن استساغته فى مجموعته إلا بانفصاله مكانيا انفصالا تاما عن باقى المجتمع . وهذه المبادئ المتعلقة بالمصادفة المدبرة والعبث المتعمد كان لا يتيسر المضى فيها إلى غايتها المثالية إلا فى حديقة عامة خلوية ؛ وعلى ذلك فإن الشكل الجديد للضاحية أصبح عبارة عن مبان متفرقة

---

(١) اشتهر بالاديو (١٥١٨ – ١٥٨٠) بتصميم مبان فخمة مستمدة من الطراز الرومانى .

أرجاء حديقة عامة . ومن كل الوجوه سبقت الحديقة الوضع الحضرى الجديد وطبعته بخصائص معينة لم يسبق إطلاقا أنها كانت موضع رغبة أو تدبير ، فمهد هذا الانطلاق السبيل إلى مبتكرات جديدة .

وحديقة سنترال پارك كما صممها أولمستد وفو (Olmsted and Vaux) ، كانت متفوقة بنظام توزيع شوارعها على كل تخطيط للمدن اتبع فيه النظام التقليدى المستوى ، فإنه باستخدام الممرات العلوية والممرات السفلية ، حيثما كان ذلك ميسوراً ، هيأت الحديقة أربع شبكات مستقلة لحركة المرور فيها ، وهى طرق للمشاة ، ومسالك لراكبي الخيول ، وطرق للتنزه بالعربات ، وطرق رئيسية عبر الحديقة لحركة المرور فى المدينة . وهذه الخطة ، بتدبيرها الوسائل لسير حركة المرور دون عائق ولتأمين عبور الشوارع ، قدمت خدمة فريدة لتخطيط المدن .

وباتباع المبادئ الرومنطيقية ، ضُرب عن عمد بالتقاليد المألوفة عرض الحائط فى منزل الضاحية وأرض المبانى والحديقة . وكان الشارع يتجنب اتباع الخطوط المستقيمة حتى عندما كانت الطبيعة لا تهيئ منحنيات ؛ فقد كان من الممكن أن ينعطف ، إبقاء على شجرة ، أوحتى ايصون الاستدارة التموية لمنحدر تل . وقبيل آخر القرن التاسع عشر ، أفضت هذه النزعة ، نزعة احترام الطبيعة ، إلى اتخاذ ما فى خطوط الكنتور من فروق ضئيلة قواعد حاسمة للاسترشاد بها ، وذلك من أجل ما ينشأعنها من عدم الانتظام ، وفى هذا تقريع مفرط لما جرت عليه عادة مهندس البلدية من إغفال تلك الفروق إغفالا تاما باهظ النفقات .

وكثيراً ما كانت أوضاع طبيعية بسيطة أقل نفقة من بديلاتها الميكانيكية ، ولم يكن هذا كشفا قليل الشأن فى عصر كان بفضل الأسوار الحديدية على الأسوجة المؤلفة من النباتات ، أو « الرصف » على بساط الحشائش ، أو الأزهار التى كان العمال يكدحون فى صنعها من الورق أو الشمع على

الأزهار النابتة من الأرض . وهذه الحقيقة لا تزال جديرة بأن نذكرها فى وقتنا الحاضر عندما يقوم المهندسون المعماريون بتصميم المبانى دون مراعاة للاتجاه ، أو المنظر ، أو المناخ ، لتسويغ نظام ميكانيكى دقيق لتكييف الهواء ، ويحكمون إغلاق مبانيهم بحوائط زجاجية وستائر معدنية (Venetian blinds) تمنح كل المزايا الصحية التى يمكن أن تُستمد من ضوء الشمس الطلق والهواء الطبيعى النقى :

وعلى نقيض رومنطيقية اليوم المزيفة ، رومنطيقية المكنة ، فإن المعماريين والمشتغلين بالتخطيط فى عهد الحركة الرومنطيقية الباكرة ، أثبتوا عمليا أن نهجهم كان أكثر اتساما بالعلم والعقل . ونظراً إلى أن تخطيط الضاحية كان يقتصد فى وسائل الراحة الميكانيكية ، فقد توافر فيه من المكان وأسباب التيسير ما يمكن من أداء وظائف أخرى أكثر ضرورة للحياة ، وكثيراً ما كان منزل الضاحية يوضع عمدا فى اتجاه يراعى فيه استقبال ضوء الشمس ، أو نسمات الصيف ، أو منظر طبيعى ، على حين أن زروعا من الأشجار ، أو الأجمات ، كانت تقوم بمهمة حواجز لصد الرياح عن الحديقة والمنزل فى آن واحد . فنزل الإقامة فى الضاحية ، بمراعاته مجموعة معقدة من الفوائد المنزلية والبيولوجية ، قد حقق وضعاً جديداً أكثر ملاءمة للحياة العائلية فى جميع مراحل تطورها .

والواقع أنه انبثق من الضاحية نوع جديد من العمارة المنزلية يطابق فى طبيعة تكوينه – من حيث الصورة والوظائف التى يؤديها – الحياة النائمة فى الداخل ، والمنظر الطبيعى فى الخارج ، فهى منازل وحدائق بلغت بما فى البيت الريفى من المزايا التقليدية إلى درجة محسوسة من الكمال ، مع توفير منافع جديدة غير ميسورة إلا فى عصرنا الحاضر . وعن طريق الاقتصاد فى أعمال الرصف ، وإنشاء طوارات للطرق ، وأسوار عالية مبنية من الأحجار ، وما لا ضرورة له من الطرق العريضة والشوارع الفسيحة ،

تيسر لمخطط الضاحية أن يوفر المال للأشجار والحدائق والغابات وساحات الألعاب . وبإقامة المنازل على وحـــدات من الأرض تبلغ مساحتها عدة فدادين ، أى ما يتراوح بين ضعفين وخمسة أضعاف المساحة القياسية للوحدات فى المدينة ، فإن النسبة الجديدة لكثافة المساكن فى الضواحى ، بمعدل منزل واحد إلى اثنى عشر منزلا فى الفدان الواحد ، احتفظ بها إلى حد ما بموجب التخطيط ذاته . وفيما بين عهد هـ . هـ . ريتشاردسون (H. H. Richardson) وعهد فرانك لويد رايت (Frank Lloyd Wright) تحقق فى منزل الضاحية أروع المظاهر الأصلية التى تعبر عن الوضع الجديد .

وفى هذه الضواحى الجديدة ، وفقت الطبقات المتوسطة إلى حل لمشكلة إيجاد بيئة حضرية ملائمة للصحة ولتربية الأطفال على نحو لم يتيسر الوصول إليه إطلاقاً من قبل إلا فى مدينة أو قرية ريفية تكاد تضارع هذه الضواحى من حيث طلاقة الهواء . وقد كان مجرد انفراج الموقع عاملا أساسياً فى الحل . بيد أن تغيير المقاييس وتناثر المساكن أثار مشكلة ريفية قديمة ، وهى الانعزال ، ولتحقيق أى قدر من الفوائد الاجتماعية ، كان الانعزال سبباً فى مضاعفة الحاجة إلى النقل الخاص بعربات يملكها الأفراد ، نظراً إلى أن تناثر المساكن فى ذاته كان أيضاً يحول دون قيام أى نظام عام للنقل إلى مسافات قصيرة .

وفى النهاية ، عندما أطلق العنان لنمو الضواحى ، كان التخطيط المنفرج سبباً فى أن يصبح من الضرورى توفير وسائل النقل السريع ، والذهاب إلى حد الإسراف فى إنشاء الطرق على حساب أغلب الصفات الأخرى التى كانت أصلا قد جعلت الضواحى جذابة . وبذلك أثبتت الضاحية أنها حل مؤقت وباهظ النفقات معاً للتغلب على الصعاب الناشئة عن فرط ازدحام المدينة وفرط اتساعها ، وحالما انتشر نموذج الضاحية وأصبح عاماً ، بدأت تختفى المزايا التى كانت الضاحية تتحلى بها فى مبدأ الأمر .

وطوال الوقت الذى ظلت فيه الضاحية منطقة ملحقة بالمدينة يسهل الوصول إليها ، فإن الدور الذى كانت تقوم به — ولو بصفة وقتية — كثيراً

ما كان نافعاً مفيداً . بيد أنه حتى فى مرحلة باكرة ، كان الإقبال على هذه الوسيلة للفكاك من المدينة سبباً فى القضاء على بعض النتائج التى كان يرجى تحقيقها من ورائها ، وبخاصة العزلة والانفراد . وإن ما قاله فرنسيس باركمان (Francis Parkman) عن إقبال الرواد على الأقاليم الغربية (فى الولايات المتحدة) ليصدق كذلك على حالة الضاحية ؛ إذ قال : « إن أبناء المدنية – وقد اجتذبهم سحر حياة أكثر طلاوة وأشد جرأة – اندفعوا متزاحمين نحو المفاوز الغربية فى حشود بددت السحر الذى كان قد أغراهم » : وهذا النوع من البلاء الذى حل بالضاحية ، كان يشاهد فيها منذ عهد مبكر ؛ فقد ارتفعت قيمة الأرض فى المناطق التى أغير عليها حديثا ، وذلك حالما أصبح الوصول إليها ميسوراً بطريق السكة الحديدية ، وكلما كانت وسائل النقل أفضل تدبيراً ، ازداد ارتفاع القيمة واتسع نطاق دائرة الضاحية . وتبعاً لازدياد زحف المدينة نحو الضواحى ، تلاشى طابعها الريفى ، وفى وقت سريع لم يعد لدى ساكن الضاحية شىء سواء من مزايا الاختلاط أم العزلة . وحتى فى القرن التاسع عشر ، كانت نواحى الضعف الاجتماعية فى الضاحية ظاهرة بجلاء ، فكان المرء يدفع ثمناً باهظاً من أجل الهواء النقى .

بيد أنه مرت فترة بدا فيها أن التعويض الذى كان المرء يجده فيما توفره الضاحية من ألوان الحرية ، كان الجواب على المشكلات المتزايدة فى المدينة الآخذة فى النمو ، وذلك أنه إذا لم يكن فى وسع المرء أن يقهر المدينة فقد كان فى وسعه على الأقل أن يفر منها . وإذا لم يكن ثمة شىء آخر عدا ذلك ، فإن الضاحية كانت احتجاجاً على حتمية المحتوم . وقد كان ج . م . ريتشردز (J. M. Richards) – فى قصته الطريفة « قلاع على سطح الأرض » التى كتبها إبان الحرب وتفيض حناناً للوطن – كان منصفاً فى وصفه لمزاج الناس ، وما ترتب عليه مما يبدو فى مبانى

الضواحى من ظواهر حالمة غير متوقعة ، مثل الارتفاع المفاجىء لسقف هرمى الشكل ، أو بروز شرفة أو درج ، أو انطلاق صوت ثرثرة بلغة أجنبية دون مراعاة قواعدها ، أو انبلاج واحة من الأزهار تكسو كتلة من الصخور وسط بساتين من سندسى الحشائش ، فيالها من نزهات قليلة الكلفة فى بلاد نائية أو فى أزمان غابرة من التاريخ . وهل كانت كل هذه الاستعراضات المنزلية البارعة سوى ما كانت الضاحية تقدمه من خدمة إلى « كل فرد تبعاً لمزاجه الخاص » ؟ .

ولقد أورد ديكنز صورة ساخرة لهذه النزوات الخاصة فى قصته « آمال كبيرة » (Great Expectations) حين صور الرجل العجوز والد مستر ويميك (Mr Wemmick) فى منزله الذى أضفيت عليه صفة الحصون ، بخندقه ، وجسره المتحرك ، وتحيته التى يؤديها ساعة الغروب بإطلاق مدفعه المماثل لدمى الأطفال . ولكن شيئاً كان قد فقد فى المدينة ، أخذ يعود هنا الآن بصورة بريئة — وهو المقدرة على أن يعيش المرء حياة من ابتداع خياله أشد قرباً إلى نزعته الداخلية مما يفرضه عليه النظام الرتيب لحياته اليومية .

وعلى هذا فإن الضاحية فى أقدم أوضاعها اعترفت بتنوع طباع الناس ومطامعهم ، وبالحاجة إلى التغير ، والتباين والمغامرة ، وفوق كل شىء بالحاجة إلى بيئة تستجيب على وجه ظاهر إلى جهود الإنسان ، ولو على النحو الذى تستجيب به أصغر حديقة للأزهار . وهنا ما من شىء كان يعتبر سخيفاً إلى حد يحول دون محاولة تحقيقه سواء فى العمارة أو فى فلاحة البساتين ، وقلما كان شىء يعتبر شخصياً أو عصابياً إلى حد يحول دون التعبير عنه على رءووس الاشهاد ، فالنزعات الشخصية كانت تنفيساً عما تعانيه النفس من صرامة العمل وملل الجهد النفسى الرتيب .

والخلاصة هى أن الضاحية الرومنطيقية الباكرة كانت محاولة من

جانب الطبقات المتوسطة لإيجاد حل خاص لما كانوا يعانونه فى الحاضرة القذرة من الانقباض وسوء النظام ، فكانت عبارة عن تدفق ميول رومنطيقية ، وكذلك عن تهرب من المسئولية حيال المدينة ومما تستدعيه الشئون البلدية من التدبر فى أمورها . ولقد كانت الغرائز التى حفزت إلى هذه الهجرة سليمة ، فإنه عند الوقوع وسط هذا الدمار الحضرى الجديد، كانت الصيحة القديمة للنجاة القائلة : « النساء والأطفال أولا » صيحة سديدة . والواقع أن الحياة كان يتهددها الخطر فى هذا الوسط الحضرى الجديد — وسط الصناعة والتجارة — وكان أدنى ما تمليه الحكمة هو الفرار— الفرار بكل ما يملك الإنسان ، كما سبق أن فرلوط وأهل بيته من السعير الخانق فى سَدوم وعَمُورة ، بيد أنه لسوء الحظ أن هذه الحكمة السديدة لم يعمل بها فى حالة نساء وأطفال الطبقات العاملة ، على الرغم من الوعود البارة الكثيرة التى بذلت فى منتصف القرن التاسع عشر ، بأنه سيكون من شأن جعل أجور النقل زهيدة وتسيير قطارات خاصة للعمال أن تحل فوراً مشكلة إسكان الفقراء ، وأن يتاح لكل فرد قضاء جزء من يومه فى بيئة ريفية . ومما زاد من سوء الحظ أنه بقدر إقدام الطبقات الوسطى الدنيا على اللحاق بهذا الركب ، حملت هذه الطبقات معها بيئتها المغمومة ، وإن كانت محترمة المظهر .

وفى نظر القليلين ممن أسعدهم الحظ ، كانت الضاحية تفى بحاجات الحمل وتربية الأطفال ، وإذا كانت المرأة تتمتع بالسيادة طوال النهار فى هذا المجتمع ، فإن ذلك كان نوعا من الرجوع إلى العهد العتيق لحكم الأم على نحو أكثر مرحاً واسترخاء . وقد بدا لفترة أن سكان الضواحى لهم اليد العليا فى تقرير مصيرهم ؛ فالمرض ، وسوء النظام والبغاء ، والجريمة ، والعنف ، كانت جميعاً بمنأى عنهم فى حاضرة تنخر الأوبئة فى كيانها ، ولكن جزءاً فقط من الحياة هو الذى كان يسير فى مجراه هنا ،

فإن جميع تلك العوامل التى كانت تجند القوى وتثير العزيمة ، وجميع تلك المشادات والمعارك الجدلية . التى كانت تجعل الحياة الواقعية فى المدينة مثيرة ولها دلالتها وقيمتها ، هذه جميعاً لم يعد لها مجال الآن إلا فى بطون الروايات . ولم يكن ما تقتضيه الحاجة خطة لتوسيع مدى الابتعاد عن المدينة ، بل للعودة إلى المركز الأصلى بطريقة جديدة لاستيعاب وتوزيع ما فيه من أعداد كبيرة ، بحيث يتسنى للأعمال التى تحققت فى الضاحية أن تخلد فى قلب المدينة على وجه أكثر ملاءمة وأطول بقاء .

وإذا نظرنا إلى الضاحية فى أرقى ما وصلت إليه ، نجد أنها هيأت إطاراً يشبه الحديقة للمنزل الذى تقيم فيه الأسرة ، ولكل ما يرتبط به من ألوان النشاط العائلى . فألوان النشاط التى كانت فى وقت ما من ضرورات الحياة الريفية ، أصبح من الميسور مزاولتها الآن فى المطبخ ، وفى الحديقة ، وفى « الورشة » ، على سبيل الترويح عن النفس من عناء النظام اليومى الجماعى لحياة المدينة الكثيبة وما فيها من ملل واحتباس ، والحقيقة أنه لفترة ما ، نقلت إلى الضاحية بعض عادات ريفية قديمة ، مما جعل رسكين مثلا يذكر الإطار الريفى لمنزل والديه فى « دنمارك هيل » ، فضلا عن حدائق الخُضْر الفسيحة ، والجواد والحظيرة ، وحتى الخنازير والدجاج التى كانت تحفل بها مائدة الغذاء . وكانت هذه الحياة فى الواقع عبارة عن نسخة منمقة لصورة حضارة أقدم عهداً — حضارة منزل الريف — مع القيام برحلات يومية إلى المدينة بدلا من الرحلات الموسمية .

وإذا كانت الضاحية قد بدأت بوصفها وسيلة للهرب ، فإنها انقلبت إلى ما يناقض ذلك تماماً ؛ وكل ما بقى من الحافز الأصلى نحو الاستقلال والابتداع هو قيادة السيارة الخاصة ، ولكن هذا فى ذاته أصبح شرطا إجبارياً لا مناص منه للحياة فى الضاحية ، وهاهم أولاء بعض المهرة من المهندسين يهددون منذ الآن بابتكار نظام آلى يلغى قيادة الإنسان

للسيارة . والتكاليف الحالية لهذا اللون من « الحرية » فى الولايات المتحدة – وهى تبلغ سنوياً ٤٠٫٠٠٠ وفاة ، وأكثر من مليون شخص يصابون بعجز أو تشويه يلازمهم طول الحياة – يجب أن يخصم جانب منها من رصيد حسنات حركة الإقامة فى الضواحى .

٣ – نهج الحياة فى الضاحية

كانت الضاحية فى مبدأ الأمر تعبيراً عن نهج جديد للحياة ، أقل مدعاة للجهد ، وأقل تنظيما ، وأقل عقماً ؛ وأقل تقيداً بالمظاهر الشكلية من كل الوجوه من نهج الحياة فى المراكز الحضرية التى تسودها روح الإنتاج . وعندما تحول الاهتمام إلى الاستهلاك تبعاً لزيادة الأرباح من الإنتاج ، فإن هذا النهج الجديد للحياة أخذ يزداد انتشاراً ، ولم يعد مجرد تعبير عن السخط على ما فى المدينة من خلل وسوء نظام ، لأن كل مدينة تاريخية – وإن بلغت من الضآلة ما بلغته فيلنيف لزافينيون (Villeneuve - les - Avignon) – أصبح يحوطها الآن إطار من الضواحى .

وبحكم طبيعة الابتعاد عن المدينة ، كان يتسنى تعرف الضاحية بعدد من الخصائص الاجتماعية المتصلة بها . فقد كانت قبل كل شىء ، عبارة عن مجتمع منعزل لا يفصله عن المدينة مجرد المسافة بينهما فحسب ، بل انتماء أفراد هذا المجتمع إلى طبقة بعينها ، أى إن القرية كانت أشبه شىء بحى اليهود فى إحدى المدن ، لكنها كانت حيا تحف به الخضرة ومخصصاً للصفوة . وإن تلك العبارة التى تنم عن فرط الإعجاب بالنفس ، والتى ترجع إلى عهد الملكة فيكتوريا ، وفحواها « أننا نتفرد بأنفسنا » لتعرب عن الروح السائدة فى الضاحية ، على نقيض الروح السائدة فى المدينة ؛ إذ أن المدينة بطبيعتها بيئة متعددة الأوضاع والطبقات لا تنعزل فيها فئة عن أخرى . حقاً إن جماعات صغيرة قد تؤلف جزراً اجتماعية

فى داخل المدينة ، على نحو ما كانت تميل إلى عمله القبائل المختلفة فى مدن صدر الإسلام ، أو أيضاً على نحو ما قد يقوم به أبناء قرية يونانية أو بولندية من تكوين مراكز موقتة للإقامة معاً فى عين وحدة المبانى فى شيكاجو أو نيويورك . ولكن الحاضرة كانت عبارة عن خليط من الناس وفدوا من أماكن مختلفة ، وكانوا يزاولون حرفاً مختلفة ، ويلتقون بشخصيات أخرى ، فكانوا يتقابلون ويختلطون ، ويتعاونون ويصطدمون ، الغنى مع الفقير ، والعظيم مع الحقير .

وفيما عدا الحالات التى كانت فيها الضاحية تقوم حول النواة الأصلية لمدينة صغيرة ، فإنها كانت تنزع نحو الاحتفاظ بكيانها كمجتمع من طبقة واحدة ، مع مجرد إطار من التجار والخدم الكافين لسير الحياة — وكثيراً ما كان يلزم الخدم بأن يتخذوا مكان مبيتهم فى الحاضرة الرئيسية . والانعزال معناه ، من الناحية العملية ، الاختلاط الإجبارى أو على الأقل المشاركة فى الإقامة ، لأنه إذا وجدت أى سبيل للاختيار ، فإنها توجد خارج نطاق المجتمع ذاته . ومن ثم فإن الحرية الكبرى التى تبقت لساكن الضاحية هى حرية التنقل . وأما من حيث العوامل التى تثير التفكير والإحساس بالجمال الفنى ، فإن الضاحية ما زالت تعتمد فيها على المدينة الكبرى ، فالمسرح ، ودار الأوپرا ، وفرقة الموسيقى الوترية ، ودار عرض الفنون ، والجامعة ، والمتحف ، لم تعد جزء من البيئة اليومية . وإن إحدى المشكلات الرئيسية فى تخطيط المدن اليوم ، هى مشكلة إعادة إنشاء الروابط على أساس الإقليم أكثر منه على أساس الحاضرة .

ولم يقتصر الأمر على أن الضاحية أبقت بعيداً عنها المشروعات التى تفوق سواها حركة وقذارة وإنتاجاً ، بل إنها أقصت عنها كذلك ما فى المدينة من ضروب النشاط الخلاق ، فهنا لم تعد الحياة مسرحية حافلة بألوان التحدى المباغت والمشادات والمعضلات ، بل أصبحت لوناً هادئاً

من التنافس فى الإنفاق . وفى سنة ١٨٩٦ كتب رديارد كبلنج Rudyard Kipling إلى وليم چيمس William James يقول : « إن نصف متاعبك عبارة عن النقمة التى حلت بأمريكا – ملل محض منظم تنظيما جيداً ولا أمل فى الخلاص منه ، وهو ما سوف يحل بالعالم كله فى يوم ما » . ولقد وضع كبلنج إصبعه – فى ذلك الوقت المبكر – على موطن الضعف فى أسلوب الحياة فى الضاحية .

وهكذا كانت عيوب الضاحية النفسانية والاجتماعية تنسخ فوائدها البيولوجية الحقيقية ، وقد كانت عزلتها الزائفة فى مقدمة تلك العيوب . ففى المدينة كانت تطالعك مظاهر الفقر ، إذ كان المتسولون يمدون أيديهم بالسؤال فى الشوارع ، وكان المرض ينتشر على عجل من أحياء الفقراء إلى مساكن الموسرين ، عن طريق عامل إيصال السلع ، أو الغسالة ، أو الخياطة ، أو غيرهم من الأجراء الذين لا غنى عنهم . وإذا مشى المرء لمدة خمس دقائق صوب أى اتجاه ، كان خليقاً بأن تقع عينه – إذا لم يحرص على تجنب النظر – على منزل قمىء ، أو على الأقل ، على طفل من أبناء المنازل الفقيرة فى ثيابه الرثة المهلهلة .

وحتى عندما كانت مدينة الفحم الكوك فى أوج عزها ، كان ذوو الاحساس المرهف والعقول المفكرة لا يتسنى لهم البقاء طويلا فى مثل هذه البيئة دون التضافر معاً للقيام بعمل ما حيال تلك الحالة ، فكانوا خليقين بأن يعمدوا إلى استنهاض الهمم وإثارة الخواطر ، وإلى عقد اجتماعات والقيام بمظاهرات ، وإلى كتابة ملتمسات ومقابلة أعضاء الهيئات التشريعية ، وإلى الحصول على المال من الأغنياء وبذل المعونة للفقراء ، وإلى إنشاء مطابخ لتقديم الحساء للفقراء ، وإلى إقامة عمائر نموذجية للسكنى ، وإلى استصدار تشريعات للإسكان والحصول على أراض للحدائق العامة ، وإلى تشييد مستشفيات ومصحات ومكتبات وجامعات ، حيث كان المجتمع بأسره يفيد ويستفيد .

أما فى الضاحية ، فقد كان من الممكن أن يعيش المرء ويموت دون تشويه الصورة الماثلة فى خاطره عن عالم طاهر برئ ، إلا عندما تبدو بعض ظلال ما فيه من شر فيما تنشره الصحف اليومية . وعلى هذا الوجه كانت الضاحية بمثابة ملجأ للحفاظ على صورة وهمية . وهنا كان يتسنى للحياة المنزلية الأنيسة أن تزدهر لاهية عن الاستغلال الذى أقيم عليه جانب كبير منها ، وهنا كان يتسنى للفردية أن تنتعش مغضية عن التنظيم الشديد الوطأة السائد فيما وراءها . ولم تكن هذه مجرد بيئة طفل منطو على نفسه ، بل كانت بيئة تقوم على أساس وجهة نظر طفولية عن العالم ضحى فيها بالحقيقة من أجل مبادئ اللهو والمتعة .

ويمكن تبرير الهجرة إلى الضواحى تبريرا كاملا بوصفها محاولة لاستعادة ما كان مفقوداً فى المدينة ؛ إذ أنها كانت معنية باحتياجات أولية للإنسان . بيد أنه كان يوجد جانب آخر ، وهو عامل الإغراء على الابتعاد عن الحقائق التى لا تسر ، والتهرب من أداء الواجبات العامة ، والعثور على المعنى الكامل للحياة فى أبسط العناصر الأولية للمجتمع وهى الأسرة ، أو حتى فيما هو أكثر عزلة وانطواء على ذاته وهو الفرد . فما كان بداية ، اعتبر غاية .

وفى أماكن كثيرة ، يمكن تحديد الوقت الذى حدث فيه التحول نحو الفراغ اللاهى والتهرب من المسئولية فيما يتعلق بشئون المدينة . ففى حديث خاص مع القاضى براندیس (Mr. Justice Brandeis) أبدى لى ذات مرة أنه ما زال يذكر الوقت عندما كان أثرياء المواطنين فى مدينة بوسطون فى أواخر القرن الماضى يقولون لأبنائهم عند بلوغهم سن الرشد : « إن بوسطون لا تحمل لك شيئاً فى جعبتها سوى الضرائب الثقيلة وأداة الحكم الفاسدة ، فعندما تتزوج ، اختر لنفسك ضاحية لتبنى لك فيها منزلا ،

ثم التحق بناديها الرياضى وركز حياتك حول ناديك ، وأسرتك ، ومنزلك ، وأولادك » .

ولقد اتبعت هذه النصيحة على نطاق واسع ؛ إذ أنه لم تستهد بها الطبقة العليا فى بوسطون وفيلادلفيا فحسب ، بل كذلك فى كثير من المدن الكبيرة الأخرى فى العالم الغربى . وإذا كان قد نشأ عن ذلك تناثر ضواحى الطبقات الراقية على نطاق واسع فى الموجتين الأولى والثانية للتدفق من المدن الكبرى ، فإن هذه الهجرة أيضاً استحثت خطا الفساد الداخلى فى المدينة وعاونت على انهيارها .

ولم تثبت الضاحية أنها بيئة أفضل من المدينة إلا فى ناحية واحدة وهى صلاحيتها لتربية الأطفال ، ولا سيما فى الأيام الأولى لعهد الضاحية التى نشأت على إثر مد السكة الحديدية حينما كانت كل ضاحية يحوطها إطار عريض أخضر يتألف من الغابات والحقول ، فهنا كان يتسنى للأطفال أن يلهوا ويلعبوا فى أمان دون إشراف أحد عليهم . وقد بلغ من وفرة مساحة الأماكن الفضاء المخصصة للالعاب حول مدارس الضواحى ، أن ذلك غدا من المقتضيات المثالية لجميع المدارس فى المستقبل ، ونعنى بذلك مساحات من الأماكن الفضاء لألعاب التنس والكروكيت ، وللكريكيت أو البيسبول ، ولكرة القدم أو للبولز (Bowls) . ولقد سجل إيمرسون هذه المزايا بوضوح يومياته عن سنة ١٨٦٥ حيث قال ، « ما من نظام للشرطة أبعد أثراً من وجود تل كبير ومرعى فسيح بجوار قرية حيث يستطيع الأولاد أن يجروا ويلعبوا ويستنفدوا الفائض من قوتهم وطاقتهم الحيوية » . فالضاحية هى التى أوجدت مثل هذه الأماكن المخصصة للألعاب بوصفها جزءاً أساسياً فى المدينة ، لا يجوز الزحف والقضاء عليه بسبب ارتفاع قيمة الأرض ، وكانت هذه خدمة دائمة الأثر أسديت إلى المدينة .

بيد أنه بالانفصال عن المدينة ، سرعان ما أصبح الجزء بديلا عن الكل .

كما لو أن مرحلة واحدة من مراحل الحياة ، وهى مرحلة الطفولة ، أصبحت نموذجاً لجميع المراحل السبع فى حياة الإنسان . وعندما ازداد الفراغ بوجه عام ، أصبح اللهو شغل الحياة الشاغل ، وغدت ساحة الجولف ، والنادى الرياضى ، وبركة السباحة ، وحفلة الكوكتيل هى البديل التافه المزيف عن نسق للحياه أكثر دلالة وتنوعاً . وعلى هذا الوجه فإن الضاحيه ، فى عملها على مقاومة مساوئ المدينة المزدحمة ، أصبحت هى ذاتها مجتمعاً تجاوز الحد فى تخصصه ، وازداد باطراد انصرافه إلى الاسترخاء واللهو بوصفهما هدفين فى ذاتهما . وسرعان ما أصبح اللهو الاجبارى البديل المقبول عن العمل الاجبارى ، ولم يعد من وراء ذلك إلا نفع قليل سواء من حيث الحرية أم من حيث الدوافع الحيوية . وتبعاً لذلك فإن كلا النهجين للحياة ، نهج الحياة فى الضاحية ونهج الحياة المدينة الكبيرة ، متشابهان من حيث إن الانتاج على نطاق واسع ، والاستهلاك على نطاق واسع ، والاسترواح على نطاق واسع ، كل ذلك يؤدى إلى إنتاج ذات النوع من البيئة التى توحد نمطها ، وزالت صفاتها الطبيعية .

وحتى الأطفال قد أضرهم تحول بيئة المجتمع بأسره على هذا الوجه إلى مجرد منطقة للاسترواح ؛ لأن مثل هذا المجتمع المنعزل ، المؤلف من طبقات اقتصادية منعزلة لا يربطها بحقائق الحياة المألوفة إلا أدنى قدر من الاتصال اليومى المحسوس ، ألقى ما لا موجب له من عبء التربية على عاتق المدرسة والأسرة . فإن أصغر القرى التى ما زال أهلها يقومون بالزراعة وصيد السمك والقنص ، وأحط المدن الصناعية التى ما زال أهلها يشتغلون بأعمال إنتاجية بسيطة ، تتوافر لديها من وسائل التعلم ما تفتقر إليه الضاحية . وفى النهاية نجد أن الفوارق العملية بين الضاحية المعاصرة والمدينة الكبيرة تتضاءل باطراد إلى أدنى حد ؛ إذ أنه فى هاتين البيئتين

المختلفتين ظاهرياً أخذت الحقيقة تتناقص تدريجاً حتى اقتصرت على مايتسرب من شاشة التليفزيون .

بيد أن كلا من الطفولة والضاحية ليست إلا مرحلة انتقالية ، ولذلك فإن مجتمعاً حضرياً أحسن تخطيطه لابد من أن يكون فيه متسع لمراحل أخرى فى الحياة ولأساليب أخرى للمعيشة . وإن إنشاء الضواحى على نسق واحد عام ليكاد يكون من الناحية الانسانية كابوساً مزعجاً ، شأنه شأن إنشا العواصم الكبيرة على نسق واحد عام . ومع ذلك فإن النمو الحضرى السيء التوجيه ، أو الذى يسير على غير هدى فى وقتنا الحاضر ، أخذ يتجه بانتظام نحو هذا الوضع التافه المتكاثر ، وهو عبارة عن تصميم على نطاق واسع لطرق النقل السريع والمطارات والساحات المترامية الأطراف لانتظار السيارات ولعب الجولف . ولا يهيئ هذا التصميم إلا نهجاً للحياة على نطاق ضيق يزداد انكماشاً على الدوام .

على أنه فى أثناء المحاولة الأولى الأصلية ، عندما دنت الضاحية إلى أقرب حد من غايتها الرومنطيقية ، قدمت معونة إيجابية إلى الفكرة البازغة عن المدينة ، بوصفها بيئة مختلطة متشابكة مع الريف فى جوهر تكوينها . وإن كثيراً من وجوه هذه المعونة لجديرة بألا تنبذ ، بل بأن تبقى وينتقى الصالح منها لتهيئته وتحسينه .

٤ — فرط الازدحام لا يعود بأى كسب

يحدث كثيراً فى تهجين الذرة أن خلط صنف وقف نموه ، وتلوح عليه علامات الضعف ، بصنف آخر أكثر اتساما بالخصائص العادية ، يثبت أنه أغزر إنتاجاً من خلط صنفين متعادلين فى اكتمال النمو . ويبدو أن هذا المصدر الغريب لقوة التهجين له مثل هذا الأثر كذلك فى حالة الضاحية ، فإن ما كان فى جوهره نهجاً حضرياً عاجزاً عن التطور ولا يلائم سوى

وظيفة واحدة قد أنتج ، عند اتصاله بالفرص التى هيأها الريف ، مجموعة كاملة من التحسينات فى نظام تخطيط المدينة القائمة .

والضاحية بتحررها من القيود فى استخدام الأرض الفضاء ، كانت النقيض التام لمعظم المدن التاريخية فى الغرب ، ففى هذه المدن ، نجد مساحات متفرقة من الأماكن الفضاء خلف المبانى وفيما بينها ، كما نجد فى بعض الأحيان مساحات واسعة من الارض المزروعة فى داخل الأسوار . وأما فى الضاحية ، فإنه كانت توجد مبان متفرقة وسط مساحات من الأرض الفضاء ، كما أن البستان والحديقة العامة ، وبوائك أغصان الأشجار ، والطريق المؤدى إلى الضاحية ، كان يتألف منها جميعاً وصل جمالى . ولم تعد صفوف المنازل تقوم بمهمة أسوار متواصلة الامتداد تحد جوانب شوارع تتكون منها دهاليز مغلقة ، إذ أن المبنى — وقد تحرر من صلته الوثيقة بالشارع — أصبح محوطاً بالمنظر الطبيعى ومندمجاً فيه عن عمد وروية . ومع التخلخل الذى حدث على هذا الوجه فى التكوين المحكم للمدينة التقليدية ، ظهر تغيير كان لابد منه فى وحدة المبانى السكنية .

وعند منتصف القرن التاسع عشر ظهرت فى الضاحية الوحدة السكنية الكبرى ، وكان حجمها يعادل ضعف الوحدة العادية فى المدينة عدة أضعاف . وكان طريق الوصول إلى داخلها عطفة مسدودة أو ممراً على شكل ⊔ أو ⊥ من أجل الاستعمال المحلى المحدود النطاق . ولم يكن من شأن هذا الابتكار مجرد تهيئة السبيل لانشاء حدائق كبيرة والخلاص من إزعاج حركة المرور إلى جهات أخرى ، بل إنه كان كذلك سبباً فى الاقتصاد فى انشاء الطرق الباهظة التكاليف . وفضلا عن ذلك ، فإن مخطط الضواحى باتباعه الخطوط الكنتورية ، وبتضييق اتساع شوارع المواصلات العادية اقتصد فيما ينفق من أموال فى إنشاء الشوارع وفى صيانتها ، على حين أنه احتفظ للبيئة بأسرها بطابعها المشابه لطابع حديقة .

عامة : ويبدو أن هذه المبتكرات ظهرت تلقائياً فى أكثر من مكان واحد ، ولكن بلغ من حدوثها لاشعورياً ، ومن قلة ما لقيته فكرتها من التقدير حتى الجيل الماضى ، أنه من العسير تحديد تاريخ ظهورها .

على أنه مامن شيء من التخطيط الذى تم فى خلال القرن التاسع عشر ، حتى ولا ذلك الذى تم تحت إشراف هوسمان ، يمكن أن يقارن من حيث النضارة فى الشكل والجرأة فى التصميم بأفضل ماتم فى الضواحى ، من ضاحية ريفرسيد (Riverside) التى وضع تخطيطها أولمستد (Olmsted) بالقرب من شيكاجو ، إلى ضاحية رولاند بارك (Roland Park) التى خططها بالقرب من بلتيمور (Baltimore) ، ومن لولين بارك (Llewellyn Park) فى نيوجرسى إلى المشروع الممتاز الذى حققه أونوين وباركر (Unwin and Parker) فى ضاحية حديقة هامستد (Hampstead Garden Suburb) حيث كانت المبانى جزءاً لا يتجزأ من التصميم بأكمله .

ولقد بلغ من روعة البيئة الطبيعية للضواحى الممتازة ، أنها ظلت مدة طويلة تصرف الأنظار عما فيها من أخطاء ووجوه النقص من الناحية الاجتماعية . وبالابتعاد عن التخطيط الشبكى القياسى والأجور المرتفعة للأرض ، وبقبول معاونة الطبيعة بدلا من محو كل أثر لطابع البيئة ، وصل المحدثون من واضعى التخطيط والقائمين بالإنشاء إلى استنباط شكل جديد للمدينة ، أو على الأقل ، تخطيط تقريبى لكل جديد . إن هذا العمل الباهر لجدير بكتاب تاريخى يفرد له وحده ، وهو مازال يستوجب أن يكتب ، وإن ماكتبه كلارنس ستين (Clarence Stein) ، بعنوان « مدن جديدة لأمريكا » لخليق بأن يحتل فصلا فى ذلك الكتاب . وسأقتصر هنا على تناول النتائج العامة التى يمكن استخلاصها من أفضل تجارب الضواحى .

لعل ريموند أونوين (Raymond Unwin) كان أول من كشف بطريقة معقولة — فى رسالة صغيرة متواضعة بعنوان « فرط الازدحام لا يعود

بأى كسب » — كشف عن قوة الإدراك التى يبدو أن أقوى مخططى الضواحى أثراً كانوا يستهدون بها بداهة . ولقد بدأ أونوين بدراسة الشارع النمطى الإنجليزى الذى أنشئ طبقاً للتشريع المحلى وكان وليد أقدم الأنظمة البلدية فى انجلترا . وكانت هذه الأنظمة تحدد أدنى قدر ممكن لاتساع الشارع ، والفناء الخلفى ، وضوء النهار والمرافق الصحية لكل منزل ، ولكنها — كما تبين فيما بعد — كانت تتضمن تدابير زائدة على الحاجة فيما يتعلق بحركة المرور ، وهو تحيز غير موفق سرت عدواه حتى إلى التصميمات الخاصة بمناطق الجوار فى المدن الانجليزية الحديثة . ولقد أثبت أونوين أن هذا التخطيط الذى يبدو ظاهريا أنه قائم على أساس نفعى مقتر ، أسرف فى تهيئة عدد من الشوارع رصفت كما يجب لتتحمل وطأة حركة المرور ، وذلك نظير نفقات باهظة . ونظراً إلى انعدام أى نوع آخر من الأماكن الملائمة ، أصبحت هذه الطرق المعدة للمرور ساحات لعب للأطفال . ولقد أوضح أونوين ، فضلا عن ذلك ، أنه بالاقتصاد فى عدد الشوارع التى لا حاجة إليها ، وتكريس المساحات المخصصة لها لإنشاء حدائق داخلية ، يتسنى بنفس النفقات توفير عين العدد من المنازل تقريباً ، مع تزويد كل منزل بقطعة أرض لإنشاء حديقة عليها تكون أكثر صلاحية للاستخدام ، وتهيئة منطقـــة تحيط بالمنزل تكون أكثر جمالا وأناقة .

وذلك فى الواقع ما كان مخطط الضاحية يعمله فى أحيان كثيرة ، ولكن كان يعزى إلى الثمن الزهيد للأرض أصلا ضروب من الاقتصاد ترجع فى الواقع إلى انخفاض نفقات التعمير نتيجة للاستغناء عن الطوارات والشوارع المفرطة الاتساع ومالا حاجة إليه من أعمال الرصف الثقيل ، وكذلك — فى بعض الأحيان — لتجنب استخدام أنظمة المجارى التى تستخدمها البلديات ، وذلك بالاكتفاء بآبار المجارى المنزلية ، وهو ما لا يتسنى إلا فى البيئات الطلقة الهواء التى تقل فيها كثافة السكان . وقد أثبت أونوين أن كآبة

الأحياء المكتظة بالسكان فى لندن ومانشستر وفيلادلفيا وشيكاجو ، حتى عندما تكون مؤلفة من منازل أعدت لسكنى أسرة واحدة فى كل منزل ، يمكن تعليله جزئياً بسوء التخطيط مع تبديد المال أحياناً على مرافق يتسنى الاقتصاد فيها عن طريق تخطيط أكثر ابتكاراً يكون هدفه خدمة حاجات الإنسان .

ولقد كان لهذا التحليل ميزة معينة ذات أثر رجعى ، فإنه لم يقتصر على تعليل نجاح المستحدثات المبتكرة فى التخطيط مثل الوحدة السكنية الكبرى والممر المسدود ، بل إنه أظهر كذلك سداد التصميمات التى وضعت وفق نموذج العصور الوسطى للأديرة ومقار الجماعات – مثل التيمبل وجريز إن (The Temple and Grays Inn) فى لندن ، والكليات القديمة فى أوكسفورد وكمبردج – وهيأت أحياء مغلقة على نفسها ، فى عزلة عن حركة مرور العربات .

وقد كان كشفا بالغ الأهمية إدراك أونوين أن الأماكن الفضاء والحدائق العامة وساحات الألعاب – وكلها تبعث السرور فى النفس – لم تكن من أساليب الترف الخاصة بالطبقة العليا ، بل إنه يمكن إدماجها دون تكاليف إضافية فى أبسط مشروعات الإسكان ، بمجرد الاقتصاد فى المرافق والشوارع التى لا تدعو الحاجة إليها ، فهنا كانت وسيلة لجعل صحراء الحضر الحجرية يانعة مزدهرة ، على شرط ألا يكون المرء على شاكلة الفنان المصور موندريان (Mondrian)[1] فى بغضه لرؤية الأشياء تنمو فى المدينة . بيد أن العلاج الجديد لم يكن مما يباشره المرء بنفسه ، فللاحتفاظ بانخفاض نسبة كثافة السكان فى الأراضى الطلقة الهواء كان لابد من وجود إشراف عام

(١) مصور هولندى (١٨٧٢ – ١٩٤٤) تأثر بالمذهب التكعيبى وابتدع طرازا هندسيا قوامه خطوط رأسية وأفقية تتلاقى فى زوايا قائمة .

فعّال على استغلال الأرض ، إما بأن تمتلكها الدولة أو البلدية ، وإما بأن يحدد القانون معايير ثابتة لنسبة كثافة السكنى فى مناطق مخصصة لاستخدامها فى السكن ، فضلا عن إيجاد إشراف قانونى لمنع إقامة مبان خاصة تنتقصها المساحات الملائمة من الفضاء .

وفضلا عن ذلك فإن تيارات حركة المرور الكبرى المارة ببعض المدن فى طريقها إلى مدن أخرى ، يجب أن توجه إلى طرق تمر حول المناطق السكنية ولا تكون لها مهمة محلية تؤديها . وعلى ذلك فإن الدروس الإيجابية المستفادة من تخطيط الضاحية ، كانت تحتاج — لكى تكون ذات أثر فعّال — إلى نوع من حسن الإدارة للشئون البلدية ، وهو ما كان يسير على مهل ، فى طريقه إلى الظهور فى عالم الوجود . وإنه لمن أكبر الأدلة على وجود تلك الإدارة الحسنة هو أن يكون تخطيطها موجهاً نحو إزالة الضاحية ، بوصفها ضاحية ، وإنشاء مجتمعات جديدة من طراز أرقى وأكثر تعقيداً .

٥ — الضاحية بوصفها وحدة جوار

وحقيقة أن الضواحى كانت أصلا مجتمعات صغيرة مستقلة بمحتوياتها ، وهذه الحقيقة كان لها تأثير آخر فى تطورها ، فقد عاونت على إعادة خلق الشعور بشىء كان قد ضاع فى أثناء النمو السريع للمدينة — وهو الإحساس بمعنى الجوار . وعند اقتفاء أثر هذا الإحساس إلى أصل نشأته ، يتبين أنه كان عنصراً فى تكوين القرية القديمة ، وأن له من الضرورة فى حياة حضرية مستقرة ما لمراكز الثقافة العليا فيها والترابط الهادف .

وفى كثير من مجتمعات الضواحى ، كان انعدام وجود أى كيان لحكومة محلية سبباً فى إقامة نظام أساسه صلات الجوار ، ولذلك فإن روبرت وود (Robert Wood) — فيما قام به من دراسة غريبة حافلة بالمتناقضات ،

عن الضاحية فى الولايات المتحدة ــ أوضح بحق أن الضاحية أعادت من بعض الوجوه الآراء القديمة العهد ، الخاصة بالمشاركة الديمقراطية والقدرة المحلية على الابتداع . وعلى الرغم من أن اجتماع المدينة فى نيوانجلند كان فى وقت ما أداة لمثل هذه المشاركة الواعية فى شئون المدينة ، فإنه لم يدمج إطلاقا فى بناء النظام السياسى الأوسع نطاقا . وتبعاً لنمو المدينة ، أخذ يحدث ، طبقا لذلك ، تحول مستمر من الوضع الأولى لمجتمع الأسرة والجوار إلى أوضاع ثانوية للترابط كانت أكثر استهدافا لأغراض معينة ، وأشد تدقيقا فى الاختيار ، وتتولى العناية بأخص نواحى اهتمام المواطن ولكنها لم تتصل بحياته المنزلية .

ومن الواضح أنه فى الحواضر الكبرى ، فى خلال القرن الأخير ، أصبحت روابط الأسرة والجوار ، إلى حد كبير ، من المخلفات العتيقة ، فإن الزيادة البالغة فى عدد السكان ، وتوافد الغرباء باستمرار ، وكثرة تغيير محال الإقامة ، وانعدام الحدود التى يمكن تعرفها ، أو المراكز العامة للاجتماع ، فإن كل هذه العوامل قللت من عمليات الاستقرار فى حياة التجاور . بيد أن شومباردو لاوى (Chombart de Lauwe) وزملاءه قد بينوا أنه فى مدن بلغت من التوحد ما بلغته باريس ، نجد أن حياة أسرة من الطبقة العاملة ، تتركز بأكملها فى « الحى » الذى تعيش فيه ، على وجه يكاد يبلغ من الرسوخ ، ويكاد يكون معصوما من التأثر بالعوامل الخارجية ما تكون عليه الحال لو أن الأسرة كانت تعيش فى قرية تبعد مائة ميل عن ميدان لا كونكورد . وعلى الرغم من أن المقيمين فى ضاحية قد يقفون بمنأى عن ألوان التحدى السياسية العنيفة التى توجد فى مدينة آخذة فى النمو ، فإنهم كثيراً ما يأخذون على عاتقهم مسئوليات فعالة فى مجتمعهم المحلى ، ولو لمجرد أن يضمنوا لأنفسهم مورداً وافيا للماء ، أو مدارس حسنة الإدارة .

وطبقاً لمعيار القيم الذى ابتدعه العالم النفسانى إدوارد ل . ثورندايك (Edward L. Thorndyke) ، فإن الضواحى فى الولايات المتحدة بلغت ، من حيث الصفات المرغوب توافرها ، مرتبة أعلى من المجتمعات الأخرى . وكانت المدن الصغيرة تليها فى المرتبة ، أما المدن الصناعية فكانت دون ذلك بمراحل فى مؤخرة القائمة . (ومن الغريب أن المدن الكبرى جاءت فى الوسط فيما بين الطرفين) . ولا شك أن معيار ثورندايك لا يرجح ، إلى حد ما ، إلا كفة تلك الصفات التى تمتاز بها الضاحية ، ولكن من المحتمل أن الضاحية خليقة بأن تظفر بمرتبة عالية طبقاً لأى معيار يتجاهل ما للمدينة من وظائف ذات صفة خاصة :

ولا شك أن بعضاً من وجوه النشاط فى ضاحية الطبقة المتوسطة كانت تعزى إلى ما توافر لأفرادها من التعليم الممتاز ، وإلى ما كانت تستمتع به نساء المجتمع من قدر كبير نسبياً من الفراغ ، وبذلك قاربن — طبقا للاصطلاح الحديث — من استيفاء الشروط المطلوبة للحصول على حقوق المواطنة فى المدينة الاغريقية القديمة ، وهى الفراغ والبعد عن الشواغل الوضيعة والاهتمام بالشئون العامة .

وكما يلاحظ روبرت وود « أن الضاحية تظهر فى الوجود وقد توافرت لها دائرة انتخابية محددة ، ووحدة فى التجانس ، ونوع معين من الاتجاه الحضرى ، وقدر من الفراغ ، وهى صفات هيأت السبيل لوضع نظام المدينة الصغيرة الديمقراطى موضع التنفيذ لعدد من الناس والحكومات أكثر مما تسنى حدوثه فى مائة سنة ؛ إذ أن الأغلبية الساحقة من الضواحى صغيرة الحجم نسبياً ، وسكانها يبلغون عددا من الممكن أن يساس » . وهكذا على الرغم من أن الدافع إلى الهجرة إلى الضواحى كان إلى حد كبير ناشئاً عن الرغبة فى التهرب من المسئولية ، بحافز مما فى المدينة من ضروب الانحلال الخلقى وفساد البيئة ، فإن الربح السياسى لم يكن أقل شأناً من سائر الأرباح

التى نجمت عن ذلك . ومن الممكن أن توصف الضاحية ، من الوجهة السياسية ، بأنها عبارة عن محاولة لتضييق النطاق ، الذى يؤدى فيه المجتمع الحضرى وظيفته ، إلى حد يبلغ من صغر الحجم ما يسمح لأسرة بمفردها أن تتولى أمره .

ولقد أعادت الضاحية ، بشكل سطحى ، الديمقراطية التى كان چيفرسون يحلم بها ، والتى كادت تمحوها النزعات الرأسمالية نحو سيادة حكم الأقلية ، كما أن الضاحية هيأت الظروف الضرورية لنجاح تلك الديمقراطية ، وهى المجتمع الصغير الذى يلتقى فيه وجهاً لوجه أفراد متعارفون يشتركون معاً فى الحياة العامة على قدم المساواة . فكانت فلاحة البساتين والسياسة من ألوان النشاط التى يؤديها المرء بنفسه فى الضاحية ، وطوال الزمن الذى ظل فيه المجتمع محتفظاً بحدوده الطبيعية ، من حيث المساحة وعدد السكان ، ظل يكفل برعايته هذه الحياة القائمة على روابط الجوار . ولذلك فإنه لم يكن من قبيل المصادفات أن كلارنس بيرى (Clarence Perry) قد كوّن فكرته عن وحدة الجوار بعد تجربة المزايا المتوافرة فى بيئة ضاحية أحسن تخطيطها ، وذلك فى أثناء إقامته فى ضاحية أنشئت طبقاً لمشروع نموذجى للإسكان فى لونج أيلند ، وهى ضاحية حدائق فورست هيلز (Forest Hills Gardens) . وقد كان ما قام به بيرى هو أنه أوضح خصائص الحياة التى وجد هناك أنها مجزية ، وجعلها أكثر جلاء بشرح تكوينها على نحو أكثر تحديداً .

واهتمام بيرى بمبدأ الجوار نشأ أصلا من الناحية السياسية ، ولكن كانت قد سبقته إلى ذلك من قبل حركة دار التوفيق (Settlement House) التى هيأت للأحياء الفقيرة فى مدن مثل لندن وشيكاجو وبيتسبرج شيئاً كان معدوماً حتى فى أرقى أنحائها ، وهو نواة اجتماعية تنظيمية ، وكانت تهيئ الوسائل الضرورية للعمل والتعاون فى جميع وجوه النشاط التى يقوم بها أهل

الحى الواحد . وقد كان بيرى أحد زعماء الحركة التى بدأت فى المدينة الصناعية الريفية روتشستر (Rochester) بولاية نيويورك ، لتستعيد عن طريق مراكز المجتمعات جانباً من حيوية الحياة السياسية الأمريكية ؛ فكان هو وزملاؤه فى العمل يحدوهم الأمل بأن يدخلوا فى كل مجتمع أمريكى ما بدا بأن دور التوفيق الجديدة كانت على وشك أن تحققه فى خلال الجيل الأول لوجودها . وكان مركز المجتمع عبارة عن مكان لتبادل الرأى والمناقشة والعمل التعاونى فى كل الشئون العامة ، وكان الغرض منه أن يعيد إلى الجماعة المحلية القدرة على المبادأة والاحساس بقدرها والقيام بتوجيه شئونها ، وكان هذا ينطوى على تحدى روابط الولاء الحزبية والقرارات المغرضة والتحكم من بعيد . ومتى أنشىء مركز المجتمع كان من الممكن أن يبسط نشاطه فى اتجاهات عديدة ، على نحو ما قامت به قاعة توينبى (Toynbee Hall) ودار هل (Hull House) ، من تشجيع الإشتراك فى هواية التمثيل والتمرس فى الفنون والصناعات ، وتكوين مركز للحياة الروحية والثقافية لمنطقة الجوار ، كما سبق أن فعلت الكنيسة فى الماضى .

وبعد سنة ١٩٢٠ بدا أن فكرة مركز المجتمع أخذت تهن وتذوى بوصفها حركة إصلاح ، كما أن الآمال التى أنعشتها بدا أنها أخذت تذبل وتخمد ، إلا أن ذلك كان إلى حد ما بسبب ذات النجاح الذى أدركته ؛ إذ أنه فى السنين التالية أصبح من القواعد الأساسية المتبعة فى الولايات المتحدة ، أن يوضع تخطيط المدارس بحيث تتوافر فيها الوسائل التى تهيئها لأن تكون ، حتى فى أثناء النهار ، مراكز لمن بلغوا أشدهم من أفراد المجتمع . وعلى كل حال فإن بيرى وسع نطاق الفكرة كلها بتصوره تنظيما موحداً من شأنه أن يكون أكثر ملاءمة لوجوه نشاط ووظائف منطقة الجوار ، وأن يقوم على الرغم من ذلك بدور فعال ، على نحو لم تقم به الضاحية ، فى حياة المدينة الأوسع نطاقاً .

وكان مبدأ تنظيم وحدة الجوار يرمى إلى أن يجعل كل وسائل التيسير التى تدعو إليها الحاجة يومياً فى البيت وفى المدرسة ، قيد مسافة يمكن قطعها على الأقدام ، وأن يقصى عن هذه المنطقة الخاصة بالسائرين على أقدامهم ، الطرق التى تشتد فيها حركة المرور وتنقل السلع أو الناس الذين لا شأن لهم فى منطقة الجوار . ومتى تقرر أن تكون المسافة التى يمكن قطعها سيراً على الأقدام هى المعيار المتبع فى المجتمع الذى يلتقى فيه أفراده وجها لوجه ، فإن ذلك كان يستتبع ألا تبعد أى ساحة ألعاب لأطفال المدارس أكثر من ربع ميل عن المنازل التى تنتفع بها . وقد كان المبدأ ذاته ينطبق ، مع التغييرات الملائمة ، على بعد المدرسة الابتدائية والمنطقة المحلية للبيع والشراء وكان نطاق مثل هذا المجتمع محدودا من حيث عدد السكان ومدى اتساع محيطه ، وكان فى الاستطاعة تحديده ماديا ، إما عن طريق تخطيط الطرق، وإما عن طريق إطار من الخضرة ، أو عن هذين الطريقين معاً . وقد حدد بيرى عدد السكان فى مثل هذه المنطقة الحضرية للجوار بنحو خمسة آلاف ، وهو عدد يكفى للقيام على أكمل وجه بمختلف الخدمات المحلية وما يتبعها ؛ ويتيح الفرصة دائماً لقدوم أعداد كبيرة من خارج حدود المنطقة ، لأنه ليس ثمة سوى المتحيزين من خصوم فكرة وحدة الجوار هم الذين يعتبرونها وحدة محكمة الإغلاق تستهدف منع الاختلاط مع باقى المدينة . وحقيقة الأمر أن بيرى ، فى تصوره لمنطقة الجوار ، تعرف حقيقة الخلية الاجتماعية الأساسية فى المدينة ووضع قاعدة النمو الخلوى .

والواقع أن كلارنس بيرى قد أعاد إلى الوجود عنصراً من أقدم العناصر فى تكوين المدينة وهو الحى الذى وجدناه فى بلاد ما بين النهرين فى تاريخها المبكر ، مع تزويد هذا العنصر بآراء حديثة ووسائل حديثة وقبل كل شىء بمهارة واعية ، ولكن بيرى استبدل بالمعبد أو الكنيسة ، من حيث إنهما النواة التى تهفو إليها النفوس ، المدرسة ، مركز المجتمع ، وأدمج

ساحة الألعاب والحديقة العامة فى التصميم بوصفهما جزءاً أساسياً فى المشروع بأكمله ، وبذلك أعاد إلى المدينة بعض العناصر الريفية التى كانت قد فرطت فيها بأكثر مما ينبغى من الدعة . وبإعادة مدى الاتساع الذى يمكن قطعه سيراً على الأقدام ، وإنقاص مقدار ما لا حاجة إليه من وسائل النقل ، كان مشروع منطقة الجوار يرمى إلى إطلاق سراح طرق المرور للتوغل ، على وجه أوفى بالغرض ، فى مناطق أكبر من ذلك ، دون التعرض إلى ما لا نهاية له من تقاطع الطرق وضياع الوقت ، وهو ما ينشأ عن توزيع وسائل الخدمات الحضرية على غير هدى .

وفى ثلاثة أنواع مختلفة من المجتمعات ، أقيم أحدها طبقاً لنظام الشوارع الشبكية ، والآخر فى أرض زراعية منبسطة ، والثالث فى موقع يقوم على تل ، تولى هنرى رايت (Henry Wright) وكلارنس ستين (Clarence Stein) إثبات قيمة الآراء التى كان بيرى قد كونها وأعرب عنها ، وإمكان التطبيق الشامل للتجربة التى كان قد عمد إلى إبرازها فى نموذج جديد للمدينة .

وقد نشأ عن هذه التطبيقات العملية ظهور سمتين جديدتين فى التخطيط . إحداهما فصل طرق النقل المارة ببعض المدن فى طريقها إلى مدن أخرى ، عن الطرق والشوارع المحلية ، وفقاً لما نادى به بيرى ، وقد نفذت هذه الفكرة إلى نهايتها المنطقية فى رادبرن (Radburn) حيث تؤلف طرق السائرين على أقدامهم وطرق العربات شبكتين مستقلتين ، وهو ماسبق أن لاحظناه . والسمة الأخرى هى الحديقة العامة بمنطقة الجوار ، وتقوم فكرتها على أساس أن تكون إما على هيئة إطار من الخضرة حول منطقة الجوار ، كما هو الشأن فى كثير من المدن الإنجليزية ، وإما على هيئة شريط من الخضرة الداخلية يربط بين الوحدات السكنية الكبرى ، كما هى الحال فى رادبرن ؛ وعند إنشاء مدينة تشانديجار (Chandigarh) تمسك المعمارى لوكوربوزييه (Le Corbusier) بأهداب الحكمة ، ونفذ — وفقاً لطريقته

التى تقوم على الإحداثيات الكارتيزية الأكثر التزاماً للنظام – مشروع التخطيط الذى كان البرت ماير (Albert Mayer) وماتيو نويكى (Matthew Nowicki) قد وضعاه أصلا لتلك العاصمة على نمط تخطيط رادبرن . وفيما عدا المدن الإنجليزية الجديدة (British New Towns) ، فإن هذه هى أكبر الحالات التى طبقت فيها حتى الآن فكرة النمو الخلوى لمنطقة الجوار فى مشروع لتخطيط مدينة على أساس موحد منظم ؛

وعلى هذا فإن ابتكاراً من أعظم المبتكرات التى تستوقف النظر فى التخطيط الحديث للمدينة قد استمد مباشرة من المبتكرات المادية والاجتماعية التى أدخلت على التخطيط الأصلى للضاحية الرومنطيقية . وقد ساعد على شدة الإقبال على حركة الهجرة إلى الضواحى ، الرغبة فى هذه البيئة الأكثر ملاءمة لألوان النشاط العائلى ، وبخاصة لأسرة آخذة فى الازدياد ولها من الميول الشخصية مالا يتيسر مواءمته إلا فى مجتمع صغير . ولسوء الحظ أن الضاحية ذاتها فقدت الشرائط التى كانت تصون المنظر الطبيعى المنبسط حولها وتهيء السبيل أمام الترابط التلقائى والمشروعات المشتركة . وأما ما تحتفظ به الضاحية اليوم فهو إلى حد كبير يتألف من وجوه الضعف الأصلية الكامنة فيها ، وهى التعاظم ، والتفرقة بين الطبقات ، والجرى وراء المرتبة الاجتماعية ، وعدم المسئولية السياسية ؛

وفى أثناء دراسة أجريت حديثاً فى بوسطون ، أظهر البحث أن فرداً واحداً ليس غير من بين كل ثلاثة من الذكور ، هو الذى يصرف أى قدر من وقته فى وجه من وجوه نشاط المجتمع فى ضاحيته التى اتخذها مكاناً لنومه ، وأنه يقصر كذلك فى المشاركة على وجه فعال فى رابطة مهنته أو عمله ، والواقع أن ساكن الضاحية ينبذ التزاماته كمواطن فى كلتا الناحيتين ، وكلما ازداد بعداً عن المركز ، ازداد انفصالا عنه . ولا تستطيع المدينة ولا منطقة الجوار إسباغ التماسك على ضاحية « عصر

المحرك الآلى » ، وذلك لأن ما فى الضاحية من مراكز تجارية ومصانع ومكاتب أعمال ومعاهد بحوث لا تهيئ إلا أدنى قدر من الوسائل للترابط ، على حين أنها بتفرقها على غير أساس ، تفرض بذل أقصى قدر من الجهد والعناء — سواء أكان تقدير ذلك على أساس الزمن ، أم بعد المسافة ، أم التكاليف .

وهذه الجزئيات السريعة الحركة ما هى إلا الحطام المتناثر من جراء انفجار الحاضرة ، فهى لم تعد تتماسك بتأثير قطب المغنطيس الحضرى ولا الوعاء الحضرى ، بل هى على الأصح أمارات على « المدينة الآخذة فى الزوال » . ولكن هذه الحركة الناشئة من المركز لا تحمل ما يبشر أو يبعث على الأمل فى حياة على مستوى أرفع . وكما يقوم عالمنا التكنولوجى المتمادى فى الاتساع بإقصاء حياتنا اليومية إلى مدى يزداد على الدوام بعداً عن مركزها الإنسانى ، يقوم عالمنا الحضرى الآخذ فى الاتساع بإقصاء أجزائه المنفصلة إلى مدى يزداد باطراد بعداً عن المدينة ، تاركاً الفرد أكثر انعزالا ووحشة وعجزاً مما يحتمل أن يكون قد وصل إليه على الإطلاق من قبل ، فإن التنقل الإجبارى يهيئ فرصاً للترابط أقل ، وليست أكثر ، مما كان الاستقرار الإجبارى يهيئه فى المدينة المحوطة بالأسوار .

وإن ما بدأ على هيئة فرار من المدينة قامت به الأسر ، أصبح انسحاباً أوسع نطاقاً ، ولم تكن نتيجته ظهور ضواحٍ قائمة بذاتها ، بقدر ما كانت النتيجة ظهور إطار من الضواحى آخذ فى الامتداد . وعندما غدت المؤسسات الكبرى فى الحاضرة أرقى تنظيما ، عن طريق الإشراف الإدارى على نطاق واسع ، والأجهزة الآلية للمحاسبة ، والمراقبة المالية المركزية ، قامت بتوزيع أجزائها — المخازن التجارية الكبرى ، والفنادق ، ومكاتب التأمين ، والمعامل ، والمصارف — فى جميع أنحاء رقعة الحاضرة ، وكان ذلك أحياناً — باعترافها — تقصيراً للمسافة إلى مكان العمل لصالح أصحابه ومديريه . وفى هذا ذاته إقرار بأن الرحلة المضنية فى وسط الحاضرة

أصبحت لا تطاق ولا ضرورة لها . ولسوء الحظ أنه لا تتمخض عن جملة هذه التوزيعات جميعاً كوكبة حضرية جديدة ، وعلى الرغم من أنها ، من حيث الاحتمالات ، قد هيأت العناصر لقيام مدينة من نوع جديد متعدد المراكز ويعمل على مستوى المناطق ، فإن النتيجة التى أفضت إليها إلى الآن ، كانت تهرئة المراكز القديمة وتقويض أركانها دون تكوين نموذج فيه من التماسك ما يكفل القيام بوظائفها الحضارية الأساسية على أى وجه يدانى المستوى القديم . وفى خلال جيل واحد ، حينما تفقد تلك العناصر طاقة التحرك التى تستمدها الآن من المدينة التاريخية ، سوف يكون التدهور الناشيء عن ذلك خطير الشأن . وإذا تركت هذه القوى وشأنها ، فإنها سوف تقوم من تلقاء ذاتها بتدمير المدينة ، على نحو مايتبين الآن بوضوح فى لوس انجليس .

٦ — خط السكة الحديدية ، الإطار الأخضر ، زحف السيارة

إن الضواحي التى أنشئت فيما بين سنتى ١٨٥٠ و ١٩٢٠ تدين بوجودها فى المقام الأول للسكة الحديدية ، أما تلك الأقرب منها إلى المدينة الرئيسية فإنها ، بعد سنة ١٨٩٥ ، تدين بوجودها للمركبات الكهربية (الترام) والسكة الحديدية الممتدة تحت سطح الأرض . وأحياناً كان المضاربون فى تجارة الأرض يشجعون وسائل النقل السريع ، ولكن أقطاب النقل والقوة الكهربية – مثل فانسويرينجنز (van Sweringens) فى كليفلند (شيكر هايتس ، Shaker Heights) وانسول (Insull) فى شيكاجو (نايلز سنتر ، Niles Center) – كثيراً ماكانوا يشجعون على إنشاء الضواحي . وإن الخطوة الجريئة التى اتخذها فرانك بيك (Frank Pick) ، بوصفه رئيس السكة الحديدية الممتدة تحت الأرض فى لندن ، لعبت دوراً لا يستهان به فى تقدم ضواحي لندن فى القرن العشرين .

والنوع الأسبق من الضواحي ، الذى كان يعتمد إلى أقصى حد على السكة الحديدية ، كانت له ميزة خاصة لم يتسن إيفاؤها حقها من التقدير

إلا بعد مازالت من الوجود . وكانت هذه الضواحى المصطفة على طول خط حديدى ، لا يتواصل امتدادها بغير انقطاع ، بل كانت تفصل بينها مسافات ملائمة ، وكانت محدودة السكان والمساحة على السواء دون عون من التشريع ؛ إذ قلما كان يصل عدد السكان فى أكبرها إلى عشرة آلاف ، على حين أن العدد المألوف فى أكثر الحالات كان أقل من خمسة آلاف . ففى سنة ١٩٥٠ نجد مثلا أن برونكسفيل (Bronxville) بولاية نيويورك ، وهى ضاحية نمطية من ضواحى الطبقة الراقية ، كانت تضم ٦٫٧٧٨ من السكان ، على حين أن ريفرسيد (Riverside) بولاية الينوى ، وهى التى أنشئت منذ عهد مبكر يرجع إلى سنة ١٨٦٩ ، كانت لا تضم سوى ٩٫١٥٣ نسمة .

وإن حالة الضاحية من حيث الحجم وعدد السكان ، وهى عين حالة وحدة الجوار ، لم تنشأ كلية نتيجة للتخطيط المنفرج الذى كان يشجع قلة الازدحام ؛ إذ أنها كانت تعتمد على خط حديدى يتراوح بعد المسافة بين المحطات الواقعة عليه بين ثلاثة وخمسة أميال . ولذلك كان هناك حد طبيعى لمدى امتداد أى مجتمع بالذات ؛ لأن المنازل كانت يجب أن تقام فى موقع « يبعد عن محطة السكة الحديدية مسافة يمكن قطعها بسهولة سيراً على الأقدام » ؛ وهو ماكانت تنوه به نشرات الإعلان ، ولم يكن ليجرؤ على التغلغل إلى أبعد من ذلك فى الريف الطلق سوى من كانت ثروتهم تمكنهم من اقتناء جواد ومركبة .

وفى مبدأ الأمر ، حال قصر المسافة بين محطات الوقوف دون امتداد الضاحية المعتمدة على السكة الحديدية ، أو دون ازدياد عدد سكانها زيادة بالغة ؛ إذ أن إطاراً طبيعياً من الخضرة — وكثيراً ما كان لا يزال يزرع مواد لتموين السوق — بقى قائما فيما بين الضواحى وكان يزيد فى مساحة المنطقة التى يمكن الانتفاع بها للتنزه : وأحياناً فى مناطق قليلة سعيدة الحظ ،

مثل وستتشستر (Westchester) فيما بين سنتى ١٩١٥ و ١٩٣٥ ، كان مما يزيد فى كمال نموذج الضاحية بأسره امتداد طريق مزدان بالمزروعات ، مثل طريق حدائق نهر برونكس (Baonx River Parkway) ، ومصحوب بشريط من الحدائق متواصل الامتداد ليستخدمه السائرون على أقدامهم ، ولم يطغ عليه بعد سيل مستديم من حركة مرور الحاضرة . ومهما يكن فى وسع المرء أن يقوله عن المساوئ الاجتماعية ، فإن هذه كانت من وجوه عديدة بيئة طبيعية ساحرة فى بساطتها ، بيد أنها دامت أقل من جيل واحد .

ومن المحتمل أن مجرد وجود مثل هذه الإطارات الخضراء التى تعزل المجتمعات الصغيرة للضواحى ، المستقلة بمحتوياتها ولكنها وثيقة الاتصال فيما بينها ، من المحتمل أن ذلك هو الذى حفز الاقتصادى الفريد مارشال (Alfred Marshall) إلى أن يقترح فى سنة ١٨٩٩ فرض « ضريبة قومية للهواء الطلق » فى انجلترا ، كوسيلة لضمان وجود إطارات خضراء بين المدن بصفة مستديمة . ومما قاله : « نحن فى حاجة إلى زيادة عدد ساحات الألعاب فى وسط مدننا ، ونحن فى حاجة أيضاً إلى الحيلولة دون نمو المدن حتى تمتد مدينة إلى مدينة أخرى أو إلى قرية مجاورة ، كما أننا فى حاجة إلى الاحتفاظ بمساحات من الريف تتوسط بينها على هيئة مزارع للألبان أوغيرها وكذلك بمثابة ساحات عامة لأسباب اللهو والترفيه » .

وما كان يتسنى أن تسدى إلى الإدارات البلدية نصيحة أكثر حصافة من ذلك ولا أكثر منها توفيقاً من حيث إسداؤها فى أوانها ، وفى الحق أنها بعد ذلك بأكثر من نصف قرن ما زالت فى أوانها والحاجة إليها أشد وأعظم إلحاحاً بكثير . أما أن مهندس التخطيط ورجال البلديات لم يأخذوا بها فوراً ، وأنها ما زالت بعيدة عن التقدير والعمل بموجبها فى أغلب المراكز الحضرية الآخذة فى النمو ، فإنه أمر يشين هذه المهن ووصمة تدمغ إدراكنا العام

لواجبنا نحو مدننا : (وإن حركة المدن الجديدة فى إنجلترا ، والسياسة البعيدة النظر التى تتبعها بعض المدن الفذة مثل روتردام وأمستردام واستوكهلم لتتباين مع عجز نيويورك المحزن عن حماية وستتشستر ولونج إيلند ، أو مع عجز سان فرنسيسكو عن حماية خليج ريجون (Region Bay) ومع عجزها الأشد عن حماية حقوق الكروم وبساتين الفاكهة فى وادى سانتا كلارا (Santa Clara Valley) ، وحسبنا قصر الاختيار على مثلين من عشرات الأمثلة المحزنة) .

ولو أن نصيحة مارشال كانت قد لقيت آذاناً صاغية على الفور ، بسن تشريعات تنظم تحديد المناطق ووجوه الانتفاع بالأرض على نحو ملائم ، وبتهيئة الوسائل لوضع اليد على الأرض العامة على نطاق واسع من أجل وضع الأمور فى نصابها عند حدوث كل تطور جديد فى نظام الطرق الرئيسية — لو أن ذلك قد حدث لتسنى إدخال تغيير جوهرى فى النموذج الحضرى ، فقد كان يتيسر عندئذ الحيلولة دون تكتل وامتداد مجموعات هائلة من مساكن الضواحى وأشباه الضواحى ، فضلا عن اتخاذ خطوات إيجابية لتكوين وضع أكثر حيوية يعمل على مستوى المناطق ، ويتلاءم مع رسائلنا الحديثة للنقل والمواصلات .

وهكذا فإن القوى التى كانت تقذف آليا بالطرق الرئيسية والسيارات ومشروعات تعمير الأراضى إلى الريف الطلق ، بدلا من أن تنشىء مدينة المناطق ، أفضت إلى التسرب الحضرى الذى لا شكل له . فأولئك الذين يستخدمون سحر الألفاظ لتحويل هذا التراكم إلى كيان عضوى ، إنما يخدعون أنفسهم . وإن فى تسمية الكتلة التى نجمت عن ذلك ميجالوبوليس (Megalopolis) أى مدينة عظمى ، أو فى الإيحاء بأن اتساع المساحة مع سرعة وسائل النقل يكفى فى ذاته لإنتاج وضع حضرى جديد أرقى فى مستواه ، إن فى هذا تجاهل لما تتسم به طبيعة المدينة من تعقيد . والالتحام

الذى يوجد فعلا فى النسيج الحضرى ويعتبره الآن كثير من علماء الاجتماع المرحلة الأخيرة فى تطور المدينة ليس فى الحقيقة مدينة من نوع جديد، بل نوعا مضادا للمدينة . وكما يحدث طبقاً للرأى الخاص بمضادات المادة ، فإن النوع المضاد للمدينة يبيد المدينة كلما اصطدم بها .

وإن ما حدث للضاحية قد أصبح الآن فى ذمة التاريخ ، فإنه حالما عم استخدام السيارة ، زال من الضاحية معيار السير على الأقدام ، وزال معه الطابع الذاتى للضاحية وما فيها من سحر وجاذبية : ولم تعد الضاحية وحدة للجوار ، بل أصبحت كتلة مشتتة تنخفض فيها نسبة كثافة السكان ويطوقها التجمع الحضرى الذى تطوقه بدورها . ولقد كانت الضاحية فى حاجة إلى صغر حجمها فى ذاته بقدر ما كانت فى حاجة إلى خلفيتها الريفية لكى تحقق النوع الخاص بها من الكمال الشبيه بالريفى . وعندما تجاوزت الضاحية ذلك الحد ، لم تعد ملاذاً يلجأ إليه من المدينة ، وأصبحت جزءاً من الحاضرة التى لا سبيل للانفكاك منها، « المدينة ذات اللوامس » (La ville tentaculaire) وهى التى كانت الأماكن الفضاء والحدائق العامة الواقعة فى أطرافها البعيدة ، تنهض أدلة أخرى على ازدحامها . وهذه الحقيقة ستبقى صحيحة حتى إذا ترتب على النقل بالطائرات النفاثة أن منطقة تبعد ألفاً ومائتى ميل تصبح فى قرب منطقة تبعد اليوم ستين ميلا ؛ إذ أنه عندما يقهر الإنسان الفضاء ، فإنه يزيد كذلك من عدد السكان الذين يكون فى وسعهم بلوغ ذلك الفضاء البعيد ، ومن ثم فإن ما يرتجى تحقيقه من الربح الصافى هو دون العدم بمراحل .

ولقد كان للضاحية طابعها طوال خضوع نموها لتحكم محطة السكة الحديدية ومسافات السير على الأقدام . وقد كان تركيز الحوانيت وأماكن انتظار السيارات حول محطة السكة الحديدية فى الضواحى الممتازة ، كان فى ذاته مما ساعد على وجود منطقة للسوق من نوع جديد أكثر تركيزاً من السوق الممتدة صفاً على طول أحد الشوارع العريضة . وكان هذا

نموذجاً أصيلا تلقائيا للمركز التجارى الذى نشأ فى الضاحية ، وأكسبته الوسائل المهيأة فيه لتيسير انتظار العربات مزايا جعلته يبز منشآت حضرية أكثر قرباً من وسط المدينة ، حينما أصبحت السيارة الخاصة الوسيلة الرئيسية للانتقال . بيد أن السيارة قد تمخض عنها ما هو أكثر من تجاوز الحدود الباكرة للضاحية والقضاء على معيار السير على الأقدام ، فإنها استوجبت إما مضاعفة عدد السيارات اللازمة لكل أسرة ، وإما تحويل ربة البيت فى الضواحى إلى سائق ينقطع طول الوقت لقيادة السيارة .

ولقد أصبح هذا الواجب أشد ضرورة ، لأن مجئ السيارة كان مصحوباً بما عُمد إليه من إبطال نظام النقل الكهربى (على قضبان) . وفى الجهات التى تفوق سواها فى أمريكا من ناحية العمران الحضرى ، كثيراً ما حققت وسائل النقل الكهربى معدلا من السرعة أكبر بكثير من معدل سرعة السيارات العامة الحالية (الأنوبيس) ، وذلك بفضل استخدامها طرقاً خاصة بها ، شأنها فى ذلك شأن القطارات البخارية .

وبدلا من أن تكون السيارة الخاصة مكملة لوسائل النقل بالطرق الحديدية ، أصبحت إلى حد كبير بديلا أخرق . والطور الجديد لانبطاح الضاحية ، بدلا من أن يحتفظ بنظام للنقل متعدد الأساليب بحيث يهيئ الفرص لاختيار ما يناسب الظرف من السرعة وطريق السير ، أصبح يعتمد فى استكانة على أسلوب واحد وهو السيارة الخاصة التى أدى ذيوعها إلى التهام السلعة الوحيدة التى كانت الضاحية تعتز بها وهى المكان الفضاء ، ومن ثم فإنه بدلا من أن تكون لدينا مبان مقامة فى حديقة ، أصبحت لدينا الآن مبان مقامة فى ساحة لانتظار السيارات .

وعندما كانت الضاحية تفيد أقلية محظوظة ، لم تكن سبباً فى إفساد الريف ، ولا تهديد المدينة ، ولكن الآن وقد أصبح الاندفاع نحو الدائرة الخارجية المحيطة بالمدينة حركة عامة واسعة النطاق ، فإنه يتجه نحو القضاء على

ما لكلتا البيئتين من قيمة ، دون أن ينشأ عنه أى شئ سوى بديل موحش مجرد من الشكل بل أكثر تجرداً من القيم الأصلية للضاحية . ومن ثم فإننا نواجه الآن وضعاً متناقضاً ؛ إذ أن الوضع الجديد للضاحية قد أنتج الآن نموذجاً مضاداً للوضع الحضرى . ولقد كان القضاء على المسافات التى يمكن قطعها سيراً على الأقدام مصحوباً بالقضاء على السير على الأقدام كوسيلة طبيعية لتنقل الإنسان ، فالسيارة جعلت ذلك غير مأمون ، كما أن امتداد الضاحية جعله ضرباً من المحال .

ونتيجة لذلك فإن الإيضاح المفيد الذى أورده أونوين فى قوله : « فرط الازدحام لا يعود بأى كسب » يجب أن يقابله تحذير يحدد من معناه وهو : « فرط التغالى فى فصل المواقع يعود بقدر من الخسارة » ، وهذا ينطبق على كل سمات التراكم فى الضاحية . وإن ما كان يوماً طريقاً رئيسياً متواضعاً – وقد ظل اتساعه الذى كان عليه فى عهد الرومان ، وقدره خمس عشرة قدماً ، المعيار السائد تقريباً إلى حين ابتكار طريق الحدائق – ليتطلب الآن ألوف الأفدنة ، وذلك فضلا عن طرق خاصة للمرور يزيد عرضها على ما كانت تحتاج إليه الخطوط الحديدية الرئيسية فى أوج عهد اتساعها .

ولضمان استمرار تدفق حركة المرور ، وحتى فى المناطق الريفية ، توضع تصميمات للطرق على هيئة ورقة البرسيم ، وأيدى الأباريق ، مما يسبب القضاء على المزيد من الأرض الفضاء . وبدلا من ساحات شحن البضائع ، وساحات مناورات القاطرات ، مما كان يوجد عند المحطات النهائية للخطوط الحديدية ، فإن تشعب حركة النقل بالسيارات يتطلب فى ذاته وسائل مماثلة حول كل مبنى يحتشد فيه الناس ، وعلى ذلك فإن كل مصنع أو مكتب جديد وكل متجر كبير أو مركز تجارى جديد ينشأ وسط الريف الطلق ، يتطلب ساحات لانتظار السيارات يبلغ من اتساعها أن أولئك الذين يتركون

سياراتهم عند أطراف تلك الساحات ، يكون عليهم للوصول إلى الحانوت الذى يقصدونه أن يسيروا على أقدامهم مسافة أطول بكثير مما يتعين عليهم سيرها فى مدينة شديدة الازدحام بعد مغادرة سيارتهم العامة أو قطارهم الذى يجرى تحت الأرض ، ومع ذلك فإنهم ما زالوا يحتفظون فى عناد وإصرار بالصورة الوهمية للسيارة الخاصة التى تنقلهم « من الباب إلى الباب » .

وما أبعد الشقة بين هذا كله وبين المتعة الأرستقراطية بالفضاء الواضح للعين الذى كان يهيئ للمدينة فى آخر العهد الباروكى ميادين طلقة ، مربعة ومستديرة ، ومناظر بعيدة المدى فى أثناء التنزه فى شوارع عريضة تحفها الأشجار ، وفى التوزيع الجديد فى الضواحى ، أصبح تبديد الأرض فى الفصل بين المواقع بديلا عن التخطيط المدنى الفطن أو التنظيم البلدى البعيد النظر ، أو الاقتصاد الحكيم . فكل مبنى منفصل ينبطح فى تراخ وفق تصميم لإقامة طبقة واحدة على أقصى مساحة يمكن استخدامها فى البناء ، ويفصل المبنى عما يجاوره – إن وجد – ساحة تزداد اتساعاً باطراد لانتظار السيارات ، وهذه الساحات تعود فتزداد فى الحجم بانتظام كلما ازداد العزوف عن استخدام الوسائل العادية للنقل ، بيد أنه حينما تطلق المؤسسة الصناعية الكبيرة المشتتة الأجزاء سراح عمالها فى آخر النهار ، فإن ما يحدث عند باب الخروج من الازدحام الشديد المضيع للوقت ، قد يعادل تماماً ما يحدث فى المدينة الكبرى :

وفى كنف النظام المتبع حالياً فى الضواحى ، تقتفى كل وظيفة حضرية أثر طريق السيارات ، فهى تلتهم الفضاء وتستنفد الوقت مع ازدياد حالات تعارض بعضها مع بعض وما يفضى إليه ذلك من خيبة الأمل : على حين أن هذا النظام ، تحت ستار التذرع بالرغبة فى زيادة السرعة وتوسيع نطاق المواصلات ، يقوم فى الواقع بإعاقة ذلك ويحول دون إمكان عقد الاجتماعات

وحدوث المقابلات فى يسر وسهولة بسبب نثر أجزاء المدينة على غير هدى فى أرجاء منطقة بأكملها .

وترجع حقيقة السبب فى هذا الفشل الذى منيت به الوسائل التقنية الحديثة إلى مغالطة تمتد إلى صميم الأيديولوجية بأسرها التى تستند إليها هذه الوسائل ، ونعنى بذلك الذهاب فى الرأى إلى أن القوة والسرعة أمران مرغوبان لذاتهما ، وأن آخر طراز من العربات السريعة الحركة يجب أن يحل مكان كل نوع آخر من وسائل النقل . والحقيقة هى أن سرعة الحركة يجب أن تكون مهمة تخدم أغراض الإنسان ، فإذا كان المرء يريد أن يقابل الناس للتسامر معهم فى نزهة حضرية ، فإن السير بمعدل سرعة ثلاثة أميال فى الساعة يكون أسرع مما ينبغى ، أما إذا كان الأمر يتعلق بالإسراع بجرّاح إلى مريض يوجد على بعد مسافة ألف ميل ، فإن سرعة ثلثمائة ميل فى الساعة قد تكون أبطأ مما ينبغى . بيد أن الأمر الذى لم يستطع خبراؤنا فى النقل أن يدركوه بسبب ما اتخذوه لأنفسهم من مبادئ تكشف عن حماقتهم ، هو أنه لا تتسنى إقامة نظام للنقل واف بالغرض على أساس أى وسيلة محدودة منفردة للانتقال مهما تبلغ سرعتها من الوجهة النظرية .

وإن ما تحتاج إليه شبكة فعالة للمواصلات ، لهو أقصى عدد من وسائل النقل التى يمكن الاختيار بينها ، وتكون على درجات متفاوتة فى السرعة وفى الحجم ، وتصلح لمختلف الشئون والأغراض . وإن أسرع طريقة لنقل مائة ألف شخص فى داخل منطقة محدودة فى المدينة يبلغ نصف قطرها ميلاً مثلا ، هى السير على الأقدام ، أما أبطأ طريقة لنقلهم فهى وضعهم جميعاً فى سيارات . ولذلك فإن جميع سكان مدينة بوسطون التاريخية فى أثناء النهار ، إذا ساروا على الأقدام تسنى لهم التجمع فى ساحة بوسطون العامة فى بحر مدة قد تقل عن الساعة لو خلت الشوارع من حركة مرور السيارات أما إذا نقلوا بالسيارات فإن ذلك قد يستغرق ساعات ، وهم خليقون

بألا يصلوا إلى وجهتهم ما لم يغادروا سياراتهم التي لا يمكن العثور على مكان لتركها فيه .

وإن متخصصينا فى هندسة الطرق ورجال سلطاتنا البلدية – وقد وقعوا تحت تأثير الإقبال الشديد على استعمال السيارة الخاصة ، وشعروا بأن الواجب يقتضيهم معاونة شركة جنرال موتورز (المحركات العامة) على الازدهار حتى لو كانت النتيجة هى « الفوضى العامة » – قد تآمروا علنا على تعطيل جميع أساليب النقل المختلفة اللازمة لنظام صالح ، وقصروا وسائلنا على السيارة الخاصة (للمتعة والراحة ونقل البضائع) والطائرة . بل إنهم قاموا بمحاكاة طرق السكك الحديدية ، وأعادوا جميع الأخطاء التى وقع فيها المهندسون الأوائل للسكك الحديدية على حين أنهم كدسوا فى المدن الواقعة عند نهاية الطرق الرئيسية سكانا لا تستطيع السيارات الخاصة أن تفى بخدمتهم ما لم تدبر المدن ذاتها لتهيئة المجال اللازم لحركة السيارات وتخزينها .

ولو أن الخبراء الفنيين والإداريين كانوا يعرفون واجبهم حق المعرفة لاتخذوا تدابير خاصة تكفل وجود وسائل أكثر كفاية لنقل الأعداد الكبيرة ، وذلك من أجل صيانة كيان المدينة وتيسير استخدام أقل وسائل النقل الأخرى إضاعة للوقت . والواقع أن قيام نظام حضرى كامل قادر على أداء وظيفته على أتم وجه ، يستلزم توفير السبل الملائمة لكل أسلوب من أساليب النقل ؛ إذ أنه لا يمكن الوفاء بحاجات مجتمع حديث إلا عن طريق تهيئة وسائل حصينة لتنقل السائر على قدميه فى يسر ، وتوفير نظام لنقل الأعداد الكبيرة ، والعناية بالشارع العادى ، والشارع العريض ، والطريق المعد للنقل السريع ، والمطار . ولن يتم تحقيق الغاية المنشودة بما هو دون ذلك من الوسائل .

وإننا بتفضيل سيارة النقل على السكة الحديدية فيما يتعلق بنقل البضائع إلى مسافات بعيدة ، قد أحللنا مكان وسيلة مأمونة تتوافر فيها الكفاية ،

وسيلة أشد خطرا وأقل كفاية . فإذا كنا نريد تحسين نظام الطرق الموجودة لدينا ، فإنه يجب علينا أن نحرص على نقل أكبر قدر ممكن من البضائع عن طريق السكة الحديدية . ومن أهم الأسباب التى تدعو إلى الحفاظ على نظام نقل الركاب والبضائع بالسكة الحديدية وعلى نظام نقل الأعداد الكبيرة ، هو ضمان حرية الحركة للسيارات الخاصة على الطرق الرئيسية : وكذلك إذا كانت طرق النقل السريع التى أنشأناها حول مدننا ، يراد لها أن تؤدى وظيفتها على الوجه الذى أنشئت من أجله ، فإنه يجب العمل على تحسين وتوسيع نظام نقل الأعداد الكبيرة بدلا من أن يترك وشأنه ليختفى من الوجود .

والعلاج الوحيد الناجع لفرط الازدحام فى المدن ، هو أن تنظم الصلة بين مناطق الصناعة والأعمال من ناحية ، وبين المناطق السكنية من ناحية أخرى بحيث يتسنى لفريق كبير من المشتغلين فيها أن يذهبوا إلى عملهم إما سيراً على أقدامهم أو راكبين دراجاتهم ، وإما باستخدام سيارة عامة أو ركوب قطار السكة الحديدية . وذلك أننا بالدفع بجميع وسائل النقل إلى طرق السيارات المعدة للسرعة العالية ، نحملها عبئاً يفضى على وجه التحقيق إلى تخفيض سرعة المرور فى أوج اشتداده إلى مرتبة الزحف : وإذا حاولنا معالجة ذلك بمضاعفة عدد طرق السيارات فإننا بذلك إنما نزيد من جملة ما يصيب المدن من التحطيم بالتطويح بأجزاء منها إلى نواح تزداد بعدا على الدوام وتكون كتلة لا شكل لها مؤلفة من نسيج رفيع شبه حضرى . والتفرقة المكانية بين الوظائف فى الضواحى ، ينشأ عنها إفراط فى تخصص كل جزء منها على انفراد ، فتنشأ مناطق سكنية منفصلة بدون حوانيت محلية ، ومراكز تجارية منفصلة بدون صناعات ، ومؤسسات صناعية منفصلة بدون وسائل لتيسير تناول الطعام ما لم تقم الإدارة بتدبيرها . وهكذا فإن الضواحى بهروبها من ضروب التعاون المعقدة فى المدينة لتستعيد المساوئ الأصلية للإفراط فى التخصص والتحكم الصارم .

أما أن التخطيط الحضرى السليم يجب أن يدبر مكانا للسيارة فهو أمر واضح لا يحتاج إلى بيان ، ولكن ذلك لا يعنى على الإطلاق أن السيارة يجب أن يباح لها التغلغل فى كل جزء من المدينة وأن تبقى هناك ، حتى لو كان ذلك يفضى إلى قلب كيان جميع ألوان النشاط الأخرى . كما أنه لا يعنى أن تتحكم السيارة فى نظام الحياة بأكمله . ولا يعنى فضلا عن ذلك أن يباح لمصنعيها الاستخفاف باحتياجات المدينة بالمضى فى تصميم سيارات تزداد على الدوام طولا وعرضا . إن الأمر على النقيض من ذلك ، فقد حان الوقت للتفرقة بين وظيفتين للسيارة — التنقل فى المدن ، والتنقل فى فضاء الريف الواسع ، فللمهمة الأخيرة ليس من شأن سيارة كبيرة يتوافر فيها من الاتساع ما يكفى لنقل أسرة بأمتعتها ، إلا أن تثير الإعجاب بها . بيد أنه يجب تشجيع مثل هذه السيارات على البقاء فى أطراف المدينة ، وفرض ضرائب باهظة عليها نظير السماح لها بالانتظار فى داخلها ، على حين أنه يجب تقديم مساعدات خاصة لتصميم وتوزيع السيارات الصغيرة ذات المحركات الكهربية لاستخدامها فى التنقلات العادية فى داخل المدن لكى تكمل وسائل نقل الأعداد الكبيرة بدلا من أن تحل مكانها . وذلك أن خصائص عربة المدينة هى السرعة المعتدلة ، والهدوء ، وسهولة العثور على مكان للانتظار فيه ، وصغر الحيز الذى تشغله فى أماكن الانتظار .

ولا ريب فى أن تلك الوسائل التكنولوجية التى لا تجد إلا حلا واحداً لمشكلة النقل ، وسائل مجدبة إلى حد غير معقول ، كما أن ذلك النوع من تخطيط المدن الذى يسمح لذلك الحل بأن يسيطر على منهج كيانه بأسره ، تخطيط معدم .

٧ — الضواحى الواسعة النطاق أوضاع مضادة للتمدن

إننا فى كنف الأوضاع الحالية قد بعنا حقنا الطبيعى فى أن ننعم بحياة حضرية هانئة لقاء سيارات أشاعت اضطراباً مزعجاً بين ظهرانينا ، وهى

صفقة خاسرة كصفقة حساء عيسوه[1] سواء بسواء . ولعل الأجيال القادمة سوف تدهش حيال ما نبديه من الرغبة ، بل فى الحقيقة ، من اللهفة على التضحية بتعليم أولادنا ، والعناية بالمرضى والمسنين ، وتقدم الفنون ، دون أن نذكر شيئاً عن سهولة الوصول إلى أحضان الطبيعة ، وكل ذلك من أجل النظام المختل التوازن ، الذى يقوم على وسيلة واحدة للنقل ، تخترق المناطق القليلة السكان بسرعة تبلغ ستين ميلا فى الساعة ولكنها تنخفض فى المناطق المزدحمة إلى مجرد ستة أميال . ولكن لعل أبناءنا سوف يفهمون سر رغبتنا الغريبة لإنفاق ألوف الملايين من الدولارات للقذف بأحد الضحايا إلى مدار الكواكب ، إذا أدركوا أن التخريب يجرى فى مدننا من أجل عين الطقوس الدينية الخرافية ، ونعنى بها عبادة السرعة والفضاء الخالى . ولما كانت البلديات تفتقر إلى اعتمادات مالية كافية للقيام على وجه ملائم بمواجهة جميع مطالب الحياة التى يتسنى تركيزها فى المدينة ، فإننا قد قنعنا باضطلاعها بوظيفة واحدة وهى النقل ، أو على الأصح بجزء واحد من نظام صالح للنقل ، وهو التنقل بالسيارة الخاصة .

ولما كان متخصصونا فى هندسة الطرق وتخطيط المدن قد تركوا وسائل نقل الأعداد الكبيرة تتدهور ، واقتطعوا من المدينة أجزاء لإنشاء طرق للنقل السريع وحظائر لانتظار السيارات فى داخل المدينة ، وكل ذلك من أجل تشجيع استخدام السيارة الخاصة إلى أقصى حد ، فإنهم عاونوا على إبادة الأنسجة الحية فى تكوين المدينة وعلى الحد من الإمكانيات لإقامة كيان حضرى أوسع نطاقاً على مستوى المناطق . ويجب أن يكون السير على الأقدام الوسيلة الرئيسية لانتقال الأعداد الكبيرة مسافات قصيرة تقل عن ميل . بيد أن رجال بلدياتنا ومهندسى طرقنا بتثبيطهم همم السائرين على الأقدام وإسقاطهم من الحساب ، وبفشلهم فى توسيع واستكمال

---

(١) كان عيسوه الأخ التوأم لسيدنا يعقوب وقد باعه حقه فى الميراث نظير « صحن » من العدس .

وسائل نقل الأعداد الكبيرة ، قد أوجدوا حالة تستدعى انخفاض نسبة كثافة السكان إلى أقصى حد . وهنا نعود فنجد أن احتكار الأماكن الفضاء الخاصة لا يقتصر على تضييق مجال المساعدات الاجتماعية فى المدينة بل يضحى بالمناطق الفضاء العامة لصالح المناطق الخاصة .

وقد روج عملاء الضواحى الواسعة النطاق الاعتقاد الفاسد بأن الاتساع وسرعة التنقل هما العنصران الأساسيان للحياة الرغدة . وما عادة إنشاء مبان قليلة فى مساحات واسعة إلا من رواسب التركة التى خلفتها الحركة الرومنطيقية الأصلية ، وقد أصبحت الآن إحدى العقبات الرئيسية التى تحول دون إعادة تجميع أجزاء المدينة وإدماجها فى نموذج جديد من شأنه أن يوفر موارد للحياة أغزر خصباً سواء من الحاضرة الرئيسية المفرطة الازدحام والمختلة النظام ، أم من المناطق المتطرفة التى يعتمد فى الوصول إليها على طرق النقل السريع . ولوس أنجليس هى المثال الذى ذاعت شهرته السيئة عما بلغه التمادى فى تطبيق تلك الخرافة إلى حد ينافى العقل . فهنا ساد التمسك بمعايير الضاحية فيما يتعلق بالاتساع الطلق ، حيث تقوم المنازل منفصلة عن بعضها بعضاً ويقل عددها إلى حد أنها فى أحيان كثيرة لا تزيد على خمسة منازل فى الفدان الواحد ، وكذلك نجد أن السيارة الخاصة ، بوصفها الوسيلة العظمى للنقل ، قد حلت مكان النظام الذى كان إلى ما قبل الآن بمدة جيل أو نحوه يعتبر نظاماً على أقصى درجة من الكفاية لأداء مهمة النقل العام .

ولقد أصبحت لوس أنجليس الآن كتلة خالية من السمات المميزة ، سوى أنها مؤلفة من منازل ومقسمة إلى مناطق تطوقها طرق للنقل السريع ذات مسارات عديدة ومنحدرات وقناطر مرتفعة تخلق بذاتها عدة مواضع تختنق فيها حركة المرور . وهذه الطرق السريعة لا تنقل فى الساعة الواحدة إلا جزءاً يسيراً مما كانت تنقله من قبل وسائل النقل العامة ، وبمعدل للسرعة

يقل كثيراً عن ذى قبل ، وفى بيئة ملوثة بالضباب الدخانى الناجم عن الغازات القاتلة التى تنفثها السيارات المتخلفة من الوجهة التكنولوجية . وإذا كان أكثر من ثلث مساحة لوس أنجليس يستنفده هذا الضرب من الوسائل الشاذة لتسهيل حركة النقل ، فإن ثلثى مساحة المنطقة الواقعة فى قلب لوس أنجليس تشغلهما الشوارع وطرق النقل السريعة (freeways) وأماكن انتظار السيارات وحظائر السيارات . أليس هذا إسرافاً شديداً فى تبديد الأرض؟! والمرحلة الأخيرة من العملية تنم عن عقول تقدمية حقاً – أليست تنطوى على طرد البقية الباقية من السكان ووضع المنطقة بأسرها تحت إمرة عربات تتحرك آلياً ، ومجردة تماماً من أى هدف إنسانى يسوّغه العقل .

وحتى فى مدن تبلغ من الاتساع ما تبلغه واشنطون ، فإن المنطقة المركزية الأصلية وحدها هى التى تبلغ نسبة كثافة السكان فيها عشر أسر أو أكثر فى الفدان الواحد ، وأما فى الأطراف الآخذة فى الامتداد فإن القاعدة هى أن تكون النسبة أقل من عشر أسر ، بل إن تياراً سريع الحركة يطغى على منطقة أكثر اتساعاً بما يجعل نسبة الاستقرار فيها تصل إلى أقل من خمس أسر فى الفدان الواحد . وهذا يلحق ضرراً شديداً بكل من المعيشة فى المدينة والنزهة فى أوقات الفراغ ، لأن محاولة تزويد المناطق النائية بطرق للنقل السريع سوف لا يقتصر أثرها على توالى الزيادة فى مساحة الأرض المجدبة ، بل إن ذلك سوف يؤدى إلى تناثر وسائل المساعدات الاجتماعية التى ينبغى أن تركز فى مدن جديدة تنظم على نسق يؤدى إلى نشر وتوسيع وسائل المساعدات المركزية .

وينبغى أن تكون النتيجة قد أصبحت واضحة للعيان ، وهى أن أى محاولة لإيجاد نظام للنقل واف بالغرض دون أن يسبق ذلك تدبير الاحتفاظ بمساحات كافية من الأرض العامة ، ودون وضع قواعد لتحديد نسبة كثافة السكان تكون ملائمة لوضع حضرى متوازن وأعلى من المستوى الحالى

لكثافة السكان فى الضواحى ، ودون تدبير شبكة من الطرق الإقليمية تكون إلى حد كبير مستقلة عن شبكة الطرق الكبرى الرئيسية ، بغير هذا كله تؤدى المحاولة إلى انتهاك صفحة الأرض دون أن تعود على السكان الجدد بأى مكاسب مستديمة .

وللاحتفاظ بالمزايا التى توافرت لأول مرة فى تكوين الضاحية الرومنطيقية ، يجب أن نعمل على توافرها فى تكوين المدن ، وللاحتفاظ بالمزايا التى اكتشفت لأول مرة فى المدينة المقفلة ، يجب أن نعمل على إيجاد نموذج يتوافر فيه عدد أكبر من المنافذ ، ويكون أكثر تنوعاً من الناحيتين الاجتماعية والجمالية . ومن شأن نسبة كثافة السكان التى تبلغ فى المعدل نحو مائة نسمة فى الفدان الواحد من صافى المساحة السكنية — أى دون احتساب مساحة الشوارع والمسالك الجانبية — من شأن هذه النسبة أن تفسح المجال لوجود حدائق خاصة يمكن الانتفاع بها ، وأن تشجع على إنشاء حدائق عامة صغيرة فى داخل المدينة للاجتماع والترويح عن النفس . ويمكن تحقيق ذلك بدون تشييد الكتل العقيمة العالية الارتفاع التى تمزق جوانب الفضاء وتزهو فى الوقت الحاضر بعرض ما فيها من بشاعة وصرامة فى أوروبا وأمريكا معاً ، بوصف ذلك آخر ما وصلت إليه العمارة « الحديثة » . فإذا كانت تهمنا القيم الإنسانية ، فليس فى وسعنا أن نحتمل بعد الآن الضواحى المتطاولة الامتداد ولا الحواضر المختنقة بالازدحام ، بل إننا أقل احتمالا لوجود ضاحية مختنقة بالازدحام ، فإن طلاقة منظرها يتوقف على مدى انعزال خلاياها وإحكام تنظيم ما تحتويه من الأسر فى مبان كبيرة .

٨ — أسر فى الفضاء

وعلى نحو ما حدث تحت تأثير عبادة « المكنة » وخرافتها فى الوقت الحاضر ، أطاحت الضواحى الواسعة النطاق بأغلب ضروب الحرية

وأسباب البهجة التي كان أشياع روسو الأصليون ينشدون العثور عليها عن طريق هجرتهم من المدينة . والآن بدلا من تركيز عنايتنا على الطفل فى الحديقة ، تطالعنا صورة « أسر فى الفضاء » ، وذلك أنه كلما ازداد تناثر السكان ، ازدادت عزلة أهل كل بيت بمفردهم ، وازداد المجهود اللازم للقيام على انفراد – حتى مع الاستعانة بكثير من الأجهزة الميكانيكية والوسائل الآلية – بما كان يتم القيام به عادة فى صحبة آخرين ، وكثيراً ما كان يقترن ذلك بالحديث والغناء والاستمتاع بوجود أشخاص آخرين .

وربة البيت التي كانت منذ نصف قرن تعرف جزارها وبقالها ولبانها وغيرهم من مختلف تجار الحي الذين كانت تعاملهم ، معرفة شخصية كأفراد لهم قصص وسير كان لها أثرها فى حياتها نتيجة لتعاملها معهم يومياً ، أصبحت الآن تتمتع بميزة الذهاب مرة واحدة فى الأسبوع إلى سوق مجمعة تقوم فيها بخدمة نفسها ، ولا يحتمل أن تلتقى فيها ببعض الجيران إلا عن طريق المصادفة . وإذا كانت ميسورة الحال ، فإنها تكون محوطة بأجهزة كهربية أو إليكترونية تحل مكان صحبة من لحم ودم ، وأما رفاقها الحقيقيون وأصدقاؤها ، ومرشدوها ، وعشاقها ، ومن يملأون عليها حياتها التي لم تستمتع بها ، فهم الأشباح التي تبدو على لوحة التليفزيون ، أو حتى ما هو دون ذلك تجسداً من الأصوات . وقد تستطيع أن ترد عليهم ولكنها لاتستطيع إسماعهم صوتها ، فقد تبين بالتجربة أن هذا نظام للاتصال من جانب واحد ، وكلما ازداد نطاق الاتساع ازداد الاعتماد على مركز بعيد للتموين وعلى التحكم من بعيد .

وعند أطراف الضواحي الواسعة النطاق ، تختفى حتى مزايا الجماعة الأولية فى وحدة الجوار . وتكاليف هذه العزلة فى مساحات شاسعة لا تتناسب مع فوائدها المزعومة ، فإن ما ينشأ عنها فى النهاية هو عبارة عن حياة داخل غلاف ، يزداد قضاؤها باطراد ؛ إما فى سيارة ، وإما فى مقصورة

من الظلام أمام جهاز تليفزيون . وعاجلا ، مع توسع قليل فى التشغيل الأوتوماتى لوسائل الانتقال ، سوف يقضى الجانب الأكبر من هذه الحياة فى داخل سيارة تقطع مسافات أطول من ذلك تحت سيطرة تحكم من بعيد ، مما يتيح لمن كان فى وقت ما يتولى قيادة السيارة أن ينصرف إلى الانشغال بجهاز التليفزيون ، بعد أن فقد حتى حرية التحكم فى عجلة القيادة . والواقع أن كل جزء من أجزاء هذه الحياة سوف يتم بالوسائل الرسمية ويكون خاضعاً للإشراف والتحكم ، دون أن تمسه يد الإنسان فى البداية ، ولا روح الإنسان فى النهاية . وخليق بمن يرضون بالمعيشة على هذا الوجه أن يرضوا بإيداعهم فى صاروخ يمرق بهم فى أجواز الفضاء ، فما أضيق مجال الاختيار أمامهم ، وقلة عجز وسائل التجاوب المتاحة لهم ، وهنا نجد حقيقة « الجمع المنقطع وحيداً » .

وقد كان منظمو المدن القديمة فى حاجة إلى تلقى بعض الدروس من الحكام المحدثين فى مجتمعنا ، فإن القدماء كانوا يحشدون رعاياهم فى مأوى تحيط به الأسوار تحت رقابة حراس مسلحين يقيمون فى داخل القلعة الصغرى ليكونوا أقدر على إحكام السيطرة عليهم . أما الآن فقد بطل أوان العمل بهذه الطريقة ، إذ أنه بفضل وسائل الاتصال الحالية الواسعة النطاق عبر مسافات طويلة ، دلت العزلة فى مساحات شاسعة على أنها طريقة أفعل أثراً فى إحكام السيطرة على سكان منطقة ما . ولما كان الاتصال المباشر والاختلاط وجهاً لوجه محدودين إلى أقصى ما يستطاع ، فإنه يتسنى أن تحتكر كل ضروب الإعلام والتوجيه هيئات مركزية تتولى نقلها بطرق مأمونة باهظة التكاليف إلى حد لا يسمح بأن تستخدمها طوائف أو أفراد بصفتهم الشخصية . ولكى يمارس المرء حقه فى حرية التعبير عن رأيه فى مثل هذا المجتمع المتفرق العديم الترابط ، يجب أن يلجأ إلى شراء جزء من وقت برامج محطة إذاعة أو تليفزيون أو « شراء حيز » على صفحة جريدة يومية . وكل فرد من سكان الضواحى

يصبح سجين ذات العزلة التى أولاها تقديراً عظيما ، فهو يتلقى معلوماته عن طريق منفذ صغير ، هو عبارة عن خط تليفونى ، أو موجة إذاعية ، أو قناة تليفزيونية . ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذه الحالة لم تنشأ نتيجة لتدبير مقصود تآمرت على القيام به أقلية ماكرة ، بل إنه نتيجة فرعية طبيعية لنظام اقتصادى يضحى بالتقدم الإنسانى فى سبيل التقدم الميكانيكى .

ومن الممكن فى مجتمع أحسن تنظيمه ، أن تؤدى كل هذه التحسينات التكنولوجية إلى توسيع مجال الحياة الاجتماعية على نحو باهر ، وأما فى مجتمعات اليوم المختلة النظام ، فإنها تؤدى إلى تضييق المجال الذى يكون فيه للإنسان تأثير فعال . وفى مثل هذه الظروف ، لا يتسنى حدوث شئ بمل‌ء حرية الفرد أو من تلقاء ذاته — إذ أنه لا يتيسر حدوث شىء دون الاستعانة إلى حد كبير بالأجهزة الميكانيكية . ألا يفسر ذلك — إلى درجة ما — ما غشى حياتنا من سلبية وسهولة فى الانقياد ؟ لقد سمعت من شاهد عيان أنه فى الثورة التى قامت حديثاً فى مدينة كاراكاس وأطاحت بدكتاتورية وحشية فى فنزويلا ، كانت شارة البدء عبارة عن نفخ أبواق السيارات ، وأصوات الأبواق ؛ بازدياد ارتفاعها ، واشتداد اقترابها وهى تتجه من جميع أنحاء المدينة نحو ملتقاها عند القصر ، ألقت الرعب فى قلوب الحكام ، فكانت هذه أيضاً ظاهرة حضرية ، وأما الضاحية فإنها لا تهيئ إلا فرصاً ضئيلة للاجتماع ، والتحدث ، والمناقشة الجماعية ، والعمل المشترك — فهى تشجع على الامتثال الصامت ، وليس على الثورة أو مقابلة العدوان بالعدوان ، ولذلك غدت الضاحية الموئل المفضل لنوع جديد من الحكم المطلق — نوع مستتر ولكنه قوى مكين .

وقد كان من الممكن أن يساورنى شىء من القلق حول صحة هذا التحليل لولم يتوقعه منذ زمن طويل العالم ببواطن الغيب دوتوكفيل (De Tocqueville) فى مؤلفه « الديمقراطية فى أمريكا » . فقد حاول أن يتبين الظواهر الجديدة التى يحتمل أن يظهر فى كنفها الحكم المطلق فى العالم ، ويقول : « إن أول

ما يلفت النظر هو أن عددا لا يحصى من الناس ، كلهم متساوون متشابهون ، يسعون بلا انقطاع إلى إيجاد ضروب اللهو الوضيع التافه التى يفعمون بها حياتهم وكل منهم يعيش فى عزلة ولا يعرف شيئاً من أمر الباقين ، فإن أولاده وأصدقاءه الشخصيين يؤلفون فى نظره الجنس البشرى بأسره ، وأما فيما يتعلق بباقى رفاقه من المواطنين ، فإنه على مقربة منهم ، ولكنه لا يراهم ، وهو يلامسهم ولكنه لا يحس بهم ، إذ أنه يعيش فى نفسه ولنفسه وحدها . وإذا كان قد بقى له ذوو قرباه ، فإنه يمكن القول على أى حال بأنه قد فقد بلاده » .

لقد كان دوتوكفيل يصف مقدما طابع وعادة الحياة فى الضاحية ، وهى عادة ارتدت إلى المدينة وجعلت حتى بعض الأمم الديمقراطية تخضع بدون تذمر تقريباً لكل ألوان القهر والفساد ، التى يتصف بها الحكم المستبد . وإن ما أدركه من قبل هذا الفيلسوف السياسى الكبير ، يتسنى الآن لمن هم أقل منه موهبة من المراقبين أن يشاهدوه بأعينهم . وما هذه إلا المرحلة الأخيرة فى تصدع المدينة . وليس من شأن اتساع نطاق وسائلنا التكنولوجية إلا التعجيل بحدوث هذا التغيير ، وما لم تحدث حركة مضادة ، فإن ما يتخلف بعدها سوف لا يستحق عناء الإنقاذ . والواقع أنه عند ما يتغير الوعاء بالسرعة التى تتغير بها محتوياته ، لا يتسنى إنقاذ أى شىء .

٩ — التخطيط من أجل النمو الحضرى

ولحسن الحظ أن الحركة المضادة بدأت منذ أكثر من نصف قرن ، وكانت موجهة ضد الهجرة إلى الضواحى وضد اكتظاظ الحواضر الذى أفضى إلى ذلك . وأول إيضاح للموقف الحضرى بوجه عام — أول إيضاح يتطلع إلى المستقبل فى ضوء ما أصبح يشاهد فى المدينة من عمليات التطور المستجدة والامكانيات المحتملة التحقيق — قد قام به ، قبل آخر القرن

التاسع عشر ، اثنان من المراقبين الجديرين بالاعتبار . ولقد تناولا العوامل التكوينية فى مجموعها واعتبرا الصلة التى تربط المدينة بالريف والإقليم جزءاً لا يتجزأ من حياتها الخاصة وعنصرا جوهريا فى أى خطة أوسع نطاقا للتقدم الحضرى .

وكان البحث الأسبق فى هذا المجال هو الذى أسهم به الجغرافى بيتر كروبوتكين (Peter Kropotkin) فى كتابه البديع المسمى « حقول ومصانع ودور للتشغيل » . وقد سبق كروبوتكين بنصف قرن تقريباً آراء معاصريه الاقتصادية والتقنية ، فأدرك أن ما فى المواصلات الكهربية والقوة الكهربية من المرونة وقابلية للتهيئة ، إلى جانب إمكانيات الزراعة الضيقة الرقعة الوفيرة الإنتاج ، المعتمدة على القوة الدافعة الحيوية ، قد وضع الأساس لتطور حضرى أكثر توزعا فى وحدات صغيرة تستجيب للاتصال الإنسانى المباشر ، وتتوافر فيها المزايا الحضرية والريفية فى آن واحد . وقد رأى أن الصناعة لم تعد ترتبط بمنجم الفحم حتى فى حالة بقاء الفحم مصدراً للقوة المحركة ، ولا ترتبط بالسكة الحديدية والمدينة الكبرى ، لأنه لا يمكن أن يساوى بين الكفاية والعوامل الاقتصادية وبين وحدات الإنتاج الكبرى . فلقد تنبأ كروبوتكين سلفا بما لم تكتشفه مؤسسات كبيرة عديدة إلا خلال الحرب العالمية الثانية ، وهو أنه حتى حين تكون عملية التجميع النهائى عملية كبيرة ، فإن تجزئة بعض العمليات الصناعية وإسناد القيام بها إلى مصانع متعددة ، كثيراً ما ألقى فعلا ظلالا من الشك على ما ذاع عن المزايا الاقتصادية للتنظيم المركز الواسع النطاق ، وهو الاتجاه الصناعى الذى اتخذ مسوغا لقيام غيره من الأوضاع الحضرية الضخمة . والواقع أنه كلما ارتقت الوسائل التكنولوجية ، ازدادت الحاجة إلى مهارة الإنسان وقدرته على الابتكار ، وهو ما زال متوافرا فى الورشة الصغيرة . وكثيراً ما كانت

وسائل النقل القادرة على الوفاء بالغرض والتنظيم الراقى أجدى من مجرد التجميع المادى لوحدات المؤسسة الصناعية تحت سقف واحد :

ولقد أدرك كروبوتكين أن الوسائل الجديدة للنقل والمواصلات السريعة ، مع نقل القوة الكهربية عن طريق شبكة بدلا من نقلها عن طريق خط مفرد ، أدت إلى رفع المجتمع الصغير إلى مستوى المدينة المفرطة الاكتظاظ من حيث التسهيلات التقنية الأساسية . وكذلك فإن الحرف الريفية ، التى كانت يوما ما منعزلة ودون مستوى المدينة الاقتصادى والثقافى ، أصبح فى وسعها الحصول على مزايا التفكير العلمى والتنظيم الجماعى وألوان النشاط الزاخرة بالحيوية ، وهو ما كان أصلا مقصورا على المدن الكبرى . وبهذا تتحطم أيضاً التفرقة الصارمة بين ما هو حضرى وما هو ريفى ، وبين العامل والفلاح . ولقد أدرك كروبوتكين كل هذه الدلالات قبل اختراع السيارة ، والمذياع ، والصور المتحركة ، والتليفزيون ، والتليفون الذى عم أرجاء الأرض — وإن كان تشخيصه الصادر عن بصيرة نافذة ، قد أيده كل اختراع من هذه المخترعات بما أحدثه من التساوى فى المزايا بين الحاضرة الرئيسية والمجتمعات الصغيرة التى كانت فى وقت ما مزوية فى الأطراف تعتمد على المدينة اعتمادا مطلقاً . وقد رأى أنه إذا اتخذت الوحدة الصغيرة أساسا للتنظيم ، فإن الفرصة تسنح لقيام حياة محلية يكون فيها المجتمع أوفر اضطلاعا بالمسئولية ، وأكثر تجاوبا مع ظروف البيئة ، ويكون المجال أكثر اتساعا للعوامل الإنسانية التى أهملت وضيق الخناق عليها فى عملية التنظيم الواسعة النطاق .

ولقد خطت هذه الآراء خطوة واسعة إلى الأمام بفضل ايبنزر هوارد الذى تأثر بآراء كروبوتكين ، على نحو ما تأثر هذا بآراء من سبقوه من الكتاب الطوباويين ، مثل توماس سبنسر وچيمس سيلك بكنجهام (James Silk Buckingham) . وكان هوارد يرى أن الفكرة الجديدة

ـ فكرة مدينة الحدائق – تنطوى على « الاحتمالات الباهرة لمدنية جديدة تقوم على أساس خدمة المجتمع » وكان يرى كذلك أن نمو المدينة الكبرى يحمل فى طياته عوامل الفشل ، إذ أنه مع كل زيادة فى عدد السكان ، كانت حركة المرور فيها تصبح أكثر ازدحاما ، ومنظماتها الرئيسية أقل سهولة فى الوصول إليها ، كما أن الشطر الأكبر من سكانها كانوا لا يفيدون من منشآتها الثقافية العليا أكثر مما كانوا يفيدونه منها لو أنهم كانوا يقيمون خارج نطاقها كلية . وكان يعتقد أن الوقت قد حان لإقامة نموذج جديد لتقدم المدينة ، يكون من شأنه استخدام الوسائل التقنية الحديثة للقضاء على الفجوة الآخذة فى الاتساع بين ناحية الريف التى نضب معين مزاياها الاقتصادية والاجتماعية ، وبين المدينة التى نضب كذلك معين مزاياها البيولوچية والطبيعية . وقد اقترح لعلاج الصدمة المخية التى أصابت المركز الحضرى وأدت إلى شلل الأطراف ، إيجاد نموذج جديد لنمو المدن . وعلى نقيض دعاة التوسع الحضرى المتواصل ، نراه قد نبذ فكرة الضاحية بوصفها حلا وسطا مقبولا ، بل إنه فى الحقيقة لم يضعها موضع الاعتبار تقريباً . فقد كان هوارد يرى أن تخفيف الازدحام لا يتحقق إلا بتوسيع المناطق التى يتخذها سكان المدينة أماكن للنوم ، بل بتجزئة كل وظائف المدينة . وهو بنبذه الصفة الانتقالية المؤقتة للضاحية كان ينشد إيجاد رابطة شرعية ثابتة بين المدينة والريف ، وليست علاقة غير شرعية لمدة عطلة نهاية الأسبوع .

وفى كتاب « مدن الحدائق فى الغد » ، أدخل هوارد من جديد إلى تخطيط المدن الفكرة الإغريقية القديمة – فكرة وجود حد طبيعى لنمو أى كائن أو منظمة – وأعاد المعايير الإنسانية إلى الصورة الجديدة للمدينة . ولتحقيق ذلك أدخل أيضا السنة التى جرى عليها الإغريق ، وأعاد روبرت أوين (Robert Owen) وإدوارد ويكفيلد (Edward Wakefield) الإعراب

عنها على نحو جديد ، وهى سنة التعمير على أيدى طوائف أعدت من بادئ الأمر إعداداً كاملا للقيام بجميع الوظائف الحضرية الأساسية . ولمواجهة ما فى الحواضر الكبرى من الاحتشاد الواسع المدى بلا غرض ولا غاية ، والمنازل الفقيرة ، والتلوث الناجم عن الصناعة ، والرحلات التى تزداد طولا إلى مكان العمل ، لمواجهة هذا اقترح هوارد مدينة من نوع أقدر على القيام بوظيفته ، مدينة محدودة النطاق من بادئ الأمر ، من حيث المساحة وعدد السكان وكثافتهم ، ومنظمة على أساس يكفل لها القيام بجميع الوظائف الجوهرية لمجتمع حضرى ، من حيث العمل والصناعة والإدارة والتعليم ، ومزودة كذلك بعدد كاف من الحدائق العامة والخاصة لوقاية الصحة وللاحتفاظ للبيئة بأسرها بطابعها الجميل . ولتحقيق الجمع على هذا الوجه بين المدينة والريف وللإعراب عنه ، أحاط هوارد مدينته الجديدة بإطار أخضر مستديم يتألف من المزروعات . وقد كان من شأن هذا السور الأفقى الثنائى البعد ألا يقتصر على مجرد الاحتفاظ بقرب البيئة الريفية ، بل أن يحول دون أن تندمج فيها مراكز حضرية أخرى للاستقرار ، كما أنه كان من شأنه — ولم يكن هذا أقل ما يؤديه — أن يزيد من الإحساس بالوحدة الداخلية على غرار السور العمودى القديم . وبغض النظر عن الفكرة فى مجموعها ، فإن مبدأ إنشاء إطارات خضراء مستديمة حول المجتمعات الحضرية ، كان خدمة جليلة . ولعل أفضل اسم يطلق على مثل هذه المجتمعات هو « مدن الإطارات الخضراء » .

وكانت بعض نواحى هذا الوضع الجديد قد سبق تصورها فى الضاحية الباكرة — من ريفرسيد بولاية الينوى إلى ما شيد بعدها — ولكن أعظم ما أسهم به هوارد لم يكن إعادة تشكيل تكوين المدينة بقدر ما كان إبراز الآراء الأساسية التى يقوم عليها هذا التكوين ، فهو على الرغم من أنه لم يكن من علماء الأحياء ، مثل باتريك جيديس ، فإنه مع ذلك وفر للمدينة المعايير

البيولوچية الأساسية للموازنة الدينامية والتوازن العضوى ، أى إنه كان يرمى إلى تحقيق التوازن بين المدينة والريف – على غرار ما يوجد من التوازن فى نموذج أوسع نطاقا للعلاقات بين الكائن الحى والوسط الذى يحيط به – وكذلك التوازن بين مختلف وظائف المدينة ، وفوق كل شيء ، التوازن عن طريق التحكم الفعال فى النمو ، بتحديد المساحة ، وعدد السكان ونسبة كثافتهم ، والالتجاء إلى إنشاء مدن جديدة (الاستعمار) إذا ما تهدد المجتمع خطر زيادة حجمه زيادة لا موجب لها وليس من شأنها إلا أن تؤدى إلى اختلال فى الوظيفة . فإذا أرادت المدينة أن تحافظ لمواطنيها على وظائفها التى تصون حياتها ، فإنه من حقها أن تمارس ما يمارسه كل كائن آخر حى من القدرة الأساسية على التحكم فى النفس والسيطرة عليها .

وبعبارة أخرى فإن هوارد كان يريد أن يهيئ للنوع الجديد من المدن جميع المزايا التى كانت تتوافر للمدينة الكبيرة قبل أن يؤدى اتساعها المفرط إلى جعل تلك المزايا عزيزة المنال على سكانها . وكان يرى أنه عند ما تصل المدينة إلى أمثل حجم ، فإن المدينة ذاتها لا تكون فى حاجة إلى الزيادة فى مساحتها وعدد سكانها ، بل إلى أن تكون جزءاً من نظام أوسع نطاقا تتوافر فيه مزية الأعداد الكبيرة والتسهيلات الوفيرة . ولما كان هوارد قد ولد فى لندن ، فإنه ، على نقيض سواه ممن هجروا المدينة ، لم يغمط قيمة المزايا الحضرية ، كما أنه بحكم دأبه على ابتكار المكنات لم يبخس قيمة ما أحرزته الأساليب التقنية الحديثة من التقدم . وقد نبذ هوارد نموذج الضاحية لأنه كان يؤمن بأن الصناعة ينبغى أن تكون جزءاً لا يتجزأ من المدينة ، وأن الورشة والمصنع – وهو فى هذا لم يدخل فى اعتباره الصناعات الكيميائية ولا الأفران العالية الحرارة ، ولا مناجم الفحم – ينبغى أن يكونا عادة على بعد مسافة معقولة من كل بيت . وقد قدر أنه عندما يتألف السكان من ٣٢٫٠٠٠ نسمة ويشتغل ألفان منهم فى الإطار الزراعى ، يكون

من شأن المدينة الجديدة أن تهيئ تنوعا فى العمل ، وتعددا فى عناصر السكان بحكم ما يزاولونه من الحرف المختلفة ، وحياة اجتماعية زاهرة .

ولاختبار مدى إمكان إيجاد وضع حضرى ملائم للحياة ، اقترح هوارد إقامة نموذج على سبيل التجربة ، بحيث يبلغ من تفوقه فى ناحيتى التنظيم الاجتماعى والتخطيط المادى على ما هو قائم من القرى ، أو المدن الريفية ، أو الضواحى ، أو التجمعات الصناعية الحضرية ، أو الحواضر المكتظة ، ما يجعله نموذجا جديداً لما يقام من المدن فى المستقبل ، ويكون من شأن ذلك التوزيع على أساس خطة مرسومة ، بدلا من التجمع على غير هدى ، والتجزئة بدلا من التركيز الاحتكارى ؛ وضرب أرقى من الوحدة بدلا من النظام المضطرب . وإذا ما ثبت أن رأيه قابل للتنفيذ عمليا ، فإن ضروبا أخرى من التقدم تصبح ميسورة ، إذ أنه بوجود الأرض فى حوزة البلدية أو المجتمع ، وهو مالا بد منه عند الشروع فى إنشاء مجتمع جديد ، لأن ارتفاع قيمة الأرض نتيجة للنمو — وهو الذى كان إلى هذا الحين يفيد منه أفراد الملاك وكان يؤدى إلى تشجيع الإفراط فى النمو لما يعود به من الربح — سيتولد عنه ربح يستخدم فى تحسين حال المجتمع ، إما عن طريق خفض الضرائب ، وإما عن طريق خدمات إضافية .

وكان هوارد يعتقد أنه بتحويل التوسع الحضرى المستمر عن طريق الإضافات المجزأة إلى توزيع منظم فى مدن « مكتفية بذاتها » : يصبح من الميسور وضع حد لما يوجد فى لندن من الازدحام الدائم والتوسع المستمر . ومن ثم فإنه مع مرور الزمن ، تسحب من سكان العاصمة نسبة تكفى لخفض قيمة الأرض ، وتجعل من الميسور إعادة بناء المركز التاريخى على أسس أكثر انفراجا وأشد مراعاة للصحة وأسباب الراحة ودواعى الانشراح . ومن شأن نجاح مدينة الحدائق الجديدة ، أن يعيد إلى المركز المكتظ بالسكان ،

الهواء الطلق وضوء الشمس والجمال ، وهى المزايا التى كان نموه المفرط قد حرمه إياها إلى حد كبير .

وكانت مدينة الحدائق فى نظر هوارد ابتكارا سديداً ، مثل السكة الحديدية ، يقوم على أحكام الربط بين عدد من العوامل المختلفة ، بعضها عملى وبعضها مثالى ، بحيث تكون كلاً واحداً يمكن استخدامه . وبساطة مقدمات هوارد كانت فى ذاتها مما أكسب مقترحاته العملية دقة ووضوحا ؛ إذ أنه لم يكن فى حاجة إلى الانتظار إلى أن يتم القيام بدراسة شاملة للموقف الحضرى ، على غرار تلك التى كان تشارلز بوث (Charles Booth ، قد بدأها فى بحثه ، الذى فاق الحد فى استفاضته ، عن مدينة لندن ، أو إلى أن يتم اعتناق الأمة وجهة نظره ، على نحو ما كان ينشده أحد معاصريه ، هنرى چورج ، فى البرنامج الذى وضعه لإصلاح الأراضى ، قبل الشروع فى العمل . وقد كان أقل حاجة إلى انتظار ظهور السيارة لتفتح منفذا تقنيا للفرار من اكتظاظ المدينة ، فقد عمد هوارد إلى القيام بما يقوم به اليوم مهنــدس قدير حينما يحاول أن ينشىء طرازاً جديداً من المبانى يكون من شأن ما فيه من التعقيد أن يسبب من ألوان الانفعال والإجهاد ما لا يمكن تقديره على أساس التجربة الماضية والأوضاع التقليدية . وذلك أنه أنشأ نموذجا صغيراً ووضعه موضع الاختبار ، أو على الأصح أقنع غيره من الناس ممن لديهم ما يكفى من المال والثقة به أن يشتركوا معه فى هذه التجربة بإنشاء أول مدينة للحدائق وهى ليتشورث (Letchworth) التى بدأ بناؤها فى سنة ١٩٠٤ . وبعد ذلك بمدة نصف جيل ، شرع فى إقامة مدينة حدائق أخرى وهى ولوين (Welwyn) ، وكان النموذج الجديد للنمو خطوة البداية فيما أصبح الآن حركة تثابر على السير نحو التكامل الحضرى .

وأفضت هذه التجربة إلى قضاء سنين فى القيام ببحوث إحصائية ووضع

تقارير صنفت بعناية — وتجنبت ببراعة الإدلاء برأى قاطع وإن استهدفت بمهارة إحباط المشروع . والواقع أن بناء المدينة الجديدة أثبت فى النهاية أنه أقل نفقة ، كما أنه أكثر جدوى من ذلك النوع من « الدراسة الحضرية » المستفيضة ، الذى اشتد اليوم الإقبال عليه ، وذلك لأن المدينة الجديدة قامت فى خلال مدة معقولة بسد نفقات تكوينها ، وبالإجابة إجابة قاطعة ، أكثر مما كان يتسنى لأى تكوين فرضى بحت أن يجيب به عن السؤال عما إذا كان من المستطاع أن تبقى مثل هذه الوحدة الحضرية الجديدة حتى ولو كانت تسير على قواعد تخالف السنن التى رسخت ؛ سنن الجرى وراء الربح ، والمضاربة فى أسعار الأرض ، وسيادة الحاضرة على ما عداها . وعندما يضع المرء فى اعتباره العقبات الرسمية والنفسانية التى كانت تناهض تجربة هوارد ، فإن هذه التجربة تبرز كضرب من ضروب الحنكة السياسية الكاملة فى مستوى إنشاء مجتمعات طائفة المورمون (Mormons) فى يوطاه (Utah) أو الجمعية التعاونية للبيع بالجملة فى إنجلترا .

وقد التزم هوارد التمسك بالأمور الجوهرية فى وضع برنامجه ، ولم يحاول أن يضفى على التفصيلات الخاصة بالعمارة والتخطيط طابع تصوراته ، فإنه لم يتقدم بتخطيط جديد للمدينة — إذ حرص على تجنب الخلط بين الأهداف الأساسية وأى صورة يمكن تصورها كائنة ما كانت — بل تقدم ببرنامج جديد لتنظيم المدن تنظيما متوازنا ونموها نموا محدودا كجزء من خطة عامة يتسنى لها مواجهة زيادة عدد سكان الأمة بدون حد . وقد عبر هوارد عن تشخيصه وبرنامجه بسلسلة من الأشكال الهندسية التوضيحية ، وحتى الشكل الذى يبين نظام ترتيب الأجزاء المادية فى تكوين المدينة وضع بعناية تحت عنوان « شكل هندسى ليس غير » والرأى الذى ذهب إليه عن المجتمع المتوازن كان يمكن تطبيقه فى أوضاع حضرية متنوعة — من تلك التى دعا

إليها سلفه الطوباوى شارل فوريه[1] (Charles Fourier) إلى تلك التى صممها لوكوربزييه[2] . وفى أكثر من مرة ، وفى أحيان كثيرة تحت ستار تفنيد آراء هوارد أو هدم فكرة مدينة الحدائق ، نجد أن مبادئ التوازن واكتمال الوظائف التى نادى بها هوارد كان يعاد ابتكارها أو تعاد المناداة بها ، دون أن يعزى الفضل إلى هوارد على غرار ما كان هو نفسه يحرص دائماً على ألا يغمط فضل من سبقوه .

وقد كان الكثير من عناصر مشروع هوارد مألوفاً من قبل ، فهو لم يحاول أن يبدأ من لا شيء ، سواء فى آرائه أم فى ابتكاراته العملية . وكانت مدينته المثالية مزيجاً مما هو ممكن وما هو عملى ، ومثالية إلى حد يثير الرغبة فيها ، وقريبة مما هو مألوف فى عصره إلى حد يجعلها ميسورة التحقيق . وقد تجلت عبقريته فى جمع الموجود من أجهزة المدينة فى تكوين أرقى نظاماً يقوم على مبدأ التحديد العضوى والنمو المقيد . ولم يبدأ بالقصور الذاتى لحالة الانحلال ، بل بدأ بتحليل وظائف الإنسان التى تصون الحياة ، من حيث علاقتها بالبيئتين الحضرية والريفية . وعلى الرغم من أن تحليله لم يكن عميقاً ، فقد كان يتميز بالتقدير السليم لتنوع مظاهر النشاط الحضرى وما بينها من صلات متبادلة . ولم يكن الأمر الذى له دلالته فى مدينة الحدائق هو مجرد وجود حدائق وأماكن فضاء ، بل إن ما كان جديداً فى جوهره هو نهج نظامى معقول لمواجهة التعقيد عن طريق تنظيم قادر على تحقيق

---

(١) كان شارل فورييه فيلسوفاً اجتماعياً فرنسياً (١٧٧٢ - ١٨٣٧) وكان يدعو إلى إنشاء دولة طوباوية تتكون من وحدات اقتصادية صغيرة يتألف كل منها من ١٦٢٠ نسمة .

(٢) لوكوربيزييه هو الاسم المستعار لمعمارى سويسرى عالمى ولد فى عام ١٨٨٧ ولا يزال على قيد الحياة ويمارس مهنته ، ومن أشهر مبانيه مبنى عصبة الأمم فى جنيف ، كما أنه اشترك فى تصميم مبنى هيئة الأمم المتحدة فى نيويورك ، واسمه الحقيقى شارل إدوار جانيريه (Charles E. Oanneret) .

التوازن والاستقلال الذاتى ، وعلى حفظ النظام بالرغم من قيام الفوارق ، وكذلك على الاحتفاظ بالتماسك والاتحاد بالرغم من الحاجة إلى النمو . وهذه هى الفكرة التى كان من شأنها تغيير الأوضاع .

ولقد ثبت أن هوارد كان غير موفق فى الاسم الذى اختاره لهذه الفكرة الحضرية الجديدة ، وليس ذلك لمجرد أنه قبل ذلك بعهد طويل كانت قد سبقت إلى استخدامه مدينة شيكاجو التى هى مركز كبير قذر للسكك الحديدية ، بل أيضاً لأن وجود الحدائق – وإن كان جزءاً لا يتجزأ من المدينة الجديدة – لم يكن سمة خاصة تنفرد بها ، نظراً لأن هذه السمة كانت تتوافر فى كثير من الضواحى المعاصرة حتى على نحو أوسع نطاقاً . وكان هوارد قد اقترح فى كتابه أن تكون نسبة كثافة السكان بمعدل يتراوح بين ٧٠ و ١٠٠ نسمة فى الفدان الواحد ، إذا اعتمدنا فى استنتاج هذا العدد على ما اقترحه عن أحجام وحدات المساكن وقطع أراضى البناء . وهذه النسبة فى الواقع نسبة حضرية صميمة لكثافة السكان ، وهى على وجه التقريب النسبة التى نجمت عن تخطيط نيويورك فى سنة ١٨١١ ، حينما كانت تصطف على جانبى شوارعها الجديدة مبان مؤلفة من طابقين أو ثلاثة طوابق . ومثل هذه النسبة أعلى مما يوجد فى الضاحية العادية ، وهى خمسة أمثال ما يوجد فى كثير من الأجزاء المعاصرة فى لوس أنجليس . ولسوء الحظ أن الباحثين السطحيين الذين يجهلون كل الجهل الكتاب الذى وضعه هوارد ما زالوا يخطئون ويسمون الضواحى « مدن حدائق » أو يسمون تخطيط الضواحى المنفرج « تخطيطاً من طراز مدينة الحدائق » وأنكى من ذلك أن جماعة من النقاد ، وهم الذين كان ينبغى أن يكونوا أكثر دراية ، يشيرون إلى مدينتى الحدائق المثاليتين ، لينشورث وولوين ، أو المدن البريطانية الحديثة التى ظهرت بعدهما إلى الوجود ، كما لو كانت مجرد ضواح ، وذلك لأنها جميعاً أقيمت وسط إطار منفرج : بل لعله منفرج أكثر مما ينبغى .

بيد أن « مدينة الحدائق » كانت فى نظر هوارد مدينة قبل كل شىء ، وحدة من نوع جديد من شأن نموذجها العضوى أن ينتشر فى آخر الأمر من نموذج بمفرده إلى كوكبة كاملة عن المدن المماثلة . ولقد تمثل خروج مدينة الحدائق بجرأة على الأسلوب السائد للبناء والتخطيط فى طابعها الحضرى وليس فى مظهر حدائقها .

وعند النظر من الوجهة التاريخية إلى مشروع هوارد ، بعد مرور أكثر من نصف قرن على البدء فيه ، نجد أنه أكثر واقعية وأجزل فائدة للغاية – بالقياس إلى المدينة الممتدة طولياً (Linear City) التى اقترحها سوريا ى ماتا (Soria Y Mata) ، أو أى مدينة من « مدن الطرق » (Roadtowns) التى أنشئت فيما بعد وجعلت النقل وحده هو الذى يحدد تخطيط المدينة. وأما ما تقدم به لوكوربيزيه على أنه من ضروب التحسين ، وهو ما يعرف باسم « مدينة الحدائق الرأسية » (Vertical Garden City) ، فإنه ليس فى الواقع إلا ضاحية رأسية وليس من شأن ما فيها من تعاقب مبان منعزلة عالية الارتفاع ومساحات طلقة من الفضاء غير المزروع ، إلا أن يجعل تسميتها « مدينة » تسمية باطلة . وفى مدينة الحدائق الإنجليزية توجد الحدائق بوفرة فعلا ، فهى غنية بأشجار الفاكهة والأزهار والخضر ، ولكن الرأى الجديد الذى أعرب عنه هوارد امتاز بما عمد إليه من رفض التقيد بصورة عادية خاصة للمدينة ، أو بطريقة خاصة للتخطيط ، أو بطراز خاص للمبانى ، ومن ثم فإن الأوضاع الخاصة لمثل هذه المدينة تنشأ نتيجة لشكل المنظر الطبيعى وحالة المناخ ، والصناعات والوسائل التقنية الميسورة ، وفوق كل شىء تفنن القائمين بالبناء وتفنن السكان ، وأما من حيث العناصر المثالية ، فقد أعرب عنها على نحو يقرب من النظريات الرياضية .

وليس معنى هذا أن هوارد كان معصوماً من الخطأ ، ففى الصورة الأصلية التى وضعها عن التوزيع المقبل لما يتركز فى لندن من صناعات

وسكان ، ، نجد أن هوارد — ولعل ذلك كان من حسن حظ تجربته — قد أساء تقدير قوة الجاذبية التى تتمتع بها حاضرة كبرى ينصرف نظامها الاقتصادى إلى جمع المال ، وحيث تسمو الكفاية فى البيع على ما عداها من ضروب الكفاية ، وحيث يتطلب النجاح ضخامة الجموع ، وتكون للايجارات المرتفعة للمساكن والاكتظاظ الباهظ الكلفة دلالة على الأهمية . ولا جدال فى أن هوارد كان محقاً فى اعتقاده أن كثيراً من الظواهر والمرافق الأساسية فى الحاضرة كانت نتائج متفرعة عن فرط الازدحام ، وأنه من شأنها — مثل الرحلة الطويلة إلى مكان العمل — أن تقل إلى حد كبير أو أن تزول فى المدينة الجديدة . ولكن اقتراحه الواقعى القاضى بإنشاء مجتمع مكتف بذاته ، ويتألف من اثنين وثلاثين ألف نسمة بوصفه بديلا عن الحياة المثقلة بأعبائها فى لندن ، هذا الاقتراح لم يكن فى ذاته ليفى وفاء تاما بحاجة ما فى حضارة العصر الحاضر من التعقيدات الاجتماعية والتقنية . وعلى الرغم من ذلك فقد كان على صواب فى اعتقاده أن ٣٢،٠٠٠ نسمة كانوا يؤلفون وحدة تجريبية كبيرة إلى حد يكفى لاختيار مدى صلاحية هذه الطريقة الجديدة لنمو المدينة . ومع أن حياته كانت تسيطر عليها ضرورة اتخاذ هذه الخطوة الأولى وتتبعها إلى آخر مداها ، فإن الصورة الماثلة فى خياله كانت تتجاوز ذلك المدى العملى .

وإذا كانت هناك حاجة إلى أى شىء لإثبات الصفة الخارقة للعادة لمدى وعمق ما أوتى هوارد من قدرة على التفكير ، فإن الفصل الذى كتبه عن « المدن الاجتماعية » ينبغى أن تكون فيه الكفاية . وفى نظر هوارد ، لم تكن مدينة الحدائق لتعنى العزلة أو الاكتفاء الذاتى الضيق الأفق ، على غرار مدينة ريفية غارقة فى سباتها فى منطقة نائية يتعذر الوصول إليها . ولم يشغل بال هوارد أن أقلية من بين سكان المدينة الجديدة سيضطرون ، لأسباب مهنية ، إلى الذهاب إلى لندن أحياناً بل يومياً ، فقد كان حسبه أن يوجد من تجمع

الفرص الاقتصادية والشواغل الاجتماعية ما يكفى لانصراف أغلبية السكان انصرافاً كلياً إلى الاشتغال بها أغلب الوقت فى بيئة يتوافر فيها الكثير من المزايا الحضرية الإيجابية التى لم يعد يتسنى لمدينة لندن أن تهيئها حتى للأغنياء . وكأنما هوارد قد أراد أن يسبق الإغراء الذى يدعو إلى اعتبار أن المدينة ذات الحجم المحدود فى وسعها أن تقوم على أتم وجه باحتواء حضارتنا الحالية ، ونقلها إلى الأجيال التالية ، فعمل على إيجاد نموذج مكافىء لهذا الغرض ، لا يقوم على أساس الاكتظاظ ، بل على أساس التنظيم الموزع .

وفى تصوره للمدن الاجتماعية ، وحتى قبل أن تنشأ مدينة الحدائق الأولى ، مضى بهذا التطور إلى مرحلته التالية ، فإذا كان لا ينبغى أن تعتمد مدينة الحدائق ؛ من أجل أداء مهماتها العليا ، على الحاضرة المثقلة بأعبائها – إذ أن هذا الاعتماد كان يؤدى إلى إنزال مدينة الحدائق إلى مرتبة التابع – فقد كان يتحتم إذن عندما يوجد عدد كاف من المدن الصغرى ، أن تنتظم معاً بمحض رغبتها فى هيئة جديدة ذات صفة سياسية وثقافية ، أطلق عليها اسم « مدينة اجتماعية » – وهى التى سوف يطلق عليها فيما بعد كلارنس ستين وزملاؤه اسم « المدينة الإقليمية » – وذلك لتوحيد مواردها والتزود بالمؤسسات التى لا يتيسر توافرها إلا للأعداد الكبيرة مثل كلية فنية أو جامعة أو مستشفى متخصص فى علاج مرض بعينه ، أو فرقة موسيقية سيمفونية من المحترفين . وقد أوضح هوارد أنه يتسنى لعشر مدن يبلغ تعداد كل منها ثلاثين ألفاً من السكان ، وتربط بينها وسائل عامة سريعة للنقل ، ويؤلف بينها اتحاد سياسى ، وتجمعها صلات ثقافية – يتسنى لها أن تنعم بجميع المزايا التى يتيسر وجودها باجتماع ثلثمائة ألف من السكان فى مدينة واحدة بمفردها ، بل كان يتسنى لها أن تحصل على هذه المزايا دون التعرض لعيوب الوحدة الكبرى ، فما كان يتم من قبل عن طريق التقارب فى البناء ، أصبح الآن

ميسوراً عن طريق التنظيم المحكم ، بفضل النقل السريع والاتصال فى لمح البصر .

ولقد استطاع هوارد عن طريق هذه الوسيلة الاتحادية — وهى ناحية من تفكيره أغفل أمرها زمناً طويلا — أن يدرك بغريزته الوضع الذى يحتمل أن تكون عليه مدينة المستقبل المثالية التى من شأنها أن تربط بين العناصر الحضرية والريفية فى تكوين إقليمى معقد التركيب متعدد المنافذ والمراكز ولكنه قادر على أداء وظيفته كوحدة كاملة . وإذا كانت الخطوة الأولى هى إقامة نموذج تجريبى للوحدة الحضرية الجديدة لإثبات أنه من الممكن عملياً تحقيق توزيع السكان والحرف والصناعات والنمو المستقل ، فإن الخطوة الثانية كانت إنشاء نوع جديد من المجتمع الحضرى الواسع النطاق الذى تصبح مدينة الحدائق أحد أعضائه العاملين .

وقد صاغ هوارد آراءه فيما اتسم به المذهب العقلى فى عهد الملكة فيكتوريا من عبارات بسيطة مشبعة بروح التقوى مع مسحة من عاطفة البر المسيحية . وعلى الرغم من أنه كان داعية يستهوى النفوس بسحر ألفاظه ، ويستل الخصومة بمظهر بساطته الشخصية ، فإن ذلك جعل أعظم آرائه اتصافا بالأصالة وبعد النظر تبدو أقدم طرازاً من حقيقتها . وواقع الأمر أن تصوراته لم تقتصر على أنها كانت تسبق التيار الفكرى السارى فى عصره عن طبيعة ومستقبل المدن فحسب ، بل إنها تغلغلت إلى مدى أبعد مما ذهب إليه بعض أتباعه المخلصين ، وحتى فى الوقت الحاضر يجد كثير من الناس أن رفض كل ما يتضمنه رأيه من اتجاهات ، أيسر من تتبعها إلى آخر مداها . وعلى الرغم من أن القيمة الأساسية لمدينة الحدائق كانت ، فى نظر هوارد ، إثبات أن من الميسور إيجاد طريقة لنمو المدن تكون أكثر ملاءمة لوظيفتها الطبيعية ، ومن شأنها ألا تفضى إلى التكاثر على هيئة أجزاء غير مترابطة ذات صبغة حضرية ، بل على هيئة وحدات كاملة مترابطة تجمع بين المزايا الحضرية والريفية ، فإن مدينة الحدائق أدت خدمة أخرى وهى أنها لفتت

الأنظار بوجه عام إلى حقيقة طبيعة المدينة ذاتها ، وبعث على العناية بدراسة عملية تطور المدينة فى جميع أدوارها ، وهو ما لم يكن له وجود إلى ذلك الحين :

. وفوق كل شىء فإن هوارد ، بما أبداه من بعد النظر فيما يتعلق بالتكوين الجماعى الموحد للمدينة ، قد لفت النظر إلى أن نمو مدينة ما يجب أن يكون فى يد هيئة عامة نيابية ، وأنه لا يتسنى تحقيق أفضل النتائج إلا إذا كانت لدى الهيئة السلطة التى تمكنها من تجميع الأرض وامتلاكها ، ووضع تخطيط المدينة ، وتوقيت إقامة المنشآت المختلفة وفقاً لنظام معين ، وتوفير المرافق والخدمات اللازمة . فما عاد ينبغى أن تترك أهم العوامل الأساسية لتقدم المدينة تحت رحمة الأفراد الذين يستثمرون أموالهم – سواء أكانوا من المضاربين أم الملاك – ويتناولون فى تصرفاتهم قطعاً بعينها من الأرض لإقامة المبانى ، ومنازل بعينها ، ومواقع بعينها للأعمال التجارية ، إذ أنه ما من تصرف فردى مهما يتسم ببعد النظر أو بمراعاة الصالح العام ، يمكن أن يسفر عنه من النتائج ما يضارع نتائج تصرفات جماعة مترابطة هادفة . وفضلا عن ذلك فإنه لا ينبغى أن تغفل المدينة مسئوليتها عن السهر على صوالح كل سكانها إلى حد أنها لا تضطلع بأعباء هذه المسئولية إلا بعد أن تكون الجهود الفردية الجامحة قد أنزلت بالمدينة أقصى قدر من الاضطراب .

وعناية هوارد بإبراز أهمية الوحدة والتوازن والاكتفاء الذاتى ما زالت تؤدى خدمة نافعة لكل نوع من أنواع التجديد الحضرى ، وليس من قبيل المصادفة أن أرفع أمثلة تصميم المدن فى القرن العشرين كانت فى مدن مثل فرانكفورت على نهر الماين وستوكهلم ، حيث لم تندثر كلية تقاليد المسئولية الجماعية التى ترجع إلى العصور الوسطى – لم تندثر كلية تحت تأثير ما ساد فى القرن التاسع عشر من التكالب على المضاربة وأيديولوجية حرية العمل : ولعل اقتراح إنشاء مدينة جديدة كان السبيل الوحيد الذى يتسنى عن طريقه

الاعتراف بجميع المهمات ووجوه النشاط والأغراض التى تتحقق فى مدينة مكتملة التكوين ، نظراً إلى أن الكثير من هذه النواحى كان قد اختفى على حين أن نواحى أخرى أصبحت تتمتع بأهمية مبالغ فيها إلى حد معيب ، وذلك حين كانت المدن القائمة حالياً تنمو دون ضابط ولا توجيه .

وإن الاتجاه المنسق الذى سلكه هوارد فى معالجة حياة المدن ونموها ، ليبلغ من تنافره مع الأيديولوجية والعرف السائدين فى عصرنا الحاضر ، أن كثيرين ممن يتمتعون بقدر كبير من الكفاية فى مزاولة تخطيط المدن ، ما زالوا يعتبرون برنامجه خيالياً جداً ، وأن نصيبه الفشل المحتوم بحكم ذات طبيعة نظامنا الاقتصادى التكنولوجى المتجه إلى التوسع . ويبلغ من كثافة هذه الغشاوة على عيونهم أنهم يرفضون الأخذ بأى بينة على نجاح البرنامج ويعتبرونها غير صحيحة . ولكن الواقع هو أن مقترحات هوارد « غير العملية » قد أفضت فى خلال الجيل الأول من ظهورها إلى إنشاء مدينتى حدائق وهما لينشورث وولوين ، ومع أن هذين البلدين قد بدأ العمل فيهما بوصف أنهما مشروعان خاصان وليسا عامين ، وأن آفاق الربح فيهما محدودة ، فإنه لم يحدث أنهما تغلبا فحسب على ما صادفاه من إغفال ومقاومة ، بل حدث أيضاً أنهما أثرا فى نظام الإسكان وإنشاء المدن فى مناطق كثيرة تمتد من سكوتلندا إلى الهند . ولقد كان نجاح هاتين المدينتين هو الذى حدا باللجنة البرلمانية التى كان يرأسها سير أنتونى مونتاجيو بارلو (Sir Anthony Montague Barlow) إلى التوصية بعلاج الازدحام المتزايد فى لندن ، من طريق توزيع الصناعات المركزة فى العاصمة البريطانية — توزيعها فى مدن ذات حدائق . وقد أدت هذه التوصية بدورها إلى صدور قانون المدن الجديدة (New Towns Act) فى سنة ١٩٤٦ ، وهو الذى قضى بإنشاء حلقة من المدن الجديدة حول لندن وفى عدة جهات أخرى فى إنجلترا .

وحقاً إنه « لفشل » فريد نوعه ! فأى فكرة جديدة أخرى عن تحسين حالة المدن أدت إلى تخطيط وإنشاء خمس عشرة لمدينة جديدة فى إنجلترا وحدها ، دون أن نذكر شيئاً عن منشآت مماثلة تم إنجازها أو فى دور الإنجاز فى السويد والأقاليم الواطئة وإيطاليا وروسيا السوفيتية ؟ إن الانتقاص من قدر هذا العمل الفذ بالقول إن ازدحام لندن ما زال شديد الوطأة ، لينطوى على إغفال حقيقة ماثلة ، وهى أنه بفضل فكرة هوارد يوجد الآن فى بريطانيا نصف مليون فرد يعيشون فى ظروف طبيعية وبيولوجية أرقى بمراحل شاسعة من تلك التى تعيش فيها أغلبية سكان لندن ، وهى ظروف تضارع ، إن لم تكن تسمو على ، تلك التى كانت سائدة فى الضواحى الأوفر ثروة فى الماضى ، نظراً إلى أنها تشتمل على قدر أكبر من العناصر الاجتماعية التى تتكون منها الحياة الحضرية الحقيقية .

أما أن برنامج المدن الجديدة قد أوقف بغتة فى اللحظة التى كانت الحاجة تدعو فيها إلى النقد القائم على الفحص الدقيق لما تم تنفيذه وإلى القيام بالمزيد من التجارب فى مجال تنظيم أوضاع المدن الجديدة ، فإنه يدل على ضيق أفق السياسة الإنجليزية ، ولا يدل على فشل المدن الجديدة ذاتها ، وهو أقل دلالة على فشل الآراء التى أنشئت هذه المدن على أساسها .

لقد كانت الآراء والبرامج تتطلب إعادة النظر فيها على ضوء المزيد من التجارب ، وما زالت الحاجة قائمة إلى التسليم بضرورة إنشاء مدن جديدة على مستوى إقليمى ، وابتكار نوع جديد من الهيئات الإدارية تتوافر لديها الوسائل للإنشاء والإدارة فى آن واحد على مستوى الهيئة الكبرى التى تتولى شئون الميناء ومستوى مجلس محافظة لندن . بيد أن أولئك الذين يعمدون عند مطلع أى حركة إلى التصايح بالفشل – ولعل ذلك بدافع من الأمل فى أن مناداتهم بالويل والثبور سوف تكون فيها نهاية الحركة – إنما يكشفون فى الواقع عن مدى ما فى هذا الأسلوب الجديد لنمو المدن من تهديد جوهرى لرضاهم بأحوالهم وللآراء التى يعتنقونها دون فحص ولا تمحيص .

وإن ما أسماه هوارد « عنقودا من المدن » المنضدة فى قالب من الخضرة الدائمة بحيث تؤلف وحدة جديدة من الناحية السياسية ومن حيث العلاقة بين الكائن الحى والوسط الذى يحيط به ، لم يكن فى الواقع إلا المرحلة الجنينية فى تكوين طراز جديد من المدن يكون من شأنه أن يتجاوز اتساعه النطاق المحدود للمدينة التاريخية ، بل اتساع العاصمة ، إلا أنه رغما عن ذلك يتغلب على ما يصحب التجمع الحضرى من التوسع بلا حد والانتشار على غير هدى . وأما الخطوة التالية فى تعريف هذه الوحدة الحضرية الجديدة ، التى كانت الأجزاء الواضحة فيها أمام العين تؤلف كيانا خفيا ولكنه شديد الترابط والتشابك ، فقد تولاها هنرى رايت (Henry Wright) وزملاؤه فى لجنة ولاية نيويورك لشئون الإسكان والتخطيط الإقليمى .

ولقد أوضح رايت فى تحليله للنمو الحضرى فى ولاية نيويورك أن الاستمرار فى نمو الحاضرتين الواقعتين عند طرفيها — وهما مدينتا نيويورك وبفلو — من شأنه أن يزيد فى تراكم ما تكدس فيهما من قبل من وجوه النقص والضعف ، على حين أنه من الميسور الآن تخطيط نوع جديد من الانتشار الحضرى ، يكون مغايرا لما كانت عليه الحالة فى العهد الأول لبناء المجتمع الموزع ، الذى كان مركزه القرية ، ودعامته الأساسية القناة ، أو الخط الحديدى المحلى (الذى لم يكن قد أدمج بعد فى نظام موحد) ، واستخدام قوة اندفاع المياه ، والطريق الرئيسى الصالح لسير العربات التى تجرها الخيل . ومن شأن النموذج الحضرى الجديد أن يكون أضيق نطاقا ، وأن يجتذب من منطقة جبال ادبروندالك (Adirondack Mountains) سكانها المستديمين ، ويردها إلى ما كانت عليه من غابات ومناطق للنزهة ، وأن يقصر المنطقة الجديدة للاستقرار على شريط عريض يمتد بطول واديى نهرى هدسون وموهوك ويصعد إلى المنطقة التى تحف ببحيرة ايرى ، وهى منطقة ملائمة للاستقرار وإن كانت فقيرة فى مرافقها . وقد كان هذا الشريط

العريض يؤلف الإقليم الجديد للاستقرار الحضرى ، وهو إقليم ملائم لتجديد المجتمعات القديمة التى استنزف دماء حياتها ما حدث من التجمع والتركيز فى الحواضر ، كما أنه ملائم لإنشاء مجتمعات جديدة محدودة الحجم ، تقوم وسط أراض زراعية خصبة ، وتتصل فيما بينها بشبكة جديدة من الطرق الرئيسية تنشأ أساسيا لاستخدام السيارات .

ولو أن ولاية نيويورك أوتيت من الإقدام السياسى والاقتصادى قدراً كافيا للأخذ بهذا النموذج الجديد ، لأفادت المدن الكبيرة والصغيرة على السواء من هذا التطور . ولكن بدلا من ذلك سار كل التخطيط منذ ذلك الحين على نحو من شأنه تضخيم نموذج الازدحام فى الحواضر . فطريق السيارات الممتد رأسا من نيويورك إلى بفلو ليس إلا صورة أخرى من خط السكة الحديدية ، ويؤثر تأثيراً كبيراً فى الخدمات الجوهرية التى تؤديها السكة الحديدية ، على حين أنه طبقا لمشروع رايت ، فإن الطرق الرئيسية الجديدة ، كما وضع تخطيطها بنتون ماك كاى (Benton MacKaye) فى سنة ١٩٢٩ ، كانت لا تمر بالمدن ولا تتبع الخط الداخلى للنقل ، ولذلك فإنه كان يتسنى لها أن تمتد على طول حدود شريط الاستقرار ، وأن تكون بمثابة السلسلة الفقرية فى نظام إقليمى للتوزيع . وكان من شأن ذلك أن يهيىء أيسر السبل للوصول إلى ما وراء ذلك من مناطق النزهة الجبلية ، كما يهيىء نظاما مفيداً للنقل العام والخاص على السواء باستخدام القناة ، والنهر ، والسكة الحديدية ، والطريق الرئيسى ، والجو . فإن فكرة المدينة المتوازنة يجب أن تتسع الآن لتشمل الإقليم المتوازن بعد إعادة تكوينه عن عمد وروية بوصفه عملا من أعمال الفن .

وقد كان من المستطاع إنشاء أربع أو خمس وحدات إقليمية جديدة على هذا الأساس ، بحيث تتركز حول مدن قائمة ، ولكى تمتد فى انتشارها إلى نطاق أوسع مدى بكثير وتكون قادرة على توجيه المزيد من النمو نحو

مجتمعات متوازنة ، وكان هذا خليقا بأن يصل بفكرة هوارد عن المدن الاجتماعية إلى نهايتها المنطقية . وبدلا من ذلك فإن الجهود المتضافرة من جانب لجنة الطرق الرئيسية وهيئة ميناء نيويورك اتجهت نحو زيادة الازدحام عند طرفى الولاية وجنى الأرباح من وراء المزيد من سوء النظام .

فحتى الآن إذن أخفقت مقترحات هوارد فى وقف ، بل فى تأخير ، العمليات التلقائية التى تسير فى مجراها فى مدنيتنا . والسبب الكامن وراء هذا الإخفاق هو أن المدنية الغربية ما زالت مندفعة بتأثير عامل القصور الذاتى لثلاثة قرون من التوسع — توسع فى الأرض ، وتوسع فى الصناعة ، وتوسع فى السكان . وقد حدثت هذه الحركات فى سرعة كانت تجعل من العسير على السلطات العامة تنظيمها والتحكم فيها ، حتى إذا كانت تدرك الحاجة إلى حياة اقتصادية أكثر استقراراً . ولقد تكشفت جميع الحركات الثلاث من بادئ الأمر عن ظواهر تنافى العقل وتؤدى إلى الانحلال ، وبدلا من أن تتقلص وتنكمش فى خلال الجيلين الأخيرين ، ازداد مداها اتساعا . وكلما اتسع نطاق القلق وسوء النظام ، قل احتمال القيام بالتوزيع على أساس خطة مدروسة ، وتحقيق توازن فعال ، ونمو منتظم . وإن انتشار الضواحى فى الوقت الحاضر دون خطة مرسومة ، وما يقترن بذلك من ازدحام الحواضر وسوء الحالة فيها ، لهو بديل وضيع عن مدن يسودها النظام وأقاليم تزخر بالعمران القائم على تخطيط مدروس .

وإلى هذا المدى يبلغ قدر ما يجب التسليم به ، بيد أن الرد على التفكك الحالى قد يكون الآن فى سبيل الإعداد فى طى الخفاء ، على نحو ما ظلت المسيحية مختفية لمدة قرنين كاملين تحت دروع الامبراطورية الرومانية . وإذا ما قدر لعوامل التماسك أن تستعيد قواها ، فإنه ينبغى لكل المجتمعات أن تلحظ النظرية التى نادى بها هوارد من أن : كل مدينة ، وكل جهاز فى المجتمع ، وفى الحقيقة كل هيئة ومنظمة ، لها حد من حيث النمو المادى ،

كما يجب على كل المجتمعات أن تعى النتيجة الطبيعية لهذه النظرية ؛ وهى أن كل مشروع يتجاوز ذلك الحد يجب أن يتطاير كالأثير .

وإن هذا الرأى لينطبق على ما يتجاوز الحد فى التركيز من المستشفيات ومعاهد البحوث ، كما سبق أن ثبت انطباقه على المخازن التجارية الكبرى التى بلغت حدا مريعا من الضخامة . وعند تحديد الأبعاد الجديدة ، والأغراض الجديدة للمدينة على وجه فعال ، لا شك أننا سنتجاوز مدى الصورة التى تخيلها هوارد ، بيد أننا سوف نبقى مدينين له بالفضل لأنه كان أول من وضع الخطوط الرئيسية للأساس الذى يقوم عليه هذا النظام الأوسع نطاقا .

الفصل السابع عشر

خرافة المدينة العظمى

١ — تعدد وجوه ازدياد القوة

إن ازدياد مساحة الأرض الصالحة للزراعة ، وتقدم الزراعة ، وانتشار السكان ، وتكاثر المدن ، كانت جميعاً تسير جنبا إلى جنب فى كل مراحل التاريخ ، ولم يسبق أن كانت هذه الظواهر أكثر تلازما بعضها لبعض مما كانت فى القرن الأخير . والآن تدخل كثير من البلاد مرحلة سوف لا يقتصر الأمر فيها على أن يكون سكان المدن أكبر عددا من سكان الريف ، بل سوف تغدو المساحة الفعلية التى يشغلها النمو الحضرى ، أو يبسط عليها حقه فى تملكها ، منافسة للمساحة المخصصة للزراعة ، وإحدى الأمارات التى تدل على هذا التغيير ، هى ازدياد المدن الكبرى فى العدد والمساحة والسكان ؛ فالمدينة العظمى هى فى سبيلها إلى أن تصبح عاجلا وضعا عاما شائعا ، والنظام الاقتصادى السائد يقوم على أساس نظام الحواضر ، الذى لا يتيسر فيه لأى مشروع أن تكون له قيمة إيجابية إلا إذا كان وثيق الارتباط بالمدينة الكبرى .

فهل يدل ذلك على مرحلة نهائية فى التطور الحضرى ؟ إن أولئك الذين يعتقدون أنه ليس ثمة من طريق آخر للنمو بديل عن التكاثر الحالى للحواضر ، لعلهم يغفلون ، فى يسر وسهولة أكثر مما ينبغى ، النتائج التاريخية التى تنشأ عن مثل هذا التركيز للقوة الحضرية ، فهم ينسون أن هذا قد كان فى حالات متكررة دليلا على حلول المرحلة الأخيرة فى الدورة الكلاسيكية للمدنية قبل انهيارها وسقوطها نهائيا . ومن المحقق أنه ليس ثمة

دليل على الاستقرار فى مدنية كابدت فى خلال أربعين عاما حربين عالميتين ، وأودت قبل الأوان بحياة نحو ستين مليونا من البشر ، وفقا لأقل تقدير دقيق — مدنية بعثت من جديد أشد ضروب الوحشية فى القهر والتعذيب والإبادة الشاملة ، وتنذر الآن بأنها فى خلال الكفاح مستقبلا من أجل « نشر الشيوعية » أو « الحفاظ على الحرية » ستفنى سكان قارات بأكملها ، وقد تجعل الكوكب الأرضى بأسره غير صالح للحياة إلى الأبد . فى هذه المدنية — مدنية الحواضر — تكمن القوى المتفجرة التى سوف تمحو كل أثر لوجودها ، ووضع خطط للمستقبل دون جعل هذه الحقيقة فى الاعتبار ، يكشف عن أحد الدلائل النموذجية على ذلك الابتعاد المطلق عن الواقع الذى يتسم به ما هو جار الآن من استغلال الوسائل العلمية للإبادة الشاملة والتدمير الشامل .

وقبل أن يتسنى لنا تقدير قيمة ما يوجد تحت تصرف بنى الإنسان من الموارد البالغة الحيوية ، التى قد تنقذهم فى النهاية من سوء استخدام العلم والابتكارات التكنولوجية على نحو مناف للعقل ، قبل هذا يجب أن نمعن النظر فى العوامل التى نشأ عنها هذا النظام الاقتصادى القائم فى الحواضر ، والتى استفحل أمرها من جراء ما أفادته من النجاح المدمر الذى يفخر به هذا النظام . ولعل إدراك التطور التاريخى للمدن سوف يهيئ من التبصر — المعدوم إلى الآن — ما يمكن من إدخال وسائل جديدة للتحكم فى نشاط تلك العوامل ، وإلا لظل هذا النشاط آليا لانبثاقه عن غير وعى . بل إن كثيراً من العوامل الحالية ، التى تبدو الآن تلقائية تخبط خبط عشواء ، قد يثبت أنها فى واقع الأمر صادرة عن وعى وتدبير للحث على المضى فى نمو يجب أن يكبح ، أو لتركيز وظائف وسلطات يجب أن توزع .

وكما سبق أن أبديت رأيى من قبل ، يحتمل أن أحد أسباب ما يحدث

كثيراً من تكرار الدورة الحضرية للنمو ، والتوسع ، والانحلال ، يكمن فى ذات طبيعة المدنية نفسها ، فقد رأينا فى حالات كثيرة أن المدينة تجنح نحو تغليف حياة المجتمع — حياته الجوهرية بوجوهها المتعددة — بأوضاع متحجرة تتجاوز الحد فى تخصصها وتحقق الاستمرار على حساب التلاؤم والمزيد من النمو . ومن المحتمل أنه فى الماضى ، كان تكوين المدينة ذاته ، بما فيه من سيطرة الوعاء الحجرى على قطب المغناطيس ، مسئولا عن هذه المقاومة إلى مدى غير قليل . وكان من جراء ذلك فى النهاية أن أصبح الانحلال المادى — عن طريق الحرب أو الحريق أو الاضمحلال الاقتصادى والذبول هو السبيل الوحيد لتنبيه المدينة إلى المطالب الجديدة للحياة :

وإذا صح هذا ، فإن الحاجة الأساسية التى تواجه المدينة اليوم هى زيادة التوسع فى معرفة المجتمع نفسه ، وزيادة التعمق فى فهم مجرى التاريخ ، وذلك كخطوة أولى نحو النظام والتحكم ، فالمعرفة المنشودة تشبه ما يتحقق لعصابى من معرفة نفسه لكى يواجه جرحاً نفسانيا ظل دفيناً منذ عهد الطفولة ، فوقف حائلا فى طريق نموه وتكامله على نحو طبيعى .

ومدن مثل روما ، شهد التاريخ بلوغها نهاية دورتها بأكملها قبل أن تعاود نموها من جديد عند مرحلة أدنى مما وصلت إليه ، تهيئ قدراً وفيراً من المعلومات لدراسة ارتفاع المدينة العظمى وسقوطها ، إلا أنه لسوء الحظ أن تلك المعلومات تبلغ من التناثر ، والكثير منها يبلغ من الغموض ، حداً يتعذر معه استجلاء كنه الحقائق بوضوح تام ، وعلى الرغم من أنه فى وقتنا الحاضر كانت وارسو وبرلين وتوكيو ومدن أخرى كثيرة قاب قوسين أو أدنى من الإبادة المادية ، فإن قدراً كافياً من النسيج الحى للحضارة ظل مصوناً فى أنحاء أخرى من أوطان هذه المدن بحيث جعل من الميسور إعادة إنشائها على عجل ، مع إدخال كثير من وجوه التحسين القليلة الشأن : وإن لم يدخل

تعديل حاسم على وظائفها . ومن شأن استمرار بقاء هذه الأوعية التى تجاوزت الحد فى نموها أن يدل على أنها مظاهر مميزة للعوامل المسيطرة على مدنيتنا الحاضرة ، وحقيقة أن عين أمارات الإفراط فى النمو وفى التركيز توجد فى روسيا السوفيتية « الشيوعية » كما توجد فى الولايات المتحدة « الرأسمالية » تنهض دليلا على أن هذه العوامل عوامل عالمية تمضى فى نشاطها دون مراعاة تقريباً للمذاهب الفكرية السائدة أو الأهداف المثالية .

ومع أنه يجب الاعتراف بمثل هذه الحقائق ، إلا أنه من السابق للأوان الاعتقاد بأن ماجريات هذا النشاط نهائية ولا سبيل إلى تحويل اتجاهها ، فلقد سبق أن استعرضنا قدراً عظيما من المعلومات التى تثبت أنه ، حتى فى حالة حضارات كانت إلى حد بعيد أقل من حضارتنا التزاماً لخطة النمو المادى ، كان يدركها وقت يقضى فيه على الكائن الحى بتأثير العضو المتورم الذى أفاد منه حتى بلغ حداً كبيراً من الانتفاخ ، وفى خلال ذلك كان من الممكن أن يؤدى التوالد والنمو والتجديد على نحو سوىّ إلى تغيير الأوضاع فى جهة أخرى .

وعلماء الاجتماع والاقتصاد الذين يقيمون مشروعاتهم للتوسع الاقتصادى والحضرى فى المستقبل على أساس العوامل ذات الأثر الفعال فى الوقت الحاضر فلا يتدبرون إلا أمر تلك التغييرات التى قد تنشأ عن تنشيط تلك العوامل ، إنما يتجهون نحو تعميم وجود مدن عظمى مجهزة بالمعدات الميكانيكية ، وتقوم على نظام موحد ، وتكون فى واقع أمرها مجردة من الروح الإنسانية ، بوصف أن ذلك هو الغاية القصوى للتطور الحضرى ، وسواء أكانوا يستنبطون ما ستكون عليه الحال فى عام ١٩٦٠ أم يرهصون بالأوضاع فى عام ٢٠٦٠ ، فإن هدفهم هو فى الواقع عام ١٩٨٤ ، وهؤلاء العلماء ، تحت ستار القيام ببحث إحصائى موضوعى ، نراهم فى الواقع يغفلون فى تحليلهم

الحقائق المشاهدة فى علم الحياة ، أو فى علم الإنسن ، أو فى التاريخ ، وهى التى من شأنها أن تهدم مقدماتهم أو تصحح استنتاجاتهم . وعلى حين أن هؤلاء المراقبين نبذوا النظرية الكلامية عن الأسباب الغائية . فإنهم حولوا المدينة العظمى ذاتها إلى سبب غائى فى تقديرهم .

وكثير من الآراء عن التطور المنتظر اليوم للمدن قد بنيت على أساس الفروض الأيديولوجية الشائعة حول طبيعة الإنسان ومستقبله ، وإنه ليكمن تحت ما فيها من مراعاة ظاهرية للحياة والصحة ، احتقار عميق للقدرة البشرية على العمل على وجه يتضمن المحافظة على الصلات الوثيقة بين جميع أساليب العمل التى يسهم فيها الإنسان فى بيئة ملائمة للحياة فى كل مظاهرها . وبدلا من اعتبار الصلة بين الإنسان والهواء والماء والتربة وجميع رفاقه من البشر أقدم صلاته وأعظمها ضرورة له — ومن ثم فإنه يجب ألا يحدّ منها وألا يعمل على إزالتها ، بل يجب على الأصح تعميق تلك الصلة وتوسيع نطاقها فى التفكير وفى العمل معاً — بدلا من ذلك فإن التكنولوچيا الشائعة فى وقتنا الحاضر تنصرف إلى تدبير الوسائل لكى تستبدل بالأساليب العضوية ، أى التى تستخدم فيها القدرة البشرية ، أساليب ميكانيكية بارعة (يمكن التحكم فيها ! ويمكن جنى الأرباح من ورائها !) .

وبدلا من جلب الحياة إلى المدينة ، بحيث يتسنى لأفقر سكانها ألا يقتصر حظه على الحصول على الشمس والهواء فحسب ، بل على فرصة ليلمس الأرض ويحس بها ويقوم بزراعتها ، فإن هؤلاء الرسل السذج الداعين للتقدم فضلوا أن يجلبوا الجدب إلى الريف ، والموت إلى المدينة فى آخر الأمر . و « مدينة المستقبل » التى يبشرون بها ما هى إلا مدينة أنزلت إلى أدنى مستوى يمكن الوصول إليه فى حياة مستقلة كاملة الوعى ، حافلة بضروب النشاط ؛ فهى لا تعدو مرتبة الحياة التى توائم احتياجات المكنات . وكما سوف نرى ، ليس من شأن هذا الوضع إلا أن تحقق العوامل الحالية ، الدائبة على عملها

فى المدينة العظمى ، غايتها النهائية — وهى القضاء الشامل على النوع الإنسانى . ومن دأب مثل هذه العوامل أنها تحقق غاياتها ، وكلما اتسع نطاق الإيمان بها ، ازداد نشاطها ، بيد أنه جرياً على هذا القياس ، فإنها كلما ازدادت نشاطاً ، ازدادت سرعة احتمال وصولها إلى نهاية مروعة .

وإن نهاية مدنيتنا بأسرها ، مدنية المدن العظمى ، لتتجلى اليوم أمام الأنظار بأقصى درجات الوضوح ؛ إذ أن مجموعة من النقط على شاشة جهاز الرادار يُساء تفسيرها ، قد تشعل نيران حرب ذرية من شأنها أن تطيح بمدنيتنا الحضرية بأكملها من الوجود ، ولا تخلف وراءها شيئاً للبدء به من جديد — لا تخلف شيئاً لمن قد ينجو من اللاجئين التاعسين سوى الموت جوعاً ، أو بمرض وبائى ، أو مرض السرطان الذى لا يرحم ، نتيجة لعنصر سترونتيوم ٩٠ . وعقد أى آمال للمستقبل على مثل هذا البناء ، لا يتسنى إلا لمن أعدوه من « الخبراء » الذين توافر لهم من التدريب أكثر مما توافر من الصفات الإنسانية . وحتى إذا لم يدركنا هذا المصير ، فإن ألواناً أخرى عديدة من الموت تعد عدتها منذ الآن ، وهى لا تقل بشاعة ، وإن كانت أشد غدراً وأكثر تمهلا .

بيد أن عملية الدورة التى نوجد فى وسطها ليست بالضرورة عملية محتومة لا تقبل التبديل أو التغيير ، فيجب أن تقوم كل الخطط الحكيمة على أساس هذه الحقيقة . وحضارتنا العالمية الحديثة — وهى ذات موارد تاريخية تزداد عمقاً على مدى الأيام ، واتصالات يزداد نطاقها اتساعاً على الدوام — لمجرد أنها تشمل العالم بأسره ، يتوافر لها من الإمكانيات التى لم تستخدم إلى الآن ، ثروة أعظم مما اتفق لأى حضارة أخرى سابقة .

والمشكلة التى تواجهنا فى كل ناحية هى العمل على تعويق أو وقف سير العوامل التى تهددنا الآن ، وذلك عن طريق اعتراض سير دورة التوسع والانحلال بوضع قواعد جديدة تكون أقرب إلى مطالب الحياة ، فتهيئ لنا

السبيل إلى تغيير اتجاهنا ، وإلى البدء من جديد فى مناطق عديدة . وإن مجرد وجود المدن الجديدة فى إنجلترا والسويد — ولو أنها لم تغير إلى الآن نموذج الحواضر السائد — ليقوم دليلا على إمكان الوصول إلى أساوب جديد للنمو الحضرى . وقد تكون هذه البادرة الصغيرة بشيراً بتحول أوسع مدى .

وفى عزمى أن أقوم فى الفصل الحالى بإنعام النظر فى بعض النواحى السلبية المريعة مدنية العواصم ، وسوف يكون ذلك بمثابة تمهيد لتحليل جديد للدور الذى تضطلع به المدينة ، بوصفها قطبا مغنطيسيا ووعاء ومحولا ، فى الحضارة الحديثة .

٢ — استرقاق الأعداد الكبيرة

إن ما حدث من التكدس فى الحواضر يرجع أصلا إلى ماحدث من الزيادة العظيمة فى عدد السكان فى خلال القرن التاسع عشر ، ويحتمل أن تكون هذه الزيادة فاقت نسبياً ، وعلى وجه الإطلاق أيضاً ، الزيادة التى حدثت فى العصر الحجرى الحديث وجعلت من الميسور القيام بالفتوحات الأصلية التى تمت مجال العمران الحضرى . فقد تضاعفت الشعوب الأوروبية الجنس من نحو مائتى مليون فى أثناء حرب نابليون ، إلى حوالى ستمائة مليون عند نشوب الحرب العالمية الأولى . فهذا الجنس ، الذى كان يبلغ نحو سدس سكان الأرض فى عهد مالثوس[1] (Malthus) ، ارتفع إلى ما يبلغ نحو ثلث سكانها فى مدة تزيد قليلا على قرن واحد ، بالرغم مما حدث فى أثناء تلك الحقبة من أن بعض الشعوب الأخرى التى وقعت تحت نفوذ هذا الجنس ، مثل سكان الهند الشرقية الهولندية ، تكاثرت كذلك وطالت الحياة فيها على نحو لم يسبق له مثيل .

---

(١) توماس روبرت مالثوس (١٧٦٦ — ١٨٣٤) عالم اقتصادى إنجليزى صاحب نظرية التكاثر بنسبة رياضية .

وفى سنة ١٨٠٠ ، لم تكن توجد فى العالم الغربى مدينة واحدة تشتمل حتى على مليون واحد من الناس ، فإن لندن وكانت أكبرها لم تكن تحتوى إلا على ٩٥٩٫٣١٠ من السكان ، على حين أن باريس كانت تحتوى على ما يزيد قليلا على نصف مليون ، أى أقل بكثير مما تحتويه أمستردام اليوم . وعندما أقبل عام ١٨٥٠ ، كانت لندن تضم أكثر من مليونين ، وباريس أكثر من مليون من السكان ، وكانتا لا تزالان فى مأمن من المنافسة الجدية ، على الرغم من أن عدد السكان كان يتزايد على وجه السرعة فى مدن أخرى كذلك . بيد أنه عندما حل عام ١٩٠٠ ، كانت قد ظهرت فى الوجود إحدى عشرة حاضرة يزيد عدد سكان كل منها على المليون ، وكانت من بينها برلين وشيكاجو ونيويورك وفيلادلفيا وموسكو وسانت بطرسبرج وفيينا وتوكيو وكلكتا .

وبعد ذلك بثلاثين سنة ، نتيجة لحمى تركيز رأس المال والتوجيه المالى فضلا عن الوسائل الميكانيكية التى ساعدت على اتساع المدن وازدحامها ، كانت توجد سبع وعشرون مدينة يزيد عدد سكان كل منها على المليون : وبترتيب هذه المدن ترتيبا تنازليا ، طبقاً لعدد سكانها ، كانت نيويورك تأتى فى المقدمة ، وبرمنجهام بإنجلترا فى المؤخرة ، وكانت هذه المدن تشتمل على حواضر فى كل قارة ، حتى فى أستراليا . وعند منتصف القرن العشرين ، كان يوجد عدد كبير من المناطق الحاضرية الجديدة المؤلفة من حلقات من الضواحى تنتشر منبعجة حول المدن ، مما أدخل عدداً من السكان أكبر من ذلك بكثير فى الإطار العام للحواضر .

وكان مما لوحظ كذلك ارتفاع عدد المدن التى يزيد سكانها على مائة ألف نسمة ، وهذه المدن الأقل سكانا كانت أيضا محاطة بحلقات من الضواحى ، وحتى فى مناطق مثل كارولينا الشمالية — حيث وجدت فرصة تكاد تكون من تدبير العناية الإلهية لإيجاد توازن إقليمى فى مجموعات منفصلة من المدن لم يكن ممكنا أن تزيد أى واحدة منها على مائة ألف فى

عدد سكانها – اتجهت الوحدات المنفصلة نحو الاندماج فى كتلة حضرية أو « تجمع حضرى » (conurbation) ليس له طابع خاص ولا شكل معين. وفى سنة ١٩٣٠ ، كان ما يقرب من نصف سكان الولايات المتحدة يعيشون فى داخل دوائر يتراوح نصف قطرها بين عشرين وخمسين ميلا حول مدن يزيد عدد سكانها على مائة ألف نسمة ، على حين أنهم فى سنة ١٩٥٠ كانوا يوجدون فى ١٦٨ منطقة حضرية تحتوى على ٥٠٫٠٠٠[1] أو أكثر من السكان ، مما كان يبلغ فى مجموعه ٨٣٫٩٢٩٫٨٦٣ وكانت نزعات مماثلة تسود فى كل مكان ، ففى سنة ١٩٥٠ كان ١٣٫١ فى المائة من سكان العالم يعيشون فى مدن يبلغ عدد سكانها ١٠٠٫٠٠٠ نسمة أو أكثر من ذلك فى مقابل ١٫٧ فى المائة فى سنة ١٨٠٠ .

وهذا التغيير الذى طرأ على الأرقام والمقاييس والمساحة التى غشيها العمران الحضرى ، أحدث تغييرات من حيث الصفات فى جميع هذه المراكز ، وفضلا عن ذلك ، وسع مجال التأثير الحضرى بما قام به من إحضار سلع المدينة وعاداتها وقيمها الفكرية إلى القرى التى كانت حتى ذلك الحين منطوية على نفسها ، ولا تزال تتبع فى حياتها دورة تماثل فى جوهر محتوياتها ما كانت عليه إبان حضارة العصر الحجرى الحديث . وحتى أهم آلات الحياة البدائية فى الغابة ، وهى البلطة والخنجر المعروفان لدى هنود أمريكا الجنوبية لم يعد صنعهما يتم فى مكان قريب ، وإنما فى نيوآرك أو شيفيلد . ولقد تركت هذه التغييرات أثرها كذلك فى المدى الطبيعى لعدد سكان المدن ، فمن الواضح أن هذا المدى يختلف من حيث العدد والتوزيع على وجه التقريب تبعا لحجم أكبر المدن فى مجموعها . وفوق كل شىء ، كان إنشاء المدن وتكاثرها على هذا الوجه سببا فى تغيير التوازن بأكمله بين السكان الحضريين والزارعين ، فقد كانت المدن فى وقت ما

---

(١) لعل المؤلف يقصد ٥٠٠٫٠٠٠ وليس ٥٠٫٠٠٠ لأن ٥٠٫٠٠٠ × ١٦٨ = ٨٫٤٠٠٫٠٠٠ .

بمثابة جزر متناثرة وسط بحر فسيح من الزراعة ، وأما الآن فإنه فى الجهات التى تفوق ما عداها فى عدد السكان نجد أن المناطق الزراعية الوفيرة الإنتاج قد أصبحت جزرا خضراء منعزلة ، آخذة فى التلاشى رويدا رويدا تحت خضم من الأسفلت والخرسانة والطوب والأحجار ، وهى إما أنها تغطى وجه التربة بأكملها ، وإما أنها تؤدى إلى إنقاص صلاحيتها لأى غرض آخر غير مزيد الرصف ، ومد الأنابيب وإقامة المبانى .

وتقديم بيان بجميع العوامل التى أدت إلى هذا التغيير معناه تقديم صورة أوفى بكثير مما حاولته هنا لتطور مدنيتنا الميكانيكية فى خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، فليكن إذن البيان الذى قدمته فى كتابى « الوسائل التقنية والمدنية » (Technics and Civilization) مكملا للفصول السابقة فى هذا الكتاب . ولكن يمكن القول فى إيجاز إنه بعملية استبدال ونمو إجبارى ، حلت فى ناحية بعد أخرى عمليات ميكانيكية مكان عمليات عضوية تستخدم فيها القدرة البشرية ، وكانت النتيجة النهائية استبعاد الأوضاع الحية والاقتصار على تشجيع الاحتياجات والرغبات البشرية التى تسنى الإفادة من وراء ربطها بالجهاز الإنتاجى ، سواء أكان ذلك من أجل الربح والسلطة كما حدث فى عهد الرأسمالية الباكرة المغامرة ، أم من أجل الأمن والترف ، كما حدث فى عهد رأسمالية الرفاهية ، أم من أجل الأمن والسلطة معا كما هو الشأن فى كنف نظام الرأسمالية الاحتكارية التى تمارسها الدولة فى البلاد المزعوم أنها شيوعية .

وعلى أية حال فإن النتيجة النهائية كانت واحدة بعينها تقريباً . ولقد صحب هذا التغيير تحول إلى موارد للتموين تقع على مسافات أكثر بعدا ، وكذلك التحول من مدن الإنتاج إلى المراكز المالية حيث كانت تدبر شئون السوق وتنفق الأرباح . وشعار « المنافسة الحرة » — ذلك الشعار الذى قضى على الاحتكارات القديمة الإقطاعية منها والبلدية — توارى أمام جهود بذلت

على نطاق واسع لإقامة نظام احتكارى أو شبه احتكارى ، وهو الذى يعرف الآن باسم « نظام احتكار القلة » (Oligopoly) ، بحيث يتسنى لعدد قليل من المنظمات أن تنجح فى التحكم فى السوق وفى تحديد الأسعار كما لو كانت فى الواقع وحدة واحدة . فكانت الحاضرة الكبيرة فى آن واحد عاملا معينا على إتمام هذه العملية ، ورمزا لنجاحها الجارف .

ولقد أدخلت هذه الحركة العامة مختلف قطاعات المجتمع الحديث فى نطاق نفس الوعاء الحضرى الكبير ، وبذلك فإنها حطمت إلى مدى غير قليل الحواجز القائمة بين مختلف الطوائف والطبقات الحاكمة . فأصحاب الأراضى ، ورجال الصناعة ، وأرباب المال ، ورجال القوات المسلحة ، وهيئة الموظفين ، تحالفوا فى البلاد الغربية الرئيسية لتحقيق أقصى قدر من الاستغلال المالى ، وأقصى ما يمكن مباشرته من التحكم السياسى الفعال . فأخذ موظفون حكوميون من ذوى النفوذ يوجهون « المصالح القومية » نحو خدمة رجال الصناعة والمال لأن « التوسع هو كل شىء » كما لاحظ سسيل رودس (Cecil Rhodes) .

وعلى هذا فإن العوامل التى تدعو بطبيعة صفاتها الخاصة إلى اتساع نطاق الحاضرة ، ازدادت قوة بما حدث من اندفاع عام فى الاتجاه عينه ، كما أن رجل الصناعة ، بتخليه عن عقيدته فى حرية العمل وحرية المغامرة ، انتهى إلى الاعتماد على حلفائه الاستعماريين لحماية الصناعة من تقلبات السوق . ومن ثم نشأ كل لون من ألوان « الحماية » ، من فرض الرسوم الجمركية وتقديم المساعدات المالية ، إلى إنشاء الجيوش والأساطيل التى كانت تفتح أبواب الأسواق المغلقة ، أو تقوم بتحصيل الديون .

وإذا كان الشكل الأصلى للمدينة قد نجم عن الجمع بين الأنظمة الاقتصادية للعصرين الحجرى القديم والحجرى الحديث ، فإن من شأن الشكل النهائى للحاضرة أن يبدو نتيجة لعاملين انتظم كل منهما فى أوضاع

فصلته عن الآخر بعد القرن السابع عشر بزمن وجيز جداً ، فقد اتخذ أحدهما هيئة اقتصاد إنتاجي (صناعي) يستخدم الطاقات على نطاق لم يسبق الوصول إليه إطلاقا من قبل ، واتخذ الآخر هيئـة اقتصاد استهلاكي (تجاري) كان إلى ذلك الحين مقصورا على البلاط والأرستقراطية ، فضاعف على عجل ألوان المتعة والترف الميسورة للقليلين ، ووسع تدريجاً نطاق دائرة المستهلكين .

وقد أصبح كلا النظامين الاقتصاديين مفرطى النشاط نتيجة للاختراعات المتواصلة ، فغدت القوة ، والسرعة ، والكمية ، والطرافة ، غايات فى ذاتها ، وفيما عدا التوسع فى الإنتاج والاستهلاك ، لم تبذل أى محاولة فعالة للتحكم فى القوة والكمية من حيث العلاقة بحاجات الإنسان الأخرى . ومن ثم فإن الحواضر العظمى جمعت فى تكوين واحد ضخم معقد ، المدينة الصناعية ، والمدينة التجارية ، والمدينة الملكية والأرستقراطية ، وكل منها تعمل على زيادة نفوذها وبسطه على الأخرى .

وسرعان ما امتدت معايير المصنع والسوق إلى كل منظمة أخرى فى الحاضرة ، فالحصول على أكبر متحف ، وأكبر جامعة ، وأكبر مستشفى ، وأكبر مخزن تجارى ، وأكبر مصرف ، وأكبر الشركات المالية ، كان يعنى تحقيق منتهى ما يحتاج إليه التحضر . وإنتاج أقصى عدد من المخترعات ، وأقصى عدد من البحوث العلمية ، وأقصى عدد من الكتب ، أصبح شأنه فى الدلالة على مدى نجاح الحاضرة كشأن إنتاج أقصى عدد من أطنان تماسيح الحديد فى بيتسبرج أو ايسن . وموجز القول أن كل منظمة ناجحة فى الحاضرة ، تكرر فى داخل نظامها الخاص ما فى التكوين الكلى من ضخامة عديمة الهدف . ونظام الحاضرة الاقتصادى فى مكافحته ما كان يسود قديما من عوز وحرمان ، اتجه إلى أقصى الناحية المضادة ، وركز عنايته حول المقادير دون أن يلقى بالا إلى ضرورة تنظيم سرعة الإنتاج ، أو توزيع

المقادير ، أو تمثيل الطرافة . ففى كل ناحية من نواحى الإنتاج ، أنزلت العناصر البشرية ، والقيمة النوعية ، والحرية الشخصية ، إلى مرتبة ثانوية ، وإن لم تمح كلية .

وكان كل من القلعة والسور قد زال من العاصمة منذ عهد طويل ، ولكن فى ذات الوقت الذى اختفيا فيه ظهرت إلى الوجود شبكة من أنظمة التحكم التى تركزت فى العاصمة المسيطرة ، وتشعبت فى كل مكان بفضل الاتصال السريع ، فكانت تؤدى الوظائف عينها على وجه أتم وأجدى ، ولما كانت السلطات الجديدة طيفية أثيرية ، ومن العسير حصرها والاشتباك معها ، فإنها كانت أفعل أثرا من السلطات القديمة ؛ إذ كان فى الإمكان اختراق سور مدينة أو قتل ملك ، ولكن كيف كان يتسنى لأحد أن يعتدى على اتحاد دولى لأرباب الصناعة ؟ وعندما تصطدم عاصمة قومية بعاصمة أخرى ، عندئذ فقط كان يتضح أن جميع العوامل العتيقة الهدامة ، التى كانت توجد فى القلاع القديمة ، ما زالت توالى عملها بنشاط ، بل إنها تضخمت إلى حد معيب ، وازدادت مجافاة للعقل .

وقد كان نمو الحواضر العظمى وتكاثرها الدليل على هذا الاتجاه العام نحو التركيز الاحتكارى ، وكذلك الوسيلة التى تحقق بها هذا التركيز . وحتى فى أكثر المدن الريفية رضاً بحالتها ، أصبح نموذج حياتها العامة يزداد اقترابا من نموذج الحاضرة ، فشعارات سياسة القوة ، وموجات التحمس القومى الصاخبة ، وقبول الناس عامة الأساليب التجارية والثقافية السائدة فى الحاضرة ، مع ما ينطوى عليه ذلك من استبعاد مخز للمنتجات المحلية ، كل ذلك أصبح شائعا فى كل أنحاء الدنيا تقريباً عند ابتداء القرن العشرين .

وقد أفزع هربرت سبنسر وأتباعه — وكانوا يؤمنون فى سذاجة أن التصنيع يؤدى إلى السلام — أنه أصبح من الواضح فى أواخر القرن التاسع عشر ، أن ما حدث كان على النقيض من ذلك تماما ، إذ أن التصنيع

وسع نطاق الحرب وزاد فى قدرتها على التدمير ، بما هيأ لها من مزايا الإنتاج واستخدام الوسائل الميكانيكية على نطاق واسع . ومن جديد ظهر الجندى فى وسط المدينة ومعه ألوان الحياة المنسابة من بيئة المدينة الصناعية المتبلدة الإحساس ، وقد ارتدت إلى الحاضرة فى ثنايا الأزياء الرسمية الزاهية التى كان يرتديها رجال الحرس وسلاح الفرسان . ولم يكن فى وسع أى ناحية من نواحى الحياة الإفلات من هذا التنظيم الشامل . وتحت المظاهر السلمية والنظام اليومى الرتيب للحياة فى الحاضرة اتسعت فجأة جميع آفاق العنف . وتبعا لتطور هذه العوامل ، تحولت الحاضرة باطراد إلى وسيلة لزيادة أنواع التمرس بالعنف ، وأصبح كل مواطن خبيراً فى فنون الموت .

وأود أن أؤكد أن هذه الصورة السلبية لنظام الحاضرة لا تكشف عن حقيقة الواقع بأكمله ؛ إذ يجب ألا يحكم المرء على ما حدث فى خلال القرن الماضى وما يهددنا الآن بكل هذا الشر المستطير ، بموجب ما تم فعلا من التغييرات فحسب ، بل بمقتضى كثير من الاحتمالات الجريئة التى ، بمرور الزمن ، قد توازنها ، وترفع مستوى الحياة بأكملها إلى مرتبة أرقى . ومما يؤسف له أن بعض هذه الاحتمالات قضى عليها فعلا ، وعلى ذلك فإن صيانة ونقل الحضارات البدائية — من أجل ما كان يمكن أن تقدمه من معونة فى التغلب على ألوان الجدب الواضحة الآن فى حضارتنا على هذا الوجه المؤلم — لم يحاول أحد القيام به ، إلا بعد حدوث أضرار لا سبيل إلى إصلاحها . وكذلك أيضا فإن كثيراً مما فى الطب والتعليم من الأساليب والمكتشفات الإنسانية ، التى أفسدتها مدنية الحواضر ، ما زالت تنتظر أن تؤدى واجبها كاملا فى حضارة موجهة نحو أهداف أكثر رعاية للانسانية . بيد أنه إذا كان تاريخ القرن التاسع عشر تاريخا مرضيا — على حد ما أجاد فى التعبير عنه لافيدان (Lavedan) — فإن تاريخ مدينة القرن العشرين يمكن أن يوصف بأنه قصة من نوع غريب من العناية والعلاج الطبي يسعى نحو تخفيف

الأعراض ، على حين أنه يحرص على إبقاء جميع الأوضاع الضارة التى نشأ عنها المرض ــ وأحدثت فعلا مضاعفات جانبية كانت وبيلة كالمرض سواء بسواء .

وفيما عدا بعض حالات استثنائية بارزة ، مثل مؤلفات باتريك جيديس ، وبيتر كروبوتكين ، وايبنزر هوارد ، وماكس ويبر ، ما زال المرء يبحث عبثا عن إدراك كامل للعمليات الطبيعية العادية التى تكاوِّها المدينة برعايتها . وعلى الرغم من أنه قد تمت دراسات عديدة عن اختلال وتدهور حالة المدن ، فإن القليل منها ، التى حاولت تناول صحة المدن ووضع قواعد أفضل للنمو والتطور ، ما زالت فى معظم الأحوال مثالية ساذجة فى إيمانها الذى لا يحد بالمقتضيات المشكوك فيها لنظام اقتصادى يتجه نحو التوسع ، وكذلك فى تصورها أن دور العلم والوسائل التقنية فى تطور المدينة مستقبلا له مطلق الأهمية وفيه مطلق الكفاية .

أجل ، إن المدينة الكبرى الحالية ، حتى فى أشد أوضاعها ارتباكا وفسادا ، تتكشف عن اضطلاعها بجهود جديدة فى نشر الحضارة الإنسانية على نحو لم يكن له وجود تقريباً فى عصور سابقة ، عند ما كانت كل الصفات الرفيعة وقفا على القلعة والمعبد . وما زال أمام النواة التاريخية للحواضر وظيفة تؤديها ، عند ما يدرك أبناؤها أنه لا يمكن الاحتفاظ إلى ما لا نهاية بالاحتكار الذى وجد فيها أصلا ، ولا بالانحلال الذى يسودها حاليا . وإذا جاز لنا أن نستعير اصطلاحا من علم الطبيعة ، فإن المشكلة الكبرى اليوم هى كيفية تحويل كتلة مادية إلى طاقة نفسية ، إذ يجب أن نبتكر عوامل جديدة من أجل تحويل الازدحام التلقائى إلى تجميع هادف ، ومن أجل جعل الوعاء أثيريا ، ومن أجل ضبط اتجاه قطب المغنطيس وتوسيع مجاله . وقد تصبح هذه الاحتمالات حقائق أكثر وضوحا : إذا درسنا ما باءت به الجهود من الإخفاق .

٣ — البيروقراطية ذات اللوامس

إن ما فى المدينة الكبيرة من جاذبية ساحرة مستمد من مكانتها الأصلية بوصفها أداة للدولة القومية ، ورمزاً لقوة سيادتها ، وهى وظيفة من أقدم جميع وظائف المدن . وفيما عدا واشنطون وكانبرا ، فإن المدن التى كانت القدوة الأولى للنمو على غير نظام وبلا حدود ، كانت هى العواصم القومية أو الامبراطورية ، وذلك أنها بسبب عظمتها وثروتها — اجتذبت إليها السكان ، وكذلك التجارة من المراكز الأصغر منها التى اضطرت إلى التخلى عن أساليبها التقليدية فى الحياة إزاء ما كان للملك والبلاط من هيبة كبيرة .

ولكن القوتين السياسية والحربية يجب دعمهما بالتنظيم الاقتصادى . وقد كانت الوسائل التى نشأ عنها التكدس الحضرى المستمر هى طرق التجارة الممتدة إلى جميع آفاق الأرض التى بدأ فتحها منذ القرن السادس عشر للحصول على موارد المناطق الداخلية عن طريق القنوات والأنهار ، ثم فى القرن العشرين عن طريق الخطوط الجوية التى نشأ عن ذات سرعتها فى رحلات تقطعها الطائرات بلا توقف ، إغفال التجمعات الحضرية الصغرى وتشجيع المزيد من التكدس فى مراكز قليلة واقعة عند نهاية الخطوط .

وقد كانت هذه الوسائل المتنوعة سبباً فى تدفق سيل لا ينتهى من قاصى الأغذية والمواد الخام على الحاضرة ، فضلا عن وفود عمال ومثقفين وتجار وزوار من مناطق نائية . ولما كانت « كل الطرق تؤدى إلى روما » ، فإن خطوط السكك الحديدية ، التى كانت تشجع على الانتشار فى الأقاليم ، انصرف الناس عنها أو أهملت حتى أصبحت عتيقة لا تلائم العصر ، ودفعت إلى الإفلاس من أجل تشجيع السفر على الخطوط الرئيسية والازدحام عند نهاية الخطوط . وحتى ما أنشىء فيما بعد من الطرق السريعة للسيارات ،

وهى من الممكن أن تكون وسائل مدهشة للانتشار ، قد وضع تخطيطها ، أو على الأصح أسىء تخطيطها بمهارة ، خدمة لهذا الغرض .

وكان العامل الذى دفع عجلة هذا التركيز وأوجده كذلك فى مراكز فرعية ، هو الأهمية المتزايدة التى اكتسبتها العملية الإدارية ذاتها فى كل نوع من أنواع المشروعات ، فى الصناعة والأعمال التجارية وأعمال البر والتعليم . وقد كان نمو المدينة الكبيرة فى مراحله المتأخرة نتيجة فرعية لنمو واتساع نفوذ البيروقراطية التى زجت فى كل مجال بألوان التحكم والتنظيم التى خبرناها من قبل فى المدينة الباروكية .

وعند ما أصبحت وسائل الاتصال السريع ميسورة ، وجد حافز جديد لتركيز الأجهزة الإدارية ؛ إذ أصبح يتسنى الآن ، من مكان واحد ، توجيه الإنتاج ، وتحديد مسار شحنات البضائع ، وإصدار الأوامر وإلغاؤها ، وعقد صفقات البيع ، وتقديم القروض ، وعمل المقاصات المالية . فالتحكم من بعد ، الذى كان يتمثل أولا فى انفصال هيئة القيادة عن باقى رجال الجيش ، امتد إلى العمليات التجارية . وبصنع الآلة الكاتبة فى سبعينيات القرن التاسع عشر ، وتوافق ذلك مع انتشار استخدام الاختزال الفائق السرعة ، أخذ يزداد مدى الأعمال المثمرة التى يتسنى أداؤها بكتابة الرسائل ، وقد ساعدت الوسائل الميكانيكية للمواصلات والوسائل الميكانيكية لكتابة الوثائق وإخراج نسخ عديدة منها ، والأنظمة الميكانيكية لمراجعة الحسابات وضبطها — ساعدت هذه الوسائل على ظهور بيروقراطية تجارية هائلة فى وسعها أن تقوم بالبيع فى مناطق تزداد بعداً على الدوام ، وذلك عن طريق نشر الأساليب الشائعة فى الحاضرة بوصفها مطابقة للمدنية بعينها أو لأى شىء يمكن أن يطلق عليه وصف « الحياة الحقيقية » .

والواقع أنه عند منتصف القرن التاسع عشر كانت كلمة بيروقراطية ،

كلمة ماوكة مثبطة مرادفة لعدم الكفاية الملتوية الأساليب . ولم يكن ديكنز فى حاجة إلى مواهب خاصة فى قوة الابتكار لخلق شخصية سير تايت بارنكل (Sir Tite Barnacle) أو مكتب تعطيل الأعمال ، فكل فرد فى جميع أنحاء العالم المالى والسياسى كابد صعوبة إنجاز الأعمال بطريق مباشر؛ إذ أن أبسط العقود المدنية كان يحتاج إلى تصديقات قانونية ، ومستندات، ومراجعات، ومن البحث عن وثيقة ما إلى إثبات حقوق مدنية بمقتضى الزواج ، ما كان أحد يستطيع أن يتحرك بدون حصوله من موظفين مختصين على مساعدتهم وموافقتهم المتمهلة . وكان المحامون الذين يعرفون الصيغ والقواعد الفنية المقررة ، يؤلفون شطراً كبيراً من أرباب المهن الآخذين فى الازدياد ؛ إذ كانت الحاجة تدعو إلى خدماتهم فى مراعاة أحكام القانون ، بل إن الحاجة إليها كانت أشد لانتهاك حرمة القانون بلباقة .

وفى أثناء كل هذا التطور ، اتخذ الناس من البيروقراطية الحكومية هدفاً خاصاً للتشهير باستمرار ، فقد كانوا يظنون أنها تحتكر لنفسها الأساليب المعقدة والعناية بالأوضاع الشكلية عناية تتسم بالحذلقة وإضاعة الوقت . بيد أن رضا رجل الأعمال عن أساليبه ، وهو يبدى سخطه على نمو البيروقراطية الحكومية على هذا الوجه المريع ، كان أبعد ما يكون عن الإنصاف ، فإن اتخاذ مثل هذا الموقف كان ينطوى على إغفال حقيقة هامة، وهى أن أعظم تطور حدث فى البيروقراطية فى أثناء القرن الأخير ، كان فى نطاق عالم الأعمال نفسه ، فكانت تتضاءل إلى جانبه الزيادات الطفيفة التى حدثت فى البيروقراطية الحكومية . ومن الواضح أنه ما من مؤسسة صناعية لها فى جميع أنحاء العالم شبكة من العملاء ، والمراسلين ، ومراكز التصريف فى الأسواق ، والمصانع ، والممولين ، كان يتسنى لها البقاء بدون الاعتماد على خدمات جيش ممن يقومون فى صبر وأناة بالأعمال الكتابية الرتيبة فى

الحاضرة ، من كتبة الاختزال وموظفى السجلات وكتبة الحسابات ، ورؤساء الإدارات ، ومديرى المبيعات ، ومديرى الإعلانات ، والمحاسبين ، ومساعديهم المتنوعين ، وهكذا فصاعداً إلى النائب الخامس لرئيس المؤسسة ، وهو الذى يكون توقيعه أو موافقته بمثابة خاتمة مطاف المسئولية عن أى عمل من الأعمال .

وإيواء هذه الهيئة من الموظفين فى مبان للمكاتب وفى عمائر ، وفى ضواح سكنية ، كان إحدى المهام الكبرى التى اضطلع بها توسع الحاضرة ، كما أن نقلهم فى الذهاب إلى مكان العمل وفى عودتهم منه فى أثناء فترة محدودة من الزمن ، أثار إحدى المشكلات الفنية العويصة التى واجهت مخطط المدينة والمهندس . ولم يكن الأمر مقصوراً على أن هيئة الموظفين ذاتها كانت فى حاجة إلى أماكن للمكاتب وأماكن للسكنى ، بل إن نصيباً متزايداً من المقر الجديد كانت تتطلبه المنتجات الجانبية لنظام العمل ، كالملفات ، والأقبية ومخازن للسلع الرائجة وأخرى للسلع الكاسدة ، وساحات للعرض ، ومثوى للوثائق حيث كانت سجلات الأعمال تنسق طبقاً للحروف الهجائية مراعاة لاحتمال الإفادة منها فى المستقبل ، للاستشهاد بها ، أو لاستخدامها فى الدعاوى القضائية ، أو للرجوع إليها عند إبرام عقود فى المستقبل :

وقد وجد هذا العصر الوضع الذى يلائمه فى طراز جديد لعمائر المكاتب ، وقد حدث ذلك فى أمريكا منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر : وهذه العمائر ، من الناحية الرمزية ، أشبه ما تكون بخزائن أضابير عمودية للآدميين ، ذات نوافذ متوافقة ، وواجهات متوافقة ، ووسائل للراحة متوافقة ، وهى ترتفع طبقة فوق طبقة منافسة ناطحات السحاب الأخرى من أجل الحصول على الضوء والهواء ، وقبل كل شىء من أجل المكانة المالية . وإن الآراء التجريدية التى تراود دوائر المال العليا ، قد أوجدت فى هذه المبانى النموذج المادى الذى تتجسد فيه على أكمل وجه ، وإن الميل إلى مضاعفة المرافق

البيروقراطية وإلى التوسع فى نظام الإشراف والتحكم البعيد المدى ، لم يصل إلى نهايته حتى الآن ؛ إذ أنه كلما ازداد عدد هذه المرافق ، وأصبحت عمليات التعامل أكثر تعقيداً ، أصبح مما لابد منه أن تحل العمليات البيروقراطية الميكانيكية مكان الاتصال البشرى المباشر والاجتماع الشخصى. فى إنجلترا وويلز مثلا نرى أنه فيما بين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٥١ ازداد المجموع الكلى لعدد الموظفين بنسبة ثمانية فى المائة ، على حين ازداد عدد موظفى دوائر الأعمال بنسبة ثلاثة وستين فى المائة ، ويبلغ عدد موظفى هذه الدوائر فى لندن ضعف المعدل فى البلاد بأجمعها .

وبهذا التطور أصبح يسيطر على الحاضرة ثالوث جديد يتألف من المال ، والتأمين ، والإعلان . وبفضل هذه العوامل بسطت الحاضرة سيطرتها على أقاليم أقل منها أهمية ، سواء فى داخل نطاق دولتها ذاتها أم فى بلاد بعيدة عنها ، فكانت هذه الأقاليم تبعث إلى المراكز الكبرى مباشرة أو عن طريق غير مباشر ، بفيض متدفق من الإتاوة . وبعد أن كانت الجرأة الاقتصادية والسلطة السياسية والقدرة الاجتماعية موزعة بين أرجاء البلاد أصبحت الآن مركزة فى العواصم الكبيرة الجديدة ، فللحصول على المال لا بد للمرء من الذهاب إلى الحاضرة ، وللتمتع بالنفوذ لا بد للمرء من إدراك مركز مالى بارز فى الحاضرة . وفى حالات متفرقة ، نجد أن رجلا عملاقاً بمفرده قد يبقى خارج نطاق النظام السائد بصفة مؤقتة مثل هنرى فورد الأكبر ، أو قد يحاول التحكم فى هذا النظام وتوجيهه نحو أهداف إنسانية أرفع شأناً مثل والتر راتناو (Walter Rathenau) . بيد أنه من شأن مثل تلك العزلة وهذا التحكم أن يكونا وهما إلى حد كبير ، وآية ذلك أن فورد نفسه الذى كان فى وقت ما يقوم بصنع سيارة ملائمة للاحتياجات الشعبية والحياة الريفية ، خضع فى نهاية الأمر لإغراء الطراز السائد فى الحاضرة .

فالنظام الاحتكارى ، والائتمان المالى ، والسمعة المالية ، عبارة عن الجوانب

الثلاثة لهرم الحاضرة . (ولكل منها ما يقابله فى الاقتصاد الموجه الذى تديره الدولة فى البلاد « الشيوعية ») . وكل ما يحدث فى المدينة الكبيرة أيا كان شأنه يرجع فى النهاية إلى عامل أو آخر من هذه العوامل . والحاضرة هى المستودع الطبيعى لرأس المال فى هذه المرحلة الاقتصادية ، إذ أن مصارفها ومكاتب السمسرة فيها وما بها من أسواق للأوراق المالية ، تقوم بمهمة مركز لجمع مدخرات الريف المحيط بها ، وفى حالة العواصم العالمية تقوم هذه المؤسسات بجمع الفائض من رأس المال لدى المستثمرين الأجانب . فالحاضرة تجذب إليها أرباب المال وأرباب الصناعة ، وكلما كانت الحاجة إلى القروض المالية دائمة ، ازدادت حاجة المقترض إلى وجوده على مقربة من المصارف التى فى وسعها تقديم القروض له .

وتركيز السلطة المالية فى مصارف قومية أو شبه قومية ، مثل مصرف إنجلترا (Bank of England) الجليل الشأن ، وفى أيدى بيوت مالية خاصة ليست مسئولة سياسياً ، مثل بيتى روتشيلد ومورجان، كان إحدى الخصائص المبكرة التى اتسم بها هذا النظام ، ولكن ظهرت على التوالى شبكات من المصارف المالية كانت أعظم شأناً حتى من تلك المصارف ، فقد عمت جميع المجال القومى ، بحيث إنه عاجلا أوآجلا ، اجتذب النظام الذى نشأ فى الحاضرة شطراً كبيراً من السكان لتوظيف أموالهم ، أو لإيداعها أو للاقتراض ، أو للمضاربة . وكما رأى بلزاك بوضوح عند أول الشروع فى هذا التركيز ، كان المصرف هو المسيطر ، فإنه كان يحرك بنفسه أو بالواسطة ، الدمى التى كانت تظهر على المسرح السياسى ، فقد كان يسهم فى تمويل الأحزاب السياسية ، وكانت موافقته ضرورية لنجاح حزب سياسى أو مشروع صناعى ، بقدر ما كان رفضه ضربة قاضية .

وبعد فإن الرهائن العقارية فى الحاضرة — وكانت قيمتها « مضمونة » باستمرار الرخاء والنمو فى الحاضرة — أصبحت إحدى الدعائم الأساسية

لمصارف الادخار وشركات التأمين ، فلكى تحمى تلك المؤسسات استثماراتها ، كان لا بد لها من محاربة أى محاولة للتخفيف من الازدحام ؛ لأن ذلك كان من شأنه أن يؤدى أيضاً إلى انخفاض معدل القيم التى يرتكز أساسها على الازدحام . ولنلاحظ كيف أن البرنامج الذى وضعت خطته حكومة روزفلت بعد سنة ١٩٣٣ لاستبدال الأحياء الفقيرة وإعادة تنظيم الاستقرار فى الضواحى قد تداعى بسبب أن تلك الحكومة أنشأت فى الوقت عينه هيئة أخرى كان الغرض الأساسى منها الإبقاء على سلامة الكيان القائم لعقود الرهن وأسعار الفائدة . فإن هذه السياسة جعلت من المستحيل العمل على التدرج فى تخفيف عبء ما بلغته الأراضى الحضرية من القيمة المتضخمة وعبء الدين الحضرى الثابت إلى المستوى العام للأسعار . ولنلاحظ أيضاً كيف أن التدابير السخية التى اتخذتها الحكومة الفيدرالية لإنقاص جزء من الثمن المرتفع لأراضى الأحياء الفقيرة خدمة لإعادة التجديد الحضرى ، لم ينشأ عنها انخفاض فى معدل نسبة الكثافة وتحسن فى حالة السكنى بين الفقراء الذين أخرجوا من مساكنهم على هذا الوجه ، بل كثيراً ما نشأ عنها ارتفاع فى معدل نسبة الكثافة وعادت بأرباح أوفر بسبب إعداد المساكن لفئات من ذوى الدخل الأكبر . (ومما ما له دلالة خاصة أن المنتفعين الرئيسيين لم يكونوا سكان الأحياء الفقيرة : بل المضاربين من رجال المال والقائمين بأمر البناء) .

وعلى الرغم من أن النظام بأسره يقوم على أساس التوسع الدينامى ، فإنه بحكم الزيادة المتوالية فى التكدس ، يصبح صلبا وأقل مقدرة على مواجهة مواقف جديدة ؛ إذ أنه لا يستطيع المداورة ولا التراجع ، والواقع أن الاضطرار إلى الاستمرار فى تنفيذ عمليات التوسع ليس أقل فى النظام اتساما بالصلابة . وفى نظام العصور الوسطى ، كان ما فى الحياة من صروف القدر وضروب الخطر يُواجه بتنظيم النقابات وجمعيات الصداقة ، وأما فى نظام الحواضر ، فإن هذه الخدمات تؤديها فى الغالب مؤسسات مالية خاصة ،

وهى شركات التأمين . فالحريق ، والفيضان ، والمرض ، والعجز ، والحوادث ، والموت ، يغطى أخطارها جميعا نوع أو آخر من أنواع التأمين . وقد انطوت التقديرات التى تمت لتحديد أسعار التأمين ، على أول ما حدث من التقدم فى علم الاجتماع الإحصائى ، وفى البحوث العميقة التى أجريت عن المحافظة على الصحة والوقاية من المرض ، أثبتت منظمات كبرى ، مثل شركة متروبوليتان للتأمين على الحياة (Metropolitan Life Insurance Company) ، القيمة النقدية لتحسين الحالة فى هاتين الناحيتين عن طريق التعليم والمساعدة الطبية .

ولسوء الحظ أنه ، وفقا للنظام السارى فى الحواضر ، ليس التأمين إلا محاولة لتوفير الاطمئنان بتكديس أقصى عدد من المخاطر عند نقطة معينة . وقد تستطيع شركة التأمين الوفاء بالتزاماتها لأجل قصير ، إلا أنها فى نهاية الأمر تصبح هى ذاتها أحد العوامل التى تؤدى إلى إفلاس النظام فى جملته . وما دام الجهاز الإنتاجى فى حالة تمكنه من أداء عمله ، فإن توالى ورود السلع والقيام بالخدمات يظل مستمرا ، ولكن يكون من شأن فترة جفاف ، أو عاصفة محملة بالأتربة ، أو زلزال ، أو زيادة العرض على الطلب ، دون أن نقول شيئا عن نشوب حرب ، يكون من شأن ذلك زعزعة كيان النظام . وعندها يقف استمساك الحاضرة بمزاعمها الجائرة دون الوصول إلى تسوية سياسية معقولة . وإذا صح أن هذا النوع من الضمان كان سليما قبل اختراع الأسلحة النووية ، فماذا عسانا أن نقول عنه الآن ؟ وإذا كان لهذا النظام أساس معقول حقيقة ، فإن جميع الفائض من رءوس أموال منظمات التأمين يجب أن يرصد للتأمين ضد خطر واحد تتضاءل الآن إلى أدنى حد ، بالقياس إليه ، جميع الأخطار الأخرى ، أى يجب أن يخصص للتأمين على السلام العالمى . والفيلسوف جوسياه رويس (Josiah Royce) هو الذى تقدم بهذا الاقتراح الحكيم منذ زمن طويل .

ولتكملة عملية الاحتكار التى تمارسها الحاضرة ، يجب دفع تحكمها المغرض إلى مدى أبعد ، وذلك بشراء وتجميع المشروعات المحلية ، وتكوين سلسلة من الفنادق أو المخازن التجارية الكبرى مما يتسنى وضعه تحت إدارة مركزية واستثماره لصالح الاحتكار . ولاستكمال حلقات هذا التحكم ، كان لا بد من اتخاذ خطوة أخرى أبعد من ذلك ، وهى الاحتكار الفعلى لوسائل الإعلان ، والأخبار ، والنشر ، والمجلات الأدبية ، وفوق كل شيء الوسائل الجديدة للاتصال بالجماهير ، وهى الإذاعة والتليفزيون . وإذا كانت هذه النواحى المختلفة قد نشأت من أصول متباينة وتمثل أغراضا متنوعة فى البداية ، فإنها من الوجهة التاريخية ارتبطت بعضها ببعض من بادئ الأمر برباط غير وثيق ، وتلتئم معاً فى آخر الأمر داخل إطار الحاضرة .

وكل هذه الوسائل تعمل لغاية مشتركة ، وهى أنها تضفى طابع الأصالة والنفاسة على نهج الحياة الذى ينبثق من الحاضرة ؛ فهى تقرر الطابع القومى ، وهى تتحكم فى السوق المحلية ، وتجعل كل انحراف عن نموذج الحاضرة يبدو ريفيا قحا يبعث على الأسى ، بل تصمه بأنه عتيق فات أوانه مما يجعله أكثر مدعاة للنفور . ومن شأن هذه العملية أن يكون هدفها الأخير ، جعل السكان موحدين ، متجانسين ، على شاكلة واحدة قامت طبقا لنموذج الحاضرة ، وليس فى وسعهم بحكم تنشئتهم أن يستهلكوا سوى السلع التى يقدمها لهم القائمون بالتحكم والتنشئة ، خدمة لصالح نظام اقتصادى دائب على التوسع . وفى بلاد مثل الولايات المتحدة ، حيث كان هذا التطور أسرع منه فى سواها ، أصبح هذا الهدف يتجلى للأنظار بوضوح منذ الآن . فهل ثمة ما يدعو إلى العجب من أنه فى خلال العشر السنوات الأخيرة بلغ نصيب كل أسرة مما أنفق على الإعلان ما يقرب من ضعف ما أنفق على التعليم العام الابتدائى والثانوى ؟ فهذا تحكم دون حكم ملكى ، ومطابقة دون اختيار ، وسطوة دون تدخل شخصى .

وحيثما تتركز أجهزة المال والنشر تتقارب وتتجمع كذلك طبقات الأثرياء مهما يكن أصل نشأتها ، فإن طقوس حياة أفرادها كما يعيشون أمام الناس مراعاة للصحف المصورة وبرامج التليفزيون ، هى جزء أساسى مما يغرى به المال . وعندما لاحظ مونتسكيو (Montesquieu) هذا النظام فى مرحلة مبكرة ، وصف النتائج الاجتماعية التى تنشأ عنه بمـا عرف عنه من الدقة وبعد النظر ، فقال : « إن الترف يكون أيضا متناسبا مع كثرة السكان فى المدن ، وبخاصة فى العاصمة ولذلك فإنه يكون متناسبا مع ثروات الدول ، ومع عدم تساوى الأفراد فى الثروة ، ومع عدد الناس المستقرين فى أماكن معينة » . وتجمع الأغنياء ظاهرة نمطية تختص بها الحواضر ، وسُنّة الإنفاق عن سعة على نحو يلفت الأنظار ، وقد أصبحت غير مقصورة على البلاط الملكى ، تؤدى إلى أن تظهر فى الحاضرة صناعات الترف المتعلقة بالملبس والمأكل والزينة ووسائل التجميل . ولما كانت معايير الحواضر معايير عامة شائعة ، فإن أزياء الأغنياء الغربية تجرى محاكاتها فى الحال ويعاد إنتاجها بالجملة ليفيد منها الشعب بأكمله ، وهذه فى الواقع دعامة لا بد منها لنظام اقتصادى ماض فى التوسع .

وبالرغم من أن الطمع وحب جمع المال ، والميل إلى التفاخر ، هى الحوافز الأساسية فى نظام الحواضر ، فإنه فى خلال الجيلين الثانى والثالث من السعى وراء جمع المال ، يغدو عمل البر ذاته ضربا إضافيا من ضروب الأعمال ويتمتع بسمعة كبرى . فى البلاد التى يرتفع فيها مقدار الضريبة التصاعدية على الدخل ، تخدم المؤسسات الخيرية والتعليمية أغراض الفن الجديد — فن منح المال مع الاحتفاظ بالإشراف المحكم على وجوه التصرف فيه حتى تتسنى حماية النظام الذى جعل ذلك أمرا ميسورا . وعلى نحو ما تتحكم بضع مئات من المؤسسات الكبرى فيما يبلغ نحو نصف رأس المال الصناعى فى الولايات المتحدة ، تتحكم كذلك طائفة قليلة نسبيا من طبقاته

الماليين والمديرين فى أجهزة الثقافة . وعند الشروع فى إنشاء مجالات جديدة للنشاط فى الفنون والعلوم ، يتجه أصحاب المشروع إلى الجيوب المتنفخة فى الحاضرة ، وهناك تستقر المؤسسة الجديدة فى أغلب الأحيان .

ومن ثم فإن عددا وفيرا من الجمعيات والمنظمات ذات المجال القومى والدولى توجد مراكزها الرئيسية بطبيعة الحال فى نيويورك أو لندن أو باريس . وهنا يلتقى الرعاة والعملاء ، وهنا تكون المنافسة على بذل الرعاية سبباً فى إتاحة مزيد من الفرص أمام الأغراض الخاصة لتجد العون والتأييد . ولما كانت المناطق الداخلية قد سلبت قدراً غير متناسب من السلطة والنفوذ والثروة ، فإن ساكن الأقاليم الذى يود أن يستعيد أيا من هذه الأشياء ؛ لا بد له من مغادرة موطنه والمكافحة فى سبيل الحصول على مركز فى الحاضرة .

وما زالت هناك حالة ثالثة تحفز إلى تكدس السكان تكدسا أخرق ، فقد أبدى فيكتور برانفورد (Victor Branford) أنه لما كان نمو البيروقراطيات المتمتعة بسلطات عليا قد جاء نتيجة للتركيز السياسى فى أثناء الحرب ، فإنه كان أحد العوامل التى أدت إما إلى تغيير حال المدينة الصناعية ، وإما إلى جعلها تخضع للحاضرة فى السلطة وفى النفوذ ، فالحرب هى المصدر الذى تستمد منه البيروقراطية السياسية قوتها الطاغية . وفى خلال القرن التاسع عشر ، عند ما ازداد تكدس السكان فى بضعة مراكز كبرى ، اضطروا إلى الاعتماد بصورة أتم على مصادر بعيدة للتموين ، وأصبحت مهام الجيش والبحرية أن توسع نطاق قواعد التموين ، وأن تحمى « شريان الحياة » الذى يصل بين المصدر وفم الحاضرة البالغ الشراهة .

وما دامت الحاضرة تستطيع التحكم فى مصادر ثابتة للغذاء والمواد الأولية باستخدام وسائل قويمة أو معيبة ، فإن نمو الحاضرة يستطيع المضى فى سيره إلى ما لا نهاية ، وحتى فى بلاد مثل الولايات المتحدة ، كانت

المناطق الريفية البعيدة تعامل خلال مدة طويلة كما لو كانت من الممتلكات الاستعمارية ، وكان أرباب المصارف فى الحواضر يحرمونها الأموال اللازمة لإنشاء مصانع الحديد الخاصة بها ، بل حتى لزيادة الاستهلاك المحلى ، فنشوب الحرب العالمية الثانية هو الذى اقتضى إنشاء مصانع الصلب على الساحل الباسيفيكى .

ولا يظنن أحد أن هذه الجهود الحاثة على التكدس والازدحام كانت بأكملها تلقائية ، بل على النقيض من ذلك ، فقد بذلت — وما زالت تبذل — جهود مضنية لضمان الوصول إلى ذلك ؛ إذ أن شبكات الخطوط الحديدية كان يوضع تصميمها عمدا لإرغام الركاب والبضائع على المرور بالحاضرة قبل الذهاب إلى جهة أخرى . وما زالت كل حاضرة كبرى تقبع كالعنكبوت وسط بيت يتألف نسيجه من خطوط النقل المتشابكة ، على الرغم من أن الخطوط الحديدية ذاتها قد ضحى بها من أجل السيارة والطائرة النفاثة . وفضلا عن ذلك فإنه فى الولايات المتحدة — وقد بين ذلك وارن تومسون (Warren Thompson) منذ زمن طويل — لا يقوم نظام أسعار السكك الحديدية على أساس التكلفة الفعلية للخدمة التى تؤدى ، بل إن الأسعار جعلت متساوية بطريقة تعسفية بحيث تهيئ تقديم المعونة إلى المدن الكبرى على حساب المدن المنافسة لها ، مع أنها قد تكون أقرب إلى نقطة الشحن ، وذلك بالرغم من أن تكاليف نقل البضائع فى المدن الكبرى كانت على الدوام ، بسبب ذات ما فيها من ازدحام ، مرتفعة إلى درجة لا تتناسب مع العمل — وهذه التكاليف تكاد الآن تكون مانعة .

والإعانات الحكومية للنقل الجوى تؤدى إلى الغاية عينها ، وهى الوصول إلى أقصى مدى من الازدحام والقضاء على ضروب التحسين التى يحتمل أن تحدث بفضل تقدم الوسائل التكنولوجية ذاتها . وهكذا يتضح أن كثيراً مما يتشدق به عن مزايا الحاضرة ووجود كل الموارد التكنولوجية تحت

إمرتها ليست إلا ضربا من الأوهام . وعلى مثال الملكة الحمراء فى قصة أليس (Alice's Red Queen) ، فإن الحاضرة رغم الجهود الجبارة التى تبذلها والسرعة المتناهية التى تتحرك بها تكاد تعجز عن الاحتفاظ بأوضاعها . والواقع أن كثيراً من مرافقها قد تقهقرت فى خلال نصف القرن الأخير ، فالبراعة التكنولوجية ليست علاجا لعدم الكفاية السياسية والجمود الاجتماعى.

٤ — إزالة الحدود

ولننظر الآن إلى مركز الحاضرة من وجهة أعم ، فإن ما يسميه البعض الانفجار الحضرى ، ما هو فى الواقع إلا عرض لحالة أعم ، وهى إزالة الحدود الكمية ، وهذا ينم عن التحول من نظام عضوى تستخدم فيه القدرة البشرية إلى نظام ميكانيكى ، ومن نمو هادف إلى توسع بلا هدف .

وإلى القرن التاسع عشر ، كان قصور وسائل النقل المحلى والإقليمى معا يفرض قيوداً طبيعية على نمو المدن . وحتى أكبر المدن ، مثل روما وبابل والاسكندرية وأنطاكية ، كانت مرغمة على احترام هذه القيود . بيد أنه عند منتصف القرن التاسع عشر ، استمد الاتجاه نحو الاحتكار الحاضرى عونا من عامل جديد نشأ عن استخدام الحديد والفحم على وجه فعال ، وعن التوسع فى مد الخطوط الحديدية ، فطبقا للاحتياجات المادية البحت ، كانت مناطق الاستقرار تتفق مع امتداد طبقات الفحم وطبقات الحديد الخام وخطوط السكك الحديدية . ولقد أوضح باتريك جيديس ، منذ وقت مبكر فى القرن الحالى : الدلالة الخاصة للخرائط الجديدة لعدد السكان بما كشفت عنه بجلاء من التكثف والانتشار بوجه عام فى الكتلة الحضرية للسكان . ولقد بين أن أقاليم ومقاطعات بأسرها كانت ماضية فى سبيل التحول إلى مناطق حضرية ، واقترح تمييز مثل هذه التكوينات المتشعبة باسم من شأنه أن يفرق بينها وبين المدينة التاريخية ، وهو : « التجمع الحضرى » (Conurbation) .

وفى خلال ذلك كانت العوامل الأصلية التى أوجدت التجمع الحضرى قد لقيت مكملا لها فى مركز القدرة الكهربية ، والسكة الحديدية الكهربية ، ثم بعد ذلك ، فى السيارة وطرق السيارات ، وعلى ذلك فإن الحركة التى كانت فى مبدأ الأمر مقصورة على المنطقة التى يسهل الوصول إليها بالسكة الحديدية تأخذ الآن مجراها فى كل مكان . وعلى حين أن الاتساع الأول فى نظام البضائع أفضى إلى ظهور عدد كبير من المدن الجديدة ، وإلى زيادة عدد سكان المدن القائمة زيادة كبيرة ، فإن التشعب الحالى الذى تتسم به منطقة الاستقرار قد أوقف هذا النمو إلى حد كبير وأحدث زيادة عظيمة فى ظهور تكوين حضرى ليس له طابع مميز ، ولا تربطه أى رابطة سواء بنواة داخلية متماسكة أم بحدود خارجية من أى نوع .

وإن النتيجة لتنذر بأن ينتهى الأمر إلى قيام تجمع حضرى عام . وأولئك الذين تجاهلوا التعريف الذى اقترحه جيديس منذ نصف قرن ، عادوا حديثا إلى اكتشاف هذه الظاهرة ذاتها من جديد ، ونظروا إليها كما لو كانت تطورا جديدا برمته . وقد تمادى بعضهم فى الخطأ إلى حد أنهم أطلقوا اصطلاحا غير ملائم — اصطلاح المدينة العظمى — على التجمع الحضرى ، على الرغم من أن « التجمع الحضرى » يمثل فى الواقع اتجاها يناقض تماماً الاتجاه الذى أفضى إلى قيام المدينة التى عرفت أصلا بهذا الاسم . فقد كانت المدينة التاريخية المفرطة فى النمو لا تزال وحدة بحكم ما تبقى فيها ، وأما التجمع الحضرى فإنه ليس وحدة ، وكلما ازداد انتشاراً ازداد ذلك وضوحا .

ولعله يتسنى الوصول على وجه أفضل إلى إدراك ما تعنيه هذه الإزالة للحدود بالرجوع إلى ما حدث فى اتساع المدن التاريخية ؛ وذلك أنه عند ما أحيطت روما بسور أوريليوس فى سنة ٢٧٤ ميلادية ، كانت تشغل مساحة تزيد على خمسة أميال مربعة ، والمساحة الحالية لمدينة لندن تبلغ ضعف ذلك ١٣٠ مرة ؛ على حين أنها تبلغ تقريبا ضعف مساحة لندن فى العصور

الوسطى ٦٥٠ مثلا ، وكانت إذ ذاك ٦٧٧ فداناً . والتجمع الحضرى فى نيويورك يمتد حتى إلى مدى أوسع من ذلك ، فهو يشغل نحو ٢٫٥١٤ ميلا مربعاً تقريباً . وإذا لم تتدخل عوامل ذات أهداف إنسانية لوقف محو المنطقة الريفية ولوضع حدود لنمو المدن واتساعها الطاغى ، فإن جميع المنطقة الساحلية من مين (Maine) إلى فلوريدا[1] قد تلتئم فى تجمع حضرى ليس له طابع مميز . بيد أن تسمية هذه الكتلة « مدينة إقليمية » ، أو الاعتقاد بأنها تمثل القياس الجديد للاستقرار الذى يجب على الإنسان الحديث أن يجعل أنظمته وحاجاته الشخصية ملائمة له ، معناه حجب حقائق الحالة الإنسانية والسماح لعوامل تبدو تلقائية فى ظاهرها أن تغدو بديلا عن الأغراض الإنسانية .

وهذه التكتلات الحضرية العديدة يمكن مقارنتها بجيش مشتت الشمل ، مختل النظام ، فقد قواده ، وتفرقت كتائبه وفصائله ، وتمزقت شاراته ، وهام على وجهه فاراً فى كل النواحى ، جاعلا شعاره « لينج بنفسه من استطاع » . وأول خطوة يجب اتخاذها لمواجهة هذه الحالة ، إلى جانب إنشاء قيادة عليا شاملة ، هو القيام بإعادة تكوين وحدات يمكن توجيهها توجيها مجديا . وما لم ندرك مهمة الوحدات الصغيرة ، ونتمكن من إخضاعها للنظام ، فإننا لن نستطيع أن نتولى قيادة الجيش وتوزيعه بأكمله فى أرجاء منطقة أوسع مدى ، فلقد تغير معيار المسافات ، « والمدينة الإقليمية » حقيقة محتملة الظهور ، بل هى فى الواقع ضرورة حيوية ، ولكن شرط النجاح فى هذه المحاولات يتوقف على ما لدينا من قدرة على تمييز وفرض حدود جوهرية ، وهذا يعنى أن نستبدل بالنظام الاقتصادى للحواضر ، الذى يتجه نحو استخدام المكنات ، نظاما يتجه نحو خبرات الحياة وأهدافها .

---

(١) ولايتان على الشاطىء الشرقى للولايات المتحدة أولاهما فى أقصى الشمال ، والأخرى فى أقصى الجنوب .

وعلى الرغم من أن إزالة الحدود كانت أحد الأعمال الكبرى الرئيسية التى قام بها النظام الاقتصادى للحواضر ، فإن هذا لا يفيد النزول عن أى سلطة من جانب الذين بيدهم الأمر من الأقطاب ، لأن هنالك ما يعادل هذه الإزالة ، وهو المضى فى تجهيز كل شيء عن طريق الحاضرة وأجهزتها الميكانيكية التى تزداد تعقيدا . فالحاضرة فى الواقع مركز لعمليات التجهيز ، حيث يتم ميكانيكيا تصنيف قدر عظيم متعدد الألوان من الأشياء المادية والمعنوية ، وتخفيضها إلى عدد محدود من المواد المطابقة لمعيار قياسى ، التى تهيأ فى حزم موحدة التنسيق وتوزع على الجهات المرسلة إليها ، بوسائل خاضعة لنظام محكم ، حاملة طابع الحاضرة المعتمد .

« وعمليات التجهيز » أصبحت الآن المظهر الرئيسى لإشراف الحاضرة . والحاجة إلى اتباعها على وجه دائم أدت إلى وجود مجموعة كاملة من المخترعات الميكانيكية والإليكترونية ، من مكنات تسجيل حساب النقود إلى المكنات الإليكترونية الحاسبة ، وهى تتولى كل عملية من تسجيل الحسابات إلى الامتحانات الجامعية ، ولذلك فإن الشئون والكفايات التى لا تصلح لعملية التجهيز تنبذ فوراً . ولما كانت وسائل عمليات التجهيز تبلغ من التعقيد ودقة التركيب وكثرة التكاليف مما لا يتسنى معه استخدامها إلا على نطاق واسع ، فإنها تستبعد كل ألوان النشاط التى تنبثق فجأة ولا تدوم طويلا ، أو التى تنطوى فى طبيعتها على نوازع إنسانية خفية — على نحو ما تستبعد الإجابة بلفظ « نعم » أو « لا » الإجابات المميزة الأكثر دقة وصوابا ، التى كثيراً ما توجد عند نقطة أو أخرى فيما بين الأجوبة « الصحيحة » المزيفة . وكل ما هو محلى ، صغير ، شخصى ، مستقل الكيان ، يجب القضاء عليه . وإن من يتحكم فى وسائل عمليات التجهيز ، يزداد تحكمه باطراد فى حياة ومصائر أولئك الذين يتحتم عليهم أن يستهلكوا منتجات تلك الوسائل ، فهم لا يستطيعون أن ينشدوا بديلا عنها لأخذهم

بأساليب الحاضرة ، وذلك لأن التجهيز وإعداد الحزم لا ينتهيان فى مكان الإنتاج ، إذ أنهما يتوليان فى آخر الأمر تكوين شخصية الإنسان .

وموجز القول أن احتكار السلطة والمعرفة — الذى وجد أول ما وجد فى القلعة — عاد فى صورة بالغة التضخم فى المراحل الختامية لحضارة العواصم . ولا مفر فى النهاية من وضع جميع نواحى الحياة تحت نير التحكم ، كالتحكم فى الجو ، والتحكم فى الحركة ، والتحكم فى الاختلاط ، والتحكم فى الإنتاج ، والتحكم فى الأسعار ، والتحكم فى الأهواء ، والتحكم فى الآراء ، بيد أن الغرض الوحيد من التحكم ، فضلا عما يفيده المتحكمون من الغنم والسلطة والنفوذ ، هو التعجيل بعملية التحكم ذاتها .

وإنه لمن اليسير معرفة سدنة هذا النظام ، فإن النظام بأسره يعتمد فى مراحلة الختامية على تكاثر ألوان المعرفة السرية ، ومن ثم فإنه يمكن التحكم فيها . وذات تقسيم العمل الذى يجعل من الميسور القيام ببحوث علمية متخصصة يحصر أيضا عدد الأفراد القادرين على جمع الأجزاء معا . ولكن أين الآلهة الجديدة ؟ إن المفاعل الذرى هو مقر سلطانهم ، وإذاعات الراديو وطيران الصواريخ هى وسائلهم الملائكية للاتصال والانتقال ، ولكن وراء هذه الوسائل الإلهية الصغرى ، تقوم غرفة التحكم ذاتها حيث يستوى ربها على عرش التحكم والتوجيه ، ويصدر أوامره فى سرعة وميض البرق ، وردوده المعصومة من الخطأ ، فقد نجح العلم فى أن يزاوج بين الإحاطة بكل شيء علما والقدرة على كل شيء . وإزاء هذا الاحتكار الإليكترونى لأسمى ملكات الإنسان ، لا سبيل إلى عودة الإنسان إلى ممارسة نشاطه إلا فى أحط مراتب المستوى البدائى . ولقد اكتشف سيجموند فرويد ظهور مبادئ الفن الخلاق فى زهو الطفل بالأشكال التى يكونها برازه ، وفى وسعنا الآن أن نتبين المظهر الذى انتهى إليه الفن الخلاق فى أعمال التصوير والنحت التى

تتكشف محتوياتها عن زهو مماثل ودرجة مماثلة من الاستقلال الذاتى — وإنتاج مماثل .

ولقد كانت إحدى الصفات القديمة التى امتاز بها الآلهة ، أن يخلقوا الإنسان من لحمهم ، مثل أتوم (Atum) ، أو على هيئتهم مثل يهوه (Yahweh) ، وعندما تقوم الطائفة المعتمدة لسدنة العلم بالمضى قدما إلى الأمام فى جهودها الحالية ، سيجرى أيضاً تجهيز الإنسان القمىء الجديد بحجمه الطبيعى ، وفى وسعنا منذ الآن أن نشاهد فيما لدينا من معارض الفنون نماذج تبشر بذلك ، ولسوف يبدو ، على نحو يلفت النظر ، فى هيئة رجل يرتدى « لباس الفضاء » ، أى إن مظهره الخارجى سيكون على شكل حشرة ضخمة ذات حراشف ، ولكن الوجه الماثل فى الداخل ستكون قدرته على التعبير كقدرة وجه الجثة ، ومن ذا الذى سيكون فى وسعه أن يتبين الفرق بينهما ؟

٥ — انبطاح العملقة

حلق فى طائرة فوق لندن أو بيونس أيرس أو شيكاجو أو سيدنى ، أو شاهد هذه المدن على نحو يكشف عن تخطيطها بالاطلاع على خرائط تبين شوارعها ووحداتها . فكيف يبدو شكل المدينة ، وكيف تحدد كيانها ؟ إن الوعاء الأصلى قد اختفى بتمامه ، والانفصال الواضح بين المدينة والريف لم يعد له وجود . وعندما يمتد النظر نحو الأطراف غير الواضحة ، لا يستطيع المرء أن يتبين معالم محددة فيما عدا تلك التى كونتها الطبيعة ، فعلى الأصح يرى المشاهد كتلة متواصلة الامتداد لا شكل لها ، فهى هنا تبدو منبعجة أو متغضنة نتيجة لما يقوم فيها من المبانى ، وهناك تبدو متقطعة من جراء وجود رقعة من النبات الأخضر أو شريط مستقيم الامتداد مؤلف من طريق مرصوف بالخرسانة . وانعدام الشكل فى الكتلة كلها تتجلى

صورته فى كل جزء منها بمفرده ، وكلما ازداد الاقتراب من المركز ، تعذر عادة إمكان تمييز الأجزاء الصغيرة :

ولعجز المدينة عن توزيع كروموزوماتها[1] الاجتماعية والانقسام إلى خلايا جديدة تحمل كل منها قدراً من مزاياها الوراثية الأصلية ، فقد استمرت تنمو على منوال غير عضوى ، بل فى الحقيقة على منوال نمو السرطان ، بالاستمرار فى تدمير الأنسجة القديمة ، وبنمو أنسجة جديدة لا شكل لها نموا مفرطا . فهنا ابتلعت المدينة قرى ومدنا صغيرة وأحالتها إلى أسماء لأماكن ، مثل مانهاتانفيل وهارلم فى نيويورك ؛ وهناك ، لحسن الحظ ، أبقت المدينة على أجهزة الحكم المحلى وبقايا حياة مستقلة ؛ بل ذهبت إلى حد المعاونة على إحيائها : كما حدث فى تشيلسى وكنسينجتون بمدينة لندن ، ولكنها مع ذلك أدمجت هذه المناطق الحضرية فى نظام تكوينها المادى ، وملأت بالمبانى الأرض الفضاء التى كانت تقوم فى وقت ما بتأكيد ذاتيتها واكتمال تكوينها . وأحيانا يتألف من اتساع نطاق شبكة الشوارع شكل منتظم ، وأحيانا لا تنشأ عنه سوى شبكة مضطربة غير منتظمة الشكل لا يستفاد منها حتى فى حركة المرور ، ولكن الفرق بين طراز وآخر من النظام ليس إلا مجرد فرق فى درجة الانبطاح والاضطراب والتخريب :

وكلما يبتعد المرء عن المركز ، يزداد باستمرار ما يتسم به النمو الحضرى من انعدام الهدف ، وعدم التواصل ، ويكون باطراد أكثر تشعبا وبعداً عن التركيز ، إلا حيثما تكون إحدى المدن الباقية قد خلفت الطابع الأصلى لحياة ذات نهج أوفر نظاما . وأما ما كان يوجد قديما من مناطق الجوار والخطط ، وهى الخلايا الاجتماعية التى كانت لا تزال تحتفظ فى المدينة بقدر من نموذج حياة القرية ، فإنه لم يتخلف منها إلا ظلها . ولا يتسنى لأى عين

---

(١) وهى الأجهزة الكروماتينية التى تظهر فى أثناء انقسام النواة وعددها محدود وأشكالها ثابتة لكل نوع من الحيوان ، وهى التى تنقل الصفات الموروثة .

بشرية أن تستوعب فى نظرة واحدة هذه الكتلة التى تتألف منها الحاضرة ، كما أنه لا يتسنى لأى مكان واحد للاجتماع أن يتسع لجميع مواطنيها إلا كل شوارعها بأسرها ؛ وما من عقل بشرى يتسنى له أن يدرك أكثر من جزء مما يقوم به مواطنوها من أعمال التخصص المعقدة المتناهية فى دقتها . وقد أصبحت الصفات القياسية التى يتسم بها نظام الحياة فى الحواضر ، هى انعدام الكياسة ، وانعدام الاستقلال الذاتى ، ودوام الفشل والاضطراب فى الأعمال اليومية ، دون أن نذكر شيئاً عن الحالات الجسيمة للعطل والتوقف ، وثمـة اسم خاص للقوة عندما تُركز بمثل هذا المعدل ، وهو العجز .

ولم ينشأ تضخم الحاضرة إلى هذا الحد الجبار نتيجة لتقدم الوسائل التكنولوجية وحدها ، فإنه على نقيض الاعتقاد الشائع ، كان نمو المدن سابقاً لضروب التقدم التقنى الحاسم الذى حدث فى خلال القرنين الأخيرين . ولكن مرحلة نمو المدن نموا مفرطا حتى غدت حواضر كبيرة لم تصبح عامة إلا عندما أصبحت الوسائل التقنية لتهيئة الازدحام وافية بالغرض ، وأصبح استخدامها يعود بالربح على من كانوا يتولون صناعتها أو استعمالها . بل إن الحاضرة الحديثة مثل بارز ، على الأصح ، لتأخر حضارى غريب فى مجال الوسائل التقنية ذاتها ، وذلك باستخدام وسائل تقنية بالغة الرقى لاستمرار أوضاع وأهداف عتيقة فى مدنية متأخرة من الناحية الاجتماعية . فالمكنات والمرافق ، التى من شأنها أن تعين على التخلص من المركزية فى نظام قوامه الحياة ، تغدو هنا وسيلة ، إما لزيادة الازدحام ، وإما لتهيئة قدر طفيف من التلطيف الوقتى — نظير مقابل .

فشكل الحاضرة إذن هو التجرد من الشكل ؛ كما أن هدفها هو أن تتسع بلا هدف . وأولئك الذين يعملون فى داخل نطاق أيديولوجية هذا النظام ، ليست لديهم فكرة عن التقدم إلا من ناحية الكم ؛ ذلك أنهم

يسعون وراء جعل مبانيه أكثر ارتفاعا ، وشوارعه أشد اتساعا ، والأماكن المخصصة فيه لانتظار العربات أوسع مجالا . ومن شأنهم أن يضاعفوا عدد القناطر ، والطرق الرئيسية ، والأنفاق ، عاملين أبدا على تسهيل الدخول إلى المدينة والخروج منها ، ولكنهم يضيقون مقدار ما يمكن استخدامه من الفضاء الموجود فى داخل المدينة لأى غرض آخر سوى النقل ذاته . ومشروع فرانك لويد رايت لإنشاء ناطحة سحاب تبلغ ميلا فى الارتفاع كان أقصى ما بلغته من السخف هذه النظرية بأكملها عن تطور المدينة ، فإنه من شأن الشكل النهائى لمثل هذه المدينة أن يوجد فى مقابل كل فدان من المبانى ، ميل مربع من طرق النقل السريع وأماكن انتظار السيارات ، وهو ما يوشك أن يتحقق عاجلا فى كثير من المناطق .

وعند ما يتعذر التمييز بين العلة والعلاج فإن فى وسع المرء أن يثق بأن ثمة أمراً يحدث — أمراً عميق القرار بعيد الغور . ولا بد من أن نظاما اقتصاديا آخذا فى التوسع ، ومستهدفا جنى الأرباح ، وليس سد حاجات الحياة ، لا بد من أن يؤدى إلى خلق صورة جديدة للمدينة ، وهى صورة معيدة دائمة ماضية فى الاتساع ، عاكفة على استهلاك ثمار إنتاج صناعى وزراعى آخذ فى الاتساع ، وذلك استجابة لحملات الدعاية والإعلان المستمرة ، ومنذ قرنين ، كانت الحاجة إلى مثل هذا النظام الاقتصادى أمراً لا يقبل الجدل ، وفى كثير من البلاد الفقيرة ما زالت الحاجة إليه قائمة لرفع مستوى السكان فوق حافة الموت جوعا والبؤس الذى لا حيلة لهم إزاءه . بيد أنه فى بلاد الغرب ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، لم تحل مشكلة الفاقة ، دون نظر إلى التوزيع والعلاقة بالحاجات الضرورية ، إلا لتظهر مجموعة جديدة من المشكلات موجبة لعين الحيرة ، وهى مشكلات الوفرة والامتلاء . وتبعا لذلك ، فقد أصبح الاتساع اليوم غاية فى ذاته ، ومن أجل الوصول إلى جعله ميسورا ، يلجأ المتحكمون فى هذا المجتمع إلى كل وسيلة ممكنة من وسائل الاتساع والضخامة .

وذلك أنه من سوء الحظ أنه متى هُيئ أحد الأنظمة الاقتصادية للسير فى طريق التوسع ، فإن الوسيلة تتحول على عجل إلى هدف ، « ويصبح السير هو الغاية » ، بل إن ما هو أكثر من ذلك مدعاة لسوء الحظ هو أن الصناعات التى تحظى بمثل هذا التوسع ، لكى تحتفظ بمعدل إنتاجها ، لا بد لها من أن تتفرغ لإنتاج السلع التى تستهلك سريعاً ، إما بحكم طبيعتها ، وإما لأنه أسىء صنعها بحيث يتحتم استبدالها عاجلا . ومن ثم فإنه بحكم مقتضيات البدع (الموضة) وما تنطوى عليه من عوامل زوال الاستعمال ، نجد أن ما يحققه الإنتاج الميكانيكى من اقتصاد بدلا من أن يكون سبباً فى توفير الفراغ والثروة الدائمة ، يقضى عليه الاستهلاك الاضطرارى على وجه يزداد نطاقه اتساعا على الدوام .

وجريا على هذا القياس ، فإن المدينة ذاتها تغدو قابلة للاستهلاك أو بالأحرى ، قابلة للاستنفاد ؛ إذ أن الوعاء يجب أن يتغير بالسرعة عينها التى تتغير بها محتوياته ، وهذا العامل الحتمى الأخير يقوض دعائم وظيفة أساسية من وظائف المدينة بوصفها وسيلة لتواصل بقاء النوع الإنسانى ، فتزول من المدينة عوامل الذكرى الحية التى كانت فى حين ما تربط معا بين الأجيال والقرون ، ويعيش سكانها فى بيئة دائبة على إفناء ذاتها ، فلا يتوافر فيها الوصل إلا بين لحظة وأخرى . ولا ريب فى أن أشد الناس بؤسا من متوحشى العصر الحجرى لم يعيشوا مطلقا فى مجتمع معدم فاسد كهذا المجتمع .

وبعد فإن العمليات العضوية لها غايات ترمى إليها ، وأهداف تنشدها ، وحدود تقف عندها تلقائيا ، والواقع أن جميع الكائنات الحية تنطوى فى تكوينها على ضوابط تؤدى إلى اتساق الحركات وتحديد مدى النمو ، أما النظام الاقتصادى الماضى فى التوسع ، مثله مثل النظام التكنولوجى الذى أقيم على أساسه إلى درجة كبيرة جدا ، فلا توجد فيه مثل هذه الضوابط ؛ إذ أن مظهر استقراره هو مضاعفة عدد المستهلكين وتوسيع مدى احتياجاتهم . بيد أنه

لضمان استمرار قدرته على الإنتاج ، يعمد إلى قصر هذه الاحتياجات على ما يتسنى للمكنات أن توفره بحيث يعود ربح من ورائه . ولذلك فإن هذا النظام الاقتصادى ينتج السيارات والثلاجات بكثرة ، ولكنه لا يجد حافزاً على العمل لتوفير أعمال فنية خالدة ، أو حدائق جميلة أو فرص للفراغ تكون طليقة غير مقيدة ولا مضنية مهلكة . والواقع أن نظامنا الاقتصادى معد على نحو يجعله أقدر على تدمير الإنتاج بأكمله منه على التبرع به أو الحد منه أصلا .

وصورة النظام الصناعى الحديث التى نقلها تشارلى تشابلن من الماضى، إلى قصته « عصور حديثة » تناقض تماما حقيقة أمر المدينة العظمى ، فقد صور العامل على هيئة رجل عتيق الطراز يكدح وهو مقيد إلى مكنته ، ويغذى آليا وهو مستمر فى تشغيلها . وهذه الصورة تنتمى إلى مدينة الفحم الكوك ، إذ أن العامل الحديث فى الحاضرة ، قد أطلق سراحه تدريجاً من العملية الإنتاجية ؛ فالكد الطاحن المضنى الذى جعل مصنع القرن التاسع عشر بغيضاً أشد البغض قد زال بفضل الخدمات والتأمينات الاجتماعية ، وبفضل الوسائل الميكانيكية والتشغيل الأوتوماتى الكامل . ولم يعد العمل شديد القسوة ، ولكن التشغيل الأوتوماتى جعله أكثر مجلبة للملل . وما كان يستنفد من الجهود والنصب فى العملية الإنتاجية ، أصبح يوجه الآن إلى الاستهلاك .

والعمال فى نظام اقتصادى ماض فى التوسع مقيدون إلى نظام آلى للاستهلاك عن طريق ألف وسيلة ماكرة من القيود والضوابط ، الظاهرة منها والخفية ، فهم يؤمنون على كسب عيشهم ، بشرط أن يلتهموا كل ما تهيئه الوسائل الميكانيكية دون إبداء ما لا موجب له من التدقيق فى الاختيار ، وألا يطلبوا شيئاً مما لا تنتجه الوسائل الميكانيكية . فنظام مجتمع الحاضرة بأكمله قد وضعت خطته على أساس قتل حرية الاختيار والتوجيه الذاتى ، فأنت تقف عند ظهور النور الأحمر وتسير عند ظهور النور الأخضر ، وترى

ما هو مفروض أن تراه ، وتفكر فيما هو مفروض أن تفكر فيه ؛ والمبالغ الشخصية التي تدفعها ، كضريبة الدخل وأقساط التأمين ، يمكن خصمها من مرتبك ، فالاختيار ، والانتقاء ، والتمييز ، وإبداء الحكمة أو العفة أو بعد النظر ، والمضى فى ضبط النفس إلى حد الامتناع عن تعاطى المشروبات ، واتخاذ معايير تغاير المعايير السائدة فى السوق ، ووضع حدود غير الحدود الخاصة بالاستهلاك الفورى ـ هذه كلها من ضروب المروق التى من شأنها مناهضة خرافة المدينة العظمى بحذافيرها وتقمئ نظامها الاقتصادى . وفى مجتمع « حر » كهذا يجب أن يعتبر هنرى تورو[1] (H. Thoreau) عدوا للشعب .

وتتحول الحاضرة فى المرحلة الأخيرة من تطورها إلى جهاز جماعى لتكفل تنفيذ هذا النظام المنافى للعقل ، ولإيهام أولئك الذين هم فى الحقيقة ضحاياه ، بالإحساس بالقوة ، والثروة ، والسعادة ، وبأنهم بلغوا الذروة العليا لما يتسنى للبشر أن يحققوه . بيد أن حقيقة الواقع هى أن حياتهم فى خطر دائم ، وثروتهم بلا مذاق وسريعة الزوال ، وأوقات فراغهم مملة إلى حد مثير ، وسعادتهم التى تدعو إلى الإشفاق يشوبها ما هم محقون فى توقعه على الدوام من الاعتداء والموت المفاجئ ، فيزداد باطراد إحساسهم بأنهم « غرباء وخائفون » فى عالم لم تكن لهم يد على الإطلاق فى تكييفه ، عالم تقل على الدوام استجابته للأوامر التى يصدرها الإنسان رأساً ، ويزداد على الدوام خلوه من المعنى الإنسانى .

٦ ـ أشباح النجاح

فللاعتقاد إذن بأن الحضارة الإنسانية قد بلغت ذروتها النهائية المجيدة

---

(١) كان هنرى داڤيد تورو (١٨١٧ – ١٨٦٢) شاعرا وكاتبا أمريكيا من أقوى دعاة المذهب الفردى .

فى الحاضرة الحديثة ، يجب أن يتجنب الإنسان النظر إلى ما فى النظام الرتيب للحياة اليومية من تفصيلات كئيبة . وهذا هو عين ما يروض كل نزيل فى الحاضرة نفسه عليه ، فهو لا يعيش فى العالم الحقيقى ، بل فى عالمٍ خيالىّ تبرز صورته من حوله فى كل لحظة ممثلة فى ورق وسليولويد وأضواء تدار حركة تسليطها ببراعة ، عالمٍ يجد نفسه فيه معزولا عن مخازى الحياة بما يقوم حوله من الزجاج والسلوفان والپليوفيلم (Pliofilm) . وموجز القول أنه عالم يتألف من المغرِّرين المحترفين وضحاياهم الأغرار .

وصوت حفيف الورق وقرقعته هو الصوت الأساسى الذى تقوم عليه الحاضرة ، فكل ما يشاهد وكل ما له وجود حقيقى فى هذا العالم ينحصر فيما سطر على الورق ، أو ما اكتسب وضعاً أثيريا أكثر من ذلك فى ثنايا ميكروفيلم أو شريط جهاز التسجيل . ولم تعد الأقاويل والشائعات اليومية الهامة التى تسرى فى الحاضرة هى تلك التى يتناقلها الناس حين يلتقون وجها لوجه عند مفارق الطرق أو على مائدة طعام أو فى السوق ، بل إن بضع عشرات من الناس يكتبون فى الصحف ، إلى جانب عشرة أو نحوهم يذيعون فى الراديو والتليفزيون ، هم الذين يتولون تقديم التفسير اليومى للحوادث وحركات الناس وسكناتهم ببراعة المحترف اللبق ، ومن ثم فإنه حتى أكثر وجوه النشاط الإنسانى تلقائية خضعت لإشراف محترف وتحكم مركزى . وانتشار كل لون من أجهزة الاستنساخ ، يكسب أشد منتجات العقل تواضعا وتعرضا لسرعة الزوال — يكسبها دواما مؤقتا لا تستحقه ، فإن كتبا بأسرها لا تطبع إلا لإفراغ ما فى أشرطة جهاز التسجيل من محتويات واهية .

وجميع وجوه النشاط الكبرى فى الحاضرة لها صلة مباشرة بالورق واللدائن التى تستخدم بدلا منه : كما أن الطباعة وعملية حزم السلع فى مقدمة الأعمال التى يستخدم فيها الورق ، وكذلك فإن الأعمال التى تجرى فى مكاتب

الحاضرة تتصل مباشرة بالورق ، مثل مكنات الجدولة ، ودفاتر اليومية ، ودفاتر الأستاذ ، وبطاقات الفهارس ، والحجج والعقود ، وصكوك الرهن ، وعرائض الدعاوى ، ومحاضر المحاكمات ، وكذلك أيضاً النشرات ، والإعلانات ، والمجلات ، والصحف . ومنذ عهد مبكر يرجع إلى القرن الثامن عشر ، لاحظ مرسييه (Mercier) هذا النوع من الوباء الأبيض الذى يتفشى فى الحواضر . ولم تخفف طرق الاستنساخ الحديثة من وطأة هذا الوباء ، وإنما استبدلت بالوسائل المشوبة بالتراخى وعدم الدقة — وهو ما كان كافياً فى الغالب — مدونات متقنة دقيقة لا تتناسب دقتها وتكاليفها مع ما دون فيها . وما كان قطرة فى عهد مرسييه ، أصبح الآن طوفانا طاغيا من الورق .

وكلما تقدم سير العمل اليومى فى نظامه الرتيب ، ازداد ارتفاع أكداس الورق ، فتمتلئ سلال الورق المهمل وتفرغ ثم تعود فتمتلئ ثانية . وشريط الناقرة (ticker) يخرج تباعاً محملا بأسعار الأسهم والسندات ونشرات الأخبار ، والطلبة فى المدارس والجامعات يملأون كراساتهم ، ويهضمون محتويات الكتب ويلفظونها فى يوم الامتحان فيكشفون عن حقيقة أمرهم ، شأنهم شأن دودة القز ، إذ تتغذى بورق التوت وتقوم بصنع شرنقتها . وفى عالم المسرح والأدب والموسيقى ، وفى دنيا الأعمال ، تبنى الشهرة على الورق . فالعالم بدرجاته العلمية وبحوثه المنشورة ، والممثلة بما لديها من قصاصات أقوال الصحف ، ورجل المال بأسهمه والتفويضات التى تخوله حق التصويت بالوكالة عن غيره ، يقيسون ما لهم من نفوذ ومكانة بمقدار ما فى حوزتهم من ورق ، فلا عجب أن الفوضويين قد ابتدعوا فى وقت ما هذه العبارة البشعة : « أحرقوا الوثائق » ! فإن هذا من شأنه أن يفضى إلى دمار هذا العالم بأسره بأسرع مما يفضى إليه طوفان أو زلزال عالمى ، وإن لم يكن له من الأثر الماحق ما يكون لوابل من القنابل الهيدروجينية ..

أما أن تكون الحياة فرصة للاستمتاع بالوجود ، وليست ذريعة لتغذية الصحف بمادة تكتب عنها ، أو الإدلاء بأحاديث تذاع بالتليفزيون ، أو مشهداً للعرض أمام جماهير لا يشغل بالها سواه – هذه الخواطر لا تدور بخلد ساكن الحاضرة ، فإن مشهد العرض فى نظرهم هو الحقيقة الواقعة ، و « المشهد يجب أن يستمر عرضه » .

فهذا العالم القائم فى الحاضرة إذن ، هو عالم نصيب اللحم والدم فيه من الحقيقة الواقعة أقل من نصيب الورق والحبر والسليولويد . وهو عالم يستشعر فيه أغلب الناس عجزهم عن الاهتداء إلى نهج للحياة أكثر اكتمالا وأدعى إلى الرضا فيعمدون إلى الاستمتاع بالحياة عن طريق الغير ، قراء ، ومتفرجين ، ومستمعين ، ومشاهدين سلبيين . ولما كانوا يعيشون على هذا النحو سنة بعد أخرى حياة لم يمارسوها بأنفسهم ، بعيدين عن طبيعة الكون ، وليسوا أقل بعداً عن طبيعة أنفسهم ، فلا عجب أنهم يمعنون باطراد فى إسناد وظائف الحياة ، بل التفكير نفسه ، إلى الأجهزة التى ابتدعها المخترعون منهم ، وفى هذه البيئة المختلة النظام ، لا يحتفظ ببعض صفات الحياة سوى الأجهزة الميكانيكية ، على حين أن الكائنات البشرية يجرى تحويلها تدريجيا إلى مجموعة من الانعكاسات لهذه الأجهزة ، بلا حوافز تدفعها تلقائيا إلى التصرف ، ولا أهداف مستقلة تسعى وراءها ، أو بعبارة أخرى إلى « أشخاص سلوكيين » .

٧ – الازدحام وتخفيف الازدحام

لا سبيل إلى إنكار حقائق الازدحام فى الحاضرة ، فإنها ظاهرة فى كل جانب من جوانب الحياة فى المدينة ، فالإنسان يلقى الازدحام فى التكرار المتواصل لوقوف حركة المرور ، وهو ما ينشأ عن تراكم وسائل النقل فى

أماكن لا يتسنى إطلاق حرية الحركة فيها إلا إذا سار الناس على أقدامهم ؛ ويلقاه الإنسان فى ازدحام المصاعد بمبانى المكاتب ، أو فيما هو أكثر تكدسا وتفوح فيه الروائح الكريهة المنبعثة من الأبدان البشرية ، وهو القطار الذى يجرى تحت الأرض . وينهض دليلا على ازدحام الحاضرة افتقارها إلى ما يلزمها من الأماكن للمكاتب والمدارس والمنازل بل افتقار جبّاناتها إلى الاتساع الكافى لدفن الموتى . وكل مظهر من مظاهر الحاضرة يتسم بطابع الازدحام ، سواء أكان مكانا للاستحمام على شاطئ البحر ، أم ساحة للملاكمة ، أم ملعباً لكرة القدم ، فهى جميعاً تغص بالناس وتزدحم بهم . وبازدياد عدد السيارات الخاصة تحولت الشوارع العادية والعريضة إلى أماكن لانتظار السيارات ، ولكى يتسنى تسيير حركة المرور على نحو ما ، شق المدينة عدد كبير من الطرق الفسيحة المعدة للنقل السريع فتجعل الحاجة أشد إلى المزيد من أماكن الانتظار وحظائر السيارات . وبالعمل على تيسير الوصول إلى قلب الحاضرة ، جعل مدبرو الازدحام تلك المنطقة غير صالحة تقريباً للسكن .

وتكاليف الازدحام ذاته ، بما ينشأ عنه من عرقلة وجوه النشاط الاقتصادية الجوهرية فى منطقة الحاضرة ، تزداد بما يضاف إليها من تكاليف الوسائل الميكانيكية البحت التى تستخدم للتغلب على هذا الازدحام . ولو أنه كان للمقاييس الاقتصادية المعقولة أى نصيب فى تكوين خرائط الحاضرة لأدى ذلك منذ زمن بعيد إلى التخلص من هذه التكاليف المالية الباهظة حتى لو كان فى وسع الناس تحمل أعبائها .

والحدود المادية البحت لتوسع الحاضرة تفرضها ثلاثة عوامل أساسية وهى : مقدار كمية الماء التى يتسنى لمجموعة واحدة من السكان أن تستعملها بدون أن تجور على مجموعة مجاورة منافسة لها ، ومقدار الأرض التى يمكن الإفادة منها قبل أن تمتزج إحدى الحواضر بحاضرة مجاورة وتندمج فيها ،

وأخيراً ما يتكلفه النقل من حيث الوقت والمال معا ، نظراً إلى أنه بازدياد بعد المسافة عن المركز ، يصل البعد إلى نقطة تضعف عندها قوة جاذبية الحاضرة إلى درجة ترجح كفة الانتقال إلى مراكز أخرى يكون الوصول إليها أيسر سبيلا ، ما دامت توفر مزايا اقتصادية مماثلة . ولنر الآن مدى أثر هذه العوامل .

فأولا الحاجة إلى الماء : تبعاً لازدياد الازدحام فى الحاضرة ، يزداد التخلى تدريجاً عن الينابيع والآبار المحلية والاتجاه نحو موارد أغزر ماء ، مثل الأنهار التى ظلت مياهها الملوثة تتسم بالشرب منها أكثر من مدينة عظمى ، بما فيها باريس ولندن وروما ، إلى وقت متأخر وصل إلى منتصف القرن التاسع عشر . وحتى فى الوقت الحاضر ما زال من شأن تناول مياه الشرب فى أغلب المدن الكبرى أن يكون مصدراً للخطر ، ولا سيا فى خلال شهور الشتاء ، إذا لم تطهر هذه المياه بإضافة الكلورين إليها . وفضلا عن مشروع كروتون (Croton) ، الذى افتتح فى سنة ١٨٤٢ ، ظلت نيويورك إلى ما يزيد على نصف قرن بعدها تتوغل فى طلب الماء حتى جبال كاتسكيلز (Catskills) الواقعة على بعد مائة ميل منها . وكل ميل إضافى من الأنفاق والأنابيب ، وكل خزان إضافى يزيد من تكاليف المرفق ، ولكن قلة الأمطار فى سنة ما ، على نحو ما عانته نيويورك فى سنة ١٩٥١ ، قد تؤدى بالمدينة إلى بلوغ حافة الخطر . هذا إلى أن امتداد المدينة لا يؤدى إلى إغلاق موارد الماء المحلية فحسب ، بل إلى انخفاض منسوب المياه الجوفية نتيجة لردم المستنقعات وتجريد جوانب التلال من النباتات ، كما أن استخدام المياه فى الصناعة فضلا عن شيوع استخدامها فى أجهزة تكييف الهواء فى الولايات المتحدة ، يؤدى إلى ازدياد الاقتراب من درجة القحط حتى على أساس المستوى الحالى لعدد السكان .

والأمل الوحيد المرتجى لتخفيف هذه الحالة المزمنة لنقص الماء فى

الحواضر المتكدسة بالسكان ، هو الالتجاء إلى تقطير مياه البحر بكميات ضخمة ، ولكنه حتى إذا كان ذلك ميسوراً عن طريق استخدام الطاقة الشمسية الرخيصة التكاليف أو الطاقة النووية ، فإنه من المحتمل ألا تكون هذه المياه أكثر استساغة فى الشرب من المياه التى تصنع الآن على ظهر السفن . ومهما يبلغ من رخص تكاليف الطاقة التى تستخدم فى هذه العملية ، فإنه من شأن تكاليفها أن تكون عبئاً جديدا يضاف إلى سعر المياه الآخذ فى الازدياد .

وتكاليف نظام النقل الداخلى فى مدينة كبيرة يبلغ ما يعادل ذلك فى الضخامة ، ومع ذلك فإن بعضا من أهم العوامل يعز تقديرها على وجه الدقة ، فتكاليف إنشاء خطوط النقل تحت الأرض ، والأنفاق والقناطر والطرق العامة الإضافية ، وما يستدعيه ذلك من الأعمال الشاقة لحفر الأرض وتجويفها ، تكاليف مرتفعة بطبيعة الحال . ولكن هذا ليس إلا جزءاً من العبء الكامل ، ففى كل سنة بعد أخرى يجب أن يضاف ثمن ما يستهلك من الفحم والكهربا فى نقل الأجسام البشرية ، وفوق كل شىء يجب أن يضاف إلى ذلك ما يتكلفه الإنسان من سوء التأثير على صحته ، ومن الملل والمضايقة وانقباض النفس من جراء هذا الغدو والرواح يومياً بين مكان النوم ومكان العمل . وعندما تبلغ حركة المرور أشدها يقضى الإنسان دقائق وساعات لا يستطيع الانتفاع بها حتى فى تخدير أعصابه بمطالعة صحيفة يومية . أضف إلى ذلك معاناة تعب الرحلة ، والتعرض للأمراض المعدية فى عربات مزدحمة إلى حد يفوق الطاقة ، واضطراب وظائف المعدة والأمعاء نتيجة لتوتر الأعصاب ، والقلق على الوصول إلى المكتب أو المصنع فى الموعد المحدد . ومن المحقق أن أى مشروع لتحسين أحوال الحياة فى مناطق الحواضر ، من شأنه أن يكون أدنى ما يستلزمه إنقاص الوقت والمسافة اللازمين للانتقال اليومى :

ولقد قال إمرسون إن الحياة عبارة عن الاستمتاع بأيام سعيدة ، ولكنها كذلك عبارة عن الاستمتاع بدقائق سعيدة أيضا . ومن ذا الذى يجرؤ على بيان أية تعويضات لا يتحتّم بذلها لمن يعمل فى الحاضرة لتجزيه عما يعانيه من توتر أعصابه وانقباض نفسه فى مدى العشرين أو الأربعين أو الستين أو الأكثر من ذلك من الدقائق التى يقضيها كل مساء وصباح مخترقا هذه المجارى الآدمية الممتدة فى الحاضرة — حتى لو كانت تبلغ من الكفاية ما تبلغه تلك الموجودة فى لندن أو باريس ، أو تبلغ من الترف مبلغ تلك الموجودة فى موسكو ؟ وعلى النقيض من ذلك ، فإن السير على الأقدام إلى مكان العمل ولو مقدار ميل واحد يوميا يكون فى أكثر فصول السنة باعثا على القوة ، ولا سيما فى حالة من يؤدون عملهم جالسين ، وهم أولئك الذين يقومون بدور كبير فى مكاتب الحاضرة ومصانعها بالعمل على الآلة الكاتبة ، وآلة سبك حروف الطباعة سطورا مصفوفة ، وآلة الخياطة ، وأمام خزانة الأضابير .

ولو أنه أنشئت فى منطقة الحاضرة مراكز فرعية على أساس أن يكون الانتقال فيها سيراً على الأقدام ، لتسنى تفادى شطر لا بأس به من مصاعب النقل الحضرى .

وفى المدن المتعددة المراكز والتى قضى فيها على المركزية إلى حد ما ، مثل لندن ، عن طريق إعادة تقسيمها إلى مراكز شبه مستقلة بإدارة شئونها ، حصل أربعون فى المائة من السكان الذين يبيتون فيها على أعمال فى داخل نطاق مراكزهم المحلية ، وذلك طبقاً لما ذكره وسترجارد (Westergard) ، وللقيام بالرحلات الضرورية فى أرجاء الحاضرة على وجه سريع وواف بالغرض ، يجب الإقلال من عدد الرحلات التى لا ضرورة لها — وكذلك من مقدار طولها الذى لا ضرورة له : ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بجعل مكان العمل قريباً من البيت ، ولبلوغ هذه الغاية ، يكون مشروع

باربيكان (Barbican) فى لندن تتمة لا بد منها لسياسة المدن الجديدة ؛ وإن كان لسوء الحظ لم يفكر فيه إلا عندما بلغت نسبة السكان حداً قد يؤدى إلى فشل الغاية المنشودة منه .

وما ينطبق على حالة غدو الناس إلى مركز المدينة ورواحهم منه يوميا ، ينطبق سواء بسواء على حالة نقل البضائع ، وذلك أن الازدحام لا يقتصر أثره على مجرد أنه يؤدى إلى بطء مرور البضائع فى الشوارع ، بل إنه يؤدى كذلك إلى زيادة الوقت اللازم للتفريغ ، وكلاهما يؤدى إلى رفع قيمة التكاليف . والواقع أن تضاعف عدد سيارات النقل القادرة على بلوغ سرعة كبيرة قد أفضى إلى الزيادة المطردة فى تأخر النقل وإلى ازدياد التكاليف . فطبقا لدراسة أجريت فى سنة ١٩٠٧ ، كانت المركبات التى تجرها الخيول تتحرك بسرعة يبلغ معدلها ١١٫٥ ميلا فى الساعة ، واليوم تزحف السيارات بمعدل ستة أميال فى الساعة بالقياس إلى متوسط ساعات النهار ، وحتى هذه السرعة سوف تزداد انخفاضا تبعا لازدياد نسبة كثافة المبانى فى الفدان الواحد . وأما عن تكاليف مثل هذا الازدحام ، فقد قدر — مع مراعاة التحفظ — بمبلغ ١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار فى السنة فى خلال عشرينيات هذا القرن . والآن يتعين دفع أجر نقل إضافى على البضائع التى تنقل من أحد أقسام نيويورك إلى قسم آخر فيها ، ويبلغ المجموع الكلى للتكاليف — بعد إضافة إتاوة النقابات التى يؤيدها رجال العصابات وتسيطر على حرفة النقل وشحن السفن — يبلغ ذلك المجموع من الضخامة ما يماثل الأبعاد الفلكية .

وإذا كانت تكاليف الازدحام فى الحاضرة تبلغ حداً يبعث على الذعر ، فإن نفقات تخفيف الازدحام تبلغ على السواء حدا مخيفا . وفى الولايات المتحدة ، نجد أنه — بفضل تواطؤ السلطات البلدية وحماستها — ينتشر فى نواحى الريف شطر من السكان يزداد عدده دائماً باطراد ، سعيا كما رأينا

وراء الظروف الملائمة للحياة العائلية ، ووراء الاتساع وحرية الحركة ، فقد أصبح لا سبيل إلى كل ذلك فى قلب المدينة ، وأملا كذلك — ولكن هيهات — فى أن انخفاض قيمة الأرض والضرائب فى المناطق المتطرفة سوف يبقى بصفة مستديمة حتى بعد القيام بعمل الإصلاحات المدنية الضرورية . وفى جميع أنحاء العالم ، نجد أن هذا النوع بعينه من الانتشار الحضرى يجرى الآن بسرعة كبيرة . وقادة هذا الانتشار ، فى محاولتهم التغلب على الازدحام ، قد تصرفوا كما لو كان الاتساع الذى لا حد له بديلا يغنى بصفة فعالة عن مجتمع محكم التنظيم ومحكم التخطيط .

والعامل الرئيسى الذى يحول دون أن يكون هذا الانتشار بأسره عشوائيا ، هو : طرق النقل السريع والطرق المتصلة بها التى جعلت ذلك الانتشار ميسورا ، فهى بمثابة المداخن التى تساعد على نفث الغبار الحضرى إلى مسافة أكثر بعدا عن المركز بعد إزالة الطبقة العليا من تربة الحياة المشتركة . ويلاحظ أحد المعلقين المحدثين فى كتاب « المدينة المهجورة » أنه « يبدو أن التكنولوجيا تدأب على الاندفاع باستمرار نحو توفير وسائل السرعة العالية التى سوف تدفعنا فى اتجاه يزداد على الدوام بعدا عن المدينة » . ويبلغ من مدى ذيوع المشاركة فى هذا الرأى أن الكاتب لا يكلف نفسه عناء دعمه بالشرح والتفسير ، ومن ثم فإنه لا يفسر السبب فى أن اندفاع التكنولوجيا وحده يجب أن يحدد حاجات الإنسان ، وأن يعتبر الغاية العليا التى ينبغى أن تنحنى أمامها جميع الأغراض البشرية الأخرى . ومن شأن محاولة القيام بمثل هذا التفسير إثارة الشك فى المقدمات ، بل العقائد المقدسة ، التى بنى عليها نظام الحاضرة الاقتصادى .

٨ — الوعاء المنفجر

ينبغى أن يكون قد أصبح واضحا الآن أن الازدحام فى الحاضرة والاتجاه نحو التوسع هما فى الواقع حركتان تكمل إحداهما الأخرى ، ولو أنهما

تمثلان مرحلتى البداية والنهاية فى دورة المدينة العظمى . فالحواضر الرئيسية فى العالم كانت تمثل ألوانا من التركيز الضخم للقوى السياسية والمالية والتكنولوجية التى نمت غالبا على هذا الترتيب . وعلى مرور الزمن ، ساعدت على نمو الحواضر تجمعات دينية وتعليمية تعادل تلك القوى فى ضخامتها . وقد بلغ من شأن الأثر الفعال لهذا الاحتكار ، ومن شأن رسوخ هذا الأسلوب فى التحكم ، ومن شأن وفرة ما عاد به من مغانم ، أنها حجبت مؤقتا ما يعانيه الناس من جراء الازدحام فى الحواضر ، وأن الأحوال التى كان ينبغى أن تكون وصمة عار غدت تقريبا شارة تشريف .

ومن الغريب أن أكبر عامل لتبرير الازدحام فى الحواضر قد مرّ دون أن يسترعى الأنظار تقريباً ، فقد نشأ عن نشاط هذه القوى أن المدينة الكبيرة كانت فى القرن التاسع عشر ، بحكم حجمها وتنوع سكانها ، وسيلة تشجع على قيام هيئات لم يسبق قيامها إطلاقا على نفس هذا النطاق ، ونعنى بذلك هيئات جماعية وجمعيات تضم أفرادا متماثلين فى آرائهم ، يتابعون ألوانا من النشاط تتناول كل ناحية من نواحى الحياة البشرية . وإلى هذا الحين كانت الكنيسة والجامعة والمدرسة والنقابة ، هى المراكز الأساسية لألوان النشاط الجماعية ، وذلك فضلا عن المدينة ذاتها . ولكن منذ أوائل عهد النهضة أخذت هذه الجماعات الجديدة تزدهر واتخذت أوضاعا عديدة مختلفة ، على هيئة جمعيات علمية ، ومتاحف ، وأندية اجتماعية ، وشركات تأمين ، وأحزاب سياسية ، وجماعات اقتصادية ، وجمعيات تاريخية وروابطات زمالة من جميع الأنواع .

وإذا كانت الحاضرة فى القرن التاسع عشر تتسم بفرديتها ، فإنها كانت فى الواقع أكثر اتساما بتنوع هيئاتها الجماعية الاختيارية ومدى مجال هذه الهيئات . وإذا رجعت إلى قائمة الأندية والجمعيات الواردة فى الأقسام المبوبة بدليل التليفون الخاص بمدينة أمريكية كبرى ، فإن ما تجده من

العدد الهائل للهيئات ذات الأهداف هو إلى حد ما ، نتيجة فرعية للتجمع فى الحاضرة ، وتظل هذه الهيئات مزدهرة ما دام يتسنى لعدد كبير من أعضائها أن يلتقوا دون مشقة فى اجتماعات أسبوعية أو شهرية على الأقل . وإزاء وجود هذه النواة القوية للمشاركة ، تيسر قيام منظمات أوسع نطاقا ذات مجال قومى ودولى .

وكما أن تركيز السلطة السياسية والاقتصادية فى القلعة نشأ عنه ظهور منظمات حضرية وفوائد اجتماعية لم تكن بين الأهداف المباشرة التى رمى إليها الحكام ، فإن تكاثر الأندية والجمعيات على هذا الوجه أفضى إلى نتائج مماثلة : ومهما يبلغ اتساع الحاضرة فإنه فى وسع المرء أن يجد فيها على الأقل نفرا من الأشخاص المتماثلين فى آرائهم ليزكوا أى دعوة يمكن تصورها ويوالوها بالسهر والرعاية . وقد أسدى هذا خدمة جليلة للتقدم الإنسانى ، وإن شطرا ليس بالضئيل من الفضل فى المقدرة الخلاقة والقدرة الإنتاجية ، مما عزى إلى مبتكراتنا التكنولوجية ومنظماتنا الصناعية ، يتسنى إرجاعه فى المقام الأول إلى هذه الأجهزة الوفيرة العدد .

وموجز القول أنه على الرغم من أن الازدحام قد اتجه نحو كبت أو تحطيم التكوين العضوى لمناطق الجوار والمجتمعات الصغرى ، فإنه أعان على إيجاد أجهزة جديدة ذات طابع أكثر تخصصا وتدقيقا فى الاختيار . وقد جعل وجود هذه الأجهزة أمرا ميسورا ، أنها فى متناول عدد كبير من السكان إلى درجة غير مألوفة . ولهذه الحقيقة أثر هام فى إعادة إنشاء المدن والمناطق فى المستقبل .

وإننا لنواجه الآن حالة ليس لها ، فيما أعلم ، سابقة فى التاريخ ، فعلى الرغم من أن وعاء الحاضرة قد انفجر ، فإن مراكز الجاذبية المشروعة ما زالت تحتفظ إلى مدى كبير بقوة جاذبيتها الأصلية . وفى كل منطقة من

مناطق الحواضر ، يفيض سيل السكان فينتشرون فى مناطق جديدة من الضواحى ، فيما يلى الحواضر وفى الريف ، بسرعة تفوق السرعة التى يتراكمون بها فى الخزان الموجود عند المركز . ومع ذلك فإن الخزان نفسه ، أى قلب الحاضرة ، ليس فى طريقه إلى النضوب . وبعد فإنه فى سنة ١٩٤٠ ، كان يبدو متوقعا بصفة قاطعة أن يستمر انخفاض معدل الزيادة فى عدد السكان حتى يصل إلى الاستقرار فى سنة ١٩٨٠ فى أكثر من دولة واحدة : فمثلا كان الانخفاض يسير بخطى وئيدة ثابتة فى إنجلترا إلى درجة أن أرقى المشروعات التى وضعت للبناء بعد الحرب ، اتخذت من انخفاض عدد السكان فى المدن أساسا جوهريا — ومعينا — لإعادة البناء طبقا لنمط أقل اكتظاظا .

ولكن كلا من المعدل العام والمعدل الحضرى للنمو قد طرأ عليه تحول مفاجىء فى خلال العشرين السنة الأخيرة ، حتى فى مناطق بلغ التصنيع فيها مستوى رفيعا ، واقترن ذلك بحركة أشد اتجاها نحو الارتفاع فى مناطق متخلفة اقتصاديا . ولقد ساعد على هذا الاتجاه فى بلاد أكثر رقيا من الوجهة التقنية ، ما حدث من التحول فى العمل بوجه عام ، من الاشتغال بالزراعة والصناعة إلى الانخراط فى سلك الوظائف العامة ومزاولة الأعمال المهنية . وفى حالات معينة ، كحالة لندن ، كانت زيادة الفرص التى أتاحتها نواحى النشاط الإدارى سببا فى زيادة تأثير ما للمدينة من جاذبية نموذجية بما تهيئه من فرص للتنافس فى الإنفاق ، وبما يتوافر فيها من مغريات على الاستهلاك . وقد كان لهذا أثر فعال فى مقاومة ميل كثير من الصناعات نحو الانتقال إلى الريف ، بل إنه فى الحقيقة أدى فى إنجلترا إلى اجتذاب الصناعة من المناطق الصناعية المعتمة فى لانكشير وويست ريدنج ، ولو إرضاء لهيئة الموظفين الإداريين والفنيين وزوجاتهم .

ونتيجة لذلك لم يحدث انخفاض جوهرى فى عدد سكان الحواضر ، أ

فيما عدا ما كان نتيجة وقتية للدمار أو الإخلاء فى أثناء الحرب ، بل الأصح أن ما حدث كان على عكس ذلك . بيد أن أسرع معدل للنمو كان فى المناطق المتطرفة ، وقد اتسع نطاق المشكلة الحضرية بأسرها من جراء ما حدث من أن المدن الريفية والمراكز الإقليمية – وهى التى كان يتسنى لها فى الغالب أن تفخر بأن ما لديها من نظم للاسكان ، واتساع للحدائق ، ومناطق للنزهة يسهل الوصول إليها ، يفوق ما لدى المدينة الكبيرة – أصبحت هى ذاتها بؤرا للمزيد من النمو السائد فى الحواضر . وقد بدأت تظهر فى هذه المدن عين وجوه القصور فى البيئة ، وعين الاختلال فى الميزانية ، وعين الإنفاق على خطط آلية سريعة للاصلاح بدلا من الإنفاق على إصلاحات إيجابية رشيدة على نحو ما تفعل منافساتها الأكبر منها ذات الماضى الطويل . ولذلك فإن الوضع الجديد – وضع المدينة العظمى – يوشك أن يصبح عاجلا وضعا عاما .

والأمر الهام الذى يجب أن ندركه عن هذه العملية بأكملها ، هو أنه إذا كانت وسائل النقل السريع والانصال الفورى قد غيرت معيار التطور الحضرى ، فإنها إلى الآن لم تغير النموذج الحضرى ذاته . والواقع أن هذا التغيير الواسع المدى أخذ يجرى فى داخل إطار حضرى فات أوانه ، وأن هذه الضروب من التقدم التكنولوجى السريع أخذت تسعى وراء أهداف فات أوانها أو أهداف إنسانية بدائية ، فهذه هى حقيقة طبيعة المرحلة الأخيرة فى انحلال المدن العظمى ، كما تتضح سواء فى تخطيطات المدن التى توضع يوما بعد يوم ، أم فى الخطط النهائية التى تدبر لإبادة الجنس البشرى بوسائل ذرية وبكتيرية وكيميائية . وحتى الزيادة المفرطة فى معدل المواليد قد تكون من أعراض هذا التدهور ، لأنه – كما لاحظ و . م . هويلر عن مجتمعات الحشرات – يقترن التوالد المفرط بتوقف نواح أخرى من النمو البيولوجى .

ومع ذلك فإن استمرار الحاضرة فى التوسع والامتداد إلى حد التحول

إلى تجمع حضرى ضخم ليس له شكل معين : وتكاثر هذه التجمعات الحضرية واتساعها ، تكشف جميعاً عن سوء الحالة التى تواجه كل مجتمع الآن . ومن ثم فإنه لا أمل فى الظن بأن هذه المشكلة مما يتسنى للسلطات المحلية أن تجد لها حلا ، حتى إذا توافر لها من المقدرة والسلطة الضخمة ما يتوافر لدى مجلس محافظة لندن ، كما أنها ليست من المشكلات التى يمكن معالجتها بنجاح عن طريق مجرد توسيع نطاق الحكم المحلى بإنشاء حواضر ذات حكومات محلية ؛ فقد أنشأت فيلادلفيا مثل هذا الجهاز الإدارى منذ عهد مبكر يرجع إلى منتصف القرن التاسع عشر ؛ وترتب على ذلك تحويل مقاطعة كبرى إلى مدينة ، ولكن أغلب الأجزاء التى تألفت منها ظلت مدة طويلة لا تزيد على أنها قرى صغيرة . وهذه المنطقة التى تتولى إدارتها حكومة الحاضرة ، لا يمكن تمييزها الآن من تلك التى بقيت دون توحيد إلا حيث أسعد الحظ الأخيرة بأن كان استقلالها سببا فى الاحتفاظ لها بنصيب أوفر من الفردية والحكم الذاتى . وليست المشكلات الداخلية للحاضرة والمناطق الملحقة بها إلا انعكاسات حضارة موجهة بأسرها نحو التوسع بوسائل منطقية وعلمية صارمة لتحقيق أغراض أصبحت تزداد باطراد حمقا وتفاهة ، واتساما بطابع الطفولة والبدائية ، ونزوعا إلى الوحشية ، ومنافاة لأحكام العقل إلى مدى بعيد :

وهذا أمر يجب معالجته من أساسه ، غير أن أغلب مشروعاتنا الحالية — بما فيها تلك التى من شأنها أن تفرض بلا تمييز نوعا من نظم الإدارة السياسية حتى على مناطق حضرية أوسع نطاقا — مثلها مثل من يحاول أن يعيد إلى بركان فيزوف ما طفح منه بعد ثورانه ، أو مثلها مثل ما لا يقل عن ذلك بعداً عن الواقع من الادعاء بأن الأرض التى لفحتها الحمم البركانية لا تحتاج إلى أكثر من جمعها فى حقول أكبر اتساعا لاستغلالها استغلالا مثمرا باتباع نهج جديد فى الزراعة .

وليس فى وسعنا أن نصل إلى تجديد المدينة عن طريق الاستبدال بمنشآت قديمة مبانى جديدة ليس من شأنها إلا دعم النموذج الذى فات أوانه لنمو المدينة ، ولا تعتمد إلا على ما فات أوانه كذلك من الأسس الايديولوجية « للتقدم الميكانيكى » . وما دامت العوامل الحالية تظل ماضية فى نشاطها ، فإن المنطقة التى يسودها سوء النظام الحضرى سوف تظل ماضية فى الاتساع ؛ وفى خلال عملية الاتساع بلا حد ، استجابة لعامل « الاندفاع التكنولوجى » والرغبة فى الحصول على الربح العاجل ، سوف تندمج ماديا كل حاضرة بجارتها . وسيترتب على هذا الاندماج ، أن تفقد كل حاضرة المنظر الطبيعى الذى يجاورها والذى تفيد منه فى التعليم والتنزه ، كما تفقد معه ما تبقى لها من الفردية الحضرية .

وعلى ذلك فإن ذات المحاولة للهروب من التضخم تسد كل المسالك على نفسها ، وما من شىء يتسنى حدوثه فى هذا الطراز الجديد للمجتمع المنحط عن المستوى الحضرى ما لم يكن ذلك عن طريق تنظيم شامل يتولى تنفيذه جهاز موحد تسيطر عليه قيادة مركزية . ونظراً إلى أنه لن تعود هناك أهمية للمكان الذى يوجد فيه مركز هذا التحكم عن بعد ، فإن المسوغ الأخير لوجود المدينة الكبرى سيزول فى عين الوقت الذى تتخذ فيه شكل تجمع حضرى لا حدود له ، وعند هذا الحد سوف يكون المسرح مهيأ لظهور « رجل ما بعد التاريخ » .

وإن أولئك الذين يظنون أنه لا بديل من هذا المصير الحضرى المحتوم ، وأنه ليس فى قدرة البشر الإفلات منه ، قد يثبت أنهم على صواب فى تقديرهم لما يحتمل وقوعه . ولكن إذا صح هذا ، فسوف يكون سببه أن قدرة أبناء هذا العصر على إدراك العوامل التاريخية قدرة محدودة ، وأن فهمهم لوظائف المدينة يشوبه العجز والقصور ، وأنه يسيطر عليهم ميل ساذج نحو المغالاة فى تقدير قيمة الوسائل التكنولوجية دون نظر إلى تلاؤمها

مع الأغراض البشرية . وهم فى الواقع ضحايا ميتافيزيقا شبه علمية لا تستطيع تفسير العمليات العضوية ولا المعاونة على تقدم الحياة الإنسانية .

وذات العيوب التى تشوب الأيديولوجية السائدة بين قادتنا سوف يكون من شأنها أن تؤدى إلى تحقيق تنبؤاتهم ، وبهذا يبررون خططهم العقيمة . ومن السخرية الفذة أن المتحكمين أنفسهم ابتدعوا جهازاً جماعيا لا سبيل فى الواقع إلى التحكم فيه ، فإذا ما بدأ عمله لا يستطيع طراز العقول الذى ابتدعه أن يتحكم فيه . وهم يعزون أنفسهم عن هذا العجز بالفكرة الغريبة القائلة « بأنك لا تستطيع إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء » ولكن هذه الاستعارة التى أسيء اختيارها تكشف عن الخطأ الأساسى ، فمن ذا الذى يثق فى أن تدور بدقة ساعة يتعذر إرجاع عقاربها إلى الوراء ، ساعة لا يتسنى ضبطها إلا لغرض واحد — وهو أن تدور بمزيد من السرعة ؟

وكلما ازداد اتسام منظماتنا بالطابع التلقائى ، ازدادت الحاجة إلى نظام للضبط ، وهذا النظام على غرار نظام الساعة ، يجب أن يضبط وفقا لمقياس أساسى خارجى مستقل عن الجهاز ، وهو فى حالة الساعة عبارة عن دوران الأرض ، وفى حالة المنظمات الإنسانية ، طبيعة الإنسان بأكملها ، وليس مجرد ذلك الجزء منها الذى سحرته الوسائل الميكانيكية وأصبح خاضعا لاحتياجاتها هى . وكذلك الشأن فيما يتعلق بالمدن ، فإنه لتصحيح وجوه النقص فى مدنيتنا التى تجاوزت المدى فى استخدام الوسائل الميكانيكية ، يتعين علينا أن نقيم نظاما للتحكم متعدد المراكز ، مع النهوض بمستوى الأخلاق والإدراك واحترام النفس إلى حد يمكننا من وقف العمليات الأوتوماتية — الميكانيكية والبيروقراطية والتنظيمية — عند أى نقطة تتعرض فيها الحياة البشرية للخطر ، أو يكون فيها الإنسان مهددا بضياع القيم وضياع حقه فى الاختيار .

٩ — مصير المدينة العظمى

عند ما نتتبع نمو حضارة المدن العظمى حتى نهايته ، نصل إلى مجموعة كاملة من العمليات الختامية ، وإنه لمن السذاجة الاعتقاد بأنه من المتوقع بأى وجه من الوجوه أن تستمر هذه العمليات باقية إلى ما لا نهاية ، فإن حياة خالية من أى معنى أو قيمة أو غرض ، فيما عدا المحافظة على استمرار حركة التنفس وحشو المعدة ، لهى حياة لا تفضل إلا قليلا الحياة فى رئة حديدية ، وهى الحياة التى لا تطاق إلا لأن المريض لا يزال يراوده الأمل فى الشفاء والنجاة .

والنظام القائم فى الحواضر ينذر الآن بأن يبلغ ذروته فى حرب بلا معنى ، حرب إبادة شاملة ، غرضها الوحيد تفريج ضروب القلق والمخاوف الناشئة عما أثقلت به القلاع نفسها على نطاق واسع من أسلحة الإفناء والإبادة ، وعلى ذلك فإن السلطة المطلقة قد أصبحت فى الواقع عدمية مطلقة . فإن الإفراط فى إتقان الوسائل العلمية والتكنولوجية دون أن تهذبها قيم الإنسانية وأهدافها ، قد فرض على بلاد مثل الولايات المتحدة وروسيا أن تنصرف إلى توفير أجهزة جماعية للدمار ، يبلغ من عتوها أنه لا يمكن تعديلها أو التحكم فيها بغير تدميرها تدميراً كاملا . وحتى ما لدى الحيوان من ذكاء فطرى يظل عاطلا فى هذا النظام ، فإن الارتباط بالوسائل الميكانيكية يقضى على جميع ما يصون الحياة بما فى ذلك القانون القديم — قانون صيانة النفس . ففى سبيل سرعة الانتقال ، تقوم نحن فى الولايات المتحدة كل عام بقتل ٤٠٫٠٠٠ نسمة على الفور ، وبإصابة مئات الألوف من غيرهم بعاهات خطيرة . وفى سبيل التمتع بالسيادة الذرية المطلقة ، فإن زعماءنا مستعدون فى صفاقة للتضحية بما يتراوح بين خمسين وخمسة وسبعين مليونا من مواطنيهم أنفسهم فى اليوم الأول لحرب ذرية شاملة ، وللتشويه

الجنس البشرى أو حتى القضاء عليه ، وهو ما يحتمل أن تنتهى إليه مثل هذه الحرب . ومع ذلك فإنه تستخدم لتغطية هذه المشروعات الجنونية عبارة مضللة وهى « الأمن القومى » أو حتى عبارة أكثر منافاة للعقل وهى « البقاء القومى » .

وبعد فإنه فى كل كائن حى تحدث على وجه مستديم عمليات تكون الأنسجة وتحللها ، أى عمليات البناء والهدم . ولا تعتمد الحياة والنمو على انعدام الظروف السلبية ، بل على درجة كافية من التوازن ، وقدر واف من فيض الطاقة البناءة ، بما يتيح استمرار إصلاح العطب ، واستيعاب ضروب التجديد ، وتنظيم المقادير ، وإنشاء صلات الأخذ والعطاء مع جميع الكائنات والمجتمعات الأخرى ، وهى الصلات التى يحتاج إليها الاحتفاظ بالتوازن . وقد كان من المحتمل أن تهيئ العوامل السلبية فى حياة الحواضر الظروف الملائمة للوصول إلى درجة أرقى من التقدم لو أن ظروف التوسع ذاتها لم تكسبها السيطرة ، ولم تتجه نحو جعل هذه السيطرة دائمة فى عمليات تزداد على الدوام إمعانا فى التخريب .

وعند كتابة « حضارة المدن » فى أواسط ثلاثينيات هذا القرن ، كانت العوامل الخارجية التى تهدد مدنية الحواضر واضحة بجلاء ، وقد بلغ من وضوحها أنى عند تلك المرحلة من التجليل ، بسطتها فى قالب « تخطيط موجز للجحيم » . ولقد حاولت حينئذ أن أزيد الصورة وضوحا بتقديم ملخص لتفسير باتريك جيديس لدورة النمو الحضرى ، من قرية (eopolis) إلى مدينة عظمى (megalopolis) ومدينة للمقابر (necropolis) . ولقد اشتملت هذه الدورة على وصف مجرى حياة جميع الحواضر التاريخية ، بما فى ذلك تلك التى بعثت من جديد من أطلالها وقبورها : وحتى عند ما نشر الكتاب فى سنة ١٩٣٨ ، بدا هذا التصوير للأوضاع فى نظر أكثر من ناقد واحد أنه متطرف فى التشاؤم ، بل إنه منحرف فى تطرفه وسقيم فى بعده

عن الواقع : وكان الكثيرون على يقين إذ ذاك من أنه لم تكن تهدد العالم الغربي مخاطر أسوأ من البطالة المزمنة ، وفوق كل شيء كانوا على ثقة من أن الحرب والتدمير الشامل للمدن أمران جد بعيدين عن الاحتمال .

وأما اليوم فإنه من بين أجزاء الفصل الذى كتبته أصلا عن الحاضرة يوجد جزء واحد لا تتيسر إعادة نشره إلا بوصفه طرفة تاريخية ، وهو بالضبط هذا « التخطيط الموجز للجحيم » ، وما ذلك إلا لأن جميع تنبؤاته قد أكدت صحتها أدلة وافرة . ومع أنه من الطبيعى ألا يعود يعنينا أمر نبوءة تحققت ، إلا أنى أستعيد ذكرى هذه الواقعة الثابتة لئلا يعمد القارئ إلى نبذ التصوير الحالى لحالتنا التى بلغت حداً يبعث حتى على مزيد من الرعب — لئلا يعمد القارئ إلى نبذ هذا التصوير تحت تأثير ثقة مماثلة بأنه غير واقعى . وأود أن أذكر القارئ بأنه بأسرع مما كان الإنسان يتصور ، ازداد التوتر ووقعت الحرب ونزل التدمير الشامل بوارسو فى سنة ١٩٣٩ ، وبوسط روتردام فى سنة ١٩٤٠ . وفى بحر خمس سنوات ، دمرت مناطق حضرية أوسع نطاقا من ذلك بكثير تدميرا كاملا ، وأبيدت جموع كبيرة من السكان من لندن إلى توكيو ، ومن همبورج إلى هيروشيما . وفضلا عن ملايين الناس — ستة ملايين من اليهود وحدهم — الذين قتلهم الألمان عن طريق الإجاعة والإحراق فى معسكرات الإبادة التى أقاموها فى ضواحى المدن ، فإن مدنا بأكملها حولت إلى معسكرات إبادة على يد الاستراتيجيين الديمقراطيين ممن تجردوا من المبادئ الخلقية ، فالقتل على غير هدى ، والموت إلى غير مدى ، خلعا طابعهما الختامى على الحقائق التى ينطوى عليها توسع المدينة العظمى .

وعلى الرغم من أن الدمار كان واسع المدى ، فإنه لحسن الحظ بقيت رقعات كبيرة سليمة التكوين . وبفضل مجهود ضخم لتجميع الموارد والمساعدات السخية التى قدمها مشروع مارشال (Marshall Plan) للكثير

من البلاد ، أمكن الاضطلاع بنجاح بالعبء العظيم لإعادة بناء المدن وأنظمة النقل . وفى بعض الأحيان ، كان ذلك يتخذ شكل واجب عاطفى قوامه جعل التقليد أساسا لإعادة البناء بحيث يكون « صورة من الماضى » ، كما حدث فى حالة كثير من المدن الألمانية ، وأحيانا أخرى ، كان ذلك يؤدى إلى محاولة جريئة لتخليص طراز عتيق من شوائبه ، كما حدث فى إعادة بناء شربورج . وأحيانا ، كما حدث فى روتردام أو فى كوفنترى ، نراه قد تحول إلى مجهود كبير لإكساب قلب المدينة شكلا جديداً من شأنه أن ينصف – عن طريق أوضاع عصرية بحذافيرها – قيما تقليدية أهملت فى القرن التاسع عشر . وفى بلدين ، وهما إنجلترا والسويد ، بذلت جهود أكبر من ذلك للوصول إلى إيجاد نموذج حضرى جديد من شأنه الابتعاد عن التجمع الآلى فى المدينة الكبيرة وعن توسعها على وجه آلى كذلك . ولقد ثبت بصورة وافية فى حالة « المدن الجديدة » فى إنجلترا ، أن من الميسور عمليا توجيه النمو الحضرى والتحكم فيـــه فى مجتمعات متوازنة مكتفية بذاتها نسبيا .

ومما يلفت النظر أن إعادة تعمير مدن أوروبا على نطاق واسع وعلى مستوى أعلى مما وصلت إليه فى الماضى ثم فى أقل من اثنتى عشرة سنة ، وما حدث من حشد الجهود على منوال يكاد يفوق طاقة البشر ، قد أثبت أن إعادة بناء المدن وتجديدها على نطاق أوسع من ذلك بكثير ، قد يتسنى القيام به فى غضون جيل واحد ، على شريطة أن يكون النظام الاقتصادى موجها نحو الحاجات الإنسانية رأسا ، وألا يكون الشطر الأكبر من الدخل القومى محولا إلى وجوه الإمعان فى التبديد الاستهلاكى وخطط التدمير المدبرة ، مما يتطلبه نظام الحواضر الاقتصادى – ذلك النظام الآخذ فى التوسع – وتتطلبه فوق كل شىء الاستعدادات المتواصلة للإبادة والانتحار الجماعيين .

ولسوء الحظ أنه حالما انتعشت الحياة الاقتصادية وعادت إلى متابعة أهدافها الأصلية ، عادت كذلك إلى الظهور جميع خصائصها المنافية للعقل ، فإنه لكى تستمر هذه الحياة فى سيرها ، يجب أن يستنفد من طاقاتها قدر يتزايد على الدوام فى الاتساع والضخامة . وإن ما فى الخرافة الشائعة — خرافة المدن العظمى — من النواحى المنافية للعقل لم يكشف النقاب عنه على صورة أتم وأوضح مما تجلى فى تطور ما تسمى أسلحة « مطلقة » للإبادة التى لا حد لها بوسائل ذرية وبكتيرية وكيميائية . وإن إنشاء هذه الأسلحة فى « الدول الذرية » قد أكسب « رغبة الموت » مكانة سياسية قومية ثابتة ، وجعل الغاية المثالية لهذه المدنية بأسرها ، تحويل العالم إلى معسكر للإبادة .

وحتى لو اتخذت الأمم التدابير قبل فوات الأوان لتدمير المختزن من أمثال هذه الأسلحة ، فإنه سوف ينقضى وقت طويل قبل أن تتبدد الآثار الخلقية الوبيلة الناجمة عن هذه السياسة ، فإن جناح البالغين على نحو لم يقف عند حد التفكير فحسب ، بل امتد إلى الاعداد الفعلى بكل التفصيلات ، يحتاج إلى اتخاذ تدابير علاجية مضادة قد تقتضى مرور قرن بأكمله قبل أن تظهر لها أى نتيجة إيجابية . وهذا آخر وأسوأ تراث خلفته القلعة لحضارة المدن . اقرأ (« البنتاجون » و « الكرملين ») .

وفى بحر بضع سنين قليلة ، وصلت مدنيتنا إلى النقطة التى تنبأ بها هنرى أدامز (Henry Adams) منذ أكثر من نصف قرن بمقدرة غير عادية على اختراق حجب الغيب ، فقد كتب يقول : « تبعاً لسرعة سير التقدم منذ سنة ١٦٠٠ سوف لا يحتاج الأمر إلى أكثر من قرن أو نصف قرن لكى ينقلب التفكير رأسا على عقب . وفى تلك الحالة سوف يزول القانون بوصفه نظرية لها قواعد ، أو مبدأ يأخذ بترتيب النتائج على الأسباب ، ويخلى مكانه للقوة ، ويصبح زمام الأمور بيد الشرطة ، وتبلغ قوة المتفجرات من الشدة ما يماثل عنف الطبيعة ، كما أن الانحلال سوف يتغلب على

التماسك » . ولقد تحقق كل جزء من هذه النبوءة ، وإنه لمن العبث التأمل فيما يكون عليه مستقبل المدن إذا لم ندخل فى اعتبارنا عوامل الإفناء والإبادة التى تعمل الآن بطريقة تكاد تكون آلية ، وبسرعة يزداد معدلها باطراد على الدوام ، لإحداث انهيار أعم وأوسع اشتمالا .

فمدنية الحاضرة إذن يتجسد فيها التناقض الأساسى الذى وجدناه راسخا من قبل فى مجرى حياة المدينة منذ لحظة إنشائها ، وهى تتولى الوصول به إلى نهايته ، وهو تناقض ناشىء عن الأصل المزدوج للمدينة ، وعن تضارب أهدافها على الدوام . فالمدينة تستمد من القرية طبيعتها : بوصفها بيئة ترعى أبناءها وتكفل لهم أسباب الحياة وتتسم بالاستقرار والأمان ، وتقوم على الصلات المتبادلة بين الإنسان والكائنات والمجتمعات الأخرى . وهى تستمد أيضا من القرية الأساليب والقيم السائدة فى حياة ديمقراطية خالية من تفاوت الطبقات ، حيث يقوم كل فرد بأداء دوره المناسب فى كل مرحلة من مراحل دور الحياة .

ومن الناحية الأخرى فإن المدينة تدين بوجودها ، وإلى حد أكبر بتوسعها ، لمحاولات مركزة لإخضاع أفراد آخرين والسيطرة على البيئة بأسرها عن طريق استخدام القوة الجماعية . وهكذا تحولت المدينة إلى مرفق لجمع السلطة بتدبير من رجال الملك الذين كانوا يتولون جمع الطاقات الموزعة للمجتمعات الصغيرة فى مستودع جبار يقوم بتنظيم الحركة الجماعية لتجمعها وانسيابها ، وبتوجيهها وجهات جديدة — فحينا يخص بعنايته الوحدات الصغرى عن طريق الإحسان إليها بإعادة تشكيل صفحة الأرض ، ولكنه فى النهاية يقذف بجميع طاقاته إلى الخارج فى هجمات مدمرة يسلطها على مدن أخرى . فالإطلاق والاستعباد ، والحرية والقهر ، كانت جميعا موجودة فى حضارة المدن منذ البداية .

ولقد تولدت عن هذا التوتر الداخلى بعض المظاهر الخلاقة التى تعبر عن

الحياة الحضرية ، ولكننا لا نجد السلطة السياسية موزعة على نسق سليم فى المجتمعات الصغيرة كما كانت الحال فى هولندا أو سويسرا فى خلال القرن السابع عشر ، أو المثل العليا للحياة جادة على الدوام فى كبح جماح المظاهر الشاذة للقوة ، لا نجد هاتين الظاهرتين إلا فى حالات متفرقة وبين حين وآخر . ومثل مدنيتنا الحاضرة مثل سيارة ضخمة تنطلق فى طريق ذى اتجاه واحد بسرعة لا تفتأ تزداد باستمرار . ولسوء الحظ أن هذه السيارة بالحالة التى هى عليها فى الوقت الحاضر ، تنقصها عجلة القيادة والضوابط (الفرامل) ، وليس لدى السائق ما يباشره من وجوه التحكم سوى وجه واحد ينحصر فى جعل السيارة تنطلق فى سرعة أكبر ، إلا أنه فى افتتانه بالسيارة ذاتها ، وفى ارتباطه بتحقيق أقصى سرعة ممكنة ، قد نسى تماما الغرض من الرحلة . وهذه الحالة من الاستسلام العاجز للأجهزة الاقتصادية والتكنولوجية التى ابتدعها الرجل الحديث ، تستخفى على وجه غريب فى زى التقدم والحرية ، وسيطرة الإنسان على الطبيعة . ونتيجة لذلك أصبح كل ترخيص إكراهاً سقيما ، فالإنسان الحديث قد قهر كل مخلوق فوق مستوى الفيروس والجراثيم — إلا نفسه .

ولم يسبق إطلاقاً أن كان « للقلعة » مثل هذه السلطة الغاشمة على بقية الجنس البشرى ، فعلى مدى الشطر الأكبر من التاريخ ظلت القرية ونواحى الريف مستودعا دائماً لحياة جديدة . وهى حياة وإن كانت حقا مقيدة بقواعد سلوك الأسلاف التى عاونت على جعل الناس يتسمون بصفات إنسانية ، إلا أنها كانت تتصف فى آن واحد بما فى الإنسان من نواحى النقص وما لديه من إمكانيات . ومهما تكن أخطاء حكام المدينة ووجوه انحرافهم فإنها مع ذلك كان يمكن إصلاحها ، وحتى إذا قضى على جميع سكان بعض المناطق الحضرية ، فإن أكثر من تسعة أعشار الجنس البشرى كانوا يبقون بمنأى عن الهلاك . أما اليوم فقد ولى هذا العامل من

عوامل الأمان ؛ إذ أن انفجار الحواضر سيحمل ما فيها من سموم فكرية وكيمائية إلى كل ناحية من نواحي الأرض ، وقد لا يتسنى إصلاح العطب النهائي .

وإنى لأعيد القول بأن هذه الاحتمالات النهائية لم تظهر للعيان لأول مرة عند استعمال الأسلحة الذرية ، فقد كانت واضحة أمام ذوى العقول اليقظة النيرة مثل بوركارت (Burckhardt) فى ستينيات القرن التاسع عشر ، ومثل هنرى أدامز فى أوائل القرن الحالى .

وهنرى چيمس ، الذى كان معاصراً لأدامز ، قد صور الموقف الإنسانى على نحو ما زال يطابق الواقع إلى اليوم على وجه غريب ، وهو صورة الأسرة السعيدة والمكنة الجهنمية ، فقال : « إن المكنة قد تغلغلت جذورها إلى مدى يتعذر معه اقتلاعها ، والأسرة ما زالت سادرة عن خطر ما يتهددها من النسف فى أثناء مضيها فى مباشرة شئون الأسرة من شراء وبيع ، ومن لغو ورقص » . وقد كانت المكنة التى يشير إليها چيمس هى الجهاز السياسى فى فيلادلفيا ، وكان إذ ذاك الصورة النموذجية المجسمة للفساد والإجرام ، ولكن ما من أحد سوى مراقب سليم الطوية إلى حد بعيد يمكن أن يعجز عن إدراك أن تلك الصورة تنطبق على أجهزة أخرى فاسدة فى مدنية حواضرنا الآخذة فى الاتساع . وإن ما كانت فى وقت ما مظاهر محلية للإجرام ومنافاة العقل ، أصبحت الآن تهدد كوكبنا بأسره ، مقنعة بزهو وخيلاء فى ثوب مشروعات تجارية سديدة ، أو تقدم تكنولوجى ، أو كفاية شيوعية ، أو براعة سياسية ديمقراطية . فلا عجب أن الوجوديين المعروفين — وهم يمثلون عصرنا — يرون أن « الحقيقة » صنو « السخافة » . وأن شطرا كبيرا من أعمال التصوير والنحت فى الجيل الماضى ، ليتنبأ رمزياً بنتائج الكارثة النهائية التى تنشأ عن هذه الحضارة الموجهة نحو الموت ، وذلك بتقديم صورة للبتر وتقطيع الأوصال والتجريد من الصفات الإنسانية على نحو شامل فى فراغ خال من الحياة والمعالم . وبعض الأعمال الممتازة

التى أنتجها هذا الفن – مثل الأشكال العتيقة التى رسمها هنرى مور (Henry Moore) على هيئة أشخاص رؤوسهم كرؤوس الدبابيس – تتنبأ ببداية جديدة على مستوى يبلغ من بدائيته أن العقل يكاد لا يكون قد بدأ يعمل بعد .

وبعد ، فلو أن الصورة فى جملتها كانت تبلغ من البشاعة الحد الذى رسمته فى هذا الفصل ، لما كان هناك مسوغ لكتابة هذا الكتاب ، أو على الأصح ، لكان عملا منافيا للعقل كالكثير من الأعمال الأخرى العقيمة والمنافية للعقل التى أشرت إليها . وإذا كنت قد قمت بما ينبغى من إبراز ما فى مرحلة الحواضر الكبرى من ألوان الانحلال ، فإن ذلك لم يكن إلا لسبب واحد – وهو أن أولئك الذين يلمون بها ستتوافر لهم وحدهم القدرة على توجيه طاقاتنا الجماعية نحو عمليات أكثر اتساما بالروح البناءة . فلم يكن أبناء القرن الخامس للميلاد من الرومان المتعصبين ، الذين ظلوا يفاخرون بما قامت به روما من جلائل الأعمال ، ويتطلعون إلى القيام بمثلها على مدى ألف سنة أخرى ، لم يكن هؤلاء ليدركوا ما كان الموقف يتطلبه ، بل على النقيض من ذلك ، فإن أولئك الذين نبذوا الأسس الرومانية وأنشأوا حياتهم على أساس جديد ، هم الذين أقاموا صرح مدنية جديدة تفوقت فى النهاية على أعظم ما قامت به روما ، حتى فى مجال الهندسة ونظام الحكم .

وهكذا الشأن اليوم ، فإن أولئك الذين يعملون فى غمار خرافة الحاضرة الكبرى ، ويعتبرون ما فيها من أورام سرطانية مظاهر عادية للنمو ، سوف يعمدون إلى الاستمرار فى استخدام «الكمادات» والمراهم ، ورقى الإعلانات ، وسحر العلاقات العامة ، وتدجيل ألوان العلاج الميكانيكى ، إلى أن يقضى المريض نحبه أمام عيونهم العاجزة ، وإن قدرا ليس بالقليل من ضروب إصلاح المدن وتحسين حالتها ، التى كانت تجرى فى خلال مائة السنة الأخيرة ،

ولم تكن أقل من ذلك شأنا ، تلك التى جرت خلال الجيل الأخير — من هدم المنازل الفقيرة ، وإقامة مساكن نموذجية ، وإدخال ألوان من التجميل المعمارى ، وتوسع فى إنشاء الضواحى ، « وتجديد حضرى » — لم يؤد إلا إلى الاستمرار ، تحت أشكال جديدة فى ظاهرها ، فى عين التجميع بلا هدف ، وعين التفكيك العضوى ، وهو ما كان قد حفز إلى تلمس العلاج .

إلا أنه فى وسط كل هذا التصدع ، ظهرت مراكز جديدة للنمو ، بل أكثر من ذلك دلالة ، أنه بدأ يظهر فى الوجود نموذج جديد للحياة . ومن البديهى أن هذا النموذج يقوم على أساس يختلف اختلافا جوهريا عن الأسس التى أخذ بها بناة القلعة القديمة ، أو تلك التى اعتمد عليها مناظروهم المحدثون ، بناة الصواريخ والمبيدات الذرية . فإذا استطعنا أن نتبين الخطوط الرئيسية لهذا النظام الواسع الأفق والموجه نحو الحياة ، فإنه يكون فى وسعنا أيضاً أن نصف طبيعة ووظائف المدينة الآخذة فى الظهور ، وكذلك النموذج المقبل لاستقرار الإنسان . وفوق كل شىء يجب أن نسبق ما سوف يجرى فى الفصل التالى فى مسرحية الحياة على شريطة أن ينجو الجنس البشرى من شرك الموت الذى نصبه له ارتباطنا الأعمى بنوع من التكنولوجيا مختل التوازن ، هدفه القوة ، وعمله مضاد لطبيعة الحياة .

١٠ — دور المدينة العالمية فى الحضارة

بعد مواجهة أسوأ الاحتمالات أصبحنا فى النهاية فى موقف يسمح لنا بإدراك الوظيفة الإيجابية للحاضرة التاريخية لا بوصفها مركزاً لنظام قومى أو استعمارى ، بل من حيث ما هو أجل شأنا من ذلك بكثير ، وهو الدور الذى يمكن أن تؤديه بوصفها مركزاً عالميا . وهى إذ تسير على غير هدى لأداء هذا الدور الأساسى الذى لم يتحقق أدواه إلى الآن ، قد حاولت أن تحقق ، بمجرد القيام بتكديس قوى ووظائف ومنظمات ، ما لا سبيل إلى تحقيقه إلا بإعادة التنظيم من أساسه .

والدوافع الواعية التى أفضت إلى تركيز مثل هذا القدر الكبير من القوة فى بضعة مراكز عظمى ، لا تكفى لتعليل ما لهذه المراكز من قوة جاذبية هائلة ، أو ما لها من تأثير فى حضارة هذا العصر ؛ والحقيقة هى أن ما فى الحاضرة من تضخم وازدحام ، له فى الواقع مسوغ أبعد غورا ، ولو أنه لم يتكشف على وجه تام ، وذلك أنها مركز لتلك الضروب من النشاط التى تقوم لأول مرة بجمع كل قبائل وشعوب الجنس البشرى فى مجال مشترك من التعاون والتأثير المتبادل . وما قاله هنرى جيمس عن لندن يمكن أن يقال كذلك عن منافساتها الكبرى ، وهو أنها « أكبر تجمع فى حياة البشر ، وأكمل صورة مجملة للعالم ، فالجنس البشرى ممثل هناك على وجه أفضل منه فى أى مكان آخر » . ورسالتها الجديدة هى أن تنقل إلى أصغر الوحدات الحضرية موارد الحضارة التى تؤدى إلى وحدة العالم وقيام التعاون بين أرجائه .

وعلى ذلك فإن ذات الصفات التى كانت تجعل الحاضرة تبدو على الدوام فى مظهر غريب وعدائى معاً فى نظر أهل المناطق الداخلية ، هى جزء أساسى من وظيفة المدينة الكبرى ، فقد جمعت معاً ، فى داخل نطاق ضيق نسبياً ، ما فى الحضارات من تنوع وتباين ، فهنا يتسنى أن توجد ، بمقادير رمزية على الأقل ، جميع الأجناس والحضارات مصحوبة بلغاتها ، وعاداتها ، وأزيائها ، وطرق الطهى الخاصة بها ، وهنا التقى ممثلو الجنس البشرى وجهاً لوجه لأول مرة على أرض محايدة . فما فى الحاضرة من تعقيد وحضارة جامعة ، يتمثل فيه ما فى العالم بأسره من تعقيد وتنوع . فقد كانت العواصم الكبرى ، على غير وعى منها ، تقوم بإعداد الجنس البشرى لما هو أوسع نطاقاً من ضروب الترابط والتوحد ، التى جعلها ما تم حديثاً من قهر الزمن والفضاء ، محتملة الوقوع إن لم تكن محتومة .

وهنا نجد أيضاً السبب الجوهرى لإنشاء المتحف وهو أكبر منظمات الحاضرة دلالة عليها ، فهو علَم على حياتها المثالية ، شأنه فى ذلك شأن

الجيمنازيوم فى المدينة الهيلينية أو المستشفى فى مدينة العصور الوسطى . وقد نشأ المتحف نتيجة لذات الاحتياجات التى اقتضاها نمو الحاضرة إلى حد بالغ التطرف .

ولم يكن ثمة مفر من أن تنتقل إلى المتحف كثير من الخصائص السلبية التى اتسمت بها الحاضرة ، مثل ولعها بالاقتناء على غير هدى ، وميلها إلى الإفراط فى التوسع وإلى سوء النظام ، وعادتها فى قياس نجاحها بعدد الذين يلجون أبوابها . وكثيراً جداً ما يحدث أن يستعاض بالحجم المادى عن التنظيم الوافى بالغرض — كما هى الحال فى سوق العمل — وأن يخلط بين التوسع الميكانيكى وبين أهميته . إلا أن المتحف فى شكله المعقول لا يقتصر على أنه مثيل مادى لدار الكتب ، بل إنه يقوم أيضاً — عن طريق نماذج وأمثلة منتقاة — بمهمة وسيلة للإحاطة بأحوال عالم من شأن ضخامة اتساعه وتعقده أن يعز على قدرة الإنسان الإحاطة بها بغير تلك الوسيلة . والمتحف على هذا النحو المعقول ، بوصفه أداة للاختيار ، يؤدى لحضارة المدن خدمة لا غنى عنها ، وعندما نصل إلى بحث إعادة تكوين المدن تكويناً عضوياً ، سوف نرى أنه ستكون للمتحف مهمة جديدة فى النظام الإقليمى لا تقل عن مهمة دار الكتب ، والمستشفى ، والجامعة . وفى المعارض المتنقلة والأقسام الفرعية ، شرعت كثير من المتاحف فعلا تخطى بعض ما فيها من نواحى النقص الأصلية الممثلة فى التكدس والتضخم .

بيد أنه إذا كانت المدينة الكبيرة صاحبة الفضل الأكبر فى ابتداع المتحف ونشر فكرته ، فإن ثمة ناحية تكون إحدى المهام الرئيسية للمدينة فيها قيامها بدور المتحف ، وذلك أن المدينة التاريخية بحكم وضعها الطبيعى ، وبسبب اتساعها وماضيها الطويل ، تحتفظ بمجموعة من النماذج الحضارية أوسع نطاقاً وأكثر تنوعاً مما يتسنى وجوده فى أى مكان آخر . فكل نوع من وظائف الإنسان ، وكل تجربة من تجارب الترابط ، وكل عملية

تكنولوجية ، وكل أسلوب للعمارة والتخطيط ، يمكن العثور عليه فى مكان ما فى داخل نطاقها المزدحم .

فهذه الضخامة ، هذه المقدرة على الاحتفاظ ، هى إحدى القيم العظمى التى تتوافر للمدينة الكبيرة . فاتساع مدى التجارب الإنسانية فى الحاضرة الدينامية التى لا تزال تحتفظ بعنفوانها ، يناظره مدى كثافة سكانها وعمق محتوياتها ، وقدرتها على تسهيل الوصول إلى طبقة بعد أخرى من تاريخ البشر وقصة حياتهم ، وليس ذلك عن طريق سجلاتها وآثارها الخاصة بها فحسب ، بل عن طريق مناطق بعيدة تمكنها مواردها الخاصة من الإفادة منها . وإن مدنية تبلغ من التعقيد وتعدد النواحى ما تبلغه مدنيتنا لهى فى حاجة إلى منظمة حضرية وطيدة من هذا القبيل ، تكون قادرة على اجتذاب ملايين عديدة من المخلوقات البشرية ، والاحتفاظ بهم متعاونين تعاوناً وثيقاً ، ليتسنى لها المضى فى القيام بكل وجوه نشاطها . ولكن الناحية التى تهئ للمدينة المقدرة على الإحاطة والإدماج من الوجهة الحضارية ، تجعلها عن طريق ذات مقتضيات التكثيف والتخزين ، وسيلة للاستيعاب والاختيار . ولو أن جميع عناصر حضارتنا كانت متفرقة إلى مدى يجاوز الحد ، وكان ما يتصل بها من الحقائق والمخلفات يتعذر جمعه فى مكان واحد ، وتصنيفه ، وإعداده لإعادة توزيعه ، لما تسنى أن يكون لها إلا جزء يسير من الأثر الذى تحدثه .

وإذا كانت المدينة الكبيرة أفضل جهاز للتذكر استطاع الإنسان أن يبتدعه إلى الآن ، فإنها أيضاً — إلى أن تصبح مكدسة ومختلة النظام إلى حد الإفراط — أفضل وسيلة للتمييز ومقارنة القيم بعضها ببعض ، وليس ذلك لمجرد أنها تعرض مثل هذا القدر الكبير من موضوعات الاختيار ، بل لأنها كذلك تكوّن عقولا واسعة الأفق ، قادرة على معالجتها . نعم إن الإدماج وكثرة العدد كثيراً ما يكونان ضروريين ، ولكن كثرة العدد لا تكفى ،

فإن فلورنسا وهى تضم نحو أربعمائة ألف نسمة ، تؤدى من وظائف الحاضرة أكثر مما تؤديه كثير من المدن الأخرى التى تضم عشرة أمثال ذلك العدد . وإحدى المشكلات الرئيسية التى تواجه حضارة المدن اليوم ، هى زيادة مقدرة الوعاء على الاستيعاب دون جعل التركيب المادى يتحول إلى كتلة ضخمة متماسكة تقضى على نفسها بنفسها . وإنه لمن المحال تجديد قرارة قلب الحاضرة دون الإقدام على تغيير أوسع مدى بكثير ، على مستوى إقليمى ، وارتباط الأقاليم بعضها ببعض .

١١ — المدينة الخفية

وثمة ناحية أخرى فى إعادة التنظيم على هذا الوجه لكيان الحاضرة المعقد ، وهى ناحية تتصل بتجريد المنظمات القائمة من صفتها المادية أى بأثيريتها ، ونعنى الناحية التى سبق أن كانت إلى حد ما سبباً فى إيجاد المدينة الخفية ، وهى فى ذاتها صورة للإعراب عن أن العالم الجديد الذى شرعنا نعيش فيه ليس مفتوحاً من ناحية السطح فحسب ، إلى مدى يتجاوز بكثير الأفق البادى أمام العيون ، بل إنه مفتوح أيضاً من الناحية الداخلية ، حيث تخترقه أشعة وانبعاثات غير منظورة استجابة لمؤثرات وقوى تستعصى رؤيتها على السبيل العادى للمشاهدة :

وكثير من الوظائف الأصلية للمدينة — وكانت أصلا احتكارات طبيعية تتطلب الوجود المادى لجميع العناصر المشتركة فيها — قد تحولت الآن إلى أوضاع يمكن نقلها بسرعة ، واستنساخها بالوسائل الميكانيكية ، وإرسالها إليكترونيا ، وتوزيعها فى جميع أرجاء الأرض . فإذا كان يتسنى لقرية نائية أن تشاهد عين الصور المتحركة أو تستمع إلى عين برنامج الإذاعة أسوة بأعظم المراكز ضخامة ، فإنه لم يعد لأحد حاجة إلى الإقامة فى ذلك المركز أو إلى زيارته من أجل المشاركة فى ذلك النوع المعين من النشاط .

وبدلا من ذلك يجب العمل على إيجاد صلة متبادلة بين أصغر الوحدات وأكبرها ، بحيث تكون هذه الصلة قائمة على قيام كل منها بالوظيفة التى تنفرد بالصلاحية لها ، وإذ ذاك تصبح المدينة الظاهرة للعين ، المكان الذى لا غنى عنه لتجمع تلك الوظائف التى تؤدى على خير وجه عند تراكبها أو انتظام بعضها بالقرب من بعض ، أى تكون مكاناً تعقد فيه الاجتماعات ، وتجرى المقابلات ، وتقع المنازعات ، على نحو ما يحدث بين الشخصيات ، فتعزز شبكة الأعمال الهائلة غير المشخصة التى تنتشر الآن فيما حولها وتعيدها من جديد إلى المقاييس الإنسانية .

وليسمح لى بأن أبدأ تناولى أكثر علاقات المدينة الخفية تجرداً بضرب مثل يوضح العلاقة الجديدة بجلاء ، وهو مثل صغير ولكنه دقيق . وذلك أن الكثير من الأمثلة الرائعة المبكرة للتصوير على الجدران توجد متناثرة فى جميع أرجاء فرنسا ، وكثيراً ما توجد فى قرى وأديرة نائية ، وطبقاً لنظام الحواضر القديم ، كان مآل الكثير من هذه الصور أن تنقل — وكان يترتب على ذلك إصابتها بالتلف فى أحيان كثيرة — من موقعها الأصلى وتوضع فى متحف بباريس . وكان من شأن هذا العمل أن يخلف فجوة فاغرة فى المكان الأصلى ، وأن يحرم الأهالى ملكية أشياء لها قيمتها من الوجهتين المحلية والاقتصادية ، دون أن ينشأ عن وجودها فى باريس أى أثر للمعنى الحقيقى لوجودها فى موقعها الأصلى . أما اليوم فقد تم تنفيذ برنامج أفضل من ذلك ، إذ أنه جمع متحف الصور الحائطية بقصر شايو (Palais de Chaillot) عدد كبير من النماذج الرائعة المنقولة عن تلك الصور . وفى فترة ما بعد الظهر من يوم واحد يستطيع المرء أن يرى صوراً أكثر مما يتسنى له أن يراها دون إجهاد فى خلال رحلة تستغرق أسبوعين . وخدمة لمن يريدون إلماماً أوفى بالصور الأصلية فى مواقعها ، وضعت بيانات للتعريف بالصور ومواقعها ، وبذلك أصبح الوصول إليها أيسر منالا دون أن تفصل سقفها عن مكانها الأصلى والغرض الذى عملت من أجله .

وهذه هى الخطوة الأولى نحو أَثْيَرَةٍ أعم وأشمل ، ولما كانت لوحات فانوس العرض الملونة قد أصبحت الآن ميسورة ، فإنه يتسنى المضى فى العملية إلى مدى أبعد ؛ إذ أن متحف أو دار كتب أى مدينة صغيرة تستطيع اقتراض لوحات مجموعة أكبر عدداً من صور الحيطان ، والقيام بعرضها . فقد ولى عهد الاحتكار المحلى البدائى عن طريق العزلة ، وولى عهد احتكار الحاضرة عن طريق الغصب والاستغلال . وسوف يحتذى هذا المثل فى عشرات من ضروب النشاط الأخرى ؛ إذ أن الرسالة المثالية للمدينة هى العمل على توسيع نطاق هذه العملية الخاصة بنشر الحضارة وإذاعتها ، وسوف يكون من أثر ذلك أن يعود إلى كثير من المراكز الحضرية الثانوية فى الوقت الحاضر ، عدد من مختلف ألوان النشاط التى سلبت منها فى وقت ما واحتكرتها المدن الكبرى وحدها .

وهذا الإيضاح له فائدة بالغة القيمة نظراً إلى أن فكرة قيام المتحف بمهمة دليل يرشد إلى الموارد الإقليمية ، أكثر منه بمهمة بديل عنها ، ظهرت تلقائياً ، ويكاد يكون من المحقق أنها لم تكن وليدة أى تفكير فى إيجاد نظام مثالى للتعاون فيما بين المدن . وفى مجال الصناعة والأعمال التجارية ، ظهرت فى خلال الجيل الأخير قرائن كثيرة على أن عمليات مماثلة تأخذ مجراها فى سبيل توسيع ونشر ، وإلى حد ما توزيع وظائف كانت إلى الآن مركزة تركيزاً شديداً فى بضعة مراكز . وذلك أن سلسلة من المصارف المالية . والأسواق ، والمخازن التجارية الكبيرة ، والفنادق ، ووحدات المصانع ، قد وضع نظامها على أساس انتشارها فى جميع أنحاء البلاد ، وعلى الرغم من أن الغرض من هذا الانتشار هو — كما جرت العادة على نحو أكثر مما ينبغى — إنشاء احتكارات مالية وضمان أرباح لا يمكن مزاحمتها ، وأحياناً لمجرد إفساح المجال لأنانية شرهة ، فإن طريقة التنظيم ، وبخاصة فى مناطق الحواضر ، تدل على أن العملية تسير وفقاً للنظام الذى تسير عليه كثير من ألوان

النشاط الأخرى . ومن شأن الوسائل التقنية ، التى طورت لكى تحقق التحكم الشامل ، أن تكون صالحة كذلك لنظام اقتصادى يكفل وجود نشاط أكثر استقلالا فى داخل الوحدة الصغيرة ، وقيام نظام متبادل ذى شقين ، للاتصال والتوجيه .

فلم يكن من قبيل المصادفة إذن أن الوظائف القديمة للوعاء الحضرى قد أضيفت إليها وظائف جديدة تؤدى عن طريق ما سوف أسميه الشبكة الوظيفية (functional grid) — وهى إطار المدينة الخفية . وعلى مثال الوعاء القديم ، فإن الشبكة الجديدة فى جميع أوضاعها ، الصناعية والحضارية والحضرية ، يمكن إحسان استعمالها وإساءته على السواء ، ولكن ما له دلالة أكبر من ذلك هو أن هذا الوضع قد ظهر فى عديد من الأماكن المختلفة كاستجابة طبيعية لحاجات الوقت الحاضر . فالصورة الجديدة للمدينة يجب أن تعبر إلى حد ما عن هذه الحقائق الجديدة . وعلى هذا الأساس نجد أن كلا من الحاضرة القديمة والتجمع الحضرى الجديد قد أخفق إلى حد يبعث على الأسف ، لأنهما اتجها نحو محو العناصر الأساسية التى تتكون منها المدينة بدلا من العمل على إدماجها فيها .

وفى الناحية التكنولوجية ، يوجد لدينا فى أنظمة القوى المحركة والمواصلات ، مثلان من أكمل الأمثلة لهذه الشبكة الجديدة ، ويتجلى ذلك بوجه خاص فى مركم القوى الكهربية ، فإن نظاماً مركزياً لتوليد القوى تكون له قدرة محدودة جداً على الامتداد ؛ إذ أنه عند تجاوز نقطة معينة لا يقتصر الأمر على أن تكون الكميات التى تفقد عن طريق النقل كميات باهظة ، بل إن عطلا فى المحطة المركزية أو عطباً محلياً فى أسلاك النقل ، قد تنشأ عنه مصاعب كبيرة فى كل مكان . وأما مركم القوى الكهربية ، فإنه على النقيض من ذلك ، يكون على الأصح عبارة عن شبكة من محطات

القوى ، بعضها كبير ، وبعضها صغير ، بعضها يدور بقوة الماء ، وبعضها بالفحم ، وهذه المحطات موزعة فى أرجاء منطقة كبيرة كثيراً ما تبلغ مساحتها آلاف الأميال المربعة . وإذا كان لا يتسنى لبعض هذه المحطات بمفردها أن تقوم بأكثر من تغذية المنطقة التى توجد فيها ، فإن قدرة بعضها الآخر أوسع مدى من ذلك :

وتتمتع كل وحدة فى هذا النظام بقدر معين من الاكتفاء الذاتى والتوجيه الذاتى يكفى لمواجهة الظروف العادية ، ولكنها لما كانت جميعاً متصلة ببعضها بعضاً فإنه تتألف من الوحدات شبكة كاملة يتسنى لأجزائها ، على الرغم من أنها مستقلة نسبياً ، أن تعمل عند الحاجة كمجموعة وتعوض ما يوجد من نقص فى أى منطقة معينة . وإذا نشأت الحاجة فى أى نقطة من نقط الشبكة ، فإنه يمكن الاعتماد على الشبكة فى مجموعها لسد تلك الحاجة . وعلى الرغم من أن الكل تحت تصرف الجزء ، فإن المنتفع المحلى هو الذى يحدد متى يستخدم ومدى ما يؤخذ منه . وما من محطة مركزية لتوليد القوى ، مهما تكن كبيرة ، يمكن أن يتوافر لها من الكفاية أو المرونة أو الضمان ما يتوافر فى الشبكة الكاملة ، كما أنها لا تستطيع أن تزداد فى النمو إلا باتباع نسق الشبكة .

وهذا النسق ليس نسقاً تكنولوجياً بحتاً ، فإن له نظيراً فى مجال الثقافة ، وبخاصة فى نظام الاستعارة الذى تتبعه دار الكتب القومية فى إنجلترا . فإذا كان المستعير من دار فرعية للكتب فى مدينة صغيرة لا يجد هناك الكتاب الذى يحتاج إليه ، فإن فى وسعه أن يقدم طلباً يرسل إلى دار الكتب المركزية الإقليمية القائمة فى المدينة الرئيسية بالمقاطعة ، ولدى هذه الدار قائمة بجميع دور الكتب المتعاونة فى الإقليم ، والتى يمكن الاستعانة بها فى حالة عدم وجود الكتاب فى دار الكتب المركزية الإقليمية . وإذا أخفقت هذه الوسيلة ، فإن الطلب يرسل إلى المركز القومى الذى يهيمن على جميع موارد دور الكتب المتعاونة :

وعلى ذلك فإنه دون أن توجد فى متناول اليد دار كتب محلية كبيرة ، فإن أى وحدة بمفردها فى هذا النظام ، تجد تحت تصرفها عند الحاجة مجموعة من الكتب الأوفر عدداً بكثير مما تستطيع حتى أكبر المدن أن تقدمه للمستعيرين المحليين . وبفضل ما لدينا الآن من وسائل لعمل الفهارس والاستنساخ والنقل السريع ، فإنه يمكن أن يتسنى لقرية ريفية الحصول على تسهيلات للدراسة والبحث لا يتسنى إلا لعدد قليل من الحواضر أن يفاخر بمثلها — على الأقل — إذا كانت الأمم تبدى من السخاء نحو ميزانيات دور الكتب نصف ما تبديه الآن نحو المعدات الحربية .

ولنلق بالا إلى النهج الجديد فى كلا المثلين ، فإن الموارد الكبيرة لم تعد تتوقف على التكدس الطوبوغرافى أو على التحكم المركزى الخانق ، ففى كلتا حالتى مركم القوى الكهربية ونظام الاستعارة من دور الكتب ، تصبح أقصى التسهيلات فى متناول اليد ، لا عن طريق تكديسها معا ، بل عن طريق الربط بينها فى نظام يمكن من يستخدمه بمفرده — ما دام يفعل ذلك عن طريق وحدة معدة لهذا الغرض فى المنطقة المحلية — أن يفيد مما يريده من الموارد طبقا لما تدعو إليه الحاجة . وهذا الشرط الأخير له أهمية جديرة بالملاحظة ، فإن مثل هذه التسهيلات ليس من الميسور اقتصاديا تدبيرها ، لو أن الفرد حاول بمجهوده وحده أن يسد حاجاته عن طريق التعامل عن بعد مع المركز الرئيسى ، فإن النظام بأكمله لا يمكن أن يؤدى عمله بكفاية إلا عن طريق الانتشار والاتصال : ولمثل هذه الشبكات مزية أخرى ، وهى أنها لا تهيئ لوحدات ذات أحجام مختلفة أن تستفيد فحسب ، بل أن تفيد المجموع بما لها من مزايا تنفرد بها ، وعلى ذلك فإن داراً صغيرة للكتب تحتوى على مجموعة نفيسة من المخطوطات ، لا حاجة بها إلى التنازل عنها للمنظمة الأكبر منها لكى تتحقق من استخدامها على وجه ملائم ، أى إنه يتسنى لها أن تكون جزءا من المجموع ذا أثر فعال ، فتبدى مطالب ،

وتنقل رغبات ، وتؤثر فى قرارات ، دون أن تبتلعها المنظمة الأكبر حجما . وهذا الوضع يعيد إلى كل إقليم استقلاله الذاتى الملائم دون أن يعوق – بل إنه فى الحقيقة يشجع – العمليات العامة .

وههنا نموذج للكوكبة الحضرية الجديدة ، يوفر لها القدرة على الاحتفاظ بمزايا الوحدات الصغيرة ، مع التمتع بالمجال الواسع النطاق لنظام الحواضر ؛ ففى عالم محكم النظام لن توجد حدود مادية أو ثقافية أو سياسية لمثل هذا النظام التعاونى ، فإن من شأنه أن يخترق الحواجز الجغرافية والحدود القومية بمثل السهولة التى تخترق بها الأشعة السينية المواد الصلبة . وإذا توافر لمثل هذا النظام حتى ما يتوافر حاليا من أسباب التيسير لنقل الصور برقيا وكذلك للنقل السريع فإنه يتسنى له مع مرور الزمن أن يشمل الكرة الأرضية بأسرها . ومتى تحررت التقنيات من الاستعدادات الباهظة التكاليف التى تجرى على نطاق واسع من أجل إبادة الناس ، وهو ما يستحوذ الآن على تفكير الدول والامبراطوريات الكبرى ، أو تخلصت من الاتجاه البغيض نحو إنتاج سلع للبيع يعمد فى الغالب إلى أن تصبح عتيقة الطراز قبل الأوان وتعود بربح عاجل ، فإنه يتسنى وجود تسهيلات وفيرة لإحكام مثل هذه الوشائج الواسعة النطاق بين الحضارات ، وسوف تكون الأداة الرئيسية هى المدينة الإقليمية الجديدة ، فى صورتيها الظاهرة والخفية .

وإن هذا ليشير إلى طريقة لتوفير طيبات المدينة وتوزيعها ، وهى طريقة أكثر أصالة من الطرق المتبعة فى الحاضرة التاريخية أو فى التجمع الحضرى الذى ظهر فى العصر الحاضر . وإن ما فى المدينة من وجوه القصور الأصلية التى فرضت عليها فى وقت ما بموجب احتكارها للمواصلات والتحكم السياسى ، لا يمكن التغلب عليه بمجرد زيادة الأعداد ، أو بمجرد التوسع فى الطرق والمبانى . فما من سبيل لتحسين حال المدينة تحسينا جوهريا بغير إعادة تنظيم عملياتها ووظائفها وأهدافها ، وبغير إعادة توزيع سكانها فى

وحدات تكفل التعامل مع بعضها بعضا على أساس أن تعطى بقدر ما تأخذ ، وقيام علاقات ودية وثيقة فيما بينها ، وخضوع الحاجات المحلية لإشراف محلى . والشبكة الكهربية ، وليس وعاء العصر الحجرى ، هى التى تمدنا بالصورة الجديدة للمدينة الخفية والعمليات العديدة التى تؤديها وتعين عليها . والتحول المترتب على هذا التطور لن يقتصر على نموذج المدينة ذاتها ، بل سيشمل كل هيئة ، ومنظمة ، وجمعية تتألف منها المدينة . فالجامعات ودور الكتب والمتاحف الكبرى ، إذا كانت تملك المقدرة على تجديد نفسها ، فإنها قد تتولى زمام القياد فى هذا الابتكار الجوهرى ، على غرار ما فعله أسلافها فى إنشاء المدينة القديمة .

وإذا كنت قد وفقت فى تفسير الحقائق على الوجه الصحيح ، فإنه فى متناول يدنا كل المواد اللازمة لبناء نظام حضرى جديد ، ولكن الاحتمال كبير بأن الأنظمة السياسية القائمة سوف تستمر فى إساءة استخدام هذه المواد والانحراف بها عن السبيل السوى . وما زال المستقبل ينذر بالشر من جراء التوسع الجسيم فيما لدينا حاليا من الوسائل الميكانيكية الاليكترونية دون إحداث أى تغيير فى هدفها الاجتماعى ، أو القيام بأى محاولة نحو تحويل إنتاجها إلى ما هو أسمى إعرابا عن الترابط الإنسانى . وإنه لمن الواضح أن بلاداً مثل روسيا السوفيتية — فى مناعة من الوجهة النظرية إزاء ما فى المشروعات الرأسمالية المعاصرة من ألوان المغريات وضروب الفساد المألوفة — عرضة للتأثر بعين المغريات — وإن توارت خلف أقنعة من الفضائل — لتشجيع المضى فى دعم سيادة البيروقراطية والسلطة المركزية على حساب الروابط الإنسانية الحرة والتطور الذاتى المستقل .

بيد أن الأمل الرئيسى المرتقب من وراء هذا النظام الجديد قد أعرب عنه إيمرسون منذ قرن مضى حيث لاحظ أنه « بتأثير مدنيتنا وتأثير هذه الآراء تتحول الأرض إلى مخ . انظر إليها كيف تتحول إلى مخلوق بشرى

بتأثير التلغراف والبخار » . ولقد قام تيلهارد دوشاردان (Teilhard de Chardin) فى عصرنا الحاضر ببسط هذه الفكرة من عندياته ، إلا أنه لم يدرك الطبيعة الغامضة لمثل هذا الأمل المرتقب ولم ير ضرورة العمل على تفادى هذه الأخطار الجديدة .

إن مدنيتنا تواجه حركة توسع وتضخم بلا هوادة ولا انقطاع من جانب نظام اجتماعى بالغ التركيز ، يفتقر إلى مراكز مستقلة فى وسعها مزاولة الاختيار ، وممارسة التحكم ، وفوق كل شيء القيام باتخاذ قرارات مستقلة ، والتجاوب مع الأحداث . والحل الشافى لهذه المشكلة الكامنة فى صميم حضارة مدننا فى المستقبل ، يتوقف على تكوين مفهوم للدنيا يكون أكثر مطابقة لطبيعة الأشياء ، بحيث لا يغمط حق الكائنات الحية والشخصيات البشرية ، صغيرها وكبيرها . ومنذ زمن طويل يدأب على العمل المفكرون الذين سوف يؤدون نحو هذا المفهوم الجوهرى والإنسانى ما أداه جاليليو وبيكون وديكارت نحو مفاهيمنا للعلم والتكنولوجيا ؛ تلك المفاهيم التى أصبحت اليوم غير وافية بالغرض بل فات أوانها إلى درجة تنذر بالخطر . بيد أن الأمر قد يحتاج إلى قرن آخر أو قرنين من الزمان قبل أن يتسنى لجهود المفكرين أن تؤتى ثمارها ، فتخلع آلهتنا ، القابضة على زمام تصرفاتنا ، عن عروشها ، وتعيد إلى عالمنا صور الحياة وقواها وأهدافها .

الفصل الثامن عشر

نظرة إلى الخلف ونظرة إلى الأمام

حينما كانت المدينة القديمة فى دور التكوين ، جمعت بين كثير من الأجهزة المتفرقة فى الحياة العادية ، وعاونت فى داخل أسوارها على تبادل التفاعل فيما بينها وعلى اندماجها معا . وكانت الوظائف العامة التى تؤديها المدينة ذات أهمية ، بيد أن الأهداف العامة التى ظهرت نتيجة لزيادة سرعة أساليب الاتصال والتعاون كانت أكثر أهمية ، واتخذت المدينة وضعا وسطا بين النظام الكونى الذى كشف عنه الكهنة الفلكيون وجهود النظام الملكى للتوحيد . وقد استقر الوضع الأول فى داخل المعبد وحرمه المقدس ، واستقر الوضع الثانى فى داخل القلعة والأسوار المحيطة بالمدينة . وبفضل إثارة مطامع بشرية ظلت خامدة إلى ذلك الحين ، وجمعها معاً فى نواة رئيسية سياسية ودينية ، استطاعت المدينة مغالبة وفرة النسل الهائلة التى اتسمت بها حضارة العصر الحجرى الحديث .

وعن طريق النظام الذى استقر على هذا الوضع ، تيسر حمل طوائف كبيرة من الناس على التعاون الفعال لأول مرة ، إذ أنه بالانتظام فى جماعات منظمة للعمل ، تتولى توجيهها قيادة مركزية ، قام السكان الحضريون الأصليون ، فى بلاد ما بين النهرين ومصر ووادى السند ، بالتحكم فى الفيضان ، واصلاح أضرار العواصف ، وتخزين المياه ، وإعادة تنسيق صفحة الأرض ، وإنشاء شبكة عظيمة من القنوات المائية للمواصلات والنقل ، وملء المستودعات الحضرية بما توافر من الطاقات البشرية لاستخدامها فى مشروعات أخرى جماعية ، ومع مرور الزمن ، أوجد حكام المدينة وضعا داخليا يوفر النظام والعدالة مما هيأ للخليط الذى تألف

منه سكان المدن ، عن طريق الجهود الواعية ، قدراً مما فى القرية من الخلق المكين والمعونة المتبادلة ، فكانت تمثل على مسرح المدينة ألوان جديدة من مسرحيات الحياة .

بيد أنه يجب أن نضع إلى جانب هذه التحسينات النواحى القائمة التى أسفرت عنها حضارة المدن ، ونعنى الحرب ، والاستعباد ، والإفراط فى التخصص المهنى ، وفى أماكن كثيرة ، الدأب على الاتجاه نحو الموت . فهذه الأنظمة وهذه الوجوه من النشاط التى تألفت منها « حالة تكافل سلبى » (negative symbiosis) قد صاحبت المدينة فى خلال معظم أطوار تاريخها ، وما زالت إلى اليوم — إذ تتسم بطابع الوحشية مع تجردها من صبغتها الدينية الأصلية — أعظم خطر يتهدد المزيد من التقدم الإنسانى . وكلتا الناحيتين ، الإيجابية والسلبية ، فى المدينة القديمة قد انتقلتا بقدر ما إلى كل تكوين حضرى جاء بعدها .

وعن طريق تركيز القوة المادية والحضارية ، زادت المدينة سرعة الاختلاط بين الناس ، وحولت منتجاتها إلى أوضاع يمكن اختزانها ومحاكاتها ، كما أن المدينة استطاعت ، عن طريق آثارها وسجلاتها المدونة وعاداتها المنظمة للتلاقى والتآخى ، أن توسع آفاق جميع وجوه النشاط الإنسانى وتبسط مداها الزمنى تجاه الماضى وتجاه المستقبل . وبفضل توافر وسائل الاختزان (من مبان ، وأقبية ، ومحفوظات ، وآثار ، وألواح ، وكتب) أصبحت المدينة قادرة على نقل حضارة معقدة التركيب من جيل إلى جيل ؛ إذ أنها لم تقتصر على أن تنسق معاً الوسائل المادية فحسب ، بل جميع الوسائل البشرية اللازمة لنقل هذا التراث وتنميته . ولقد ظلت هذه الهبة أثمن هبات المدينة . وأجهزتنا الاليكترونية البارعة لاختزان المعلومات ونقلها تبدو فجة محدودة النطاق بالقياس إلى نظام المدينة القائم على أساس بشرى معقد .

وشكل المدينة الذى انبثق من الوحدة المتكاملة الأصلية ، وحدة المعبد والقلعة ، والقرية ، و « الورشة » ، والسوق ، قد استمدت منه إلى درجة ما أشكال المدينة التى ظهرت فيما بعد ، من حيث تكوينها المادى وطرق تنظيمها . وما زالت لأجزاء كثيرة من أجزاء هذا الكيان ضرورة جوهرية فى التعاون الإنسانى الفعال ؛ وليس أقلها شأناً ما انبثق أصلا من المعبد والقرية . فبدون المشاركة الايجابية للجماعة الأولى ، فى الأسرة وفى منطقة الجوار ، يشك فيما إذا كان يتسنى نقل آداب السلوك الأولية — احترام الجار وإجلال الحياة — من الشيوخ إلى الشباب دون زلات تتسم بالوحشية .

ويشك أيضا من الناحية الأخرى ، فيما إذا كانت هذه الضروب العديدة من التعاون التى لا تصلح للإعراب عنها فى صورة معنوية أو رمزية ، يتسنى لها أن تستمر فى الازدهار بدون وجود المدينة ، وذلك لأنه لا يمكن تسجيل سوى جزء ضئيل مما تشتمل عليه الحياة . ولن يكون نصيب جانب كبير جداً من الحياة سوى التسجيل إذا لم تنضد وجوه عديدة مختلفة من وجوه النشاط الإنسانى — تشتمل مستويات عدة من التجارب — فى داخل منطقة حضرية محدودة ، حيث يمكن الإفادة منها على الدوام . وكلما اتسع مجال الاتصال ، وازداد عدد المشاركين فيه ، ازدادت الحاجة إلى تدبير مراكز دائمة عديدة يسهل غشيانها من أجل الاتصال وجها لوجه ، وتعدد اجتماعات الناس من مختلف الطبقات .

وطبقاً لذلك فإن استعادة القيم ووجوه النشاط الأساسية التى توافرت لأول مرة فى المدن القديمة — وقبل كل شىء فى مدن الإغريق — هو شرط أولى لحصول المدينة على مزيد من التقدم فى عصرنا الحاضر . فإن ما لدينا من الوسائل الميكانيكية البالغة الدقة والإتقان ، لا يمكن أن تغنى عن التخاطب بين الناس ، والتمثيل ، وجماعة الزملاء والخلان النابضة بالحياة ، أى صحبة الأصدقاء . فهذه هى العناصر التى تعين على استمرار نمو الحضارة الإنسانية

وتوالدها ، وبدونها يصبح كل تكوين المدينة الدقيق بلا معنى – بل يصبح في الواقع مناهضا لأغراض الحياة مناهضة فعالة .

ولقد تغيرت اليوم الأبعاد المادية والمجال الإنسانى للمدينة ، ولذلك فإن أغلب الوظائف والمنظمات الجوهرية فى المدينة يجب أن يعاد تشكيلها لكى تقوم على وجه فعال بخدمة الأغراض الكبرى التى يجب تحقيقها ، وهى توحيد حياة الفرد الداخلية والخارجية ، والعمل تدريجا على توحيد صفوف الجنس البشرى ذاته . وإن الدور الإيجابى الذى يجب أن تؤديه المدينة فى المستقبل ، هو أن تصل بتنوع وفردية المناطق والحضارات والأشخاص إلى أقصى ذروة من التقدم . وهذه الأهداف يكمل بعضها بعضا ، وليس ثمة بديل عنها سوى ما هو سائد بفعل الآلات من سحق صفحة الأرض ، وشخصية الإنسان . وبدون المدينة ، لن تكون لدى الإنسان الحديث وسائل فعالة لتدرأ عنه هذه الوسائل الميكانيكية الجماعية التى تقف على أهبة الاستعداد ، حتى منذ الآن ، لجعل جميع الوجوه الحقيقية للحياة الإنسانية تغدو زائدة على الحاجة إلا فيما يتعلق بأداء بعض وظائف ثانوية لم تصل الآلة بعد إلى إتقان القيام بها .

وإن عصرنا الحاضر لهو عصر حل فيه التوسع الحضرى وعمليات الإنتاج التى تزداد تحولا إلى عمليات أوتوماتية ، مكان الأهداف الإنسانية المفروض أنها تقوم على خدمتها . وقد أصبحت مقادير الإنتاج هى الهدف الوحيد الذى لا مندوحة عنه فى نظر أبناء العصر الحاضر الذين تسيطر على عقولهم فكرة الضخامة ، فهم يقدرون الكم دون الكيف . وفى مجال الطاقة الطبيعية ، والإنتاج الصناعى ، والاختراع ، والمعرفة ، وعدد السكان ، تسود عين الأساليب الجوفاء ، أساليب التوسع والانتشار . وكلما ازدادت هذه الوجوه من النشاط فى حجمها وسرعتها ، ازدادت على التوالى إمعانا فى الابتعاد عن أية أهداف إنسانية مرغوب فيها . ونتيجة لذلك أصبح النوع الإنسانى مهدداً

بغوائل ضروب من الفيضانات أشد هولا بكثير مما تعلم الانسان الغابر كيف يكافحها . فلكي ينقذ نفسه ، يجب أن يحول عنايته نحو الوسائل التي يستطيع بها أن يتحكم ويوجه وينظم ويخضع لوظائفه البيولوجية وأغراضه الحضارية ، القوى الهوجاء التي من شأنها بحكم وفرتها البالغة أن تهدم حياته . فيجب عليه أن يكبحها ، بل أن يزيلها بتاتا ما دامت ، كما هو الشأن فى حالة الأسلحة النووية والبكتيرية ، تهدد وجوده بالذات .

وليس الأمر اليوم أمر وادى أحد الأنهار هو الذى يجب إخضاعه لتحكم الانسان ، بل أمر الكرة الأرضية بأسرها ، وليس الموضوع موضوع فيضان الماء على نحو لا يمكن السيطرة عليه ، بل هو موضوع أكثر إثارة للرعب وأشد فتكا ، موضوع انفجارات الطاقة التى قد تقوض كل أركان نظام الصلات الطبيعية المتبادلة بين الكائنات الحية وبيئتها ، وهو النظام الذى تتوقف عليه حياة الإنسان نفسه ورفاهيته . وأول ما يحتاج إليه عصرنا هو ابتكار سبل لتصريف الطاقات المفرطة وألوان الحيوية الدافقة التى شذت عن الحدود والقواعد الأساسية . والتحكم فى فيضان الحضارة فى كل ميدان يتطلب إقامة جسور وسدود وخزانات لموازنة مستوى انسياب التيار وتوزيعه فى الأوعية النهائية — وهى المدن ، والأقاليم والجماعات ، والأسر ، والأشخاص — التى سوف تستطيع استخدام هذه الطاقة من أجل نموها وتقدمها . ولو كنا على استعداد لكى نعيد إلى الأرض صلاحيتها للإقامة فيها ونقوم بغرس النواحى المقفرة فى نفوس البشر ، لوجب علينا ألا نشغل أنفسنا إلى هذا الحد بمشروعات عقيمة — هربا من مواجهة الحقائق — لارتياد الفضاء الواقع بين الكواكب ، أو بما هو أكثر إمعانا فى التجرد من الروح الانسانية من الخطط القائمة على سياسة الابادة الجماعية الشاملة : ألا لقد حان الوقت للعودة إلى الحقائق ومواجهة الحياة فى جميع مظاهرها الجوهرية — خصبها وتنوعها وقدرتها الخلاقة — بدلا من الهرب إلى عالم إنسان ما بعد التاريخ بأبعاده المنكمشة .

ولسوء الحظ أنه ما زال على الانسان الحديث أن يقضى على ألوان الانحراف الخطيرة التى اتخذت وضع الأنظمة فى مدن العصر البرونزى ووجهت أجل أعمالنا نحو غاية مدمرة ، فعلى غرار حكم العصر البرونزى ، ما زلنا نعتبر القوة المظهر الأكبر للألوهية ، أو إذا لم يكن الأمر كذلك ، نعتبرها الوسيلة الرئيسية لتقدم الانسان . ولكن « القوة المطلقة » شأنها شأن « الأسلحة المطلقة » ، من حيث الانتماء إلى عين نظام السحر الدينى بوصفها طقوسا تتطلب تقديم الضحايا البشرية ، ومثل هذه القوة تقضى على التعاون المتكافل بين الانسان وجميع مظاهر الطبيعة الأخرى ، وبين الناس بعضهم بعضا . ولا تستطيع الكائنات الحية أن تستخدم إلا قدراً محدوداً من الطاقة ، فزيادة هذا القدر « فوق ما ينبغى » ، وكذلك قلته « دون ما ينبغى » يؤدى كلاهما على السواء إلى هلاك الكيان العضوى . وما الكائنات الحية ، والجمعيات ، وأفراد البشر ، والمدن – على نحو لا يقل شأنا عن ذلك – إلا وسائل دقيقة لتنظيم الطاقة وتسخيرها لخدمة أغراض الحياة .

والمهمة الرئيسية للمدينة هى تحويل القوة إلى نظام ، والطاقة إلى حضارة ، والمادة الجامدة إلى رموز حية للفن ، والتكاثر البيولوجى إلى قدرة اجتماعية خلاقة . ولا يتسنى للمدينة أن تؤدى وظائفها الإيجابية بدون إنشاء أنظمة جديدة تستطيع أن تتولى أمر الطاقات العظيمة المدى التى يسيطر عليها الآن الإنسان الحديث ، أنظمة تبلغ من الجرأة ما بلغته تلك التى أدت أصلا إلى تحويل القرية التى تجاوزت الحد فى نموها ومعها حصنها ، إلى المدينة ذات النواة المركزية والنظام البالغ الدقة .

وربما كان يتعذر تصور هذه التغييرات الضرورية لو أن الأنظمة السلبية التى صحبت ظهور المدينة لم تكن سائرة فى طريق الاضمحلال فى خلال القرون الأربعة الأخيرة ، وبدت إلى عهد قريب على وشك الانحدار إلى زوايا

النسيان . فنظام الحكم الملكى بموجب الحق الإلهى قد زال تقريبا ، حتى كفكرة ، دور الاحتضار ، والوظائف السياسية ، التى كان ينفرد بمباشرتها القصر والمعبد مع الاستعانة بوسائل القهر على يد الجيش وطبقة الموظفين ، تولاها فى خلال القرن التاسع عشر عدد كبير من المنظمات والهيئات ، والأحزاب ، والجمعيات ، واللجان . وكذلك تحققت أيضاً إلى حد كبير الشروط التى وضعها أرسطو لإلغاء تشغيل الأرقاء ، وذلك نتيجة لتسخير موارد غير عضوية للطاقة وابتكار أجهزة ومرافق أوتوماتية . ومن ثم فقد أخذ يخلف الرق ، والعمل الإجبارى ، ونزع الملكية بمقتضى القانون ، والاحتكار الطبقى للمعرفة — أخذ يخلف كل ذلك ، العمل الحر ، والضمان الاجتماعى ، وانتشار معرفة القراءة والكتابة ، والتعليم المجانى ، وفتح أبواب المعرفة أمام من يشاء ، وبدء تعميم أوقات الفراغ من حيث المدى اللازم للمشاركة الواسعة فى أداء الواجبات السياسية . وإذا كانت جموع كبيرة من الناس فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ما زالت تعيش فى ظروف بدائية وفقر محزن ، فإن الاستعمار الغاشم الذى ساد فى القرن التاسع عشر زف إلى هذه الشعوب الآراء التى من شأنها أن تفضى بهم إلى التحرر ، فإن سهم النور قد اخترق « حجب الظلام » ، منذ عهد ليفينجستون (Livingstone) ومن تلاه إلى شفايتزر (Schweitzer) .

وجملة القول أن الظروف الجائرة التى كانت تحد من تقدم المدن فى جميع مراحل التاريخ ، بدأت فى الزوال ، فالممتلكات ، والطبقات الوراثية ، وحتى التخصص المهنى ، فقدت أغلب ما فيها من صفات الرسوخ والاستقرار — عن طريق ضريبة الدخل التصاعدية ، والانقلاب فى النظم الإدارية للأعمال . فما لاحظه أليكسيس دو توكفيل (Alexis de Tocqueville) منذ قرن من الزمان أكثر انطباقاً على الحالة اليوم منه فى أى وقت مضى حيث قال : « إن تاريخ الثمانمائة السنة الأخيرة ما هو إلا تاريخ تحقيق المساواة تدريجاً بين

الطبقات » . وهذا التغير ينطبق على حالتى النظامين الرأسمالى والشيوعى على السواء ، بصورة من المحتمل أنها كانت تصدم كارل ماركس ولكنها ما كانت لتدهش جون ستيوارت ميل ، فقد تنبأ هذا الأخير بظروف الاندفاع الدينامى نحو التوازن ، التى قد يتسنى فى كنفها أخيراً تحويل تقدم اقتصاديات المكنات إلى ما فيه فائدة إيجابية للإنسان . وعلى ذلك فإنه حتى الأمس القريب ، كان يبدو أن حالة التكافل السلبى التى صحبت ظهور المدينة مقضى عليها بالزوال ، فكان واجب المدينة الآخذة فى الظهور أن تهيئ وضعاً مثالياً لهذه الظروف الأفضل جوهرياً .

ولسوء الحظ أن أنظمة الشر التى صحبت ظهور المدينة بعثت من جديد وتضخمت فى عصرنا الحاضر ، ولهذا فإن المآل النهائى يستوجب الشك . فقد عاد إلى الظهور حكام ينفردون بالسلطة ، ويرفعون فى بعض الأحيان إلى مرتبة الألوهية ، كما حدث فى حالة هتلر ، أو يحنطون بعد الموت على غرار الفراعنة ، ليكونوا موضع العبادة ، كما حدث فى حالة لينين وستالين . وأساليبهم فى القهر والإرهاب تتجاوز أبشع ما سجله التاريخ عن الحكام الأقدمين ، بل إن ما كان يحدث فى العهود السحيقة من الإبادة الشاملة لأهالى مدن بأكملها ، قد مارسه القادة المنتخبون فى دول ديمقراطية ، فهم يمتلكون سلطة التدمير فوراً التى كانت وقفاً على الآلهة فيما مضى . وفى كل مكان قضت السرية على النقد الفعال والإشراف الديمقراطى ، ونشأ عن التحرر من العمل اليدوى نوع جديد من الاستعباد ، وهو الاعتماد الذليل على الآلة ، فكل آلهة العالم القديم المرعبة عادت إلى الظهور مضخمة تضخماً هائلا وتطالب بالتضحية الشاملة بالجنس البشرى . ولتهدئة سورة إله النقمة الأكبر ، المستوى على عرشه فى المعابد النووية ، تقف شعوب بأكملها مستعدة فى تخاذل واستكانة للالقاء بفلذات أكبادها فى أتونه المستعر .

وإذا استمرت هذه النزعات المفسدة للأخلاق ، فإن العوامل الماضية

فى عملها الآن سوف تثبت أنه لا سبيل إلى التحكم فيها ، وأنها مفضية إلى الهلاك ؛ وذلك لأن القوى التى يسيطر عليها الإنسان الآن ما لم تُحرر من القيود القديمة التى كانت تربطها بالقلعة ، وتوجه نحو غايات إنسانية ، لا بد من أن تفضى فى النهاية إلى الانتقال مما يغشاها حاليا من جنون الشك والكراهية إلى جنون التدمير . ومن الناحية الأخرى ، إذا كانت الأنظمة الأساسية السلبية فى المدينة تستمر فى الانهيار — أى إنه إذا كانت التشنجات التى تعترى الآن الحكومات المستبدة تدل حقيقة على أن النظام القديم يلفظ أنفاسه الأخيرة — فهل من المحتمل أن تفلت الحرب من عين المصير ؟ لقد كانت الحرب إحدى « الجرائم الوبيلة » التى كانت المدينة تنقلها من قرن إلى قرن ، فتتسبب دائما فى حدوث الخسائر ، ولكن مدى اتساعها لم يبلغ إطلاقا إلى الآن حداً يؤدى إلى القضاء على المدنية ذاتها . وقد انتهت الآن هذه الفترة من التسامح ، فإذا لم تعمل المدنية على استبعاد الاحتمال المطلق لوقوع الحرب فإن ما لدينا من الوسائل النووية كفيل بتدمير المدنية — ومن المحتمل بإبادة النوع الإنسانى . وسيهلك مع سكان المدن ذلك العدد الضخم من سكان القرى الذين كانوا فيما مضى بمثابة موارد تستمد منها الحياة .

أما إذا حدث من الناحية الأخرى أن تكتلت معا جميع قوى الحياة لتشد أزر بعضها بعضاً ، فإننا سوف نقف على أبواب تجمع حضرى جديد . ويروى لنا كاتب مصرى قديم ، أنه عندما أنشئت المدن كانت رسالة منشئها « وضع الآلهة فى هياكلها » . ومهمة المدينة المقبلة لا تختلف عن ذلك اختلافا جوهريا ، فإن رسالتها هى جعل أجل الشئون التى تهم الإنسان محور جميع ضروب نشاطه ، وتوحيد شخصية الإنسان ، التى تناثرت أشلاؤها ، بتحويل الأفراد الذين حرموا بعض صفاتهم بطريقة صناعية — كالبيروقراطيين ، والمتخصصين ، و« الخبراء » ، والعملاء الذين اختلت شخصيتهم — إلى مخلوقات إنسانية مستكملة الصفات ، وكذلك بإصلاح

الأضرار التى نجمت عن الفصل بين المهن ، وعن التفرقة الاجتماعية ، وعن فرط العناية بوظيفة أوثرت بمكانة خاصة ، وعن النزعات القبلية والقومية ، وعن انعدام ألوان المشاركة الفعالة والأهداف المثالية .

وقبل أن يتسنى للإنسان الحديث التوصل إلى السيطرة على القوى التى تهدد الآن وجوده ذاته ، يجب أن يستعيد سيطرته على نفسه . وهذا يجعل الرسالة الرئيسية لمدينة المستقبل إنشاء نظام اجتماعى محسوس للأقاليم والمدن ، بحيث يتيح للإنسان أن يستشعر الانسجام مع ما يدور فى قرارة نفسه وما يدور فى العالم من حوله ، ويكون وثيق الصلة بالصور التى تغذى مشاعر الإنسانية والمحبة .

وطبقاً لذلك يجب الآن ألا نتصور المدينة ، على أساس أنها قبل كل شئ مركز للأعمال أو الحكومة ، بل على أنها جهاز أساسى للاعراب عن الشخصية الجديدة للإنسان وتحقيقها — ونعنى بها شخصية « إنسان العالم الواحد » ، فإنه لا يمكن الإبقاء بعد الآن على الحواجز القديمة التى كانت تفصل بين الإنسان والطبيعة ، بين ابن المدينة وابن الريف ، بين الإغريقى والمتبربر ، بين المواطن والأجنبى ، لأنه بفضل المواصلات أخذت الكرة الأرضية بأسرها تتحول إلى قرية . ونتيجة لذلك فإن أصغر وحدة للجوار أو أصغر خطة يجب أن يوضع تخطيطها على أنها نموذج يمكن اتباعه فى العالم الأكبر . وما يجب أن يتمثل اليوم فى المدينة بصورة مجسدة ، ليست الإرادة الفردية لحاكم مؤله ، بل الإرادة الفردية والجماعية لمواطنيها الذين ينشدون معرفة كنه أنفسهم وحكم أنفسهم وتحقيق أنفسهم . وسوف يكون محور نشاطهم التعليم وليس الصناعة ، وسوف يتوقف نصيب كل عملية وكل وظيفة من التقدير والاستحسان على قدر ما تفيد به التقدم الإنسانى ، على حين أن المدينة ذاتها سوف تهيئ مجالا نشيطاً للمقابلات التلقائية ، ولما فى الحياة اليومية من أطوار التحدى والنضال .

ويبدو أن ما فى المدنية الحالية من قصور ذاتى ما زال ماضياً نحو كارثة نووية تشمل العالم بأسره ، وحتى إذا تأجل وقوع هذا الحادث المشئوم ، فإنه قد ينقضى قرن أو يزيد قبل أن يزول احتمال وقوعه . وفى اللحظة الأخيرة — وقد يكون جيلنا فى الواقع قريباً من اللحظة الأخيرة — قد تتغلب الأهداف والمشروعات التى من شأنها إنقاذ ما لدينا حالياً من قوة دافعة بلا هدف . وعندما يحدث ذلك فسوف تتلاشى العقبات التى يبدو الآن أنه لا سبيل إلى التغلب عليها ، كما أن المقادير الضخمة من المال والنشاط ، والجهود الضخمة ، العلمية والتقنية ، التى تبذل الآن فى صنع القنابل النووية ، وصواريخ الفضاء ، وتدبير مائة وسيلة أخرى ماكرة تتصل من قريب أو من بعيد بأهداف مجردة من الروح الإنسانية والقيم الخلقية ، سوف تنطلق جميعاً لإعادة تحسين أحوال العالم ، وإعادة إنشاء المدن ، وفوق كل شىء لتزويد شخصية الإنسان بما يستكمل جوانب النقص فيها ، واليوم الذى تتبدد فيه الأحلام العقيمة والتصورات السادية المفزعة التى تسيطر على مخيلة الطبقة الحاكمة الممتازة ، سوف تنطلق القوى الحيوية للإنسان على نحو يجعل حركة النهضة الأوروبية تبدو وكأنها ولدت ميتة .

وإنه لمن الحماقة التنبؤ بالوقت أو الطريقة التى يحتمل أن يتم بها هذا التغيير إلا أنه قد يكون أكثر مجافاة للواقع استبعاد ذلك كأمر محتمل الوقوع ، بل ربما على وشك الوقوع ؛ بالرغم من أن خرافة الممكنات ما زالت تسيطر على العالم الغربى . ولحسن الحظ أنه منذ زمن طويل يجرى الاستعداد للتحول من نظام اقتصادى غايته القوة إلى نظام اقتصادى غايته الحياة ، ومتى تغير اتجاه الأفكار والأهداف الأساسية ، فإن ما لا بد منه من التغيرات السياسية والمادية قد تتبع ذلك على عجل . وإذ ذاك سوف نجد أن كثيراً من القوى الموجهة الآن نحو الموت قد وجهت نحو الحياة .

وعند مناقشة الثبات الواضح فى معدل نسبة المواليد على نحو ما تجلى فى

أرجاء عالم المدنية الغربية قبل سنة ١٩٤٠ ، لاحظ إذ ذاك مؤلف كتاب « حضارة المدن » أنه « يتسنى للمرء أن يتصور بسهولة ظهور عقيدة جديدة لحياة الأسرة حين يواجه الناس كارثة مروعة تتطلب التعجيل بإعادة النظر فى مشروعات الإسكان وتطور المدن . وقد يحدث تعارض فى الخطط بين حافز نبيل يدفع نحو التناسل ، وبين الآراء الداعية إلى التبصر حرصاً على الاحتفاظ بتوازن لم يتحقق إلا بشق الأنفس » .

وفى نظر كثير من الباحثين الاجتماعيين المحترفين ، الذين خلبت ألبابهم المنحنيات الرقيقة التى تتجلى فى رسومهم البيانية لأعداد السكان ، كان ذلك الاحتمال يبدو قبل الحرب العالمية الثانية بعيد التحقيق ، بل لا يمكن تصوره مطلقاً فى الواقع . ولكن رد فعل مثل هذا قد حدث فعلا على وجه تلقائى بعد قيام الحرب بفترة وجيزة ، وظل مستمراً فى خلال عشرين السنة الأخيرة على الرغم مما صدر عن « الخبراء » من تنبؤات عديدة تناقض ذلك . وكثير من الناس ، الذين كان ينبغى أن يؤرقهم التفكير فى أمر فناء الجنس البشرى بتأثير الانفجارات النووية ، أخفوا عن أنفسهم هذا الاحتمال الرهيب بالإفراط فى إبداء القلق حول « تفجر السكان » — دون أن يخامرهم أدنى شك ، على ما يظهر ، فى احتمال وجود صلة فى الواقع بين خطر فرط تناقص السكان وخطر فرط زيادة السكان .

وأما فيما يتعلق بالموقف اليوم ، فإن هذه العودة إلى زيادة التناسل قد تفسر إلى حد ما بأنها رد غريزى عميق القرار على موت عشرات الملايين من الناس قبل الأوان فى جميع أرجاء الأرض . ولكن يحتمل أكثر من ذلك أن تكون بمثابة رد فعل لا شعورى مبعثه احتمال حدوث ثورة مهلكة من الإبادة النووية للجنس البشرى على نطاق يشمل الأرض بأسرها . وفى هذه الحالة فإن كل طفل جديد يكون بمثابة صوت يائس أعمى يعرب عن الرغبة فى البقاء . وكأن الناس الذين يجدون أنفسهم عاجزين عن تسجيل

احتجاج سياسى ذى أثر فعال ضد سياسة الإبادة يعمدون إلى الاحتجاج عن طريق القيام بعمل بيولوجى . وفى البلاد التى تنعدم فيها معونة الدولة ، كثيراً ما يؤثر الآباء الشبان قبول لون من الحرمان القاسى من حاجيات الحياة ومن أوقات الفراغ ، على قبول الحرمان من الحياة بالكف عن إنجاب الأولاد . فإن رد الفعل التلقائى الذى يحدث فى كل نوع مهدد بالهلاك ، يتجلى على هيئة الإفراط فى التناسل ، وهذه هى إحدى المشاهدات الأساسية المستمدة من دراسة عادات الكائنات الحية والصلات الطبيعية القائمة فيما بينها وبين البيئة التى تعيش فيها .

وما من نظام اقتصادى غايته الربح ورائده اللهو يستطيع أن يواجه مثل هذه المطالب ، وما من نظام اقتصادى تسيطر عليه القوة يتسنى له أن يكبتها على الدوام . وإذا امتد عين هذا الاتجاه إلى أجهزة التعليم والفنون والحضارة ، وهى أرقى ما لدى الإنسان من الوسائل البيولوجية للتوالد ، فإن من شأن ذلك أن يغير وجه مستقبل البشرية على إطلاقه ، وذلك لأن الصالح العام سوف تكون له الأسبقية على الصالح الخاص ، وتصبح الأموال العامة موفورة لبناء وإعادة بناء القرى ، والإحياء ، والمدن ، والأقاليم على نمط من السخاء أعظم مما كان فى مقدور الطبقات الأرستقراطية أن تقوم به لنفسها فى الماضى . وإنه لمن شأن مثل هذا التغيير أن يعيد نظام الحديقة وبهجتها إلى كل ناحية من نواحى الحياة ، وقد يكون ، بفضل اهتمامه بنوع الحياة وصفتها ، أبعد أثراً من أى تدبير جماعى آخر لإيجاد التوازن فى معدل نسبة المواليد .

ولقد رأينا أنه طرأت على المدينة تغيرات عديدة خلال خمسة الآلاف من السنين الأخيرة ، ولا شك فى أنه ما زال مخبأ لها مزيد من التغيير . ولكن الابتكارات التى تدعو إليها الحاجة الملحة لا صلة لها باستكمال وتوسيع نطاق المعدات المادية ، بل إن الحاجة أقل إلى الإكثار من الوسائل

الأوتوماتيكية الاليكترونية التي من شأنها تبديد ما بقى من أجهزة الحضارة وتحويلها إلى حطام شبه حضرى بلا لون ولا وضع معروف . فالأمر على النقيض من ذلك ؛ إذ أن الإصلاحات الهامة لن تأتى إلا عن طريق استخدام الفن والفكر فى شئون المدينة الرئيسية المتعلقة بالإنسان . مع توجيه عناية جديدة نحو العمليات الكونية والاكلوجية التى تكتنف كل كائن حى . إذ يجب أن نعيد إلى المدينة وظائفها كأم تغذى حياة أبنائها ، وكذلك ضروب نشاطها المستقلة وروابط تكافلها مع غيرها ، وهى التى طال إهمالها أو كبتها . فإن المدينة يجب أن تكون وسيلة لقيام المودة ، وخير نظام للمدن هو ما يقوم على العناية بالناس وتحضيرهم .

ولقد تكونت المدينة فى مبدأ الأمر لتكون موئلا لأحد الآلهة ، أى إنها كانت مكاناً تتمثل فيه قيم خالدة ، وتتكشف آيات القدرة الإلهية ، وإذا كانت الرموز قد تغيرت ، فإن الحقائق الكامنة وراءها قد بقيت . فنحن تعلم اليوم أكثر مما كنا نعلم فى أى وقت مضى ، أن ما فى الحياة من إمكانيات لم يكشف عنها الحجاب ، تبلغ فى مداها حداً يتجاوز بكثير ما وصل إليه العلم المعاصر فيما يشمخ به من رموز جبرية ، وأن هذه الإمكانيات توحى بآمال ساحرة لا ينضب معينها ، آمال فى المزيد من ضروب التغيير فى حالة الإنسان . وبدون ما عاونت المدينة على إذكائه من الآمال الدينية فى المستقبل ، يشك فيما إذا كان قد أمكن تنمية أكثر من جزء ضئيل من ملكات الإنسان التى تهيئه للمعيشة والتعلم ، فالإنسان يشب على غرار آلهته ويرتفع إلى مستوى المبادئ التى وضعوها . وذلك المزيج من الألوهية والقوة والشخصية ، الذى كان سبباً فى ظهور المدينة القديمة إلى الوجود ، يجب أن يوزن من جديد طبقاً لمعايير ايديولوجية عصرنا وحضارته ، ويصب فى قوالب جديدة تلائم المدن والأقاليم والدنيا بأسرها . وللتغلب على القوى

المجردة من الإحساس التى تهدد الآن مدنيتنا من الداخل ، يجب أن نتخطى ضروب الفشل والعوامل السلبية الأصلية التى تعقبت خطى المدينة خلال مراحل تاريخها . وبغير ذلك فإن آلة القوة العقيمة ، التى لا تقيدها حدود مادية ولا أهداف إنسانية ، سوف تعيد تكوين الإنسان على غرار ذات صورتها الشوهاء وتودى بتاريخ الإنسانية إلى نهايته .

والرسالة النهائية للمدينة هى أن تعين على زيادة مشاركة الإنسان الواعية فى العملية الكونية والتاريخية ، فإن المدينة ، بفضل تكوينها المعقد القادر على طول المقاومة والبقاء ، تزيد إلى مدى شاسع من مقدرة الإنسان على تفسير هذه العمليات والقيام فيها بدور إنشائى فعال ، بحيث تتسم كل مرحلة من مراحل المسرحية التى تتولى المدينة إخراجها بأقصى ما يستطاع من نور الوعى ، وقوة الهدف ، ودلائل المحبة . فقد كانت أسمى مهمة للمدينة فى التاريخ ، هى رفع قدر كل جوانب الحياة عن طريق الروابط العاطفية ، والصلات العقلية ، والتفوق التكنولوجى ، وفوق كل شىء التمثيل المسرحى . وما زالت هذه المهمة هى السبب الرئيسى فى استمرار بقاء المدينة .

كشاف تحليلى

الأرقام تشير إلى الصفحات والأرقام المحصورة بين قوسين (   ) تشير إلى اللوحات المصورة

التصميم الأساسي للغلاف : أســـامــــة العـبـد
الإشـــــراف الـفـنـي : حـســـن كــامـــل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة